فِلسطِين
أرض الرسالات الإلهية

هذه ترجمة كتاب

PALESTINE

Terre des messages divins

تأليف المفكر العالمى المسلم

رجــاء جــارودى

ترجمه، وعلق عليه وقدمه وصنع فهارسه

دكتور/ عبد الصبور شاهين

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

رجاء جارودى

فلسطين
أرض الرسالات الإلهية

ترجمة وتعليق وتقديم
دكتور عبد الصبور شاهين

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة



مذكــــرة للقاريء

يتعيّن على القاريء الفاضل ان يلم بالأتي :

اولا : لقد طلبت من السيد الدكتور عبد الصبور شاهين ترجمة الكتاب و لم أطلب منه قط كتابة تعليق أو مقدمة له .

ثانيا : يحق للسيد الدكتور عبد الصبور شاهين عرض آرائه الشخصيــــة غير انه من غير الطبيعي ان يفعل ذلك في كتابي.

لقد صدرت حتى الآن اثنتان و ثمانون ترجمة لمؤلفاتي ، لم تتضمن اي منها تعليقا للمترجم او تعبيرا عن آرائهم الذاتية التي و ان ابديت بدافع الاطراء تغير جذريا الاتجاه العام للكتاب و كذلك روحه.

ثالثا : لقد سعيت الى وحدة البلاد العربية ، بينما يطرح الدكتور شاهيــــن في مقدمته الأولى جدالا و يوجه اتهامات ضد البعض من هذه البلدان.

رابعا : لقد عملت على الفصل جذريا بين " العقيدة اليهودية " التي نحتــــرم و نجل نحن المسلمون انبيائها و بين الصهيونية الناجمة عن القومية و الاستعمار الأوربيين للقرن التاسع عشر. بينما يتجـــه الدكتور شاهين في تحديده " لليهودي الأبدي" في اتجاه العنصرية.

خامسا : يتعين على القاريء ان يعرف انني روجيه جارودي ، مؤلف الكتاب متبريء كلية من المقدمتين القديمة و الجديدة للسيد شاهين لأنّ كليهما تشوهان فكرتي و تساعدان على اكتناف الغموض و اللبس .

و فيما لو ارفقت احدهما مع كتابي أو ادمجت الأخري فيه فانني أود ان أعلن انهما لا علاقة لهما بما اردت الافصاح عنه.

جنيف في ٢٤ يونيو ١٩٨٦ م

روجيه جارودي

Il est important que le lecteur sache ceci :

1°) J'ai demandé à Monsieur Chahine de traduire le livre. Je ne lui ai, à aucun moment, demandé ni préface, ni commentaire.

2°) Monsieur Chahine a parfaitement le droit d'exposer ses propres opinions, mais il est tout a fait anormal qu'il le fasse dans mon propre livre. Jusqu'ici j'ai eu 82 traductions de mes livres, mais jamais un traducteur n'a exprimé, dans l'un de mes livres, des opinions qui, sous prétexte d'en faire l'éloge, en déforment radicalement l'orientation et l'esprit.

3°) J'ai voulu aidé à l'unité des pays arabes et Monsieur Chahine dans sa première préface engage des polémiques et porte des accusations contre tel ou tel de ces pays.

4°) J'ai voulu dissocier radicalement d'une part la foi juive, dont nous honorons, comme musulmans, les Prophètes, et, d'autre part le sionisme, qui découle du nationalisme et du colonialisme européens du XIXè siècle. Monsieur Chahine, en prétendant définir un juif "éternel", va dans le sens du racisme.

5°) Il est important que le lecteur sache que l'auteur, Roger GARAUDY, se désolidarise totalement de l'ancienne comme de la nouvelle préface de Monsieur Chahine, car l'une et l'autre dénaturent sa pensée et ne peuvent que créer des confusions.

Si l'une d'elle est couplée avec mon livre, ou l'autre intégrée à lui, je tiens à déclarer qu'elles n'ont aucun rapport avec ce que j'ai voulu dire.

Roger GARAUDY

Genève, le 24 juin 1986

Roger Garaudy

«بين يــدى الكتــاب»

دكتور / عبد الصبور شاهين

يصدر كتاب (فلسطين أرض الرسالات الإلهية) فى ظروف ذات طابع خاص، ففلسطين اليوم ليست فلسطين الأمس البعيد، أو القريب، ومن المؤكد أنها غدا سوف تكون غير الأمس واليوم.

إن الصورة التى وقفت حتى الآن عند العلاقة (فلسطين - إسرائيل) سوف تتحرك قطعاً إلى علاقة أخرى: (فلسطين - إسرائيل - ......) لكن ما الذى سوف يملأ فراغ هذه النقاط؟. - الله أعلم...

أما القوى المتصارعة على الأرض المقدسة فتحاول، كل من جانبها، أن ترسم صورة تنبع من رؤيتها الاستراتيجية لتملأ هذا الفراغ الذى يخيف كل التوقعات.

الفلسطينيون يرون أن الأرض المقدسة هى أرض العودة التى لابد أن يصلوا إليها بعد ما طردهم منها العدو الإسرائيلى.

فهى (فلسطين) مرة أخرى ولن تكون (إسرائيل) سوى تاريخ، جزء من التاريخ.

والإسرائيليون يرون أن الأرض المقدسة هى نقطة انطلاق، مجرد نقطة انطلاق إلى التوسعات المقبلة عن طريق الغزو والحرب المستمرة.

فهى عاصمة (إسرائيل الكبرى).

الفلسطينيون يتشبثون بالمقاومة طريقاً إلى العودة المرتقبة، والإسرائيليون يستمرون فى الحرب، على حد ما قال أحد قادتهم حين سئل عن رأيه فى الحرب اللبنانية:

«لست أرى لها سببا إلا أنها تمهيد للحرب القادمة».

والحقيقة التى تبزغ من خلال هذا الحوار بين أدوات الدمار هى أن فلسطين (الغد) لن تكون ما كانت بالأمس، ولا ما هى اليوم.

فى ضمير الغد سر الأسرار، إرادة الله الجبار القهار: -
«يسأله من فى السموات والأرض، كل يوم هو فى شأن».
يقول المفسرون فى هذه العبارة الأخيرة من الآية :
«أمور يبديها، ولا يبتديها، يرفع أقواما، ويخفض آخرين».
وليس ذلك إلا أنه يرفع المخفوضين، ويخفض المرفوعين، تحقيقاً لوعده سبحانه:
«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم فى الأرض».
وسر الأسرار أن الله لم يتخل عن إرادته لأحد من خلقه، ولكنه لا يحقق (إرادته أن يمن على المستضعفين) ماداموا مستضعفين، بل لابد أن يتحولوا إلى رافضين للضعف، طالبين للقوة، متمردين على الذل، متمسكين بالحق والإيمان.
ذلكم هو الطريق إلى (فلسطين الجديدة) أرض الرسالات الإلهية، من خلال رؤية جديدة لعلاقة القوة بالحق، فى خضم الصراع الدائر بين الإسلام والصهيونية.

★ ★ ★ ★ ★

لقد كانت رغبة كريمة من وراء البحار أن أقوم بترجمة هذا الكتاب، لم أملك الاعتذار عنها، رغم شواغلى العلمية، وأعبائى الكبيرة.
أجل، فقد أبلغنى الأستاذ جارودى باقتراح أخى الكبير الأستاذ الدكتور محمود أبو السعود، المفكر الإسلامى الاقتصادى العملاق، فى أمريكا - أن أقوم بنقل هذا الكتاب إلى العربية، وما كان اقتراحه عندى إلا أمراً واجب الألتزام، فإن للدكتور أبو السعود علىّ من الحق الأدبى الكثير، ونحن إخوة منذ كنا والحمد لله.

وعكفت على الكتاب أقرؤه فى أصوله، وأجمع ملاحظاتى عليه، وأتابع نقله إلى العربية، على المنهج الذى التزمته فى ترجمة كتب الأستاذ مالك بن نبى، وفى نقل (دستور الأخلاق فى القرآن) للدكتور محمد عبد الله دراز ... الخ..

وأنا أرى أن الترجمة ليست مجرد نقل حرفى لنص مكتوب، بل هى عمل نقدى إبداعى من الطراز الرفيع، يتحمل فيه المترجم من المسئولية أمام قارئه فى لغته عِدْلَ ما يتحمله المؤلف أمام قارىء لغته.

فليست الترجمة عملية مرابحة، أو خبطة مالية، كسبت أو خسرت، كما يفعل الشادون من ممارسيها، ولكنها رسالة علمية، لابد أن يكون القائم بها أمينا على حروفها، وأفكارها، ناقداً لها، ناصحاً لمؤلفها، مشيراً عليه بما يقوّم بعض الأفكار التى لا تخدم البناء العام للعمل المترجم.

وقد أتاحت التقاليد العلمية للمترجم عند الاختلاف أن يعلق فى الهامش، وأن يكتب مقدمة تبين فيها عن وجهة نظره بما يعين على اكتمال العمل.

وقد فعلت، والحمد لله بما وسعه جهدى.

غير أن الأستاذ جارودى أبدى رغبة أن تكون مقدمتى التى اتفقت معه عليها شفويا، منفصلة عن الكتاب، ملحقة به فى غلاف مستقل.

وكان له ما أراد، فبدأ الكتاب - كما يرى القارى الكريم - من صفحة ٣٣ - واستقلت مقدمتى فى ملزمتين، مرفقتين، عالجت فيها ما لم يتعرض له المؤلف من حقائق الصراع التاريخى والمستقبلى بين الإسلام وبنى إسرائيل.

لقد تميزت هذه الترجمة العربية بأمور لم تظفر بها الطبعة الفرنسية، ومن أهمها: المقدمة، والفهارس الفنية، إلى جانب الهوامش والتعليقات المبثوثة فى أنحائها، والتى لم نقم بها إلا وفاء بالمنهج العلمى، وخدمة للقارىء الكريم.

عبد الصبور شاهين



مدخــــــــل

فلســــــطين - مــاهى ؟



تعرف الموسوعة البريطانية فلسطين بأنها «الأراضى التى وضعت تحت الانتداب البريطانى من عام ١٩٢٣ إلى ١٩٤٨ م»،وتوافقها فى هذا الموسوعةً العالمية، ويمثل هذا التعريف درجة من ربع قرن فى سلم حضارة من أقدم حضارات التاريخ، كما يمثل حدوداً تعبر عن علاقات القوة بين القوى الاستعمارية، التى سجلتها عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى.

والمدهش أن هذه الموسوعة ما كانت لتجد تعريفا جغرافيا آخر لفلسطين، سوى هذا الذى نقلته عن الاستعمار كما هو، لأن الاستعماريين عندما مزقوا الأمة العربية الإسلامية طبقا لما بينهم من علاقات القوة (شبيه بما فعلوه بإفريقية السوداء فى مؤتمر برلين عام ١٨٧٥) – كان قدر فلسطين مرتبطا بالحل الذى ارتأوه «للمسألة الشرقية»، أعنى: للمشكلات الناجمة عن انهيار الإمبراطورية العثمانية.

كانت القوى الاستعمارية خلال الحرب عام ١٩١٤ – ١٩١٨ قد انتهت من تقاسم أسلاب الإمبراطورية التركية، حتى قبل أن يحرزوا النصر على حليفها الألمانى.

إن «الانتداب البريطانى» مهما كانت الأعراض الطارئة التى أحدثها تلهف الصهيونيين للتعجيل بمجرى الأحداث – يتصف باتجاه يسوده، حدده منذ عام ١٩٢١ السير هيوبرت يانج Hubert young أحد مديرى وزارة المستعمرات بقوله: «إن المشكلة التى يتعين علينا أن نحلها الآن هى أننا نستهدف إيجاد تكتيك، وليس استراتيجية، والفكرة الاستراتيجية العامة التى أتخيلها هى التهجير التدريجى لليهود إلى فلسطين، إلى أن نؤمن لهم أغلبية ساحقة فى البلاد.... بيد أنه من المشكوك فيه أن نكون بحيث نعترف للعرب بما تعنيه سياستنا فى الواقع[1].

---

(١) درين انجرام: «أوراق فلسطين (١٩١٧ – ١٩٢٢) بذور الصراع»

Dereen Ingrams: Palestine Pepers (1917 - 1922) Seeds of conflict: N.Y. Brazilles. 1973, P. 14

أما تعريف فلسطين خلال القرن الأخير من تاريخها فربما كان التعريف الذى وضع فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٨٥ ، والقائل بأنها : « هى ذلك الجزء من العالم العربى ، الذى حنثت فيه القوة الاستعمارية فى وعودها بالاستقلال بكل صراحة ، ولذا فإن الانتداب البريطانى قد رسم له الحدود الجغرافية » .

فإذا ما ضربنا صفحا عن هذا التعريف الاستعمارى لفلسطين وحدودها – فماذا تكون فلسطين فى التاريخ ؟

أهى بلد الكتاب المقدس ؟ أهى « الأرض الموعودة » ؟ .. أم هى الأرض المفتوحة ؟ .. ولربما تطلب هذا أن ننسى أن « الأرض الموعودة » هى « من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات » على ما حددها (سفر التكوين – الاصحاح الخامس عشر – جملة ١٨) فيما يشبه أن يكون (إسقاطا) منعكسا لفكرة « الأرض المفتوحة » أرض مملكة داود ، ذلك أن « الوعد » المحدد فى الكتاب المقدس منذ القرن العشرين قبل الميلاد لم يكتب إلا فى زمن مملكة سليمان ، أى : متأخراً لأكثر من ألف عام .

أهى بلد الفلسطينيين ، غزاة البحر الأبيض ، فى القرن الثالث عشر قبل تاريخنا الميلادى ، وهم الذين أعطوا اسمهم فى الواقع لهذه الأرض ، التى لم يحتلوا منها فى الحقيقة سوى الشريط الساحلى ، خلال بضعة قرون فحسب ؟ .

إن هيرودوت يحدد فلسطين على أنها البلد الواقع جنوبى سورية حتى مصر ، ويطلق الرومان اسم فلسطين – بعد تمرد باركوكبا Bar Kochba عام ١٣٥ بعد المسيح – على تلك المقاطعة الخاضعة لسيطرتهم .

أهى « مقاطعة دمشق » من الإمبراطورية العثمانية ؟ . أم « أرض إسرائيل » ذلك التعبير الذى لا نصادفه إلا نادراً فى الكتاب المقدس [1] ولكنه شاع من خلال كتابات الربانيين والأحبار التى استغلتها الدولة الصهيونية ؟ .

---

(١) Pére R. de vaux: «histoire ancienne d' Israeï Ed. Gabalda, Paris 1971, P. 18

وقد جاء فى سفر التكوين ٤٠ / ١٥ وصف فلسطين بأنها أرض العبرانيين على لسان يوسف عليه السلام . (المترجم) .

إن معنى ذلك أننا ننسى أن المنطقة الساحلية، وبخاصة شاطىء حيفا فى الشمال، وغزة فى الجنوب – لم يكونا مطلقاً جزءا من الدولة اليهودية، حتى فى مملكة داود. إلى أن صارت «أرض إسرائيل» الأسطورة المؤسِّسة للدولة الصهيونية.

كل هذه التعريفات والتحديدات إنما فرضها الواقع التاريخى لغزاة فلسطين ومستعمريها المؤقتين: الإغريق، والرومان، والبيزنطيين، والإنجليز، والصهاينة.

فبين صحارى شبه الجزيرة العربية فى الجنوب، والهضاب الصحراوية للأناضول فى الشمال، وبين أرض السواد الغنية فى دجلة والفرات فى الشرق، ودلتا النيل فى الغرب – تمتد تلك المنطقة السعيدة التى أطلق عليها المؤرخ الأمريكى برستيد Breasted فى مطلع القرن العشرين (الهلال الخصيب) الذى يرسم ابتداء من الخليج الفارسى بوساطة وادى الفرات، مجرى نهر العاصى، ثم يضم ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى دلتا النيل.

وتقع فلسطين فى القرن الغربى لهذا الهلال الخصيب، وما كان لوضعها، وبنيتها، وحدودها الجغرافية وعمارها التاريخى – أن تفرض قدرها، وإنما هى تخلق الظروف اللازمة لدور نوعى فى النمو الروحى للإنسان على امتداد الهلال الخصيب.

إن وضع فلسطين فى التاريخ لم يشكل وحدة منفصلة إلا وفقا لأطماع غزاتها من الخارج (الغزو الرومانى، والاحتلال الصليبى، والاستعمار الإنجليزى، ثم الصهيونى)، وقد استمر هذا طيلة ثلاث مراحل ثابتة، استغرقت ثلاثين قرنا:

أولا:

لم تكن فلسطين سوى عضو فى وحدة عضوية أكثر اتساعاً ورحابة، وهى لا يمكن فصلها، منذ ما قبل التاريخ عن مجموع «الهلال الخصيب» أعنى ذلك المجموع الجغرافى والثقافى الذى يشكل بوتقة جد نشيطة، ووطنا تتم فيه عمليات الصهر، والتمثل والتركيب العظيم للثقافات، بعضها مع بعض، ابتداء من الخزان البشرى العربى، حيث لا تتوقف التجمعات القبلية عن الهجرة، كما لا تلبث أن تستقر بطريقة شبه مستمرة.

فالبدو الرحل القادمون من الصحراء العربية يأتون إليها ليستقروا بها **أحيانا،** بصورة موسمية أو نهائية، سواء فى العراق، أو فيما يطلق عليه اليوم: سورية ولبنان وفلسطين.

وأيًا ما كانت الأسماء التى تطلق على هؤلاء البدو الرحل، الذين كانوا: أموريين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد (وهم الذين كانوا يشكلون الأسرات الكبيرة «السامية» فى العراق، كما كانوا سكان سورية القديمة وسواحلها) ثم كانوا كنعانيين (انتشروا على الساحل كله داخل فلسطين وجنوبيها)، ثم آراميين (جابوا ربوع البلاد ابتداء من الألف الثانية، ق. م. واستقروا فى أنحائها فى الألف الأولى) أيًا ما اختلفت الأسماء فإنهم لم يكونوا عروقا أو عنصريات، بل هم موجات من السيطرة المتتابعة فى شعب سامى واحد، تمتد جذوره داخل شبه الجزيرة العربية.

وفى داخل هذا المجموع ربما يكون من التعسف أن نقابل بصورة ثابتة بين بدو وحضر. ذلك أن مصطلح « nomade = بدوى» ينطبق غالبا على أولئك البدو البدائيين، الذين كانوا يتدفقون من السهول الأسيوية، بين حين وآخر، على الهلال الخصيب، أو على حواشيه، على حين أن مصطلح « nomades Sémitiques» = بدو ساميون (فى الجزيرة العربية، والهلال الخصيب، أو المتحلقين حولها) – هذا المصطلح يخفى تحته مجموعة من الألوان المتدرجة: فهناك البدو الخلَّص الذين لا يستقرون أبدا، وآخرون ذوو رحلات منتظمة تنطوى على إقامة حضرية موسمية تضفى عليهم صفة المزارعين، وهناك غيرهم يشاركون فى الحياة المدنية، بصفة دورية، لممارسة تجاراتهم، أو أعمالهم المختلفة، قبل أن يشرعوا فى رحيل جديد.

إذن، فإن وضع حدود فاصلة بين هؤلاء (البدو) «والحضر» الزراعيين أو المتمدنين ليس أمرا عسيرا، لا سيما أننا قد نجد كل هذه السلسلة المتنوعة داخل قبيلة واحدة، (ففيها البدو الخلص، والبدو شبه الزراعيين، أو شبه المتمدنين، والحضر الزراعيون، والمدنيون)، تربط فيما بينهم قرابة الدم والأصل.

إننا لا نستطيع إذن أن نبنى تاريخا حسب التخطيط المبسط والمانوى [1] الذى يقوم على التناقض الثابت والعنيد بين البدو والحضر ، بل على العكس ، فإن هذه التسربات والتنقلات بين مختلف أنماط الحياة قد خلعت على مجموع (الهلال الخصيب) وحدة ، بفضل ما ترسب عبر آلاف السنين ، فى شعوب ذات لغة سامية وذات أصل عربى .

وتتجلى وحدة الهلال الخصيب هذه فى التكامل والتعاون القائم بين مجتمعات ذات بنية واحدة ، وذات اتجاهات مختلفة : فقد كانت (صور) العاصمة البحرية للجليل ، ولما كان لأهل الجليل مشروعاتهم التجارية فى صور ، فقد كان لأهل صور مراكزهم المصرفية فى الجليل .

وكانت هناك علاقات مماثلة بين صيدا ودمشق ، وبين طرابلس وحمص ، وبين رأس شمرا (أوغاريت) والداخل ، بين المنطقة الساحلية والشمالية فى أنطاكية ومجموع البلاد .

كذلك كانت هناك سلسلة متصلة تربط الجنوب وساحل البحر الأبيض المتوسط من ناحية ، والعراق المهيمن على مدخل الخليج الفارسى من ناحية أخرى .

ثانياً :

وإنما تتجلى هذه الوحدة على صعيد الثقافة والروح ذلك أن الكشوف التى تمت منذ قرن ، ولا سيما الأخيرة منها ، فى رأس شمرا (أوغاريت) ، وفى منطقتى مارى Aari وإبلة Ebla منذ عام ١٩٧٥ – فيما يسمى الآن سورية – تدل على أهمية هذه المنطقة ، فقد كانت حلب أهم المراكز فى الشرق الادنى ، منذ الألف الثالثة (حوالى سنة ٢٣٠٠ ق . م) ، وكانت أوغاريت معمورة منذ العصر الحجرى ، وبلغت فى منتصف الألف الثانية أوجها ، عندما استقر فيها الكنعانيون ، الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية القديمة (المسماة : السامية)، لغة أجدادهم فى شبه الجزيرة .

---

(١) نسبة إلى مانى الفارسى القائل بالصراع بين النور والظلام . (المترجم)

هذه المنطقة تعتبر «الملتقى الأعظم للشعوب وللثقافات»[1] كانت إبلة وأوغاريت تتكلمان لغة «سامية»، الأولى من منتصف الألف الثالثة، والثانية فى منتصف الألف الثانية، وكلتاهما كانت تمتاح من نفس المعين اللغوى العربى (المعروف بالسامى)، وهما تتقاسمان ذلك مع الأكديين (فى النصف الثانى من الألف الثالثة)، ومع البابليين والأشوريين[2] (ابتداء من أول الألف الثانية) ومع الكنعانيين على الساحل، وفى الداخل، ومع الآراميين (منذ منتصف الألف الثانية)، وكل هؤلاء كانوا يستخدمون الكتابة المسمارية للسومريين.

«لقد عرف الشرق الأدنى قاعدة لم يرد عليها استثناء، فالسريانيون كانوا يستخدمون فى وقت واحد النظام الكتابى المسمارى، واللغتان اللتان سجلهما هما: السومرية والأكّدية، وقد كانوا يكتبون فى مارى وإبلة بنفس الطريقة... فجميع هذه اللغات كانت قريبة من الأكدية، التى تشركها صفتها السامية»[3].

إن تراسب طبقات هذه «الشعوب» التى تنتمى إلى نفس الأرومة، ومعها شعوب أخرى ذات أصول مختلفة، قدمت من مناطق أخرى، أسيوية بوجه خاص – ولّد هذا التراسب نوعا من الترسيب الثقافى، أو بالأحرى:

نوعا من النمو العضوى لنفس الثقافة. وذلك بفضل تكامل المكتسبات المتعاقبة، لا من خلال المواجهة والرفض.

---

(١) «فى بلاد بعل وأستارتيه.

«Au Pays de Baal et d' Astarté».

(Sous la direction de Pierre Amiet) P.17.

(٢) الأكدية، والبابلية، والأشورية ثلاثة ألقاب للغة واحدة.

(٣) السابق ص ٦٨.

ويبدو أن الأموريين البدو الذين كانوا منتشرين فى العراق – قد تمثلوا الحضارة العليا التى أقامها السومريون والأكديون – تمثلا سريعاً، فقد شادوا على أنقاض إمبراطورية أور (Ur) سلسلة من الممالك النشطة كمملكة بابل، وهى أحدثها (عام ١٨٩٤ قبل الميلاد)، ثم أعاد ملكها السابع حمورابى HAMMOURABI/ (عام ١٧٢٨ – ١٦٨٦)، تأسيسها، فأعاد لها وحدتها الضائعة... وهكذا بدأت «جوقة من الأمم» المتناغمة المصالح... والتى صارت مهدا لحضارة أصيلة [1].

ولحمورابى أكثر من مائة وخمسين رسالة تكشف لنا عن اهتمامه بالأعمال العامة التى تحقق التواصل عبر الهلال الخصيب كله، سواء أكانت هذه الأعمال قنوات، أم طرقا، أم معابد.

أما النصْب الذى يحمل شريعته، وقد كشف عام ١٩٠٢ م وحفظ فى متحف اللوفر – فإنه يُبينُ عن المرحلة الثقافية والسياسية للهلال الخصيب.

وحمورابى لا يرى أنه قد أحدث تصدعاً: فإن شريعته توحد وتدمج علاقات سومر بعلاقات أكّاد السامية، وقد عرفتا من قبل قانونا لمجتمع التجار، على حين أن قانون الألواح الاثنى عشر الرومانى، والذى عرف بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا – لم يكن سوى قانون للفلاحين البدائيين، ثم كانت بعده بثمانية قرون شريعة العهد Code de l' Alliance، التى جاء بها موسى على ما سنرى فيما بعد، وهى تعتبر تراجعا بالنسبة إلى شريعة حمورابى.

وهكذا نضجت نضجا بطيئا على أراضى الهلال الخصيب أمهات الأفكار الروحية التى ظهرت فيما بعد: الحياة العلوية، وما بعد الحياة، ووحدة الإله، والنبوة التى تستوحى إرادة الله، والشريعة التى يعتبر قانون حمورابى نموذجها الأول، وكان تعبيرا عن الخير العام لمجموع الهلال الخصيب ابتداء من عراق حمورابى حتى مصر أخناتون (حوالى عام ١٣٥٠).

وقد كانت الرؤية الساميّة الكبرى للعالم قد تغلغلت فى مصر، مع الهكسوس، منذ القرن السادس قبل ميلاد المسيح.

---

(١) السابق ص ١٠٣.

وبمناسبة ذكرنا للهكسوس ومن جاء بعدهم من الأشوريين الذين استولوا على مارى (عام ١٢٠٠) – نرى من المفيد أن نصحح فى ضوء الحفريات الحديثة نظرة تاريخية ظلت خطأ شائعاً إلى زمن طويل: فلم يكن هؤلاء فى حالة أو أخرى مجرد تدفق للبرابرة الذين يخربون فى طريقهم الحضارات السابقة، بل العكس هو الصحيح، فمن الاكديين إلى الآشوريين إلى البابليين الجدد – مثلا – لا نجد أن فى الأمر أجناساً مختلفة، بل هى أسرات حاكمة، وكانت البلاد تغير حكامها، ولكن استمرار الحضارة مؤكد، وكانت المهمة المطلوبة هى دوام الرقابة والأمن، على شبكة الطرق الواسعة فى الهلال الخصيب، تلك الشبكة التى كانت مفتوحة أمام جميع الغارات البدوية.

إن استمرار إمكانات المزج التجارى والثقافى – معا كان يثير بداهة حنق العصابات البدوية التى كانت تؤمل فى انتهاز فرصة الفوضى (وهو ما نجد صداه فى الكتاب المقدس (يونس ٣/٤ و٤/٢، وناحوم ١/٣ و ٣/٧ وصفنيا ٢/١٣).

هذه النظرة مازالت باقية حتى يومنا هذا، فالأشوريون والهكسوس يُتَحدَّثُ عنهم على أنهم مخربون مفسدون.

ذلك أنه حتى القرن الثالث عشر كان الأشوريون يحكمون شبكة الطرق كلها فى المنطقة، حتى البحر الأبيض المتوسط، كما كانوا يحكمون جزءاً من إفريقية، فلم يقتصر عملهم على مجرد عدم هدم ما كانوا يحكمون، بل إنهم حفظوا على هذه الأرض وحدتها، وأمنها، وهم كذلك لم يمسكوا عن هدم الثقافة الآرامية فحسب، عندما سيطروا على العاصمة الآرامية الأخيرة – دمشق – (عام ٧٣٢)، بل إنهم على العكس أنقذوها ونشروا لغتها فى الإقليم الواسع الذى كانوا يحكمونه، نشروا (الآرامية) التى أصبحت اللغة المشتركة فى هذه الأمة كلها، خلال ما يقرب من ألف عام.

(ولسوف تكون الآرامية اللغة التى يتكلمها المسيح بعد ذلك بسبعة قرون) لقد تمثلوا ثقافة الآراميين، وأسندوا إليهم دور الوزراء والموظفين، والمربين.

وكثيراً ما يتحدث المؤلفون فى كتب التاريخ عن ألوان القسوة، والتعذيب الذى كانوا ينْزِلُونه بالأعداء، مما نجد له سمات خاصة - بكل أسف - فى جميع مراحل السيطرة، (ورمسيس الثانى الذى يعظمه هؤلاء المؤرخون - كان يمجد مذابحه على جدران قصره نفسه) بيد أننا قليلا مانتحدث عن مكتبات الأشوريين التى كشفت عنها الحفريات حديثاً، وعن دور التكامل الثقافى الذى نهضوا به، فقد كان الأشورى يهدم فعلا قصور المهزومين وحصونهم، ولكن لم يكن يهدم معابدهم، ولا لغتهم، ولا ثقافتهم، لقد تلقاها تراثا، وعمل على نشرها.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الهكسوس، الذين لم يكونوا مطلقاً من المخربين البدائيين، بل كانوا من الأموريين الذين تلقوا وصايا الدين، والثقافة من العراق ومن سورية، ثم نشروا ثروتها على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولم تكشف الحفائر التى أجريت على طريق مرورهم فى فلسطين فى القرن الثامن عشر - أى تخريب لمنجزات الحضارة، أو الدين، من نوع ما خلفه الكنعانيون فى القرن السابع عشر.

لقد حمل الأموريون معهم هذا التراث إلى مصر، حيث لقى فترة من الازدهار، قصيرة، ولكنها لامعة، وكان ذلك بعد قرنين من رحيلهم من مصر، على عهد أخناتون، الذى سوف يصطدم بردود فعل، تتمثل فى رفض مجموعة الكهنة للوحدانية الأمورية.

ثالثاً:

إن وحدة الحضارة والإيمان فى هذه المنطقة الشاسعة من الهلال الخصيب لا يمكن أن تقارن بوحدة إمبراطورية كإمبراطورية الرومان المتحصنة داخل أسوارها وحدودها، الممتنعة بجيوشها وحدها، والتى تعتبر - على طريقة الإغريق - أن كل من لا يتكلم لغتها، ولا يشارك فى ثقافتها، هو «بربرى» لا إنسان، وقد ولد ليكون عبداً.

لم يكن هذا الانشقاق موجوداً فى الهلال الخصيب، ولم تكن الحضارة الكبرى آنذاك ممتنعة بقوة جيش فحسب، بل إن ثقافتها كانت كذلك تسمح لها بتحضير غزاتها، وتَمثُّلِهم[1]. أما العلاقات بين البدو والحضر، والقدرة على الانفتاح والتكامل، فقد سبق أن عبرت عن نفسها فى ملحمة جلجامش، وهى تراث مشترك طيلة عدة قرون، لا لسومر فحسب، وهى الوارثة، ذات اللغة غير السامية – لهذه التقاليد، ولوظيفة الصهر والتركيب، والتى كانت تتمثل الآخرين، وتقدم لهم ما يمثلونه، بل كانت تراثاً مشتركا للهلال الخصيب كله: فالبطل جلجامش، أمير المدينة، يواجه فى صراع فذ، البدوى إنكيدو ENKIDU وينتصر عليه، بيد أن المواجهة لا تنتهى بهدم الآخر، وانما على العكس، فقد ولدت بين البطلين صداقة وأخوة عميقة عندما تمثل إنكيدو الثقافة المدنية، وشرعا معا فى المغامرة الكبرى، مغامرة غزو الخلود، وما بعد الحياة الدنيا، التى تتجلى فيها هموم السمو لدى المخلوق.

وعندما مات إنكيدو ليحمى صديقه كان جزع جلجامش شهادة على ما بلغته هذه الثقافة من مغزى عميق.

ومما له دلالته ما جاء فى رواية سريانية/سابقة كثيراً على رواية الكتاب المقدس، حيث ذكر الصراع بين هابيل وقابيل، فإن المواجهة لم تنته بقتل هابيل، بل انتهت بمصالحة بينهما. أما الرواية الكتابية فقد كتبت بعد ذلك بزمن طويل، عندما رفض فريق الكهنة المتحكم – أن يتمثل هذه الفكرة، إذ كان منفصلا عن التقاليد السامية، وأخذ يتلمس العزلة القبلية فى اطّراح الآخرين (على ما سوف يظهر فى سفر يشوع JOSUE[2] رجل الإبادة المقدسة).

---

(١) يريد: الارتفاع بالغزاة إلى مستوى الحضارة، واستيعابهم ثقافيا. (المترجم).

(٢) قائد العبرانيين بعد موسى، وفاتح أرض كنعان، وهو الذى حارب ملك القدس، حسب رواية الكتاب المقدس، وأمر الشمس أن تتوقف، فكان له ما أراد، حتى استطاع أن يحرز النصر على أعدائه، وأن يبيدهم إبادة كاملة. (المترجم).

وهكذا جاء الغزاة من آسيا الوسطى قاصدين أطراف الهلال الخصيب، فلم يصطدموا بحدود وجيوش فحسب، بل اصطدموا أيضا بحضارة تدافع عن الحضارة، (فأية حضارة لا يمكن أن تُحْمى بالجيش وحده)، بحيث إن الغزاة القادمين من سهول آسيا الوسطى، ولو أنهم انتصروا بالجيوش، فإنهم قد امتُصُّوا، واستوعبتهم ثقافة المهزومين، فتمثلوا حضارتهم، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالكاسيين Kassites [1]، الذين اندمجوا فى هذا العالم، وفى حضارته، وأسسوا أسرة معمرة فى العراق، بين (١٥٩٥ – ١١٥٥ ق. م.).

وقد جاء من قبلهم القوط (نهاية الألف الثالثة)، وأسرتهم لم تعمر طويلا، فقد انتهوا بأن اندمجوا وامتصت موجتهم.

وفى مقابل ذلك يأتى الرومان، وهو مثال ذو دلالة على ما نريد بيانه.

فقد كانت مدينة «تدمر» السورية Palmyre مركزا لمزج وإشعاع الثقافة والفنون فى المنطقة كلها، وقد استطاعت أن تحقق تكاملا بين العطاء الاسبرطى والهلينى فى فن شرقى واحد، وحين ضعفت روما كسبت تدمر، فى بداية القرن الثالث، نوعا من الاستقلال، واستطاعت أن تحتل مكان الإمبراطورية الرومانية العاجزة، فى مقاومة اندفاع الغزاة القادمين من أواسط آسيا.

لقد استطاعت ذلك بقوة حضارتها ذاتها، ولقد أمعن الإمبراطور أورليان Aurelien (عام ٢٧٢ ق.م) فى هدم المدينة، ولم يكن يتصور أن الدفاع عنها يتجاوز الوسائل العسكرية. وعلى عكس ذلك تفاوض الإمبراطور مع القبائل البربرية على حدود الراين والدانوب، وذاب الحد الفاصل عام ٢٧٥، وتتابع تقدم جحافل الجرمان حتى قلب الإمبراطورية.

---

(١) شعب من الشرق، حكم بابل خلال القرون من السادس عشر حتى الثانى عشر قبل الميلاد. (المترجم).

لماذا لم يتصور المؤرخون هذا القانون العميق الذى يحكم التاريخ الألفى للهلال الخصيب؟.

إن السبب الرئيسى يرجع إلى حكم مسبق ذى طابع دينى: هو دور فلسطين «الأرض المقدسة» فى خيال الشعوب، ولسوف يدرس بتوسع فى الجزء الثانى من هذا الكتاب، الذى خصص لدراسة تكون أسطورة الامتياز العبرانى L'e ceptionalisme hebreu .

إن تبنى الغرب للمسيحية على أنها تحقيق للوعود الكتابية التى تلقاها الكهنة، والمفهوم اللاهوتى الذى جعل من العهد القديم تجسيداً للعهد الجديد، فى شكل رمزى – قد أديا إلى إضفاء أهمية على هذه النصوص، بحيث حجبت كل ما تبقى، ذلك أن انزلاق اللاهوت إلى التاريخ قد أحال القصص الواقعية إلى رموز لاهوتية عظيمة فى الكتاب المقدس، فأما المؤرخون الذين لم يعتنقوا بعدُ اليهودية أو النصرانية، فإنهم يرون أن النصوص الكتابية، حتى بعد نقدها نقداً عميقاً، تظل نواة، أو على الأقل فرضا لعمل أولى، يهدف إلى تحليل تاريخ الشرق الأوسط، ولسوف نبين، بناء على دراستنا لمرحلة ما قبل التاريخ فى هذه المنطقة، وللحضارة الكنعانية، إلى أى مدى زيفت هذه النزعة اللاهوتية الأولية نظرة علماء الآثار، سواء أكان ذلك بوعى أم بدون وعى.

إن مهمتنا الأساسية فى الجزء الأول من هذا العمل – هى أن نسهم فى إزالة هذه العراقيل الساحقة التى تضغط بثقلها على البحث التاريخى.

ولكن الأحكام الدينية المسبقة ليست هى وحدها التى تصنع التاريخ، فهناك أيضا فى الغرب أحكام مسبقة ثقافية، راسخة فى أعماقه منذ عصر النهضة، لا تقتصر على فكرة الامتياز اليهودى، بل هناك أيضا فكرة الامتياز الإغريقى: «المعجزة الإغريقية».

وكما أن الحكم الدينى المسبق بالامتياز اليهودى قدم الوحدانية على أنها إلهام تدفق فى صحراء الدين، فبنى انطلاقاً من هذا الحكم تاريخاً يبدأ من إبراهيم حتى فلسفة التاريخ لهيجل.

فإن الحكم الثقافى المسبق بالامتياز الإغريقى قد استتبع الأخذ مرة أخرى بنفس التقابل بين الإلهام والصحراء: «المعجزة الإغريقية»، و «البربرية» المحيطة، كأنما الثقافة الهلينية قد خرجت من العدم، أو كأنما خرجت مينرف MINRVE – حقا – كاملة التسليح من رأس جوبتر JUPITER[1].

وإنهم ليطلقون مثلا لقب «فيلسوف إغريقى» قبل سقراط، على كوكبة من المفكرين العباقرة: طاليس THALES، وأناكسيمين ANAXIMENE وأنكسماندر ANAXIMANDRE وبرمينيد PARMENIDE، وهيراقليط HERACLITE، وقد كانوا جميعاً يتكلمون اليونانية، ولكنهم ولدوا وعملوا فى أحد أقاليم الإمبراطورية الفارسية، فى آسيا الصغرى، فى ميليت Milet، وإيليا Elea، وإيفيز Ephése، وهى بلاد اغتذى فكرها بكل ما عرفت آسيا، وفارس، والهلال الخصيب، وما وراءه، والهند – من ثقافة وهكذا ينسبون إلى اليونان مالم ينبع مطلقا من الماضى اليونانى، وإنما هو يكشف – بالعكس – عن الأصل الأسيوى.

كذلك نجدهم يطلقون «الآباء الإغريق» فى التاريخ المسيحى على الازدهار اللاهوتى الرائع، الذى ولد على التراب الأسيوى، ذى الثقافة المشعة حول الهلال الخصيب، وهو بوتقة الرسالات الإلهية، كانت مراكزه الرئيسية هى أنطاكية (فى سورية الآن)، وكبادوس (فى تركيا الآن)، والإسكندرية (فى مصر الآن)، فمن انياس IGNACE فى أنطاكية، وبوليكارب POLYCARPE فى أزمير، إلى جوستين JUSTIN المولود فى نابلس بفلسطين، وإلى ترتوليان TERTULLIEN المولود فى قرطاجنة، (بتونس المعاصرة)، والذى تعلم فى

---

(١) مينرف هى ابنة جوبتر، إلهة الفنون والعلوم والصناعة، وتقدم القصة الخيالية منيرف خارجة فى كامل سلاحها من مخ جوبير بعد أن صهر فولكان إله النار رأسه بضربة من حربته. (المترجم).

مدرسة المونتانية (1) فى آسيا الصغرى ومن كليمنت CLEMENT بالإسكندرية، والمصرى أوريجن ORIGENE، إلى آباء الكبادوس، من أمثال جريجوار دى نزيانس GREGOIRE DE NAZIANCE وجريجوار دى نيس GREGOIRE DE NYSSE، وإلى يوحنا كريسستوم JEAN CHRYSOSTOME فى أنطاكية، والسريانى افريم EPHREM، وسيرل CYRILLE بالقدس، وسيرل بالإسكندرية، حتى القديس يوحنا الدمشقى.

وهكذا ولدت أجمل العناصر الروحية وأبهجها فى الفكر المسيحى الحى فى حضن الهلال الخصيب (كما ولد المسيح نفسه)، وفى مجاله الجغرافى الذى انتشر فيما وراءه إشعاعه فى آسيا الصغرى، وفى إفريقية الشمالية.

هذه البنوة التى تنكرها الكنيسة الرومانية سوف تظل أثمن ما تملك الكنيسة فى الشرق من تراث، وهذا التشبث بالرأى عند الغرب هو الذى أدى إلى الانشقاق الكبير.

فلكى نضع تاريخ فلسطين فى إطار الهلال الخصيب ينبغى أن نناقش هذا الغرام الغربى الذى يبدأ بما زعموا أنه «المعجزة الإغريقية».

ولكى نقدم مثالاً على ما ينطوى عليه هذا النقل لمركز التاريخ لصالح الغرب والهلينية من سيئات نذكر أن تَدمُرَ، مركز إشعاع جميع ثقافات الشرق الأوسط كانت تعتبر غالباً مجرد بديل للحضارة الإغريقية - الرومانية، على حين أنها كانت عاصمة منظمة لشبكة طرق المواصلات كلها، وهى التى كانت تقوم على مزج الثقافات، وتحقيق التبادل الروحى، ابتداء من البحر الأبيض المتوسط حتى الهند.

وأسوأ من ذلك ما حدث من أن بعض الأثريين حاولوا تفسير رأس شمرا (أوغاريت) باعتبارها بديلا تجاريا للقبارصة، انطلاقا من مقولة أن اليونان هى مركز ومنبع جميع الحضارات، فى حين أننا سوف نرى أن الكشوف التى تمت فى هذا الجانب تبين أن رأس شمرا كانت مركزاً للثقافة يشع على الهلال الخصيب بأسره.

---

(1) مونتانوس كاهن أسس طائفة المونتانيست حوالى عام ١٦٠ أو ١٧٠ للميلاد، وهو القائل بالنظرية المهرطقة التى تدعى الاعتقاد بالتدخل الدائم لروح القدس (المترجم).

ولقد رأينا ما ترتب على هذه الرؤية الثقافية الزائفة من نتائج سياسية : فإن الامبراطورية الرومانية التى لم تجد ذاتها فيما رأته ذا نوعية شرقية فى حضارة تدمر - فبدلا من أن ترى فيها المركز الحضارى الذى يمكن أن يحافظ على التراث الإنسانى فى مواجهة الغزاة القادمين من آسيا الوسطى - آثرت أن تخربها وتهدمها عام ٢٧٢ ق .م ، لأنها لم تكن رومانية !! .

وأخيراً ، فإن هناك مقولة ضغطت بقوة على هذا التاريخ ، وهى مقولة ذات طابع سياسى - عسكرى للامبراطورية ، وللأمة ، ففى التقاليد الغربية ، كما بقى التاريخ العبرى نموذجاً للدين ، وكما بقيت « المعجزة الإغريقية » نموذجاً للثقافة ، فقد بقيت الإمبراطورية الرومانية نموذجاً للوحدة السياسية : أرض تضمها حدود ، ويحميها جيش مكلف بمواجهة غارات « البربر » (ويقصد بهم : الآخرون جميعاً) ، وشعب خاضع لقانون واحد ، هو قانون جوستينيان ، الذى صار أيضاً نموذجاً يجدده قانون نابليون .

هذا المخطط ذو النموذج الغربى ، لمجتمع « مغلق » يبقى مخططاً لكل القوميات والعنصريات ، من العنصرية السلافية إلى العنصرية الألمانية ومن موريس باريس [١] M. BARRES إلى شارل مراس [٢] CHARLES MAURRAS ، ومن موسولينى [٣] إلى هتلر [٤] .

---

(١) موريس باريس - كاتب فرنسى ، ولد عام ١٨٦٢ ، وتوفى عام ١٩٢٣ ، وهو محلل دقيق ، وكاتب ومؤلف لكثير من الآثار ، تحول من عبادة الأنا إلى عبادة الأرض ، ومن تقديس الموتى إلى تقديس القومية .

(٢) شارل مراس - كاتب فرنسى ولد عام ١٨٦٨ ، وتوفى عام ١٩٥٢ ، دخل الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٣٨ ، وأقصى عنها عام ١٩٤٥ ، وحكم عليه بالأشغال المؤبدة .

(٣) بنيتو موسولينى - زعيم إيطاليا ، ولد عام ١٨٨٣ ، وتوفى عام ١٩٤٥ ، ألف عام ١٩١٩ الحزب الفاشستى ، وقبض على السلطة عام ١٩٢٢ ثم دخل الحرب العالمية الثانية إلى جانب الرايخ الثالث ، وأقصى عن السلطة فى يوليو ١٩٤٣ ، وأعدم فى إبريل عام ١٩٤٥ .

(٤) أدولف هتلر ، زعيم ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية ، ولد عام ١٨٨٩ وتوفى عام ١٩٤٤ ، ألف الحزب النازى عام ١٩٣٣ ، ثم رأس الدولة الألمانية عام ١٩٣٤ ، وقادت سياسته العنصرية إلى الحرب عام ١٩٣٩ ، وانتحر عندما سقطت برلين عام ١٩٤٤ . (المترجم) .

إننا لا نتناول فى هذا المخطط هنا الآن مضامينه السياسية، وإنما نقصد فقط إلى مضاره الثقافية التى استتبعها، وهو يحظر فهم ما تعنيه المجتمعات «المفتوحة»، من نوع ما عرفه الهلال الخصيب من النماذج الأولى، شبكة مترابطة من الحضارة، ثابتة فى داخلها، ولكنها تثرى أيضا حين تتبادل التأثير مع الوحدات المستقلة.

إن مشروع حمورابى (١٧٢٨ - ١٦٨٦) - وهو الذى يبدو فى رسائله - يدل دلالة واضحة على احترامه للأجزاء الإقليمية، فى جميع المستويات: الإدارية، واللغوية، والدينية، والتشريعية، وهذا هو عكس الامبراطورية الرومانية تماماً.

لقد تخلَّقَ - خلال هذه الحركة من التبادل، والتركيب، والتمثل، والتكامل - عالَمٌ، ولم تتخلق امبراطوريات.

تخلقت حضارة تُوَحِّدُ دون تسلط، وتُحَضِّرُ دون إفساد حضارة مفتوحة، تتبادل، وتستقبل، وتعطى، حضارة مضيافة، ومهاجرة، مشددة إلى ذاتها، وذاهبة إلى بعيد.

إن تاريخ الهلال الخصيب، الذى هو تاريخ ملحمة إنسانية بالمعنى الصحيح: ملحمة النضج على مر القرون، بالثورة المستمرة وبالأبعاد الإنسانية للسمو الروحى، ولمفهوم الأمة - يمكن أن يقتصر على تاريخ الملوك والحروب، شأن تواريخ الأمم الأخرى، وأى تاريخ آخر لا يمكن أن يكون هكذا.

وإذا كان من الحق - منذ ابن خلدون ومونتسكيو - أن التاريخ الذى نعلمه ليس تاريخ الأسرات والمعارك فحسب، فإنه يظل أيضا فى جانب كبير منه تاريخ أشكال التسلط والسيطرة.

ولما كان التاريخ لا معنى له من الناحية الإنسانية الحقة إلا إذا ساعدنا على تخيل المستقبل، وتصور سياسة، هى أيضا، ليس لها معنى إنسانى حق إلا إذا كانت التاريخ وهو فى طريقه إلى أن يحدث - فإن المحاولة التى نقوم بها لكتابة تاريخ فلسطين، بوتقة الرسالة الإلهية تقودنا إلى مشكلة أضخم.

نطرحها قلقين ومؤملين، لأن حلها هو الذى يتوقف عليه اليوم مستقبل الكرة، هذه المشكلة هى: هل نختار نموذج المجتمعات «المغلقة»، ونشيد مستقبل «امبراطوريات» يجابهها «توازن الرعب»؟ أو على العكس نختار نموذج المجتمعات «المفتوحة» ونشيد عالما من الحوار، والعطاء المتبادل، عالما تؤكد فيه الإبداعات النوعية أصالتها، لا برفض الآخرين وإنكارهم وتدميرهم، بل بتكامل الجانب الإنسانى والجانب الإلهى، لدى الآخرين، وتمثلهما؟.

من هنا تصدر حياة أطفالنا، ويكون موتهم: أن نترك العالم الإمبريالى يدمر نفسه بنفسه، أو أن نبنى عالما سيمفونيا متناغما؟.

إن بحثنا التاريخى لن يكون له معنى إذا لم يكن له إسهام فى الإجابة عن هذه المسألة، ونحن بصدد التأمل حول فلسطين فى التاريخ، وحول هذه البوتقة للرسالات الإلهية.

* * * * *



تمهيد قبتاريخى

البنية الجغرافية لفلسطين بسيطة، فهى شريط مواز لشاطىء البحر الأبيض المتوسط، يتجه من الشمال إلى الجنوب: والمنخفض الطويل، شديد الانخفاض عن سطح البحر، وهو يبدأ من بحيرة الحولة (التى جففت الآن)، إلى خليج العقبة على البحر الأحمر، ومن معالمه بحيرة طبرية، (أو بحر الجليل)، ونهر الأردن، والبحر الميت، وتحكمه صخور عالية من الغرب، تشكل مقطعاً هو الذى يسم الحدود الشرقية.

وابتداء من هذه الجرف الصخرية نجد شريطاً ثانياً، موازيا، من الجبال والسهول، يهبط متدرجا فى أراضٍ بور نحو الساحل، وهى تشكل منطقة آهلة بالسكان، وطريقاً من المرتفعات.

وأخيراً إن الشريط الساحلى، يتميز بالخصوبة، والرى، ولكنه تتخلله كذلك مجارى مياه متقطعة، تهبط من الجبال.

والاختلاف كبير بين هذه المنطقة، وبين منطقتى الدلتا الكبيرتين: دلتا دجلة والفرات، ودلتا النيل، فعلى طرفى الهلال الخصيب، ولدت أقدم حضارتين فى العالم: حضارة العراق، وحضارة مصر، وكانت هذه الأنهار الكبيرة تكون شبكة مائية توحد ما بين الشعوب، فكانوا يحتاجون لترويض عملاق المياه الرهيب – إلى إمبراطوريات كبرى متمركزة، ذات قوة موحدة، هى قوة الملايين من الرجال، أما فلسطين فقد شهدت على العكس – ميلاد مدن – دول، قبل اليونان بآلاف السنين، وهى مدن سوف نتعرض لأشكالها المتتابعة، وتقلباتها، ولكنها كانت – على خلاف الامبراطوريات الكبرى المتمركزة – لا تقر فى المجتمع هوة فاصلة بين الأفراد والسلطات.

ولقد كانت فلسطين بين أقطاب الجذب للامبراطوريتين الكبيرتين، أحيانا مجال خصوماتهما، وضحية سيطرتهما وأحيانا أخرى مكان التقاء ثقافاتهما، فتستفيد من علاقاتهما وأحيانا ثالثة ينعدم التوازن بين قوتيهما، فتجد نفسها حرة فى تأكيد استقلالها وذاتيتها الثقافية.

لم تكن فلسطين تقتصر على كونها مكانا للمرور، فقد كانت تعتبر - بين القارات الثلاث: آسيا، وإفريقيا وأوربا البحر الأبيض المتوسط - مركز إشعاع، تم فيه تركيب حضارى أصيل من خلال حوار الحضارات عبر القرون، ومن خلال مزج الثقافات العليا، فقدمت للعالم بذلك صورة من أجمل صور الإسهام الروحى، منذ الحضارة الكنعانية الأولى، التى تم الكشف عنها فى رأس شمرا عام ١٩٢٩ م، وكشوف إبلة منذ عام ١٩٧٥ م، فبدأت تتكشف لنا الثروة، قبل ازدهار النبوات العبرانية، وقبل إعلان عيسى لملكوت الرب، وقبل الإسلام الذى كمل الرسالات السابقة، وفتحها على مجتمع بلا حدود.

وهكذا نستطيع أن نعرف الهلال الخصيب بأنه هذا الجزء من العالم الذى أسهم أكثر من أى جزء آخر فى وصل الإنسان بالله.

وكل ما يكشفه علم الآثار فى مرحلة ما قبل تاريخ هذه الأرض هو أن عتبات التطور الكبرى للإنسان قد عبرها فى بوتقة الهلال الخصيب، كما هو الشأن فى الحضارات المبكرة.

وربما زدنا على ذلك أن ميلاد الآلة، كما يشهد بتجاوز الإنسان للحياة الحيوانية، فإن الإيمان يشهد بأن معاملة الإنسان للموتى تدل على أن الحياة لا تقتصر على الحياة البيولوجية، فالإنسان ليس هو الحيوان الذى يصنع الآلات فحسب، إنه الحيوان الوحيد الذى يبنى القبور والمعابد.

إن آلات إنسان العبيدية قريبة من آلات إنسان الألدوفى الثانى فى إفريقية الشرقية، حيث كشف عن أقدم إنسان استخدم أدواته من الحجر، وهو المعروف حتى الآن «بإنسان كارمل» الذى وجد فى كهوف تابونTaboun وقفزة qafzeh، وهو يقع، اعتمادا على التحديد بوساطة الكربون ١٤ - بين ٥٢,٠٠٠ و ٣٥,٠٠٠ ألف سنة، ومعنى ذلك أن إنسان الموستريان فى فلسطين، ومعه قبوره، قد وجد فى مستوى أقدم الحضارات العليا.

إن تحضير البدو ، والانتقال من مرحلة القطاف والصيد إلى مرحلة الزراعة والتدجين ، وهو ما يطلق عليه دوردثى جرود D. GARROD بعد أن أنجز حفرياته فى وادى نتوف : المرحلة النتوفية - كانت منذ حوالى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وفى هذا العصر كانت منطقة أريحا قد ألفت استخدام القمح والشعير ، وروضت الماعز ، وقد عثر على آثار ما يمكن أن يطلق عليه أقدم « مدينة » فى العالم . ومهما يكن شأن هذا التمدين الأولى فى أريحا وغيرها من مراكز فلسطين - فإن الإنسان قد عبر - ما بين ٧,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ سنة ق . م - من مرحلة الاقتصاد القائم على الانتهاب والقنص إلى مرحلة اقتصاد الإنتاج .

ثم حدث لأسباب نجهلها (ربما جفاف متطاول ، أو غزو بدوى) أن هجرت هذه المواقع فى النصف الثانى من القرن السابع ق . م .

وقد تم الكشف عن مرحلة جديدة من الحضارة ، عثر على بقاياها لأول مرة فى تليلات غسول Teleilat Ghassul شمال البحر الميت ، وقد أطلق عليها لهذا (الغسولية) Ghassouliemne - وتميزت بظهور أوان من النحاس والفخار (السيراميك) ذات زخارف هندسية ، كما عثر على نسيج ذى ألياف نباتية ، ولعله من الكتان ، وذلك إلى جانب الأدوات الحجرية .

وعثر أيضا على نفائس من نفس الطراز فى تجمعات أخرى بفلسطين ، ولا سيما فى تل أبو مطر ، وفى بير صفدى ، وفى خربة البيطار . وقد استغرقت هذه الحضارة فى الألف الرابعة ، من حوالى ٣٦٠٠ إلى ٣٢٠٠ ق . م . ثم اختفت ، ودون أية إشارة إلى تخريب عنيف ، ودون أن تخلفها مرحلة أخرى : كل ما حدث أن مواقعها هجرت .

واستمر منذئذ تاريخ ، شهدت بوجوده كتابات ، هيروغليفية فى مصر ، أو مسمارية فى العراق ، وهو يبدأ حوالى نهاية الألف الرابع (٣١٠٠ ق . م) مع الهجرات الضخمة ، فى العصر البرونزى القديم .

إن من المحتمل أن تكون مصادر هذه الموجات فى شبه الجزيرة العربية ، وهى خزان القبائل البدوية ، التى تترك الصحراء بحثا عن طبيعة أكثر سخاء ، فهى تعبر «الهلال الخصيب» صاعدة مع مجرى الفرات ، ثم مجرى نهر العاصى ، ثم تستقر أخيراً فى أراضى فلسطين الغنية ، حيث عَرَفَتْ لدى اتصالها بالمدن السورية ، مثل بابلا Biblos [(١)] – أشكالَ الحياة المدنية ، وفن البناء بالقوالب ، فاستقرت لزمن طويل .

هؤلاء المهاجرون فى فجر الأزمنة التاريخية ، أطلق عليهم «الكنعانيون» تبعا لاستعمال الكتاب المقدس ، الذى يطلق هذا الاسم على السكان الساميين فى فلسطين ، قبل وصول الإسرائيليين ، ولكن ينبغى أن نتذكر أن هذا الاسم اتفاق ، فكنعان لم يذكر فى النصوص (السابقة على الكتاب المقدس R.G - extra bibligues) قبل منتصف الألف الثانية [(٢)] .

ومن الجدير بالذكر أن اللقب (سامى – Semit) لا يعنى جنسا أو عنصراً ، ولكنه كان يعنى أولًا مجموعة لغوية هى : اللغات السامية ، وهى لغات تتميز أساساً بجذور ثلاثية (ذات ثلاث صوامت) فى أفعالها ، وهى لا تعرف ، فضلا عن ذلك ، سوى زمنين هما : التام : Le parfait ، وغير التام : L' imparfait .

ولسوف تكون الهجرات المتعددة ، حتى غزو الاسكندر (عام ٣٣٣ ق . م) موجات وتسللات لها نفس الحركة «السامية» سواء أكان المهاجرون آراميين يستقرون فى سوريا ، أم عبرانيين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، أم أنباطا فى القرن الرابع لا يتجاوزون فى حركتهم البتراء ، أم مسلمين من الجزيرة العربية ، يصلون عام ٦٣٦ ميلادية – إلى بلد عربى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ليحرروه فقط من النير الرومانى البيزنطى .

---

(١) لعلها المذكورة فى معجم البلدان : قرية كبيرة بظاهر حلب ، بينهما نحو ميل . (انظر جـ ١ ص ٣٠٩ طبعة دار صادر – لبنان) (المترجم) .

(٢) الأب دوفر : تاريخ إسرائيل – «Histoire, d' Israeï» ص ٥٨ .

أما اللغتان العربية والعبرية فإن بينهما قرابة وثيقة ذلك أن العبرانيين مجموعة من القبائل السامية، ضمن قبائل أخرى كانت الآرامية، لغتهم الأولى، هى اللغة الأم للعربية والعبرية، ونفس الجذر السامى (habr) يمكن بشىء من التحوير أن يعطى صوامت عربية وعبرية، كلاهما لا يعين جنساً، ولا عنصراً، وإنما هو يعنى طريقة حياة: هى حياة البدو.

فالعبرانيون قبائل سامية، خارجة من شبه الجزيرة العربية، ثم تبدت وترحلت كغيرها من القبائل فى الهلال الخصيب، فى العراق ومصر، لتستقر نهائيا فى فلسطين، ولتتحضر حين تتمدن باتصالها بالثقافة الكنعانية.

وسيناريو هذه الهجرات واحد دائما: الغزاة الرحل، أموريين أو آراميين، أو عبرانيين، أو أنباطا، أو مسلمين[1] من الجزيرة العربية، ينتقلون داخل الهلال الخصيب من الحياة البدوية إلى الحياة الحضرية، ويتمثلون أسس الحضارة الكنعانية، ويضيفون إليها فى كل موجة قدراً من الفضائل البدوية.

فشأن فلسطين إذن كشأن كل الهلال الخصيب – بوتقة، وشعب، وثقافة – معاً.

والقاعدة الأساسية فى ذلك هى أرض كنعان، والشعب الكنعانى والثقافة الكنعانية، التى كانت منذ خمسة آلاف عام من الهجرة السامية، من (٣١٠٠ ق. م) حتى نهاية القرن العشرين، تكوّن الشعب الفلسطينى، العامل النشيط والمبدع، بوتقة الحضارة. وإن الإنسانية لتدين للهلال الخصيب بالكتابةالهجائية التى أدت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى خلق الحركة الهائلة فى نشر الثقافة على نحو ديمقراطى[2]، وذلك بالانتقال من الرموز والصور الهيروغليفية فى مصر، والرموز المسمارية فى العراق.

---

(١) يريد المؤلف أنهم جميعاً ينتمون إلى أصل واحد. (المترجم).

(٢) استخدم المؤلف مصطلح «démocratis ation»، وهو يعنى: جعل الثقافة ذات صبغة ديمقراطية، وقياس ترجمة هذا المصطلح أن يأتى على الفعللة، فيقال: (دقرطة أو مقرطة)، ولكن هذه الصيغة غير مألوفة ولا مسوغة، فآثرنا التعبير عن المقصود بها على النحو الواضح للقارىء (المترجم).

وهى نظم للكتابة كانت تقتصر على بعض الناس، وظلت امتيازاً للمثقفين من الكهنة والكتاب - إلى مجرد تدوين الأصوات، واختصارها إلى بضع وعشرين علامة، ومن ثم سهل الوصول إليها بالنسبة إلى القاعدة الشعبية، لقد كان هذا ثورة من أعمق الثورات الثقافية فى الملحمة الإنسانية.

والعطاء الآخر الذى قدمه الهلال الخصيب إلى الإنسانية من أجل «أنسنة النوع الإنسانى» هو تنمية البعد العلوى للإنسان.

ولسنا نستطيع أن نضع هذا الإسهام فى حاقّ موضعه إلا إذا حصرنا ضروب التأثير، والاقتراض، لنستخلص منها ما كان من المؤلفات أصيلًا ولامعاً.

والحق أن الهلال الخصيب كان مجاز القوافل، تصب فيه بضائعها من العاج والذهب من إفريقية، والمر والبخور واللبان والتوابل من الهند، ومن جنوب شبه الجزيرة العربية، والعنبر والحرير من الصين، ومن أسيا الوسطى، والقمح وخشب الأرز من الشام، وكان يصله عن طريق البحر نحاس قبرص، ومنتجات كريت وبحر إيجة، كما كانت تصله منتجات مصر.

والحق أيضاً أنه على أرض الهلال الخصيب كانت تتدفق فى مد الإمبراطوريات وجَزْرِها جيوشُ كل الفاتحين: جيش مصر الفرعونية، وجيش الأشوريين والبابليين، وجيوش شعوب البحر، وجيش الإمبراطورية الفارسية، وجيش العبرانيين، وجيوش الإسكندر، والرومان، والبيزنطيين، والتوسع العربى، والغزو المغولى، والغزو الصليبى، والسيطرة العثمانية، وحملة بونابرت حتى عكا، والاستعمار الغربى الإنجليزى، ثم الصهيونية. فمن تحتمس الثالث إلى نبوخذ نصر، ومن جودفروى إلى بونابرت، ومن إبراهيم باشا إلى الجنرال اللنبى - عبرت الجيوش الأجنبية نفس الطرق، وتواجهت على نفس ميادين المعركة، وتبددت أحلام الفاتحين على هذه الأرض كأنها أوراق ميتة، وغيض الدم فى بحر الرمال.

والذى بقى، بعد كل هذه الهيمنة الزائلة، وألوان التحكم، هو استمرار الشعب والثقافة الضاربين بجذورهما فى هذه الأرض منذ خمسة آلاف عام، منذ الكنعانيين حتى صباح التاريخ، إلى فلسطينيى اليوم.

وينبغى ألا نقلل من شأن العطاء الذى قدمته القيم الروحية العليا للشرق الأوسط، كيلا نعتمد فى تفسيرنا على نوع من الاستثنائية المنتصرة إلى حين، كأنما كان ازدهار الجانب الإلهى فى فلسطين زهرة من زهور الصحراء.

لقد عثر عام ١٩٥٩ فى بلدة مجيدو على جزء من الملحمة العراقية لجلجامش، منتشرة فى كثير من اللغات فى الألف الثانية قبل الميلاد، وكان العنصر الإلهى يزمجر فى نفس البطل عندما يعنف الإله شَمَشْ الذى يحاول أن يلفته عنه، وذلك انطلاقاً من فكرة غزو الخلود، قائلا:

«إذا لم يكن واجبا إنجاز هذا المشروع فلماذا زرعت يا شمش فى قلبى الرغبة القلقة»؟.

وفى كتابات عاى AI الجنائزية، وهى قريبة من بيت إيل، عثر على صدى «لكتاب الموتى» المصرى، فى منتصف الألف الثانية: «أيها الإله الذى يعيش فىّ كما أعيش فيه....» ونداء الله الذى هو فى الإنسان، وعلى المسلات المصرية فى بَحِيرِي الكاب: «هل تستطيع أن تعبر الخلود برقة نفسك، وبفضل الله الذى هو فيك»، أو التعاليم من أجل الملك ميريكار MERIKARE (حوالى عام ٢١٠٠ ق. م):

«لو مات دون معصية
فسوف يبقى هناك متمهلا كأنه إله
يمشى خطى الخلود فى حرية.»

ولقد عرف الهلال الخصيب شريعة حمورابى، ملك بابل قبل الوصايا العشر بقرون، وعرف توحيد اخناتون، الفرعون الذى كان يحلم «بنشيد الشمس» وهو الذى ردده المزمور الرابع بعد المائة من الكتاب المقدس، حتى الصدر، وذلك قبل أن ينشر أشعياء كل نتائج الوحدانية بقرون.

من هذا التراث الغنى العميق سوف يمكننا أن نحصر العطاء النوعى للهلال الخصيب، والإضافة التى قدمها للروحية الإنسانية، من خلال الكتاب المقدس الكنعانى،الذي تم كشفه فى رأس شمرا بسورية، عام ١٩٢٩، عبر التوراة، والأنبياء العبرانيين، وعبر إنجيل عيسى، ورسالة الإسلام.

إن العلاقات المعقدة بين أرض، وشعب، وثقافة لا يمكن أن تفهم فى فلسطين إلا انطلاقاً من أصلها التاريخى: الحضارة الكنعانية، وعطائها المتتابع الذى كملته، والتى أثروها.

* * * * *

الباب الأول

تاريخ أرض



الفصـــل الأول

الحضارة الكنعانية



١ - المصادر.

تعرض تاريخ فلسطين دائما للتشويه من الباحثين فيه، خضوعا لدوافعهم الدينية أو السياسية.

أما الاهتمام التاريخى والعلمى المحض فإنه يقتضى أن نأخذ بعين الإدراك عطاء هذه المرحلة أو تلك، وهذه المنطقة أو تلك، للتاريخ الإنسانى، كما يقتضى أن نتساءل عمّا قدم شعب ما وحضارته إلى الشكل الإنسانى. هذا الإهتمام، فيما يخص فلسطين كان دائما خفيا غائما، عن عمد أو عن غير عمد، سواء على مستوى البحث، أو على مستوى التفسير.

ومنذ بدايات البحوث الأثرية المنهجية عن فلسطين، وهى التى بدأت فى القرن العشرين، ورؤية التوقع التاريخى كانت مزيفة، بعامل دينى مسبق، ذلك أن الوثيقة الأساسية كانت الكتاب المقدس، وانطلاقاً من هذا النص طرحت كل المسائل، فكانت المشكلة الكبرى هى مشكلة الجانب التاريخى.

هل صدق الكتاب المقدس؟.

فى إبريل - مايو ١٨٦١ كان إرنست رينان يزور فلسطين، مصاحبا للحملة التى قام بها نابليون الثالث ضد الدروز بجبل لبنان، وعندما عاد كتب بحثه عن «حياة يسوع» « Vie de Jesus ».

أما بالنسبة إلى الآخرين فقد كانوا يقررون بأى ثمن أن الكتاب المقدس يقول الحق. فعندما أنشىء عام ١٨٦٥ م فى لندن أول مركز للبحوث الأثرية فى فلسطين باسم: «Palestine exploration fund» - كان الهدف محددا بكل وضوح، ذلك أن ميثاق التأسيس يحدد أن مهمته أن يجرى «بحثا دقيقاً»، ومنهجيا، أثريا، وطبوغرافيا، وجيولوجيا، وإثنولوجيا عن الأرض المقدسة، من أجل توضيح نص الكتاب المقدس.

إن التدخل الدائم بين اللاهوت والتاريخ يقودنا إلى أن نطلب من التاريخ أو من علم الآثار أحد خيارين، فإما أن يشهد للإيمان، وإما أن يشهد ضده، وهذا يفترض الفقر البالغ فى مفهوم الإيمان، الذى يختلط بالعقيدة، وهو مفهوم وضعى للإيمان يقتصر به على أن يحكم تاريخيا على هذه الأحداث أو تلك بأنها واقع، فهو العقيدة، وإلا كان سذاجة، على حين أن الإيمان وهو تجاوز أزلى للحدث (أى: ما سبق أن كان حدثا) هو أمل، وحب، وإرادة غير مشروطة لاستباق ما سوف يحدث لتحقيق مملكة الله، يقينا بأن المثل الأعلى أكثر صدقاً من الواقع، وأننا مسئولون عن تحقيقه.

إن نصوص الكتاب المقدس هى غالبا شهادات عليا على ما استطاع بعض الرجال أن يبدعوه، على أنه صورة نموذجية لما هو إلهى فيهم، فما الذى يهمنا حينئذ فى أن يكون بطل قصة إبراهيم أسطوريا، أو يكون بطلا من لحم وعظم؟.. إن الإيمان لا يصدر من اختيار كهذا، يُثْبِتُ أو يَنْفِى مثلَ هذه النفائس الأثرية، وإنما الإيمان يقين بأن الإنسان يستطيع أن يحقق فى أكثر المهمات دنيوية «حركات اللانهائية» على ما قرره كيركجارد فى تأملاته الرائعة عن إبراهيم – فارس الإيمان [1]، وانطلاقاً من هذا اليقين تكون إرادتنا أن نؤدى أعمالنا إجابةً غير مشروطة على أمر الله، تبعاً للنموذج المثالى لتضحية إبراهيم.

وهكذا يتحرر البحث التاريخى من مفهوم وضعى للدين (اليهودى، أو النصرانى، أو الإسلامى)، يخلط الإيمان بالحدث، ناسيا أن الإيمان هو أمر الإرادة، وليس مجرد إثبات حالة، ولا هو خضوع للحدث، وللواقع الذى كان، بل هو على العكس خضوع لأمر الله.

---

(١) الأعمال الكاملة. «Crainte et trembleneut» ,Sören KIERKEGAARD.

حتى ينزع عنا الواقع القائم، ويتجاوزه من أجل خلق مستقبل ذى وجه إنسانى وإلهى [1].

ولعل إيمانويل أنتى Emmanuel ANATI قد أسرف فى التعميم حين كتب يقول: «إن سير البطاركة ليس فيها اسم واحد لشخص عادى من بينهم استطاع أن يقتدى بشخصية مذكورة فى النصوص التاريخية... وكل ما يثبته علم الآثار أن مجموعات متماثلة من ذرية إبراهيم قد تاهوا فى بيداء الشام، والاردن، ونجف، [2] وسيناء، خلال تلك الحقبة [3]».

نعم، لعله أسرف فى التعميم حين لجأ إلى نفس التحليل التاريخى الذى اتبع فى دراسة الإلياذة.

إن هناك أيضا بعض الأساطير، أعنى: الملاحم المكتوبة بعد مرحلة طويلة من الروايات الشفهية، وهذا الروايات الشفهية ذاتها، مثل «أناشيد البطولة» فى القرون الوسطى فى الغرب، أو ملاحم الهند مثل: رَامَيانَا Ramayana أو مَهابَرَتَا Mahabarata – ليست خيالا شعريا محضاً:

---

(١) ليست هذه الملاحظات الأولية استطراداً لاهوتياً بل هى ضرورية بإطلاق فى «تاريخ فلسطين»، حتى لا يحدث خلط للبحث العلمى بالأعمال التى يقصد بها تدنيس المقدسات فكون هذا النص الكتابى مثلًا بلا أساس تاريخى، أو حتى لو كان مناقضا أصلا لمعطيات علم الآثار – فإن ذلك لا علاقة له بالإيمان اليهودى، أو النصرانى، أو الإسلامى، فالهدف هو أنه فى سبيل تحرير البحث التاريخى يجب ألا نخلط بين الواقع التاريخى وحقيقة الإيمان.

(٢) مكان فى سيناء وقعت فيه معارك حديثة بين مصر وإسرائيل. (المترجم).

(٣) عمانويل أنتى «فلسطين قبل العبرانيين – «Palestine before the hebreus» – لندن ١٩٦٣ ص ٣٧.

فإن المواجهات التاريخيه الواقعية، وحركات الشعوب قد ضخمت وعظمت، وغيرت أماكنها فى أعمال الشعراء، ولسوف تجد أجيال من البشر فى هكتور رولاند HECTOR ROLAND وفى راما RAMA أرفع النماذج فى حياة الإنسان، وفى تجسيد عبقرية الحضارة. وهذا الأمر مستقل تمام الاستقلال عن الأعمال الرائعة التى قدمها بعض المؤرخين والأثريين ومن بينهم شليمان SCHLIEMAN عام ١٨٧٠ م، ودربفلد DOERPFELD من عام ١٩٣٢ م حتى عام ١٩٣٨ م، وهم الذى عثروا على موقع تروا Site de troie، ونقبوا فيها، وكشفوا عن بقايا أسوارها، وما أصابها من حريق، كما أبرزوا وجود المدن، وقصور الملاك الميسينين، الذين غزوا الترويين فى ملحمة هوميروس.

إن العظمة الشعرية، والأخلاقية، والأسطورية للأبطال المؤسسين الذين أضافوا الكثير إلى الشكل الإنسانى – لا تتوقف على هذا التقابل بين الأحدوثة والتاريخ، ذلك أن الموقف العكسى، وهو الخلط بين الحدث والإيمان يؤدى إلى ضروب من السذاجة، عندما تسبق النتائج «اللاهوتية» البحث التاريخى أو الأثرى، وتستبد به. ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما نشر القس الألمانى سلن SELLIN عام ١٩١٣ تفاصيل حفرياته فى أريحا – ذكر أنه عثر فعلا على الأسوار المهدمة، وأنه رأى فيها على الفور تلك الأسوار التى هدها صوت طبول يشوع (يشوع ٢ / ١٢) والواقع أن البحوث التاريخية اللاحقة قد أثبتت – على ما ذكر الأب دوفو Pére devaux – أن الإسرائيليين الذين وصلوا فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد لم يستطيعوا الاستيلاء على أريحا، لأنها كانت حينئذ قد هجرت [١].

(١) الأب دوفو «تاريخ إسرائيل القديم – Histoire Ancienne d' Israél» ط جبالدا عام ١٩٧١ ص ٥٦٢.

وكذلك الحال بالنسبة إلى «الاستيلاء على عاى»، من قبل يشوع، (يشوع ٨/١ - ٢٩)، فإن الأب دوفو يؤكد «أن هذه القصة هى أكثر قصص الغزو تفصيلا، فهى لا تتضمن أى عنصر خارق، بل وتبدو كأنها الأكثر احتمالاً، ولقد كذبها - بكل أسف - علماء الآثار... فعندما وصل الإسرائيليون لم يكن هنالك مدينة فى عاى، بل كانت أنقاض قديمة منذ ألف ومائتى عام» (١).

إن أمانة المؤرخ والأثرى تحملهما، فى هذا الكتاب الرائع للأب دوفو على تحقيق ما استكن فى أعماقهما من رغبة فى أن يستشهدا بالتاريخ على مدى صحة الحكاية الكتابية التى يتجلى فيها «سوء الحظ والتعاسة».

وإنا لنجد قدراً من هذه المشاعر لدى أغلبية مؤرخى فلسطين، فإيما نويل أنتى يكتب مثلًا: «إن من المدهش أننا لانجد فى أى نص مصرى أقل أثر، أو حتى تلميح لتلك الإقامة الطويلة للعبرانيين فى بلد الفراعنة» (٢).

ولربما عانينا نفس الدهشة ونحن نلاحظ أن لا أثر - خارج العهد القديم - لذلك الخروج من مصر، الذى ابتلع البحر خلاله جيوش فرعون، بعد معجزة عبور العبرانيين الذى انفلق أمامهم البحر.

وكذلك لانجد أى تلميح فى النصوص المصرية لحادث بهذا القدر من الأهمية: إبادة جيش، على حين نجد فى جانب العلاقات الحدودية، فى نفس العصر، تقارير مفصلة عن عبور قبائل بدوية قليلة الشأن (٣).

---

(١) السابق ص ٥٦٥.

(٢) السابق ص ٣٨٩.

(٣)مثال: بابيروس أناستاسى PAPYRUS ANASTASI جـ ٦ ص ٥١ - ٦١، وقد أشير إليه فى «Textes du proche orierntancient et histoire d' Israël»، تأليف: بريان وسوكس BRIEND et SEUX، طبعة سيرف ١٩٧٧ ص ٦٨، وأشير إليه كذلك فى «Textes de la Bible et de L' ancient orient» طبعة دلاشو ونسلى نيوشاتل ١٩٦١، ص ٤٢.

فلماذا أصابت الدهشة أنتى؟..

أيمكن أن يكون هذا أكثر أهمية عنده – على الأقل – من ثمرة شهادة توثق أسطورة الخروج العظيمة، حيث قدم راويها نموذجا خالدا لاتصاف كل القوى بالنسبية، حتى قوة فرعون، وهو يدعى أن له قوة الرب، بدءاً من اقتلاع أشكال العبودية كلها بلا شرط، وانتهاء بدعوة الله ورسله؟.

وأخطر من ذلك أن هذا الاتجاه اللاهوتى، والذى يحتمل أنه لا شعورى، يقود أحيانا إلى العمى. فيذكر أنتى[١] نص سفر التكوين ١١ / ٣١ – ٣٢ «وأخذ تارح ابرام ابنه، ... من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى حاران، وأقاموا هناك، وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين، ومات تارح فى حاران»!!.

لم يُدْهش أنتى من عمر تارح، وهو لم يَرْتَبْ فى المفارقة التاريخية التى تتمثل فى الحديث عن «كلدية» فى زمن إبراهيم، على حين أن اسم (كلدية) لم يظهر للمرة الأولى إلا فى سنى اشوربانيبال[٢] ASSURBANIPAL (٨٨٤ – ٨٥٩) ق.م، وعلى ذلك فإن مؤلف هذا النص من سفر التكوين لم يستطع أن يكتبه إلا بعد الحادث المفترض بأكثر من ألف عام.

ويستطرد أنتى بهدوء قائلًا: «ومن هذه القصة نعلم أن أصل الإسرائيليين كان كلدية»[٣].

إننا نستطيع أن نضاعف الأمثلة، مما لدى علماء الآثار ذوى الإدراك الواعى، بيد أننا نكتفى بأن نبين إلى أى مستوى من الهذيان والسذاجة يستطيع دافع لاشعورى كهذا أن يقود الباحثين.

---

(١) السابق ص ٣٨٢.

(٢) هو ملك آشور من ٦٦٩ – ٦٢٦ ق. م (انظر معجم لاروس بالفرنسية) (المترجم).

(٣)السابق.

لقد كتب الأب بوزى BUZY، وهو أحد الرواد فى دراسة ما قبل التاريخ فى فلسطين، كتب يصف عام ١٩٢٨، فى مجلة الكتاب المقدس (Revue biblique) – أداة من الصوان، وجدها على حدود نجف، وسيناء، وترجع إلى عهد (تميد) من عشرة إلى خمسة عشر ألفا من السنين، فكتب: «وأيّاما كان أمر التحديد التاريخى الدقيق لهذه الأزمنة غير المؤكدة، فإن المفسر لا يسعه إلا أن ينظر بعين التعاطف إلى قبيلة مجدلية، تعيش وتعمل فى جنوب فلسطين... إن كل ما يمس تاريخ الأرض المقدسة يهمنا، وليس أمراً قليل الأهمية مطلقاً أن نعلم أن قبيلة مجدلية كانت تحرس طريق سيناء فى مستهل العهد الكنعانى، لعدة سنين، أو لبضعة قرون».

ولكى نبين إلى أية درجة من العنصرية الوحشية يمكن للاستخدام السياسى للكتاب المقدس أن يتحكم فى المؤرخ نقتصر على ذكر واحد من أشهر المؤرخين هو الأمريكى وليام فكسويل البرايت William FOX WELL ALBRIGHT فى كتابه (من العصر الحجرى إلى العصر المسيحى: الوحدانية وتطورها) (الترجمة الفرنسية نشر Payot ١٩٥١ – ص ٢٠٥): إنه يبرر «الإبادة المقدسة» فى غزو كنعان، ثم يمر بمرحلة قنع فيها الغازى بطرد أبناء البلاد الأصليين، فينقل عن الكتاب المقدس:

«وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف، وأشعلوا المدينة بالنار» (القضاة ١/٨) ثم إن «الله يطرد أمامكم الكنعانيين» (يشوع ٣/١٠) «وأنا أطرد أمامك الكنعانيين» (الخروج ٣٣/٢).

وبعد أن يذكر مثال طرد الهنود من بلده يضيف: «ونحن – الأمريكيين – ربما كنا أقل حقا من أغلب الأمم الحديثة، برغم نزعتنا الإنسانية الصادقة، فى أن نحكم على الإسرائيليين، فى القرن الثالث عشر (ق. م)، فلقد أبدنا، عن عمد أو عن غير عمد، آلاف الهنود، فى جميع أرجاء بلدنا الكبير، وجمعنا كل من بقى منهم فى معسكرات كبرى للتجميع».

ثم يضيف فى هامش نفس الصفحة (٢٠٥) تلك المجاهرة الحقيقية بالإيمان العنصرى : «إن فلسفة التاريخ، التى هى قاض متجرد نزيه، غالبا ما ترى من الضرورى اختفاء شعب ذى مستوى دنىء، كيما يخلى مكانه لشعب يتمتع بميزات وملكات راقية، إذ إن اختلاط الأجناس يصبح كارثة عند مستوى معين»، وقد سمح له هذا الكلام أن يخرج بنتيجة فيما يخص الكنعانيين، فقال : «لقد كان الإسرائيليون الذين قاموا بالغزو شعباً همجياً مزودا بطاقة بدائية، وإرادة للحياة شرسة، وكان هذا من أجل المستقبل السعيد للوحدانية، ذلك أن إبادة الكنعانيين قد حالت دون انصهار شعبين فى بوتقة قرابتهما، فربما أدى هذا الانصهار - لو حدث - إلى إضعاف اليهويّة[1] le Yahwisme إلى أقصى حد»[2].

لقد كان من الضرورى أن نذكر هنا فى أى جو دينى وسياسى يتم البحث، فيما يخص تاريخ فلسطين، كيما نبين الصعوبات التى تعوق الاقتراب الهادىء من هذا التاريخ.

---

(١) تكشف الدراسة النقدية لنصوص التوراة عن تداخل عدة مستويات تشير إلى مراحل تاريخية مرت بها، وأقدمها بإطلاق النصوص التى تعبر عن الإله بكلمة Yahwi : يهوى، ومنه اشتققنا المصدر الصناعى : اليهوية، ومنها ما يعبر عن الإله بكلمة : إلوهيم، وهو مستوى حديث نسبياً (المترجم).

(٢) و . ف ألبرايت متخصص مشهور فى فلسطين، كان مديراً «للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية» فى القدس، والكتاب الذى ذكرناه كتب مقدمة ترجمته إلى الفرنسية عام ١٩٥١ أندريه باروت André PARROTالذى كان مديراً محافظاً للآثار الشرقية فى متحف اللوفر. والبرايت هو مؤلف كتاب عن تركيب «علم الآثار فى فلسطين» لندن ١٩٦٣م وذلك فضلا عن دراساته الوافية لحفرياته، ولا سيما فى تل بيت مرسم عام ١٩٣٢ - ١٩٣٨ م.

ذلك أن الحضارة الكنعانية ظلت زمنا طويلًا معروفة، (أو بالأحرى: غير معروفة) ومتنكرة، من خلال أولئك الذين كانوا يبغضونها: ولا سيما كُتَّاب «تثنية الاشتراع» الذى كانوا يميلون إلى طمسها بدلا من وصفها.

إن أول مؤلف عن الحضارة الكنعانية «كنعان فى ضوء الكشف الحديث (Canaan d'aprés l'exploration recente) كتبه عام ١٩٠٠ م أحد الآباء والدومينيكانيين، هو الأب فنسانت P. Vincent، وهو مجرد زائر للساحات، باحثاً عن مقبرة داود، بإشراف من باركر، فلم يفدنا بشىء مطلقاً عن الكنعانيين سوى الحكايات الكتابية.

أما متى صار البحث الجاد ممكنا؟ فإن ذلك لم يكن إلا ابتداء من عام ١٩٢٩، مع المنشورات الأولى عن حفائر رأس شمرا، وهى مكتبة حقيقية أتاحت إعادة البناء الجزئى للكتاب المقدس الكنعانى Le Bible Canaanienne، وبذلك اتضحت المعلومات القديمة التى قدمتها ألواح تل العمارنة، وهى عبارة عن رسائل الملوك الكنعانيين إلى الفراعنة، أمينوفيس الثالث، وأمينوفيس الرابع (إخناتون) فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وعن النصوص المنقوشة، وما سجل على الأوانى التى تحمل أسماء الأمراء الكنعانيين، ثم كانت تحطم عندما كان هؤلاء الأمراء يخونون (فى القرن العشرين قبل الميلاد). وتحكى لنا سجلات ملوك مارى التى عثر عليها أندريه باروت عام ١٩٣٤ عن هجرات الأموريين منذ بداية الألف الثانية، أما ما كشفت عنه البعثة الإيطالية بإشراف باولو ماتيا Paolo Matthiae عام ١٩٧٥ من وجود ١٧٠٠٠ لوحة فى القصر الملكى بإبلة فى سورية - فإنه لا يكشف - حسبُ - عن أصالة الحضارة السورية، بل إنه يكشف عن إشعاع ثقافتها الخاصة خلال قريب من ألف عام (من سنة ٢٤٠٠ إلى ١٦٠٠ ق. م) من الفرات إلى النيل.

تلكم هى المصادر الأساسية التى بفضلها نستطيع اليوم أن نعيد بناء الحضارة الكنعانية، ووحدة الهلال الخصيب، بدءا من جذورها فى ذاتها، وفى تطورها.

٢ - التشكيل:

لقد ولدت الحضارة الكنعانية، كسائر حضارات التاريخ من مزيج من أجناس متعددة، اتجهت فى حركتها نحو الهلال الخصيب، خلال عدة قرون، وقد وصل بعض هذه الأجناس من أجل الاستقرار، فى أقصى طرفه الغربى: كنعان. بيد أننا نستطيع أن نتحدث عن «حضارة كنعانية» لأن عطاء الأجناس رغم تنوعه كان يتجلى من خلاله استمرار تطور كيان واحد، يثريه دائما وعلى وجه التحديد إضافات هذه الأجناس السامية غالباً، سواء أكانت أمورية، أم آرامية، أم عبرانية، أم نبطية، أم هندية - آرية، يختلط بهم الحورانيون، والقادمون من كريت ومن البحر الأبيض المتوسط، كالفلسطينيين.

كتب الأب دوفو[1] يقول «كانت بداية العصر البرونزى القديم (٣١٠٠ ق.م) هى الزمن الذى استقر فيه الساميون لأول مرة فى فلسطين، وقد أطلق عليهم «الكنعانيون» تبعاً لإطلاق الكتاب المقدس، الذى يخلع هذا الاسم على السكان الساميين فى فلسطين قبل وصول الإسرائيليين، ولكن ينبغى أن نتذكر أن هذا الاسم اتفاق، فإن كنعان لم يرد له ذكر فى النصوص قبل الألف الثانية.

ولقد كانت فلسطين خلال المرحلة التى يطلق عليها الأثريون مرحلة العصر البرونزى القديم (٣١٠٠ - ٢٢٠٠ ق. م) واقعة فى منطقة تأثير الامبراطوريات العراقية، سواء أكانت امبراطورية لوجلزا جيزى Lovgalzaggisi، الذى كان يطلق على نفسه «ملك العالم» أم كانت امبراطورية سرجون أكّاد، أو نرم سن Naram - SIN، أم كان ذلك متأخرا مع امبراطورية حمورابى فى القرن الثامن عشر. ق. م.

---

(١) السابق ص ٥٧.

كانت فلسطين انذاك بلدا مزدهراً، حتى لقد عرضت قصة فريدة لوصفه بالكثير من الحرص، وهى قصة أمير مصرى مهاجر، يسمى سينوهيت Sinouhit، حوالى سنة ٢٠٠٠ ق. م، قال: «إن فيها تينا وعنبا وإن خمرها أغزر من الماء، وعسلها كثير، وزيتونها وفير، وكل ما تشتهيه من أنواع الفواكه تجود به الأشجار»[1].

ويدل ما تحدث عنه سينوهى من وفرة زراعية على أن الشعب كان يتألف من مزارعين، ومُربِّى ماشية، وتجار أيضا، إذ إن الحفريات قد كشفت عن أوان، وأسلحة من البرونز، اجتلب نحاسها من الأناضول.

كانت سمات هذا العصر وجود القلاع الحصينة، وإن كانت ضيقة (فقلعة جزر Gezer،وهى من أكبرها، لم تزد على ألف ومائتى متر، فى محيطها، وقلعة أريحا كان محيطها سبعمائة وثمانية وسبعين متراً)، وكانت هذه القلاع فى أكثر الاحتمال مخازن للمؤن، وملاجىء فى حال أى هجوم، وفى أقل الاحتمال مسكناً دائما، وكانت تغذيتها بالمياه تتم عبر قنوات مائية تحت الأرض (على عمق ثلاثين متراً تقريباً فى جزر، وبطول سبعين متراً، لتجتذب الماء من أقرب نبع).

كانت الحضارة الكنعانية حينئذ قادرة على امتصاص موجات المهاجرين واستيعابهم، كأولئك الذين وصلوا حوالى عام ٢٦٠٠ ق. م. مما وراء القوقاز، كما تدل على ذلك أوانى الخزف ذات الطابع الجديد، والتى عثر عليها فى خربت كرك، وما أسرع ما تمثلت الحضارة هؤلاء المهاجرين.

وفى مقابل ذلك نجد أن الحال تغيرت عندما حدث انقلاب شامل فى كل أنحاء الهلال الخصيب، من العراق إلى مصر، جراء الغزوات الكثيرة التى استغرقت عدة قرون.

---

(١) A. H. Gardiner : «notes on the Story of sinuhe» (1916).

كانت أقوى موجات هذه الغزوات هى موجة الأموريين [1] ، فهؤلاء الأموريون القادمون من الصحراء السورية ، أغرقوا حتى أكبر القوى فى المنطقة : فعلى الرغم من أن الملك شوسن Shu - Sin ، وهو الملك قبل الأخير فى الأسرة الثالثة التى كانت تحكم أور (٢٠٤٨ – ٢٠٣٩ ق . م) ، كان قد بنى خط دفاع عن بلاده ، فإن إحدى الرسائل الموجهة إلى خلفه أبّى سن Ibbi Sin ، (٢٠٣٩ – ٢٠١٥) تُعْلمنا أن الأموريين (مار – تو – Mar - Tu) ، بقضهم وقضيضهم قد اخترقوا البلاد : واستولوا على قلاعها الكبرى ، واحدة تلو أخرى .

---

(١) إن تاريخ الأموريين واحد من أكثر تواريخ هذه المنطقة تعقيداً ، وقد أثار أشد أنواع الجدل . وتخضع المناقشة حول هذا التاريخ لمعطيين :

أولا : تعنى كلمة « أمورى » : الغرب ، فالأموريون فى نظر العراقيين هم أهل الغرب . فهذا الاسم يعنى إذن منطقة ، أكثر مما يعنى عنصراً ، تماماً كما تعنى كلمة هبر (أو هبيرو أو خبيرو) أسلوب حياة : هى البداوة المتحركة .

ومن المحتمل أن هذه المنطقة من الغرب ، فى وسط الهلال الخصيب – كانت ملتقى ومنتهى الجماعات المترحلة بين الجزيرة العربية والهلال الخصيب ، وبين المناطق المختلفة من الهلال . فهى مُنْتهىً ومُخْتَمَر ، حيث تقترن بعنفوان القبلية (وهى روح الجسد فى تمامها) رغبة حية لدى الحضريين المستقرين الناعمين بالخصب والرخاء فى بيئتهم ، ولكنهم دائما فى حزام العواصم الكبرى والممالك الكبرى ، وهى رغبة تستهدف الترف والثروة ، والسلطة السياسية فى هذه المدن والممالك .

ثانيا : فى هذا الملتقى والمنتهى ، والترسيب الثقافى كانت تتمثل كل الأنغام ، ابتداء من البداوة المترحلة إلى الحضرية المدربة على الحياة المدنية ، والتى تتذوق فى كل موسم لذائذه ، بفضل التجارة ، أو الضيافة لدى الأقارب والأصدقاء ، الذين سبقوا غيرهم إلى الاستقرار فى المدن .

فإذا ما أخذنا فى اعتبارنا هذين الحدثين فإن « أمورى » يصبح اسم جمع يعنى كل مرحلة من المراحل الممثلة فى الخليط .

ومن الممكن من ناحية أخرى أن يقصد بهذا الاسم كل قادم من الغرب ، وهو ما يترتب عليه ببساطة اختلاط الادوار والممثلين .

إن نصوص العصر تترجم هذا الرعب الذى ساد المنطقة أمام أناس لم يكونوا يعرفون القمح ، ولا المنازل ، ولا المدن ، وتصف لنا « أسطورة زواج أمورو » (الإله الذى سمى باسمه الأموريون) هذا الإنسان الذى ينبش الأرض بحثاً عن الكمأ فى سفوح الجبال ، والذى لا يعرف يثنى ركبته (ليزرع الأرض) ، والذى يأكل اللحم النىء ، ولا يملك بيتا طيلة حياته ، ثم هو لا يدفن بعد موته .

ولم يكن الذعر بأقل من ذلك على الطرف الآخر من الهلال الخصيب ، ففى مصر شيد الفرعون أمينميس الأول (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق . م) خطا من القلاع الحصينة ، هو « حائط الأمير » الذى تحدثت عنه قصة سينوهى .

ويحذر فرعون آخر ابنه فيما أطلق عليه « وصايا لميريكارى » - من « الأسيوى الشرير » .. فهو لا يقيم فى مكان بل هو فى حركة دائمة ، يخوض الحرب منذ عهد حورس ، لا غالبا ، ولا مغلوبا ، يفاجىء خصومه ، فلا يُعْلمهُم بيوم المعركة ، كأنه لص ، وهو لا يتورع عن تعرية شخص أعزل ، ولكنه لا يهاجم مدينة عزيزة بسكانها [1] » .

كان التسلل إلى مصر عسيرا - لأنه مراقب ، أما فلسطين قد اكتسحها التيار فدمرها ، وقضى على الحياة المدنية فيها ، كما هدم حصون : هازور ، ومجدو ، وبيسان ، وأريحا ، وعاى ، وخربت كرك ، لقد تفككت حضارة (العصر البرونزى القديم) ، وحط الأحياء الباقون على أنقاضه .

ومع ذلك لقد كانت هذه الحضارة غاية فى الحيوية ، حتى إنها تمثلت غزاتها ، وسرعان ما ازدهرت الحياة المدنية مرة أخرى .

ويبدو أن البِنَى الاجتماعية قد تغيرت خلال الإعصار ، ففى أقدم النصوص المنقوشة ، وهى نصوص الأقصر (١٨٥٠ ق . م) كان للمدن الولايات كثير من أسماء الرؤساء ، كأنما كان فيها بقايا من « ديمقراطية قبلية » قديمة ، على حين أن أحدث هذه النصوص ، وهى نصوص سقارة (١٨٠٠ ق . م) أشار إلى أن لكل مدينة أميراً ، وقد أثبت وجود هذا البناء « الإقطاعى » علم الآثار ، والأحافير المستمدة من قصور « النبلاء » الرحيبة الناطقة بالثراء ، ومن الأحياء ذات البيوت الضيقة .

---

(١) نصوص مقتبسة من الأب دوفو - المرجع السابق ص ٦٤ - ٦٧ .

ويكشف آخر النصوص المنقوشة أيضا عن أن الآلهة الذين كانوا يعظمون فى فلسطين (وهم الذين تابعنا تطورهم اللاحق فى ألواح رأس شمرا) هم من الآلهة الزراعيين، وذلك كالإله حدد Hadad وهو الاسم الآخر للإله بعل إله العواصف والأعاصير، وهو كذلك إله السحاب والمطر الذى يخصب الأرض. وذلك ما يسجل مرحلة جديدة من التوطين النهائى، والاقتصاد الزراعى.

فها هوذا كنعان يرفع من جديد أسواراً حول مدنه، ويمضى إلى نهضة حقيقية خلال العصر البرونزى الوسيط (١٨٠٠ إلى ١٥٥٠ ق. م)، يُظِلُّ امتدادُها - دون صراع - أرضَ مصر: ويبدو فعلا أن الهكسوس الذين حكموا مصر خلال قرن ونصف (١٧٠٠ - ١٥٥٠ ق. م) قد تَبَنَّوْا فى مصر تطبيق نظام الحكومة المركزية، الذى جاءهم من الكنعانيين.

وحين طُرِدَ الهكسوسُ من مصر هبت عاصفة جديدة على شرق الهلال الخصيب، تحملت فلسطين عقبه رد فعله.

فى عام ١٥٩٥ ق. م. استولى الحوريون القادمون من الأناضول - على مدينة بابل، وانتهبوها، ولكن ما إن انسحبوا بعد غارتهم حتى احتل الكاسيون مملكة بابل بأسرها، أولئك الكاسيون الذين قدموا من جبال الشرق منذ قرن، حيث كانوا يعيشون حياة مترحلة على حدود بلاد ما بين النهرين: دجلة والفرات.

عندئذ انهارت أسرة حمورابى، وهى التى عرفت عصرها الذهبى فى القرن الثامن عشر ق. م، على ما تُبِينُ عنه ألواح مارى، وهى سجلات زمرى لين Zimri - Lin آخر ملوك مارى (١٧٣٠ - ١٧٠٠ ق. م)، والذى تألق من الفرات حتى البحر الأبيض المتوسط. لقد برز قادم جديد على مسرح تاريخ الشرق الأدنى: الحوريون، ومملكة الميتانى Mitanni، التى أسسوها فى العراق الأعلى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ق. م، وحكمت مملكة الميتانى هذه (حوالى عام ١٥٠٠ ق. م) من دجلة حتى البحر المتوسط.

إن تحقيق أسماء الحوريين ، وأسماء آلهتهم مع أسماء آلهة الهند التي تدل عليها نصوص نوزى Nuzi (بالقرب من كركوك) فى القرن الخامس عشر – يؤكد أن مجموعتهم اللغوية كانت آرية « فكان هذا أول دخول للآريين فى الشرق الأدنى » (١) .

ولقد كانت النتيجة الأولى لوصول الحوريين من ميتانى إلى فلسطين ، فى بداية القرن الخامس عشر – أنْ قَوِىَ النظامُ الإقطاعى : ذلك أن الفرسان الحوريين استطاعوا بدروعهم المطعمة بالبرونز ، وبمركباتهم الحربية أن يفرضوا سيادتهم المطلقة ، دون أن يتمكنوا من فرض لغتهم أو دينهم ، فقد كانوا مجرد أقلية ، لذلك نجد أن رسائل تل العمارنة تضم فيما تضمه من أسماء الأمراء الفلسطينيين عدداً من الحوريين يتكافأ مع عدد الكنعانيين ، على حين أن أسماء الحوريين تتضاءل كلما انحدر السلم الاجتماعى .

وما لبث الغزاة أن امتصتهم وتمثلتهم الحضارة الكنعانية برغم أنهم كانوا هم الطبقة الحاكمة . لقد كانت الهيمنة الحورية فى فلسطين قصيرة الأجل : ذلك أن فرعون مصر ، تحتمس الثالث سار (منذ اعتلائه عام ١٤٦٨ ق . م) إلى غزة ، وهزم فى معركة مجدو الأمراء الفلسطينيين المتحالفين .

وبعد عدة حملات بلغ فى عام ١٤٥٧ ق . م . نهر الفرات ، قريباً من قرقميتش ، فاندحرت مملكة ميتانى إلى حدود الفرات وفقدت هيمنتها على الشرق الأوسط ، حيث بسطت مصر سيطرتها منذئذ . وصارت فلسطين مقاطعة مصرية ، أمراؤها تابعون لفرعون مصر .

وتظفر هذه الصفحة الجديدة من التاريخ السياسى بمعلومات غزيرة تقدمها نصوص تل العمارنة (فى القرن الرابع عشر ق . م) .

أما حقيقة هذه النصوص فقد عثر على ٣٢٠ لوحا من الفخار المُحرق ، وقد غطيت بحروف مسمارية ، ولغة بابلية ، وتم الكشف عنها عام ١٨٨٧ م ، بالقرب من البلدة الحالية المسماة : تل العمارنة ، على مسافة ١٣٠ كيلو متراً جنوبى القاهرة ، على أنقاض العاصمة القديمة التى أنشأها الفرعون أمينوفيس الرابع (١٤٠٢ – ١٣٦٤) ، عندما أراد أن يتخلص من سيطرة الحكم الدينى لكبار الكهنة ، كهنة الإله (آمون) فى طيبة .

---

(١) الأب دوفو – المرجع السابق ، ص ٨٧ .

لقد استطاع هذا المصلح الدينى الفذ، وهو يصارع الشرك التقليدى، أن يمحو محواً تاماً جمع كلمة (الإله)، فصار نبى إله واحد لا يتعدد، بديع السماء والأرض والحياة، هادى الناس إلى السلوك القويم، وكان رمز هذا الإله قرص الشمس، آتون، الذى ينتهى شعاعه بأيد تمنح الحياة.

لقد لخص أمينوفيس مهمة إيمانه فى قصيدة من أجمل قصائد التاريخ: «نشيد الشمس»، الذى سوف نرى حين نضعه فيما بعد بإزاء المزمور الرابع بعد المائة، من مزامير داود - أى إسهام قدمه للحياة الروحية الفلسطينية، بخاصة، وإلى الإنسانية بأسرها. [1]

لقد غير الفرعون اسمه إلى أخناتون (أى المؤمن بآتون)، وأطلق على عاصمته الجديدة أختاتون (أى: أفق آتون)، ثم نقل إليها السجلات الملكية التى خلفها أبوه، وسجلاته الخاصة وكانت له على مدى نصف قرن (١٤٠٢ - ١٣٤٧ ق. م) مراسلات دبلوماسية مع حكام العراق، وأمراء كنعان.

---

(١) الغريب أن الأب دوفو نفسه قد استسلم لإغراءات التاريخ العسكرى الأثرية، فإذا به يقرر فى كتابه الرائع (التاريخ القديم لإسرائيل) - Histoire aucienne d' Israël أن: (فرعون الغزو هو تحتمس الثالث (١٤٦٨ - ١٤٣٦ ق. م)، وهو أعظم ملك عرفته مصر، وقد خلف عقب وفاته لابنه إمبراطورية منظمة تمتد من السودان حتى الفرات (ص ٩٢ - ٩٣)، ولعل (إله الجيوش) فى العهد القديم حال بينه وبين أن يرى أن هذه الإمبراطورية لم يبق منها شيء، وأنها لا تؤدى أى دور فى حياتنا البشرية.

ولو كان المؤرخ أقل تأثراً بالتاريخ التقليدى الذى يضع دائماً نصب عينيه الملوك والحروب - فربما استطاع أن يكتب عن اخناتون أنه:

عندما مات خلف لبنى آدم جميعاً أول صورة نبوية للوحدانية، التى ظلت منذ ثلاثة وثلاثين قرنا تنبض بالحياة، وتنفث فى كل القلوب خميرة الخلود، والحياة الأبدية.

وإنا لنجد فى هذه الرسائل العناصر التى تسمح بتصور بِنْيَةِ المجتمع الكنعانى، بأراستقراطيته الكنعانية والحورية، وتجار مدنه القوية، وشعبه المكون من مزارعين، وكذلك عناصره غير المحددة، كالحفاة والمعدمين، وعصاباتهم المخُوفَةِ: «الخبيرو» أو «العبيرو»، وهم الذين سوف نشهد دورهم فيما بعد، حتى وإن أمراء كنعان طلبوا من الفرعون أن يرسل قواتٍ لقمعهم، لا جيوشاً، لأنهم لم يكونوا غزاة، وإنما طلبوا بعض قوات الشرطة (فلم يتجاوز ما طلبوه مطلقاً عدة خمسين شرطيا)، مجرد حراسة للإقطاعى عندما يخرج من حصنه، وذات مرة أرسل ملك القدس (عبذى خيبا – Abdhi Khiba) نداء استغاثة إلى الفرعون قائلًا: «لقد خربت مقاطعات الملك، وأنت لا تسمع لى، ولقد أبيد جميع الولاة، فإذا جاءت القوات هذا العام أنقذت مقاطعات الملك، وإذا لم تأت»[1] فإن البلاد سوف تقع فى أيدى «الخبيرو».

بيد أن الفوضى كانت عصية على المقاومة، لأن هؤلاء الأمراء كانوا يتبادلون الوشاية، ويستخدمون الخبيرو، مرتزقة أجراء ضد جيرانهم، حتى إن ملك الحيثيين سوبيلوليوما Suppiluliuma، (الذى اعتلى العرش عام ١٣٧٠ ق. م) كان يؤجج المنازعات من سورية بين الأمراء الفلسطينيين، ويغذيها كيما يحل وصايته محل وصاية مصر، وبعد أن أحرز انتصاراته على الميتانى بقى هو الخصم المنافس الوحيد للفراعنة، يجتذب إليه أتباعهم. بل إنه عندما حاول الفرعون سيتى الأول (١٣٠٣ – ١٢٩٠ ق. م) ومن بعده رمسيس الثانى (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق. م) – أن يستعيدا سيطرتهما على فلسطين، ورغم النصر الذى أحرزه رمسيس فى قادش (عام ١٢٨٦ ق. م) وهو الذى غطت أمجاده فى هذه المعركة جدران معابده فى مصر والنوبة – لم يستطع إلا أن يعقد سلاماً زائفا مع الحثيين، نوعا من ميثاق عدم الاعتداء، يتعهد الحثيون بمقتضاه ألا يتدخلوا فى فلسطين، وما فتئت الفوضى تتفشى، حتى بلغت قمتها عندما جاءت شعوب البحر (الفلسطينيون) الذين قدموا من كريت وبحر إيجة فى أعقاب الغزو الدورى (Dorienne) نهاية القرن الثالث عشر، وبداية القرن الثانى عشر، فنزلوا على الساحل، وغزوا داخل البلاد.

---

(١) ذكره بوبورت فى «تاريخ فلسطين L' histoir de la Palestine ص ٧٣.

فى هذه الحقبة من الانحلال السياسى فى فلسطين قدمت موجة من البدو الساميين، لها نفس أصول الأموريين والكنعانيين، جاءوا بدورهم يبحثون عن أراض فى مجموع الهلال الخصيب، وقد اجتازوا نفس المسارات : الصحراء العربية، وهضاب الشرق، ثم حاولوا أن يستوطنوا فى دلتا دجلة والفرات، فى العراق القديم (حول حران) بسورية، وفلسطين، وتلكم هى الهجرة الآرامية الكبيرة التى كان العبرانيون طرفا فيها ضمن أطراف أخرى.

لقد اجتذبت هذه الحركة «الخبيرو» (المعدمين) من كل جنس، فيطلق وصف الآراميين على أولئك الذين لم يذهبوا إلى ما وراء سورية، ومدوا جذورهم فيها، (مع ذلك بنجاح، لأن لغتهم الآرامية التى كانت لغة رفاقهم العبرانيين، صارت اللغة المتكلمة فى الشرق الأدنى كله، ابتداء من القرن الخامس، ولسوف تصبح بعد ذلك - مثلا - لغة يسوع).

تسلل العبرانيون إلى فلسطين، ومنهم من ذهب مع «الخبيرو» الآخرين، إلى مصر.

وقبل أن نشارف هذه المرحلة الجديدة من تاريخ فلسطين نرى من الضرورى أن نُقَيِّم عطاء الحضارة الكنعانية، كيما نستخلص ما قدمته هذه الهجرة الجديدة من عطاء تاريخى، ذلك أن العبرانيين شأنهم شأن أسلافهم أصحاب الهجرات البدوية السابقة، المنتمين إلى نفس العرق - قد أفادوا من هذه الحضارة وهم يستوطنون فى فلسطين، وأثروها بعطائهم خلال هذه القرون الثلاثة، دون أن يقطعوا استمرارها الأساسى.

* * * * *

٣ – عطاء هذه الحضــارة

سبق أن وضح لنا التاريخ السياسى لفلسطين أمورا كثيرة عن البنى الاجتماعية ، وإذا كان لنا أن نتناول الثقافة تناولا أفضل ، فلنذكر فقط أن هذا المجتمع الإقطاعى ، المكون من مزارعين حضريين كان أيضا مجتمعا تجاريا فى جانب كبير منه .

وفى هذا المفترق الحضارى يصبح أهم ماينشئه الهلال الخصيب فى العالم القديم هو هذه العلاقات التجارية والثقافية مع بابل ومصر ، بل أيضا ومع الحضارة الميقينية ، فى البحر الأبيض المتوسط ، ومع سورية والأناضول ، والقوقاز ، يشهد بذلك ماكشف فى فلسطين من فئوس مزخرفة على الطراز القوقازى ، وخزف يذكرنا بفن الميقيين (الذى بلغ تأثيره حتى مصر) ، ونقوش من البرونز ، فى أوغاريت ، بسورية ومعابد مستوحاة من العمارة العراقية ، عليها نقوش ذات صبغة قريبة من نقوش مصر ، كما كشف على الشاطىء تماثيل من العاج المنقوش ، يشى بموهبة فى تمثيل الحيوانات .

بيد أن العبقرية الفنية الفلسطينية لذلك العصر لا تتجلى فى أقوى صورها فى مجال الفنون التشكيلية ، وإنما هى تتجلى فى أعظم كشف ، وأروع عطاء قدمه الهلال الخصيب للثقافة العالمية ، وهو اختراع الكتابة الهجائية الألفبائية ، فهذا الاختراع لم يمكن التجارة الفلسطينية من الوسيلة الضرورية للاتصال فحسب ، ذلك الاتصال الذى لم تستطع تقديمه الرسوم الهيروغليفية ، والمسمارية ، وإنما هو يسمح ، بفضل تدوين الأصوات ، بتجريد الكهنة والكتاب من احتكار الثقافة المقتصرة على الصفوة ، بمجرد معرفة بعض الحروف .

ثم هو يسمح أيضا بكتابة التقاليد الشفوية ، والملاحم ، والأساطير ، والقصص المقدسة ، التى تكشف بخاصة عن عظمة الكتاب المقدس الكنعانى ، ثم الكتاب المقدس العبرانى .

وأقدم كتابة الفبائية فى العالم مكونة من ثمانية وعشرين رمزا — هى الكتابة التى كشفت فى رأس شمرا ، فى اللغة الأوغاريتية : «فلم يعد وضع اللغة الأوغاريتية منذ ذلك الحين موضع شك ، فهى تختلف كثيرا عن اللغات الأخرى ، الكنعانية التى نعرفها ، غير أن الاختلافات راجعة فى جزء منها إلى التطور اللهجى الخاص بالأوغاريتية ، أو بالمجموعة الكنعانية التى كانت الأوغاريتية امتدادا لها .

وعلى أية حال فإن اللهجة الأوغاريتية تشترك اشتراكا كاملا فى التاريخ العام للأسرة الكنعانية : أى : إنها لغة كنعانية» [1] .

لقد نقلت إلينا فى هذه اللغة قصائد ماأسماه هـ .ى . مذيكو : (الكتاب المقدس الكنعانى الذى تم الكشف عنه فى نصوص رأس شمرا) (ط Payot ١٩٥١) .

وقد وجدت هذه المأثورات التى حوت التقاليد الشفوية مكونة من أشعار تنتمى إلى أصول وعهود مختلفة ، تماما كما هى الحال بالنسبة إلى الكتاب المقدس العبرانى .

وأعظم ما يستأثر بالإعجاب فى نصوص رأس شمرا وحدتها الثقافية العميقة التى كانت تسيطر آنذاك على فلسطين ، من غزة إلى أوغاريت ، وإبلة : نفس اللغة ، ونفس الطقوس ، ونفس الدين .

ولهذا فإن ما نستطيع أن نخرج به من خلال هذه النصوص التى لاتزال مجزأة — هو أن الجانب الإلهى فى الديانة الكنعانية يتجلى أولا فى الطبيعة ، كما هى الحال بعامة فى المجتمعات الزراعية المستقرة ، على حين أن هذا الجانب الإلهى يتجلى — فى المجتمعات البدوية — أولا فى التاريخ .

---

(١) هاريس Harris : تطور اللهجات الكنعانية (١٩٣٩)

« Development of Canaanite dialects » p. 10, 11.

يد أن ذلك ليس سوى تمثيل مبسط ، ونقطة انتقال إلى ما بعدها ، ذلك أن شكلى التجلى يختلطان بصورة مبهمة : فالإله إيل (والذى سيصبح عند العبرانيين : إلوهيم ، وعند العرب : الله) يتجلى على الجبال ، وفى العاصفة ، والرعد أو النار ، وهى كلها دلائل على حضوره ، والمطر الذى يحيى الأرض بعد موتها هو بركته العلوية .

ثم إن الإله صار بعد ذلك لدى الكنعانيين ، والعبرانيين ، والنصارى ، والمسلمين – إلها يهدى الناس إلى السلام ، وإلى طريق الخير ، وإلى الحق ، وإلى الحياة ، وإلى الصراط المستقيم ، إلها يدعو إلى القيم الأخلاقية ، وهو مشرع أسمى من الطبيعة ومن التاريخ ، وهو الذى يمنح الطبيعة نسقها ، ويعطى التاريخ معناه ، ويهب لكل منهما نظامه .

كانت الديانة الكنعانية فى بدايتها مشركة مجسمة ، تهدف إلى تقديس الحياة ، فـ «بعل» ، خليفة الله ، هو الإله المخصب ، الذى يمتطى الأنواء ، ويمتشق سيف البرق ، ويسوق الرياح والسحب والأمطار . وأخته الإلهة «عنت» Anat هى التى تمتاح ماء السماء وتنشره ، لتحيى الأرض ، كما تنزل الأمطار من لدن أخيها الذى يمتطى الأنواء ، وترش الندى الذى تسكبه النجوم ، إنها هى التى تخلع على النبات جماله ، وتمنح الأرض غذاءها حين تضع فى التربة مايغذو السنبلة . فهى التى تشبع الأرض ، وتكثر السنابل فى الحقول» .

ولبعل وعنت عدوان هما الإلهان موت Mot (الموت) ويمّ [1] (البحر) ، والأول هو الذى يقبض روح الأحياء ، والثانى هو الذى يهيمن على المياه الصاخبة غير المخصبة» .

---

(١) واضح للقارىء العربى أن الكلمتين موت ويم مألوفتان لديه مبنى ومعنى . (المترجم) .

والصراع بين قوى الحياة وقوى الموت لايتوقف ، تماما كما فى الزندافستا ، ونبوءات زرادشت فى إيران ، والهدف هو انتصار نظام الكون Cosmos على الفوضى Chaos وتحقيق المملكة الإلهية .

ثم جاء من بعد الشرك وحدة الملحمة الإلهية ، وهى التى يذكرها الكتاب المقدس العبرانى ، عندما يوجه الله خطابه إلى يعقوب «فى رؤى الليل» قائلا : أنا إيل ، إله أبيك» [١] .

ثم حدث بعد ذلك أن استبدل الإسرائيليون بكلمة «إيل» اسم يهوى yahwe (وذلك حين أصبح اسم يعقوب : إسرا – إيل ، أى : مصارع إيل ، كما أن إسما – إيل تعنى سميع إيل ، و «يهوى» – فى النصوص المقدسة للكنعانيين ، فى رأس شمرا – هو ابن إيل .

لقد كان تمجيد الحياة فى الطبيعة بأسرها لا ينفصل مطلقا – فى كل الآداب الكنعانية ، فى الهلال الخصيب – عن تمجيد هذا «الجزء الإلهى» الذى هو الحياة الإنسانية بمعنى الكلمة ، وحياة الكون معا ، بصوره لاتقبل الانفصام : فهذه الحياة هى «منحة» إلهية .

فالعنصر الإلهى هو مركز الوجود كله ، وهو الذى يمده بالحياة .

إيل ، أيها الرحمن الرحيم – ويجيب : إن اسم ابنى هو ياو بن إيل (yaw Elat) .

فإيل لم يعد إلها قبليا ، فهو يتجاوز فى نصوص رأس شمرا حدود كنعان :

«اذهب إلى مصر ، بلد إيل كلها ... مصر ، أرضها ملكك» .

ويبدو أن اللاهوتيين الكنعانيين قد تلقوا بحماس الإصلاح التوحيدى الذى أعلنه أخناتون ، حين دعا إلى الإله آتون (وهو الإله الذى قابلوا دون

---

(١) هذه العبارة ترجمة مانقله المؤلف عن الترجمة المسكونية للكتاب المقدس Traduction Oecumenigue de la Bille ولم تلتزم الترجمة العربية للعهد القديم بحرفية النص فجاء فيها : «أنا الله إله أبيك [سفر التكوين ٤٦ / ٣] ورواية المؤلف هى مناط الاستشهاد . (المترجم) .

شك بينه وبين إيل ، لا باعتباره إلها أسمى فحسب ، بل باعتباره **إلها واحدا** ، للعالمين) .

فتطور الديانة الكنعانية يمضى إذن فى نفس الاتجاه الذى مضت **فيه الديانة** اليهودية ، والتى تعد مرحلة من مراحلها .

«إن الوحدانية التى جهد الإكليروس الإسرائيلى أن يصعدها إلى **موسى** – هى عقيدة متأخرة نسبيا ، ولقد نتصور الآن أن المؤمنين الذى يمسكون عن أى ميل نقدى يتمسكون فقط بالنص المقدس ، بيد أنهم بمجرد أن يمنحوا أنفسهم حق التكفير بحرية يجدون من الضرورى أن يرفضوا النظرية الكهنوتية ، ففى زمن داود وسليمان لم يكن الإسرائيليون قد صاروا بعد موحدين ، ولكن سليمان ، – وقد كان يعطى للآلهة الأخرى حظها – أعلن عظمة يهوى بأن بنى له معبدا ، يجعل لعبادته المحل الأول [(١)]» .

أما أن سليمان كان يعدد الآلهة فأمر لاشك فيه [(٢)] ، حتى ولوكان الكهنة الذى كتبوا بعد حين تاريخه – لاموه ، ويشهد العهد القديم على ذلك بما لايمكن دفعه ، فقد جاء فيه : «فذهب سليمان وراء عشتورت إلاهة العبدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشرَّ فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم . ولمولك رجس بنى عمون ، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات ، اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن» [الملوك الأول ١١ / ٥ – ٨] .

---

(١) دوسو : الأصول الكنعانية للفداء الإسرائيلى Les Origines Conaaniennes du Sacrifices Israëlites – ط لورو – باريس – ١٩٢١ – ص ٦٩ .

(٢) غريب أن يذهب المؤلف إلى هذا الرأى ، رغم أنه يختلف عما قرره القرآن ، فسليمان نبى كريم من أنبياء الله ، ولا يمكن أن يخامر المسلمين شك فى توحيده ، ولكن لهذا الكتاب المقدس مواقف مهينة كاذبة من الأنبياء ، لاتدل على حقيقتهم بقدر ماتدل على جانب الوضع والتحريف فيه .

(المترجم)

إن ماأبطله العهد القديم بحق باعتباره رجسا – هو الذبائح البشرية ، ولاسيما نذر الأبناء ، بيد أن الإسرائيليين مارسوا هذه الشعيرة الدموية ، مثلما مارسها الكنعانيون فى نفس الفترة : على الرغم من تحريم الذبائح البشرية فى [سفر اللاويين ١٨/٢١] ، وقد ذبح يفتاح ابنته نتيجة نذر نذره للرب «يهوى» لقاء انتصاره على بنى عمون . [القضاة ١١/٣٠ – ٣٩] .

ولقد استمر ملوك اسرائيل ويهوذا فى تقديم أولادهم الأبكار على مذبح النذر الإنسانى ، برغم الشريعة وتحذير الأنبياء ، ألم يقل الرب يَهْوَه فى سفر الخروج : «قدس لى كل بكر ، كل فاتح رحم من بنى إسرائيل من الناس ومن البهائم ، إنه لى» [الخروج ١٣/١] ، وقال : «وأبكار بنيك تعطينى ، كذلك تفعل ببقرك وغنمك» [الخروج ٢٢/٢٨ – ٢٩] .

وأحاز ملك يهوذا ، الذى ملك ست عشرة سنة فى أورشليم ، فى القرن الثامن لم يكتف بما «ذبح لآلهة دمشق الذين ضاربوه [أخبار الأيام الثانى ٢٨/٢٣] «بل سار فى طريق ملوك إسرائيل ، حتى إنه عبر ابنه فى النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب» [الملوك الثانى ١٦/٣] . «بل سار فى طريق ملوك إسرائيل ، وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعليم [1] ، وهو أوقد فى وادى ابن هنوم وأحرق بنيه فى النار» . [أخبار الأيام الثانى ٢٨/٢– ٣] [2] .

ومنسَّى ، كان ملكا – أيضا – على أورشليم (من عام ٦٨٧ إلى ٦٤٢) ، «عمل الشر فى عينى الرب ، حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل . وعاد فبنى المرتفعات التى هدمها حزقيا أبوه ، وأقام مذابح

---

(١) هو الإله بعل – الذى سبق ذكره . (المترجم) .
(٢) هذا النص من اختيارنا لإبراز ماأراده المؤلف فى الأصل . (المترجم) .

للبعليم ، وعمل سوارى ، وسجد لكل جند السماء وعبدها ، وبنى مذابح فى بيت الرب ، الذى قال عنه الرب فى أورشليم يكون اسمى إلى الأبد ، وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الرب ، وعبّر بنيه فى النار فى وادى ابن هنوم ، وعاف ، وتفاءل ، وسحر ، واستخدم جانًّا ، وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لإغاظته» [أخبار الأيام الثانى ٣٣/٢ - ٦] .

وهكذا استطاع هذا الملك أن يملك أكثر من نصف قرن ، متبعا فى القرن السابع رجاسات الكنعانيين فى القرن الرابع عشر ق .م .

إن هذا ليس سوى قطرة فى بحر الإبادات المقدسة . (التحريم[1]) الذى أثنى عليه سفر يشوع ، معظما فى كل مرحلة من مراحل غزو كنعان ذبح النساء والأطفال والشيوخ . [يشوع ٢١/٦ فى أريحا ، و ٢٤/٨ فى عاى ، و ٢٠/١٠ فى جبعون ، وقتل المساجين (الملوك الخمسة) فى مغارة مقيدة [يشوع ٨/١١] وفى ميروم ، حيث لم يترك «أية نسمة» «لأنه كان من قبل الرب أن يشدد قلوبهم حتى يلاقوا إسرائيل للمحاربة ، فيحرَّموا ، فلا تكون عليهم رأفة ، بل يبادوا كما أمر الرب موسى» [يشوع ٢٠/١١] .

وفى سفر العدد [٧/٣١ - ١٨] يقص علينا صنيع بنى إسرائيل الذين غزوا مديان كما أمر الرب موسى ، وقتلوا كل ذكر (٧) وسبوا النساء وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم (٩) ، وأحرقوا جميع مدنهم (١٠) ، وعندما عادوا إلى موسى سخط موسى !! لماذا ؟ .. لقد قال لهم: هل أبقيتم كل أنثى حية ؟ .. فالآن فاقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها ... لكن جميع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات (١٤- ١٨) .

---

(١) المراد به القتل بحد السيف . (المترجم) .

إن الكهنة الكبار الذين وضعوا النصوص الكهنوتية ، والذين عظموا أمر المذابح الوحشية التى ارتكبها يشوع ، ليظهر قدرة «الرب إله الجنود» [صموئيل الثانى ٥/١٠] : «أنا أُدْعَى رب الجنود» – هؤلاء الكهنة هم أنفسهم الذين شنَّعوا «بأرجاس الكنعانيين» [الملوك الأول ١٤/٢٤] .

فإذا ما عدلنا فى الحكم على المفاسد الحاقدة لأولئك الكهنة الكبار ، الذين عكفوا منذ القرن العاشر حتى القرن السادس على جمع التقاليد الشفوية ، كيما يخلقوا أسطورة الامتياز العبرانى – إذا حققنا هذه العدالة استطعنا أن نضع المرحلة العبرانية من تاريخ فلسطين (من القرن العاشر إلى القرن السادس) فى سياق ماأخذته عن الحضارة الكنعانية ، وما أضافته إليها .

ولسوف يظهر حينئذ أنه «على الرغم من غزو البلاد استمر التاريخ الكنعانى تحت حكم سادة يهوذا وإسرائيل ، إلى أن جاء الأشوريون» [(١)] .

ولسوف يتجلى هذا الاستمرار فى أعظم عطاء قدمه الهلال الخصيب للروحية الإنسانية : عطاء الإيمان الموحد ، الذى سوف يعبر عنه أنبياء إسرائيل ، وهم الذين يعتبر المسيح امتدادا لرسالتهم حين وسع من آفاقها ، كما يعتبر الإسلام الوليد مكملا لكل ثرواتهم الروحية ، ليجعل منها هداية لكل الأعمال الإنسانية ، فى جميع الأبعاد : العلوية من حيث هو دين ، والسياسية من حيث هو مجتمع .

ولكى نستخلص هذا المسار بكل وضوح ينبغى أن نرجع إلى دراسة النصوص ، وأن ننظر فى بقايا علم الآثار ، دون أن نصطحب مقولة مسبقة . بل دون تلك المقولة المسبقة المزدوجة التى حالت بيننا وبين أن نعيش تاريخ هذا البلد ، وتاريخ ذلك العصر بكل مضمونه الإنسانى – منذ زمن جد طويل:

---

(١) هـ . ى . ديل ميدكو . «الكتاب المقدس الكنعانى المكتشف فى نصوص رأس شمرا» La Bible Conaaninne décoriverte dano les Testes de Ras shamra ط . بايوت – باريس ١٩٥٠ ص ١٥

– المقولة المسبقة القائلة بأن الوحدانية ماكان لها أن تولد فى الشرق الأوسط دون العبرانيين .

– والمقولة المسبقة القائلة بأن إسرائيل ربما وجدت كيانا تاريخيا منذ بداية الألف الثانية (إبراهيم) ، وبأنها تؤمن بالوحدانية منذ ذلك العصر .

إن هذه الرواية التى تضع مقالات الإيمان فى مكان الحقيقة التاريخية لاتتطابق مع الواقع .

أولا : لأن التحرك نحو الوحدانية هو ثمرة عمل طويل ، حدث على مستوى الشرق الأدنى فى مجموعه ، من العراق إلى سورية وفلسطين ومصر .

ثانيا : لأننا نجد فى نصوص الكتاب المقدس – (وأقدمها كتب انطلاقا من تقاليد شفوية بوساطة المؤلفين اليهويين ، yahivistes ، فى عهد حكم سليمان (٩٧٢ – ٩٣٣ ق .م) – نجد فيها عناصر من أصل بابلى وحِثّى ومصرى ، غير أنه ابتداء من عام ١٩٢٩ ، أمكن قياس عطاء الكنعانيين ، وذلك على إثر الكشف عن النصوص فى رأس شمرا ، فى موقع العاصمة القديمة لأوغاريت ، فى سورية المعاصرة .

وإذن فسوف يكون من الخطأ أن نعزل هذا الكتاب المقدس الكنعانى [١] عن مجموع العطاء الروحى للشرق الأدنى ، وهو خطأ شبيه بالخطأ التقليدى القائل بالامتياز العبرانى فى الكتاب المقدس .

إن الكتاب الكنعانى يتيح لنا أن نقدر «تراث كنعان [٢]» الذى يعتبر لحظة مهمة ، ذلك أننا فجأة نقرأ فى هذه النصوص ، من القرن الرابع عشر ق .م – كلمات ، وتعبيرات ، وجملا كاملة من الكتاب المقدس العبرانى ... ترى هل

---

(١) أخذ هذا التعبير من عنوان كتاب ديل ميدكو «الكتاب المقدس الكنعانى المكتشف فى نصوص رأس شمرا – بايوت – ١٩٥٠» .

(٢) هذا أيضا عنوان كتاب آخر ثمين هو كتاب الأب المحترم جوفى جراى : «تراث كنعان The legacy af canaan» – ليدن – بريل ١٩٥٧ .

ستكشف الألواح الأوغاريتية فى النهاية عن الخلفية الكنعانية كلها للعهد القديم ، تلك الخلفية التى استشعر وجودها منذ زمن طويل بعض المفسرين والمؤرخين [١] ؟ .

إننا لاينبغى أن نهون أو نتغالى فى تقدير قيمة الاختلافات بين دين البدو الرحل ، (وهو ماكان عليه العبرانيون حتى القرن الثانى عشر) وبين دين المزارعين الحضر (على ماكان الكنعانيون منذ بداية الألف الثانية) ، ففى دين البدو كان العنصر الإلهى ضمانا لقيم القبيلة ، ولاستمرار تاريخها ، الواقعى والأسطورى ، فهو يتجلى إذن فى التاريخ . وفى دين المزارعين كان العنصر الإلهى أولا ضمانا لخصوبة التربة ، فهو يتجلى فى الطبيعة .

فحين التقى الكنعانيون والعبرانيون فى المرحلة الأولى كان هناك رفض متبادل بين المؤمنين بالإله (يَهْوَى) ، والمؤمنين بالإله (إيل) ، ثم ضعف اهتمام العبرانيين بإلههم مع استمرار توطنهم فى كنعان ، وقوى إحساسهم بإله المواطنين الأصليين . حتى إنهم تبنوا اسمه (إيل) ، وجمعوه على (إيلوهيم) [٢] .

كانت صفات هذين الإلهين ، إله الطبيعة وإله التاريخ ، تتماثل أحيانا ، فَيَهْوَى مثل بَعْلِ الكنعانيين يوصف بأنه «الراكب فى القفار» [المزامير ٦٨ / ٤] ، وهو كسائر آلهة الخصب ، يعطى القمح ، والزيت والخمر [هوشع ٢ / ١٠] [٣] ، وهو مثل الإله بعل يسمع صوته فى الرعد [المزامير

---

(١) أديان الشرق الأدنى Les Religions du Proch-Orient نصوص مقدسة بابلية وأوغاريتية وحثية ، قدمها لابات – labat ،وكاكوت Coquot ، وسنيسر – Sznycer، وفييرا ، ط . فيار دونويل (مجموعة :"الكنز الروحى للإنسانية) – باريس ١٩٧٠ ص ٣٧٥ .

(٢) و .ف . البرايت «من العصر الحجرى إلى النصرانية ، الوحدانية وتطورها التاريخى» « De L'âge de La Pierre à la Chretienete, Le Monothéisme et son évolution historique» ط بايوت – باريس ١٩٥١

(٣) عبارة الترجمة العربية للعهد القديم فى [هوشع ٢ /٨] : «وهى لم تعرف أنى أنا أعطيتها القمح والمسطار والزيت» ، والمسطار – بضم الميم – هو الخمر الحامض (لسان العرب : سطر) .

(المترجم)

٢٩/٣-٤] ، وهو أيضا مثل الإله إيل ، إله أوغاريت - فإله العهد القديم يتربع على العرش ، ويفصل فى محكمة أبناء الآلهة : «الله قائم فى مجمع الله [المجمع الإلهى [١]] . فى وسط الآلهة يقضى» [المزامير ٨٢/١] .

وبوسعنا أن نقيس ، من خلال بعض الأمثلة - مدى التماثل بين نصوص أوغاريت الأسطورية ، ونصوص الكتاب المقدس العبرانية ، كما نقيس أهمية هذا التماثل . ففى العهد القديم - كما قلنا - «تراث كنعان» «كنعان التى تعتبر أوغاريت حتى الآن العينة الوحيدة المعروفة عنها» [٢] .

هذا التكامل ليس غريبا ، فقد استخدم العبرانيون منذ توطنهم فى كنعان «لغة كنعان» بدلاً من لهجتهم الآرامية على ماذكره أشعياء ، [١٩/١٨] ، ولقد تعلم هؤلاء البدو من الكنعانيين الكتابة الألفبائية التى مكنتهم فى القرن العاشر من الانتقال من الرواية الشفهية إلى الكتاب .

وتعلم هؤلاء العبرانيون الرحل أيضا من الكنعانيين الزراعة ، حتى كانت أساليبهم فى الحياة تتشابه بقدر ماكانت تتضاعف زيجاتهم المختلطة . يشهد لذلك لعنات كبار الكهنة ابتداء من القرن العاشر : «ملعون كنعان» [التكوين ٩/٢٥] . «ملعون أصله منذ البدء» ، [الحكمة ١٢/١١] . إن النهى الذى بالغ مؤلفو سفر التثنية فى الإلحاح عليه [٧/٤] عن الزواج من النساء الأجنبيات ، وهو نهى منسوب إلى الرب ذاته [الخروج ٣٤/١٥ - ١٦] .

هذا النهى قد صاغه إبراهيم - صراحة - بقوله : «فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لاتأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم» [التكوين ٢٤/٣] .

وأبناء يعقوب صهر «الأرامى لابان» [التكوين ٣١/٢] ، وهم أصول الأسباط الاثنى عشر الذين كانوا أبناء امرأتيه (ليئة وراحيل) وجاريتيه (بلهة

---

(١) هذا هو منطوق النص الفرنسى ، وما سبقه من الترجمة العربية للمزامير . (المترجم).

(٢) السابق ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

وزلفة) ، وسراياه – هؤلاء جميعاً لم يحترموا هذه القاعدة : فيهوذا يتزوج كنعانية [التكوين ٣٨ / ١ – ٥] ، وإفرايم ومنسى هما ولدا يوسف ، وهو زوج لمصرية ، [التكوين ٤١ / ٤٥ و ٤٢ / ٤٨] أما رجال سبط بنيامين الذين كان بنو إسرائيل يقاطعونهم ، وقد حلفوا لايعطونهم بناتهم نساء – فإنهم كثروا نسل سبطهم باختطاف أربعمائة فتاة عذارى بقدر ماعندهم من رجال محرومين فى محلة شيلوه التى فى أرض كنعان [القضاة ٢١ / ١٠ – ٢٣] بعد أن ضربوا السكان بحد السيف مع النساء والأطفال ، [القضاة ٢١ / ١٠] فلم يبقوا إلا على العذارى [القضاة ٢١ / ١٢] .

ولقى موسى انتقاداً بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها [العدد ١٢ / ١] ، وكان للملك داود جدة موآبية هى راعوث ، [راعوث ٤ / ٢٢] ، وقد أنجب من زوجه الحثية بتشبع ابنة سليمان [صموئيل الثانى ١١ / ٢٧] .

واضح إذن ، بما قدمنا من سلوك رؤساء أسباط موسى وسير الملوك ، وكل مايعكس التاريخ من تقاليد شفهية – أن الزواج المختلط ، وانصار الشعوب كان ممارسة دائمة .

وكون العبرانيين فرعا من الهجرة الآرامية أمر يشهد له حتى مايجهر به الإيمان اليهودى : « آراميا تائها كان أبى » [التثنية ٢٦ / ٥] ، وقد جعل سفر التكوين من « لابان الآرامى » عم يعقوب وحماه [التكوين ٢٩ / ١٥ ومابعدها] .

كما يشهد النبى حزقيال ، أوائل القرن السادس ، على أن التلاقح الثقافى والعنصرى كان أساس استمرار شخصية فلسطين ، وأساس هويتها : « هكذا قال السيد الرب لأورشليم : مخرجكِ ومولدكِ من أرض كنعان ، أبوك أمورى ، وأملكِ حثية » [حزقيال ١٦ / ٣ و ٤٥] .

هذا هو التاريخ الذى أدانه حزقيال فى القرن السادس ، باعتباره شكلا من أشكال « الفساد » ولكنه يلخص خمسة قرون من الواقع التاريخى .

لقد ظلت فكرة الوحدانية دائما غامضة ، حتى جاء تحديدها الصارم الذى قدمته النصرانية ، ثم الإسلام بوجه خاص .

ويبين نشيد الخلق البابلى ، فى القرن الحادى عشر ق . م . كيف أن الديانة البابلية كانت تتجه نحو الوحدانية ، منذ الألف الثالثة (أى: منذ أسطورة أنزاهازيس التى تذكر الخلق ، والطوفان ، يقول النشيد: «إن كل الآلهة المذكورين فيه لايمثلون شيئا سوى تشخيص هذه الصفة أو تلك من صفات (مردوخ) ، أو تشخيص هذه الوظيفة أو تلك من وظائفه الإلهية . إن الآلهة الأخرى ليست سوى جوانب مختلفة من شخصيته ، بصورة ما» [1] .

ويستنتج أولبرايت فى نفس الاتجاه أنهم «لما عرفوا أن الألوهيات المتعددة ليست سوى تجلٍّ لإله واحد ، وأن مجال هذا الإله الأعلى يعم الكون – فإنهم لم يكن بينهم وبين أن يصلوا إلى القول بنوع من الوحدانية سوى أن يخطوا خطوة واحدة» [2] .

وفى نشيد الخلق البابلى تقول الآلهة عن مردوخ: «إذا كان الناس قد تقسموا بين الآلهة ، فإنه إلهنا ، مهما اختلفت تسمياتنا التى أطلقناها عليه» .

ولقد كان شمش إله الشمس ، ولكنه فى الوقت نفسه الإله الأعلى الذى يملى على الملك حمورابى (١٧٩٢ – ١٧٥٠) – «شريعة العدل» ، التى لاتختلف فى شيء عن «شريعة العهد» التى أملاها يهوى على موسى بعد خمسمائة عام .

ومع ذلك إن شهادة أولبرايت ، المعروف بتعاطفه مع تقاليد بنى إسرائيل – ذات مغزى ، حيث يقول: «إن كتاب العهد [الخروج ٢١ – ٢٣] هو ناموس شرعى ذو أجزاء من نمط شريعة حمورابى .

وإذا كانت القوانين الحثية (فى القرن الرابع عشر ق . م .) . والقوانين الأشورية (فى القرن الثانى عشر ق . م .) تستمد صياغاتها من الأحكام

---

(١) أديان الشرق الأدنى Les religions du Proche - Orient السابق ذكره ص ٧١ .
(٢) السابق ص ١٥٩ .

القضائية السومرية فى الألف الثالث قبل الميلاد ، فإن كتاب العهد ليس سوى الشكل المنقح بمجموعة من القوانين أكثر قدما ، وهى تتفاوت فى تعميمها ، للتعبير عن الظروف المحلية التى كانت سائدة فى كنعان ، والتى قد تكون انتقلت إلى أيدى الإسرائيليين خلال عصر القضاة .

إننا لانستطيع أن نؤرخ لكتاب العهد فى هذه الصورة قبل القرن الرابع ، بيدأن هذه الصورة المستعارة من القرن الحادى عشر ليست مختلفة مطلقا عن النموذج الكنعانى ، الذى تقدم بعدة قرون ، ذلك أن آثارا عديدة من العرف ، ومن المصطلحات كانت لها مقابلاتها العراقية الأكثر قدما ، فالقوانين الثابتة أصيلة ومتفردة شكلا وروحا ، على حين أن شكل القوانين المتعلقة بالذمة وروحها عام مشترك فى كل أنحاء غربى آسيا » [١] .

إن أية دراسة تقابلية لشريعة حمورابى وشريعة العهد المنسوبة إلى موسى [٢] تنتهى إلى نتيجة هى التفوق القضائى لشريعة حمورابى ، فهى أكثر رحمة فيما يتصل مثلا بتحرير العبيد (فى نهاية أربع سنين بدلا من سبع) ، وباسترداد الأموال المسروقة (ضعفين لا أربعة) ، وبعقوق الوالدين . وفى مقابل ذلك نجد أن شريعة حمورابى أكثر قساوة فيما يتصل بفساد القضاة .

والحق أن الوصايا العشر الواردة فى [سفر الخروج ٢٠ / ٣ – ١٧] تبلغ فيما تنهى عنه إلى النيـة [٢٠ / ١٧] [٣] ، ففيها إذن عنصر أخـلاقى داخلى يتجـاوز

---

(١) السابق ص ١٦٠ .

(٢) قام بهذه الدراسة التقابلية المفصلة – على سبيل المثال – روبير و . روجرز : « شريعة حمورابى – The Code af hammourabi » وذلك فى كتابه « المقابلات المسمارية للعهد القديم – Cuneiforw Parallels to the old testawent » ط . نيويورك ١٩١٢ فقرة ١١٧ .

(٣) ونص عبارة العهد القديم : « لاتشته بيت قريبك . لاتشته امرأة قريبك ولاعبده ولا أمته ، ولا ثوره ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك » . فالنهى هنا عن الاشتهاء هو تركيز على النية ، ولكنه مقتصر على ما يخص الأقارب دون الأباعد – وهو مازعمه بنو إسرائيل بقولهم : ليس علينا فى الأميين سبيل » [آل عمران / ٧٥] وبذلك استحلوا كل حرمة مادامت لغير القريب وهو مايؤكد الطابع اللاإنسانى ، والعنصرى لهذه التعاليم التوراتية . (المترجم) .

الجزاء القضائى للأعمال والأحداث .

بيد أن هذا البعد الداخلى لايغيب مطلقا عن الأديان السابقة على ديانة إسرائيل ، ففى الألواح الكنعانية برأس شمرا ورد النص على المبدأ الأساسى للأديان الثلاثة الكبرى التوحيدية (اليهودية . والنصرانية ، والإسلام) ، وهو مبدأ طاعة الله . فهذا الاعتراف بالعنصر العلوى الإلهى هو العنصر الخاص بحياة إنسانية حقة ، يقول كتاب أوغاريت المقدس: «خَفْ سهام إيل ، وكن بشرا» ، ويقول كتاب العبرانيين المقدس ، الذى جاء بعد ذلك بخمسة قرون: «مخافة الرب رأس المعرفة» [الأمثال / ٧] . وهى رسالة رددتها الأناجيل ، كما رددها القرآن .

إن علوية الإرادة الإلهية بالنسبة إلى حكمة البشر وأخلاقهم – يُرْمَزُ إليها بمثال «المتألم الحق» فى الكتاب المقدس العبرانى ، مع الصورة المؤثرة لأيوب ، وهى كذلك فى «الربانية البابلية» ، حوالى نهاية الألف الثانية ق . م . ، ويبدأ النشيد بقوله:

أريد أن أمجد رب الحكمة .
مردوخ . الذى ينسخ الظلام وينشر النور .
إنه الإعصار الهائل الذى يطوى غضبه كل شىء .
وهو نفخة الإحسان ، كنسمة من نسمات الصباح .
إلهى تخلى عنى .
رأسى الذى كان عالياً هوى إلى الأرض .
وكنت أتبختر فى هيئة سيد وأنا الآن ألوذ بالجدران
أخلَّاءُ الأمسِ جانبونى .
وأسرتى تعاملنى وكأنى لست منها .
كل يوم أنوح . كأنى حمامة
والدموع تحرق خدودى .

ومع ذلك كانت الصلاة حكمتى ، وكان الفداء شريعتى .

وكنت أعتقد أنى بذلك فى خدمة الإله .
بيد أن تدابير الإله فى عمق الهاوية ، من يستطيع أن يفهمها ؟
وأين يتعلم البشر طريق الإله ؟ .
من السيدُ يوم البعث إذن سوى مردوخ ؟ .
أنتم يامن خلقكم من الصلصال .
غَنُّوا لمجد مردوخ .
فى سجداتى ، وفى صلواتى .
من القبر عدت لدى شعاع الشروق .
على باب السلام لقيت السلام .
وعلى باب الحياة تلقيت هبة الحياة .
وعلى باب الشمس المشرقة
كنت من المعدودين بين الأحياء . (١)

وفى النصوص الأوغاريتية برأس شمرا موضوع يشبه قصة دانيال العادل الحكيم ، الذى عاقبه الله ، ثم عاد إلى الأرض برحمة من الله ، وحملت منه زوجه عدة أولاد ، وهو معروف لدى الإسرائيليين ، بما ذكره حزقيال بين الأبرار والمخلصين ، إلى جانب نوح وأيوب [حزقيال ١٤/١٤ و ٢٠] .

وكذلك الأمر فى مصر ، التى عرفت أيضا هذا السعى نحو التوحيد ، ونحو نقاء الباطن .

---

(١) فى كتاب «أديان الشرق الأدنى – « Les religions du Proche - Orient » السابق ص ٣٢٩ – ٣٤١ «مقابلة دقيقة ، كلمة بكلمة بين «المتألم الحق» فى القصيدة البابلية عن الخلق ، وبين «أيوب» الكتاب المقدس ، فى كتاب «نصوص الكتاب المقدس والشرق القديم» . Textes de la bible et de L'ancient orient قدمه فرانك ميشلى – ط . دولاشو Delachoux ونسله Niestle . نيوشاتل ١٩٦١ ص ١١١ – ١١٤ .

ففى نشيد الشمس لأخناتون يُعبد الله خلف كل صورة ، باعتباره خالقا متفردا لعالم الطبيعة ، ولتاريخ البشر ، وباعتباره «إلها واحد ، ليس معه إله آخر ، وهذا تعبير عن «التوحيد الحقيقى » [1] .

إن الإضافة المصرية إلى ميلاد الوحدانية واضحة ، حتى قبل أخناتون (فى القرن الثالث عشر ق . م .) ، لدرجة أن المزمور الرابع بعد المائة فى الكتاب المقدس يعيد بصورة دقيقة «نشيد الشمس» .

فكتاب الأبواب المصرى ، و «قصة الرياح الأربع» ، والنصوص المنقوشة والمرسومة فى مقابر وادى الملوك ، ولا سيما مقبرة سيتى الأول ، منذ ثلاثة وثلاثين قرنا – يرينا ذلك كله كيف كان اسم الإله يرد ذكره فيما يجرى من حوار بين كهنة أوزيريس ومساعديهم ، خلال احتفالات المسارّة [2] التى كانت تقام فى معبد أبيدوس .

وفى «قصة الرياح الأربع» عبر عن اسم الله الأول برموز هيروغليفية من ريش وعصافير تتطابق مع الحركات IAUEE . Yahvé [يهوه] .

وقد بدا الحرف الأخير من الرموز الهيروغليفية فى شكل مروحتين من ريش ، متعارضتى الاتجاه ، للتعبير عن شهيق هذا الإله الحى وزفيره ، وهو الإله الذى يحرم النطق باسمه ، لأن تسميته تجعل منه شيئا من الأشياء التى تُحدَّد بالكلمة والمعنى .

هذا على حين أن (الإله) ليس كائنا – être بل هو فعل – acte ، وحضور خالق ، ومصدر لكل وجود ، وهو إذن لايمكن أن يُصغَّر ليصبح واحدا من هذه الموجودات .

---

(١) ألبرايت السابق ص ١٦٣ .

(٢) احتفالات المسارة كانت تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة . ومازالت تقليدا متبعا فى الجمعيات السرية الحديثة . (المترجم) .

وفى مقابل ذلك ، لوأننا أضفنا إلى الحركات IAOUE أو IEOUA ، وهى تعنى (يهوى Yahvé أو يهوه Jehovaho) حرف الشين الذى يعنى الاحتراق أو التجسيد ، فإن IESHVA ، أى (Jésus) : يسوع ، وهى تعنى : الله المتجلى فى صورة إنسانية ، والإنسانية المختارة فيه .

هذا هو الاسم السرى لله (الذى لايمكن أن يقال ، لأن من الدنس أن نرد هذا الفعل الخالق إلى كلمة لاتصلح إلا لتعيين واحد من الكائنات التى خلقها ، وهو الاسم الذى استرده موسى من مصر ، (وموسى اسم مصرى ، وهو موسيس – Moses ، مثل : Ramos أو Ramses . أى : ابن الإله رع – Ra) .

هذا الإنضاج المتطاول للوحدانية ، وهذا الانبثاق للبعد العلوى للإنسان ، من العراق ، إلى مصر ، عبر الهلال الخصيب – قد احتكرته تقاليد الكهانة العبرانية ، وهى تعيد كتابة التاريخ بروح عرقية عنصرية شديدة الانغلاق .

ومن هنا نجد سفر التثنية [١٢/ ٥ و ١٢/ ٢١ ، و١٦/ ١١] يكرر إلى درجة الإملال – أن أورشليم هى «المكان الذى اختاره الرب ليصنع اسمه فيه» ، وهى المكان الذى بنى فيه يشوع مذبحا للرب إله إسرائيل ، فى جبل عيبال» [٨/ ٣٠ – ٣٥] فى شكيم ، كما أقامه أرمياء فى شيلو [٧/ ١٢ و ١٤ و ٣٠] [١] .

على أننا نجد تعبيرات مثل : «أنت المتفرد ، أنت خلقت كل موجود» فى أحد أناشيد آمون فى القرن الخامس عشر .

وقد أجريت مقابلة ، كلمة بكلمة ، بين نشيد الشمس ، لأخناتون ، وبين المزمور ١٠٤ فى الكتاب المقدس العبرانى ، وهى مقابلة موجودة فى كتاب (نصوص الكتاب المقدس والشرق الأوسط –السابق ص ٩٩ – ١٠٣) .

---

(١) نص عبارة ارمياء [٧/ ١٢] : «لكن اذهبوا إلى موضعى الذى فى شيلو ، الذى أسكنت فيه اسمى أولا» ، و [٧/ ١٤] : «أصنع بالبيت الذى دعى باسمى» [٧/ ٣٠] : «لأن بنى يهوذا قد عملوا الشر فى عينى ، يقول الرب : وضعوا مكروهاتهم فى البيت الذى دعى باسمى لينجسوه» .

(المترجم) .

والحق أن هذا النشيد الذى وضعه المصلح الموحد [1] أخناتون لا يؤكد على جانب أساسى ، هو جانب العدالة الاجتماعية . وهو الجانب الذى تناولته التعاليم الإسرائيلية على وجه التحديد منذ سفر التثنية ، بل منذ الأنبياء الكبار بدءا من عاموس . ذلك أنه إذا كان العبرانيون لم يخترعوا الوحدانية ، التى كانت تنضج منذ قرون فى الشرق الأدنى كله ، فإنهم قد جعلوا من وحدانيتهم الوليدة - (التى لم تسد فى بنى إسرائيل إلا فى منتصف القرن السادس ، مع عيصو الثانى - Esaie) - جعلوا منها دافعا لحركة التحرر الاجتماعى .

ولا مجال للريب فى وجود آثار للشرك العبرانى فى نقولهم الشفوية والمكتوبة . بدءا من القرن التاسع . وسفر يشوع [٢٤/٢] ينص صراحة «آباؤكم .. عبدوا آلهة أخرى» . ويورد الأب دوفو على هذه النقطة أدلة مستقاة من الكتاب المقدس ذاته ، يقول : «إذا كانت كلمة (الموحد) تعنى - كما يقول أولبرايت - من يعلم الناس وجود إله واحد» فإن موسى لم يكن موحدا ، ولا شيء يدلنا على أنه جاهر بالاعتقاد فى إله واحد» ، بل إن لدينا فضلا عن ذلك إشارات إيجابية على أن موضوع اعتقاده لم يكن نظرية (اليهوية) yahvisme البدائية .

إن ترنيمة الخروج [١٥/١١] تتساءل : «من مثلك بين الآلهة يايهوى ؟ [2] .

وبعد أن استمع يثرون ، حمو موسى ، قصة النجاة من مصر - صاح وهو يذبح لله قائلا : «الآن علمت أن يهوى [3] أعظم من جميع الآلهة» [الخروج ١٨/١١] . وأول أوامر الوصايا العشر [4] ذاتها لاينكر وجود آلهة أخرى ، فهو يفترض وجودها : ويحرم السجود لها» [5] .

---

(١) عبارة الأب دوفو فى كتابه «تاريخ بنى اسرائيل القديم» السابق ص ١٠٢ .

(٢) عبارة الترجمة العربية : «من مثلك بين الآلهة يارب» ولكن المؤلف ينقل عن الترجمة الفرنسية ، وهى أدق فيما ثبت لنا من المقابلة بين النصوص .
(المترجم) .

(٣) فى الترجمة العربية (الرب) (المترجم) .

(٤) إنك لاتسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور ، إله غيور هو» [الخروج ٣٤/١٤] .

(٥) الأب دوفو : تاريخ بنى إسرائيل القديم» - السابق صى ٤٣١ - ٤٣٢ .

ولقد كان وجود آلهة أخرى معترفا به مثلا فى [سفر القضاة ١١ / ٢٤] فى قوله : «أليس مايملكك إياه كموش إلهك تمتلك ؟ ، وجميع الذين طردهم يهوه [١] إلهنا من أمامنا فإياهم نمتلك» . وهو مايقوله إسرائيل لأهل موآب الذين يسمونهم فى [سفر العدد ٢١ / ٢٩] : «أمة كموش» .

وينعى داود ، فى [صموئيل الأول ٢٦ / ١٩] على حاشية شاول أن موقفهم منه يوشك أن يقول له : «اذهب اعبد آلهة أخرى» . ولقد كانت بقايا عبادة الآلهة الآخرين متأصلة فى بنى إسرائيل لدرجة أن منسى ملك يهوذا (٦٨٧ – ٦٤٢) «أقام مذابح للبعل» [الملوك الثانى ٢١ / ٣] . على الرغم من اعتبار ذلك «أرجاسا» . وكذلك فعل من قبله أخاب ملك إسرائيل (٨٧٥ – ٨٥٣) ، الذى «سار وعبد البعل ، وسجد له ، وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة» ، [الملوك الأول ١٦ / ٣١ – ٣٢] ، وذلك بعد أن «اتخذ إيزابل ابنة أثبعل ملك الصيدونيين امرأة» ، (ومعنى أثبعل : بعل معه) .

فى مقابل ذلك نجد أن الإضافة الجديدة للعبرانيين هى أنهم ميزوا فى تاريخهم الواقعى أو المحشو بالأساطير – فترة التحرير من البؤس والاضطهاد ، فترة الهجرة والخروج من مصر ، وقد سبقت الوصايا العشر التى أمر بها الرب بمقدمة تقول : «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر ، من بيت العبودية» [الخروج ٢٠ / ٢] . فالتحرير ، والهجرة هما رمز الخلاص .

ولقد كان عيد الفصح عند الكنعانيين عيدا للربيع ، وتجدد الطبيعة [٢] وهو بالنسبة إلى الإسرائيليين إحياء لذكرى الحدث الذى يعتبرونه اللحظة

---

(١) فى الترجمة العربية (الرب) (المترجم) .

(٢) عيد الفصح عند الكنعانيين ، وهو عيد «الخبز بلا خميرة» – كان العيد الزراعى الذى يسبق الحصاد ، عيد التجديد ، فهم فيه يأكلون الخبز بلا خميرة ، أى : دون شىء يضاف إليه من المحصول القديم ، ويحفظ سفر التثنية هذا العيد بعد أن يغير معناه ، فيقول : «احفظ شهر أبيب ، واعمل فصحا للرب إلهك ، لأنه فى شهر أبيب أخرجك الرب إلهك من مصر ليلا .... لا تأكل (خبزا) عليه خميرا ... خبز المشقة .... لكى تذكر يوم خروجك من أرض مصر كل أيام حياتك» [التثنية ١٦ / ١ – ٤] .

الحاسمة فى تاريخهم: الهجرة ، والتحرر من البؤس والعبودية فى مصر .

ويلخص المقطع الرئيس من قانون الإيمان - الإيمان الإسرائيلى بقوله: «آراميا تائها كان أبى» [التثنية ٢٦/٥] . وهو يركز على لحظة التحرر فى شكل «تاريخ مقدس» يتخذ منه كل مشهد مادة إيمان ، فيقول: «أساءَ إلينا المصريون ، وثقلوا علينا ، وجعلوا علينا عبودية قاسية ، فلما صرخنا إلى الرب ، إله آبائنا سمع الرب صوتنا ، ورأى مشقتنا وتعبنا وضيقنا ، فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة ، وذراع رفيعة ، ومخاوف عظيمة ، وآيات وعجائب» [التثنية ٢٦/٦ - ٩] .

إن تركيزا كهذا لايمكن أن تستبين جوانبه إلا بتجربة تاريخية حاسمة فى تاريخ بنى إسرائيل .

بيد أن هذا التاريخ يبدو دائما لغزا حقيقيا . ولا ريب أن قراءة الكتاب المقدس تقدم إلينا ملحمة غريبة ، هى تاريخ بنى إسرائيل ، فقد بدأ هذا التاريخ مع تاريخ العالم ، منذ خلق السموات والأرض ، ثم خلق الإنسان الأول .

ثم يأتى بعد ذلك دمار هذا الخلق ، بسبب خطايا البشر، وذلك بالطوفان الذى نجا منه نوح وحده ، فتولى إعمار الدنيا .

ثم جاء أحد ذراريه ، إبراهيم فرسم بسلوكه المثالى اتجاه التاريخ اللاحق كله ، أنجب ولده إسحاق ، الذى نجاه الرب ذاته ، كفاء ماخضع لإرادة الرب خضوعا مطلقا ، ثم جاء ابن اسحاق الصغير يعقوب ، الذى سمى بإسرائيل ، والذى سوف يكون له اثنا عشر ولدا ، هم أصول الاثنتى عشرة قبيلة ، أسباط بنى إسرائيل ، وبذلك يصبح إسرائيل أصل «التاريخ المقدس» .

وقد انعقد بين إسرائيل وبين الرب «عهد» ، وسوف يحترم إسرائيل شريعة الرب ، وسوف يعده الرب بأرض كنعان .

وبعد أحداث هائلة كثيرة ، ناشئة عن خطايا إسرائيل ، مما أنزل الرب به من عقوبات ، تحقق الوعد الذى أعطى للأحبار ، وبعد هجرة طويلة ، من العراق إلى مصر ، وعبودية طويلة تحت نير الفراعنة ، أخرج الرب شعبه من

من مصر ، ووجه هجرته ، بأن أعطاه موسى قائدا، وأوحى إلى موسى الشريعة التى يتعين على بنى إسرائيل الالتزام بها منذ ذلك الحين ، حتى يكونوا مخلصين للرب ، ثم اتحد بعد ذلك الأسباط الاثنا عشر تحت إمرة يشوع ، فى حرب خاطفة تستولى على كنعان ، وطرد الرب أمامهم المحتلين ، أو أباد الشعوب بجنود يشوع .

ثم آل ملك البلاد إلى داود وابنه سليمان ، بعد عدة انقلابات قمعها القضاة ، زعماء الأسباط ، وقد كان حكم سليمان تاريخا رائعا ، ظل إلى وقت طويل يتناقل أجزاء من خلال الروايات الشفهية ، ثم بدأ يكتب ويؤلف فى تصنيف متناسق .

هذا التأليف الأول الذى تم على يد فريق يطلق عليه المفسرون : اليهوى Yahviste – فى القرن العاشر – سوف يتولى إكماله فى النصف الأول من القرن الثامن فريق آخر من جامعى الروايات ، يوصف بأنه الإيلوهى Elohiste ، وهو الذى سوف يخفف من نزعة التجسيم فى الرواية الأولى .

ثم يحدث تأليف من الروايتين ، بين سنتى ٧١٦ – ٦٨٧ ، هو تأليف سفر التثنية ، وهو الذى ركز على فكرة «العهد» ، ومن ثم فكرة «الشعب المختار» ، كما ركز على جميع نتائج الوفاء بهذا العهد .

ويأتى أخيرا المصدر الكهنوتى (كما يسمى بسبب تشديده على مراعاة الشعائر) ، وكان ذلك لدى السبى البابلى ، فى القرن السادس ق . م .

أما بالنسبة إلى الفترة التى تهمنا ، وهى فترة استقرار العبرانيين فى أرض كنعان ، فسوف نعتمد على : سفر التثنية ، وسفر يشوع ، وسفر القضاة ، وسفر صموئيل ، وسفرى الملوك ، وهى التى تنتهى بنا حتى عام ٥٨٧ ق . م . (عندما استولى البابليون على أورشليم) .

إن المشكلة التاريخية الرئيسة تنبع من أنه لا توجد أية معطيات أثرية أو وثائقية تساند النص الكتابى ، وتمده بدعم تاريخى . وها نحن أولاء نجد عالما شديد الشغف بإنقاذ الجانب التاريخى الكتابى ، كالأب دوفو – يعترف كغيره

من الباحثين ، بأنه لايوجد فى أى مكان «أية إشارة صريحة إلى رؤساء العبرانيين ، وإلى الإقامة فى مصر ، أو الرحيل عنها ، بل ولا غزو كنعان ، ومما فيه شك كبير أن نتوقع مطلقا انقطاع هذا الصمت بنصوص جديدة» [1] .

والمرة الأولى ، والوحِدَة ، التى ظهر فيها اسم (إسرائيل) فى نقش ما ، كان على إحدى المسلات التى أقيمت حوالى عام ١٢٢٥ ق . م . تمجيداً لانتصارات الفرعون ميرنفتا – Mernephta قيل ضمن تعداد انتصاراته : إنه عندما استولى على المدن الفلسطينية ، هدم أيضا إسرائيل: «لقد خربت إسرائيل ، وقضى على ذراريها» ، ثم لم توجد بعد ذلك كلمة عن إسرائيل ، لا على المسلة ، ولا فى الآداب المصرية كلها .

وحتى نقتصر على مثال شديد الوضوح نذكر ماكان من أمر إسرائيل ، حين بلغت أوج قوتها – على مايقرره الكتاب المقدس – كان ذلك على عهد داود ، ولكن لا اسم داود نفسه ، ولا تاريخه ، يظهر فى أى مصدر غير الكتاب المقدس ، فلا نص ، ولا نقش ، ولا بقايا أثرية . وموت سليمان «هو أول حدث فى تاريخ بنى إسرائيل يمكن أن يكون محددا تاريخيا» [2] ، إذ يمكن إثبات علاقة تاريخية مقارنة فى نهاية الأمر بينه وبين تسلسل أحداث الإمبراطورية الآشورية الجديدة . التى هى موضع وثوق ، والتى تم تحديدها بدقة طبقا للحسابات الفلكية .

وهناك مثال آخر نموذجى ، هو مثال الهجرة أو الخروج ، فلدينا عنه تقارير الضباط من حراس الحدود بين مصر وكنعان ، فى العصر الذى يفترض لعبور العبرانيين (حوالى ١٢٢٠ – ١٢٠٠) .

* * *

---

(١) الأب دوفو : «تاريخ بنى إسرائيل القديم» ص ١٥٣ .

(٢) نوث Noth «تاريخ إسرائيل» ص ٢٣٥ – Histoire d' Israel .

وفى هذه التقارير يذكر فيها أقل نقل لموظف ، أو تحرك عسكرى ، أو انتجاع قبيلة بدوية مترحلة [1] . بيد أن هذه التقارير لاتذكر مطلقا أقل أثر لعبور العبرانيين الذى ذكر لنا فى سفر الخروج [١٢ / ٥١] ، وهو عبور قامت به جنود كثيرة ، وغرقت خلاله فرقة من المركبات المصرية ، والله هو الذى «دفع فرعون وقوته فى البحر» [المزامير ١٣٦ / ١٥] .

إن الصمت المصرى عن أحداث بهذه الضخامة غير قابل للتفسير ، ويبدو أن هذا الحدث لم يثر اهتمام المصريين [2] .

وأقصى مايمكن لعلم الآثار أن يحققه هو أن يكشف لنا أحيانا عن سياق هذه القصص الملحمية ، قبل: وجود هجرات أمورية ، على عهد الآباء البطاركة المفترضة ، وبقايا دمار حاصور فى العصر الذى يفترض أن العبرانيين استقروا فيه فى فلسطين . ويمكن أن يقال نفس المقال عن الإلياذة – مثلا ، فقد برهنت البحوث الأثرية على وجود طروادة وعلى تدميرها ، وعلى الواقع التاريخى للممالك الميقينية .

إن هذا يدل على أن الروايات الشفهية والأساطير تعتمد فى عمومها – على لحمة تاريخية واقعية ، وهذا حق بالنسبة إلى الكتاب المقدس .

ومع ذلك ، إن علم الآثار يتولى غالبا تكذيب الادعاءات التى تلقى جزافا ، ومن أمثلتها ماجاء فى سفر يشوع ، فإن أريحا وعاى – كما رأينا – لم تكونا موجودتين منذ زمن طويل ، عندما تنفخ يشوع بأنه قوض أسوارهما .

كذلك نلاحظ انعدام البقايا الأثرية التى تشهد بميلاد عصر حضارى جديد فى فلسطين ، لدى وصول العبرانيين ، وقد لاحظت كاتلين كنيون Kathleen Kenyon وهى تضع تقريرها عن حفرياتها الأثرية – «أن إحدى العقبات الرئيسة

---

(١) انظر مثلا : « نصوص عن الشرق الأدنى القديم وتاريخ إسرائيل » - Textes du prodie Orient oncient et historire d Israel جمعها جاكس بريانـد ، ومـارى جوزيـف سوكـى ط . سيرف باريس ١٩٧٧ ص/ ٦٥ – ٦٨ .

(٢) انسيكلوبيديا يونيفرسال – جـ١٢ مادة فلسطين ص ٤٢٩ .

أمام إثبات تسلسل الأحداث فى دخول بنى إسرائيل تتمثل فى أنه لاشىء ، فى أى موقع ، يسمح لنا بالقول بوجود دليل مادى على وصول شعب جديد» .

وتستنتج من هذا قولها: «يجب أن نقرر أن المجموعات الإسرائيلية التى كانت تصل كانت أصلا من البدو الرحل .. الذين استعاروا لدى استقرارهم أدوات أسلافهم فى هذه الأرض .. وأن الثقافة الفلسطينية كانت أساسا كنعانية» [١] .

* * * * *

الفصـــل الثانى

العبرانيون

١ - «الظهور التاريخى الأول للعبرانيين»

كيف تم إذن استقرار العبرانيين فى فلسطين فى حين أن التاريخ لم يقل لنا شيئا عن ماضيهم قبل وصولهم ؟ ذلك أن التفسير والآثار حين يطعنان بالتزوير فى الرواية ، فإنهما يتفقان على : «أن الاستقرار السلمى الهادىء فى الأقاليم قليلة السكان ، والانتقال من المرحلة نصف البدوية إلى الحياة الزراعية – قد تما دون أحداث تستحق الذكر ، ولم يخلفا آثارا عميقة» (٢)..

ويؤكد الأب دوفو «أن شعب إسرائيل لم يتكون – فى نظر المؤرخ المعاصر – إلا بعد استقراره فى كنعان» (٣) .

ويصل نوث إلى نفس النتائج حين يقول : «إسرائيل .. وجود اتحاد بين اثنتى عشرة قبيلة ... لم يكن ظاهرة حية إلا ابتداء من اللحظة التى احتلت فيها البلد ذا الثقافة الفلسطينية ... وتاريخها لايبدأ إلا على أرض فلسطين » (٤) .

والذى ثبت منذ الآن يسمح لنا باستخلاص أن كل قبيلة من الأسباط كان لها سابق وجودها التاريخى الخاص .. قبل أن تكون اتحادا متينا فى البلد ،

---

(١) كاتلين كنيون : «اموريون وكنعانيون Amorites and Canaanits محاضرات شفاين فى الأكاديمية البريطانية (١٩٦٣) مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٦٦ص/٥ .

(٢) الأب دوفو : السابق ص ٤٤٧ .

(٣) السابق / ١٥١ .

(٤) نوث : «تاريخ إسرائيل» histoire d' Israel ص ٦٤ – ٦٥ .

يصمد للزمان ، تحت اسم مشترك هو إسرائيل » ، فبعد أن استقروا فى فلسطين نمت لديهم فكرة أن لإسرائيل تاريخا مشتركا قبل استقرارها [1] .

ماذا يكون إذن ذلك التاريخ السابق للقبائل أو الأسباط ، وكيف تم بناء المخطط التاريخى الاتحادى ؟ .

لكى نجيب عن هذا السؤال نجد بين أيدينا بعض النقاط التى نتخذها معالم ، فى الكتاب المقدس ، وفى التاريخ ، فالعبرانيون هم - أولا - جزء من الهجرة الآرامية ، ثم إن بعض هؤلاء الآراميين لم يجدوا - دهراً طويلا - لأنفسهم أرضا على اتساع المجال الذى تدفقت فيه الموجة ، لا فى العراق ، ولا فى الشام ، ولا فى فلسطين ، ولا فى مصر ، وهناك آثار لهؤلاء القوم الذين كانوا بلا أرض ، يعيشون على الهامش ، يستأجرون لأية مهمة ، ويكونون أحيانا بعض فرق الجند المرتزقة ، فى خدمة الأمراء ، أو حتى بعض عصابات النهب التى تبث الرعب فى قلوب الأغنياء ، هؤلاء هم (الخبيرو - habiru) . وهى كلمة من نفس جذر الكلمة (هبرو - hébreu) ، وقد نسبها معظم الشراح والمؤرخين إليه .

لقد ورد ذكر هؤلاء فى ألواح مارى ، بالعراق : « نهب الخبيرو لهياكى Habiru Ont razzié Luhaγaki .

وفى مصر يتحدث رمسيس الثانى (١٣٠١ - ١٢٣٤) عن دور الخبيرو فى الأعمال الكبيرة ، فهم يقدمون إعانات لجنود الجيش ، وللخبيرو الذين حملوا الحجارة لبناء البوابة الكبرى » .

ونجد فى رسائل العمارنة أميرا فلسطينيا مهددا يشكو إلى فرعون : « فليعلم الملك أن رئيس الخبيرو يعمل ضد البلد [2] » .

---

(١) نوث : « تاريخ إسرائيل » « histoire d Israel » ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) فقرات مذكورة فى (نصوص العهد القديم والشرق القديم) - (Textes de la Bible el de l ancient orient) ط دولاشو و نستله ، نيو شاتل ١٩٦١ ص ٣٣ - ٤٠ .

ويحدثنا نص ألالاخى Alalakhi أن الملك أبرم اتفاقا مع «الخبيرو» حتى يربطهم بجيشه ، وفى نوزى Nuzi شرق دجلة - نصوص تذكر أن «الخبيرو» يتلقون مرتبات وملابس من الدولة ، وأن آخرين يؤجرون خدماتهم لبعض الأفراد .

وفى رسائل العمارنة أيضا نجد حديثا عن «الخبيرو» ، سواء باعتبارهم مرتزقة ، أم باعتبارهم لصوصا متمردين .

وفى منشور لأحد ملوك الحثيين ، وهو حتوسيل الثالث Hattusil يعلن أنه لن يستقبل (الخبيرو) الهاربين من مملكة أوغاريت ، وفى نصوص رأس شمرا ورد ذكر الخبيرو ، وهم يقومون بنفس الأعمال [1] .

لقد جهد المتخصصون أن يعرفوا ماإذا كان «الخبيرو» ينتمون إلى عرق معين ، أو إلى طائفة اجتماعية ، وربما كانت هذه مشكلة زائفة ، فهم ينتمون بلا أدنى شك إلى «عروق» سامية لم تتوقف عن الترحل فى أنحاء الهلال الخصيب ، من الأموريين إلى الآراميين ، ولكنهم ينتمون إلى تلك الطبقة الاجتماعية من الذين لم يجدوا أرضا فاضطروا إلى تأجير خدماتهم فى المجالات الزراعية ، لدى الأفراد ، وفى الأعمال الكبيرة للدولة ، وفى فرق المرتزقة لدى الأمراء ، وعندما كانوا لايجدون شيئا يعمدون إلى تشكيل عصابات نشطة للسلب والنهب .

وأقسى من استغل من هؤلاء كانوا أولئك الذين عملوا فى المشروعات الكبيرة ، لدى رمسيس الثانى ، فى مصر ، وقد لجأت مجموعات صغيرة منهم ، متمردين أو هاربين من مصر إلى كنعان ، وصاروا مفجرين لتمرد أعم وأشمل ، فقد اجتذبوا ، بلا شك ، إليهم متمردين ، وخارجين على القانون ، من كل جنس .

وقد اختارت هذه الثورة التى يمكن أن نسميها (تمرد الفقراء) أو (ثورة الفلاحين) - اختارت مجال تمركزها فى فلسطين ، حيث كانت مصر قد فقدت السيطرة عليها ، وحيث كان الحثيون يواجهون مصاعب مع «شعوب البحر» . فلا يستطيعون أن يمارسوا فى فلسطين سلطانهم ، وحيث كان تنافس الأمراء قد أدى بالبلاد إلى العجز والفوضى .

---

(١) انظر الأب دوفو ، ص ١٠٦ - ١١٢ .

لم ينجح «الخبيرو» القادمون من سائر آفاق الهلال الخصيب ، فى أن يسيطروا على المدن الكبيرة ذات الأسوار الحصينة . [العدد ١٣/٢٨ - ٣١] ، والمسلحة بمركبات الحديد ، فلم يكن ممكنا أن يغتصبوا الوادى من ساكنيه لأن «لهم مركبات حديد» . [يشوع ١٧/١٦] .

ولقد قال القضاة - مثلا إنهم لم يأخذوا مجدّو ، ولا جازر ، ولا صيدون ، ولا مدنا كثيرة غيرها [القضاة ١/٢٧ - ٣٥] . ولم تسقط أورشليم إلا بعد ذلك بقرنين ، فى يد داود ، ويعلمنا سفر القضاة أن سكان أورشليم «اليبوسيين» ، سكنوا أورشليم مع بنى بنيامين [١/٢١] ، وداود نفسه ، عندما غزا المدينة لم يطردهم منها. ولكن الخبيرو والعبرانيين انتهوا إما إلى التسلل بين المدن ، ولاسيما فى المناطق الجبلية ، وإما إلى تحقيق مواءمة مع بعض المدن ، وغزو بعضها الآخر ، (كما فعلوا بهازور) بالصراع المسلح الذى استهوى من بينهم مجموعة الجنود المرتزقة . فالكنعانيون لم يبادوا كما يدعى ذلك سفر يشوع ، بل إن سفر القضاة - على العكس - يؤكد أن «الكنعانيين عزموا على السكن فى تلك الأرض ، وكان لما تشدد إسرائيل أنه وضع الكنعانيين تحت الجزية» . [١/٢٧ - ٢٨] .

لقد استمر هذا الاختراق وقتا طويلا ، قرنا ، وربما قرنين ، والذى يؤكد افتراض تجمع الخبيرو للاستيلاء على فلسطين أنه لايوجد سؤال واحد عنهم فى أى نص ، عندما تحقق استقرار العبرانيين فى فلسطين ، ويفضل مندن هال فكرة «حدوث ثورة للفلاحين آنذاك ضد المدن والولايات ، الكنعانية» [1] .

وربما وجب علينا أن نحدد أن هذه كانت «حرب فلاحين» بلا أرض ، شبه بدو ، وتائهين فى الهلال الخصيب ، حتى يستطيعوا العيش . وربما وجب علينا أيضا ألا ننكر وجود عناصر خارجية ، بأعداد كبيرة : كمجموعة الأسارى

---

(١) ج . إى . مندن هال «غزو العبرانيين لفلسطين» (فى سجلات الكتاب المقدس) رقم ٢٥ (١٩٦٢) ص ٦٦ - ٨٧ The Hebreu conqust of palesin .

القادمين من مصر ، ومجموعات المعدمين الذين كانوا بلا أرض ، وهم الذين جاءوا من سائر أرجاء الهلال الخصيب .

فإذا ماحملنا الأمر على هذا المحمل استطعنا أن نقول : إن الموقف كان ثورة اجتماعية أكثر منه غزوا عسكريا .

ولقد كان عنصر التماسك رؤية دينية متطلعة إلى الخلاص لدى جميع هؤلاء «المعذبين فى الأرض» (تماما كما حدث بعد ثمانية وعشرين قرنا ، فى «حرب الفلاحين» بألمانيا ، بقيادة توماس منزر) ، كان هؤلاء المعذبون يعارضون إله القبائل ، وإله الصحراء ، والشعائر الزراعية التى يؤديها الأغنياء ، حيث يحكم الإله بعل ، الإله الذى يفيض الحيوية والحياة .

أما الخبيرو ، والعبرانيون ، والذين انضووا تحت لوائهم من كل جنس - فقد كانوا غلاظا جفاة ، قادمين من الصحراء ، ومن المراعى ، وهم لايسخطون على اضطهاد الأغنياء لهم فحسب ، بل إنهم يرفضون طريقة عيشهم ، وفهمهم للحياة .

إننا لانملك العناصر الضرورية لاسترجاع مراحل ديانة العبرانيين فى ترتيبها الزمنى ، إذ إن تجميع الروايات الشفهية وتدوينها لم يشرع فيهما إلا فى القرن العاشر ، حين اتخذ قانون الإيمان شكلا منهجيا ، طبقا لنظام معين ، ولمعايير تولدت عن الحاجات السياسية والروحية لذلك العصر .

بيد أن السمة الغالبة،الدينية والأخروية ، ومفهوم مملكة الرب ، والخلاص ، وقد انبثقت عنها أشياء كثيرة (ذات أشكال جديدة) لدى الأنبياء ، بدءا من عاموس ، ولدى المسيح - كل ذلك يعتبر هو الإسهام الرئيس لديانة إسرائيل ، فهو عميق الجذور فى تجربة المقاومة ، والخلاص ، وفى تمرد الخبيرو ، كما يشهد به دور نجاة الخروج فى تحديد يَهْوه (الرب) حين قال لموسى: «أنا الرب (يَهْوَهْ) إلهكم الذى يخرجكم من تحت أثقال المصريين» ، ثم يذكر أن بنى إسرائيل لم يعرفوه بهذا الاسم «وأما باسمى يَهْوَه فلم أعرف عندهم» ، [الخروج ٦/٣ - ٧] فَيَهْوَه لا يظهر بهذا الاسم إلا مع حدث الخروج من

مصر ، ولسوف ينتظم «التاريخ المقدس» ، تاريخ بنى إسرائيل كله منذ هذه اللحظة انطلاقا من هذه الخاصة الأساسية لِيهْوَه : أنه أنكر قدرة فرعون ، وأنه خلص العبيد من العبودية .

وإليه وحده تقدم القرابين «من ذبح لآلهةٍ غير الرب (يَهْوَه) يهلك» [الخروج ٢٢/٢٠» .

ذلكم هو تشدد إله الصحراء ، الإله المخلِّص .

إن التجربة الأساسية لسبط يوسف (الذى ازدوج فى افرايم ومنسَّى [١]) ، تلك التجربة التى عاشت الخروج من مصر – تتطابق مع تجربة الآخرين جميعا ، أولئك القادمين من السهول الأخرى على حافة أراضى الثقافة ، ولكنها اختبار نموذجى للخلاص ، ولذلك نجد أن الرب يَهْوَه الذى قادها سوف يفرض نفسه على جميع الأسباط الأخرى .

إن توقف التفسخ بهذا التدخل التاريخى ، باسم وحى الرب ، سوف يصبح عقد الإيمان الأساسى لجميع الأسباط،وهذا هو بلا شك مغزى اجتماع شكيم الذى تحدث عنه سفر [يشوع ٢٤/ ١ – ٢٨] . حيث تحقق أول اتحاد بين الأسباط ، فإن يشوع بعد أن ذكر لهم الإحسان العام الذى صنعه يَهْوَه لهم ، وهو : أنه أصعدهم من مصر «بيت العبودية» – يوجه إلى جميع الأسباط ، بما فيهم أولئك الذين لم يعيشوا التجربة الحاسمة ، تجربة الخروج – سؤالا قاطعا : «اختاروا لأنفسكم اليوم مَنْ تعبدون ، يَهْوَه رب الخروج ، أو آلهة كنعان» ، [٢٤/ ١٥] .

ولقد اختارت الأسباط جميعا الرب يَهْوَه ، «وقطع يشوع عهداً للشعب فى ذلك اليوم ، وجعل لهم فريضة وحكما» [٢٤/ ٢٥] ، وذلك هو ماكان موسى قد فرضه فى الصحراء ، [الخروج ١٥/ ٢٥] ، واستبعد كل إله آخر .

---

(١) هما ولدا يوسف . (المترجم) .

وأيا ماكان نصيب الواقع التاريخى ، وما أدخل عليه من تعديلات لاحقة للرواية الشفوية ، التى صارت بعد عدة قرون مكتوبة ، فإن ذكرى الميثاق الأول لتوحيد الأسباط حول عبادة مشتركة ، هى عبادة يَهْوَه – ظلت باقية .

وأيا ماكانت المخالفات اللاحقة (التى لا تحصى) لهذه الديانة المانعة – فإن عقد الإيمان قد أبرم منذئذ ، وهو الإيمان بيهوه ، الرب الذى أخرجهم من مصر [التثنية ٢٦/٥ – ٩] .

ذلكم هو عقد إنشاء إسرائيل ، لأن «البحث التاريخى – كما قال فون راد – قد بين أن إسرائيل هو اسم هذا الاتحاد الكونفديرالى [1] المقدس بين الأسباط ، الذى تكون فى فلسطين ، بعد دخولهم إلى هذا البلد» [2] .

* * * * *

(١) اتحاد كونفديرالى هو اتحاد بين دول تحتفظ فيه كل دولة بسيادتها وتحل مسائلها العامة فى مؤتمر جامع له صفة سياسية لاتشريعية . (المترجم) .

(٢) فون راد : «لاهوت العهد القديم Théolagie de l' ancien Testawent ط لبير وفيدز – جنيف ١٩٧١ ص ١٧ (وانظر قبل ذلك ص ٥٩) من الكتاب ، لتجد النتائج المتماثلة لدى الأب دوفو ونوث ، وأكثر المؤرخين والمفسرين .

٢ - من الرابطة المقدسة إلى الملكية

حول هذه النواة تكون ، فى النصوص الى وضعها القرن العاشر ق.م التأليف النظرى ، الذى بفضله أصبح التاريخ فى موقع الاحتمال ، وصار له اتجاه يتطابق مع هدفه الإلهى .

وقبل أن تبنى وتكتب هذه اللوحة الجامعة سوف نجد تجارب تاريخية جديدة تتنامى فى فلسطين ، بين استيلاء العبرانيين على السلطة واتحاد الأسباط من ناحية ، وبين تأسيس دولة ملكية من ناحية أخرى .

ذلك أن انحصار الأسباط فى «اثنتى عشرة» قبيلة لم يكن له أى واقع تاريخى ، فلقد استتبع العدد (اثنا عشر) حينئذ فكرة الكمال ، إذ نجد فى النصوص «اثنا عشر» سبطا لإسرائيل ، كما نجد: «اثنى عشر» سبطا إسماعيليا [1] [التكوين ٢٥/١٣ - ١٦] .

واثنى عشر سبطا آراميا [التكوين ٢٢/٢٠ - ٢٤] ، واثنى عشر سبطا أدوميا [التكوين ٣٦ / ١٠ - ١٤] ، تتغير قائمة الاثنى عشر سبطا لإسرائيل ، ولكن الرقم : (اثنا عشر) يبقى ، فعندما انقطع سبط ليفى كُمِّلَ النقصُ بمضاعفة سبط يوسف فى افرايم ومَنَسىَّ ، على حين نجد أن جاد يحل محل ليفى فى [العدد ٢٦] .

وأهم من ذلك بنية هذا الخط المقدس الذى يقارنه نوث بمنتدى المدن الإغريقية Amphictyonies ، المتجمعة - كالأسباط - حول عقيدة مشتركة .

أما الأحداث الطارئة والصراعات التى واكبت الاستقرار فى فلسطين فإنها قادت الأسباط إلى أن توثق العرى فيما بينها ، لتدافع عن نفسها ، وتمارس مهمة الغزو .

---

(١) هم بنو إسماعيل بن إبراهيم حسب رواية العهد القديم . (المترجم) .

فكان بين الأسباط أولا تحالفات مؤقتة ، وجزئية ، تحت قيادة رؤساء ملهمين أطلق عليهم الكتاب المقدس «القضاة» ، وللكلمة معناها : فالقضاة الكتابيون لا يباشرون وظائف قضائية ، فهم زعماء سياسيون ، وقادة حرب ، بيد أن تسميتهم «قضاة» تبين إلى أى مدى كانت الشريعة ، والقانون الإلهى ، والتقيد بهما عاملا جوهريا فى الربط مابين الأسباط : فالوظيفة الأساسية للرئيس هى إذن ملاحظة احترام هذه الشريعة .

وعندما كانت تتعاظم الأخطار ، أو تتوسع الحروب ، كان نزوعهم شديدا إلى جعل هذه السلطة دائمة ، بل ووراثية . ولقد رفض جدعون أن يقبل تنصيبه ملكا حين عرضوا عليه الملك ، [القضاة ٨/٢٢ - ٢٤] ، وقال لهم : «لا أتسلط أنا عليكم ، ولا يتسلط ابنى عليكم ، الرب يتسلط عليكم» .

وفى مقابل ذلك نجد أبيمالك يتآمر فى شكيم لينصب نفسه ملكا ، على طريقة قدماء الملوك الكنعانيين [القضاة ٩/١ - ٥٦] .

ولقد كانت هذه الوحدة الملكية تفرض نفسها أمام تزايد الأخطار ، ولاسيما أمام تهديد الفلسطينيين المتزايد ، فهؤلاء كانوا أصحاب المنطقة الساحلية الغنية ، التى انتصرت من قبل على مملكة الحثيين ، لقد اتحد الأسباط مع شاول أولا على تَهَيُّب ، لكى ينتصروا انتصارا كليا بقيادة داود حوالى سنة (١٠٠٠ ق . م) .

كان هذا منعطفا رئيسا : فقد تحولت الرابطة المقدسة إلى سلطة سياسية على قطيعة مع شريعة يَهْوَه ، التى كان يتمسك بها جدعون منذ قريب ، ومحتذية حذو ملكيات الشعوب الأخرى ، سواء فى ذلك الفراعنة وأمراء كنعان .

وعندما تحركت رابطة الأسباط للمرة الأولى ضد الفلسطينيين ، وهزم جيشها استولى الفلسطينيون حتى على التابوت ، [صموئيل الأول ٤/١٠ - ١١/ ، هنالك ذاق شعب إسرائيل مرارة البؤس والشقاء .

فى ذلك الوقت اعتقدوا أنهم واجدون الرجل الإلهى : «فحل روح الله على شاول عندما سمع هذا الكلام ، وحمى غضبه جدا» [صموئيل الأول

[١١/٦] ، فأحرز انتصارا على العمونيين ، وبذلك ظهر باعتباره المنقذ ، «وقال صموئيل للشعب : هلموا نذهب إلى الجلجال» (وهو المعبد القديم) ، أمام يَهْوَه» الرب ، فذهب كل الشعب [١١/١٥] «وملكوا هنالك شاول» .

لم يكن اختيار شاول باعتباره أكثر الناس إلهاما ، كما كان الأمر بالنسبة إلى «القضاة» الذين اختارتهم الرابطة المقدسة ، فالشعب هو الذى اختاره ، وهكذا كان الانتقال من المقدس إلى السياسى . ويبدو أن واضع القصة كان ضائقا بأن إسرائيل التى كانت – طبقا للرواية – دينية الاتجاه ، قد صارت قوة سياسية .

ولذلك نجد أنه، فى سبيل تخطى ماكان من أمر اعتراض جدعون منذ قريب ، جين رفض أن يكون ملكا ، وهو اعتراض متجدد فى تجمع جلجال ، حين قال المعارضون الذين كانوا فى شك من أمر هذه البدعة (وقد كان صموئيل الأول يعامل شاول على أنه فاسد) ، وأخبر صموئيل [١٠/٢٧] «وأما بنو بلّيعال فقالوا : كيف يخلصنا هذا ؟ فاحتقروه» .

إلا أن النص يؤكد أن المبادرة تأتى من قبل الرب ، الذى ألهم صموئيل أن يمنح شاول تنصيبا مقدسا [١٠/١] [1] .

وقد انتهت المغامرة نهاية رديئة ، إذ انتحر شاول بعد هزيمة ساحقة أمام الفلسطينيين ، وهكذا لم يدم حكمه أكثر من عامين .

وحينئذ بدأ الصعود الرهيب لداود ، الذى جعل من إسرائيل قوة سياسية ، كان داود فى بداية أمره حامل سلاح لشاول ، [صموئيل الأول ١٦/٢١] ، ثم أبعده شاول لأنه كان يغار من انتصاراته ضد الفلسطينيين [٢٨/٨] ، بل حاول قتله [١٨/١١ ، ١٩/١٠] فهرب داود فى جبال الضفة الغربية لنهر الأردن .

---

(١) نص عبارته : «فأخذ صموئيل قنينة الدهن ، وصب على رأسه وقبله ، وقال : أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا» . (المترجم) .

حيث كون عصابة مسلحة قوية للغزو [صموئيل الأول ٢٥ /١٣] ، كما كان يفعل (الخبيرو) قديما ، وعمل داود مع مرتزقته فى خدمة الفلسطينيين ، الذين كانوا فى حرب عنيفة ضد إسرائيل ، وقد ضاعف داود غاراته لحساب أخيش ، ملك جَتّ الفلسطينى : «وضرب داود الأرض ، ولم يستبق رجلا ولا امرأة ، وأخذ غنما وبقرا وحميرا وجمالا ، وثيابا ، ورجع إلى أخيش» [صموئيل الأول ٢٧ /٩] .

لم يكن الأمر فى هذه الغارات أمر «تحريم» و «إبادة مقدسة» ، أمر بها يَهْوَه الرب ، كما كانت الحال على عهد يشوع ، وإنما كانت مجرد عمليات سطو مسلح ، دنيوية محضة ، وسياسية ، قامت بها المملكة التى سوف يشيدها داود ، لا مع الفرق المجندة فى الأسباط ، بل مع جنده المحترفين من كل جنس ، والذين كان لهم تأثير هائل متفوق .

لم يتردد داود فى أن تكون له أيضا علاقات مع أسباط الجنوب ، ومع سبط يهوذا ، ولهذا ، فعلى الرغم من أن داود كان مستعدا للقتال ضد إسرائيل [صموئيل الأول ٢٩ /٨] . فإن الأمراء الفلسطينيين لم يكونوا يرغبون فى أن يتحملوا مغامرة أن يروه خائنا أثناء معركة إسرائيل [٢٩ /٤] .

وحين علم داود بموت شاول ، ذهب بعد الحداد مع مرتزقته إلى حبرون ، وهى المركز الدينى التقليدى لأسباط الجنوب . ولما كان داود قد تزوج من ميكال ، ابنة شاول ، فقد كان صهرا للملك القديم [صموئيل الأول ١٨ /٢٢ - ٢٧] .

وهو ماجعله خليفته الشرعى : «وأتى رجال يهوذا ، ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا» [صموئيل الثانى ٢ /٤] .

ويؤكد فون راد أن استيلاء داود على السلطة قد تم دون أن تكون هناك علاقة بتقاليد إسرائيل المسالمة ، قال : «لقد صار داود ملكا على إسرائيل هذه ،

التى هى شعب يَهْوَه ، والتى تتجمع حول التابوت ، إن نبوة ناثان هى التى تدخل داود فى تقليد إسرائيل المقدس» [1] .

هذا العهد سوف يظهر دون معجزة ، ودون انقطاع فى لحمة ترتيب الأسباب ، فمثلا عندما ثار عليه ابنه أبشالوم دعا داود قائلا : حَمِّق يارب مشورة أخيتوفل» ، [صموئيل الثانى ١٥/٣١] .

وعندما أشار على أبشالوم بالحرب : «فإن الرب أمر بإبطال مشورة أخيتوفل الصالحة لكى ينزل الرب الشر بأبشالوم» [صموئيل الثانى ١٧/١٤] .

لم يكن اختيار داود الذى تم بوساطة سبط يهوذا – ذا صبغة مقدسة ، لأنه لم يعين من قبل أى نبى ، «وأما ابنير بن نير رئيس جيش شاول فأخذ ايشبوشت ابن شاول – (ويسميه أخبار الأيام الأول ٨/٣٣ – اشبعل] .

(وإنما سماه [صموئيل الثانى ٢/٨] إيشبوشت ليتجنب ذكر أن أحد الإسرائيليين يحمل اسما يتصل بعبادة بعل) – وعبر به إلى محنايم ، وجعله ملكا على جلعاد ، وعلى الأشوريين ، وعلى يزرعيل ، وعلى إفرايم ، وعلى بنيامين ، وعلى كل إسرائيل» [صموئيل الثانى ٢/٨ – ٩] .

وقد قتل بعد سنتين [صموئيل الثانى ٤/٧] وأخذ قاتلاه رأسه [٤/٨ – ٩] وأتيا به إلى داود ، فأخذ الرجلين وأمر الغلمان فقتلوهما [٤/١٢] ، وحينئذ ملك على جميع إسرائيل [٥/٧] ، لا على يهوذا فحسب .

عند ذلك تدخل الفلسطينيون للمرة الأخيرة ، فهزمهم داود ، لا بوساطة جيش الأسباط ، بل بالمرتزقة المحاربة ، «داود ورجاله» [صموئيل الثانى ٥/٢١] .

وقد استطاع داود منذ ذلك الحين أن يبنى دولته ، واختار أولا أورشليم مركزاً لها ، وهى التى أنشئت فى بداية الألف الثانية قبل الميلاد ، ولكنها منذ

---

(١) فون راد «لاهوت العهد القديم» – السابق ص ٢٧٠ .

بنيت لم تكن غزاها الإسرائيليون حتى عهد داود ، وقد دخل بمرتزقته تلك المدينة الكنعانية القديمة التى كان يسكنها اليبوسيون ، [صموئيل الثانى ٥ / ٦ - ٩] .

هذه المدينة التى تقع على مفترق طرق مجموعتين من الأسباط - لم تكن ملحقة بإسرائيل أو بيهوذا ، فصارت «مدينة داود» ، يسكنها دائما اليبوسيون ، ولكنها تستقبل الملك الجديد ، وحاشيته ، وجنوده المرتزقة . وقد استقدم داود من المدينة الكنعانية قريات يريم Kiryath — yearim التابوت الذى أخذه من الفلسطينيين ، وأودعه فى أورشليم ، ليجعل من هذه المدينة - رمزيا - مركزا للرابطة بين الأسباط الاثنى عشر ، وهو يربطهم بماضيهم المقدس .

لقد أنشأ داود حينئذ دولة تقوم على تعدد العناصر ، حيث يلقى الكنعانيون ترحيبا فى دولتى يهوذا وإسرائيل ، وحيث يعترف الفلسطينيون والمؤابيون بسيادتها المطلقة ، ومن بعدهم آرام دمشق الذين كانوا يقدمون الهدايا . [صموئيل الثانى ٨ / ١ - ٦] .

وهكذا أنشئت مملكة تتجاوز حدود دولة إسرائيل ، لقد كانت إمبراطوريه فلسطينية ترتبط مكوناتها المتنافرة بشخص الملك وحده [١] .

ولقد يسرت الظروف الدولية المحيطة مهمة داود ، فلا مصر الممزقة بصراعاتها الداخلية ، ولا العراق الذى يحكمه الكاسيون ، ولا الحثيون الذين حطمهم غزو شعوب البحر - لم يكن هؤلاء جميعا يستطيعون أن يقفوا فى وجه توسع مملكة داود .

وكان على داود أن يحطم مغامرات أبشالوم - فى الداخل - للاستيلاء على السلطة [صموئيل الثانى ١٥ - ١٩] ، وقد ظهر جيش داود المرتزق متفوقا على جيش الأسباط التى دفعها أبشالوم ، وهكذا عاد داود إلى العرش الذى اغتصبه ابنه ذات لحظة . [صموئيل الثانى ١٩ / ١٠ - ١١] . وقمع داود أيضا تمرد

---

(١) انظر نوث : « Histoire d Israel » تاريخ إسرائيل ص ٢٠٦ وما بعدها .

أسباط إسرائيل الذى أعلنوه بكلمة السر : «ليس لنا قسم فى داود ، ... كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل !!» [صموئيل الثانى ٢٠ / ١] .

وبقيت مسألة خلافته تحتاج إلى تنظيم ، وقد انتزع داود بتشبع ، امرأة أحد ضباطه الحثيين . أوريّا ، وأرسله إلى الموت [صموئيل الثانى ١١ / ٢ وما بعدها] ، وقد وعد هذه المحظية بأن يكون ولدها ملكا ، وكان سليمان .

وفى عهده (٩٧٠ - ٩٣٠ ق . م .) بدأ تفتت عمل أبيه ، فقد قتل بمجرد اعتلائه العرش يوآب [الملوك الأول ٢ / ٢٨ -٣٥] ، وهو أكثر قادة داود خبرة ، وإذا الأمير الأدومى هَدَد ، اللاجىء إلى مصر . يسترد مملكته ، ورازون رئيس إحدى العصابات الآرامية يستولى على دمشق [الملوك الأول ١١ / ٢٣ - ٢٥] .

وفى مقابل ذلك نجد سليمان قد نظم لحسابه الخاص تجارة بحرية مربحة ، عن طريق خليج العقبة ، بالتعاون مع البحارة الذين أرسلهم إليه الملك الفينيقى حيرام ، ملك صور [سفر الملوك الأول ٩ / ٢٦ - ٢٨ ، و ١٠ / ١١ - ١٢] . وقد استطاع سليمان بهذه العائدات الهائلة ، (وكذلك بالضرائب التى فرضها على رعاياه) أن يتبع سياسة بذخ فى بناء المدن ، ولا سيما فى أورشليم ، وقد بنى داخل قصره المعبد الأسطورى الذى نجد وصفه التفصيلى فى السفر الأول من الملوك [الملوك الأول ٦/ ١ - ٣٨ ، و ٧/ ١٣ - ٥١] .

ولما كان الأسباط البدو لاماضى لهم فى العمارة ، وقد اختلطوا بشعوب كنعان ، وتلقوا عنها الحضارة المدنية - فقد استخدم فى بناء المعبد فينيقيون [الملوك الأول ٥/ ١٣ و ٧/ ٣٢] . وجاء تصميمه على طريقة المعابد الأشورية الفلسطينية فى كنعان ، فقد كان سليمان يحلم بعظمة الفراعنة ، وبترف الأشوريين ، مع لمسات مقتبسة من مصر ومن العراق .

وقلد سليمان كذلك الإمبراطوريات ، التى كان للمركبات فيها دور كبير ، فى فنون الحرب ، وعلى الرغم من أنه لم يحارب قط فقد بنى اصطبلات واسعة [الملوك الأول ٩ / ١٩] لخيول مركباته الحربية ، بناها فى مجدو ، لمجرد الأبهة .

وأخيرا ، فلكى يضفى على بلاطه مزيدا من البريق ، تزوج سليمان بمجموعة من النساء اللامعات ، بلغن حسب رواية سفر الملوك الأول [١١ / ٣] «سبعمائة من النساء السيدات ، وثلاثمائة من السرارى» ، ويضيف نفس السفر : «أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه ، كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذى تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بنى عمون ، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن» ، [١١/٣ - ٩] .

* * *

* * * * * *

٣ – ميـــلاد التـــوراة

هناك شاهد على تأثير الشعائر الكنعانية على الإسرائيليين حين صاروا حضريين ، فى مجالات الثقافة التى كان «بعل» يمجد فيها . ولقد أدان هوشع هذا التيار بقوله : «كلما دعوهم ذهبوا من أمامهم يذبحون للبعليم ، ويبخرون للتماثيل المنحوتة» [هوشع ١١ / ٢] .

لقد غيرت الحياة فى كنف الحضارة الكنعانية تغييرا عميقا طريقة حياة العبرانيين : فهجر هؤلاء البدو الجفاة خيامهم ، ليبنوا بيوتا شبيهة ببيوت الكنعانيين ، وتركوا جلود الأغنام ليكتسوا أقمشة الصوف الملونة ، ومع ذلك يبقى فارق واحد بين أولئك الذين استقروا فى سهول الشمال وسكنوا المدن والقرى الخصيبة ، وبين أبناء الجنوب ، الذين عاشوا دهرا طويلا على أخلاقيات البدو ، ومن ثم سوف يكون الاتحاد – قصير الأجل – الذى حققته ملكية داود هو أحد أسباب الانشقاق بعد موت سليمان ، وهو الانشقاق الذى وقع بين الشماليين فى إسرائيل ، وهم الأكثر غنى ، وبين الجنوبيين فى يهوذا ، بما تبعه من عداوات وصراعات .

لقد كان لاختلاف ظروف العيش تأثيره على العقليات ، ففى المدن والمزارع الحضرية كان الكنعانيون يعبدون ، منذ زمن طويل بعلا ، إله الخصب ، والثروة ، وإله ترف الحياة ، أى إنه كان دينا أرستقراطيا ، يرتضى التفاوت العميق بين الأغنياء والفقراء ، ولقد صار يهوه إله التائهين فى الصحراء ، الذى يحمى الفقراء .

ولسوف نرى كيف أن الأنبياء الأولين ، ولا سيما إيليا Elie واليسع Elisée ، وعاموس – قد نددوا تنديدا عنيفا بهذا الفساد ، وتلك الثروة ، وبذلك التعهر فى الإيمان .

ولقد وجدت فى الجنوب نفسه طوائف تعظم حياة الرعاة القاسية ، وتنسب الكمال إلى البطاركة الأحياء فى هذه الحياة ، من خلال أقاصيص تدور حولهم ، وتمارس الإيمان بروح التشدد ، وهم فى الوقت نفسه يرفضون كل ما تقدمه المدن من إغراء بالرغد والعيش اللين ، وينسحبون إلى الجبال يحيون حياة التقشف ، ولا يختلطون بما يقوم به أهل المدن من نشاط مفسد ، هذا البرنامج الذى يقوم على المفارقة الدائمة الثابتة التى تستهدف مقاومة المفاسد ، وتكريس الحياة ليَهْوَه وحده ، كان برنامج طائفة الريكابيين Récabites ، كما سوف يكون بعد بضعة قرون برنامج الرهبان الإسينيين esséniens ، فى قمران qumranوقد قدمت عنهم مخطوطات البحر الميت معلومات مفصلة .

هذا الموقف المتمثل فى رد الفعل التطهرى الصارم كان يقوى ، بقدر ماكان الإيمان بيهوه يتعرض للخطر ، فالعبرانيون ، ولاسيما أهل الشمال لم يقتصروا على أن يستعيروا من الكنعانيين نوع الحياة ، والمشاركة فى التجارة ، بل لقد قلدوهم فى نظامهم السياسى الملكى : «اجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب» [صموئيل الأول ٨ / ٥] .

ولهذا الموقف نتائج دينية : لأنه سوف يفسر الملكية على أنها عهد يهوه لداود وأسرته ، ليجعل من تنظيم أجنبى عقدا جديدا من عقود التاريخ المقدس .

كذلك نجد المعبد ، وقد بنى على طراز أجنبى فى تصميمه ، وفى زخارفه التى سوف تنتهك تحريم التصاوير بوجوهها «الملائكية» ، كما عدلت مزامير عديدة طبقا لأنماط كنعانية ، يشهد بذلك نصوص رأس شمرا ، وجاءت مزامير أخرى مقلدة أناشيد مصرية (ولاسيما المزمور الرابع بعد المائة) . من هنا يندد عاموس [٥ / ٢٦] بعبادة الأصنام والنجوم البابلية ، ولسوف تدخل فى مرحلة متأخرة عبادة الإله العراق تموز Tammouz ، ثم عبادة عشتار Ishtar وفى مرحلة أكثر تأخراً سوف يقدمون للإله – الشمس أفراسا مقدسة ومركبات ، تبعا للطريقة الأشورية .

فى هذا الجو التلفيقى سوف تولد أسفار التوراة ، وهوما عبر عنه فى الإغريقية بـ «الأجزاء الخمسة» : (التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ،

والتثنية) ، وهى التوراة التى سوف تتحدد طبقا لتعاليمها الأرثوذوكسية اليهودية .

ولقد ظهرت فى عهد داود وسليمان الوثائق الأولى المكتوبة ، وهى الحوليات التى كتبها مؤرخو الملوك ، الذين ترجع إليهم النصوص الكتابية وتعتمد عليهم صراحة ، ويذكر السفر الثانى لصموئيل من بين موظفى داود أحد الكتاب ، [صموئيل الثانى ٨/١٧ و ٢٠/٢٥] (١) ، ويذكر سفر الملوك الأول [٤/٣] كاتبى سليمان (٢) ، وفى هذا السفر [١١/٤١] يحيل إلى (سفر أمور سليمان) ، وهو ما تضمنت أجزاء منه أسفار الملوك والأيام .

لقد ولد بهذا أدب تاريخى حقيقى ، أدب لايقتصر على تقرير الأحداث ووصفها ، بل هو يحرص على تحديد معانيها ، من حيث هى أمارات على حضور الرب ، ووحيه ، وصنعه ، الرب سيد التاريخ الإنسانى «وذهب روح الرب من عند شاول ، وبغته روح ردئ من قبل الرب» [صموئيل الأول ١٦/١٤] ، وكذلك: «وكان داود يتزايد متعظما والرب (يهوه) إله الجنود معه» . [صموئيل الثانى ٥/١٠] .

وزويدا رويدا ، إذا بمجموعة ضخمة من الروايات الشفهية تتحول لتضم تاريخ العالم بأكمله ، بناء على تاريخ معاصر ، كان واضعوه هم شهوده ، وهى تضم تاريخ العالم منذ أصل الإنسان ، كيما تبين أن هذا الاستقرار على أرض فلسطين ، وإقامة المملكة الداودية كانا ثمرة التاريخ كله ، وتحقيقا لوعد إلهى .

إن ناتج هذه المجموعة هو التوراة ، التى يطلق عليها النصارى: Pentateuque ، أى: الأسفار الخمسة .

ولقد كان هذا النص يعتبر خلال قريب من ألفى عام – مما كتبه موسى نفسه ، وكان ممن اقتنع بهذا المؤرخ فلافيوس جوزيف (٣٨ – ١١٠ م) ، والفيلسوف فيلون الاسكندرى (٢٠ ق . م . – ٤٥ م .) والقديس يوحنا

---

(١) يشير هذا المرجع إلى كاتبين هما: سرايا وشيوا . (المترجم) .
(٢) هما اليحورف وأخيا ابنا شيشا . (المترجم) .

الإنجيلى [إنجيل يوحنا ٥/٤٦ - ٤٧] . ولم يتعرض هذا الموقف التقليدى للجدل إلا فى القرن الثانى عشر على يد أبن إسرا Aben Esra، ولم يظهر أول درس نقدى إلا فى القرن السادس عشر ، حين لاحظ كارل ستادت - Carlstadt- ببساطة أن موسى لايمكن أن يكون كتب قصة موته [التثنية ٣٤ / ٥ - ١٢] ، وبعد قرن من ذلك التاريخ (عام ١٦٧٨ م) ينشر القس ريتشارد سيمون Richard simon(التاريخ النقدى للعهد القديم - histoire critique de l ancient - Testament) الذى يحدد مجموعة من الاستبعادات التاريخية ، والمكررات والاضطراب فى القصص ، واختلافات الأسلوب ، واستبعد نسبة مجموع مافى العهد القديم إلى مؤلف واحد ، وقد أحدث هذا الكتاب ، فى وقته ، فضيحة .

وفى القرن الثامن عشر ، عندما فقدت الكنيسة الكاثوليكية كثيرا من سلطتها الأدبية - استطاعت أن تبدأ فى تطوير نقد تاريخى حر ، ففى عام ١٧٥٣ نشر جان أسترك - Jean Astruc، طبيب لويس الخامس عشر (تكهناته حول المذكرات الأصلية التى بدا له أن موسى استخدمها فى تأليف سفر التكوين) ، وهو يؤكد على نقطة رئيسة هى : أن سفر التكوين يضم نصين متميزين ، لأن الرب يدعى أحيانا إلوهيم ، وأحيانا يَهْوَه . وبعد سنوات (١٧٨٠ - ١٧٨٣) مد ايكهورن Eichhorn هذه التفرقة إلى أربعة أسفار أخرى ، وانتهت البحوث اللاحقة فى القرن التاسع عشر إلى نتيجة هى : أن الأسفار الخمسة Pentateuqueهى محصلة مجموعة من الروايات الشفهية ، أكثر قدما ، تكدس بعضها فوق بعض ، وتداخل بعضها فى بعض .

وأكثر المفسرين والمؤرخين [1] يجمعون ، منذ كتابات فلهاوزن Wellhausen (المنشورة من ١٨٧٦ - ١٨٨٣) - على وجود أربعة مصادر ، مع اختلافات يسيرة :

---

(١) انظر الدراسة التحليلية للمشكلة فى البرت دو بيوى Albèrt de pury: « مصادر التوراة : Sources du peutateuque» مدخل موجز فى « الكراسات البروتستانتية ، Les cahiers protestants رقم ٤ (ستمبر ١٩٧٤ ص ٣٧ - ٤٨) .

أولا – المصدر اليهوى: (وهو المصدر الذى لايستعمل فى تعيين الرب سوى كلمة يَهْوَه Yahvé) ، وهو يركز على الوعد الذى أعطى للرؤساء (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) ، والذى سوف ينجز عند تكوين الشعب ، من نسل أبناء يعقوب الاثنى عشر ، (وعد بنسل كثير) وباستقرار هذا الشعب فى كنعان (وعد بالأرض) ، وبإنشاء مملكة داود .

وهناك إشارات واضحة إلى عمل داود كله ، وإلى الوعد ، فى : «لايعدم لك أمامى رجل يجلس على كرسى إسرائيل» [الملوك الأول ٨/ ٢٥] ، «فإنى أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد» [الملوك الأول ٩/ ٥] ، وهى إشارات تدل على أن هذا النص ما كان ليكتب إلا بعد موته، أى: فى عهد سليمان (٩٧٢ – ٩٣٣ ق. م).

إن دراسة الوضع التاريخى ومشكلاته عندما ولد هذا النص تسمح بالعثور على الفكرة الرئيسية التى سيطرت على اختيار الأحداث، وعلى تأليفها. فماذا تكون الرسالة التى يريد المؤلف توجيهها إلى معاصريه؟ لا ريب أنها – من حيث الجوهر – إضفاء الشرعية على مملكة داود، وأسرته، وذلك بوضعهم فى خضم تاريخ أعظم رحابة، أولا، لأن عهد يَهْوَه مع داود يجعل من هذه الشرعية امتداداً للعهد مع الرؤساء، وللعهد مع موسى، على ما يؤكده فون راد[1] ومرسيا إلياد[2]، وفى كلمة واحدة: بداية التاريخ المقدس لإسرائيل، [الملوك الأول ٨/٢٥، ٩/٥].

وثانياً لأن المؤلف يقحم وحدة الأسباط الحالية فى الماضى الذى يمثله الرؤساء، فهو يمنح الأسباط وجوداً قبتاريخيا، فكأنما كان لهؤلاء الأسباط تاريخ مشترك قبل استقرارهم فى كنعان، يمنح وحدتهم القومية أساساً متينا.

---

(١) السابق ١/٣١٩ وما بعدها.

(٢) مرسيا إلياد Mircea Eliade (تاريخ العقائد الدينية – Histoire des croyencex religieux – ط بايوت – باريس ج؟ ص ٣٤٩.

ويلاحظ البرت دوبيورى بخاصة أن هذه الشرعية - التى يقرها تاريخٌ يُشَكِّلُه اللاهوت - لا تستبعد نوعاً من التجاوز النقدى،ففى مقابل الطموح إلى النصر الدائم نجد المؤلف اليَهْوِىَّ Yahviste يبين فى هدوء أن خلاص إسرائيل الذى وعد به الرب لا يتحقق بفضل ما يتمتع به هذا الشعب وقادته من مزايا، «بل بالرغم من الضعف والدناءة اللتين يتصف بهما من اختارهم الرب»[1] ثم قدم على ذلك مثالًا ذا مغزى، يقوم على الجوهر: الوعد، فاليَهْوِى يُدْخِلُ مشهدَ مُقَام إبراهيم فى مصر [التكوين ١٢/١٠ - ٢٠].

وهو بذلك يضع فى دائرة الضوء، لا نقول: الضعف الإنسانى لدى الرئيس فحسب، بل يعلن أيضا احتقاره لموضوعى الوعد، وهما: الأرض (التى هجرها)، والنسل (الذى يحرم نفسه منه حين يتنازل عن امرأته لفرعون).

ومع ذلك، فهو بحكم أنه حريص على «تجنيد التاريخ كله[2] لمصلحة إسرائيل وداود، يذهب أيضا بتاريخ إسرائيل بعيداً، حتى يُصْعِدَه إلى قصة الخلق، لقد خلق الله العالم، وخلق إسرائيل، وأساطير الخلق مقتبسة فى جوهرها من النظريات القديمة فى نشأة الكون، التى كانت فى العراق، وهى نظريات أشورية - بابلية بخاصة: فخلق العالم، والفردوس الأرضى، والطوفان، موجودة كلها، موصوفةً بألفاظ شديدة القرب من الكتاب المقدس، فى الأشعار السومرية، أو فى ملحمة جلجامش، أى: إنها تمتد فى التاريخ إلى ألفى عام قبل الميلاد.

ثانياً: المصدر الإيلوهيمى: (ولا سيما: التكوين من ٢٠ - ٢٢، وأجزاء من الأسفار الأربعة الأولى)، وهو المصدر الذى يطلق على الرب «إيلوهيم»، وهو يدمج فى سرده قانونين تشريعيين أكثر قدما هما: الوصايا العشر، [الخروج ٢٠/٢ - ١٧]، وشريعة العهد [الخروج ٢٠/٢٢-٢٣].

---

(١) المقال المذكور ص ٤١.

(٢) فون راد السابق ١/٣٠٠.

هذا المصدر سابق على النبى هوشع، ويبدو أنه كان يجهل عقوباته، ولعله يرجع فى تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد.

ثالثاً: سفر التثنية: (وهو بالإغريقية: القانون الثانى)، وهو ما تزعم الرواية العبرانية أنه «كُشِفَ» عام ٦٢٢، تحت حكم جوزياس Josias[1]، منذ ترميم المعبد فى أورشليم، [الملوك الثانى ٢٢/٣ - ١٠]، مع أنه فيما يبدو قد ألفته مجموعة من الكتاب والكهنة فى بلاط إزكياس Ezéchias[2] (٧١٦ - ٦٨٧ ق. م)، وهو خلاصة عقدية لكل التعاليم السابقة، والفكرة المركزية فيه هى فكرة «الاختيار»:

فإسرائيل هى الشعب «المختار» [التثنية ٧/٦ - ٧]، وهذا الشعب مرتبط بالرب بميثاق «العهد» [التثنية ٥/٢ - ٣، و٢٦/١٧ - ١٩]، وعهد الرب موَثَّق مرتبط بالوحى، وبالتزام الشريعة، ولقد صار العهد مرادفا للأمر: فألواح العهد هى الألواح التى نقشت عليها «الوصايا العشر» [التثنية ٩/٩، و ١١/١٥].

وهكذا يصبح سفر التثنية احتجاجاً ضد هيمنة أشور، فإن سيد إسرائيل الحق هو يهْوَه، وليس ملك أشور، وهكذا يمكن تأريخ النص: فهو لا يمكن أن يبرز إلا بعد إضعاف أشور، ليُعْلَنَ على أنه شريعة المملكة [الملوك الثانى ٢٢ و ٢٣]، ومن هنا كان مشهد «كشفه» على يد جوزياس Josias.

ولقد كتبت بروح سفر التثنية، وعلى يد مؤلفه أو مجموعة مؤلفيه - أسفار يشوع، والقضاة، وصموئيل، والملوك التى يمكن أن نعتبرها عملًا تثنويا Deuteronomique يعرض «تاريخ إسرائيل» منذ بداياتها حتى عام ٥٨٧ قبل الميلاد.

---

(١) هو ملك يهوذا من (٦٤١ - ٦٠٩ ق. م)، وقد قتل فى معركة مجدو. المترجم.

(٢) ملك يهوذا، ابن أكاس، الذى كان ملك يهوذا فسلم ذهب المعبد فى أورشليم إلى ملك الأشوريين (٧٤٠ - ٧٢٤ ق. م) المترجم.

رابعاً: المصدر الكهنوتى: وقد سمى كذلك لأنه يركز على شرعية العبادة وشكليتها الطقوسية، وموضوعه الأساسى هو موضوع العهد: مع نوح، [التكوين/٩]، ومع إبراهيم [التكوين/١٧]، كيما يقوى العهد مع موسى، ومع داود.

إن قرب هذا المصدر من حزقيال[1] يسمح بوضعه فى زمن السبى البابلى (القرن السادس ق. م).

لقد ذكَّر الأسرى بسابقة جيل الصحراء - أكثر من مرة، وذكر لهم النجاة من مصر، ليس ذلك فحسب، بل كرر ذكر الوعد الذى قطعه الرب لإبراهيم أن يعطيهم أرض كنعان «ملكا أبديا» [التكوين ١٧/٨ - ٢٣].

وجوهر ما ينبغى أن يكون منهم لكى يكونوا مخلصين للعهد، ويستحقوا الوفاء بالوعد، والعودة - هو الالتزام الدقيق بالشريعة: «كل الكلام الذى أوصيكم به احرصوا لتعملوه، لا تزد عليه، ولا تنقص منه» [التثنية ١٢/٣٢و ٤/٢].

ففكرة «الاختيار» هى ابتداع سفر التثنية [٧/٧ - ٩]، وهى تضرب صفحا عن كل ما ارتكبه الإنسان فى علاقاته مع الرب: الحرام الذى يقطع به الإنسان خضوعه للرب، وقابيل، ابن أول زوجين، يقتل أخاه [التكوين٤/١٥] وبنو آدم يدعون أنهم مساوون للرب ببنائهم برج بابل، [التكوين ١١/١ - ٩]، والطوفان يمحو كل هذه الفضائح، والعداد يهبط إلى الصفر، فاستطاعوا منذئذ أن يبدأوا العدد، بعكس هذا التاريخ المقدس، وذلك بأن يتمسكوا منه بلحظتين جوهريتين: لحظة الخروج من مصر، وقبلها الوعد المقطوع للرؤساء.

فأما فيما يتعلق بالخروج من مصر، وهو مثال نموذجى للمعجزات التى

---

(١) أحد الأنبياء الأربعة الكبار العبرانيين (٥٨٦ ق. م). (المترجم).

صنعها الرب من أجل « شعبه » فإننا نشهد – تبعاً لتعبير فون راد – « تصعيداً للخارقة » : لقد صاروا يعزفون بالتدريج على معجزة البحر الأحمر ، فالعبرانيون كانوا ستمائة ألف ، عدا الأولاد [الخروج ١٢/٣٧] ، وإذن فهم على الأقل مليونان ، (وهو ما يطرح ، على الأقل مشكلة إدارية ، لتنظيم إقامة تستغرق أربعين سنة فى الصحراء) !! و « فرعون شد مركبته ، وأخذ قومه معه ، وأخذ ستمائة مركبة منتخبة ، وسائر مركبات مصر ، وجنودا مركبية على جميعها ، وشدد الرب قلب فرعون ، ملك مصر ، حتى سعى وراء بنى إسرائيل » [الخروج ١٤/٦ – ٨] ، والمصريون يتبعون الهاربين إلى شاطىء البحر ، وموسى يرفع عصاه ، والبحر ينشق ، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر ، على اليابسة ، والماء سور لهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ، « وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم ، جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر » [الخروج ١٤/٢٣] ، « فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر ، لم يبق منهم ولا واحد » [الخروج ١٤/٢٨ – ٢٩] ، حتى فرعون ، لأن المزمور ١٠٦/١١ و ١٣٦/١٣ – ١٥ ، يضرع إلى الذى شق البحر إلى شقق ، وعبّر إسرائيل فى وسطه ، ودفع فرعون وقوته فى بحر سوف[1] » .

والعجيب أنه لا يوجد أقل أثر لأحداث بهذا القدر من الأهمية فى النصوص المصرية .

بل ولا أثر أيضا لأحداث الرؤساء فى العراق .

تلكم هى المصادر الأربعة المعروفة حتى الآن ، للرواية الكتابية عن ماضى فلسطين ، وهى لا تقدم لنا إلا معرفة أسطورية عن الشخصيات الواقعية ، ولكنها تأتى من خلال الروايات الشفهية ، وهى تتيح لنا بعرضها على المصادر التاريخية المحضة لما تبقى من آثار الشعوب الأخرى فى الشرق الأوسط ، سواء أكانت (بقايا أثرية أو منقوشة ، من واقع التاريخ ، أو من مادة الأسطورة) ، أن نعيد بناء الإطار العام لتاريخ فلسطين .

---

(١) المقصود البحر الأحمر . (المترجم) .

٤ – تحلل الدولة العبرانية وسقوط إسرائيل ويهوذا

بمجرد موت سليمان (حوالى ٩٢٦ – ٩٢٥) بدأت مملكة داود فى التحلل، فهى لم تدم سوى ثلاثة وسبعين عاماً.

وكان التفسخ قد بدأ منذ زمن سليمان، حيث انفصلت بعض الأقاليم الحدودية، أما الإسرائيليون أنفسهم فقد كان السخط وعدم الولاء يتعاظم بسبب الأعباء المتزايدة، التى فرضها أسلوب الحياة الباذخة لدى سليمان، فأثقل كاهل الشعب، وبسبب الانحلال الأخلاق والدينى الناشىء عن نظام بهذا الوصف.

وبدأ الانهيار بانشقاق حول مشكلة الخلافة، ولم تكن الخلافة الوراثية موضع نزاع فى القسم اليهوذى، ولا بين اليهوذيين (كان الوريث رحبعام، كأبيه سليمان، وجده داود – واحداً منهم)، ثم إن الشعوب الكنعانية تسلم منذ زمن طويل بمبدأ الملكية الأسرية، وقد اقتبس شاول وداود نمط هذا الحكم عنهم.

أما فى الشمال فقد كان الأمر على خلاف ذلك: فقد اجتمع مشايخ أسباط إسرائيل فى المعبد القديم فى شكيم، ليضعوا شروطهم لرحبعام، وليعقدوا معه ميثاقاً قبل أن ينصبوه، محاولين بذلك أن يصونوا تقليد وحدة الأسباط.

[الملوك الأول ١١/٢٩ – ٣٩، و ١٢/١ – ٣٢ و ١٣/١ – ١٨]

فرفض رحبعام مطالبهم إجمالاً، حتى إنه رفض مطلبهم فى أن يخفف الأعباء الثقال التى ينوء بها الشعب.

وجاء مدع آخر، يربعام، الذى كان خرج على سليمان وهرب إلى مصر، لقد عاد منذ مات الملك، وكان قد عين من قبل أخِيّا الشيلونى النبى – خلفا لسليمان.

وقد أراد شيوخ إسرائيل أن يستعيدوا التقليد القديم الذى كان يعتبر أن الملكية الوراثية مناقضة لشرائع إسرائيل، [صموئيل الثانى ٢٠/١]، وعليه فليس لإسرائيل نصيب ولا قسم فى بيت داود [الملوك الأول ١٢/١٦]، ولذلك اختاروا يربعام باعتباره مختاراً من قِبل يَهْوَه بوساطة نبيه، ومعترفا به من لدن شيوخ شعب الأسباط.

وبذا انقسمت الدولة إلى مملكتين : مملكة يهوذا فى الجنوب ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، وهما دولتان صغيرتان بين الدول الأخرى الأشورية – الفلسطينية ، فأما مملكة يهوذا فقد احتفظت حتى نهايتها بملوك من سلالة داود ، وأما مملكة إسرائيل ، التى أرادت العودة إلى العرف القديم ، فقد كانت مرتعا لاضطرابات كثيرة : كالانقلاب ، والقتل ، والأسَرِ ذَاتِ الأعمار القصيرة ، وأعمال الاغتصاب ... الخ ..

ومنذ أن تولى الملك ياهو Jehu (٨٤٥ – ٤٦[1] ق . م) أى : أقل من ثلاثة أرباع القرن بعد موت سليمان – لم يعد محترما ذلك العرف الذى كان سائداً بتعيين الملك من قبل نبى ، وسوف يقول النبى هوشع باسم الرب يهوه : «هم أقاموا ملوكا وليس منى» [هوشع ٨/٤] .

إن تاريخ الدولتين ، حتى اختفائهما المزدوج – هو تاريخ الصراع بينهما ، ومع جيرانهما الذين كانوا ينتهزون فرصة ضعفهما وانقسامها : فصراع ضد الآراميين ، المتحالفين مع الفلسطينيين ، وصراع ضد الفرعون شيسُونْك الأول الذى احتل فلسطين منذ حكم يربعام ، وفرض على ملك يهوذا أن يدفع له جزية . وعندما تزوج آخاب بن عمرى (وربما كان عربيا بدلالة اسمه) إيزابل ابنة الملك الفينيقى ، ملك صيدون ، تمكنت المقاومة الداخلية لاتجاهه من أن تقلب أسرة عمرى [انظر : الملوك الثانى ٦/٨ ، ٧/٢٠ ، ١٣/١٤] ، وكان ذلك عام ٨٥١ ق . م .

لقد كانوا يخشون أن ترجع معابد بعل إلى سابق عهدها من الازدهار ، كما كانت أيام سليمان ، إلى جانب معابد يهوه ، وهو رجس كان الأنبياء ينددون به ، وهم فى غاية القسوة ، ندد به إيليا (الملوك الثانى ١/٦ – ٨] ، واليشع [الملوك الثانى ٢/١٨] .

لقد انتهز ملك مؤاب هذه الفرصة فلم يدفع الجزية إلى إسرائيل . [الملوك الثانى ٣/٤ – ٥] .

---

(١) هكذا فى الأصل ، وهو غير مفهوم ، ولكن هذا الملك ياهو حكم إسرائيل من (٨٤٦ – ٨٢٠ ق . م) (المترجم) .

بيد أن التهديد الأكبر بدأ حينئذ يرتسم، فقد كانت الإمبراطورية الأشورية فى قمة توسعها، حتى بلغت فى سورية شاطىء البحر الأبيض المتوسط، منذ الثلث الأول من القرن التاسع (ق. م)، وفى عام ٨٥٣ ق. م. كان شلمنأسر الثالث Solmanzar يحارب ضد تحالف مكون من الأمراء السوريين - الفلسطينيين، الذين عقدوا فيما بينهم هدنة، حتى يواجهوا هذا الغازى القوى.

وقد انضم أخاب ملك إسرائيل إلى هذا التحالف، الذى منى بالهزيمة، وجاء بعد أخاب خلفه ياهو، الملك، المصلح الدينى (وكان ذا علاقة بطائفة «الركابيين» الذين كانوا يعيشون فى الصحراء حياة المثل الأعلى البدوى، كيما يحققوا نقاء الإيمان بيهوه)، وقد قتل ياهو أخاب وسائر أهله، واستهل حكمه بتخريب معابد البعل، وحاول أن يبعد التهديد الخارجى بأن دفع جزية إلى شلمنأسر (على ما تشهد به«المسلة السوداء» التى شيدها شلمنأسر من البازلت فى كلح التى تسمى الآن: تل نمرود).

هذا التهديد الأشورى - الذى كان يبدو بهذه الصورة مقدورا عليه إلى فترة ما - عاد من جديد مع ارتقاء تجلاث فلازار Téglath phalasar الثالث - على عرش الأشوريين عام ٧٤٥ ق. م، وعاد معه تطلع العراق الدائم إلى استعادة الطرق الموصلة بين الهلال الخصيب والبحر الأبيض المتوسط.

فعندما قرر أحد ملوك إسرائيل ألا يدفع الجزية إلى آشور، وعقد روابط وثيقة مع مصر، على أمل أن تدعمه [الملوك الثانى ١٧/٤] قبض الجيش الأشورى على الملك، وأوثقه فى السجن، «وصعد ملك أشور على كل الأرض»، وأما العاصمة: السامرة، فقد سقطت عام ٧٢٢ ق. م، وبذلك لم يعد لإسرائيل وجود فقد صارت إقليم السامرة الأشورى.

وأما دولة يهوذا قد بقيت تدفع الجزية الإقطاعية للملك الأشورى، وقد تعددت آنئذ محاولات الاعتماد على مصر ضد الأشوريين، وهو ما حذر النبى أشعيا من خطره دون جدوى [أشعيا ٢٠/١ - ٦].

وقد انهارت الإمبراطورية الأشورية، بتخريب عاصمتها نينيفNinive عام ٦١٢ ق. م.

أما بالنسبة إلى فلسطين فقد كانت الهدنة إلى أمد قريب، ذلك أن الفرعون نخاو Nechao (٦٠٩ - ٥٩٣) قد استولى على فلسطين وسورية، فى محاولة (لم يكتب لها النجاح) لإيقاف انتصار البابليين.

ولم تدم السيطرة المصرية، فقد انهزم الفرعون عام ٦٠٥ ق. م. [إرمياء ٤٦ / ٢]، على يد الملك البابلى نبوخذنَصَّر (بختنصر) الذى وضع يده على البلد الذى حاول الفرعون أن يسلبه إياه.

لقد أعلن إرمياء إنذارات حذر فيها الملك من أن يتعاهد مع مصر، وقد كان يعتبر أن الخضوع لبختنصر هو طاعة للإرادة الإلهية التى أوحى إليه بها ملك العالم، [إرمياء ٢٧ و ٢٩]، وبرغم هذا كان إرمياء يعد خائنا، ولم يلبث صدقيا ملك يهوذا أن طلب مساعدة مصر، فحاصر جيش بختنصر أورشليم، واستولى عليها عام ٥٨٧ ق. م، وهدمها، واحترق معبد سليمان، وبذلك اختفت يهوذا بدورها من الوجود.

هذه الهزيمة النهائية «لم تكن حدثا ذا شأن فى التاريخ العالمى، فإن مخطوطات بختنصر لم تذكرها مرة واحدة»(1).

أما بالنسبة إلى الإسرائيليين فإنها تمثل لحظة حاسمة لا فى تاريخهم السياسى وحده، بل فى تاريخهم الدينى أيضا.

فالذى اختفى من أورشليم كان هو مملكة داود التى هى مناط الوعد فى التوراة.

فليذهب القادة والأشراف منفيين إلى بابل، وليبق فى فلسطين سواد الشعب، ولكن المهم أن مجموع عقائد التوراة، منظومة فى سفر التثنية، يجب أن تكون موضع تفكير ينظم توقعها التاريخى الجديد بعد هذا الحريق.

---

(١) نوث: تاريخ إسرائيل القديم ص ٢٩٨.

٥ - كبار الأنبياء العبرانيين

هنالك قام الأنبياء:

لقد بدأت الحركة النبوية مع الانقلابات الكبرى فى تاريخ إسرائيل، منذ أواسط القرن الثامن ق. م.، لم يكن الأنبياء يتنبأون بوقوع الكارثة فحسب، وهم يبينون أن عقاب يهوه سوف يحيق بشعبه العاصى، فلقد رسموا توقعات المستقبل فيما بعد النكبة.

ولقد كشف يهوه حتى الآن عن اقتداره على الوفاء بوعوده وهو ينصر شعبه، ويبدو الآن أنه لم يعد ممكنا التسليم بأن تاريخ العالم كله، منذ خلق، لم يكن سوى امتداد لتاريخ هذا الشعب المختار، وهو يُسْتَقْطَبُ حوله.

وكان الأنبياء يقومون بعملية تحويل هذا الإيمان. إنهم يحافظون على الجوهر، وهو التاريخ بمعنى معين.

ولكن، بدلا من البحث عن هذا المعنى فى الماضى، فى الوعد بأرض، وبسلطة لمصلحة شعب معين، وذلك فى الانتصارات التى تحققت بقدرة الرب - فإن هؤلاء الأنبياء كانوا يفتحون هذا التاريخ على المستقبل، ويخلعون عليه مضمونا كونياً، فالهزائم، كالانتصارات - هى جزء من تدبير الرب.

فى هذا التوقع الجديد كان يمكن اعتبار كل شىء أداة من أدوات إرادة الرب، كل بدوره، سواء فى ذلك ملك أشور [أشعيا ١٠/٥]، وملك البابليين الجدد بختنصر [إرمياء ٢٧/٦]، ثم قورش، ملك الفرس [أشعيا ٤٥/١].

وهكذا بقيت إسرائيل مركز التاريخ، مهما كانت تفاهتها السياسية: فالهزائم كالانتصارات - مظهر لقدر الرب تجاه (شعب).

وما كانت عظمة إمبراطوريات العالم، أو انحطاطها، سوى وسائل لعقاب (شعب)، أو خلاصه، فهو وحده غاية فى ذاته، وملك أشور فى يد الرب

ليس سوى «أداة»[1][أشعيا ١٠/٥]، وملك البابليين الجدد، بختنصر، هو «خادم» للرب «وعبده»، [إرمياء ٢٧/٦]، وأقورش ملك الفرس هو «مسيح» الرب. [أشعيا ٤٥/١].

إن من أهم ما ينبغى أن نقيس رحابة هذا المنعطف، ومغزاه، واضعين دائما نصب أعيننا أن عطاء العبرانيين لتراث الإنسانية الروحى، وأدب أنبيائهم — لا موضع لهما فى عصور الازدهار، بل فى عصور الانحطاط.

هذا عاموس، أول الأنبياء الكتابيين، هو معلن الكارثة العسكرية، والسبى البابلى.

وملاخى Malachie آخر الأنبياء الكنسيين، يندد بفساد الرسالة، منذ العودة من السبى، بسبب زيف التعاليم لدى كبار الكهنة، ثم يأتى الوقت الذى تَخْنُق فيه التيوقراطية الكهنوتية مبدأ النبوة، وهنا صار الأنبياء حلفاء الشقاء.

إن عاموس وهوشع يعلنان، ابتداء من عام ٧٥٠ ق. م. خراب إسرائيل القريب، وخراب السامرة عاصمتها التى سوف تسقط عام ٧٢٢ ق. م.

وعندما يرتفع صوت أشعيا فإن جيوش سنحاريب يكونون على أبواب أورشليم، وتنجو عاصمة يهوذا آنذاك من النكبة، ولكن إرمياء يسمع فى السجن الدوى المختنق لمجانيق ملك الكلدانيين، على أسوار المدينة، التى سوف يخرب معبدها عام ٥٨٧ ق. م.

ولسوف يكون حزقيال وأشعيا الثانى نَبيَّ فترة السبى، وسط إخوانهم المبعدين، ومما قاله أندريه نهر فى كتابه «جوهر النبوة — L' essence du prophétisme : «لقد شهد إرمياء وحزقيال اختفاء خمسة ملوك»[2] كل منهم مات ميتة عنيفة فى جو أشبه بالقيامة.

---

(١) النص هو: «ويل لأشور قضيب غضبى، والعصا فى يدهم هى سخطى» — المترجم.

(٢) ص ٢٠٩ من الكتاب المذكور.

فى هذين القرنين المأساويين حدث تحول حقيقى فى إيمان العبرانيين ، وهو الانتقال المؤقت من الدين القبلى إلى الدين النبوى ، ذلك أن دين التوراة دين قبلى ، وليس دينا موحداً إذ إن يهوه هو أقوى الآلهة ، ويدل على تفوقه عليهم كرمه ، الذى يتمثل فيما يقوم به إيليا واليشع ، ويقتضى انتقامه إبادة أربعمائة وخمسين كاهنا للإله بعل . [الملوك الأول من ١ – ٤٠ ، والملوك الثانى من ١ – ٨] .

هذا الرب القبلى رب قاس ، يشترط لعهده مع الأسباط أن يطردوا أو يبيدوا سكان كنعان الآخرين [الخروج ١٧ / ٨ – ١٦ ، والعدد ٣٣ / ٥١ – ٥٦ ، والتثنية ٧ / ١ – ٤] ، لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك (يهوه) إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض [التثنية ٧ / ٦] .

إن الوعود التى أعطيت لهذا الشعب شبيهة بالوعود التى أعطيت لجميع شعوب الشرق الأوسط ، فى هذه المرحلة من التطور الاجتماعى : أرض ، ونسل ، وانتصارات عسكرية ، كما حدث مثلا بالنسبة إلى أقرب البلاد ، فالإلهة أرينّا Arinna هى التى تُثَبِّتُ – عند الحثيين – حدود البلاد ، وكذلك الأمر عند الكنعانيين ، فإن حضور « بعل » فى مكان معين كان يعظم حقوق الملاك على الأرض [1] .

ولذلك كانت عدوى الدين لدى الكنعانيين والعبرانيين غاية فى السهولة ، حتى ليذكر أندريه نهر أن : « تَعقُّد الشعائر الدينية فى الحياة الزراعية الإسرائيلية ليس فى نظر أغلب المؤرخين سوى نسخة من التنظيم الثقافى الكنعانى ، أخذ به العبرانيون أنفسهم بالتدريج بعد استقرارهم فى كنعان [2] » .

كذلك يمكن أن نلاحظ فى الكتاب المقدس تياراً كنعانيا ، يتجاوز وجود العبرانيين الذين من أجلهم صارت الأرض مملوكة بوساطة الرب – البعل – السيد ، وتياراً مختلفا يدعم وجود العبرانيين الذين من أجلهم صارت الأرض مزدحمة بوساطة الرب – البعل الزوج [3] .

---

(١) أندريه نهر : « جوهر النبوة L' esseuce du profhétisme » ص ١٧٧ .

(٢) السابق ص ١١٩ (٣) السابق ص ١٤٢ .

لقد كان من نتيجة تحضير البدو العبرانيين أن عبادتهم كانت تطعم من حين لآخر بالعبادة «البعلية» التى كان عليها الكنعانيون الحضريون، وقد ارتبط هذا التمثل الدينى ارتباطا وثيقا بتمثل سياسى: وذلك حين يطلب العبرانيون من جدعون وراثة الملك، كما هى الحال لدى الشعوب الأخرى [القضاة ٨ / ٢٢]، فيرفض جدعون أن يتسلط عليهم هو أو ابنه مقابل أنه خلصهم من الآلهة البعلية.

ومع الأنبياء يبدأ عصر جديد من إيمان العبرانيين: أساسه تجاوز المرحلة القبلية فى الدين، والارتقاء إلى الإيمان النبوى، فبعد انهيار مملكة داود لم يعد رب إسرائيل يستطيع أن يظهر باعتباره ربا لسبط معين، أو ربا لرابطة أسباط يمنحهم النصر، كما فى ترنيمة دبورة [القضاة ٥ / ١ – ٣١]؛فإلى جانب هؤلاء قبائل أخرى، أو تجمعات قبائل، تنتمى هى أيضا إلى ربها، دون أى تبرير لما تدعيه، ومع ذلك نجد أن تقاليدها الشفهية، ونصوصها المقدسة تماثل ما لدى العبرانيين الذين لا تقوم ادعاءاتهم إلا على نصوصهم الخاصة، دون أى أساس خارجى.

لسوف يتصور الأنبياء هذا الإله على أنه رب العالم، حاكم التاريخ الإنسانى كله، وحينئذ سوف تتولد فى منتصف القرن الثامن وحدانية عبرانية حقة، على مدى النضج المتطاول لهذه الوحدانية، فى منطقة الهلال الخصيب.

ويعتمد هؤلاء الأنبياء على التاريخ التقليدى المذكور فى مجموعة الروايات الشفهية للتوراة، بيد أن هذا التاريخ ذاته يكتسب معنى جديداً: إنه لم يعد مجرد تذكار، بل صار مشاركة للإنسان فى عملية الخلق الإلهى، أى: فى مشروع الرب.

وهكذا تنمو رؤية جديدة للزمن، الزمن الإنسانى، الموجه، حامل المعنى.

ويبدأ الزمن مع العهد، مع الحوار بين الإنسان وربه، والنبى، وهو حامل كلمة الرب، هو أحد أشكال نزول الأبدى فى الزمن، والمطلق فى النسبى.

ولسوف ينتهى الزمن مع مجىء يوم الرب [ملاخى ٤/٥]، فمع «يوم يهوه» نهاية الخلق.

وفى نطاق هذا الزمن الكتابى يسهم كل شىء فى هذه الحركة الخالقة، فالطوفان عقوبة على معاصى بنى آدم، ولكن واحدا «يبقى» مع نوح، سوف تكتب له النجاة، وقد أبرم العهد مع نوح لحفظ الإنسانية الجديدة، والكائنات الحية الموجودة فى الفلك، «فلا ينقرض كل ذى جسد أيضا بمياه الطوفان» [التكوين ٩/١١ – ١٣].

ثم كان العهد مع إبراهيم والرؤساء [التكوين ١٥/١٨]، ثم مع بنى إسرائيل فى سيناء [الخروج ١٩/٥]، لم يكن هذا العهد خاليا من الشروط: فهو يستتبع إلزامات متبادلة.

ولهذا نلاحظ – أولًا – أن تعاليم الأنبياء تختلف اختلافا جذريا عن تعاليم التوراة، إذ إن الأنبياء يركزون على مسئولية العهد، فمنذ لام النبى ناثان داود على أنه أخذ امرأة أوريًّا، وأنه قتل أوريًّا الحثِّى بالسيف، [صموئيل الثانى ١٢/٩ – ١٠] – لم يكف الأنبياء عن إعلان عقوبة إسرائيل لكفرها بواجبات العهد [عاموس ٢/٦، وأشعيا ١/٤ – ٥].

إن هذا العهد ليس مقصوراً على شعب، فقد قال يَهْوَه لإبراهيم فى سفر التكوين: «وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» [التكوين ١٢/٣]، ثم أُرسِل الأنبياء أيضا إلى جميع الأمم: فيونس (يونان) أرسل نذيرا إلى نينوى [يونان ١/٢]، وإرميا جعل «نبيا للشعوب»، [إرمياء ١/٥]، والعبد الذى ذكره أشعيا هو «نور للأمم» [أشعياء ٤٩/٦]، والشعوب جميعها مسئولة، تماماً كإسرائيل – أمام الله»(١).

---

(١) أندريه نهر «جوهر النبوة» L' essence du prophetisme ص ٢٥١ .

لقد خص الاختيار الإلهى كل إنسان بمهمة فى أداء الخطة الإلهية، فليس هذا الاختيار إرثا، يتباهى به بعض الناس ويزدهون، ولكنه مسئولية، ولذلك نجد الأنبياء لم يتجهوا إلى الماضى، بل كان توجههم نحو المستقبل: إنهم يعلنون عن عمل جديد يصنعه يَهْوَه فى التاريخ، فليس الخلاص شيئا مقررا لكل الناس بصورة نهائية، بل هو قائم على عمل الرب فى المستقبل.

أما بالنسبة إلى الإنسان فإن أعماله المستقبلة سوف تكون مقدورة، ولا أحد يمكن أن يحيا أو يموت بميراث الآباء، «بل كل واحد يموت بذنبه» [كما يقول إرمياء ٣١ /٣٠]، وهو يذكر «عهداً جديداً» منقوشا، لا على الحجر، بل فى القلوب [٣١ /٣٣]، وهو ليس العهد القديم الذى أراد الملك جوزياس أن يبتعثه من الماضى، فسوف يقول أشعيا بكل قوة: «لا تذكروا الأوليات، والقديمات لا تتأملوا بها، هاأنذا صانع أمرا جديدا» [أشعيا ٤٣ /١٨-١٩].

وأما بالنسبة إلى الأنبياء، فإن الزمن الإنسانى بمعنى الكلمة يولد مع العهد، ومع الشريعة التى هى نتيجته الطبيعية، فى مقابل ميثاق الرب مع الإنسان، وهذه هى أعظم إضافة من العبرانيين إلى رصيد الروحية الإنسانية.

ولقد ولد مع العهد والشريعة المعيار المطلق الذى يحكم الأعمال الإنسانية: ذلك أن الشريعة ترسم «الطراط المستقيم» الذى يعنى، بالنسبة إلى الإنسان، أن يشارك فى تحقيق مشروع إلهى على الأرض.

وهكذا يصبح كل تاريخ «تاريخا مقدساً» «فزمان» العهد، وزمان الوعد هو زمان الخلق، أعنى: حين انبثق فى التاريخ كل ما هو جديد، وهو «أمارة» على حضور الرب، الرب الحى، الذى هو السر المكنون، والعامل المحرك فى تاريخ الإنسان.

وها هو ذا دعاء موسى: «ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم» [العدد ١١ /٢٩]، دعاء يعبر عن هذه الرغبة فى اشتراك الإنسان، كل إنسان، فى حياة الرب، لأن هذا الاشتراك يجعل منه إنساناً.

ففى مواجهة الإنسان الذى يتصور أن «الخير» أو «الخير الأعظم» – كما يقول الإغريق – لا يكون إلا فى اتحاد السعادة والفضيلة، أعنى التحقيق الكامل للشهوات باحترام النظام الاجتماعى وعدالته – فى مواجهة هذا الإنسان يقف إنسان آخر يواجه دائما المطلق، ذلك أن الإنسان المندفع إلى التسامى والمنفتح عليه، والذى تنسب كل أعماله إليه، هذا الإنسان يبرز من خلال إنسان الكفاية، الذى يستهدف وحسب تحقيق التوازن بين مصالحه الفردية وبين قوانين المدينة، التى تقنع بإحداث التوافق بين أهداف كل فرد، وأهداف المجموع.

هذا الزمن الإنسانى الخالص، هو – على نقيض المفهوم الدورى للزمن، وهو مفهوم الإغريق – زمن يمضى إيقاعه على حسب دورات الطبيعة: تعاقب الليل والنهار، والعود الأبدى للفصول، ودوران النجوم، ومن بينها القمر والشمس.

إنه ليس زمن المتصوفة، الذى هو إلغاء للزمن: بحيث لا يكوِّن الخالد والآنىّ فيه سوى شىء واحد، وبحيث لا يعتبر تتابع الأحداث الجيولوجية، والبيولوجية والتاريخية فى إطاره سوى انتشار وهمى لنوع من الخلود الفج الذى يتصف به واقع الكائن، كما يتصف به مصيره الظاهر، وفى الهندوسية يرون أن الحكمة هى الطريق الذى يسمح بالتغلب على الوهم، وبإلغاء الزمن، وفى المسيحية نجد أن إيمان المتصوفة هو طريق العثور على تجربة الخلود فى اللحظة، وهذا هو الزمن الحقيقى الوحيد وراء كل الأزمان، ووراء الموت.

إن الإقحام النبوى لمفهوم التسامى فى التاريخ ذو تأثير مدمر، لأنه يحطم استمرار الزمن والنظام، واستقرار الأخلاق والعقول، كما يبدو ذلك بصورة نموذجية فى تضحية إبراهيم، وهو نموذج إقحام الكمال فى التاريخ.

فكل نبى، متحدث عن الرب، يحدث شرخا فى التاريخ، لأن ظهورهم ذاته معاصر لفترة من التشقق فى تاريخ العبرانيين: فعاموس، وهوشع، ويونان (يونس)، فى القرن الثامن قبل الميلاد، وميخا، وأشعيا، ويوئيل وعوبديا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا – فى القرن السابع.

كل هؤلاء معاصرون للسنين الأخيرة للسامرة، ولبقايا مملكة يهوذا، وفى القرن السادس عاش إرميا، وحزقيال، ودانيال الكارثة الكبرى، وهى سقوط أورشليم، والنفى إلى مصر وإلى بابل، وحوالى نهاية هذا القرن، وحتى منتصف القرن الخامس كان حجى وزكريا يشهدان إعادة بناء أورشليم، وإعادة تدشين المعبد، وكان ملاخى آخر نبى كهنوتى، إذ تتوافق رسالته مع إعادة بناء الدولة اليهودية على يد عزرا ونحميا، عندما كان الكهنوت يهدم النبوة، وحين كان التوجيه القبلى يتغلب على التوجيه الشمولى.

فعاموس، راعى تكواه، وأول الأنبياء الكتابيين فى القرن الثامن – قد تحطم لديه الادعاء القديم بالغلبة، وتمجيد الانتصارات والممالك التى أعطاها الرب: إنه يعارض «العدالة» السياسية التى يطرحها الملوك، والصفوة، والبيروقراطيون بالحق الإلهى للمعوزين، وهو فى مواجهة الثروة والفساد فى عهد عزِّيًّا Ozias ملك يهوذا، ويربعام ملك إسرائيل – يعلن باسم الرب الحى أن السامرة، عاصمة مملكة الشمال سوف تخرب بفسادها: «قال السيد الرب: ضيق حتى فى كل ناحية من الأرض، فَيُنْزِلُ عنك عزَّك، وتُنْهبُ قصورك». [عاموس ٣/١١]، والحج والذبح فى معابد بيت إيل والجلجال لم تعد سوى شعائر كاذبة، وعبادات ظاهرية، يقول: «بغضت، كرهت أعيادكم،.... إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها، أبعِدْ عنى ضجة أغانيك» [عاموس ٥/٢١ – ٢٣]، وبالخضوع لإرادة الرب وحده تعود إليهم الحياة بعد هذه العقوبات [عاموس ٩/١١ – ١٥]، وبعد هذا العقاب الفظيع هنالك أمل الخلاص «إذا لم يمت الحب...»، والموت لا يمكن أن يتجاوز إلا ببعث الحياة، «الموت، حيث تكون رسالتك» [أشعيا ٦/١٢].

وبعد قرن من هذه الأحداث صاغ ميخا نفس الحكم القاسى: «اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب، وقضاة بيت إسرائيل، الذين يكرهون الحق، ويعوِّجون كل مستقيم، الذين يبنون صهيون بالدماء، وأورشليم بالظلم... وهم يتوكلون على يَهْوه، قائلين: أليس يَهْوَهْ فى وسطنا لا يأتى علينا شر.. لذلك.. تصير أورشليم خربا، وجبل البيت شوامخ وعر» [ميخا ٣/٩ – ١٢].

فأشعيا فى القرن السابع، وإرميا فى القرن السادس يعلنان عهدا جديداً [أشعيا ٥٥/٣، و ٥٩/٢١، و٦١/٨، وإرميا ٣١/ ٣١ - ٣٤]، وذلك بعد أن فضحا فساد القادة، [أشعيا ٥٦/١٠ - ١٢]، وهم قادة إسرائيل الذين كفروا بالعهد الأول.

هذا العهد الجديد يتسم بأنه مهتم بالسرائر، وبأنه منفتح على الشمولية، فهو مهتم بالسريرة، لأنه مكتوب فى القلوب [إرميا ٣١/٣٤]، ولن يتحقق العهد بمجرد التزام الطقوس ظاهريا، ولا بنصرٍ منحهم إياه الرب من قبل.

أما لدى أشعيا فتظهر للمرة الأولى فى سيرة العبرانيين، العلاقة بين مهمة المخلّص، ومهمة «المتألم الحق»، التى سوف تعود إلى الظهور فى سفر أيوب، فى القرن السادس، كما سبق أن تبدت وعبرت عن نفسها فى اللاهوت البابلى «La Théodicée bapylonienne» فى الألف الثانية قبل الميلاد فلدى أشعيا [٥٣/٣ - ٥] «رجل أوجاع... أوجاعنا تحمّلَها.. وهو مجروح لأجل معاصينا»

ويتصف هذا العهد أيضا بانفتاحه على الشمولية، والحق أن العبرانيين ظلوا نقلة الرسالة، وأنهم كانوا كذلك على شيء غير قليل من التعالى والعجرفة تجاه الشعوب الأخرى، إلا أننا نتجاوز مع الأنبياء الكبار ما كان يبدو من تشبثهم بالرأى، وفخرهم بالقبيلة: «قد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض» [أشعيا ٤٩/٦].

فحين ازدهر الفكر النبوى بظهور عيسى، وهو الذى انعقدت فيه على نحو لا ينفصم، الروابط بين المسيح والمتألم الحق، الذى ذكره أشعيا - حينئذ تحددت نهائيا ذرية إبراهيم، بشكل شمولى، لا باستمرارية الدم، بل بجماعية الإيمان: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم» وهى قولة عيسى [إنجيل يوحنا ٨/٣٩]، ويقول القديس بولس: إن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة» [رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣/٢٩].

فالأنبياء لا يسجلون فقط الانتقال من الأنانية القبلية إلى الشمولية، بل إنهم يحدثون تغييراً حقيقياً للقيم، وإذا كانت موضوعات الإيمان التقليدى مستمرة، فإنها سوف تتعرض لتحويل روحى.

لقد غيرت رَوْحَنَةُ الإيمان البدائى وجه الرؤية القديمة لم يعد الوعد وعدا بملكية أرض، أو انتصار عسكرى، على ما سجلته المزامير فى تسبيحاتها: «احمدوا الرب ... الذى ضرب ملوكا عظماء... وقتل ملوكا أعزاء... وأعطى أرضهم ميراثاً» [المزامير ١٣٦].

بل الوعد إعلان ليوم الرب الذى يشمل الكون جميعاً، بالسلام والاستقرار لشعوبه: «ارفعوا الراية للشعب، هوذا الرب قد أخبر إلى أقصى الأرض» [أشعيا ٦٢ / ١٠ - ١١]، «لأنى هاأنذا خالقٌ سمواتٍ جديدة وأرضاً جديدة، فلا تُذْكر الأولى ولا تخطر على بال» [٦٥ / ١٧]، «وحينئذ تجرى إليه كل الأمم» [أشعيا ٢ / ٢]، «فيقضى بين الأمم، وينصف لشعوب كثيرين، فيطبعون سيوفهم سككا، ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد»، [أشعيا ٢ / ٤].

لقد كان المسيح **LE Messie** فى بادىء الأمر لقبا لمن يعينه أحد الأنبياء ملكا على إسرائيل، وقد حمل هذا الاسم أولا شاول [صموئيل الأول ١٠ / ١]، ثم حمله داود [صموئيل الأول ١٦ / ١٣، وصموئيل الثانى ٧ / ١٢].

حتى إذا جاء أشعيا [١١ / ١ - ٥]، وإرميا [٢٣ / ٥ - ٦]، أصبح لقبا لواحد من نسل داود، ولكنه مخصوص بالحكمة.

وفى سفر دانيال صار من يبنى المملكة «ابن إنسان» [٧ / ١٣].

وكان الروح **L'esprit** فى بادىء الأمر هو الريح [التكوين ١ / ٢]، ثم نسمة تمنح الحياة [التكوين ٢ / ٧]، ثم مبدأ الوحدة بين الرب والإنسان، فى عهد إرمياء الجديد، [٣١ / ٣١].

فلم يعد إنجاز الوعد استقرارا على أرض خصبة، وبَدْوًا فى طريقهم إلى التحضر، أو إنشاء لدولة، على ما كانت مملكة داود، ولكن إنجاز الوعد هو مجىء يوم الرب.

ـ من النبوة إلى اليهودية

هكذا كان تألق الإيمان النبوى، إلى أن حانت العودة من السبى (عام ٥٣٧ ق. م)، حين ظهر رجلان متعاونان مع ملك الفرس، القوة المحتلة، وهما عزرا ونحميا، فشرعا فى تقييم موقف الأغلبية الكبيرة من العبرانيين، وهى أغلبية شعبية فى جوهرها، بقيت فى كنعان خلال فترة سبى الأشراف، وقد كانت متواثقة الأخوة مع المواطنين الكنعانيين، تربط فيما بينهم طريقة العيش والتزاوج، بعضهم من بعض.

هنالك حدثت انتكاسة فى الروح القبلية، وبدأت الحرفية والجمود والتزمت تشيِّد تيوقراطية شمولية، كهنوتية.

لقد خُطِّط لهذه الحركة قبل قرن فى عهد يوشيا **Josias** ولكن الأنبياء أحبطوها، ففى عام ٦٣٩ ق. م قُتِلَ مَنَسَّى، ملك يهوذا، فانتهز ابنه يوشيا، عندما بلغ مبلغ الرجال، فرصة كسوف شمس مصر، وانهيار أشور، وحاول أن يسترد استقلاله، بل وأن يعيد بناء مملكة داود، بأن يسيطر على مملكة الشمال، وقد حدث له ما حدث لداود تماما، إذ لم يستطع داود أن ينجح فى مشروعه إلا بفضل القضاء المؤقت على القوتين الكبريين، فى النيل، والعراق، وقد حاول يوشيا أن يستثمر ظرفا مماثلا، لتحقيق نفس الهدف. لم ينشىء داود دولة يهودية، وإنما كانت دولته مؤلفة من عناصر متفرقة، لم تكن تجد وحدتها إلا فى قبضة قائد العصابة القديم، الذى يحكم أورشليم بما لديه من مرتزقة، عند ملتقى يهوذا فى الجنوب، وإسرائيل فى الشمال، والذى ظل يتعاظم بوساطة حملاته الحربية المظفرة ضد جيرانه.

ولقد اعتقد يوشيا أن التاريخ يمكن أن يعيد نفسه.

فكان عليه أولًا أن يؤكد شرعية استرداده لتوحيد المملكتين، وفى الموعد المضروب، فى السنة الثامنة عشرةمن حكمه، أى:حوالى عام ٦٢١ ق. م، وأثناء أعمال إصلاح معبد أورشليم - تم الكشف عن سفر الشريعة، الذى قدمه إلى الملك الكاهن العظيم[1] [الملوك الثانى ٢٢/٣، و١٣/٣]، هذا السفر، وهو الرواية الأولى، بلا شك، لسفر التثنية - كان عبارة عن مجموعة من التكاليف الشرعية التقليدية الدائرة حول «شريعة موسى»، وقد انتهز يوشيا فرصة أن الأشوريين لم تعد لديهم القدرة على فرض عبادتهم الخاصة، فطلب الالتزام الدقيق بهذه الشريعة، ثم جمع قدماء يهوذا فى المعبد، وأمرهم طبقا لتقاليد سيناء القديمة أن يبرموا فيما بينهم ميثاقاً فيدرالياً بين يَهْوَه وشعبه، وكانت هذه خطوة هامة على طريق إعادة توحيد المملكتين حول شريعة مشتركة من الحق الإلهى، بقدر الإمكان.

بيد أن الوضع الدولى أسقط مشروع يوشيا، عندما حاول أحد الغاصبين فى حران أن يستولى على ما تبقّى من سلطة فى أشور، وجاءالفرعون نخاو فرأى أن من مصلحة مصر أن تبقى على أشور مستضعفة بتفوق البابليين، وبانقساماتها الداخلية، وبذلك تكون عاجزة عن منازعته فى السيطرة على سورية وفلسطين، فقرر أن يدعم منافس يوشيا، وأما يوشيا فقد أيقن أنه خاسر فى كل حال، وأن نخاو سيرد فلسطين إلى أشور، أو يحتفظ بها لنفسه، فعزم على أن يهاجم الفرعون عند عبور جيشه فى فلسطين عام ٦٠٩ ق. م، ووقع اللقاء فى مجدّو [الملوك الثانى ٢٣/٩]، وهُزِمَ يوشيا، وقُتِلَ فى المعركة وبذلك انهار مشروعه السياسى، وصارت فلسطين بأكملها إقليما من أقاليم مصر.

---

(١) هو الكاهن حلقيا. (المترجم).

بيد أن هذه التبعية كانت إلى أمد قريب، لأن الملك البابلى الجديد بختنصر، بدءاً من عام ٦٠٥ ق.م، سحق نخاو، وأخذ منه فلسطين، وقد حاول يهوياقيم[١] أن يتخلص من سيطرة بابل، كما حاول خلفاؤه ذلك، معتقدين أن مصر ستساعدهم، على الرغم من تحذيرات إرميا، الذى سجنوه باعتباره خائناً، وقد استولى البابليون على المدينة عام ٥٨٧ ق. م، [الملوك الثانى ٢٥] ونهبت أورشليم، وهدمت أسوارها، وأُحْرِقَ القصر الملكى، وانهار المعبد فى ألسنة اللهب، وأسر الملك صدقيا[٢] أثناء هربه، ثم جىء به إلى بابل مع أشراف المدينة، ومات بها.

وهكذا اختفت أسرة داود، حاملة الوعد، والأمانى، ومعها اختفى الأمل فى أية سيادة دنيوية.

واستمرت حياة الشعب العبرانى فى فلسطين، دون ملوكه ودون أرستقراطيته الكهنوتية والتجارية، واستمرت كما كانت تسير حياة مجموع الشعب فى كنعان.

وقد كانت تحدث هجرات أخرى، قريبة جدا من أصول العبرانيين، وفى هذا يقدم لنا سفر التكوين فى إصحاحاته (التاسع عشر، والخامس والعشرين، والسادس والثلاثين) - علاقات القرابة فيما بينهم، من خلال أسماء أبطالهم، سواء أكانوا عربا، من أبناء إبراهيم من إسماعيل، أم كانوا مؤابيين أم عمونيين جزئيا، وهم أبناء أخى إبراهيم، أم أدوميين نسل عيسو، الابن الأصغر لإبراهيم، وجميع الشعوب الأخرى الكنعانية، من ورثة عهد الرب لنوح، ووعوده المعطاة لإبراهيم.

---

(١) ملك أورشليم الذى أقامه نخاو مكان أبيه يوشيا، بعد أن عزل أخاه يهوآحاز، وأسره فى مصر، ومات بها [الملوك الثانى ٢٣/٣١ - ٣٥]. (المترجم).

(٢) ملك أورشليم بعد يهوياكين، الذى خلف يهوياقيم، وقد تمرد على بختنصر فطارده وأدركه الجنود فى برية أريحا. [الملوك الثانى ٢٥/٥] (المترجم).

ويلخص أندريه نهر معنى هذا المجتمع تلخيصاً رائعاً بقوله: «إن النوحية noahisme (أى: عهد الرب لنوح) - هى التى تبين أن الأنبياء فسروا بعض أحداث التاريخ بلغة مشتركة بين إسرائيل وسائر الشعوب، فلم تكن هناك هجرة واحدة (هى خروج بنى إسرائيل من مصر)، بل سلسلة من الهجرات، حركها نفس الرب، فهو - لكى يتم نفس الوعد الذى أعطاه لنفس الأب، إبراهيم - جذب الآراميين من أور، والمؤابيين والعمونيين من وادى عربة، والأدوميين، والأمالسيين، والمديانيين من الصحراء، والفلسطينيين من كريت - لكى يرمى بهم جميعاً على شواطىء كنعان، من الأرض الموعودة للجد، مؤَمِّناً لكلٍّ أرضَه، ضامنا لكلٍّ حدودَه، وهو حَكَمٌ فى المنازعات، وشاهدٌ على كل ما يفعله الناس، وقاضٍ فى مشكلاتهم، ولعلنا نتساءل عما إذا كانت المنطقة السورية - الفلسطينية تحت أعين الأنبياء، بحسبانها جزءا من الأرض، يمكن أن تكون مرجعاً، ونموذجا للعالم كله، ذلك أن المشكلات الأخلاقية والدينية التى واجهتها الإنسانية كان ينبغى أن تستَشعَر وتُعالَج على مستوى الإنسانية بأكملها، فإذا هى تُستشعَر وتُعالج من بُعدِ هذا المجال الصغير، الذى تكفى نظرة واحدة، مجرد نظرة، لاستيعابه، وإن كانت ظروفه السياسية، وموقعه المتوسط بين الإمبراطوريتين الكبريين: مصر وبابل - قد خولته تنوعا متميزا فى البنية، وفى الأحداث.

وأياما كان الأمر، فنحن إذا طبقنا على هذه الشعوب لغة التاريخ، أو بالْحَرى: لغة المصير التاريخى المشترك، مصير الهجرة - وقد طبق الأنبياء عليها أيضا لغة العهد، بتبعاتها الأخلاقية - فإن الشعوب مسئولة أمام الرب، تماما كشعب إسرائيل، فهم أيضا «أبناء» الأب، عبيد الرب.[1].

---

(١) أندريه نهر: «جوهر النبوة» - السابق ص ٢٥١ - ٢٥٢.

والشعب العبرانى الذى انتقل من البداوة إلى الحياة الحضرية، التى يحياها المزارعون والمدنيون الكنعانيون – قد تمثل حضارتهم، ولسانهم، وكتابتهم، وحتى أشكال عبادتهم، واختلط بأهل البلاد الأصليين عن طريق الزواج، وعايشهم معايشة أخوية، بصرف النظر عن معارك المرتزقة التى أدارها يشوع وداود، وغزواتهم المؤقتة.

هكذا كان، واستمرت حياة هذه الشعوب، كما استمرت حياة كل الشعوب، تحت السلطات المتناوبة، للعراق ومصر.

بيد أنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى القادة، أعنى بالنسبة إلى العبرانيين، المنفيين إلى بابل، فإن تعصبهم الطبقى الذى يشعرهم بأنهم متميزون وحاكمون فى فلسطين – تحرك فى المنفى، ليصبح تعصباً عنصريا ودينيا، لم يكن المنفيون مسجونين، فقد كانت لهم قراهم، وبيوتهم وبساتينهم، وقد كانوا يستطيعون التنقل بحرية، كما كانوا يستطيعون الزواج [حزقيال ٣/١٥، وأرميا ٢٩/٥]، والقيد الوحيد الذى ضرب على هذه الحرية كان استحالة أن يعلنوا عبادتهم تبعا لتقاليدهم، أعنى: فى أورشليم.

ومن هنا كان تركيز المنفيين على حب أورشليم، وعلى جميع الشعائر الدينية التى يمكن أن تميزهم، وأن تفردهم عن محيطهم الجديد: فالالتزام الدقيق بالسُّبوتِ يأخذ قيمة ممارسة الإيمان [حزقيال ٢٠/١٢ و ٢٢/٨ – ٢٦ و ٢٣/٣٨]، وللختان أهمية شاملة، ففى فلسطين كان الفلسطينيون هم وحدهم «غير مُختَتنين»، وما كان للختان أن يكون إذن «علامة» مميزة، مادامت كل شعوب كنعان تمارسه، وكذلك المصريون، أما فى العراق فقد كانوا يجهلون تماما هذا العرف، ومن ثم صار «علامة» من علامات العهد [التكوين ١٧/١١]، وتربط شريعة الكهنوت الالتزام بالسُّبوتِ بخلق الكون [التكوين ٢/٣]، وتعتبر الختان «علامة» عهد الرب مع إبراهيم، أساس تاريخ بنى إسرائيل [التكوين ١٧/١١].

لقد كانت سيطرة الإمبراطورية البابلية الجديدة قصيرة الأجل ، ذلك أن ملك فارس الجديد قورش ، لم يكن أمامه – بعد أن سحق ملك لودى ، كريزوس ، وبعد أن استولى على مملكته (عام ٥٤٦ ق . م) – إلا أن يضرب الإمبراطورية البابلية الجديدة الضعيفة ، التى كانت تحكم العراق ، وسورية ، وفلسطين ، ففى (عام ٥٣٩ ق . م) هاجم ملكها الأخير نبونيد ، ودخل بابل ، وقد أخضع ابنه قمبيز (عام ٥٢٥ ق . م) مصر ، بحيث أصبح الهلال الخصيب كله ، من مصر إلى آسيا الصغرى ، وإلى الفرات مجتمعا واحدا ، هو أرحب مجتمع عرفه الشرق القديم .

كانت الآرامية هى اللغة الرسمية ، وعامل التوحيد الإدارى لهذا المجموع ، غير أن ملك فارس أمر مرازبته [1] باحترام العبادات المحلية ، كيما يحتفظ بسلطته على أتباعه ذوى الانتماءات المختلفة ، وقد أصدر أمرا إلى الحكام الفرس فى مصر أن يحترموا عبادة الإلهة ست Seth التى كانت تمارس فى سايس Sais بالدلتا ، كما وُجِّه إلى مرزبان سورية وفلسطين منشور من قورش (عام ٥٣٧ ق . م) ، يسمح للإسرائيليين بإعادة بناء المعبد ، [عزرا ٥ / ٦ و ٦ / ١٢] ، وإلى المنفيين أن يعودوا إلى بلدهم . لذلك نجد أن عرقية الأشراف العبرانيين لم تر فى هذا الإجراء السياسى تجديدا للعبادات القديمة ، من مصر إلى العراق ، والتى كانت جد مطابقة للتقليد الشائع فى الهلال الخصيب كله ، اللهم إلا ما كان يخص هؤلاء الأشراف ، حيث كانوا يعتبرون قورش منفذا لإرادة ربهم .

ويبدو أن السكان الباقين فى فلسطين لم يقدروا أولوية إعادة بناء المعبد ، فقد قال الشعب : « إن الوقت لم يبلغ وقت بناء بيت يهوه » [حجى ١ / ٢] ، « فكانت كلمة الرب عن يد حجى النبى قائلا : هل الوقت لكم أنتم أن تسكنوا فى بيوتكم المغشاة ، وهذا البيت خراب » [١ / ٤ ، و ٢ / ٩] ، ولقد وعدهم حجى أن تكون إعادة بناء المعبد طريقا إلى الرخاء الزراعى [٢ / ١٥ – ١٩] ، فلم يبدأ العمل إلا بعد سبعة عشر عاماً [عام ٥٢٠ ق . م] ، ولم يدشن بيت الله الجديد إلا عام ٥١٥ ق . م [عزرا ٦ / ١٥] .

---

(١) جمع (مَرْزُبَان) وهو حاكم الولاية بالفارسية . (المترجم) .

أما الأشراف (أو على الأقل أولئك الذين عادوا من المنفى، لأن العدد الأكبر آثر البقاء فى بابل) – فقد بلغوا هدفهم: فمع إعادة بناء المعبد ارتقى الكاهن العظيم على رأس إسرائيل كلها، لم تكن إسرائيل القديمة تعرف السلم الكهنوتى حتى زمن الملك يوشيا، ومنذئذ أنشئت تيوقراطية كهنوتية وشمولية، ولقد استطاع الكهنة العظام «الصدوقيون» الذين كانوا يشغلون الوظائف الكهنوتية، ولداً عن أب منذ داود وسليمان، أن يقبضوا على السلطة العليا، باعتبارهم موظفين لدى ملك الفرس، وذلك بفضل «تعاون» أرستقراطية أورشليم مع المحتل الفارسى.

فى هذا الأفق يأخذ عمل عزرا ونحميا كل معناه.

ذلك أن آثار النزاع بين العائدين من بابل، وأولئك الذين بقوا فى فلسطين تظهر مثلا فى سفر عزرا [٤/١ – ٥]، بيد أن الخلاف قد ذهب إلى ما هو أبعد من إعادة بناء المعبد، وبخاصة عندما طلب المنفيون – وهم الملاك الأغنياء بعامة – من الفلاحين الفقراء الذين كانوا يزرعون فى بلادهم، أن يردوا عليهم أرضهم.

والواقع أن عقليتين كانتا تتواجهان، على جميع الأصعدة،وقد كان قدماء المنفيين، المنقطعين منذ زمن طويل عن بلدهم وشعبهم، يَدَّعون أنهم وحدهم حملةُ الدين، وهم الذين يفرضون الالتزام بالتقاليد.

وكان نحميا وعزرا، اللذان أخذا على عاتقهما مهمة إعادة تنظيم الحياة فى فلسطين، كانا من أتباع المحتل، ملك الفرس، والمتمتعين بحمايته، وكانا يشغلان وظائف مهمة فى بلاط بابل، ويصل نحميا فى منتصف القرن الخامس إلى أورشليم، لينال فيها لقب «حاكم يهوذا» [٥ / ١٤]، وقد ظفر بهذا المنصب بفضل ما كان يتمتع به من قرب لدى ملك الفرس.

وبذلك نفهم أن سرعة إعادة بناء المعبد (على نفقة الملك)، وقد كانت تبدو ملحة بالنسبة إلى الملك، بقدر ما هى بالنسبة إلى قدماء المنفيين، الذين نجحوا فى كسب مرضاته – كانت هذه العملية موضع ارتياب الشعب.

وقد أصدر نحميا مرسوما بالإلغاء الشامل للديون الرِّبوية [نحميا ٥ / ١٠]، حتى يهدىء جزع المعدمين، وهو مرسوم يشهد بعنف النزاع بين الأغنياء والفقراء، ولا سيما عندما فرض العائدون أن يستردوا أراضيهم وحقوقهم المالية.

أما عمل الكاهن عزرا فإنه يقع فى نفس المناخ السياسى والاجتماعى، فقد كان هو أيضا مبعوثا من قبل ملك الفرس ارتحشستا، وكانت مهمته بعنوان غريب هو: «كاتب شريعة الرب»، وقد عينه «ملك الملوك» [عزرا ٧ / ١٢] وذلك لتطبيق هذا الاتجاه: «كل من لا يعمل شريعة إلهك، وشريعة الملك[1] فليقض عليه عاجلا، إما بالموت، أو بالنفى، أو بغرامة المال، أو بالحبس» [عزرا٧ / ٢٦].

وهكذا تسلم عزرا سلطات كاملة ليملى باسم ملك الفرس شريعة الرب، ويفرض احترامها والتزامها.

ولقد تصرف عزرا بطريقة كانت قديما طريقة الملك يوشيا: فقرأ الشريعة [نحميا ٨ / ١ – ٣]، كما كان متبعا فى زمن يوشيا، حين استخرج سفر الشريعة من أساسات المعبد، بصورة مذهلة، غير أن عزرا كان يؤكد هذه المرة على كل ما يمكن أن يجعل من المجتمع اليهودى مجتمعا مغلقا، قبليا، لا يخترق من الخارج، طبقا لأحلام الكهنة والأحبار المنفيين ببابل، فليس السبت وحده هو الذى يجب أن يراعى بكل دقة، وليس الختان الذى يمارس على أنه إلزام مقدس فحسب،ولكن ممارسة أقل الشعائر والتُّرهَّاتِ صارت مُقَنَّنَةً.

---

(١) النص الفرنسى يفيد (التى هى شريعة الملك)، وما نقلناه من الترجمة العربية للكتاب المقدس، وإن كان النص الفرنسى أدل على المراد، وأقرب إلى الذوق وإلى طبيعة موقف عزرا. (المترجم).

وحتى يستحيل تخطى حدود القبيلة تقررت أهمية خاصة لتحريم الزواج المختلط، وللانطواء على الذات بكل تشدد، وأنانية: «والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم، ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد، لكى تتشددوا، وتأكلوا خير الأرض، وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد» [عزرا ٩/١٢].

وقد أمر بتطليق كل النساء الأجنبيات، وطرد الأولاد الذين ولدوا منهن [١٠/٣]، ولم يستطع فرد واحد أن يحتج، بل لقد «انتهوا من كل الرجال الذين اتخذوا نساء غريبة، فى اليوم الأول من الشهر الأول» [١٠/١٧].

وهكذا تعطلت الحركة النبوية نحو الشمول، وانتصر التزمت فى ظل سطوة الفريق الكهنوتى، الذى كان يتحكم فى كل السلطات، بعد سقوط الملكية، وذلك بدعم دنيوى من المحتل.

وإلى هذا العصر من السيطرة الفارسية يرجع التثبيت «الكنسى» للأسفار المقدسة، ليس أسفار التوراة فحسب، (وهى التى يطلق عليها النصارى: Le Pentateuque، أى: الأسفار الخمسة: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية)، بل كذلك الكتابات «التاريخية»، ومن هنا «فكل تطور جديد مصادر» [1]، وبدأت سيطرة الكنيس (المعبد)، وفقهاء الشريعة.

لقد تحجر هذا المجتمع، الذى أضاف إلى التراث الروحى للإنسان رسالة أنبيائه، تحجر منذئذ فى الطقوسية Le rétualisme، والتنطع Le légalisme، والحرفية Le littéralisme، فلم يعد يضيف إسهاما نوعيا إلى التاريخ العام: وأعظم أعضائه مهابة، من فيلون الإسكندرية، إلى سبينوزا، ومن ماركس إلى أينشتين، سوف يمثلون منذئذ ثقافات الشعوب أو الحضارات التى صيغت فى كنفها عقولهم، أو عاشوا فى ظلها.

---

(١) نوث: تاريخ إسرائيل L'hist. d' Israël – ص ٣٥١.

لقد ختم –ابتداء من عزرا ونحميا – قدر هذا الازدهار العجيب الذى اتصفت به روحية الأنبياء وثقافتهم، وفى ذلك يقول كستلر: «إن الإضافات الفلسفية، والعلمية، والفنية للمبدعين اليهود الأفراد، هى إسهامات فى ثقافة الشعوب التى عاشوا فيها، فهى لا تمثل تراثا ثقافيا مشتركا، أو هيكلا من التقاليد المستقلة»[1] ولم يحدث الانتقال من الحكم الفارسى إلى الحكم الإغريقى فى فلسطين (عامى ٣٣٢ و ٣٣١) – تغييرات عميقة فى الوضع: فلم تكن هناك مقاومة،فيما عدا صور وغزة،لا من الكنعانيين الأصليين، الذين كانوا يعانون من نير مزدوج من جهة الفرس، ومن جهة شركائهم العبرانيين، كما لم يبد العبرانيون أية مقاومة، إذ لم يعودوا يسمعون نداء الرب مختنقا مع صوت أنبيائه، وإنما كانوا ينتقلون من سيد غريب إلى سيد غريب آخر، ولقد أدت الصراعات بين خلفاء الإسكندر، بعد موته، إلى استيلائهم على إمبراطوريته، وسرعان ما تحللت كما بينت، فكانت فلسطين تارة إقليما تابعا لبطالمة مصر، وأخرى تابعا للسلوقيين Séleucides فى سورية، الذين استقروا فى عاصمتهم بأنطاكية.

والحدث الوحيد المهم فى تلك الفترة من الحكم الإغريقى كان التطور الذى حققته جماعة قدمت من أورشليم إلى الإسكندرية، فى قلب الثقافة الهلينية، ثم توزُّع هذه الجماعة شرق البحر الأبيض المتوسط.

أما خارج بابل، حيث كان كثير من قدماء المنفيين إليها قد قرروا البقاء فيها والاستقرار، فبعد مرسوم قورش الذى حررهم صارت الإسكندرية أنشط مركز للجماعات اليهودية، بعد أن تجمدت الحياة فى أورشليم.

---

(١) آرثر كستلر: The Thirteen tribe – ط هيتشنسون، لندن ١٩٧٦ ص ٢٢٥، وقد حدثت تاريخيا ظواهر مماثلة، ففى إطار النصرانية – أصبحت بعد مؤتمر نيقية (عام ٣٢٥ م) يونانية أو رومانية، وفى إطار الإسلام حدث نفس الشىء «عندما أغلق باب الاجتهاد»، فتعرض كل تجديد للاضطهاد.

وهكذا ظهرت الحاجة إلى ترجمة الكتاب المقدس، إلى الإغريقية، وقد كانت اللغة المشتركة للشعب الذى يعيش من بابل إلى فلسطين هى الآرامية، إذ لم تكن العبرانية سوى لغة كهنوتية، أما الإغريقية، فهى لغة الثقافة، من الإسكندرية إلى سيشل، ولذلك ترجم إليها الكتاب المقدس منذ القرن الثالث، بالإسكندرية، وبذلك أتيح له الانتشار، بعيدا عن «فقهاء الشريعة» الذين كانوا يتمتعون بحماية الملك سيلو سيد أنطيوكس الثالث، الذى ضاعف لهم الامتيازات.

ولكن، بعد انتصار الرومان على أنطيوكس الثالث فى مَنْييزِى Magnésie [1] فى آسيا الصغرى عام ١٩٠ ق. م [2]، وبعد إبرام معاهدة أبامى Apamée التى جعلته تابعا لروما - تعرضت أورشليم لنزاع السامريين، بعد أن فقدت تلك الحماية.

لم يكن التنافس أمرا جديدا بين المملكتين القديمتين، مملكة الشمال (إسرائيل، وعاصمتها السامرة)، ومملكة الجنوب، (يهوذا، وعاصمتها أورشليم)، ولم يكن منشؤه فقط التركيب الاجتماعى المختلف، بحيث كان الشمال متمدنا، وأكثر انفتاحا بتجارته على العلاقات الخارجية، فقد كان هنالك أيضا تنافس دينى قديم، كانت هنالك الأماكن المقدسة التقليدية للأسباط، معابد شكيم، وبيت إيل، وشيلو الموجودة فى الشمال، وكان انتقال السلطة من المركز، وانتقال التابوت إلى أورشليم، بقرار من داود، سياسيٌّ فى جوهره - يبدو للسامرين وكأنه تصدع فى الدين، وسوء استعمال للسلطة من جانب داود اليهوذى.

---

(١) لقى أنطيوكس الثالث هانيبال مع هزيمة قرطاجنة.

(٢) كانت هزيمة أنطيوكس على يد سيبيون الأسيوى فى هذه البلدة من تركيا. انظر: قاموس لاروس (المترجم).

ثم إن انهيار السلوقيين بعد هزيمتهم أمام الرومان قد حرم أورشليم من مساندة انطيوكس، وقد انتهز السامريون هذه الفرصة ليحدثوا انشقاقاً، وليرتبوا انفصالا حقيقيا، فقد أعلنوا منذئذ أن العبادة لم يعد مكانها أورشليم، بل عندهم، على الجبل القديم المقدس، جبل غاريزيم Garizim ابتداء من حكم أنطيوكس الرابع الملقب بـ (إبيفان) - [II Macchabées سفر المكابيين الثانى ٦ / ٢][1]، ومنذ ذلك الحين صار السامريون فى نظر كاهن أورشليم مرتدين وأنجاسا.

وهكذا يسجل ارتقاء يوشيا عام ٦٣٩ ق. م منعطفا فى تاريخ فلسطين: فبعد الغضب النبوى الهائل صار صوت الأنبياء مختنقا، وأجهزت الطقوسية على خميرة الحياة المضطرمة التى زودوا بها الإيمان اليهودى، كما أجهزت عليها حرفية التقاليد الدينية الخاضعة للمقتضيات السياسية.

حينئذ تبدأ القرون المظلمة فى فلسطين، القرون التى نضب فيها نبع الإبداع الروحى، قرون تحجير الإيمان، قرون المؤامرات السياسية الدنيئة والمعقدة.

وفى ظل حكم ملوك يهوذا الذين كانوا يتناوبون الاعتماد على المحتلين المتعاقبين - توقفت فلسطين عن أن تكون ذاتا مؤثرة فى التاريخ، ليس ذلك فحسب، بل لقد أصبحت موضوعا، وأداة تابِعَيْن، بين أيدى القوى الأجنبية.

وفى هذا التاريخ من المعاناه تحت نير الملوك الطامعين - والمتعاونين مع جميع السادة الوافدين - توقف الإبداع الروحى، وإذا بأرض الكنعانيين هذه، التى تقع على ملتقى الحضارات الخصبة، الآتية من العراق ومن مصر، والتى شهدت ميلاد ثقافة وإيمان جديدين، يدل على ثرائهما الكتاب الكنعانى

---

(١) أحد أسفار الكتاب المقدس لأورشليم - الترجمة الفرنسية. (المترجم).

المقدس، الذى عثر عليه بأوغاريت... هذه الأرض التى تلقت الإيمان العبرانى على أنه الخضوع غير المشروط للرب، حيث كانت تدوى رسالات الأنبياء العظمى - إذا بهذه الأرض وكأنما هى تخرج من التاريخ، حيث لم تعد تظهر فى سمائها سوى أسماء الملوك التابعين للفرس، وللإغريق السلوسيديين، وأخيرا للرومان، وللقادة الغرباء السفاحين، والنهابين، والفاسدين، الذى كانوا يدعمون أى أمير قادر على المزايدة، متفوق فى الدناءة.

لقد أسهمت شعوب وحضارات أخرى فى بناء الإنسان فقدمت إليه علوما، وتقنيات، وثقافات، وأشكالا من التعبير الفنى، وكان العطاء النوعى لفلسطين خلال خمسة آلاف عام من تاريخها أنها كانت مهبط الوحى، وإشعاع الرسالات الإلهية: رسالات إبراهيم والأنبياء الكبار فى بنى إسرائيل وأخيرا كانت مهبط رسالة عيسى، ثم وافى بعدها الإسلام.

والواقع أن فصل المكابيين (١٧٦ - ١٠٤ ق. م) لم يقطع حقيقةً لُحمةَ هذه الفوضى التى عاشتها فلسطين خلال القرون المظلمة.

حدث هذا الفصل من الملحمة الفلسطينية فى عصر انحلال حكام السلوقيين، ورثة الإسكندر، الذين وضعوا أيديهم على سورية وفلسطين، فى حين فرض البطالمة سلطانهم على مصر.

وقد انضاف إلى هذا التفسخ فى إمبراطورية الإسكندر - منذ القرن الثانى - التدخل الرومانى فى شرق البحر الأبيض المتوسط، إذ ساندوا البطالمة فى مصر ضد السلوقيين فى سورية، وسهل مهمتهم كثرة الفتن، والمؤامرات، والاغتيالات بين الأمراء السلوقيين.

وحين هزم السلوق أنطيوكس الثالث أمام الرومان، وفرضوا عليه سلام أبامى (١٨٩ ق.م)، تضاعفت المؤامرات والاغتيالات فى البلاط.

وقد جَرَّت الهزائمُ العسكرية، وفسادُ القادة وضعا ماليا فاجعا، أدى بالسلوقيين إلى استنزاف شعوبهم، وإلى الاستيلاء على ثرواتهم، وكانت ثروات معبد أورشليم فريسة تطمح إليها المطامع بشكل خاص.

وقد لجأ أنطيوكس الرابع الذى استولى على السلطة عام ١٧٥ ق. م إلى انتهاز فرصة الانقسام بين كبار الكهنة، فأيد أحد أعضاء الأسرة الكهنوتية، ثم انتهب كنوز المعبد بمناسبة تقليده السلطة، وانتهك حرماته، وهو أمر اعتبره اليهود المتمسكون بالشريعة تدنيساً للمقدسات.

لقد أصبح الصراع صراع حضارة: جانب من الأسرة الكهنوتية، هو الجانب الذى كان يعمل متعاونا مع السلوقيين، تعود على معايشة تدخل الهلينية المتزايد فى شئون أورشليم، فكثير من كبار الكهنة، غيروا أسماءهم اليهودية بأسماء إغريقية، على ما ذكره فلافيوس جوزيف Flavius Joséphe، فصار Jason: Josua، و Ménélaüs: Onias [1].

وفى عام ١٦٨ ق. م لدى عودة إحدى الحملات من مصر، حيث أكرهها الرومان على الانسحاب – هاجم أنطيوكس الرابع أورشليم، وأباحها للقتل والنهب [المكابيين الأول ١/٢٩]، ثم حرم كل الشعائر الدينية، واحترام السبت، والختان، بل إنه أحرق النصوص الكتابية، ثم أقام فى حرم أورشليم عبادة الإغريق لزيوس [2]، كما فعل ذلك من قبل فى معبد السامريين فى غارزيم Garizim.

---

(١) فلافيوس جوزيف: «التاريخ القديم لليهود – de Juifs histoire ancieunne» الكتاب الثانى الفصل السادس، ط Lidis، (باريس ١٩٨١) ص ٣٧٦.

(٢) المكابين الثانى، ٦/٢، والمكابين الأول ١/٥٤.

وحينئذ انفجرت ثورة دينية عنيفة فى نهاية عام ١٦٧ ، وبداية ١٦٦ ق . م ، بدأت فى قصبة صغيرة من قصبات يهوذا ، مدينة Medina ، وذلك عندما رفض متاتياس Mattathias ، أحد وجهائها – أن يقدم قربانا لآلهة الإغريق ، وقتل الضابط والجنود الذين أمروه بذلك[١] ، وتنامت المقاومة فى أنحاء يهوذا كلها ، وعندما مات عام ١٦٦ – نقل إلى ولده يهودا المكابى Judas Macchabées – قيادة المتمردين[٢] ، فشرع فى حرب عصابات ومناورات تنطلق من الجبل ، ثم أعلن عصيانا عاما ، معتمداً على الشعب ، وسدد ضربات كثيرة إلى جيوش أنطيوكس .

لقد كان يهودا المكابى يتحرك وهو على يقين من أنه يجاهد من أجل سلطان الرب على الأرض ، وفى هذا العصر الذى شهد التمرد الشعبى الكبير كانت مرائى دانيال تأخذ صورة البحر الكبير ، بحر ديانات الشرق ، بحر الإلهة تيامات Tiamat فى بابل ، أو الأمير يَم Yam (وهو البحر) فى كتاب أوغاريت المقدس ، حيث يأخذ المحيط الأصلى صفة إلهية ، فى هذه الرؤى تنبأ بانتصار ابن الإنسان ، على الوحوش من سحب السماء[٣] ، وحينئذ «يأخذ قديسو العلى المملكة»ويمتلكون المملكة إلى الأبد ، وإلى أبد الآبدين» .

هذه الرؤيا المتعلقة بنهاية العالم كانت تستجيب لأمل شعبى ، أن يتدخل الرب مباشرة ، فى صورة حركة خلاص من هذا القبيل[٤] ، ولقد نجح يهودا المكابى عام ١٦٤ ق . م فى استعادة أورشليم من الجيش الإغريقى للسلوقيين فى سورية ، كما نجح فى إصلاح العبادة .

---

(١) فلافيوس جوزيف (التاريخ القديم لليهود) السابق ، الفصل الثامن ص ٣٧٨ .

(٢) المكابيين الأول ٢/٦٦ .

(٣) دانيال ٧/١٣ – ١٤ .

(٤) السابق ٧/١٨و ١٤ .

وإذن فقد بلغ المكابيون ما أرادوا بثورتهم من أهداف، حتى إن ملك السلوقيين الجديد ديمتريوس الأول قَبِلَ عندما اعتلى السلطة عام ١٦٢ ق. م إعادة طقوس العبادة، ونصب كاهنا أعظم أحد الأعضاء الشرعيين من الأسرة الكهنوتية، وهو أَلْسين Alcine، وأرسل نوابا يحملون مقترحات سلام إلى يهودا المكابى.

هنا انقسمت حركة التحرير التي أيدت حتى ذلك الحين العصمونيين Les Asmonéens فى مجموعها (من الاسم Asmon، الذى ينتمى إلى الجد متايتاس، وإلى يهودا المكابى) – انقسمت إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: مجموعة الأتقياء[1] (الذين يسمون فيما بعد الانفصاليين les separés، الفريسيين، الذين قاتلوا من أجل الحرية الدينية، ومن أجل حق الحياة طبعا للشريعة اليهودية، وحين بلغوا هدفهم رأوا أن من الواجب أن يقبلوا السلام.

والثانية: مجموعة الهلينيين، وهم كثير فى الأسر الكهنوتية، وهم (الصدوقيون)، وقد مال إلى تأييدهم الكاهن الأكبر ألسين Alcine.

والثالثة: مجموعة يهودا المكابى، التى اعتزمت الاستمرار فى الصراع السياسى، لإقامة دولة ذات سيادة يكون هو على رأسها.

ويبدو أن السمة السياسية لسعى يهودا المكابى، وفقدانه لقاعدته الشعبية قد أديا فى الواقع إلى أن يبحث عن تأييد خارجى، فقد أرسل وفدا إلى روما، يحاول أن يعقد عهداً[2]، ولم يكن خلفاء يهودا المكابى يُعتَبرون سوى حزب، ولا سيما يوحنا هيركان Jean Hyrcan، ولذلك لم يستطيعوا أن يعتمدوا على جيش شعبى، فجندوا على طريقة داود بعض المرتزقة الأجانب[3].

---

(١) المكابيين الأول ٧/١٣.

(٢) المكابيين الأول ٨/١٧.

(٣) فلافيوس جوزيف ١٣/٩ ص ٤٠٠.

وبتأييد روما لسيمون المكابى (عام ١٤٥ ق . م) حصل على الاستقلال، فأصلح نظام وراثة العرش، ابتداء من عام ١٤٠ ق . م، وهو النظام الذى استمر إلى أن استعان عصمونيان هيركان الثانى Asmonéen Hyrcan II، وهو الملك الأخير - بالرومان مرة أخرى ضد أخيه أريستوبل Aristobule، فاستولى بومبى Pompée على أورشليم عام ٦٣ ق . م، وجعل من يهوذا إقليما رومانيا.

وهكذا تحولت أسرة العصمونيين، التى ولدها تمرد الشعب من أجل حرية إيمانه الدينى، تحولت إلى دكتاتورية شمولية، تُخْفِى تحت قناع التنطع بالأباطيل، والحرفية العقَدية فى التزام الشريعة - شرَّ ألوان الفساد الأخلاقى.

ومن ذلك مثلا أنهم عندما مات يوحنا هيركان عينوا امرأته لتخلفه، فاستولى ابنه الأكبر أريستوبل على السلطة، ورمى أمه فى السجن، وتركها تموت جوعا[1]، وسجن ثلاثة من إخوته، وقتل الأخير أنتيجون Antigone، وقد قتل خليفةُ أريستوبل أيضا أخاه ليحكم. والاسكندر، (الابن الأصغر لمتاتياس) كان يكره شعبه، فمارس ضده اضطهاداً وحشيا، واستطاع بمساعدة المرتزقة أن يقتل ستة الآف شخص فى يوم واحد.

لقد عاشت الملكية العصمونية أربعين سنة، وبلغت أقصى درجات التحلل الأخلاقى والسياسى عندما ضم بومبى فلسطين، ومنذئذ لم تعد «سورية - فلسطين» سوى إقليم رومانى، وصار «الأمراء» دُمىً وعرائس فى خدمة روما، لا يصلون إلى السلطة إلا بالتزلف إلى روما، وكان من أحقرهم وأذلهم أنتيباتروس Antipatrose، كان سجينا، ومن أبنائه هيرود Herode (وكان تزوج واحدة من نسل العصمونيين)، طلب بعد موت قيصر - من أنطونيو وأوكتاف أن يعيناه ملكا على يهوذا.

---

(١) فلافيوس جوزيف - السابق ١٣/١٩ ص ٤١.

وفى عام ٣٧ ق . م ، استولى على أورشليم بفضل الهجوم الذى شنته القوات الرومانية ، فلما هزم أوكتاف أنطونيو جاء هيرود ليقدم خدماته إلى السبد الجديد ، ونجح فى أن يواصل وظائفه الملكية ، بل وفى أن يبسط قضاءه على أغلبية فلسطين ، وقد دام حكمه سبعا وثلاثين سنة ، حتى أربع سنوات قبل ميلاد المسيح – قضاها كلها فى ظلال الرومان ، وقد اتسم عهده بسياسة كبيرة تتجه إلى التمدين ، فجعل من أورشليم مدينة مبنية على الطراز الرومانى ، وأصلح المعبد تبعا للخطة التى وضعها المعماريون الفينيقيون ، فى صور ، والذين بنوه لسليمان ، وأعلى الحائط الضخم الرومانى الذى هو اليوم «حائط المبكى» . وأحاط المدينة بأسوار مازالت باقية .

لقد كان هذا البذخ ثمرة لنفس الرعب ، ونفس الفساد الذى أحدث مثله آخر ملوك العصمونيين ، فقد قتل زوجته الثانية ، العصمونية ماريان ، وقتل ولديه منها ، وقتل قبيل موته بأيام قليلة أول أولاده من زوجته الأولى .

ومع أنه كان رسميا – يهوديا بالميلاد ، وعلى الرغم مما بذل من عناية فى إعادة بناء المعبد ، وإعادة بناء قبور الرؤساء فى حبرون ، فقد كان شعب أورشليم يمقته ، بقدر ما كان يمقت مولاه الإمبريالى .

وعند موته ذهب المطالبون بخلافته إلى روما ، يطلبون تعيينهم ، فتولى ولداه ، كل منهما ولاية جزء من البلاد : أنتيبوس حاكما على الجليل وبيريه Pérée ، وأخوه فليب حاكما على الأقاليم الوسطى ، وقد حكم هيرود أنتيبوس من عام ٤ ق . م ، حتى عام ٣٩ م ، عندما عزل وأبعد إلى ليون فى بلاد الغال .

* * * * *

الفصـــل الثالث

فلسطين النصرانية



١ - «ظهور يسوع»

خلال حكم هذه الشخصية الكئيبة، وفى عصر كان طيباريوس Tibére إمبراطور روما، فى فلسطين.

قام حامل جديد للرسالة الإلهية: يسوع الناصرى، ظهر فريداً، وحيداً، حتى إن تنبؤه لم يسجله مؤرخو عصره، لا الرومان، ولا اليهود، ففى بداية القرن الثانى فقط نجد أن المؤرخ الرومانى تاسيت Tacite يشرح أصل كلمة «chrétien» بقوله: هذا الاسم يأتى من Christ الذى أدانه الحاكم بونس بيلاطس Ponce- Pilate، وحكم عليه بالموت، خلال حكم طيباريوس. هذا الظن الكريه أخفى إلى حين، ثم انتشر من جديد، لافى يهوذا فحسب، حيث ولد الشر، ولكن كذلك فى روما، حيث يلتقى كل ما أحدثته الدنيا من فظائع ومخاز، وحيث وجدت أشياعا كثيرين»[١].

ثم جاء سويتون Suétone مؤرخ الأباطرة، فى القرن الثانى أيضا فأشار إشارة غامضة إلى نفس الظاهرة: «كلود طرد اليهود من روما، لأنهم لم يكونوا يكفون بسبب تحريض يسوع Chrestos عن إثارة الاضطرابات»[٢]، فيسوع لم يكن إذن فى نظر سويتون سوى مهيج يهودى ضمن آخرين من مثيرى الفتن.

وكان بلين لوجان Pline le jeune قد كتب فى القرن الثانى (عام ١١٠ م) فى إحدى رسائله إلى الإمبراطور تراجان، حيث كان حاكما لآسيا الصغرى - كتب تقريراً عن العبادة الفجة للنصارى، محددا أنهم فى اليوم المحدد «يغنون نشيداً على شرف يسوع كأنما كان هو الرب»[٣].

---

(١) تاسيت Tacite: حوليات ١٥ / ٤٤.

(٢) سويتون «حياة كلود - Vie de claude» ٢٥ / ٤.

(٣) بلينى لوجان (رسائل lettres ١٠ / ٩٦).

أما المؤرخ اليهودى الذى أعلمنا بتوسع فهو فلافيوس جوزيف، مؤلف كتاب (التاريخ القديم لليهود)، والذى ظهر عام ٩٠م، وهو يحكى فى دقة جميع أحداث العصر، ويذكر قرار الكاهن الأكبر أننياس Ananias برجم «جاك Jacques، أخى يسوع، المسمى Christ» [١].

وهناك إشارات أخرى إلى يسوع، مضمنة فى كتاب فلافيوس جوزيف (مثلا ١٨/٤ ص ٥٦١)، وهى ذات صياغة خيرة، مدسوسة فى النص.

فكيف نفسر أن مؤرخى الرومان تلقوا الحدث فى القرن الثانى فقط، وأن اليهود لم يميطوا اللثام عن النذير المسيحى، بل ورفضوه، ولم «يتعرفوا فيه الهدف الذى كان يتجه نحوه كل تاريخ بنى إسرائيل بطريقة باطنية» [٢] – كما قال نوث؟؟.

إن ذلك يرجع إلى طبيعة الرسالة ذاتها.

فيسوع يعلن قرب حدوث ملكوت الرب، وهو بذلك يضع نفسه «وراء الاحتمالين المتناوبين»: «نظام مستقر» أو «ثورة» [٣]، فهو بالنسبة إلى الرومان لم يكن إذن ذا أهمية سياسية، وإنما كان مهيجا يتوقع منه الضرر، ضمن المهيجين الآخرين، وهم كثير، وهو ليس قوة سياسية، مثل متاتياس والمكابيين، أو مثل الزيلوتيين les zélotes أو الباركوكبا Bar Kochba – القادرين على تنظيم التمرد المسلح ضد روما.

---

(١) فلافيوس جوزيف السابق ٢٠/٨ – ص ٦٢٧.

(٢) نوث «تاريخ إسرائيل» «histoire d' Israël» ص ٤٢٩.

(٣) أوسكار كولمان «يسوع والثائرون فى عصره Jésus et les revolu tionnaires de son tewp» طبعة ديلاشوونستله – نيوشاتل ١٩٧١ ص ٢٦.

أما بالنسبة إلى اليهود، فإنهم لم يستطيعوا تقبل الرسالة على أنها مسيحية، لأن يسوع الناصرى لم يكن يتطابق فى شىء مع الصورة التى كانت لديهم عن المسيح، ولكى نفهم إلى أى مدى خيب يسوع توقعهم ينبغى أن نضع رسالته فى سياق اليهودية فى زمانه.

إن رب الإيمان اليهودى خالق وسيد، وهو الذى يصنع التاريخ، وبنو إسرائيل هم شعبه، وقد أوحى إليهم مشيئته، وشريعة حياتهم، واختارهم، وعقد معهم «عهداً»، ولكن غير مشروط، فهو مرتبط بطاعتهم أو معصيتهم، فالاختيار، والعهد، والوعد، والشريعة هى التى تتحكم فى تاريخهم.

لقد رأينا من قبل كيف تحجر هذا الإيمان العظيم، الأول وتقلص، ولا سيما بعد السبى، «فصار رئيس الشعب الرئيس الأعلى لحزب المتمسكين بالشريعة، ولم تعد الطاعة لدى من يصنع التاريخ سوى تقوى مظهرية مرحلية ذات صور عديدة» [1].

هذه الشكلية، وضيق الأفق، بل والعرقية – تتجلى فى كل مكونات المجتمع اليهودى فى زمن يسوع.

وعلى القمة يتربع الفريق الكهنوتى، من «الصدوقيين»، (وجدهم صدّوق، الكاهن العظيم على عهد سليمان)، وهم الذين يرفضون كل مالم يرد بحرفه مكتوبا فى الشريعة، كما يرفضون أى تفسير، أو ابتداع، وكانت امتيازاتهم الكنسية وراثية، ولقد تعاونوا منذ فقدت فلسطين استقلالها مع المحتل، أيا كان: فارسيا أو مصريا، أو إغريقيا، أو رومانيا، هذه الأرستقراطية الكهنوتية شكلت مع الأرستقراطية العَلْمانيّة (Laique)، ومع الفريسيين – المجلس الأكبر لأورشليم، برياسة الكاهن الأكبر السندرينى، والسلطة الدينية والقضائية العليا التى سوف تبقى حتى يهدم الرومان أورشليم عام ٦٩ م.

---

(١) دبليوس «يسوع – Jésus» برلين ١٩٦٠ ص ٣٤.

لقد ظهر الفريسيون (الذين أطلق عليهم أولا : الحسِّديم ، أى : الأتقياء ، ثم أطلق عليهم : المنفصلون (بالإغريقية Pharisaioi) - ظهروا فى عصر المكابين ، عندما رفضوا الاستمرار فى صراع سياسى بعد أن حصلوا على حرية العيش طبقا لأوامر التوراة ، فكل ما يهمهم هو حفظ الشريعة فى تفسيرها الحرفى ، ولكن دون تحايل ، وذلك بتطبيقها على أحداث الحياة اليومية كلها ، بتفسير نابع من الضمير ، قاس ، يجعل الحياة اليومية خاضعة لطقوس غاية فى الدقة ، هذا التقليد الفريسى هو المصدر الأساسى لمستقبل اليهودية التلمودية.

أما ما عدا هذه اليهودية الرسمية فهناك الأسينيون ، الذين تحدثت عنهم المخطوطات التى عثر عليها فى البحر الميت (وهى نصوص قمران) منذ عام ١٩٤٧ ، وتعتبر سجلات لأحد «الأديرة الأسينية» ، وهى تقدم توثيقا مباشراً يرجع تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد ، وهؤلاء الأسينيون يشكلون طائفة تعتزل الدنيا ، إلى حياة الدير ، وفى مجتمع يقوم على المشاعية والرهبنة ، والمتطلبات الأخلاقية المتشددة ، كما يقوم على تأويل ثنائى ، (ذى أصل إيرانى بلا شك) ، يقتضى هذا الانقطاع عن العالم لإيجاد «شعب الرب» الحقيقى ، وللعيش فى نطاق أمل أخروى يتوقع مجىء «سيد العدالة» [1].

هذا الأمل المسيحى الذى كان غاية فى الحيوية فى شعب فلسطين إبان ظهور يسوع ، تجلى كما رأينا فى زمن المكابيين ، وفى بشارة دانيال بمجىء «ابن الإنسان» .

هذا الاتجاه المتطلع إلى مسيح يحرك أيضا الزيلوتيين Les Zélotes بطريقة تختلف اختلافاً جذريا عن طريقة الأسينيين ، وهم يكونون حركة للخلاص القومى ، تنظم أعمالا مسلحة ضد المحتلين الرومان . .

---

(١) لعل هذا يذكرنا بفكرة بعض الطوائف الإسلامية عن رجعة المهدى ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . (المترجم) .

ويبدو أن المسيح كان على قطيعة مع كل هذه الجماعات،والجماعة الوحِدَةُ التى كانت له بها علاقة هى جماعة يوحنا المعمدان[1]، الذى أتاح لنا إنجيل لوقا أن نحدد لحظة ظهوره «فى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر» [لوقا ٣/١]، أى عام ٢٨ أو ٢٩ م.

لقد تنبأ يوحنا المعمدان بمجىء يوم الرب، كما سوف يفعل يسوع، وهو ينادى كل الناس أن يستعدوا له، وليس اليهود وحدهم: «لا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم: لنا إبراهيم أبا، لأنى أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» [متى ٩/٣].

ليس هذا إبطالا للاختيار، والعهد، والوعد، ولكنه رفض لأن يكون شعب الرب شعبا خاصا يدين بكل شىء لإرثه، هذا الانتقال من العرقية إلى الشمولية، هو مبلِّغ رسالة يسوع.

وتحاول نصوص متى ولوقا، المتأثرة بالتقاليد اليهودية أن تضع مهمة يسوع فى إطار الآمال المسيحية لبنى إسرائيل، فكلاهما يثبت «نسب» يسوع، محاولا أن يجعل منه نسلا لداود، صاعدا به، إما إلى إبراهيم [متى ١/١]، وإما إلى آدم نفسه [لوقا ٣٧/٣]، ومع ذلك إن هذه الأنساب ليست واحدة لدى المؤلفين، فأحدهما، وهو متى، يؤكد على البنوة الملكية، والآخر على البنوة النبوية، ويضيف لوقا أنه كان ابنا - على ما كان يُظَنّ - ليوسف[2] [٢٣/٣]، وذلك حتى لا يكذب الولادة من غير أب (فتصبح فكرة النسب الداودى وهما)!.

---

(١) هو النبى يحيى عليه السلام. (المترجم).

(٢) يريد: يوسف بن هالى بن متثات، الذى ينتهى نسبه إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والمعروف بيوسف النجار، وأنظر النسب فى [لوقا ٢٣/٣]. (المترجم).

ويبدأ يسوع نشاطه العام فى حوالى الثلاثين، حسب رواية لوقا [٣ / ٢٣]، بأن يطلب التعميد من يوحنا المعمدان، الذى يعد نبيا، «وأفضل من نبى» [متى ١١ / ٧ - ١١]، باعتباره صوتا مبشراً ونذيراً.

لم يعظ يسوع فى المعابد كما كان يفعل الأحبار اليهود، فقد كان مبلغا متجولا، يتوجه إلى الكل، لا إلى مجتمع محدد، وهو لا يستخدم مطلقا برهانا ذا سلطة فيرجع إلى نصوص مقدسة، أو إلى تقليد: «لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان، وليس كالكتبة» [مرقس ١ / ٢٢، ومتى ٧ / ٢٩].

وعندما يتكلم عن الشريعة، حتى وهو يعلن أنه ما جاء لينسخها فهو يتكلم باعتباره رجلا يحطم التقاليد المتحجرة: «أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم» [متى ١٥ / ٦، ومرقس ٧ / ١٣]، وكان بذلك يجيب على الفريسيين والكتبة الذين كانوا يلومونه على تجاوز هذا التقليد.

وهو يعترض حتى على الشريعة، وينتهك حرمة السبت متعمدا، ويعلن: «السبت إنما جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت» [مرقص ٢ / ٢٧]، وهو لا يأخذ بأوامر النظافة الطقوسية، [مرقص ٧ / ٢].

وهو فى خطبته على الجبل يتهم شريعة موسى، لا لأنه يريد أن يمضى من الحرف إلى الروح فحسب، كيما يستبطنها، بل هو يتصدى لشريعة موسى: «سمعتم أنه قيل: عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم... من لطمك على خدك الأيمن فحول الآخر أيضاً» [متى ٥ / ٣٨]، ويبدو من العسير أن نعتبر شريعة الحب هذه مجرد استبطان «لشريعة القصاص»، فهى ليست أداء له، ولكنها العكس المتطرف.

«قيل للقدماء»، «وأنا أقول لكم».

إن هذه اللازمة فى خطبة الجبل ترينا أنه كان هناك تنافر بين رسالة يسوع، وبين الشريعة الموسوية.

فيسوع يخلص تعبير «مشيئة الرب» من تحجره فى ألواح السريعة، إنه يخلصه من كل نزوع إلى الشكلية، وكل اتجاه إلى الحرفية، وكل التزام بالطقوسية.

وعندما سأل ناموسى من الفريسيين يسوع قائلا : «يا معلم، أية وصية هى العظمى فى الناموس؟ قال له يسوع : تحب الرب إلهك، من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، هذه هى الوصية الأولى والعظمى، والثانية مثلها، تحب قريبك كنفسك، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء» [متى ٢٢/٣٦ - ٤٠].

هذا الحب هو القطيعة الثابتة، سواء مع المفهوم الإغريقى للحب، أو مع المفهوم اليهودى.

فإيروس[1] الإغريق عند أفلاطون مثلا، وهى التى تمنحه أجمل الصور فى «فيدر» أو «بانكيه»[2] - ليست حبا للآخرين، بل هى حب للحب، إنها معبر لحب الجمال فى الأشكال إلى حب الخير لذاته، وهى مليئة بتمجيد الذات، كما أن الذات فيها مزدهرة، دون التفات إلى الآخرين، حتى ولو مرحليا، كوسيلة عبور.

أما الحب، فى رسالة يسوع فهو لايرى فرقاً بين الغريب وإنسان المدينة، أو القبيلة، بل إنه لايفرق بين الصديق والعدو.

ولقد وصف هذا الحب بكل ما فيه من إنسانية، وكل ما يتضمن من تكليف إلهى فى حكمة السامرى الصالح، [لوقا ١٠/٣٠ - ٣٧].

لقد اختار يسوع أن يضرب مثلا بالسامرى، وهو أحقر شىء فى نظر اليهودى التقى، وأبغضه إلى نفسه فى أورشليم، وليس هذا عقد حب يتم من أجل (حب الرب)، فحسب، وبحيث يتوارى الإنسان الآخر فى إنسانيته، كما أنه ليس مجموعة من المشاعر التى يغيب عنها الله.

إنه تجلى حضور الرب، من حيث كان هذا الحب غير مشروط، وله مضمون من السمو، بالنسبة إلى جميع العلاقات الإنسانية، وهو فى نفس الوقت العلاقة الإنسانية الأساسية:

---

(١) رمز فرويد بهذه الكلمة إلى غريزة الحب. (المترجم).

(٢) كلمة تعنى حفل الزواج يطعم فيه المدعوون. (المترجم).

فأن تحب يعنى أن تفضل الآخر، على نفسك، حتى تهبه حياتك، إنه أن أُدْرِكَ أن مركز ذاتى ليس فى ذاتى، ولكنه فى الآخر لا ينفصم عنه، وفى كلِّ آخرَ، وأن أدرك أنى مسئول شخصيا عن مصائر الآخرين جميعاً، وأن أعمل طبقا لهذا الإيمان الأساسى بوحدة الحياة، فكل إنسان «قريب» لى، فالإنسانية واحدة،لأن الله خالقها واحد.

وهنا نجد أنفسنا أمام مناقضات كاتب يطرح سؤالا: «من هو قريبى؟».

إن هذا الحب بداية لإنسانية جديدة، هى الإنسانية التى تستعد لقرب حدوث ملكوت الرب، وهذا التحذير من مجىء ملكوت الرب، الذى هو داخلنا، وكأنه خميرةٌ لخلق المستقبل – يفسر عدم لجوء يسوع فى تعليمه إلى أية قاعدة سياسية، فعندما جاءه الكتبة والفريسيون، لكى يصطادوه بكلمة، وضعوا له سؤالا شرَكاً: «أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا؟ نعطى أم لا نعطى؟ [مرقص ١٢ / ١٤]، أزال يسوع القناع عن نفاقهم قائلا: لمن هذه الصورة والكتابة التى على الدينار؟.. فقالوا له: لقيصر، إنهم يمارسون تجارتهم بهذه النقود دون أن يلتفتوا إلى الرسم الذى تحمله، وهاهم أولاء تبدو حيرتهم فقط عندما يتعين عليهم أن يدفعوا الجزية!!.

إن الدينار يحمل صورة قيصر، وقلوبنا تحمل صورة الرب، وهذا هو ما ذكره يسوع: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

إن هذا لا يعنى أن يسوع يفصل الإيمان عن السياسة، لأن قيصر، الإمبراطور، كان بالنسبة إلى الرومان – إلها يدعى الهيمنة على الأنفس، كما يحكم الأجساد، وإذن فلا شىء أكثر تدميرا فى نظر موظف من موظفى الإمبراطورية من الادعاء بأنك ترفض أن تعطى قيصر نفسا تنتمى إلى إله آخر.

فأما بعد ذلك فقد كثر من تلاميذ يسوع من أعدمهم الإمبراطور، مع أنهم أعطوا ما لقيصر لقيصر، وارتضوا مثلا أن يخدموا فى جيشه، ولكنهم رفضوا أن يقدموا قرابينهم فى مذبح القيصر، لأن الذبائح لا تكون إلا لله وحده، لله الواحد.

وعلى ذلك نرى أن النظرية المزعومة القائلة بوجود «مملكتين»، وبفصل الدين عن السياسة، كيما تترك المجال حرا لسلطة الدولة، وكيما تحاصر الإيمان داخل الضمير، دون أى تأثير على الحياة السياسية – هذه النظرية ليست سوى ادعاء يرتكز على فهم لا يؤمن برسالة عيسى.

ومن الخطأ أيضا – إذن – أن نرى فى يسوع رجلا محافظاً يجعل من الإيمان «قضية خاصة»، ويمسك عن الخوض فى أية سياسة، لدرجة أن يقبل كل نظام قائم، دون مبالاة، (كما كان يفعل غالبا الصدوقيون «عملاء» كل سلطة وكل محتل)، كما أن من الخطأ أن نرى فيه «ثائراً» بالمعنى الذى يقصده الزيلوتيون Les zélotes، فى تدبير مؤامراتهم المسلحة ضد الرومان.

إن حياة يسوع، وتعليمه، وموته تشهد، على العكس، بنقده القاسى للفوضى القائمة، سواء فى مجال الشريعة، والتقاليد الدينية، أو فى مجال الاقتصاد والعدالة الاجتماعية، ضد الأغنياء الملاك، أو ضد الأحكام الاستبدادية التى تمارسها السلطة الرومانية.

لكنه لا يقتصر عمله على مقاومة الاضطهاد فى بلد معين، أو عصر معين، فيسوع يعنيه كل ما يجرى فى العالم، ولكنه كما يقول كولمان: «أليس واجبا أن نفرق بين العالم من حيث هو مجال نشاطنا، وبين العالم من حيث هو معيار نشاطنا» (١).

ويسوع، شأنه شأن الزيلوتيين، يعمل فى هذا العالم، ولكنه ليس مثلهم، يعمل تبعا لقوانين من هذا العالم، ليندمج فى مسلسل عنفه، حيث تؤدى الحروب، بل والثورات، – بعد مرحلة الازدهار والتحرير – حتما إلى دعم سلطان الدولة، وإلى دورة جديدة من الاضطهاد، وحوادث التمرد، والتنكيل.

---

(١) كولمان «يسوع والثوريون فى عصره – Jésus et les révolutionnaires de son temps» السابق. ص ٧٣.

إنما كان يسوع الناصرى يُعَلِّم من أجل تحطيم هذه السلسلة.

بيد أن اليقين بنذير يوم الله لا يقتضى أن يقول لنا يسوع: كيف يتعين على قيصر أن يتصرف فى هذا الموقف؟.

من أجل هذا لم يتعرف اليهود فيه على المسيح الذى كانوا ينتظرون.

لقد كانوا يؤملون مخلصا يبعث مملكة داود (بكل الأوهام المختلقة، عبر القرون، فى خيال الشعب، بوساطة هذا البناء السياسى).

وها هى ذه القوة الإلهية تبرز فى التاريخ فى ملامح أقل الناس وأضعفهم، بدلا من أن تأتى بملك منتصر

لقد كان هذا تغييرا أساسيا فى فكرة الرب ذاتها.

كانت عظمته تتجلى حتى آنئذ فى بطش ملك، فإذا هى تتجلى بيسوع فى الفقر، والتجرد من كل قوة مادية، وإذا هى تتجلى، بقدر ما يرى البشر، فى إخفاق ذلك الذى يخونه حتى تلاميذه أنفسهم فى اللحظة الحاسمة، ويتنكرون له، أو على الأقل يبتعدون عنه، حتى يصمت فى قاع الموت، فى أبشع صورة، صورة تعذيب العبيد الآبقين: الصلب.

كيف كان اليهود يستطيعون أن يتعرفوا بهذه الملامح على مسيحهم، ووريث داود؟، وهو ما يظهر فى قالة حاجَّىْ عمواس: «ونحن كنا نرجو أنه المزمع أن يفدى إسرائيل» [لوقا ٢٤/٢١].

إن هذه الرسالة ما كان لها أن تدرك إلا ببصائر أخرى: بصائر أولئك الذين ألهمهم الإيمان بالبعث، ففهموا حينئذ المعنى الحقيقى للبشارة: كل شىء ممكن.

فى لغة القُصَّاص وأحاديثهم الشعبية يتجلى ذلك فى بعض الخوارق: عميان يبصرون، ومشلولون يمشون، وموتى يُخْرَجون، كل المجازات تتلاقى عند معجزة واحدة هى معجزة حياة جديدة، تحطم كل انحرافات القوة، والشهوة، والجبروت، التى هى شريعة هذا العالم.

إن كان أحد لا يولد من فوق (من جديد)[1] لا يقدر أن يرى ملكوت الله» [يوحنا ٣/٣].

وعندما يشهد يسوع: «أنا[1] لست من العالم» [يوحنا ١٧/١٤]، فإن ذلك لا يعني أنه استسلم أمام هذه الانحرافات، وقوانينها، وأغلالها، حتى يهرب إلى عالم آخر، بل إنه يعلن على العكس من ذلك أن وجود عالم آخر ممكن، وأنه لا يخضع لهذه الانحرافات، وتلك القوانين وأغلالها.

* * * * *

(١) ما بين القوسين يطابق النص الفرنسي. (المترجم).

(٢) يقصد أن «ملكوت الله» لأن السياق من حديث الرب. (المترجم).

٢ – المسيحية الفلسطينية

هذه الرسالة الرائعة شُوِّهت – لأقل من ثلاثة قرون بعد موت يسوع الناصرى – وذلك عندما أصلح الإمبراطور قسطنطين، فى مجمع نيقية (عام ٣٢٥ م) المفهوم التقليدى الملكى عن الرب: المعذب، الذى أعاده إلى الذاكرة التنظيم الإمبريالى الرومانى، والفلسفة الإغريقية، فبدا فى عمق القباب الذهبية الشامخة فى بيزنطة، فى سمات امبريالية متسلطة للرب المهيمن، والإله القادر على كل شيء، ولم يعد ذلك الرسول التائه فى فلسطين، إذ لم يصوَّرْ فى هيئة قائد بيزنطى كما فى قبة رافن المصنوعة من الفسيفساء.

فإلام صارت فلسطين تحت هذا الحكم البيزنطى، الذى يهيمن عليه القيصر، حيث كانت الكنيسة تشيد مبانيها على طراز الطبقية الإمبريالية، وتصوغ عقائدها بلغة الثقافة الإغريقية، المباينة تماما لرسالة يسوع الفلسطينى؟.

لقد تضاعفت الكنائس فيها، إذ أمرت هيلين، أم قسطنطين، ببناء كنيسة فى بتليم Bathléem، وعلى جبل الزيتون، وأعلى قسطنطين كنيسة قبر السيد المسيح Saint - Sepulcre، فى أورشليم، وجعل منها أسقفية.

كان هذا هو عمل البنائين الرومان للكنائس الحجرية.

ولكن إذا كان مطران أورشليم مكير Macaire قد تلقى تهنئة فى مجمع نيقية لدفاعه عن الأرثوذوكسية، منذ منشور – ميلانو الذى حول المسيحية المضطهدة إلى كنيسة تمارس الاضطهاد، ومن ثم أخذت الهرطقة، (الابتداع) تتقدم فى فلسطين، فقد حدث على الجانب الآخر أن أسقف الإسكندرية، آريوس Arius المولود حوالى عام ٢٥٦ م، والمتوفى عام ٣٣٦ م، ولعله من أصل ليبى، قد تأثر بفكر فيلون Philon اليهودى، وأفلوطين، (وقد كانت الإسكندرية أنشط مركز للثقافة الهلينية، واليهودية، والمسيحية)، هذا الأسقف أدين، فى مجمع نيقية، لأنه لم يقبل العقيدة التى أعلنت آنئذ، والقائلة بأن – يسوع مشارك فى جوهر الأب، «Consubstantiel» (وهو بالإغريقية Omoousios)، وهذا المصطلح لم يرد مطلقا فى الإنجيل، ولم يكن ذا معنى إلا استمدادا من الفلسفة الإغريقية (الغريبة عن المفهوم السامىّ، وعن الإنجيل)، فلسفة الذات L' essence، والجوهر La substances، والأقانيم. Hypostases

ولقد اتبعت أغلبية الكهنة، والشعب المسيحى فى فلسطين - آريوس، على الرغم من احتجاج مطران أورشليم، وعلى الرغم من عقوبة الموت التى كان يصدرها الإمبراطور ضد أى إنسان يخفى أى مكتوب لآريوس، بدلا من تقديمه للإحراق.

لقد كانت النصرانية الفلسطينية ذات الأصول تقاوم أرثوذوكسية الكنيسة، التى صارت إغريقية - رومانية، وذلك فى نقطة أساسية هى: أكان يسوع ربا، (من نفس جوهر الرب، وهو ابنه الوحيد)؟.

أو أنه رسول الرب، وابن للرب كسائر الطائعين للأب «طوبى لصانعى السلام، لأنهم أبناء الله يدعون»، [متى ٥/٩]، أو كما جاء فى [لوقا ٢٠/٣٦] من أن المؤمنين «أبناء الله لأنهم أبناء القيامة».

فآريوس يقول[١]: «إنهم يضطهدوننا لقولنا: إن للابن بداية، والرب بلا بداية»، وهو يذكر أن كلمة الله ليس لها قبل ولا بعد، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يتكلم عن ميلاد بالنسبة إلى رسولها.

ويحدد آريوس فى رسالة الإيمان التى وجهها إلى الإسكندر فى الإسكندرية: «إننا نعترف بإله واحد، لم يولد قط، وهو وحده بلا بداية... إله الشريعة، والأنبياء، والعهد الجديد، الذى ولد ابنه الوحيد قبل الأزمان الخالدة... والذى أوجده لا كسائر المخلوقات، ولا كسائر الكائنات المحدثة، إن هذا المحدث بيد الأب ليس إشعاعاً من لدنه، وليس جزءا من جوهر الأب،...

---

(١) رسالة آريوس إلى يوسيب دى نيكو ميدى Eusébe de Nicomedie (مع الأصل الإغريقى)، فى «هرطقة آريوس وإيمان نيقية» للأب افريم بولاران باريس ١٩٧٢ - ص ٤٤

فلقد خلق قبل الأزمان، وقبل القرون... وخارج الزمان»[1].

أما القديس هيليردى بواتييه Saint Hilaire de potiers فقد عامل اريوس على أنه «أفعى ذات فم ملىء بالسم»، وهو يعتبر أن ما مضى إليه آريوس من آراء هو من باب النفاق، ويقول: «إنه يقر بأنه لا يوجد سوى إله واحد، وهو وحده الحق، حتى يمنع ابن الرب أن يكون ربا»[2]

هذه المناقشة اللاهوتية تتيح لنا فقط أن نفهم لماذا كان انضواء هؤلاء الأرينيين (أتباع آريوس) فى ظل الإسلام سريعاً جداً، فقد اعتنقوه عندما ظهر، وهو الذى قام على أساس رفض ألوهية عيسى، واتخذ من هذا الرفض نقطة مركزية فى جداله مع الكنيسة فى فلسطين، وفى سائر البلاد التى كانت توجد فيها الأرينية أو ما شابهها (من النساطرة والبريسليين.. الخ).

فالوحدانية فى الإسلام، ولدى الأرينيين، تنفى الثالوث، كما تمت صياغته فى لغة الثقافة الإغريقية، فى نيقية[3]

---

(١) السابق ص ٥٠

(٢) قدم سانت هيلير دى بواتييه لهذه النصوص ترجمة لاتينية فى كتابه « La Trinité – الثالوث – جـ ٤ فصل ١٢ – ١٤ ط. ديسكلين دى بروير Des Clée de Brouwer ١٩٨١، جـ ١ ص ١٣٥ إلى ١٣٧، أما بالنسبة إلى رسالة يوسيب فارجع إلى الكتاب السادس، فصل ٥ – ٧، وبالنسبة إلى رسالة الإيمان إلى الاسكندر (جـ ٢ ص ١٤ – ١٧) مع رفضه.

(٣) كتب المتصوف المسلم الفارسى روزبيهان الشيرازى (١١٢٨ – ١٢٠٩)، وقد تخلص من اللفظ الإغريقى وحساسيته، يقول: «من قبل أن توجد العوالم، ومصير العوالم، كان الكائن الإلهى هو ذاته الحب، والمحب والمحبوب» – «ياسمين المؤمنين بالحب» «le Jasmin des fidéles d' amour» طبعة ميزنوف باريس ١٩٥٨ ص ١١١.

لقد كانت المسيحية «الأرثوذوكسية» تتطور فى الصوامع والأديرة، وقد كتب رابوبورت Rappoport فى مؤلفه «تاريخ فلسطين – L' histoire de la palestine» يقول: «صارت فلسطين أرض القديسين والنساك، أرض الرهبان والصوامع، أرض الراهبات والأديرة، أرض الكنائس وما تضم من رفات» [1].

وأظهر الأمثلة على هذا التطور الروحى المسيحى دير القديس سباس Saint sabas بالقرب من القدس، على الشاطىء الأيسر من سيدرون [2] Cédron، ففى عام ٤٧٨ م جاء أحد النساك، وكان قد تاه خمس سنوات فى صحراء يهوذا، وهو الذى سوف يصبح فيما بعد القديس سباس – فاستقر فى مغارة أمام الدير الذى توجد فيه اليوم آثاره، وقد تكاثر أتباعه، وفى عام ٥٠١ كان قد انتهى بناء دير من أعظم أديرة الشرق.

لقد مر بهذا الدير قديسون عظام، وعاشوا فيه، من أمثال: يوحنا الصامت Jean le silentiaire أو القديس تيودور، ثم جاء بعد ذلك القديس سيريل دى سيتوبوليس Saint Cyrille de Scythopolis، وإيتن لوميلود Etienne le Melode، والقديس تيودور ديدس Saint Théodore d Edesse، وجاء فى القرن السابع بخاصة – الشخصية البارزة القديس يوحنا الدمشقى Saint jean de Damas (٦٧٥–٧٥٣ م)، الذى عاش فى هذا الدير ثلث قرن (من ٧٢٠ إلى ٧٥٣م)، وكتب فيه كل عمله، فأنشأ فى شكل مناظرة، نقطة انطلاق للحوار بين النصارى والمسلمين.

---

(١) انجيلوس، رابوبورت: «تاريخ فلسطين – l' histoire de la palestine» – طبعة بايوت ١٩٣٢ ص ١٦٠.

(٢) مجرى ماء فى يهوذا، يفصل أورشليم عن جبل الزيتون، ويصب فى البحر الميت، (المترجم).

وفى فلسطين كانت الحياة المسيحية متوترة، فإن نساكها كانوا ينتشرون فى صورة جماعات من الرهبان، يعيشون معا فى مثل دير القديس تيودور، حيث كان لهم المأوى والمشاغل التى كانوا يمارسون فيها حرفهم حول المبانى المخصصة لرجال الدين، وللرهبان الذين يعيشون منعزلين فى صوامعهم، فى الجبل، أو فى الصحراء.

وأخيرا ففى الأديرة الشرقية كان هذان النمطان من الحياة الدينية يرتبطان: فقد كان النساك يحيون فى عزلة الأديرة، أو فى الخلوات المعزولة، وكانت أيامهم تقسم بين العمل اليدوى (وهو بصورة عامة تضفير السلال بالأسل الذى كان ينبت على ضفاف الأردن)، وترنيم المزامير، والتأمل، ونسخ الكتب، أو نصوص الآباء، وفى مساء السبت يعود الجميع إلى الدير، الذى كان يضم كنيسة، ومطعما، حتى يؤدوا معا صلاة الأحد.

وبعد مجمع نيقية (عام ٣٢٥ م) الذى وجه ضد الهرطقة الأرينية، ومجمع شارلسيدوان (عام ٤٥١ م) الذى وجه ضد النسطوريين، أصبح الحكم البيزنطى فى كل فلسطين متصفا بتعصب الأباطرة البيزنطيين، الذين نظموا الاضطهاد المستمر ضد اليهود والسومريين، كما مارسوا ضد النصارى المهرطقين ، الأرينيين، والنساطرة، والقائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح، وقد كانوا جميعاً يضمهم قاسم مشترك هو أنهم لا يرتضون التعريفات (غير المعقولة لدى غير الإغريق) للثالوث الذى أصبح عقيدة محكمة.

ومما له دلالته أنه عندما احتل قورش الثانى إمبراطور فارس الساسانى - فلسطين (عام ٦١٤م) انضم إليه اليهود بقيادة بنيامين دى تبرياد Benjamin detibériade. وبعد خمسة عشر عاما (عام ٦٢٩م)، عندما استرد الإمبراطور البيزنطى هرقل فلسطين - عادت أعمال الاضطهاد والإبادة ضد اليهود، وضد المهرطقين.

الفصــل الرابع

فلسطين المسلمـة



١ - المرحلة العربية (من القرن السابع إلى العاشر)

عندما دخل المسلمون فلسطين عام ٦٣٨ م - كان ذلك كما وصفه البلاذرى (المؤرخ المسلم فى القرن التاسع) - فتحا سهلا (١)

والواقع أن ذلك لم يكن فتحا، ولا انتصارا حربيا، بل كان تحريرا، ذلك أنه فى عام ٦٣٨ م لم يكن الذين وصلوا إلى فلسطين هم العرب، ولكنه الإسلام، فقد كان العرب فيها منذ أكثر من ثلاثة الآف عام، منذ الهجرة السامية الأولى، القادمة من الجزيرة العربية، والتى كانت تعيش متبدية على طول «الهلال الخصيب»، يصدق ذلك على الأموريين، والكنعانيين، والعبرانيين، الذين كان لهم نفس الأصل العرقى، وهم ينتمون إلى نفس المجموعة اللغوية.

وتدل المخطوطات الإغريقية التى عثر عليها فى الأردن أن أغلبية السكان فى زمن الرومان كانوا عربا، وأن مهاجرين آخرين قدموا، كسائر الموجات السابقة منذ ثلاثة الآف عام - من الجزيرة العربية، وقد أنشأوا فى القرن الرابع بعد ميلاد المسيح مملكة الأنباط فى جنوب فلسطين.

فالذى وصل (عام ٦٣٨ م) مع الموجة الجديدة من المهاجرين القادمين من الجزيرة العربية - إنما هو الإسلام.

والإسلام لا يقنع بأن يكون مجرد دين كسائر الأديان، ولكنه كمال الرسالات الإلهية التى أوحيت من قبل فى منطقة الهلال الخصيب.

والله سبحانه يقول: «شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً، والذى أوحينا إليك، وما وصَّيْنَا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» [الشورى/١٣]، ويقول: «قولوا آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا، وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ، وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربِّهم، لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون» [البقرة/١٣٦ وآل عمران/٨٤].

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان - ط غوية - ليدن ١٨٦٦، C×٧١، ١٢٦ ص ١٣٢.

فقد جاء الإسلام إذن إلى الفلسطينيين اليهود باعتبارهم ورثةَ إبراهيم وموسى، وإلى النصارى، من قِبَلِ أنه شرَّفَ عيسى، لا إلها (كما أعلنه مجمع نيقية بلغة غير معقولة، تقوم على التخيل الإغريقي)، بل رسولا لله، ونبيا، وداعيا ومسيحاً «إنما المسيح عيسى بنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُه، ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه» [النساء/١٧١].

وهكذا يقرر القرآن مفهوم عذرية مريم.

وعلى خلاف ما أبداه أباطرة بيزنطة من عدم تسامح، فقد بدا وصول الإسلام محرراً لليهود، وللنصارى «المهرطقين»، أى: لأغلبية سكان المنطقة، باستثناء المحتلين، إغريقا، أو بيزنطيين.

أما نصارى اليمن فقد كانوا يؤمنون بوحدة طبيعة المسيح[١] Monophysistes، ثم صاروا بعد الغزو الفارسى عام ٥٩٧ م – نساطرة[٢]، شأن نصارى سورية، أما غساسنة الشمال فقد كانوا هم أيضا ممن يرفضون الطبيعة المزدوجة، ويعتبرونه إلها خالصا، وكانت أكثرية اللخميين نساطرة. وقد انتشرت الأرينية[٣] فى فلسطين كلها، حتى إن الكنيسة الشلسيدونية، أعنى الكنيسة الرسمية، الممثلة للأرثوذوكسية، التى تم تعريفها فى مجمعى نيقية وشلسيدوان، اللذين كانا موجهين بوساطة أساقفة أنطاكية فى سورية، وأساقفة أورشليم فى فلسطين – هذه الكنيسة لم تحصل على سلطتها إلا من الإمبراطور البيزنطى، الذى كان يضع تحت تصرفها قوته الرادعة.

ولهذا، فعندما اقترب المسلمون من سورية وفلسطين، استقبلوا استقبالا أدبيا من قبل مجموع السكان، الذين كانوا عربا مثلهم، وهم على رأيهم الدينى، مستعدون أن يعتنقوا وحدانية الإسلام الخالصة، الإسلام الذى يرى أن إبراهيم، وموسى وعيسى، رسل الله، وهم أنبياء مبشرون بمحمد، مرهصون بخبره.

---

(١) هم الذين يرفضون الطبيعة المزدوجة للمسيح، ويعتبرونه إلهيا خالصاً.

(٢) وهم الذين يرفضون الطبيعة المزدوجة للمسيح، ويعتبرونه إنسانا خالصاً.

(٣) كان الأرينيون يرون أن المسيح كلمة غير مخلوقة لله.

كتب بار عبرايوس (بار العبرى) يقول: «لقد أرسل رب الثأر العرب ليخلصونا من الرومان، لم تعد إلينا كنائسنا، لأن كل واحد أمسك ما كان يملكه، ولكنا كنا على الأقل قد تخلصنا من وحشية الإغريق، ومن بغضهم لنا.»[١].

هذا الاستبداد القمعى الذى مارسه بعض الأباطرة البيزنطيين يتيح لنا أن نفهم لماذا تقرر مصير سورية وفلسطين فى معركة واحدة، هى معركة اليرموك[٢] التى حدثت فى (٢٠ من أغسطس عام ٦٣٦ م)[٣]، ولماذا سُحِقَ الجيش البيزنطى، لقد انفجر قبل المعركة تمرد بين النصارى الأرمنيين فى الجيش الإمبراطورى، وفى غمرة القتال انسحب النصارى العرب السوريون من الجيش البيزنطى، وحينئذ وجد المحتل الإغريقى نفسه وحيداً، وقد انفض عنه الشعب كله، فانسحق، ووصلت الجيوش الإسلامية إلى دمشق دون قتال.

وفى دمشق، قرر سكانها، بعد انسحاب الفرقة البيزنطية، أن يستسلموا[٤]، وتولى أحد كبار موظفى الإمبراطورية، وهو عربى نصرانى، واسمه: منصور بن سرجون[٥]، حاكم المدينة منذ رحيل المستعمرين – تولى المفاوضة لتسليم المدينة، فأنقذ حياة جميع السكان وأموالهم.

---

(١) بار عبرايوس Chronicon Ecclesiasticum – طبعة باللاتينية لأبيلوس ولامى، ثلاثة مجلدات من ١٨٧٢ – ١٨٧٧، جـ ١، عمود ٢٧٦، وقد كان لميشيل السورى حكم مماثل سجله فى كتابه Chronique universelle – ترجمه إلى الفرنسية ج. ب شابور – أربعة مجلدات ١٨٩٩ – ١٩١٠ – جـ ٢ ص ٤٣١ – ٤٣٢.

(٢) نهر اليرموك أحد روافد نهر الأردن.

(٣) يوافق أوائل رجب سنة ١٥ هجرية. (المترجم).

(٤) «كانوا يتطلعون، نتيجة اضطهاد بيزنطة لهم – إلى أى نظام يخلصهم من الاضطهاد الشنيع الاغريقى» هذا هو ماكتبه المونسنيور نصر الله فى (القديس يوحنا الدمشقى) ط هاريسا، باريس ١٩٥٠ ص ١٩.

(٥) منصور بن سرجون هو جد يوحنا الدمشقى.

وفى أورشليم يطلب البطريرك النصرانى صفرون السلام، شريطة أن يحضر الخليفة بنفسه إلى أورشليم، ليضمن شروط الصلح، وقبل الخليفة. ويصف المؤرخ رابو بورت مَقدِمَه وصفا رائعا فيقول:

«أما سكان أورشليم الذين اعتادوا أن يروا الأباطرة البيزنطيين فى أبهتهم، وأرديتهم المطرزة بالذهب - فقد كان مرآهم للخليفة مشهدا رائعاً، ذلك أن خليفة النبى كان يرتدى بردة رثة من وبر الإبل، وقد اخترق أورشليم على بعير يحمل كل أمتعته، وما يكفيه من تمر ليوم واحد، فكان هذا التناقض بين بساطة المنتصر وتقشفه، وبين الهوس الباذخ الذى تعود على الظهور به، ليس الأباطرة البيزنطيون وحسب، بل ممثلوهم من ولاة الاقاليم - كان هذا التناقض مذهلا، لم يلبث أن أحدث تأثيره العميق فى شعب حانق على حكومةٍ كانت فى نظره استبدادية جشعة[1]».

ويذكر المؤرخون العرب أن الخليفة عمر لم يقبل الدعوة التى وجهت إليه من البطريرك النصرانى أن يصلى فى إحدى كنائس أورشليم، مخافة أن يأتى بعض المسلمين المتحمسين، فيتخذوا ذلك ذريعة لإقامة مسجد مكان الكنيسة، تخليدا لذكرى صلاته فيها.

ولم يخرج من فلسطين سوى المستوطنين القدامى والمحتلين من الإغريق.

وقد أعلن الخليفة نداء إلى أهل الكتاب (من يهود ونصارى ومسلمين) أن يتحدوا، فضمن إعلانه أمن الأشخاص والأموال، وفرض احترام رهبان النصارى، وذلك بألا يرهب أولئك الذين يعيشون منعزلين عن الناس حتى

---

(١) انجيلوس رابوبورت - السابق ص ١٧٧.

يستمروا فى أداء عباداتهم[1]، وهنا أيضا يشهد رابوبورت، وهو يكتب فى مؤلفه «تاريخ فلسطين Histoire de la Palestine» من وجهة النظر اليهودية: «يجب أن نعترف بأن إعلانا كهذا فى بداية القرن الوسيط (وقد التزمت به كل الجيوش الإسلامية بعامة) هو إعلان حافل بالإنصاف، فهو يتنفس عدالة وتسامحا، وما استطاع أباطرة بيزنطة ولا أساقفة الكنيسة أن يعبروا مطلقا عن مشاعر من هذا القبيل باسم ذلك الذى دعاهم إلى دين الحب.

---

(١) نص كتاب الصلح بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبين أهل إيلياء على أنه: «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص)، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن قام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه، وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا، عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية».

شهد على ذلك: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبى سفيان. [تاريخ الطبرى سنه ١٥ هـ] (المترجم).

إن وثيقة كإعلان الخليفة كانت كفيلة بإحداث تأثير عميق، لا فى روح اليهود فحسب، بل فى روح نصارى سورية وفلسطين، وبعضهم كان يعانى من الظلم والطغيان،فى حين كان الآخرون يعانون من اضطهاد الكنيسة التابعة للدولة، جَرَّاءَ ما يعتنقون من آراء دينية مختلفة، وكان الجميع يتحملون أغلال الموظفين وأعباء الضرائب الباهظة».

لقد كانت سياسة الخلفاء الأمويين الأوائل سياسة ليبرالية لدرجة أن البطاركة من أمثال منصور بن سرجون ومن بعده ابنه، ثم ابنه الأصغر الذى يطلق عليه الآن: (القديس يوحنا الدمشقى) – كانت لهم وظائف المراقبة العامة للمالية، أى: إنهم كانوا يمثلون الشخصية الثانية فى الدولة الإسلامية.

ولم يستقل يوحنا الدمشقى إلا عندما قرر عمر الثانى[1] (عام ٧٢٠ هـ) ألا يمكَّنَ نصرانى من الوصول إلى الوظائف العليا للدولة إلا إذا أسلم، وهنا انسحب إلى دير القديس سباس القريب من القدس، ولم يتعرض فى معتكفه لأى أذى من قبل المسلمين، حتى مات.

لقد كان التناقض هائلا بين مسلك المسلمين واستبدادية أباطرة بيزنطة، فعندما كتب القديس يوحنا الدمشقى – إبان أزمة محاربة الأيقونات (هدم الصور)[2]– دراسته اللاهوتية الرائعة عن الأيقونات[3]، القائمة على التجسيد،حينئذ جمع الامبراطور البيزنطى قسطنطين كوبورونيم (عام ٧٥٤م) مجمعا من ٣٣٨ أسقفا، لكى يصدروا ضد يوحنا الدمشقى (منصور بن سرجون) حكما قاسيا بالإدانة:

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز – خامس الخلفاء الراشدين. (المترجم).

(٢) مذهب الإيكونوكلازم iconoclasme – مذهب مسيحى دينى قاوم التعبد للأيقونات والصور والتماثيل الدينية، وهو مذهب متأثر بالأفكار الاسلامية فى تحريم التجسيد (المترجم).

(٣) القديس يوحنا الدمشقى (الإيمان الأرثوذوكسى) متبوعا بكتب (دفاع عن الأيقونات) – نشر المعهد الأرثوذوكسى الفرنسى للاهوت، باريس ١٩٦٦.

«اللعنة على منصور، الذى خان المسيح... والذى اعتنق الأفكار المحمدية[1]، اللعنة على عدو الإمبراطور، وعلى فقيه الكفر، وعلى عابد الصور، إن الثالوث يبعد هؤلاء الثلاثة جميعا»[2].

فهذه صورة من الاستبداد نضعها فى مقابل صورة إسلامية أخرى، كان القديس يوحنا الدمشقى يعيش فى دير القديس سباس، فى فلسطين التى صارت مسلمة، وقد استطاع أن يجادل بكل حرية ضد مبادىء الإسلام ذاته، وأن يدافع عن الآراء النصرانية الرسمية القائمة على التثليث، وعن ألوهية عيسى، وعن رفض الاعتراف بمحمد نبيا، وقد أمكنه فى كتابه عن الهرطقة: (De-Haeresibus) أن يكتب قائلا: «إن نبيا مزيفا يسمى محمداً، كانت له معرفة بالعهد القديم والجديد، وهو ولا شك قد التقى وكاهنا أرينيا، فأنشأ هرطقته الخاصة[3]» ثم صاغ بعد ذلك «رفضا» لأسس الإسلام[4].

وقد استطاع أحد تلاميذه، وهو تيودور أبو قرة (المولود حوالى عام ٧٥٠م) أيضا أن يكتب مؤلفا صغيراً قائما على الجدل العنيف

---

(١) هذا الاتهام يبدو منافيا للعقل، إذ إن المسلمين يحرمون الصور أيضا.

(٢) حشر ضمن اللعنة مع يوحنا الدمشقى جورجيس القبرصى، جيرمان القسطنطينى.

(٣) تاريخ المجامع Histoire des conciles جـ ٣ ص ٧٠٣ – ٧٠٥.

(٤) يرى بعض المؤرخين أن هذا الفصل (١٠١) من كتاب يوحنا عن الهرطقة قد يرجع إلى تاريخ لاحق، وهذا لا يغير شيئا من الواقع الذى يقول: إن نصرانيا – فى عهد الخلفاء – استطاع أن ينتقد أسس الإسلام، على حين أن معركة حول الأيقونات جلبت عليه لعنة المجتمع.

«ضد بعثة محمد»[١] وكذلك عن «محمد مملوك للشيطان[٢]»، ثم كتب تبعا للتعاليم الشفوية التى تلقاها عن القديس يوحنا الدمشقى «مناقشة بين عربى مسلم ومسيحى»[٣]» مهاجما المشكلات الجوهرية فى علم التوحيد الإسلامى، دون أن يقلقه أدنى شيء من ناحية الخليفة، على حين أنه، وقد كان كاهنا فى حران، أبعد عنها بأمر من البطريرك تيودور الأنطاكى، فلجأ إلى أورشليم عام ٨١٣ م، لدى البطريك توما، وهذا هو ما قرره ميشيل السورى[٤].

لقد شهدت فلسطين، فى عهد الخلفاء العرب أربعة قرون من السلام والرخاء.

وكانت أورشليم (القدس) هى المدينة المقدسة للمسلمين، ولليهود، وللنصارى، على سواء.

وبعد وفاة الخليفة على، زوج فاطمة، وخَتَن النبى، اجتمع الرؤساء العرب فى أورشليم عام ٦٦٠ م، ليعلنوا معاوية ملكا، مؤسسا لأسرة الأمويين، فبادر كما يقول المؤرخون العرب إلى الصلاة فى جلجثة Golgotha[٥] ثم فى جثسمانى Gethsemani[٦]، وبعد خلافة ابنه يزيد، (٦٨٠ - ٦٨٣)، وعندما تولى الخلافة عبد الملك، بنى فى أورشليم (القدس) المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، رمزاً لوحدة الأديان الإبراهيمية الثلاثة: اليهودية، والنصرانية، والإسلام.

---

(١) Contre la mission de Mohamed.

(٢) Mohamed Possedé du démon.

(٣) Coutroverse eutre un Sarrazin et un chrétien.

(٤) ميشيل السورى «تاريخ - Chronioue» - ط. شابو، باريس ١٨٩٩ و ١٩١٠ جـ ٣ ص ٣٣ - ٣٤.

(٥) المكان الذى تقول الأناجيل: إن المسيح صلب فيه، ففى [متى ٢٧/ ٣:٤]: «أتوا إلى موضع يقال له: جلجثة، وهو المسمى: موضع الجمجمة» (المترجم).

(٦) المكان الذى صلى فيه المسيح قبل حادثة محاولة صلبه، وقد جاء فى إنجيل [مرقص ١٤/ ٣٢]: «وجاءوا إلى ضيعة اسمها جثسمانى» فقال لتلاميذه: اجلسوا ههنا حتى أصلى» (المترجم).

وأول الأعمال الإسلامية وأجلها، قبة الصخرة وقد بنيت فى الواقع (عام ٦٨٧ م)، أى: بعد وفاة النبى ﷺ بنصف قرن. إن «قراءة» واعيةً لهذا الأثر، بحثا عن مغزاه الروحى الداخلى – تدلنا على أنه يحمل نواة النظرية العامة لما يسمى «بالفن الإسلامى»، والذى هو أساسا تعبير عن الإيمان القرآنى.

إن هذا الفن لا يمكن حل طلاسمه إلا انطلاقا من متطلبات هذا الإيمان، وتعتبر قبة الصخرة أول مثال رائع فى هذا المجال، فالزاوية التى وضع عليها البناء، وأبعاده، ونِسَبُه، والأشكال التى تغلب عليه، والألوان التى تحركه، وشبحه الخارجى، وسيمفونية مجاله الداخلى كل ذلك يتدفق من الإيمان الذى ألهم فكرة إنشائه.

ولربما كان من اليسير، الذى لا طائل تحته، أن نبدأ من الخارج، باحثين عن المنابع البيزنطية، أو السورية، أو الفارسية، أو الهلينية، والرومانية، لهذا العنصر، أو ذاك التكنيك المعمارى، لهذا الدافع وراء الزخرفة، أو ذلك الاتساق الرياضى فى النظام.

قد يكون ذلك كله حقا، ولقد حاول من قبل مؤرخون، وأثريون، ونقاد فن، ومعماريون – أن يقوموا بهذا التحليل، مثبتين أن بناة القبة، وفنانيها، وعمال الفسيفساء، ، الذين شاركوا فى إبداع المبنى – قد جاءوا من جميع الأنحاء الجديدة فى الإمبراطورية العربية، وأنهم جلبوا معهم فنونهم، وأساليب عملهم.

نعم، ولكن الوقوف عند هذا التحليل، دون المضى إلى الداخل، وإلى الدافع المركزى الذى تم على أساسه التركيب الجديد – إنما يعنى إغفال الجوهر، المبدأ المنظم لكل شىء، والذى يغير الأشكال المستعارة يمنحها حياة جديدة، فى مجموع لم ير من قبل، وليعبر عن إيمان موحد من خلال تنوع الثقافات، التى كان يستولدها من جديد، وقد كان يستخدم لغتها.

وأول خطوة هى اختيار الموقع، وأهمية الوسائل المستخدمة (وقد قرر الخليفة أن يرصد لهذا البناء جميع الجزية التى فرضت على مصر خلال سبعة أعوام).

ولقد يكون من باب السخرية أن نقتصر على الحكاية أو حتى على التفسير التاريخى الزمنى، فنقول: إن الدافع هو رغبة الخليفة فى أن «يتحدى العالم» بأن يبنى أثرا إسلاميا أجمل من آثار كل الأديان المنافسة، ومحاولته أن يحول تيار الحجيج من مكة، حيث استولى على السلطة فيها متمرد هو عبد الله بن الزبير.

ولا ريب أن اعتبارات وحسابات من هذا القبيل ما كانت لتغيب عن قرار عبد الملك، ولكن صياغة شكل جديد للجمال، من أول محاولة، شكل سوف يفرض اتجاهه خلال ألف عام على الهندسة المعمارية، وعلى فن المسلمين، وعلى الإبداع الفنى فى القارات الثلاث - كل هذا ما كان ليفسَّر انطلاقا من الزهو السخيف، والطموح الفارغ، أو من مكائد ذات طابع وقتى.

إن محمداً لم يَدَّعِ مطلقا أنه ينشىء دينا جديدا، ولكنه يدعو كل الناس إلى الدين الأولى الذى عاصر يقظة الإنسان الأول، والذى كانت تضحية إبراهيم فى إجابته غير المشروطة على نداء الرب - هى المثال النموذجى له.

فلم يكن إذن صدفة من صدف التاريخ، أو نزوة من نزوات طاغية مستبد، أن تتوافق نقطة انطلاق الفن الإسلامى مع نقطة انطلاق الحياة الروحية للتقاليد الإبراهيمية، تقاليد اليهود، والنصارى، والمسلمين، فى أورشليم، حيث يحدد التقليد اليهودى والنصرانى مكان تضحية إبراهيم، بظهور واستشهاد يسوع، وهو، بحسب القرآن، الصخرة التى صعد منها النبى، من الأرض إلى السماء، كيما يتأمل الأمر الإلهى، من قبل أن يكتب دانتى «الكوميديا الإلهية» بستة قرون.

قامت قبة الصخرة على القمة التى تطلق عليها القصة الكتابية: جبل المريَّا «Morija»، حيث تهيأ إبراهيم لتنفيذ تضحية الإيمان العليا بذبح ولده الوحيد، فأوقف الرب يده، وفى هذا المكان بنى سليمان المعبد الذى خربه بختنصر، ثم أعاد بناءه هيرودس، فدكه الرومان.

وعلى المنحدر الصحراوى الذى تناثرت فيه الأنقاض بنى الخليفة عمر بن الخطاب - وكان دخل أورشليم عام ٦٣٧م - مسجداً بسيطا من الخشب، هنالك شيد الأموى عبد الملك القبة، قريبا جدا من قبة الكنيسة النصرانية، كنيسة قبر السيد المسيح، فى مدينة القدس، وهى شبيهة بها فى كثير من جوانبها.

وهكذا كانت قبة الصخرة رمزا لوحدة الإيمان الإبراهيمى، واستمراره: الإيمان اليهودى والنصرانى، والإسلامى.

وهكذا أيضا كان الشبح الخارجى للأثر معبرا عن الرسالة الجوهرية لهذا الإيمان: ففى الانتقال من مربع مكرر ينشئ مثمن الأساس، إلى القبة الكونية يتجلى الانتقال من الأرض إلى السماء، كما نجد فى أقدم تصور عن نشأة الكون فى الشرق الأوسط، ولا سيما فى العراق.

والقبة يتساوى قطرها وارتفاعها بصورة دقيقة (أقل بقليل من خمسة وعشرين متراً)، وهى ذات ارتفاع أعلى من قباب الكنائس البيزنطية، لأنها لما كانت من الخشب فإن ثقلها لا يحتاج - كعقود الحجر - إلى أكتاف أو إلى قباب تابعة لها، كتلك التى تثقل الهياكل الخارجية لكنيسة القديسة صوفيا، أو الآثار التى أنشئت على غرارها.

ولقد غطيت هذه القبة بالذهب منذ أنشئت، بفضل ما كان يتحلى به الرجلان اللذان نفذاها من تقوى، وهما رجاء بن حيوة، ويزيد بن سلام، فقد خصصا لهذا الغطاء الباذخ كل ما وضع تحت أيديهما من رصيد الثروات، لتحقيق هذا الأثر، الذى كان يبدو فى نظر الحجاج والمسافرين أشبه بجبل من النور العلوى، أو كأنه شمس متألقة عندما يسطع ذهب القبة مع أشعة الصباح، أو عند الاستواء، أو ساعة الغسق، فى فلسطين، شمس بكل ما تعكس من فروق دقيقة فى الألوان اللانهائية.

ولقد كان منحنى القبة منذ إنشائها، وقبل الإصلاحات المتتابعة، يتجاوزها بخفة، حتى يوحى بالحركة الصاعدة مما يذكر «بالسفر الليلى» (المعراج) الذى حدث للنبى فى الرحاب السماوية.

والقبة تقوم على بناء أسطوانى الشكل، يحمله مُثَمَّنُ أضلاع عن الأساس، يصور لك الأرض وكأنها بللورة كاملة، وكانت القشرة الأولى من فسيفساء الزجاج، تزيد فى جمال الأرض التى خلقها الله، بيد أن الخزف الحالى بزرقته الآسرة المتدرجة بين الكثافة والدكنة قد يذكرنا، ونحن ننتقل من الأسطوانة إلى الأرضية – بالانتقال من سطح تلاشت مادته، حتى صار شفافا، سطح ذلك التاج المحلق فى السماء، والذى يكون الشكل الأسطوانى، إلى حوائط مثمن الأساس، مع الغلالة الرقيقة من تربيعاتها اللازوردية، ومع طبقة قشرية مذهبة، ترق كلما نزلنا من الأسطوانة إلى الأرض، دون أن تكف عن ترشيح ضوء السماء المذهّب خلالها، وخلال القبة التى جاءها الضوء رسولا.

أما المربعات المرمرية المعرّقة فى القاعدة السفلى فتبدو وكأنها ترتعش، تحت الشعاع الأخير الذى بثه هذا الضوء السماوى.

وعلى إطار مجموعات الخزف المذهب، حيث لا يتوقف الظل والشمس عن المداعبة، ترى السلاسل ذوات الأقواس المتماسكة، وذوات الرسوم المتنوعة، من قوس لآخر، تتراقص فى دائرة حول المثمن، فلا يكاد يقطع استمرار هذه السلسلة سوى الأبواب، فى الجهات الأربع، وكأنها تحدد هذا المكان مركزاً للعالم.

وفى أعلى الأقواس تحيط بالمقام نقوش خطية ذات نمنمة دقيقة، هى آخر ترنيمة للأرض تسبح بحمد الله، قبل أن تبلغ تاج الأسطوانة، وإشعاع الخلود فى القبة، هانحن ندخل الآن فى مدينة الله، أو بالحرى فى عالم من الجمال الحقيقى، يقدم إلينا جمال الأرض صورة مجازية عنه.

فعلى الصخرة – أولا – تم فداء ابراهيم، على ما ذكرته التقاليد اليهودية والنصرانية، ومن الصخرة عرج بالنبى محمد إلى السماء، فهى المكان الذى يدرك الإنسان فيه بعده العلوى.

ويبدأ تكوين الأثر بهذه الصخرة، فليس شكل من أشكالها إلا وهو مرسوم ابتداء من خط رفيع بسيط.

فهناك أولا حلقة تحيط بنتوء الصخرة، عند قمة جبل المرِيَّا Morija، فهذه هى دائرة البناء، تقع إلى أعلى ببضعة أمتار، مجرد بداية للخط، ثم إن هناك مربعين مثبتين داخل هذه الحلقة، مائلين تسعين درجة، ليشكلا مثمنا فى هيئة نجمة،ثم إن امتداد أضلاع هذين المربعين المكونين للمثمن يحدد مكان الأعمدة، وأبعاد الواجهات، وهذه الواجهات بدورها تحدد صف الحوائط الخارجية للمثمن النهائى...

من هنا يبدأ التحول
فندخل فى عالم آخر

عالم آخر من الأشكال، كل ما فيه يأتى من السماء، كأنه الوحى، لقد قيل فى (معراج نامه) لمير حيدر: إن النبى محمداً حين وصل إلى السماء السابعة؛ رأى قبة سماوية ذات ألوان من النور، فهذه القبة هى التى تحاول قبة الصخرة أن تستدعيها، بزخارفها، وجدائلها، ونقوشها الأرابيسك، وفسيفسائها بلون بين الأرجوان والذهب، تبرزه حاشية سوداء من حروف كوفية مذهبة، تثير فى الذهن قصة الرسالة.

وتحت هذه النقوش ست عشرة نافذة، يدخل منها نور الله المصفى، من خلال زخارف زجاجية، فيأخذ النور لونا ماسياءوهو فى نزوله نحو الإنسان يرسم دعائم البناء بالنقوش البارزة والظلال، ومن خلال الأقواس، فالأعمدة تفصّل الفراغ، وزخارف الأرابيسك تضم الإنسان والأكوان، كيما تجذبهم إلى طريق الله، الحى دائما، الخالق دائما.

وتبرز كلمة الله المكتوبة فى أماكن تستأثر بالنظر، على هوامش القبة، وفى جوف المحراب، وعلى إطار البوابة، بل وعلى أفاريز الحوائط، وتحت تيجان الأعمدة، وفى كل مكان يُهْدِى فيه أى شكل إلى العين قاعدة انطلاق إلى اللانهائية، ويذكره، وهو ينطلق، بحساب الله.

لقد قيل فى القرآن: إن المؤمنين سوف يعرفون الفردوس وهو مقامهم الأبدى وذلك فى قوله تعالى: «أولئك هم الوارثون»الذين يرثون الفردوس، هم فيها خالدون»[1].

ولذلك ترى أن جو الجمال فى مكان كقبة الصخرة يعتبر بمثابة البشرى البعيدة لهم.

فإذا ما وضع الإنسان فى شبكة الإيحاءات الصوفية لزخارف الأرابيسك، وللإيقاع اللانهائى للأقواس، والأعمدة التى تجزىء الفراغ، ولجميع أشكال الجمال وألوانه التى تبعث الروح فى المادة، دون أن تخفى خطوط القوة فى البناء - فإن الإنسان يقع بمحدوديته فى قلب الخلود، حيث حياة الله وجماله، اللذان يعتبر هذا المقام رمزا لهما، فكل شىء هنا، من البناء إلى النور، يدمج الإنسان فى حياة أسمى من حياته اليومية، وهذا الرمز من الحجر يقول له: إن عالما آخر، عالما مغايرا لهذا العالم أمر ممكن، فهو يحرره من دفع الأشياء، ليدعوه إلى نداء آخر، إلى وعد آخر يدعوه إليه، وهو يهديه إلى وحدة الله وأبديته، فهو عندما يرجع البصر كرة أخرى إلى الأرض، ويتأمل صخرة فداء إبراهيم، حسب ما يقوله اليهود والنصارى، أو صخرة معراج النبى، كما يقول المسلمون يشعر بعودته إلى الصلصال الذى خلق منه، وكأنه لم يكن فى يد الله سوى هباءة حية من هذه الصخرة، هباءة فى لون العسل أو الذهب أو العنبر، وفى نور الله سبحانه، الذى لا نهاية لرقته ونفاذه، الله الذى خلقه بنفس الأمر الذى خلق به هذا الجبل، وتلك الأنجم، ثريات الدنيا، وقبتها، كما خلق هذا المسجد الذى صنعته يد الإنسان بأمر من الله.

---

(١) المؤمنون ٩ - ١٠.

هذه الوحدة التى تعبر عنها قبة الصخرة ، لم تكن رمزاً فحسب ، فإن المؤرخ رابو بورت يؤكد أنه « بعد أن فتح المسلمون فلسطين تحسنت أحوال اليهود كثيراً ، وتزايد نشاطهم العقلى ، وكانت قد أسست أكاديمية يهودية فى طبرية ، بعد الاحتلال الرومانى ، أسسها العالم التقى الربانى يوشنان بن زكّاى Jochnan Ben Zakkai ، وقد اتضح للمؤرخ أن المجتمع اليهودى بعد أن فقد حياته القومية الخاصة صارت الوحدة ونقاء الإيمان هما الطريق الجديدة التى كان على المجتمع اليهودى أن يرتبط بها ، وأن تفسير كتابات هؤلاء الربانيين يعتبر أساس هذه الظاهرة التاريخية الجديدة : اليهودية Le Judaisme ، وقد قام يوشنان بن زكّاى ، تلميذ الربانى الشهير هليل Hillel بتطوير مدرسة (التّنئيم)[1] أى : المعلمين ، التى أسسها أستاذه ، فلما هدم تيتوس Titus المعبد فى أورشليم حصل يوشنان بن زكاى على إذن من الإمبراطور بإنشاء مدرسة فى ينى Yabné (Yamnia الإغريقية) ، ليواصل فيها دراسة التوراة .

وبعد عقيبا بن يوسف ، الذى قتله الرومان عام ١٣٢ م أنجز يهوذا[2] فى فترة حكمه مجموعة ملفقة من التوراة الشفهية التى تكمل التوراة المكتوبة (الأسفار الخمسة ، التى يطلق عليه النصارى : Le Pentateuque) .

---

(١) التنئيم : هم رواة المشنا ، وقد توالت طبقاتهم على أجيال هى :

١ – الطبقة الأولى ، وتمتد من سنة ١٠ إلى سنة ٨٠ ميلادية .

٢ – الطبقة الثانية ، وتمتد من سنة ٨٠ إلى سنة ١٢٠ ميلادية .

٣ – الطبقة الثالثة ، وتمتد من سنة ١٢٠ إلى سنة ١٣٩ ميلادية .

٤ – الطبقة الرابعة ، وتمتد من سنة ١٣٩ إلى سنة ١٦٥ ميلادية .

٥ – الطبقة الخامسة ، وتمتد من سنة ١٦٥ إلى سنة ٢٠٠ ميلادية .

٦ – الطبقة السادسة والأخيرة ومعظمهم من الشباب المعاصرين ليهودا الناسى ومن تلاميذه . (الفكر الدينى اليهودى ، د . حسن ظاظا) (المترجم) .

(٢) هو يهودا هاناسى (١٣٢ – ٢١٧) . (المترجم) .

وقد أطلق على هذا التدوين للتقاليد الشفوية اسم: «المشنا»[1]، ثم أخذ هذا الكتاب شكله النهائى فى القرن الرابع[2]، باسم «التلمود»، ومعناه: دراسة (التوراة)، وقد ألف التلمود الفلسطينى فى أكاديمية طبرية، وهو يعتبر نقطة تجميع اليهود خلال ألف سنة، وبه اتجهت اليهودية إلى أن تكون دولة قومية.

وقد أمكن بفضل الخلفاء المسلمين وحدهم نقل أكاديمية طبرية إلى أورشليم، وبذلك أصبحت مركز إشعاع عقلى، حيث جرى تثبيت النص العبرانى للعهد القديم، (وهو ما يطلق عليه: النص المسّورى)[3]، وفى فلسطين ألفت حينئذ أجمل الأشعار الطقوسية المسماة: (بيّوتيم – Piyyutim).

---

(١) المشنا هى مجموعة من الشرائع اليهودية المروية شفاها، ولم يبدأ تدوينها إلا بعد السبى البابلى فى القرن الخامس ق. م، ولكنها ظلت فى حالة اضطراب كاملة حتى جاء هليل، أيام هيرودس فقسم هذه الروايات إلى أقسامها الستة المعروفة، ثم جاء عقيبا فنظم بعض التفاصيل داخل الأقسام، ثم جاء مئير فأكمل نصوص المشنا، وأضاف إليها مزيدا من الأحكام، حتى جاء يهودا هاناسى حوالى نهاية القرن الثانى بعد الميلاد فكتبها على الوضع الذى نعرفه (انظر الفكر الدينى الإسرائيلى – د. حسن ظاظا).

ويعتبر المشنا شرحا فقهيا لشريعة التوراة، وهو بالعبرية الوسيطة، ثم شرحت بالآرامية باسم (الجمارا)، أى: التفسير، ومجموع المشنا والجمارا هو التلمود.

وقد شرحت المشنا مرتين: إحداهما فى العراق، والأخرى فى فلسطين، ولذا فلديهم تلمودان: البابلى، والفلسطينى، والأول مكتمل، والثانى بقيت منه عدة أجزاء. انظر: من خرافات التلمود – مقال للدكتور رمضان عبد التواب – مجلة منبر الإسلام – شوال ١٣٨٩ هـ – ص ٤٩ – ٥١). (المترجم).

(٢) انظر التحليل العلمى لرابين أ. كوهين بعنوان: (التلمود) ط. بايوت. باريس ١٩٨٣ ص ٢٥ – ٢٨.

(٣) من كلمة (مسّورة): أى: النقل.

وفى عهد الخليفة الفاطمى العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦م) كان الوزير الأول نصرانيا هو عيسى بن نسطورس، وقد عين واليا على دمشق يهوديا هو مَنَسِّى ابن هَزْرَا، بحيث كان النصارى واليهود يحكمون الدولة، فجاء رد الفعل على عهد الخليفة الحاكم، ومن هنا لا مجال لاعتبار وضع فلسطين فى ظل الفاطميين بالقاهرة وضعا مثاليا، ففى عام ٩٦٧م. أحرق المسلمون البطريرك يوحنا (وأيد اليهود المسلمين فى ذلك)، وأمر الخليفة الحاكم عام ١٠٠٩ م بهدم أسوار قبر السيد المسيح بالقدس، ولكن الذى يبقى هو أن هذه الحوادث تظل فردية، وأن اليهود والنصارى لم يتعرضوا مطلقا، فى أرض الإسلام لأحداث اضطهاد أو إبادة، على نحو ما فَعَل الغرب مما سجله التاريخ، سواء فى ذلك العربدة الدموية التى اقترفت عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس (أورشليم) وإبادة المانويين فى القرن الثالث عشر الميلادى، ومحاكم التفتيش الكاثوليكية التى تبعت استعادة إسبانيا فى القرن الخامس عشر، وهى المحاكم التى نصبت ضد المسلمين، واليهود، والنصارى المهرطقين، ومذابح اليهود التى قامت بها روسيا القيصرية لاستئصالهم، ومذابح كيشينيف فى أوكرانيا، وأخيرا مذابح ألمانيا الهتلرية ضد الشيوعيين، وضد المسيحيين من أتباع الكنيسة المعادية لهتلر، وضد اليهود.

* * * * *

٢ - المرحلة غير العربية

البيزنطييون - الأتراك - الصليبيون
(من القرن العاشر حتى الثالث عشر)

خلال هذه الفترة كلها لم يعرف اليهود والنصارى فى فلسطين أحداث اضطهاد أو مذابح إلا من قبل المحتلين، الغزاة، وذلك فى ثلاث مراحل:

ففى عام ٩٥٠ م قامت جيوش الإمبراطور النصرانى، بقيادة نقفور فوكاس، البيزنطى - باحتلال فلسطين، «فذبحت السكان، وأحرقت المنازل، وخربت الحقول والبساتين، وقطعت الأشجار المثمرة، وباعت الرجال والنساء والأطفال عبيدا، ويمكن القول بأن الأرض المقدسة استحالت إلى صحراء بأيدى النصارى»(١).

وفى عام ١٠٧١م حتى ١٠٩٦م دمرت فلسطين بغزو السلاجقة (نسبة إلى شيخ قبيلة تركية كانت تحكم ضواحى بخارى، فى آسيا الوسطى)، لقد ادَّعَوْا أنهم مسلمون(٢)، ولكنهم نهبوا المساجد كما نهبوا الكنائس، والمعابد، ولقى كثير من الحجاج اليهود أو النصارى، وهم كثير، مصيرا مؤلما.

أما كارثة فلسطين الثالثة فكانت على يد الصليبيين، ابتداء من عام ١٠٩٦ م وكانت ذريعة هذه الحملات هى «الدفاع» عن نصارى الشرق، الذين اضطهدهم الأتراك السلاجقة، وغذّت النداءات المتعصبة سخط الجموع الشعبية، حتى ألقت على الطريق بما لا يحصى من البائسين.

لم يكن الإيمان، ولا حسن النية لدى هؤلاء التعساء موضع خلاف، ولم يكن أحد منهم تقريبا قد وصل من قبل إلى فلسطين، ولكن دعاية الكنيسة ضد «الكفار» لم تقتصر على إرسالهم إلى الموت، بل إنها قادتهم إلى الجريمة.

---

(١) أنجيلو س. رابوبورت، السابق ص/١٨٣.

(٢) كان الأتراك السلاجقة مسلمين من أهل السنة الصالحين ولا يمكن اعتبار وجودهم حكاما للشام احتلالا، كوجود البيزنطيين والصليبيين، الكافرين، لا سيما أن منهم الوزير نظام الملك الذى نشر العلم بمدارسه النظامية، والتى عمل بها فى بعض المراحل الإمام الغزالى، وكان السلاجقة مقدمة للألوبيين الذين طردوا الصليبيين، وقد عملوا على تدعيم العقيدة الصحيحة من خلال تعاليم أهل السنة، وحاربوا المذهب الشيعى الغالى، تحقيقاً لانسجام عناصر الأمة الإسلامية أمام الأخطار، ولذا نختلف مع المؤلف فى تقييم هذه المرحلة. (المترجم).

لقد رفعت الكنيسة ابتداء شعارها المجنون والإجرامى المعادى للسامية ضد «الشعب قاتل الإله» (Le Peuple déicide)، فأوصلهم ذلك إلى أن يبدأوا «الحرب المقدسة» بإقامة مذبحة، عبر أوربا، لمجتمعات يهودية كثيرة، لينتهى بهم الأمر إلى الموت، حتى قبل أن يصلوا إلى آسيا الصغرى، وقليل فقط منهم التحقوا بالحرب الصليبية التى يقودها السادة وهؤلاء لم يبدأوا إلا بعد ستة أشهر من الحرب الصليبية الشعبية، وهنا نجد أن الدوافع أقل وضوحا.

وفى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ م، وهو عاشر أيام اجتماع كليرمونت فِرّند Clermont- Ferrand، أصدر البابا أورْبان الثانى مرسوما بتعبئة الغرب، داعيا محاربيه أن يتجهوا إلى طريق ضريح السيد المسيح[١]، Saint- Sépulcreكيما ينتزعوه من الجنس (الملعون)، ويمتلكوه لأنفسهم، لقد أثارت «هذه الدعوة العنصرية» أطماع «الغزاة»، وكان لها صدى هائل، فى فرنسا بخاصة.

كان ذلك بالنسبة إلى البابا يعنى إمكان تحقيق الوحدة كمشروع عام، بين الحكام المتنافرين، وتأسيس سلطة تيوقراطية، وكان المشروع من قبل محاولة للبابا، وظل هو الملهم الوحيد لها، وكان ذلك أيضا، وسيلة للبابا يزرع بها فى «الأرض المقدسة» الكنيسة الرومانية فى مواجهة الكنيسة الشرقية، فيصبح فى مركز القوة بحيث يفرض وحدة الكنائس حول البابا والخدمة التى «أسداها إلى الإمبراطور ألكسيس كومنين هى أنه جعل التوحيد أكثر سهولة، أعنى: إنشاء دولة لاتينية فى سورية وفلسطين.. وإنشاء قاعدة للتأثير الرومانى فى الشرق»[٢].

---

(١) كان نص إعلانه: «بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين فى أوربا، ويتجه هؤلاء بأسلحتهم إلى هزيمة الكفرة (يقصد المسلمين)، اذهبوا وازعجوا البرابرة، وخلصوا البلاد المقدسة من أيدى الكفار، وامتلكوها لأنفسكم فإنها كما تقول التوراة – تفيض لبنا وعسلا» (المترجم).

(٢) كلود كاهين: الشرق والغرب فى عصر الحروب الصليبية. L' orient et l' occideul à lérooue des croioades' ط أوبية مونتين، باريس ١٩٨٣ ص/٥٨.

أما بالنسبة إلى الفرسان، فإن رؤيتهم المستقبلية لم تعد «الدفاع»، بل «الغزو»، وهى رؤية مفتوحة فى دعوة البابا، تستهوى أفئدتهم، لقد كان الهدف واضحا أمامهم، وهو أن يقتطعوا إمارات فى سورية وفلسطين، بدعوى «نبيلة» كانت تخفى نواياهم (فى البداية على الأقل، لأن سلوكهم فى آسيا سوف يكشفها سريعا)، لقد نالوا مقدما مغفرة كاملة من البابا، لكل آثامهم، وإعفاء من ديونهم فى أوربا، ومستقبلا جميلا فى الشرق يقوم على النهب والسلب.

أما التجار الإيطاليون فى موانىء أمالفى Amalfi فى جنوة والبندقية فقد تحمسوا أولا، ثم اقتصروا على نقل الصليبيين، لأنهم – كما يقول كلود كاهين – «كانوا منقسمين بين الطمع فى تملك كنوز الشرق، لا على حساب المسلمين وحسب، بل على حساب منافسيهم فى الغرب أيضا، وبين الخوف من أن يفقدوا إمكانات التجارة فى بعض البلاد الإسلامية، جَرَّاءَ مشروع يتسم بالمجازفة»[1].

ولم يرسل أهل البندقية إمدادات إلا فى عام ١١٠٠ م عندما بدا النصر مضمونا، وحينئذ فتحوا أسواقا تجارية مثمرة.

كانت الأهداف المتوخاة من كلٍّ تفسر الوسائل التى توضع تحت تصرفه، فبعد حصار دام أربعين يوما سقطت المدينة المقدسة عند اليهود، والنصارى، والمسلمين، واقتحمها القائد جودفروى دى بويّون فانهال الصليبيون المنتصرون على المدينة عربدة ونهبا، وذبحا، مدة أسبوع، حتى قتلوا بحد السيف سبعة آلاف من المسلمين، لم يفرقوا بين سن وسن، ولا بين جنس وجنس، أما اليهود فقد لجأوا إلى المعابد الكبيرة يصلون، وسد الفرنجة كل منافذ المدينة، ثم كدسوا حزم الأخشاب حولها، وأشعلوا فيها النيران.

---

(١) كلود كاهين – السابق ص/٦٩.

فمن حاول الهرب أُجْهِزَ عليه فى الحوارى والأزقة المحيطة بها، وأما الآخرون فقد أحرقوا أحياء[1].

وبعد نهب مدينة بيت المقدس بدأ تقسيم الغنائم والأسلاب بين القادة، فصارت الرها إمارة بورجونية، وأنطاكية إقطاعية نورماندية، وطرابلس غنيمة بروفانسية، وأقيمت مملكة نصرانية فى أورشليم، سيدها-أساسا - من الآخرين، وفرض على البلاد النظام الإقطاعى الغربى، مختلطا بمزيج من العسكرية والإكليروسية، دون أن تكون له علاقة بماضيها، أو بماضى سكانها، الذين كانوا - يهودا أو نصارى - أكثر قربا إلى العرب المسلمين من أولئك الغرباء الذين لم يكونوا يترددون فى تعذيب مخالفيهم (المهرطقين).

هذه الدولة التى كانت بلا جذور لم تكن تستمد إيراداتها من البلد نفسه، بل كانت تعيش على هبات النقود التى كانت تجمع فى الغرب بوساطة الكنيسة، وما كان لها أن تبقى إلا بفضل انقسامات العالم الإسلامى، فبمجرد أن نجح صلاح الدين، الأمير ذو الأصل الكردى، والذى كان يحكم مصر - فى تجميع القوى التى كانت حتى ذلك الحين متفرقة، حرر القدس (أورشليم)، فى الأول من أكتوبر ١١٨٧ م، تاركا الكنائس النصرانية مفتوحة للعبادة، من جميع الاتجاهات، وأعاد فتح المعابد اليهودية لقاء ما قدم له طبيبه وصديقه الفيلسوف الكبير ابن ميمون اليهودى.

لقد استخدمت الحروب الصليبية خارج فلسطين فى أهداف مختلفة، فاستخدمت فى نهب القسطنطينية، ومذبحتها عام ١٢٠٤ م، وهى قلب المسيحية الشرقية، كما استخدمت فى الإبادة المقدسة للمانوية عام ١٢٤٤ م.

ولقد أخفقت جميع المحاولات التى بذلت لاستعادة أورشليم بالقوة.

---

(١) أمين معلوف: الحروب الصليبية فى نظر العرب - Les Croisades Vues par les Arabes ط. بايوت - باريس ١٩٨٣ ص/١٢.

وكل ما حدث هو أن القديس فرانسوا دسّيز – Saint Fransois d' Assise قدم إلى دمياط دون سلاح، ليقابل فى مركز المدينة السلطان الملك الكامل ابن أخى صلاح الدين، فاستقبله استقبالا طيبا، وأذن له أن يلقى موعظة.

هذه المحاولة الوَحِدَةُ، على المستوى المسيحى الرسمى، فى هذا الصدد، لم يكن بوسعها أن تؤدى إلى السلام، لأن الصليبيين تابعوا صراعهم الحربى، ومع ذلك حاقت بهم هزيمة دموية.

وهذا السلطان الملك الكامل، وهو الذى كان منتصرا عليهم عرض رد بيت المقدس سلما إلى الإمبراطور فردريك الثانى، ملك سيشل[1]، والذى كان شديد الإعجاب بالثقافة العربية الإسلامية، عام ١٢٢٨ م، ولقد رفض فردريك الثانى أن يشارك فى حملة صليبية مسلحة مما دفع البابا إلى أن يصدر قرارا بحرمانه، ولم تؤد جهوده، وجهود القديس فرانسوا دسيز إلا إلى العدم، أمام عناد البابوات، والتجمعات الصليبية التى أصرت على ألا تعتمد إلا على السلاح.

وبعد قرنين من الحرب الدائمة، التى غذتها أسلحة الغرب وأمواله أقلعت الحملة الصليبية الأخيرة عائدة إلى عكا.

---

(١) كان هذا الموقف من الملك الكامل ضمن تصور خاص لحل مشكلة الصراع بينه وبين الصليبيين، فعرض أن يمنحهم بيت المقدس، ويطلق أسراهم، ويعيد الصليب الذهبى الذى كان صلاح الدين قد أنزله من فوق قبة الصخرة عقب استردادها، وكان الملك الكامل يظن أن القدس هى هدف الصليبيين، فإذا ردها إليهم انتهى الصراع، ولكنهم رفضوا العرض، وأعلنوا أنهم يريدون سورية ومصر، وكانت هزيمتهم فى دمياط نهاية للحرب الصليبية الخامسة (١٢١٨ – ١٢٢١). (المترجم).

وبذلك انتهت تلك المغامرة الحربية المشئومة، التى كانت بعيدة عن الإيمان المسيحى بُعْدَ الصهيونية عن الإيمان اليهودى، وأنبيائه.

ذلك أن الصليبيين كانوا هم الصهيونية النصرانية، كما أن الصهيونية السياسية هى حرب صليبية، تتسم بنفس الإرادة، لا إرادة الاتحاد مع العناصر الأخرى الشرقية المكونة للإيمان الإبراهيمى: النصرانى والإسلامى نفس الإرادة: أن تفرض نفسها فى المشرق حصنا منيعا، واستحكاما متقدما للاستعمار الغربى.

على أنه قبل أن تحيق الهزيمة النهائية بالصليبيين انقضّت مصائب جديدة على سورية وفلسطين: هى غزو الأتراك الخوارزمية عام ١٢٤٠ م، فسيطروا على البلاد، وأبادوا فى بيت المقدس آلاف النصارى، وهدموا المدينة، وقد هزم الأتراك على يد المماليك، مرتزقة سلطان مصر، وعاشت فلسطين تحت الحكم المصرى، لعدة سنوات قليلة، ذلك أنه فى عام ١٢٥٠ م انقض عليها جحفل جديد، هو جحفل المغول الذين تعاهدوا مع الصليبيين أن يكونوا محايدين.

* * * * *



٣ – الفترة التركية

(القرن الثالث عشر – القرن التاسع عشر)

عاشت فلسطين آنذاك قرونا مظلمة ومأساوية، كان ذلك عام ١٤٥٣ م، عندما هزم الأتراك العثمانيون الإمبراطور قسطنطين باليوج، واستولوا على القسطنطينية، وبدا أن مصير فلسطين يتعرض لكثير من الصعوبات نتيجة الوضع الجديد، فهي لم تذق طعم الرفاهية الا فى العصر الذهبى للإمبراطورية العثمانية، فى عهد سليمان العظيم (القانونى)، أما فيما عدا هذه الفترة فقد فسد اقتصاد فلسطين، وانهارت زراعتها وصناعتها، كما بارت موانيها، وأرهقت الإتاوات الباهظة كاهل الفلاح، وكسدت صناعات النسيج، وإنتاج الزيت والصابون، حيث سحقتها أعباء الضرائب والديون، إلى أن جاء الطاعون عام ١٥١٣ فأهلك السكان.

كان وضع فلسطين تحت السيطرة «الإسلامية» للعثمانيين نادرا ما يصلح، ولذلك فكثيراً ما كانت تشب الثورات ضد حكمهم، فقد تمرد الأمير الدرزى فخر الدين من عام ١٦١٢ م حتى عام ١٦٣٣ فى لبنان، ومارس تأثيره على جزء من فلسطين.

وبعد قرن من الزمان حارب أحد رؤساء القبائل العربية، وهو عمر الزهين، المعروف باسم ظاهر[١] Daher مطالبا بالاستقلال، وقد حرر طبرية، انطلاقا من عاصمته صفد، ثم حرر عكا عام ١٧٤٩ م، وحينئذ صار حاكما على الجليل كله تقريبا، ولكن بعد هزيمة المملوك على بك فى مصر، وكان قد ساعده من قبل – هزم عام ١٧٧٥ م، ومنذئذ بدأ حكم الباشا التركى الجزار، حكما استبداديا، فخرب البلاد بفرض ضرائب على جميع المنتجات المستهلكة، واستمر حكمه عشرين عاما، على الرغم من ثورات الفلاحين فى لبنان عام ١٧٨٠ م، وثورات البدو فى فلسطين بعد ذلك بسنوات وعلى الرغم من كثرة

---

(١) يُعرف فى المراجع العربية باسم ظاهر العمر، وترجم له الزركلى فى الأعلام ٣/ط. دار العلم للملايين باسم ظاهر بن عمر بن أبى زيدان (١٦٩٥ – ١٧٨٢) (المترجم).

الفتن فى دمشق، وفى لبنان، ثم فى دمشق، فى الأعوام ١٧٨٩، ١٧٩٠، ١٧٩٨، م وقد أطلق الجزار جنوده الانكشارية ضد هذه المقاومة، وسحق المتمردين فى دمائهم.

وقد كان الجزار ما يزال يحكم الجزء الأكبر من فلسطين وسورية عندما احتل بونابرت فلسطين فى فبراير عام ١٧٩٩ م[١]. ولسوف يجلو عنها بفضل المساعدة التى قدمها الإنجليز للجزار، وهنا تبدأ هجمة الأوربيين على العالم العربى.

فبعد قرن واحد سوف يتم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا – عام ١٩١٧م – على اقتسام أسلاب الإمبراطورية العثمانية، وهو الاتفاق الذى أعقب الهزيمة الألمانية.

ولكن، منذ وقت طويل مضى أصبح مصير المستقبل فى فلسطين يتقرر خارجها، فى الغرب.

* * * * *

(١) بلغ الجزار أوج مجده عام ١٧٩٩ عندما استطاع أن يوقف زحف نابليون على عكا، وأن يصمد فى الدفاع عن عاصمته حتى اضطره إلى الانسحاب (المترجم).

الباب الثانى

تاريخ أسطورة



مـدخـــل

فلسطين فى وهم الغرب

منذ فتح الأتراك القسطنطينية عام ١٤٥٣ م، حتى غزو نابليون لمصر، وفشل حملته نهائيا على فلسطين فى عكا عام ١٧٩٩ م - بين هذين التاريخين عاشت أرض فلسطين قرونا مظلمة، بوصفها إقليماً من أقاليم الإمبراطورية العثمانية.

بيد أن مصيرها المستقبل كان يتقرر خارجها: فابتداء من القرن السادس عشر كانت هناك فلسطين أخرى، قامت من أرض الأحلام، وبدأت تعيش حياة جديدة فى أوهام شعوب الغرب.

من هذه الأحلام أيضا يجب أن يكتب التاريخ، ذلك أنه عندما تصبح هذه الأساطير أداة سياسة من عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٨٥، فإن فلسطين سوف تتحول تماما، قرنا كاملا، عن اتجاهها، باعتبارها أرض الرسالات الإلهية، وستصبح فريسة لاستعمار جديد، ومسرحا لحروب لا تتوقف.

هنا سوف ينقطع حوار الحضارات الذى بدأ على ترابها، منذ آلاف السنين بين أقدم الثقافات العالمية وأجملها، بين ثقافات العراق ومصر، وبين كتاب كنعان المقدس وكتاب العبرانيين، وبين رسالات أنبياء بنى إسرائيل، ورسالة عيسى، ورسالة الإسلام، بين الشرق والغرب، كما بين آسيا وإفريقيا وأوربا، فى دمشق، وبغداد، وأنطاكية، والأسكندرية، وقرطبة، فى تلك المراكز التى شهدت أعظم ازدهار روحى، حيث كانت تمتزج العلوم، والرؤى من الهند، وفارس، ومن اليونان وبيزنطة.

كل ذلك سوف يطويه الجهل أو يحل به الدمار، تحقيقا لأهداف الإمبرياليين الأوربيين فى القرن التاسع عشر، من بونابرت إلى بلفور، وفى القرن العشرين من هرتزل إلى شارون، من خلال صهيونية سياسية أصبحت فى فلسطين مندوبا مفوضا لاستعمار جماعى.

إن المنابع العميقة لهذا التحوّيل فى تاريخ فلسطين ترجع إلى القرن السادس عشر، إلى التحول الدينى الكبير للإصلاح، وهو الذى سجل الانتقال من نزعة معاداة السامية التى كانت مسيحية نوعا، إلى صهيونية مسيحية، وإلى حركة

النهضة، التى أحدثت انحساراً لتيار الإيمان فى جميع الأديان، وأدت إلى علمنة[1] الحياة، وطرحت حينئذ للمناقشة مشكلة هى: كيف يمكن تعريف «يهودى» خارج إطار دينه؟.

إن تاريخ فلسطين المعاصر لا يمكن أن يفهم إلا إذا درسنا هذا المسار المزدوج.

* * * * *

(١) العلمنة هى فصل الدين عن الدولة، وإبعاده عن السلطة، وكان ذلك فى أوربا ثورة ضد الكنيسة. (المترجم).

الفصـــل الأول

العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية

كان الموقف التقليدى للكنيسة الكاثوليكية ، خلال قريب من ألفى عام ، تجاه اليهود ، يقوم على ثلاث نظريات ، (حتى مجمع الفاتيكان الثانى ، وقوانين ١٩٦٤) ، وهذه النظريات هى :

١ – إن اليهود بقتلهم يسوع ، قد قتلوا الرب ، فهم الشعب (قاتل الإله) .

٢ – والشعب المختار من الرب هو منذئذ الكنيسة .

٣ – والعهد القديم تجسيد رمزى مسبق للعهد الجديد .

لقد أدى التفسير التقليدى إذن إلى تصور أن اليهود حين رفضوا الاعتراف بيسوع رسولا للرب ، فلم يهتدوا ، قد قطعوا أنفسهم من الأمة الإبراهيمية ، وصاروا ، بصرف النظر عن كونهم الشعب المختار ، محكوما عليهم باللعنة ، جراء آثامهم . لقد عاقبهم الله من قبل بأن طردهم من فلسطين ، و دفعهم سبايا إلى بابل ، ومع ذلك فقد تم الوعد الذى أعطاه الرب لإبراهيم ، رغم خطاياهم ، فبعد أن عوقبوا بالسبى فى القرن السابع قبل الميلاد أعادهم قورش إلى فلسطين ، وعندما عصوا مرة أخرى وكان عصيانهم كبيرا برفضهم الاعتراف بيسوع ، مسيحا مكملا للوعد – عاقبهم الرب بصورة أقسى ، أيضا ، فقد قطعهم فى الأرض أمما ، وفرقهم فى كل أنحاء الدنيا ، فلم يعد يجد السلام من بينهم – منذئذ – إلا بعض أفراد ، يتحولون إلى المسيحية .

وما لبثت أهمية أورشليم ذاتها – (أسقفية جاك ، أخى يسوع) – أن تناقصت فى نظر الكنيسة ، ولاسيما بعد عام ٥٩٠ م ، ففى عهد البابا جريجوار الأكبر ، والذى كان جالسا على كرسى البابوية ، مركز السلطة المسيحية – منح الأولوية نهائيا لروما ، وبذلك لم يعد لأورشليم دور فى القيادة الروحية ، لم تعد سوى مكان للحج ، ولم تستعد قيمتها ، باعتبارها مركزا للاهتمام إلا عندما استولى عليها الأتراك السلاجقة ، وحينئذ ولدت فكرة الحروب الصليبية .

تلكم هى النظرية الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ، خلال ألفى عام ، وكان لها نتيجتان عامتان :

١ – أنها أدت إلى تولد مبدأ معاداة السامية Antisémitisme ، وهو مبدأ مسيحى من الناحية النوعية ، فقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية ، حتى منتصف القرن العشرين ، أن « اليهود » كانوا هم (الشعب القاتل) ، قاتل الرب فى يسوع المسيح ، وهى فكرة بشعة ، تجعل شعبا بأكمله ، ولعدة قرون ، مسئولا عن جريمة ارتكبتها منذ ألفى عام هيئته الكهنوتية .

٢ – ومن الناحية العقدية والتفسيرية – كانت النظرية الرسمية – ولا سيما منذ (مدينة الرب) للقديس أوغسطين la cité de Dieu, de Saint — Augustin أن تكون قراءة العهد القديم بطريقة رمزية ترى فى المشاهد التى قدمها باعتبارها أحداثا تاريخية ، كما ترى فى نبواته – تصورا رمزيا مسبقا للمسيحية .

هذا الاتجاه إلى الاعتقاد بأن التاريخ يبدأ من خلال الذات ، وبحيث لايتصور الماضى إلا باعتباره إعدادا وتوقعا لحدوث هذه الذات – ليس بكل أسف مقتصرا على المسيحية وحدها . ذلك أن مفهوماً تاريخيا من هذا القبيل ، حين يكتب بأسلوب المستقبل المسبق ، فإن كل إنسان يعتبر نفسه – فى وقت معا – نتيجة للملحمة الإنسانية كلها ، نهاية للتاريخ ، ونوعا من الحوادث ، أو من الحدوث المطلق ، وانطلاقا من هذا المصطلح المرجعى يصبح الماضى كله بدائية ، كما يصبح كل إبداع جديد انحلالا أورجسا .

فالعبرانيون ، وهو يخصون أنفسم بميزة الوعد ، والاختيار الإلهى ، والإغريق باحتقارهم المألوف للبرابرة (ويعنون : كل من ليس منهم) ، والرومان بعقدة تفوقهم وامتيازهم ، (والكنيسة التى ستخلفهم ، وهى تعتبر الكون كله كاثوليكيا) . وذلك الفريق من المسلمين الذين انزووا فى فرديتهم، وفسروا آية القرآن عن (خير أمة) ، لاعلى أنها دعوة وتكليف ، بل على أنها امتياز مكتسب ، يتجلى فى روح تشعر بالكفاءة المزهوة – كل هؤلاء يعتبرون أنفسهم مركز العالم (بنفس القدر من السذاجة الذى كان يدفع أباطرة الصين إلى الادعاء بأنهم يحكمون «الإمبراطورية المتوسطة») .

لقد ضخم الغربيون هذا الاتجاه حين أضفوا صفة العلمانية على الأشكال القديمة (للعناية الإلهية) فوضعوها تحت اسم (التقدم)، وحين وضعوا أنفسهم بمصطلح التقدم مع كوندورسيه [1]، ثم أسلموا أنفسهم إلى الشكل الجذاب الذى تتمتع به فلسفة التاريخ لهيجل [2]، ثم انساقوا فى شكل ساخر مع «قانون المراحل الثلاث» لأوجست كونت [3].

أما فيما يتعلق بالحالة الخاصة للكنيسة المسيحية وعلاقتها بالتاريخ اليهودى السابق عليها فإنها قد فسرت «عودة صهيون» بأنها من الناحية الرمزية تشبه عودة المسيحى إلى نقاء إيمانه.

وهكذا مططوا فى الحركة، التى كانت فى الأناجيل، ولاسيما انجيل متى – تهدف إلى تبيان أن فى حياة المسيح إنجازًا لتنبؤات العهد القديم.

لقد ظهرت نزعة معاداة السامية، المسيحية أصلا – مصحوبة بانفجار شرس جدا، أثناء الحروب الصليبية، وكانت أول المذابح الكبرى التى أقيمت لليهود على يد المحاربين المسيحيين، وهم فى طريقهم إلى فلسطين. بل إن جودفروى دوبويون، بمجرد استيلائه على بيت المقدس لم يقنع هو وجيشه بإبادة المسلمين أو طردهم، فقد حبسوا الأمة اليهودية فى المعابد، ثم أهلكوها إحراقا.

---

(١) هو أنطوان كارتيات، ماركيز دى كوندورسيه، رياضى فيلسوف، اقتصادى فرنسى، ولد فى ريبمونت (١٧٤٣ – ١٧٩٤)، تعاطى السم تحت تأثير الرعب، حتى يهرب من الإعدام شنقا، ألف فى سجنه كتابا عن (مسودة لوحة تاريخية عن تقدم الفكر الإنسانى)، وكان لديه اقتناع علمى متحمس يدفعه إلى الاعتقاد بأن الإنسانية قابلة للتقدم بلا نهاية. (المترجم).

(٢) هو جورج ويلهلم فريدرك، فيلسوف ألمانى، ولد فى شتوتجارت (١٧٧٠ – ١٨٨١)، تتمثل فلسفته، أو هيجليته فى تصور الكائن والفكر فى مبدأ واحد هو الفكرة، التى تتطور فى ثلاث مراحل هى: القضية Thése، ونقيضها Antilhése، وتركيبها Synthése. (المترجم).

(٣) رياضى فيلسوف فرنسى، ولد فى مونبلييه (١٧٩٣ – ١٨٥٧)، وهو مؤسس الوضعية التى تصور أنها تصلح دينا للإنسانية.

(المترجم).

وفى أوربا كان الملوك الصليبيون هم الذين طردوا اليهود: إدوارد الأول فى انجلترا، وقد طردهم عام ١٢٩٠ م، وفيليب دى بل، ملك فرنسا، طردهم عام ١٣٠٦ م، وقد مضى ملوك إسبانيا إلى هذين الحدين من التطرف فى أوربا «المسيحية»، فقد طرد اليهود أو ذبحوا بيد الملوك «الكاثوليك جدا»، وذلك إبان نجاحهم فى هدم آخر الممالك الإسلامية عام ١٤٩٢ م، مملكة غرناطة.

أما روسيا المقدسة – «La Sinte Russie» فقد كانت مسرحا لمذابح كبرى لقوزاق بجدان خميلنتسكى. «Cosaques de Bogdan Khmielnitzky».

إن القراءة الرمزية للعهد القديم لم تستبدل بها قراءة حرفية «إلا ابتداء من العصر الذى ترجم فيه لوثر الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية، وحيث صار فى البلاد البروتستانتية مكتوبا باللغة العامية، لغة كل شعب، يصل إلى الآخرين كما يصل إلى الرهبان والكهنة الذين كانوا يحتكرون حتى ذلك الحين مهمة التفسير، فالمشكلة اليهودية لم تطرح، حين طرحت، من زاوية «إنسانية» تتطلب إنهاء، كل تفرقة أو تمييز أو إبعاد، ولكنها طرحت بمصطلحات «لاهوتية»: مكان اليهود من عناية الرب.

أما دور اليهود فى إتمام الوعد الكتابى، مع أفكار العهد، وأفكار الوعد بالأرض، وبالاختيار، والعودة – فقد أخذ كل ذلك مكانا مرموقا فى اللاهوت البروتستانتى، وفيما يتصل بشئون الآخرة L' eschatologie[1].

وقد عولجت هذه القضايا اللاهوتية فى أعمال أدبية، لكبار كتاب الغرب المسيحى، ففى انجلترا من: «الجنة المفقودة – Paradis Perdu» لميلتون، إلى «أورشليم». لبلاك، وفى فرنسا، من «محاضرات فى التاريخ العام – Discours sur l' histoire universelle» لبوسويت Boussuet الذى يجعل من إسرائيل حجر الزاوية فى التاريخ العالمى – إلى التراجيديات الكتابية لراسين: استير Esther وأثالى Athalie. وفى ألمانيا، من مثالية: ناثان الحكيم Nathan le sage للسينج،

---

(١) يقصد بكلمة Eschatologie ذلك الجزء من اللاهوت الذى يعالج «أمور الآخرة»، كالموت، والخلود، ونهاية العالم، والبعث بعد الموت، والحساب الأخير.

إلى فخته Fichte وهو يوحد بين الصهيونية واللاسامية ، كما سبق أن وحد لوثر الأخوين التوأمين ، ثم يكتب فخته أنه : لكى تحل المسألة اليهودية « لايوجد حل آخر سوى أن نعيد إليهم أرضهم المقدسة ، وأن نرسلهم جميعا إليها » .

لقد زيف هذا التوقع تاريخ فلسطين حتى أيامنا هذه ، فقد صُغِّر فى مشهدين من الحضور اليهودى (مشهدين من الوجود المستقل ، أولهما : سبعون عاما تحت حكم داود وسليمان ، ثم انهارت مملكتا يهوذا والجليل ، ودمرتا حتى صارتا ولايتين تابعتين ، وأقل من قرن تحت حكم المكابيين ... وهذا فقط تغطية لتاريخ أربعة آلاف عام)[1] .

إن القضية التى تختفى وراء هذه التواريخ العديدة لفلسطين تريد أن تقرر دون برهان أن شيئا لم يجر فى هذا البلد غير ماقص فى العهد القديم .

وحين يصبح الكتاب المقدس السلطة العليا ، فى مكان الكنيسة ، فإن قراءته الحرفية ، بلغة شعبية ، تغذى الأحلام والأساطير ، التى عششت آلاف السنين ، والتى قاومها مع ذلك كل من لوثر ، وكلفن ، Calvin[2] .

وتظهر الأفكار الأساسية للصهيونية . كفكرة وجود شعب يهودى ، (متميز عن الأمة الدينية اليهودية) ، وكفكرة (عودته) إلى فلسطين ، منحة إلهية لمجموعة عنصرية محددة ، تظهر هذه الأفكار فى الأدب الإنجليزى لأول مرة ، فى كتاب برايتمان : «رؤيا القديس يوحنا أو نهاية العالم – Apocalypsis Apocalypseos» ، فهو – وقد اعترف بأن عبادة الرب يمكن أن تمارس فى أى

---

(١) رأينا فى الباب الأول من هذا الكتاب أن المحاولة الأولى للبحث العلمى فى تاريخ فلسطين كانت عام ١٩٦٥ من خلال «مؤسسة ارتياد فلسطين – Palestin exploration Fund وكان الهدف منها شديد الوضوح ، وهو البرهنة بوساطة العلم الحديث على صدق الأقاصيص الكتابية .

(٢) جان كلفن ، ولد فى نيون (١٥٠٩ – ١٥٦٤) ، وقد نشر الإصلاح فى فرنسا وسويسرا ، ومات فى جنيف ، حيث أسس جمهورية بروتستانتية ، ويتميز النظام الدينى الذى أقامه كلفن عن النظريات الأخرى البروتستانتية بالأصل الديموقراطى الذى بنى عليه السلطة الدينية ، والإلغاء الكامل للاحتفالات ، والإنكار المطلقه للتقليد ... إلخ ... وقد شاع مذهبه فى سويسرا وهولندا والمجر . (المترجم) .

مكان – يخص اليهود ، باعتبارهم قومية ، بأن من حقهم أن يعودوا إلى فلسطين «أرض أجدادهم» .

وفى سنة ١٦٢١ م ينشر قاض مشهور ، عضو فى البرلمان ، هو السير هنرى فنش Sir Henry Finch – كتابا بعنوان «النهضة الكبرى للعالم ، أو دعوة اليهود (ومعهم) جميع الأمم ، وممالك الأرض – إلى الإيمان بالمسيح» ، وهو يرفض التفسيرات الرمزية للعهد القديم ، التى كانت تقليدا فى الكنيسة الكاثوليكية ، ولاسيما منذ القديس أوغسطين ، ويوصى بقراءة حرفية: «فعندما تذكر إسرائيل ، ويهوذا ، وصهيون ، وأورشليم (فى الكتاب المقدس) فإن روح القدس لايقصد إسرائيل من الناحية الروحية ، ولا الكنيسة التى تضم الأممين (الأميين) Les gentils [١]، أو تضم اليهود والأمميين معا ، بل هو يقصد إسرائيل التى نزلت من دم يعقوب ، والأمر كذلك بالنسبة إلى العودة إلى أرضهم ، وإلى غزوها ضد الأعداء ... فليس المقصود هنا رمزا ، أو خلاصا على يد المسيح ، وإنما هو يعنى فعلا ، وحرفيا: اليهود» وفى رأى فنش أن إسرائيل حين تصلح سوف تحقق سلطة دينية كاملة .

فى ذلك العصر أدينت هذه النظرية الألفية فى البرلمان ، وهى النظرية القائلة (بملك المسيح على الأرض ألف سنة قبل القيامة) ، وأعلن الملك جاك الأول (١٦٠٣ – ١٦٢٥) أنها خطرة ، ولكنها ظلت حجر الزاوية فى الصهيونية المسيحية التى ترى أن عودة اليهود إلى فلسطين (بعد أن يعتنقوا المسيحية ، كما يرى هنش نفسه ، أو بدون هذا التمهيد تبعا للآخرين) [٢] . هذه العودة يجب أن تسبق نهاية العالم (مذهب الألفية: Le millenium ، الموسوم بعودة المسيح .

---

(١) يقصد بهم من ليسوا من بنى إسرائيل ، أهل الكتاب . (المترجم) .

(٢) ساد هذا الوضع فى فرنسا ، ومن رجاله هجينو أسحاق دو لبرير – Huguenot Isaac de la Pereyre (١٥٩٤ – ١٦٧٦) ، فقد طالب فى كتابه (دعوة اليهود Rappel au Juifsxjufs) بعودة اليهود إلى فلسطين حتى ولو لم يعتنقوا المسيحية .

وفى انجلترا ، فى القرن السابع عشر – لقيت هذه الحركة ازدهارا خاصا بظهور المتزمتين المتطهرين Puritains ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم « شعب الرب » ، وهم يرون أن أبطال العهد القديم يحتلون مقاعد القديسين فى الكنيسة الكاثوليكية ، فيسمون أبناءهم : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويطالبون بأن تكون التوراة شريعة القانون الإنجليزى . وبعد حل كرومويل للبرلمان الطويل عام ١٦٥٣ ، وصل إلى السلطة برلمان قصير يسيطر عليه المتزمتون ، وعين « مجلس دولة » مؤلف من سبعين عضوا ، على صورة المحكمة العليا أو المجلس الأعلى المذكور فى الكتاب المقدس .

هذه الإيديولوجية ، وهذه الأسطورية ، يظهران بصورة أكثر قوة لدى المتزمتين (المتطهرين) المهاجرين إلى أمريكا ، الذين أشبهوا عبرانيى السبى : فلقد هربوا من عبودية فرعون (جاك الأول) وهم يهربون من أرض مصر (انجلترا) ، ليصلوا إلى الأرض الجديدة (أمريكا) .

لقد كانوا يهتفون بيشوع ، وهم يطاردون الهنود الحمر ، كيما يستولوا على الأراضى الأمريكية ، كما كانوا يهتفون « بالإبادة المقدسة » أو « التحريم » الذى ذكر فى العهد القديم ، ولقد كتب أحدهم يقول : « من الواضح أن الرب دعا المستعمرين إلى الحرب . إن الهنود الحمر والقبائل المتحدة معهم يعتزون بعددهم ، وأسلحتهم ، وقدرتهم على صنع الشر ، تماما كما كانت القبائل القديمة من العمالقة والفلسطينيين تتحد مع القبائل الأخرى ضد إسرائيل (١) » .

فالثقافة الكتابية فى نظر متطهرى أمريكا ، ومتطهرى انجلترا – يجب أن تكون حرفية ، وهذا اللاهوت الغريب عن أى نصرانى – يرى أن « الوعد » لايتم بمسيح ، يحقق ملكوت الرب ، ذلك أن جميع « وعود » العهد القديم تخص اليهود ، من حيث هم جنس ، مرتبط بيعقوب ، برباط الدم ، وليس « إسرائيل

---

(١) هذا مذكور فى ترومان نلسن Truman Nelson : « المتطهرون فى ماساشوستس ، من مصر إلى الأرض الموعودة ، اليهودية – The Puritans of Massachussets From Egypt to The Promised Judaism » ، رقم ٢ – ربيع عام ١٩٦٧ .

الرب » ، أى : الأمة الروحية المنبثقة عن إبراهيم ، لا باستمرار رابطة الدم ، بل باستمرار الإيمان .

لقد كانت النتائج السياسية لهذا المفهوم واضحة ، ومعمرة ، ولاسيما فيما يتعلق بموقف البروتستانت الأمريكيين ، تجاه « دولة إسرائيل » الحالية .

ففى عام ١٩١٨ كتب الرئيس ولسون ، مدفوعا بهذا التقليد ، إلى الربانى ستيفن وايز Rabbin Stephen Wise (خطاب ٣١ من أغسطس ١٩١٨) – يخبره بموافقته على وعد بلفور ، معتمدا على الأسطورة الصهيونية .

وفى عام ١٩٤٨ لم تكن المسألة مسألة « وعد » « بوطن قومى يهودى » ، كما هو وعد بلفور ، بل بحدود بالغة التجسيد لدولة ، وقد قيل آنذاك : « إن حدود الأرض الموعودة لإبراهيم يجب أن تردَّ خلال الألف عام ، ولسوف يعود المسيح إلى الأرض فى مملكة ، بالمعنى الحرفى ، التيوقراطى ، ومع حكومة تقوم على إثر الحكومة القومية القائمة [1] » .

وعندما يتحدث رئيس أمريكى للمرة الأولى منذ إنشاء دولة إسرائيل ، وهو جيمى كارتر فإنه يعلن فى الكنيسيت فى مارس ١٩٧٩ : « أن إسرائيل والولايات المتحدة قد أنشأهما الرواد ، إن بلادى أيضا أمة من المهاجرين واللاجئين ، أنشأتها شعوب قدمت من بلاد كثيرة .... إننا نقتسم تراث الكتاب المقدس » [2] .

وكان هذا التقارب الأخير قد تم تحديده على لسان كارتر فى قوله : « إن استقرار الأمة الإسرائيلية هو تحقيق للنبوءة الكتابية » [3] .

لقد كان الدور الذى لعبته الأسطورة الصهيونية فى وهم الشعوب هائلا ،

---

(١) كلارن باس Background to Dispensationalism – جراند رابيرز – ميتشجان ١٩٦٠ ص ١٥٠ .

(٢) صحيفة جيروزاليم بوست – مارس ١٩٧٩ .

(٣) جيمى كارتر (أول مايو ١٩٧٨) Department of state Bulletin ج ٢٨ عدد ٢٠١٥ ص٤ .

وليس بوسعنا أن نبين تأثير اللوبى (جماعة الضغط) الصهيونى وفاعليته على المستوى العالمى بالاعتماد فقط على قوة تنظيمه ، والوسائل السياسية والمالية الهائلة التى يتحكم فيها ، ولاسيما ذلك الدعم غير المشروط ، وغير المحدود الذى تقدمه الدولة الأمريكية ، نعم ، إن هذه القوة تلعب دون ريب دورا عظيما (سوف نبينه بالتفصيل) ، ولكن قبول هذه الأسطورة الفجة ، بقدر كبير من حسن النية ، وقبول نتائجها السياسية الموغلة فى الدموية – يبقى غير مفهوم ، إذا لم نتذكر – على نحو ما سنفعل – ذلك العبث الإيديولوجى الذى استمر قرونا طويلة ، والذى خلقت به الكنيسة المسيحية هذه «الصهيونية المسيحية» ، التى كانت مجالا قابلا للاستغلال بسهولة من جانب دعاية الصهيونية السياسية ، والدولة الإسرائيلية .

وقبل أن نشارف مشكلة الصهيونية السياسية التى تنبع من القومية ، ومن الاستعمارية ، ومن معاداة السامية الأوربية فى القرن التاسع عشر ، وهى النزعات التى تجد منابعها الحقيقية فى النصوص الكتابية ، ولا ترى شيئا سواها – قبل أن نعالج هذا كله يهمنا أن نؤكد أن هذه الرؤية الخرافية لفلسطين ، فى الصهيونية المسيحية ، تنبع من لاهوت مسيحى بدائى (سابق على كل نقد للتفسير الكتابى الحديث) ، وهو لاهوت فاسد أيضا (يتخذ من العهد القديم نصا تاريخيا وعقائديا معا ، وهو يغير مركز اللاهوت المسيحى ذاته ، حين يجعل العهد القديم فى المحل الأول ، بدلا من الرسالة الإنجيلية التى جاء بها يسوع) .

هذه النظرية اللاهوتية الزائفة تنبع من قراءة انتقائية للكتاب ، فعلى حين كان بعض المسيحيين منذ أربعة قرون ينشرونه ، كان اليهود يرفضونه حتى القرن العشرين .

وفى مقابل ذلك استغل الكتاب من الناحية السياسية ، منذ البداية (أى : منذ لوثر) ، سواء أكان الاستغلال لغايات معادية للسامية : (وهى التخلص من اليهود بإرسالهم إلى فلسطين ، على أنها منفى عالمى للمنبوذين) . أم كان لغايات إمبريالية (تحكم استعمارى ، بوساطة اليهود ذوى التكوين الغربى ، فى الشرق الأوسط ، وفى منافذ آسيا) ، أم كان لغايات للصهيونية السياسية ، (تعتمد

على الإمبريالية الروسية ، والألمانية ، والإنجليزية ، وأخيرا الأمريكية ، لتأييد مشروعاتها ، وتعتمد على نزعة معاداة السامية لتقهر يهود الشتات « Diaspora » على رفض الاندماج ، والمجيء لخلق دولة قوية فى فلسطين) .

لقد كانت الدعوة إلى عودة اليهود إلى فلسطين ، خلال بضعة قرون ، من لوثر إلى بلفور ، وسيلة إلى إبعادهم من البلاد التى يعيشون فيها حتى ذلك الحين .

أما الرجل الذى تحرك ليحطم التقليد الكاثوليكى فقد كان هو أصل « الصهيونية المسيحية » ، مارتن لوثر ، وكان له فى هذا الصدد موقف ذو مغزى ، ففى الوقت الذى كانت ترجمته للكتاب المقدس تضع فى المقام الأول ملحمة العبرانيين ، التى تنبثق من قراءة حرفية خالية من أى درس نقدى وتاريخى للعهد القديم ، كان هو يعبر بوضوح عن سريرته المعادية للسامية : فبعد أن كان فى كتاباته الأولى مثلا يقول : « إن هذا المسيح ولد يهوديا » (عام ١٥٢٣ م) ، فيمجد اليهود باعتبارهم ورثة الوعد – تعبر أعماله المتأخرة عن اتجاه سوف يظل ثابتا منذ كان ، وهو : الربط بين الصهيونية (العودة إلى فلسطين) ، وبين معاداة السامية (وهى طرد اليهود من بلده) ، وقد كتب عام ١٥٤٤ م يقول : « من الذى يمنع اليهود من أن يعودوا إلى أرضهم ، أرض يهوذا ؟ – لا أحد ، ونحن نقدم إليهم كل ما يحتاجون من أجل سفرهم ، لمجرد أن نتخلص منهم ، فهم بالنسبة إلينا حمل ثقيل ، وهم آفة وجودنا .. [١]) .

وتكمنُ هذه الفكرة الباطنية لدى لوثر ، والتى كانت أصل « الصهيونية المسيحية » فى عقل ذلك الذى حقق « للصهيونية السياسية » انتصارها الأول : بلفور . فعندما كان أرثر بلفور رئيس وزراء انجلترا دافع – فى عام ١٩٠٥ م – عن قوانين الأجانب – Aliens acts » لتحديد الهجرة اليهودية إلى انجلترا ، ويومها اتهمه المؤتمر الصهيونى السابع بمعاداة السامية ، المقررة ضد الشعب اليهودى كله [٢] .

---

(١) مارتن لوثر : Saimtliche werke – ج ٣٢ ص ٩٩ و ٣٥٨ .

(٢) بروتوكول المؤتمر الصهيونى السابع Verleg Eretz Israél إعلان أرض إسرائيل – فينا ١٩٠٥ .

لقد هيمنت هذه النزعة الأساسية المعادية للسامية عليه طيلة حياته ، قبل وبعد ١٩٠٥ م ، واتفقت فى نفس الوقت مع الفكرة الصهيونية التى تطالب بإعطاء أرض لليهود (من أجل إزاحتهم من انجلترا على وجه التحديد) ، وقد اقترح بلفور منذ عام ١٩٠٣ إعطاءهم أوغندا ، وفى عام ١٩١٧ ، وخضوعا لأهدافه فى الحرب ضد ألمانيا - كتب إلى اللورد روتشيلد إعلانه لصالح «وطن قومى لليهود فى فلسطين» .

إن التاريخ الراهن لفلسطين ، والنفوذ العالمى للصهيونية السياسية يقودان الدول الغربية ، وبالدرجة الأولى : سيدتها ، الولايات المتحدة - إلى أن توجه دعمها غير المشروط وغير المحدود إلى غارة الصهيونية السياسية فى فلسطين ، إلى الابتزاز والاغتصاب ، وإلى المذابح التى تمارس بها الدولة الصهيونية سيطرتها الاستعمارية على البلاد ، وإلى عدوانها فى الشرق الأوسط ، وإلى احتقارها للقوانين الدولية ، وقرارات الأمم المتحدة . إن قبول هذه السياسة من البلاد الغربية ، وهو قبول تواطؤ ، لن يكون شىء منه قابلا للفهم مالم نرجع إلى تاريخ الأسطورة الصهيونية التى شكلت منذ أربعة قرون عقل الشعوب الغربية .

إن هذا النوع من القراءة للكتاب المقدس يعتبر دنسا بالنسبة إلى المسيحيين ، فهو يستتبع بالنسبة إلى اليهود العودة بالإيمان إلى مفهوم قبلى ، ليضع مكان رب إسرائيل دولة إسرائيل . فأما المؤرخون والمفسرون فيرون أن هذه القراءة تقوم على أسطورة ، وأما الآخرون فيرون أن هذه الأسطورة تستخدم فى تغطية سياسة قومية ، واستعمارية تقوم على التمييز العنصرى ، وعلى التوسع بلانهاية .

١ - هذه القراءة للكتاب المقدس دنس بالنسبة إلى المسيحى :

إن قراءة الإنجيل التى غذت النزعة اللاسامية المسيحية نوعا - لم تكن عرضة للإنكار صراحة إلا عام ١٩٦٥ م فى مجمع الفاتيكان الثانى الذى اعترف (أخيرا) بقوله : «مع أن سلطات يهودية قد ساقت مع أنصارها المسيح إلى الموت ، فإن ما اقتُرِف خلال آلامه لايمكن أن يحمل وزره جميع اليهود الذين كانوا أحياء آنذاك دون تفريق ، ولا يحمل وزره أيضا يهود عصرنا ، وإذا كان حقا أن الكنيسة هى شعب الرب الجديد فإن اليهود لاينبغى لهذا أن ينظر إليهم على أنهم منبوذون من الرب أو ملعونون ، وكأن ذلك منصوص عليه فى النص المقدس .... إن الكنيسة لاترضى الضغائن ، وأعمال الاضطهاد ، وسائر مظاهر معاداة السامية ، التى وجهت ضد اليهود ، مهما يكن مصدرها وعصرها [١] » .

اعتراف بالخطأ متأخر جدا ، بعد ألفى سنة من الجرائم ، التى كانت هذه الكنيسة المحرض عليها غالبا ، و «المؤلف» المشار إليه فى النص بحياء شديد ، وبطريقة غير مقنعة ، فإذا ماضربنا صفحا - أخيرا - عن معاداة السامية ، وهى مسيحية النوعية ، فإننا نجد فكرة أن «الكنيسة هى شعب الرب الجديد» ، وبذلك يبرز «شعب مختار» جديد .

لقد سبق أن طبق القديس بيير Saint — Pierre على الكنيسة ماكان قد قيل عن شعب العهد القديم «وأما أنتم ، فجنس مختار ، وكهنوت ملوكى ، أمة مقدسة» . [بيير الأول ٢ / ٩] .

بيد أن ذلك كان ليذكر المسيحيين بمسئولياتهم باعتبارهم حملة رسالة المسيح ، ولكى يعينهم على أن يظلوا ناهضين فى عالم كان خصما لهم .

أما القديس أوغسطين ، فإنه أفاد دروس انهيار الإمبراطورية ، بعد الاستيلاء على روما عام ٤١٠ م ، ولذلك فهو عندما كان يذكر «مدينة الرب» كان يقصد بخاصة أن أى مجتمع إنسانى لايمكن أن يقوم بناؤه على قوته وحدها ، كما لايستطيع أن يعتبر نفسه غاية فى ذاتها ، بدلا من أن ينصاع

---

(١) وثائق المصالحة الست عشرة Les Seize docwnents Conciliaires (ط فرايدز باريس ١٩٦٧ - إعلان عن (الكنيسة والأديان غير المسيحية) - ص ٥٥٢ ٥٥٣ .

لغايات عليا .. وقد قام بعض تلاميذه ، خلال القرون ، بإحداث **اندماج** موفق بين الكنيسة ومدينة الرب ، أو على الأقل : التصور المسبق لمدينة **الرب** .

ولسوف يتولد عن انبثاق فكرة «الاختيار» سلطات دينية «**تيوقراطيات**» جديدة وزائفة . ذلك أنه بمجرد أن يظهر أناس ، أيا كانوا خلال التاريخ ، يعتبرون أنفسهم موظفين لدى المطلق،فإن هذا الادعاء يؤدى إلى خلق مذابح ، وحروب صليبية، ومحاكم تفتيش ، واستعمار ، وتمييز عنصرى . حقا لقد أدانت وثيقة المصالحة هذا التمييز العنصرى [1] ، ولكنها تبقى على جرثومته بالضرورة وهى تخلد الفكرة الملعونة ، فكرة «الشعب المختار» ، وهى فكرة نفتها الرسالة الإنجيلية بصورة مؤكدة ، لوأننا قرأناها فى مجموعها ، ولم نقف عند الصيغ الحرفية المنتزعة من سياقها .

كيف يستطيع مسيحى أن يؤيد النظرية «المادية» التى تقرر أن الوعد وعد بأرض لشعب معين ، على حين أن الإنجيل مافتىء يردد أن الوعد قد تم فى يسوع - المسيح ، ومن أجل الإنسانية كلها . [رسالة الرسول إلى أهل رومية ١٥/٨] [2] . إن الانفصال بين القبلية والعالمية واضح لالبس معه .

ولقد نعى مارسيون دى سينوب (من آسيا الصغرى) ، حوالى عام ١٤٤م فى روما - على المسيحيين المتحولين من اليهودية أنهم زيفوا النص الأصلى لمتى [٥/١٧] ، والقائل : «لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض بل لأكمل» ، وأصله كما يمكن أن يكون قاله : «ماجئت لأكمل الناموس ، بل لأنقض» .

ويعتمد اتهام مارسيون - بخاصة على إنجيل القديس لوقا ، وأعمال الرسل للقديس بولس ، وهو يذكر نص القديس لوقا [١٦/١٦] : «كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا (القديس يوحنا المعمدان) ، ومن ذلك الوقت يبشَّر

---

(١) السابق ص ٥٥٣ .

(٢) النص هو : «إن يسوع المسيح قد صار خادم الختان من أجل صدق الله ، حتى يثبت مواعيد الآباء» (المترجم) .

بملكوت الله» ، ويستخلص مارسيون أن الناموس الموسوى قد حل محله الإنجيل [1] .

كما رفض هذه النظرية فى «مختصر الأناجيل الأربعة» الأب بواسمار من المدرسة الكتابية فى أورشليم ، وأضاف : «هذا المفهوم صحيح على معنى معين ، لو أننا قيدنا الناموس بالوصايا العشر ، ورأينا فى الإنجيل تبشيرا مركزا على الأمر بالحب » [2] .

ومهما يكن أمر الاتصال أو الانفصال بين العهد القديم والجديد فإن مايبقى هو أن «الوعد» بالنسبة إلى أى مسيحى يتم فى يسوع المسيح ، ولايمكن أن يكون وعدا بأرض .

ويسوع ، على مايؤكده كولمان فى كتابه : «يسوع وثائرو عصره – Jésus et Les révolutionnaires de son temps » [3] ليس مشتركا مع الزيلوتيين Zelotes الذين كان لهم هدف مزدوج : إصلاح العبادة من فسادها الكهنوتى ، وتخليص فلسطين من الاحتلال الرومانى (الذى كان يتعاون معه كبار الكهنة الصدوقيين) .

فقد كان الهدفان : هدف الإصلاح الدينى ، وهدف تحرير الأرض السياسى – كانا إذن مقيدين .

ويسوع يبشر مثلهم «بملكوت الرب» ، ولكن هذه البشارة ليست مقيدة بالنسبة إليه بمجرد استرداد قومى لأرض .

ويسوع لايعترف بأى حق إلهى للإمبراطور الرومانى ، ولا لهيرودس ، وهو يرفض فى ثلاثة مواضع من الأناجيل رفضا قاطعا أن يربط رسالته بتملك أرض أو سلطة ، وعندما أراد الشيطان من أعلى جبل أن يريه ممالك العالم ، وأن يقدمها إليه قال له يسوع : «اذهب ياشيطان» [متى ٤ / ١٠] .

---

(١) ربما استطاع أن يضيف ليوحنا [١ /١٧] قوله : «لأن الناموس بموسى أُعْطِىَ ، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» ، وكذلك متى [١١/١١] .
(٢) «المختصر» ج٢ ص١٣٧ [ط . دى سيرف ١٩٧٧] .
(٣) ص ٦٢ – ط . ديلاشور ونستله – نيوشاتل ١٩٧١ .

إنه يرفض أن يدعى «المسيح» ، لأن التقليد اليهودى يجعل لهذا الاسم مفهوما سياسيا ، فهو يضرب إذن صفحا عن أولئك الذين أعطوه هذا اللقب ، يضرب صفحا مثلا عن بطرس حين يقول له : أنت المسيح . [مرقص ٨/٣٠] . وحين يسأله رئيس الكهنة قيافا : «هل أنت المسيح ابن الله ؟ » ، [متى ٢٦/٦٤ ، ولوقا ٢٢/٦٨] .

وعندما يسأله بيلاطس : أنت ملك اليهود ؟ يتجنب يسوع هذا الشَرَك ، وبدلا من أن يجيب بنعم أو لا – يقول : «مملكتى ليست من هذا العالم» – [يوحنا ١٨ / ٣٣ – ٣٦] .

إن مسيحيته تمضى على النقيض من مسيحية اليهود التقليدية ، أولئك الذين كانوا ينتظرون مسيحا يبعث مملكة داود .

فعلى أيِ لاهوت يمكن أن تستند «الاتجاهات الكنسية فى موقف المسيحيين من اليهودية» – وهى منشورة فى ١٦ من إبريل ١٩٧٣ ، وصادرة عن : «اللجنة الإنجليكانية الفرنسية للعلاقات مع اليهودية» ، عندما قالت : «من العسير الآن أكثر من أى وقت مضى أن تصدر حكما لاهوتيا دقيقا على حركة عودة الشعب اليهودى إلى أرضه ، ونحن فى مواجهة هذا لا نستطيع ابتداء أن ننسى ، باعتبارنا مسيحيين العطية التى منحها الرب قديما شعب إسرائيل ، بأرض دعى ليتجمع فوقها» .

إن موقفا كهذا هو موقف مهزور من الناحية اللاهوتية ، فى نظر أى مسيحى ، لأنه يستتبع أن لاشىء قد تغير بمجىء المسيح : «فالوعد» يبقى وعد «الأرض» ، لشعب معين ، وليس وعداً بالسلام للإنسانية كلها .

ومن الحق ، على نقيض ماظنه مارسيون – أن اليهود والنصارى (والمسلمين من بعدهم) ربهم واحد ، هو الرب الخالق ، وإيمانهم واحد : هو إيمان إبراهيم غير المشروط ، والذى دلت عليه تضحيته .

بيد أن موضوع الوعد قد تغير بالنسبة إلى أى مسيحى ، كما تغير المخاطبون به ، لأن المسيح هو مركز التاريخ ، وهو حجاز فاصل بين العهد القديم والجديد .

وتحدد «الرسالة إلى العبرانيين» بوضوح ماحدث من استبدال العهد الجديد بالقديم الذى انتقض بالجحود ، وهى تسجل الفرق الثابت بين المسيح ورئيس الكهنة فتقول : «ولكنه الآن قد حصل على خدمة أفضل بمقدار ماهو وسيط أيضا لعهد أعظم قد تثبت على مواعيد أفضل ، فإنه لوكان ذلك الأول بلا عيب لما طلب موضعٌ لثانٍ» [الرسالة إلى العبرانيين ٨ /٦ - ٧] ، وحين تشير الرسالة إلى العهد الجديد الذى تنبأ به أرمياء [٣١ / ٣١ - ٣٤] [1] - تضيف قولها ، وهى تتحدث عن عهد جديد : «فإذا قال جديدا عتق الأول ، وأما ماعَتَقَ وشاخ فهو قريب من الاضمحلال» . [العبرانيين ٨ /١٣] ، ثم تختم الرسالة : «ولأجل هذا هو وسيط عهد جديد ، لكى يكون المدعوون ، إذ صار موت لفداء التعديات التى فى العهد الأول ، ينالون وعد الميراث الأبدى» [العبرانيين ٩ / ١٥] . وبطريقة أكثر حسما تقول الرسالة : «ينزع (المسيح) الأول لكى يثبت الثانى» [العبرانيين ١٠ / ٩] .

وهكذا يبطل العهد الجديد - الذى وعد بالسلام الأبدى ، وبسطه على جميع الناس - العهد القديم ، الذى وعد بالأرض ، لشعب خاص .

ويسجل القديس بولس بكل قوة فى الإصحاح الحادى عشر من رسالته إلى أهل رومية الاتصال والانفصال فى وقت معا ، بين العهد القديم والعهد الجديد ، فيقول : «ألعلّ الله رفض شعبه ؟ حاشا» [١١ / ١] ، ثم يذكر أنه هو نفسه يهودى : «لأنىّ أنا أيضا إسرائيلى من نسل إبراهيم» ، وهو يتمسك

---

(١) نص العهد «ها أيام تأتى يقول الرب : وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا ، ليس كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر فنقضوا عهدى ، يقول الرب : بل هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام ، يقول الرب : أجعل شريعتى فى داخلهم ، وأكتبها على قلوبهم ، وأكون لهم إلها ، وهم يكونون لى شعبا ، ولايعلمون بعد كل واحد صاحبه ، وكل واحد أخاه ، قائلين : اعرفوا الرب ، لأنهم كلهم سيعرفوننى من صغيرهم إلى كبيرهم ، يقول الرب : لأنى أصفح عن إثمهم ، ولا أذكر خطيتهم بعد .» (المترجم) .

برسالة الأنبياء: رسالة «البقية» ، ورسالة «المختارين» ، الذين يظلون جديرين بالاختيار ، وهم فى نظر القديس بولس هذه «البقية» [١١ / ٥] ، وهم بداهة أولئك الذين اعترفوا بيسوع المسيح مسيحا لهم (أعنى: أولئك الذين لم يعودوا ينتظرون مسيحا ، لكى يعطيهم أرضا ، ويرد إليهم مملكة داود ، ولكنه ذلك الذى يبشر بمملكة أخرى غير مملكة داود ، ملكوت الله ، وهو لايبشر بذلك وهو فى المجد الملكى ، بل وهو فى منتهى الفقر ، والتضحية على الصليب) ، يقول بولس: «مايطلبه إسرائيل ذلك لم ينله ، ولكن المختارون نالوه ، وأما الباقون فَتَقَسَّوْا» [١١ / ٧] ، «ألعلهم عثروا لكى يسقطوا ، حاشا» [١١ / ١١] ، وهو يعبر عن ذلك فى صورة شجرة الزيتون المطعمة ، ويبين كيف أن الجاحدين طعموا شجرة العهد بالعهد الجديد ، وهو يدعو هؤلاء اليهود – الذين لما يعترفوا بيسوع المسيح مسيحا لهم – أن ينضموا إلى إسرائيل الله [رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٦ /١٦] . وإلى جانب هؤلاء يهود اخرون اعترفوا بيسوع المسيح مسيحا لهم ، وجاحدون صاروا بإيمانهم ورثة العهد . [١١ / ٢٠] .

لقد نقض نظام الناموس: «إذ قد كان الناموس مُؤَدِّبَنَا إلى المسيح ، لكى نتبرر بالإيمان ، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب» [غلاطية ٣ / ٢٤ – ٢٥] ، وتشير الترجمة المسكونية للكتاب المقدس (TOB) . فى تعليق على هذه الفقرة تحت عنوان: (العهد الجديد ، ص ٥٥٧) بقولها: «إن نظام الإيمان هنا هو الذى يبدأ مع مجىء المسيح ، ففى هذا النظام الذى ينهى نظام الناموس ، قد أوحى الإيمان ، أى: إن الموحى ليس مجرد نظرية عن تدبير الله باعتباره وحيا وموضوعا للعقيدة ، بل هو موقف منفتح على عطاء الله ، وعلى روح الله ، بوساطة المسيح ، وفى المسيح» ، ويسجل القديس بولس الفرق الأساسى بين الأمرين فى قوله: إذ لست بعد عبدا ، بل ابنا ، وإن كنت ابنا فوارث لله بالمسيح ، [غلاطية ٤ / ٧] . ويذكر القديس بولس أسلافه اليهود بقوله: « من جهة الختان مختون فى اليوم الثامن من جنس إسرائيل ، من سبط بنيامين ، عبرانى من العبرانيين ، من جهة الناموس فريسى ، من جهة الغيرة مضطهد الكنيسة ، من جهة البر الذى فى الناموس بلا لوم» [رسالة بولس

الرسول إلى أهل فيلبّى ٣ / ٥ - ٦] ، وهو يسجل التمزق : فكل هذه الميزات فى الميلاد والتربية يقول عنها : « بل إنى أحسب كل شىء أيضا خسارة ، من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ، ربى الذى من أجله خسرت كل الأشياء ، وأنا أحسبها نفاية لكى أربح المسيح ، وأوجد فيه ، وليس لى برى الذى من الناموس ، بل الذى بإيمان المسيح » [فيلبى ٣/٨ - ٩] .

فلسنا هنا أمام تفاصيل لاهوتية دقيقة ، بل إن الذى يواجهنا هو جوهر المسيحية ذاته : أكان يسوع المسيح - هو المسيح الموعود لإسرائيل ؟ نعم ، أو لا .

فإن كان : نعم - فإن العهد الجديد يتجاوز القديم ، فى موضوع الوعد ، الذى لم يعد أرضا ، ومملكة أرضية ، ولكن سلام الرب وملكوته ، كما يتجاوزه فى المرسل إليه ، فهو ليس مرسلا إلى شعب خاص ، ولكن للإنسانية بأسرها .

وإن كان : لا ، فلاشىء يكون قد تغير بمجيئه ، ومن ثم يستمر العهد الموسوى القديم : لقد أبرم الرب عهدا ، لامع الإنسانية بأكملها ، ليبشرها بملكوت الرب ، بل مع الأسباط ليعطيهم أرضا .

والغريب أن الإعلان الإنجليكانى عام ١٩٧٣ يلتزم بهذه الطريق الثانية .

وما كان للمغزى السياسى لوضع كهذا أن يتغفل أحدا :إنه يعطى لدولة إسرائيل أساسا لاهوتيا فيقول: إن دولة إسرائيل هى تحقيق للوعود الإلهية !!! ... ولذلك كتب رابين جرونويلد فى الثامن عشر من إبريل ١٩٧٣ (أى بعد يومين) - فى صحيفة (لوموند) ، يسجل واقعاً هو أن وجود إسرائيل السياسى صار مبررا بالكتاب المقدس .

وعلى نقيض ذلك مضى قساوسة جنوبى إفريقية إلى تأكيد أنهم لايستطيعون أن يبرروا بالوعود الكتابية تخصيص أرض معينة لشعب خاص ، وقالوا : «إن هناك غموضا فى التأويل ، وهو يستتبع اختلاطا سيئا بين اليهودية والصهيونية » .

وتابعوا حديثهم قائلين : «إن نتيجة هذا الاختلاط هى أن الإعلان يطلب قبول الأمر الواقع ، واقع الاحتلال بالقوة ، لأرض ، دون مراعاة أوامر العدالة » .

ومما له مغزى فى هذا الصدد أن الكرسى البابوى لم يعترف مطلقاً بدولة إسرائيل ، وأن البابا بولس السادس فى خطبته التى ألقاها فى ٢٢ من ديسمبر ١٩٧٢ أمام المجمع المقدس – قد اعترف بالظلم الواقع على «أبناء الشعب الفلسطينى الذين ينتظرون منذ سنوات كثيرة ، ويطالبون بالاعتراف العادل بمطامحهم» ، وقد رفض البابا أن يقدم تبريرا دينيا لدولة إسرائيل ، وأعلن بمناسبة بناء بعض المستعمرات الصهيونية فى الأرض المحتلة ، قوله : «إن الدعم التدريجى لأوضاع خاصة ذات أساس قانونى واضح ، معترف به دوليا ومضمون – يجعل من العسير إيجاد تسوية عادلة تأخذ فى اعتبارها مصالح الجميع ، بدلا من تسهيل الوصول إليها» .

وهناك مؤشر آخر على وعى المسيحيين بواقع المشكلة هو : الموقف الذى اتخذه المجلس المسكونى للكنائس فى جمعيته العالمية السادسة ، فى فانكوفر ، (من ٢٤ من يوليو إلى ١٠ من أغسطس ١٩٨٣ م) ، فقد جاء فى بيانه قوله :

«إن بعض التفسيرات اللاهوتية قد حالت دون أن يتمكن المسيحيون فى مناطق أخرى من تقييم تطور الوضع الديني والسياسى فى الشرق الأوسط ، بطريقة صحيحة» ، «وإن السياسة الإسرائيلية لاحتلال المدن الأردنية قد أدت إلى ضمها فى الواقع ، وبذلك اكتمل تطبيق سياسة عنصرية لتنمية السكان . كما حدث انتهاك صارخ للحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى» .

وبصرف النظر عن مسألة الاستمرار البيولوجى والتاريخى بين العبرانيين الكتابيين ، وبين صهاينة عصرنا ، (وهى مشكلة سوف نعود إليها عندما نعالج المشكلة التاريخية) ، – فإن المغزى الكامل للرسالة التى نبحثها هو : من يكون ولد ابراهيم ؟ الذى هو ولد العهد ؟ . وهل هو ولد إبراهيم باللحم والدم أم بالإيمان ؟ .

إن إجابة الأناجيل لالبس معها ، فإن المسيح يصرخ فى وجوه الفريسيين والصدوقيين ، الذين كانوا يظنون أنهم مالكو الوعد ، كأنما ورثوه عن آبائهم ، دارا أو عقارا ، فيقول : «لاتفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم : لنا إبراهيم أبا، لأنى أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم» [متى ٣ / ٩] .

فليس أبناء إبراهيم أولئك الذين ينتمون إليه بالدم ، بل هم أولئك الذين يرضون أن يضحوا مثله دون شرط ، على نحو مافعل المسيح ، وهو الذى قال لليهود الذين آمنوا به ، وقالوا له : «أبونا إبراهيم» ، قال : «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم» [يوحنا ٨/٣٩] ، ثم يضيف بكل قوة وهو يدعوهم إلى كلمته : «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» . [يوحنا ٨/٥٨] .

«ليس يهودى ولا يونانى ، ليس عبد ولا حر ، ... فإن كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل إبراهيم ، وحسب الموعد ورثة» [غلاطية ٣ / ٢٨ – ٢٩] ، «لأنه فى المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئا ولا الغرلة ، بل الخليقة الجديدة» [غلاطية ٦ / ١٥] ، لأن هذه هى «إسرائيل الله» [غلاطية ٦ / ١٦] .

هؤلاء هم المؤمنون الذين هم أولاد إبراهيم

ومن ناحية أخرى نجد أن «الكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم» [1] [غلاطية ٣ / ٦ – ٨] ، . وتحدد نفس الرسالة أن «بركة إبراهيم تصير للأمم فى المسيح يسوع لتنال بالإيمان موعد الروح» [غلاطية ٣/١٤] ، وموجز القول أن من المستحيل بالنسبة إلى أى مسيحى أن يقدم مغزى لاهوتيا لدولة إسرائيل . فإن احترام الإيمان اليهودى لا يستتبع مطلقاً الاندماج بين اليهودية والصهيونية ، الذى يؤدى إلى إضفاء صفة القداسة على الأهداف التاريخية لحركة سياسية .

---

(١) التكوين ١٥ / ٦ .

٢ – هذه القراءة الانتقائية والقبلية للكتاب المقدس ليست أكثر قبولا بالنسبة إلى اليهودى منها بالنسبة إلى النصرانى ، لأنها تستتبع بالنسبة إلى اليهود أنفسهم نوعا من الردة : هو أن يستبدلوا « دولة إسرائيل » « بإله إسرائيل » .

إن الإيديولوجية الصهيونية تعتمد على فرض جد بسيط هو أنه قد كتب فى سفر التكوين (١٥ / ١٨ – ٢١) مانصه : » فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات » .

فمن هذا المنطلق أعلن الزعماء الصهاينة ، أن « فلسطين قد أعطيت لنا من الرب » ، وذلك دون أن يسألوا أنفسهم عن مضمون العهد ، وعما إذا كان الاختيار غير مشروط ، وبصرف النظر عن أن يكونوا ضلالا أو ملحدين .

وتبين إحصاءات الحكومة الإسرائيلية ذاتها أن ١٥ ٪ من الإسرائيليين متدينون ، ولم يمنع هذا ٩٠ ٪ منهم أن يؤكدوا أن هذه الأرض قد أعطاهم إياها الرب ... الذى لا يؤمنون به . والأغلبية الساحقة من الإسرائيليين الحاليين لا يشتركون فى الشعائر ، ولا فى الإيمان الدينى ، « والأحزاب الدينية » المختلفة التى تلعب دورا حاسما فى دولة إسرائيل لا تضم سوى أقلية ضئيلة من المواطنين .

هذا التناقض الظاهر فسره ناثان وينستوك – Nathan Weinstock تفسيرا كاملا فى كتابه « الصهيونية ضد إسرائيل Le Sionisme contre Israël[١] فقال : « إذا كانت الظلمانية Obscurantisme[٢] الربانية قد انتصرت فى إسرائيل فما ذلك إلا لأن التصوف[٣] الصهيونى لا يتماسك إلا بالرجوع إلى الدين الموسوى ، ألغوا مفاهيم « الشعب المختار » و « الأرض الموعودة » ولسوف ينهار أساس الصهيونية ، ولذلك نجد أن الأحزاب الدينية تستمد قوتها بشكل متناقض من التواطؤ بين الصهيونيين اللا أدريين . لقد فرض التماسك الداخلى فى الكيان الصهيونى لإسرائيل على قادته تقوية سلطة الكهنوت ، وقد كان الحزب الاجتماعى – الديمقراطى (الماباى) – بتحريض من بن جوريون – هو الذى جعل دراسة الدين إجبارية فى مناهج المدارس ، وليست الأحزاب الدينية .

---

(١) طبعة ماسبيرو ١٩٦٩ ص ٣١٥ .

(٢) يقصد بهذا المصطلح : نزعة الانغلاق وإعاقة التقدم والمعرفة . (المترجم) .

(٣) يقصد بالتصوف هنا الإيمان المطلق القائم على التسليم والعاطفة لا على العقل ، وهو قريب من التعصب الأعمى . (المترجم) .

«لقد وجد هذا البلد تحقيقا لوعد أعطاء الرب ذاته» فمن المضحك أن نسأله أن يقدم إلينا مبررا لمشروعيته» ، وكانت هذه هى المسلمة الأساسية كما صاغتها السيدة جولدا مائير [(١)] ، وكثيرا ماكرر بيجن قوله:

«إن هذه الأرض أعطيت لنا وعدا ، ولنا عليها حق» [(٢)] . كما كان ديان يقول:

«إذا كان لنا الكتاب المقدس ، ونحن نعتبر أنفسنا شعب الكتاب المقدس . فيجب أن تكون لنا أيضا الأرض الكتابية أرض القضاة ، والكهنة ، أرض أورشليم ، وحبرون ، وأريحا ، وأراض أخرى أيضا» [(٣)] .

فالرجوع إلى الكتاب المقدس ، عند حزب العمل ، أو عند الليكود ، إنما يراد منه تدعيم سياسة ترى أن «فلسطين تخص الصهيونيين بموجب منحة ممهورة بتوقيع: الله» .

وهذه القراءة الانتقائية ذاتها هى التى تميز نصوص التوراة ، التى تتسم بالعنف والشراسة ، لتبرير أعمال الاغتصاب التى تمارس الآن ، وبذلك أصبحت عمليات النهب والإبادة التى تمارس ضد المواطنين الأصليين فى كنعان شرطا وحيدا للتمسك بالعهد .

لقد قال الرب لموسى ، فى نص سفر العدد (٣٣/٥١ - ٥٢ ، و ٥٥ - ٥٦): «كلِّم بنى إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان ، فتطرودن كل سكان الأرض من أمامكم ، وتمحون جميع تصاويرهم ، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة ، وتخربون جميع مرتفعاتهم ... وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا فى أعينكم ، ومناخس فى جوانبكم ، ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها ، فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» .

---

(١) انظر سياق هذا التصريح فى صحيفة (لوموند) عدد ١٥ من أكتوبر سنة ١٩٧١ .

(٢) تصريح بيجن فى أوسلو - صحيفة (دافار) ١٢ من ديسمبر ١٩٧٨ .

(٣) موشى ديان - صحيفة جيروزاليم بوست - ١٠ من أغسطس ١٩٦٨ .

فهذا هو التصور المسبق الذى يؤمن به الصهيونيون ، من شارون إلى الربانى مائير كاهان ، عما ينبغى أن يفعلوا بالفلسطينيين .

أما سفر التثنية فلا يقتصر على أن يطلب اغتصاب الأرض ، وطرد أصحابها الأصليين ، بل إنه يطلب المذبحة : « متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوبا كبيرة من أمامك ، ودفعهم الرب إلهك أمامك ، وضربتهم فإنك تحرِّمهم ، لا تقطع لهم عهدا ، ولا تشفق عليهم » [٧ / ١ — ٢] ، « ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء » [٧ / ٢٤] .

وسفر يشوع ، وهو سفر المذابح ، لا يؤخذ على أنه نص كلاسيكى عندما يدرس فى المدارس الإسرائيلية، وإنما هو كذلك وسيلة إلى الإعداد النفسى للمجندين فى الجيش .

ذلك أن الوعاظ العسكريين الربانيين ، منذ غزو لبنان ، يدعون إلى الحرب المقدسة ، وقد حدد لهم الموضوع الأساسى ، أحد الكهنة الربانيين (برتبة كابتن) بقوله :

« إننا لا ينبغى ان ننسى المنابع الكتابية التى تبرر هذه الحرب ، وتبرر وجودنا هنا : إننا نؤدى واجبنا الدينى اليهودى (Mitzva) (١) بوجودنا هنا ، لقد كتب علينا اداء هذا الواجب الدينى التعبوى ، وهو أن نغزو الأرض ، ونحارب العدو » .

ويشيع هذا التلاعب العقائدى ، ابتداء من مجال علم الآثار حتى الكتب المدرسية ، حتى ليمكن القول : (إن سفر يشوع هو النص الأساسى ، فى المدرسة وفى الجيش ، ويعتبر تفسيره إجباريا فى المدارس ، وهو أمر بدأ الأخذ به منذ عهد زعيم حزب العمل بن جوريون) ، بل إن هذا الاستغلال العقائدى بلغ الأجهزة الإعلامية ، والملصقات الشعبية .

---

(١) كلمة من العبرية الحديثة معناها (الحشد والتعبئة) (المترجم) .

ففى المستوى الأثرى: «شرعت بعثة إسرائيلية يرأسها ى. يادين عام ١٩٥٥ بالحفر فى تل القضاة، فى أعلى وادى الأردن، وهو الموقع المفترض لحاصور Hatsor الكتابية، وذلك لتحديد تواريخ غزو يشوع لكنعان. ذلك أن الكتاب المقدس يقول فى (سفر يشوع ١١ / ١٣): «وإن يشوع – عندما خرج منتصرا من المعركة التى شنها الإسرائيليون على مجموعة المدن الكنعانية بقيادة يابين ملك حاصور – أحرق المدينة، لأن حاصور كانت عاصمة هذه الممالك كلها. فالعثور على أثر هذا التخريب وتحديد تاريخه بوساطة الفخار كان أحد أهداف هذه الحفائر» [١].

وفى مستوى العامة، فى المدرسة، وفى الجيش: تبرز دراسة سفر يشوع فى برامج المدارس الإسرائيلية، من الصف الرابع حتى الصف الثامن، وقد وزع الأستاذ تمران، من تل أبيب، الاستبيان التالى على ألف تلميذ:

«أنت تعرف الاقتباس التالى من سفر يشوع [٦ / ٢٠]: «وصعد الشعب إلى المدينة (أريحا) كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة، وحرموا [٢] كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف».

أجب عن الأسئلة الآتية:

أ – مارأيك فى تصرف يشوع والإسرائيليين، أكان سليما أم لا ؟.

ب – لنفترض أن الجيش الإسرائيلى احتل مدينة عربية أثناء الحرب، أيجب عليه – أم لا – أن يُنْزِلَ بسكانها المصير الذى أنزله يشوع بسكان أريحا ؟ ...».

---

(١) **آثار العالم** – Archaelogia mundi، سورية – فلسطين I، جان بروت، ط ناجل – جنيف ١٩٧٨ ص ٦٦.

(٢) أى: قتلوا. (المترجم).

ولما نشر الأستاذ ج . تمران النتائج الرهيبة لتحقيقه عن هذا الإعداد للأطفال كان جزاؤه أن طرد من جامعة تل أبيب [1] .

* * *

* * * * * *

(١) ذكره الراعى كلود رينود فى (لبنان - فلسطين) ، ط الهرمتان ، باريس ١٩٧٧ ص ٨٤ - ٨٦ .

وفى مستوى الأجهزة الإعلامية ، والملصقات الشعبية :

قامت دولة إسرائيل فى يناير ١٩٨٣ ، وبعد مذابح لبنان ، بإصدار مجموعة من ثلاثة طوابع «لتخليد ذكرى يشوع» ، أولها مخصص لعبور الأردن ، ويفسر سيجسموند جورن Sigismond Goren كاتب المقال الخاص بهذا الطابع ، فى تل أبيب ، بقوله : «هذا أمر يذكرنا بمنهج العمل غير المباشر» الذى قامت به القوات الإسرائيلية المعاصرة ، ضمن ماقامت به فى سيناء عام ١٩٥٦ ، وعلى ثلاث جبهات عام ١٩٦٧ ، ولكنه حدث لأول مرة منذ ٣٣٠٠ عام على يد أسلافنا الكتابيين ، حين حاصر العبرانيون بلاد كنعان ، ليهاجموها من الشرق ... » .

وثانى هذه الطوابع كان عن «الاستيلاء على أريحا» وقد قال جورن بشأنه : إنه يذكر بالإبادة المقدسة ، للسكان ، باستثناء راحاب الزانية ، لأنها استقبلت المرسلين [١] وخبأتهما .

وعن الطابع الثالث . وقد كان يمثل يشوع وهو يوقف الشمس حتى ينهى معركة جبعون ضد خمسة الملوك الكنعانيين ، الذين قال عنهم السفر : ملوك أورشليم وحبرون – وجدنا المؤلف يذكر بأن «الملوك الخمسة قد أسروا .. ثم قتلهم يشوع وعلق أجسادهم على خمسة أشجار» . ويختم السيد جورن بقوله : «إن إسرائيل اليوم تواجه عدوا ليس بأقل خطرا من ملوك الكنعانيين فى الماضى» .

ليس هذا سوى قليل من كثير من الأمثلة البشعة الدالة على استخدام الكتاب المقدس باعتباره (تاريخا) من ناحية ، وباعتباره تبريرا «مقدسا» لسياسة ، من ناحية أخرى .

---

(١) هما غلامان جاسوسان أرسلهما يشوع لكى يتجسسا على مدينة أريحا قبل اقتحامها . (المترجم) .

PHILATELIE

Israël : Josue, aïeul d'Ariel Sharon

Il est curieux de relire, en 1983, le Livre de Josué, véritable recueil de «reportages» dans lesquels le maître-chroniqueur décrit la longue et sanglante guerre pour la conquête de la Terre promise quelque treize siècles avant l'ère chrétienne.

TEL AVIV: SIGISMOND GOREN

Notre curiosité a été éveillée par trois timbres, émis dernièrement par l'administration des PTT pour commémorer Josué, conducteur d'hommes, chef militaire, stratège et tacticien, qui dirigea la campagne pour une terre qui devait devenir par la suite la Judée et la Samarie, le berceau des royaumes hébreux, puis la Palestine (déformation du nom de Philistin) et, enfin, la Cisjordanie.

Un timbre de 5.50 chekels, gris-violet-bleu-rose-turquoise, est consacré au prélude de l'invasion – les Enfants d'Israël traversent le Jourdain avec, à leur tête, les sacrificateurs portant l'Arche de l'Alliance, tandis que Josué, le commandant en chef, surveille le cortège. Voilà qui rappelle la «méthode d'action indirecte» appliquée par les forces israéliennes contemporaines, entre autres, au Sinaï en 1956 et sur trois fronts en 1967, mais innovée il y a 3300 ans déjà par leur ancêtre biblique, puisque les Hébreux contournèrent le pays de Canaan pour attaquer de l'est, à partir du territoire qui est actuellement le royaume de Jordanie.

Un second timbre, de 7.50 chekels, gris-violet-rose-turquoise-noir, nous montre Josué dirigeant les opérations pour la prise de Jéricho, tandis que les sacrificateurs sonnent la trompette et les murs de la célèbre ville s'écroulent après (ce qui semble avoir été) une «guerre des nerfs» qui s'est prolongée pendant sept jours.

«Lorsque le peuple entendit le son de la trompette, il poussa de grands cris et la muraille s'écroula» écrit le «reporter» biblique. Les Hébreux s'emparèrent de Jéricho et «dévouèrent par interdit, au fil de l'épée, tout ce qui était dans la cité, hommes, femmes, enfants et vieillards, jusqu'aux bœufs, aux brebis et aux ânes...». Puis «ils brûlèrent la ville et tout ce qui s'y trouvait» quoique Josué laissât la vie à Rahab, la prostituée, parce qu'elle avait accueilli et abrité ses émissaires secrets, venus en mission de reconnaissance avant l'attaque.

Le troisième timbre, de 9.50 chekels, gris-orange-jaune-violet-noir, décrit un autre épisode célèbre – Josué arrêtant la course du soleil et de la lune afin de pouvoir terminer la bataille de Gabaon contre les cinq rois cananéens qui s'étaient coalisés pour le combattre et dont, selon le livre, les rois de Jérusalem et de Hébron. «Le soleil s'arrêta au milieu du ciel et ne se hâta point de se coucher presque tout un jour.» Les cinq monarches furent capturés et Josué commanda à ses hommes: «Approchez-vous, mettez vos pieds sur les cous de ces rois.» Puis «il les fit mourir» et leurs cadavres furent suspendus à cinq arbres.

Israël, aujourd'hui, doit affronter un ennemi non moins dangereux que les rois canaanéens du passé: c'est l'inflation (environ 125% pour l'année écoulée). Comme les tarifs postaux doivent, forcément, se conformer à la courbe des prix, les PTT ont émis un timbre spécial sur lequel aucune valeur n'est indiquée. Le public peut s'en procurer aux offices postaux contre paiement du prix qui change périodiquement. Il est utilisable exclusivement pour le courrier local.

JOSHUA ISRAEL

La conquête de la Terre promise par Josué: l'histoire se répète.

[مقال سيجسموند جورن (تل أبيب) نشره «جورنال دى جنيف» فى عدد ٢٣ من يناير ١٩٨٣ بعنوان:

«يشوع جد أريل شارون»] .

ولدينا مثال آخر على الخداع التاريخى الذى يؤدى إلى المخاطرة بروائع الفن العالمى، وبالعناصر البالغة القيمة فى التراث الثقافى الفلسطينى: المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، هذا المثال هو أعمال الحفر والتنقيب تحت هذا الأثر العظيم، متذرعين بالبحث عن بقايا «معبد سليمان»، وهى ذريعة تقوم على أكذوبتين:

الأولى: أن حائط المبكى الذى يجاور الأثر ليس بقية من معبد سليمان مطلقا، ولكنه من معبد هيرودس، ومن الواضح أن بناءه وتصميمه، من النموذج الرومانى تماما، على ما يقرره الأثريون.

والثانية: أن معبد سليمان الذى يعرف جميع المؤرخين والأثريين، من ماضى موقعه، أنه لا يمكن أن يكون قد بقى منه أى أثر – هذا المعبد ليس مطلقا – عنصراً من عناصر التراث الثقافى اليهودى، إذ إن الكتاب المقدس ذاته (وهو الشاهد الوحيد على هذا المبنى) يقرر أنه بنى بأيدى المعماريين، والبنائين، والحرفيين الذين أرسلهم ملك الفلسطينيين حرام دى صور Hiram de TYR، وأن الخطة، شأنها شأن الديكور والأثاث – على ما وصفت فى سفر الملوك [الملوك الأول ٦/١ – ٣٨ وما بعدها]، كانت مطابقة للنماذج الكنعانية، إذ لم تكن لها سوابق إسرائيلية، (فقد كان التابوت منقولا تحت خيمة، ثم إن الزخرفة لم تحتو على صور بارزة، كصورة الأطفال المجنحين ذات الأصل العراقى).

بيد أن القضية ليست قضية استبعاد، أو نقد تاريخى، وحسب، ذلك أن هذه القراءة للكتاب المقدس ليست أكثر قبولا عند اليهودى منها عند النصرانى.

لقد دأبنا على أن نرجع بالنسبة إلى المسيحيين، إلى العهد الجديد بخاصة، ولذا لن نذكر هنا سوى النصوص التى يعترف بها المؤمنون من أتباع العقيدة اليهودية: نصوص التوراة، ومجموع العهد القديم.

أولا: العهد، أَحَقٌّ أن الرب لم يعط عهداً إلا لمجموعة من الأسباط؟، وأن هذه الأسباط هى قبائل العبرانيين وحدها؟.

لقد قال الرب لإبراهيم فى سفر التكوين: «أما أنا فهو ذا عهدى معك ، وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يُدْعى اسمك بعد ابرام ، بل يكون اسمك إبراهيم ، لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم» . [التكوين ١٧ / ٤ - ٥] .

وهذا يفرض ملاحظتيـــن :

أ - فإبراهيم القادم من أور ، فى العراق ، ليس عبرانيا ، بل هو آرامى (أى : سريانى) كما يقول سفر التثنية : «ثم تصرِّح وتقول أمام الرب إلهك : آراميا تائها كان أبى» [التثنية ٢٦/٥] ، وإذن ، فقد اختار الله إبراهيم ، لا لعرقه (سريانيا ، مهاجرا ، عراقيا) ، وإنما لإيمانه .

ب - يقرر الرب الختان علامة على العهد : «فتختنون فى لحم غرلتكم ، فيكون علامة عهد بينى وبينكم» [التكوين ١٧/ ١١] .

وينفذ إبراهيم هذا الأمر : «فى ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل (ابن هاجر)» [التكوين ١٧ / ٢٦] ، ويقول الرب : «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره ، وأكثره كثيرا جداً ، اثنى عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمة كبيرة» [التكوين ١٧ / ٢٠] .

لم يكن إسحاق قد ولد بعد من سارة ، فأعطى الرب عهده إلى إسماعيل «أقيم عهدى معه ، عهدا أبديا لنسله من بعده» . [التكوين ١٧ / ١٩] .

فالنص إذن واضح فى أن : العهد كان سابقا على ميلاد إسرائيل (يعقوب) ، لقد أبرم مع الآرامى إبراهيم ، بأن أعطاه «وعدا» بذرية كثيرة لإسماعيل ، ولإسرائيل أيضا ، ولما كانت الرواية قد شاعت أن يكون العرب من نسل إسماعيل ، وأن يكون العبرانيون من نسل إسرائيل ، فإن كليهما يكون وريثاً للوعد .

ومع ذلك فليس الأمر أمر «جنس» مطلقا ، بل هو أمر مجموعة من الشعوب ذات اللغات السامية ، مترحلة منذ آلاف السنين ، من الجزيرة العربية حتى العراق ، ومصر ، واللغة الآرامية (وهى التى كان يتكلمها يسوع المسيح) هى الرحم المشترك للعبرية والعربية .

«فبذرة» إبراهيم لم تقتصر مطلقا على العبرانيين ، وقد جاء فى سفر التكوين: أن سارة طلبت من إبراهيم أن يطرد جاريته هاجر ، والابن الذى ولدته لإبراهيم هذه المصرية [انظر التكوين ٢١/٩] ، ويبدو أن الله لم يجعل لغيرة هذه المرأة أو نزوتها أهمية كبيرة ، فقد قال لإبراهيم: «لايقبح فى عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك ، فى كل ماتقول لك سارة اسمع لقولها ، لأنه بإسحاق يدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك» [التكوين ٢١/١٢ - ١٣] . وقد صنع الله معجزة من أجل حفظ إسماعيل وذريته: فعندما كانت هاجر ، فى البرية ، تبكى ولا تريد أن ترى ولدها يموت من العطش «نادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك ياهاجر ، لاتخافى ، لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام ، وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينيها فأبصرت بئرماء ، فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية .» [التكوين ٢١/١٧ - ٢٠] .

إن قراءة الصهيونيين الانتقائية «تنسى» أن هذا العهد يمتد ، لا إلى العبرانيين وحدهم ، بل إلى جميع الساميين ، وفيما وراء ذلك ، كما قيل لإبراهيم: «وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» [التكوين ١٢/٣] .

إن شمولية الوعد قد أكدت لإسحاق ، فالله يقول له: «وأكثر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض» [التكوين ٢٦/٤] ، (وجدير بالذكر أن إسحاق قد تزوج - خضوعا لرغبة أبيه - امرأة آرامية ، هى رفقة ، من بلاد إبراهيم ، أى من شمالى العراق ، من ناحور ، [التكوين ٢٤/١٠] .

هذا المدخل الشمولى للوعد مذكور بمناسبة عيسو ، وهو زوج امرأة عربية ، فإن عيسو - على مايقرره [سفر التكوين ٢٨/٩] «ذهب إلى إسماعيل ، وأخذ مَحْلَةَ بنت إسماعيل بن إبراهيم» [1] .

---

(١) تذكر الترجمة المسكونية للكتاب المقدس (TOB) - بمناسبة هذه الفقرة أن: «هذا النص يبرز حضور عناصر أدونية ، وعربية فى نسل إبراهيم .» .

إن الله يؤكد وعوده التى أعطاها لإبراهيم ، جده ، ولإسحاق أبيه ، ويضيف دائما قوله : « ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض » [التكوين ٢٨ / ١٤] .

ولقد تجلت هذه الشمولية من قبل ، فى سفر التكوين ، مع عهد الرب لنوح ، فقد نشر الرب القوس فى السحاب ، وقال لنوح : « هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم ، وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر » [التكوين ٩ / ١٢] .

ثانيا : الاختيار : كيف – فى الواقع – نستطيع أن نؤفق بين خصوصية « الاختيار » لشعب معين وبين مبدأ الوحدانية ؟ لقد كانت الإنسانية واحدة لأن الرب واحد .

وما دام لدى العبرانيين مفهوم قبلى عن الاختيار ، فإنهم لم يكونوا موحدين بصورة دقيقة (وقد رأينا أن إيلوهيم هو جمع إيل ، أى : الإله) ، فمفهوم الوحدانية لم يتخلص من الغموض إلا مع الأنبياء : لقد كان إله القبيلة هو وحده الإله الأقوى ، والغَيور من أن تؤدى عبادات لغيره من الآلهة التى لم تكن الإله الخاص بالقبيلة ، ومع الأنبياء دان الناس بالإله الواحد ، إله سفر التثنية (الذى اكتشف [عام ٦٢٢ ق . م] فى حكم جوزياس) ، وهو الذى سوف يقول ، ليجعل منه المادة الأولى فى الإيمان اليهودى : « اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد » ، [التثنية ٦ / ٤] .

ولنكرر قولنا السابق : إذا كان الله واحداً ، فإن الإنسانية واحدة ، وقد استقيت هذه النتيجة من سفر اللاويين [١٩ / ١٨] : « تحب قريبك كنفسك » . وقد كان الربانى هليل Rabbi Hillel – [٣٠ قبل الميلاد – ١٠ بعد الميلاد] ، وهو « يعتبر عهدا جديداً فى التفسير العبرانى » على ماذهب إليه أندريه شراق [1] – كان يقول : « لاتفعل بالآخرين مالاتحب أن يصنع بك ،

---

(١) أندريه شراق : (تاريخ اليهودية Histoire du Judaisme – (P . U . F) سلسلة معها – que sais - Je – ١٩٦٣ ص ٣٦ .

هذا هو القانون كله ، وليس الباقى سوى تفسير ، وجاء بعده الربانى عقيبا (٥٠ - ١٣٢ م) ، وهو الذى بدأ مجموعة « المشنا » ، (الترجمة اليهودية) التى أنجزها تلميذه يهودا ، فقال مفسرا هذه العبارة فى سفر التثنية بقوله : « هذا مبدأ أساسى من مبادىء الشريعة » .

إن مايحمله الإيمان اليهودى فى ذاته من عظمة وجمال ينتشر لدى الأنبياء فى صورة جهد من أجل استبطان الإيمان القبلى القديم ، وشموله ، وبخاصة لكى يبين أنه ليس فقط ماضيا وتقليدا ، يجب أن نحافظ عليه ، بل هو مستقبل للبناء طبقا لدعوة الله .

ويتجلى الاستبطان فى إعادة الكشف عن المعنى الروحى ، الكامن فى شعائر العبادة ، ذلك أن بذرة هذه الروحية المستترة تحت النسكية [1] القبلية قد وجدت من قبل فى التوراة : وليس ختن اللحم سوى علامة خارجية على الإسلام لله ، كما اقتضاه العهد ، وقد جاء فى سفر التثنية : «اختنوا غرلة قلوبكم» [التثنية ١٠ / ١٦] ، وهكذا سوف يبشر إرميا ، بتجديد الإيمان فى قوله : «انزعوا غرَل قلوبكم» [٤ / ٤] .

ويكتب أرمياء أيضا قائلا : إن الناموس بأكمله لن يكتب فى الصلاة فحسب ، ولكنه سوف يكتب فى القلوب ، فالله يقول : « هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت إسرائيل .. أجعل شريعتى فى داخلهم ، وأكتبها على قلوبهم » [إرمياء ٣١ / ٣٣] ، وهذا هو «العهد الجديد» . [إرمياء ٣١ / ٣١] .

هذا العهد الجديد ينفتح على جميع الشعوب ، ضد كل أنانية عنصرية أو قبلية ، وها هوذا زكريا يبشر باهتداء الشعوب ، فيقول : «يتصل أمم كثيرة بالرب فى ذلك اليوم ، ويكونون لى شعبا» [زكريا ٢ / ١١] . فشعب الرب منذئذ حسب الإيمان ، لا حسب اللحم والدم .

---

(١) يقصد بالنسكية مارسمته الأديان من شعائر تقترن دائما بالأداء والشكل ، كالصلاة مثلا ، فهى ليست مجرد موقف قلبى ، بل هى أفعال مخصوصة . الخ . (المترجم) .

وتصبح أورشليم ذاتها رمز هذه الشمولية ، «بيتى بيت الصلاة ، يدعى لكل الشعوب» [أشعيا ٥٦/٧] ، فأورشليم ، المدينة المقدسة لدى كل أولاد إبراهيم – هى رمز لهذه الوحدة الإنسانية فى نطاق الإيمان ، والدعاء الرائع القائل «العام القادم فى أورشليم» يصبح صلاة لكل الناس، ولكل الشعوب ، أملا فى العودة إلى الله ، وفى قيام ملكوته . هذا الخبر السعيد «بالعهد الجديد» هو بشرى إلى «كل بشر معًا» [أشعيا ٤٠/٥] ، والسلام موعود للجميع ماداموا مؤمنين: «التفتوا إلى ، وأخلصوا ياجميع أقاصى الأرض» [أشعيا ٤٥/٢٢] «أيها العطاش جميعا هلموا إلى المياه ... ها أمة لاتعرفها تدعوها ، وأمة لم تعرفك تركض إليك» [أشعيا ٥٥/١, ٥] .

لم يعد هناك غريب فى شعوب الرب: «فلا يتكلم ابن الغريب الذى اقترن بالرب قائلا: إفرازا أفرزنى الرب من شعبه» [أشعيا ٥٦/٣] .

هذا الانفتاح على العالم ينطوى على تناقضات ، من نزعة الشعور بالامتياز ، Exceptionnalisme ، إلى التشبث بالقبلية Exclusivisme Tribal، ولقد تلقى الأنبياء ماضى شعبهم من الرسالة التى تلقوا أمانتها ، ولكنهم تجاوزوا هذا الماضى واستعلوا عليه بأن فتحوه على المستقبل ، وعلى الجميع: «حدث لجمع كل الأمم والألسنة» [أشعيا ٦٦/١٨] .

إن أورشليم هذه ، أورشليم الرب ، هى مركز العهد الجديد ، فلم تعد مدينة كسائر المدن ، فالأرض كلها هى «أرض مقدسة» تختمر فى جميع بقاعها عملية تحول الناس إلى دعوة الله: «لأنى ها أنذا خالق سموات جديدة ، وأرضا جديدة ، فلا تذكر الأولى ، ولا تخطر على بال» ، [أشعيا ٦٥/١٧] .

إن ماضيا منصرما ينفصل فيه الإيمان عن الحياة ، كان يتفق مع استغلال الناس ، ومع شن الحروب ، أما الآن فإنهم «يبنون بيوتا ، ويسكنون فيها ، ويغرسون كروما ، ويأكلون أثمارها ، لايبنون وآخر يسكن ، ولا يغرسون وآخر يأكل» [أشعيا ٦٥/٢١ – ٢٢] .

ماذا تعنى صلاة ليست بمثابة روح العمل لإصلاح العالم طبقا لإرادة الله ؟ ، إنكم «إن كثرتم الصلاة لا أسمع ، أيديكم ملآنة دما» [أشعيا ١ / ١٥] ، ذلك هو الماضى ، وهذا هو المستقبل .

«من صهيون تخرج الشريعة ، ومن أورشليم كلمة الرب ، فيقضى بين الأمم ، وينصف لشعوب كثيرين ، فيطبعون سيوفهم سككا ، ورماحهم مناجل ، لاترفع أمةٌ على أمةٍ سيفا ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد» ، [أشعيا ٢/ ٣ -٤] .

تلكم هى رؤية أشعيا العظيمة للمستقبل ، وهى أيضا رؤية الأنبياء ، وهى تجعل من أورشليم ، لاعاصمة شعب ، بل منارة روحية لأمة دينية تمتد على تخوم العالم .

أما أرميا فإنه ، وقد استعلى على ماض تجاوزته الظروف ، أقدم على أن يبشر «بالعهد الجديد» ، ولكنه «ليس كالعهد الذى قطعته مع آبائهم» [أرميا ٣١/٣٢] ، وأما التابوت ذاته وهو الذى كان منذ قرون المركز المقدس للعبادة فى إسرائيل ، فإن أرميا – وقد اتجه إلى مستقبل ينتشر فيه الإيمان فى أناس كثيرين – لايرى فى هذا التابوت سوى بقية من بقايا الماضى: «إنهم لايقولون بعدُ تابوت عهد الرب ، ولا يخطر على بال ، ولا يذكرونه ، ولا يتعهدونه ، ولا يصنع بعد ، فى ذلك الزمان يسمون أورشليم كرسى الرب ، ويجتمع إليها كل الأمم ، إلى اسم الرب ، إلى أورشليم» ، [أرميا ٣/١٦ – ١٧] .

أما أشعيا فيقول: «لاتذكروا الأوليات ، والقديمات لاتتأملوا بها ، ها أنذا صانع أمرا جديدا ، الآن ينبت ، ألا تعرفونه ؟» [أشعيا ٤٣/١٨ – ١٩] .

لقد حلل المفسر الكبير فون راد Von Rad – هذا الانفصال . ففى سفر التثنية ، الذى عثر عليه الملك جوزياس عام ٦٢٢ – ق . م . نجد أن «بنى إسرائيل الذين توجه إليهم موسى كانوا فى الواقع إسرائيل فى نهاية العصر الملكى ، أو كما يتخيل سفر التثنية بطريقته الخاصة: كانت إسرائيل جوزياس،

التى كانت خرجت على العهد المعقود مع يَهْوَه ، والتى كانت تنتظر أن ينجز يهوه وعوده الكبيرة . فإذا قارنا هذا المفهوم اللاهوتى الأساسى لسفر التثنية ، بتنبؤات أرميا التى تخص «العهد الجديد» – فسوف تصيبنا الدهشة من ناحية ، حين نرى إلى أى حد كان سفر التثنية قريبا من هذه التنبؤات ، لأنه هو أيضا ينظر إلى المستقبل ، نحو عصر تعيش فيه إسرائيل فى البلد ، خاضعة للوصايا ... ويبقى فرق فى نقطة واحدة هو : أن أرميا يتكلم عن عهد جديد ، فى حين أن سفر التثنية يظل مشدودا إلى العهد القديم ، بيد أن هذا الفرق يمس جوهر الرسالة النبوية ذاته» [١]

ويضيف فون راد قوله : «وقد كان على هذه الرؤية أن تضيع خضوعا لتأثير الشريعة الكهنوتية ، ولاهوتها الثقافى الذى لاعلاقة له بالآخرة ... فإن الأرستقراطية الكهنوتية التى كانت بيدها السلطة فى أورشليم – أبعدت دائما التوقع الأخروى ، وربما حدث فى ذلك العصر أن انسحب التوقع النبوى والأخروى من التيوقراطية (السلطة الدينية الحاكمة) إلى الأبد [٢] .

وهنا أيضا لسنا بصدد معركة لاهوتية فحسب ، فإن الاختيار الذى تم على أساس أن تسقط الصهيونية السياسية صفحة النبوة من التاريخ اليهودى ، وتسقط معها الآمال العميقة فى مستقبل روحى ، وانفتاح على الشمول ، وعلى العالم ، كانت تحمله فى ذاتها ، من حيث هو أثمن استمرار لرسالة الإيمان اليهودى – إن هذا الانتكاس القومى إلى ماهو قبلى نتيجة رفض النبوة ، يتجلى بصورة محسة فى (قانون العودة) الذى أصدرته الدولة الصهيونية فى إسرائيل عام ١٩٥٠ ، وتلخصه المادة الأولى القائلة بأن «لكل يهودى الحق فى الهجرة إلى إسرائيل» .

---

(١) فون راد «لاهوت العهد القديم Theologie de l ancien Testament» ط . لابور وفيدز (جنيف ١٩٦٥) ج ٢ ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

(٢) السابق ص ٢٥٧ .

«**دولة يهودية، دولة لليهود**» عبارتان تثيران مشكلة تعريف اليهودى ، التى ماكان لها إلا أن تفرض نفسها فى إسرائيل ، ومن هنا كانت المعركة حول سؤال : **من يكون اليهودى؟** (١).

إن بيانات العاشر من يناير ١٩٦٠ تجيب عن هذا السؤال : «يسجل يهوديا فى سجلات «الدين» أو «الجنس» فى دفاتر الحالة المدنية – كل من ولد من أم يهودية ، ولم ينتم إلى دين آخر» .

أو «هو من تحول إلى اليهودية من غير أهل الأديان» (٢) مقياس عنصرى ، ومقياس دينى كهنوتى .

وواضح أن الجزء الأول من التعريف يحرص على أن يسجل ، تبعا لمبدأ الصهيونية السياسية ذاته ، أن مصطلح «يهودى» لايعين دينا فحسب ، بل شعبا أيضا .

وعلى ذلك لايكون لمصطلح «يهودى» معنى دون الدين ، فليس على الأرض مجتمع آخر ، أو جنس ، أو عرق ، يستطيع أن يعرِّف يهوديا ، اللهم إلا مجتمع الإيمان ، فالكتاب المقدس يشهد بذلك أولا ، ثم يأتى دور البيولوجيا والتاريخ .

فما الذى يجمع ، غير الإيمان ، بين ذرارى إبراهيم ، وقد رأينا فيما ذكره سفر التكوين أنه لم يكن عبرانيا ، بل آراميا ، (أى : سوريانيا ، جاء من أور ، بالعراق) ، من ذلك الشعب الآرامى الذى سوف يقاتله داود بضراوة . [صموئيل الثانى ٨/٥ – ٦ ، و الأيام الأول ١٨/ ٥ – ٦] ؟ .

---

(١) كلود كلان Clewde Clein (مدير معهد القانون المقارن فى الجامعة العبرية بالقدس) : «السمة اليهودية لدولة إسرائيل – «Caractere Juif de l Etat d Israel» ط . كوجاس – باريس ١٩٧٧ ص ٣٧ .

(١) ذكره كلود كلان فى (المرجع السابق ص ٤٢) .

ولقد تزوج إسحاق آرامية ، وتزوج عيصو امرأة عربية ، وقد ولد الملك شاول من أم كنعانية ، وكانت جدة داود روث مؤابية ، وكان سليمان من أم حثية .

فإذا ماطبقنا الشريعة الإسرائيلية الراهنة ، فإن إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وشاول ، وداود ، وسليمان - وحسبنا أكثر الإسرائيليين شهرة - فهؤلاء لن يكون لهم حظ الانتفاع «بقانون العودة» إلا بفضل تحولهم واهتدائهم ، أى : بفضل انتسابهم إلى أمة الإيمان ، لا عن طريق دم أمهاتهم .

إن سخف قانون كهذا ينبع من مبدأ الصهيونية ذاته ، الذى يزعم تعريف اليهودى ، لا بانتسابه إلى مجتمع دينى ، على مايشهد به الكتاب المقدس بأكمله ، وإنما يعرفه بانتمائه إلى «شعب» معين ، هو الذى تتخيله الأساطير القومية لأوربا ، فى القرن التاسع عشر ، كما تتخيله الشوفينية [1] الرومانية . وليس فى الكتاب المقدس فى نظر أى يهودى أو نصرانى - أى أساس يؤيد المطالب الصهيونية فى فلسطين .

* * * * *

(١) يراد بها نزعة التزمت الوطنى . (المترجم) .



الفصـــل الثانى

من اليهودية إلى القومية

الصهيونية

١ – النهضة الأوربية والتغيرات اليهودية .

كيف أمكن ، على الرغم من التقاليد العليا الشمولية للإيمان اليهودى – أن تولد مع الصهيونية السياسية قومية تشكل انقطاعا ثابتا عن هذه الدعوة ؟ .

إن تكوين الصهيونية السياسية يسمح لنا بأن نفهم هذا التناقض ، فخلال بضعة قرون بعد شتات العبرانيين المطرودين من فلسطين بيد الرومان ، أى : بعد ثورات عام ٦٣ ق . م . ، وبخاصة ثورة عام ١٣٥ م (ثورة باركوكبا) ، فى ذلك الوقت كان «اليهودى» هو كل شخص يعتنق الإيمان اليهودى ، فأن يكون إنسان مايهودياً معناه أنه تابع لدين .

ثم حدث فى أوربا منذ النهضة فى القرن السادس عشر – تقهقر لكل الأديان ، وهنا تدخل المجتمعات الغربية مرحلة من العَلْمَنَة Sécularisation ، وكانت المسيحية أكثر الأديان تأثرا ، لأنها كانت حتى ذلك الحين هى الدين السائد ، ولكن اليهودية تعرضت لنفس التطور .

وتبلغ هذه الحركة أوجها فى القرن السابع عشر مع ظهور باروخ سبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧ م) ، ولما كان أحد أبناء أسرة من المرانيين Marranes (وهى أسر يهودية إسبانية هربت من محاكم تفتيش الملوك الكاثوليك) ، فقد عبر سبينوزا فى وطنه ومرباه ، هولندا ، عن أعظم أشكال العالمية اليهودية .

إن هذا العملاق ، عملاق الفكر الغربى ، وهو الفكر الذى تكامل فيه الإلهام اليهودى مع عقلانية ديكارت – هذا العملاق قد بنى نظاما يطور مبادىء ديكارت ، إلى أن تبلغ نتائجها الحاسمة (وهو مالم يجرؤ ديكارت ، حتى ديكارت ، أن يفعله) ، فهو يخضع مقولة الواقع ، بدءا من الله ، وانتهاء بالمادة المحسة ، لقوانين العقل الهندسى ، فالعالم وحرية الإنسان هما فى «أخلاقه» أمران شفافان للعقل شفافية كاملة ، وتتجلى فى «دراسته اللاهوتية السياسية» النتائجُ السياسية والاجتماعية والدينية لهذا المفهوم عن الحرية ، فإذا هو : دولة ديموقراطية عَلمانية .

وقد فصله رؤساء المعبد ، فى أمستردام ، باعتباره مهرطقا ، بل إنهم حاولوا قتله ، ولم يسترد اعتباره – بصورة عارضة لارسمية – إلا عام ١٩٢٧ م ،

بمناسبة مرور مائتين وخمسين عاما على موته: فقد أعلن الدكتور كلوسنر Dr. Klausner، رئيس الجامعة العبرية بالقدس قوله: «باروخ سبينوزا، إنك أخونا، وإنى أعلن أنك حر!!» (١).

ومع سبينوزا، ذلك الوجه الرائد للفكر الغربى، والذى نفاه مجتمعه الدينى – طرحت بكل عنفوانها مشكلة شخصية اليهودى: من يكون اليهودى بعيدا عن اعتناقه الدينى الذى كان يعرفه حتى ذلك الحين ..؟ ..

كانت دعوة سبينوزا إلى العالمية Universalisme وإلى التسامح، تدوى فى جميع أنحاء أوربا، ولاسيما ابتداء من القرن الثامن عشر، الذى كان يعتبر «قرن النور»، فى مقابل الظلمانية الدينية. فالعقلانية تفترس التقليد.

هذا الانفتاح على العالم الخارجى، بعد قرون من «الجيتو» (٢)، جعل اليهودية قادرة على أن تصلح نفسها بنفسها، وأن تتجرد من الطقوسية البالية، ومن الجمود الذى أبَّدَ نظام التمييز، كما هى الحال فى كل مجتمع مضطهد يعيش فى وضع حصار.

كان لوثر اليهودية، المبشر بالعصر الجديد، هو موسى مندلسون – Moise Mendelssohn – (١٧٢٩ – ١٧٨٦ م)، وهو مصدر الهسكلاه (٣) – Hakalah» فى اليهودية الإصلاحية، التى سوف تنتشر فى كل أوربا، وفى أمريكا.

---

(١) نيويورك تيمس، عدد ٢٨ من أكتوبر ١٩٢٨ م.

(٢) الحى الذى كان ينبذ فيه اليهود. (المترجم).

(٣) الهسكلاة Haskalah بمعنى تنوير أو تعليم أو تعلم أو تثقيف تمثل حركة التنوير فى الفترة الاوربية نقطة تحول فى التاريخ اليهودى. وحتى ذلك الحين كان اليهود ملتفين التفافاً شديداً حول جماعتهم وبالإضافة إلى الدين فقد اختلفوا عن جيرانهم من ناحية اللغة والملبس والعادات والتقاليد الاجتماعية، وعندما بدأ مفكرو أوربا الغربية بالمطالبة بقانون اجتماعى جديد بدأ اليهود أيضا بالمطالبة بحقوق مساوية حيث أرادوا التخلص من القوانين الخاصة الموجهة ضدهم وحاولوا جاهدين كسر جدران الجيتو اليهودى الذى يعيشون فيه.

ولد موسى مندلسون فى دسو Dessau بألمانيا ، ودرس التوراة والتلمود ، ولكنه حَصَّل بنفسه ثقافة واسعة ، عن طريق معرفة المفكرين اليهود الماضين ، ولاسيما موسى بن ميمون ، الذى أخذ عنه النظرية العامة ، القائلة بأنه لاتعارض بين الإيمان الدينى والعقل النقدى ، وليس ذلك فحسب ، بل إنه عرف سبينوزا ، وليبنتز ، وعرف أيضا الفلسفة ، والثقافة الأوربية ، وترجم التوراة إلى الألمانية ، وكتب لها شرحاً ، وقد أراد فى الوقت نفسه أن يخلص اليهودية من شكليتها البالية ، فالتلمود فى رأيه ، بكل مافيه من ثروة فى المعرفة اليهودية ، وبكل تعليمه الأخلاق – هو تقليد من تقاليد الماضى جدير بالاحترام ، ولكن له قيمة تاريخية .

=== وتحت القيادة الروحية لموسى مندلسون Moses Mendelssohn (١٧٢٩ – ١٧٧٦) ، ازداد عدد اليهود المشاركين فى حياة ألمانيا الثقافية وعمل موسى مندلسون على نقل فكر أوروبا وثقافته إلى اليهود عن طريق مجلة تدعى Ha-Meassef كانت تصدر باللغة العبرية بالرغممن أن العبرية كانت قد أصبحت وسيطا اصطناعيا بعد مرور قرون من بطلان استعمالها .

هذا وقد امتدت بعد ذلك حركة التنوير من ألمانيا إلى جاليسيا Galicia ثم إلى روسيا Russia حيث بذل المثقفون قصارى جهدهم لتنوير أكبر عدد ممكن من اليهود إلى طرق الحياة المحيطة بهم .

وقد بدأت حركة التنوير الروسية بالفعل فى إخراج جماعات صغيرة من الشعراء والروائيين الذين أثبتوا أن باستطاعة اللغة العبرية أن تصبح لغة حية ، وكان لشاعر يهودا ليف جوردون Judah leibgrordn والروائى إبراهيم مابو Abraham Mapu من أوائل من كتب باللغة العبرية فى الأدب العبرى الحديث .

وقد عالجت حركة التنوير فى روسيا المشاكل اليهودية بطريقة عملية فلقد اقترحت على اليهود العمل فى الزراعة والأعمال اليدوية . واقترحت تدريس الأمور الدنيوية فى المدارس اليهودية وقد ساعدت هذه الحركة أيضا على إحياء وترسيخ الشعور القومى اليهودى ، والذى إدى إلى الحركة الصهيونية التى ساعدت بدورها على إنشاء الدولة اليهودية فى إسرائيل .

المرجع : The language of Judaism by Simon Glustrom New york 1973 . pp . 281 - 282.

(المترجم) .

وفى الوقت الذى أراد مندلسون فيه أن يحيى رسالة الأنبياء ، دعا إلى الانفتاح على ثقافة الآخرين ، وإلى الحب ، وقد كتب من أجل سلام اليهود يقول : «للأسف ياإخوانى ، لقد تحملتم نير التعصب ، ولقد خدعت الشعوب كلها حتى الآن بفكرة أن الدين يمكن أن يصان بيد من حديد ، لقد تألمتم بقدر كاف ، من أجل ميلكم إلى التفكير أيضا ، اتبعوا ياإخوانى طريق الحب ، كما عرفتم حتى الآن طريق الكراهية» .

لقد اعتبر الربانيون المتزمتون هذه الدعوة إلى طريقة جديدة فى الإيمان اليهودى – على أنها ردة ، فحظروا على اليهود أن يقرأوا ترجمته الألمانية للتوراة ، وإلا طردوهم من المعبد ، واعتبروا مندلسون «مهرطقا» .

ولم تكد تمضى خمس سنوات على موت موسى مندلسون حتى قامت الثورة الفرنسية ، وأعلنت ماكان أمنية له طيلة حياته ، فقد ألغت كل تفرقة عنصرية تجاه اليهود .

وفى الحادى والعشرين من سبتمبر عام ١٧٩١ ، وفى الجمعية التى اتخذت هذه الخطوة الحاسمة ، منهية بها قرونا من التمييز العنصرى – Apartheid – لخص الكونت دى كليرمونت تنر – Con de clermont - Tonnerre فكرة المشرع المستوحاة من مبدأ «قومية واحدة لاتنقسم» فقال : «يجب أن نرفض جميعا اليهود قوميةً ، وأن نقبلهم جميعا أفرادا» [١] .

هذا المثال الذى قدمته الثورة الفرنسية ، عمم فى فرنسا وفى أوروبا الغربية بأجمعها [٢] تيارا مؤيدا «لتمثيل» اليهود ، وقد ساد هذا التيار فى كل أوروبا ، عند اليهود الذين استردوا احترام دينهم ، وطريقة معيشتهم .

---

(١) أ . ى . هلفن A . E . Halphen «مجموعة القوانين ، والمراسيم ، الخاصة بالإسرائيليين Recueil des lois decrets concervant Les Israëlite» – باريس ١٨٥١ ص ١٨٥ .

(٢) أبقت أوربا الشرقية على «الجيتو» ، أى : مجتمعات المنبوذين ، واستمر فيها إرهاق الجماعات اليهودية .

وعندما دعا نابليون عام ١٨٠٧ م إلى المجلس الأعلى اليهودى «Sanhédrin» أكد له مندوبو المجتمع اليهودى أن «اليهود فى فرنسا لايشكلون قومية» (١) .

نعم ، حدثت ردة إلى الماضى فى مرحلة الثورة المضادة فى فرنسا ، وفى مرحلة العهد المقدس فى أوربا (٢٨ من سبتمبر ١٨١٥) ، ولكن اتضح أن الحركة خلال قرن لايمكن الرجوع فيها ، سواء بالنسبة إلى حكومات أوربا الغربية أو بالنسبة إلى المجتمعات اليهودية .

وقد كتب المؤرخ الألمانى تريشكه – Treischke فى نهاية القرن يقول: «لامكان على التراب الألمانى لقومية مزدوجة ... فإذا مااسترد اليهود الاعتراف بقوميتهم ، فإن الأساس القانونى لتحريرهم يختفى» (٢) .

ولقد كان على المجتمعات اليهودية ذاتها أن تعترف بمنطق هذا الموقف ، إذ ليس أمامها إلا أحد موقفين ؛ فإما أن تعتبر نفسها مجموعة من مواطنى أمة ، لاتنفصتل عنها ، ولن يستطيعوا حينئذ أن يطلبوا ، ككل المجتمعات الدينية الأخرى ، احترام إيمانهم ، ونوعيته ، وإما أن يعتبروا أنفسهم منتمين إلى «قومية» مختلفة ، تصف نفسها على أنها «أجنبية» ، ويرضوا مايترتب على هذه الحالة من نتائج (٣) .

وحين أصبح اليهود منذئذ مواطنين كاملى المواطنة فى أممهم ، سواء فى أوربا الغربية أو الوسطى ، اندمجوا على اختلاف أصولهم فى الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية لبلادهم ، وأسهموا فى تطوير الثقافة الغربية فى سائر المجالات ، ففى الفلسفة مثلا قدم سبينوزا إسهاما عظيما وأصيلا فى التيار الديكارتى ، كما فسر المفكرون اليهود الألمان التقاليد السابقة على كانت ، والأمر لايختلف عن ذلك فى المجالات الأخرى ، من شعر هين Heine إلى موسيقى

---

(١) أ .ى . هلفن ، السابق ص ١٢١ .

(٢) هـ . فون تريشكه : Ei wortiüber user Judenthumn الطبقة الثانية – برلين ١٨٨٠ – ص ١٥ .

(٣) سوف نرى فيما بعد كيف طرحت هذه المشكلة بكل صراحة ، بعد إنشاء الدولة الصهيونية فى فلسطين ، حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية .

مندلسون ، أو فيزياء ، آنشتين .

كل هذه الأعمال العظيمة جزء من المجال الثقافى للغرب فى مجموعه ، دون أن يحمل شىء منها طابعا يهوديا ، كما أنه لايوجد مايسمى بالبيولوجيا الكاثوليكية ، مع وجود باستور ، ولا فيزياء بروتستانتية مع نيوتن .

إن المجتمعات اليهودية ، وقد أدركت أن أعداءها وحدهم هم الذين يفرضون عليها أن تكون «جنسا» أو «قومية» ، كانت إلى زمن طويل حكيمة فى رفض هذا التمييز العنصرى ، وقد اعترضت عام ١٩١٩ على التحريضات الصهيونية التى أثارها الاتحاد المركزى Centralverein ، إذ أعلنت أغلبية اليهود الألمان قولها «نحن ألمانيون ذوو ديانة يهودية ، والألمانية تعنى بالنسبة إلينا قومية وشعبا ، أما اليهودية فتعنى الإيمان والأصل ... ونحن لسنا قومية يهودية ، بل مجتمعا دينيا يهوديا [١]» .

لم يكن هذا الإيمان اليهودى يرمى إلى الانغلاق على ذاته، ولكنه يدل فى العالم الحديث على الإيمان الإبراهيمى ، كما يشهد برسالات الأنبياء .

هذه اليهودية الإصلاحية ترفض الجوانب الفلكلورية من التقاليد ، فهى تدعوا إلى استبطان الإيمان اليهوذى ، وإلى تطويره المبدع ، ولقد ركز المصلحون ، وهم يعتمدون الكتاب المقدس وأنبياءه ، قبل التلمود ، على الدور العالمى لإسرائيل ، باعتباره شاهدا على الرب الحى ، ومضوا بعد أن اعترضوا على إعادة إنشاء دولة قومية فى فلسطين ، إلى تعريف إسرائيل باعتبارها مجتمعا دينيا ، لا قومية ، وفسروا انتظار المسيح على أنه أصل فى خلاص الإنسانية،وقد افتتح أول معبد إصلاحى فى هامبورج عام ١٨١٨ م .

بيد أن النزعة القومية فى القرن التاسع عشر الأوربى ، بما صحبها من تمجيد رومانتيكى للماضى ، من حيث هو إيديولوجية لتبرير الشوفينية (الوطنية) —

---

(١) «المملكة الألمانية ، مجلة الاتحاد المركزى ، ستاتسبورج الألمانية ، عقيدة اليهودية»
Im Deutschen Reich Zeitschrift des centralvereins deutschen staatslirger Judischen Glaubens
(١٩١٩) ٢٥ ، ص ١٨٨ .

لم تسمح باستمرار هذا التحرير ، وإذا باليهودية الاصلاحية تغير مكانها ، من ألمانيا إلى أمريكا ، وفى أمريكا لم تستطع القومية الأوربية ، قومية الأرض والأموات ، على ماقال بريز Barres – أن تمد جذورها ، ذلك أن الأمريكيين ، وهم شعْب من المهاجرين ، لاماضى لهم يستطيعون أن يجتروا انتصاراته الحربية ، أو أمجادهُ ، أو ثقافاته .

ولقد أكد أعظم الرجال فى أمريكا الشابة هذا الاتجاه ، وهو الرئيس جيفرسون ، حين أعلن فى الأول من أغسطس ١٨١٦ قوله : «إننى أحلام المستقبل أكثر من تاريخ الماضى» [١] .

وبعد نصف قرن ، جاء إبراهام لنكولن يقول : «أنا لا أهتم بمن كان أجدادنا ، بل أهتم بما سيكونه أبناؤنا الصغار فحسب [٢]» .

هذا الانقلاب الأساسى الذى يشبه الانقلاب على يد الأنبياء حقق لليهودية الإصلاحية تطويرا كبيرا ، فقد أفلتت من المحيط المهلك للقومية الأوربية .

ولقد تبنى المؤتمر المركزى للربانيين الأمريكيين ، فى فيلادلفيا عام ١٨٦٩ – الحل التالى : «إن الهدف المسيحى لإسرائيل ليس بعث الدولة اليهودية القديمة ، لأن ذلك يتتبع انفصالا ثانيا عن الأمم الأخرى ، ولكن هدفها هو اتحاد جميع أبناء الرب الذين يؤمنون بالإله الواحد . حتى تتحقق وحدة جميع المخلوقات المزودة بالعقل ، وتتحقق آمالها فى التطهير الأخلاق» .

وأعلن المؤتمر الرباعى فى بطسبرج عام ١٨٨٥ م : «إننا لم نعد نرى أنفسنا قومية ، ولكننا مجتمع دينى ، فنحن إذن لسنا فى انتظار العودة إلى فلسطين ، ولا نحن فى انتظار تعبد تطهيرى يتم بتوجيه من أبناء هارون ، ولا فى انتظار إصلاح لأى من القوانين الخاصة بالدولة اليهودية» .

وكانت الفكرة المسيطرة على اليهودية الإصلاحية هى : ضع ، فى المقام الأول ، فى مقابل فكرة القومية اليهودية ، وفكرة الإصلاح السياسى فى

---

(١) هانزكون : القومية الأمريكية American nationalism كمبانى ص ١٥٠ .
(٢) السابق .

فلسطين ، «اختيار» إسرائيل التى تنهض بمهمة منح الإنسان ، كل إنسان ، أيةً كانت أمته ، وعيا بتعليق أقداره حتى يتحقق ملكوت الرب .

هذا التطوير الروحى للدين اليهودى ، كان ولا يزال قادرا ، إذا ما اتحد مع الإيمان المسيحى ، والإيمان الإسلامى ، فى وحدته الإبراهيمية على أن يسهم فى أن يقدم للعالم ماهو بحاجة إليه لبقائه : عودته إلى البعد السامى فى الإنسان ، أعنى الوعى بأن مصير الإنسان لايمكن أن يقتصر على زيادة كمية فى الوسائل ، لتأكيد إرادته للقوة ، وإرادته للتكاثر . والحذر مما يتجاوز منهجيتنا العابرة ، وسياساتنا الساخرة ، والصراع ضد المزاعم البرومثيوسية [١] (البدائية) ، والادعاءات الفاوستية ، المغرورة ، بكفاية الإنسان ، والتنفخ بأباطيله اللانهائية .

وفى عام ١٩١٨ أيضا - كتب كوفمان كوهلر ، والذى كان إلى زمن طويل رئيسا لكلية الاتحاد العبرى «Hebrew union College» - كتب يقول : «إن التوراة ، من حيث هى تعبير عن اليهودية ، لم تكن مطلقا مقصورة على مجرد نظام من القوانين ، فهى - منذ كانت سفر تعليم ، فيما يخص الرب والعالم ، وهى أيضا أثرت ، باعتبارها مصدرا للمعرفة ، والتأمل ، لأن طرائق التفسير الجديدة قد أتاحت لها أن تتصل بكل معرفة ترد من المصادر الأخرى» [٢] .

---

(١) نسبة إلى بروميثيوس إله النار ، الذى يرمز إلى الحضارة البشرية الأولى . (المترجم) .

(٢) كوفمان كوهلر «اللاهوت اليهودى من الناحية النظمية والتاريخية» - Jewish thealogy systematically & Historically considerd - N . Y . ط . ماكميلان - ١٩١٨ ص ٤٥ - ٤٦ .

٢ – القومية الأوربية ، والقومية الصهيونية

قديما نهض الربانى ليفيا بن بلايل ، من براج (١٥٥٠ – ١٦٠٩ م) أى : فى عصر تصدع المسيحية ، ونشأة «الأمم» القومية – نهض هذا الرجل بتخطيط المحاولة الأولى لإعادة تفسير المستقبل اليهودى بمصطلحات غربية ، فقال : إن اليهودية لم تعد تعرف على أنها دين ، بل على أنها «شعب» ، وإن أوربا منذ النهضة لم تعد تتصور شكلا آخر للتنظيم الاجتماعى سوى شكل «الأمة» القومية ، و «الدولة» ، ويرى الربانى ليفيا بن بلايل أن المهمة الأولى لليهود هى أن يتكونوا فى «قومية» ، وأن ينشئوا دولة بأراضيها الخاصة .

ولقد كانت القومية اليهودية ، عندما فتح سبينوزا اليهودية على العالم – قد برزت على السطح مع «مسيح» كاذب من «أزمير» ، هو سبتاى زفى Sabbetai Zevi (١٦٢٧ – ١٦٧٦ م) ، وكان الحماس لظهوره عاما ، من مراكش إلى الدانيمارك ، ومن تركيا إلى فرنسا ، وتهيأ المجتمع اليهودى الصغير فى مقاطعة فنسان [١] – Contat Venaissin لينشىء مملكة يهوذا ، فى ربيع عام ١٦٦٦ م ، ولم يأنف بوسويه Bossuet [٢] من أن يذكر هذا الحديث [٣] .

وقد اعتقل سبتاى زفى أولا لدى وصوله إلى الدردنيل ، ثم تحول إلى الإسلام لقاء معونة من السلطان . بيد أن الحركة المسيحية والقومية التى كان قد أعلنها لم تتوقف مع ردته ، فبعد موته بأكثر من قرن قام يهودى من بودلى Podolie اسمه : يعقوب فرانك Jacob Frank (مات عام ١٧٩١) بتقمص شخصية سبتاى زفى ، واتبعه تلاميذ وأتباع فى كل أنحاء أوربا ، وحين فصله أحد

---

(١) بلد من بلاد فرنسا القديمة . (المترجم) .

(٢) أسقف فرنسى كاتب ، وخطيب مقدس ، ولد فى ريجون (١٦٢٧ – ١٧٠٤) (المترجم) .

(٣) أندريه شراق : «تاريخ إسرائيل – Nistair d' israël» .

المؤتمرات الربانية أعلن تحوله إلى المسيحية .

وفيما عدا هؤلاء الدجاجلة الذين ظهروا بصورة دورية ، وعبأوا جموعا غفيرة ، وكل منهم يقدم نفسه على أنه « مسيح » للإصلاح « القومى » - نجد فيما عدا ذلك أن التقليد السائد لليهودية قد احتفظ بالمغزى الروحى للإيمان اليهودى ، باعتباره شاهدا فى جميع الأمم على التبشير بملكوت الرب .

ولكن ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، كانت جميع تيارات الفكر فى أوربا ، بل وتيارات الروحية اليهودية فى أعلى مستوياتها - كانت قد تنكبت الطريق بتأثير هذه النزعة القومية ، ومن أمثلتها الحركة الصوفية اليهودية التى عرفت باسم الحسيدية - Hassidisme [1] ، وعن مؤسسها إسرائيل بن أليعازر (١٧٠٠ - ١٧٦٠ م) ، والذى عرف بالبعل شيم توف Baal Shem TOV كتب مارتن بوبر Martin Buber «أنه مع بن أليعازر «عادت الصورة العجيبة «لمجنون الرب» التى عرفتنا بها قصص الصين البوذية ، وصور الصوفية ، وصور أتباع القديس فرانسوا داسيز » [2] .

لقد تغيرت تلك الرؤية العالمية الكبرى مع الابن الصغير لبعل شم توف ، وهو الربانى نحمان دى برسلوا (١٧٧١ - ١٨١٠ م) ، لتصبح مسيحية Messianisme تربط صوفية الأرض باستعمار فلسطين . ولكن ذلك لم يكن هو التيار الأكبر بروزا للتطور نحو القومية اليهودية .

ذلك أن الصهيونية السياسية تتصف بأنها لاتعرف اليهودية على أنها دين ، بل على أنها أولا قومية جنسية . وهذه العَلْمانية اليهودية ، منفصلة عن التقليد الدينى اليهودى ، تقوم على أساس اقتراض شائع لتقليد آخر ، هو تقليد القومية الغربية فى القرن التاسع عشر ، «قرن القوميات» .

---

(١) انظر الكتاب الكلاسيكى لجيرشوم . ج . شولم G. G. Scholem بعنوان «التيارات الكبرى فى التصوف اليهودى Les grands courents de la miystiqu Juive » ط بايوت - باريس ١٩٦٨ م .

(٢) مارتى بوبر «القصص الحسيدية» Les recits Hassidiques (١٩٤٩) ترجمة فرنسواز لنشريات روسية - باريس ١٩٧٨ ص ٢٧ .

وهكذا تتجه الصهيونية السياسية إلى أن تخلق نموذج مجتمع، يختلف اختلافا ثابتا عن المجتمع الديني اليهودى، كيما تقلد المفهوم الغربى للقومية وللدولة.

فالدولة اليهوديه فى الواقع مشتقة من نموذج الدول الغربية التى يعيش فيها غويم[1]، (غير يهود)، وتقيم نشاطها (الحربى مثلا) على أساس قومية مستعارة من الشوفينية فى القرن التاسع عشر الأوربى.

وهذا التقليد ناشىء عن وعى كامل، واختيار متعمد، أما «النموذج» الأول الذى استوحاه المثقفون، ورجال الأعمال اليهودية من أوربا الغربية، وبولندا، وروسيا، فقد كان القومية السلافية «Panslavisme» للأعوام من ٦٠ إلى ٧٠، وهو نظرية عرقية قائمة على أسطورة النموذجين الإنسانيين اللذين لا يتفقان ولا يجتمعان: النموذج الجرمانى، والنموذج السلافى.

كان ذلك على يد الربانى يهودا الكاليه Yehuda Alkalai (١٧٨٩ - ١٨٧٨ م) المولود فى سيراجيفو، وكان ذا منصب دينى مرموق فى بلاد العرب، وقد رأى، وهو يستلهم الصراعات القومية التى خاضتها الشعوب البلقانية ضد الحكم التركى - رأى أن استعمار فلسطين هو مفتاح «الخلاص» اليهودى، ثم يأتى بعده الربانى زفى كريش كالسبا Zvi Krish Kalesba (١٧٩٥ - ١٨٧٤)، فدعا اليهود إلى أن يقلدوا القوميين الأوربيين، قائلا: «فَلْنَقْتنع بأمثلة الإيطاليين، والبولنديين، والهنغاريين[1]».

وفى ألمانيا، حيث كان المحيط القومى سائدا - كان رائد هذه القومية هو موسى هيس (١٨١٢ - ١٨٧٥)، فبعد قطيعة مع ماركس وأنجلز وضع فلسفة يهودية للتاريخ، هى خليط من أفكار هيجلية وقومية، ضمنها كتابه «روما وأورشليم» (١٨٦٢ م)، وفى هذا الكتاب تصور تقابلا بين هيمنة القومية الإيطالية على روما، وهيمنة القوميين اليهود على أورشليم.

---

(١) الغويم: اسم يطلقه اليهود على الشعوب غير اليهودية، ولا سيما المسيحية. (المترجم).

(٢) أرثر هيرتزبرج: «الفكرة الصهيونية: تحليل تاريخى - «The - zionist Idea: a Historical Analysis»، نيويورك: اثينوم ١٩٧٣ ص ١٠٣ - ١١٤.

ولقد فعل اليهود ما فعله الأوربيون، فكما استورد جميع القوميين الأوربيين الإيديولوجية الرومانسية، للأمة القومية، مع كراهيتهم للنزعة المعادية للسامية، - حاول القوميون اليهود، رواد الصهيونية السياسية، أن يؤسسوا قوميتهم على تصوف يؤمن بالعرق وبالأرض.

والمثال الذى يعبر عن ذلك هو مثال أحدها - عام Ahsd Ha- am (١٨٥٦ - ١٩٢٧)، فهو فى مقالة عن «اليهودية ونيتشه» يرفض العرقية «الآرية» التى دعا إليها نيتشه، ويمجد مثله «الإنسان الأسمى Le surhomme»، وهو يرى مثل نيتشه أن الهدف الأخلاق الأسمى ليس تقدم كل الإنسانية، ولكنه إيجاد نوع إنسانى أكثر كمالا (!) من بين المختارين[1].

تلكم هى الفكرة الأساسية لنظرية تغيير القيم، وهى التى استقيناها من المصدر الألمانى»[2].

وتتضح هذه النزعة التكيفية مع القومية، والعنصرية فى أوربا، مضافاً إليها تلوين «عبرانى» - على يد برديشوفسكى Berdiycheuvslei الذى يعلن بكل فظاظة قوله: «إن إسرائيل تسبق التوراة»[3].

إن هذه الاستحالة التى أصابت اليهودية، من دين إلى قومية، كانت مصحوبة بنغمة تمجد العسكرية والعنف، شبيهة بما حدث فى «القومية الجرمانية»:

---

(١) أحد ها - عام: «مقالات، رسائل، مذكرات» الترجمة الإنجليزية لليون سيمون (لندن - مكتبة الشرق والغرب - ١٩٤٦ - ص ٧٦ - ٨٢).

(٢) أحد ها - عام: على مفترق الطرق au carrefour - مكتبة ليبز شوتز، باريس ١٩٣٨ (مقدمة ناحم جولدمان ص ١٥٨).

(٣) ذكره هيرتزبرج - المرجع السابق. ص ٢٩٤.

«يأتى على الناس وعلى الأمم زمن تعيش فيه بالسيف، وتعتمد على طاقتها، وعلى قوة أذرعتها، وعلى عنادها الحيوى، هذا الزمن هو زمن العنف، زمن الحياة بما هو أثمن من الحياة ... السيف، إنه يحيل الحياة إلى مادة أكثر جسارة، فى واقعها الجوهرى والمحسوس»(1).

إننا قد نسىء فهم سياسة إسرائيل فى فلسطين إذا لم نضع نصب أعيننا الوضع «الروحى» للصهيونية، الذى تستند إليه.

لقد رفعت رومانسية القرن التاسع عشر هذا التيار الأوربى إلى الذروة، منذ ظهرت «الألحان العبرية» للورد بيرون Lord Byron، لتبلغ أوجها عام ١٨٧٤ م·مع قصة جورج إليوت Georges Eliot: «دانيل ديروندا» وهى «كمية» حقيقية من الصهيونية غير اليهودية، وموسقة رومانسية لمفاهيم الجنس، والدين، والتقاليد، والحنين إلى الماضى، بحيث يقود ذلك كله إلى مفهوم «العودة»، حتى قال: إن حضور اليهود فى فلسطين ضرورة تاريخية.

إن القومية الصهيونية، ككل القوميات، تقوم على مجموعة من الأساطير، سواء فى ذلك القومية السلافية والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، وسائر القوميات الأخرى، فكل همها هو أن تجد «منابعَ» للأصل المشترك، من أجل تبرير «سياسةٍ» تنتهجها، وهى منابع: الاشتراك فى الدم، والملحمَة التاريخية، والرباط الجسدى بالأرض.

ولقد لجأت القومية الصهيونية، كغيرها، إلى هذه الأساطير:

أسطورة الجنس

أسطورة الأرض

يضاف إليهما فى الحالة الخاصة بالصهيونية:

الأسطورة الكتابية

وكل ذلك لكى تجيب عن المشكلة التى تؤرقها، مشكلة الشخصية اليهودية: فمن اللحظة التى يكون فيها اليهودى يهوديا لا يكون ذلك أثرا من آثار الدين اليهودى!!.

فمن يكون اليهودى؟.

---

(١) السابق ص ٢٩٥ .

أ ـــ أسطورة الجنس

مفهوم «الجنس» من مستحدثات القرن التاسع عشر، الأوربى، وضع اعتسافا لتبرير سيطرة الغرب الاستعمارية، وللفصل بين الفصائل اللغوية، بناء على فكرة الاختلاف البيولوجى، ولا سيما فكرة التدرج بين الأجناس الإنسانية الكبرى.

وقد توصل الكونت دى جوبينو Conte de Gobineau فى كتابه «دراسة عن تفاوت الأجناس الإنسانية – Essai sur l' inégalité des races humaines» إلى نتيجة هى: أن الأجناس تفسد حين تتهجن.

لقد جاء فى سفر التكوين [٩/ ١٨ – ١٩] «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث، وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض».

وقد عرفت القرون الوسطى الإقطاعية فى حامٍ أبا الرقيق، وفى يافثَ أبا السادة، وفى سامٍ أبا الكهنة ورجال الدين[1].

فجاء جوبينو إلى هذا المفهوم الممات البالى عن تدرج مراتب الأجناس، وكتب ملحمة حقيقية رومانسية عن الآريين، وهم أنبل الأجناس، قدموا من آسيا الوسطى، فلما تلاشوا فى الموجات الدنسة، موجات السود والصفر أصابهم التفسخ، بتأثير حتمية الدم.

---

(١) يؤكد ليون بو لياكوف فى كتابه: «الأسطورة الآرية» (١٩٧١)، «Le mythe aryen» أنه تبعاً للتقليد العبرى (أو بعبارة أدق: الربانى)، وإن لم يكن هذا التقليد يستند صراحة إلى «الجنس» – فإن الحد الذى يجب أن يفصل الشعب المختار عن بقية الأمم كان مقدرا له أن يستمر فى وظيفته، وظيفة الشعب الكاهن».

فالإنسانية عند جوبينو مقسمة إذن إلى ثلاثة أجناس، فى أسفل السلم الجنس الأسود، الذى قدر له الإذلال والعبودية، ثم الجنس الأصفر، وهو أعلى قليلا، وعلى القمة الجنس الأسمى، الجنس الأبيض، المزود بأعظم الفضائل الإنسانية: فضائل العمل المفكر، وذوق النظام، والذكاء.

ومن هنا يرى جوبينو أن «كل حضارة هي إنتاج الجنس الأبيض، ولا يمكن لأية حضارة أن توجد دون مساعدة هذا الجنس...»[1]، وهو بمناداته بامتياز الجنس الأبيض، امتيازا أساسيا أبديا، وعلى سائر الأجناس، وبزعمه أن الأجناس الملونة لا قدرة لها على أن تتطور - يضع «أساسا» للعداء العنصرى، وللسيطرة الجنسية.

وكان ماركس قد وصف جوبينو بأنه «فارس البربرية»، ويؤكد ماركس أيضا أن جوبينو يحاول من خلال مبتكراته العنصرية أن يبرهن على أن «ممثلى الجنس الأبيض» هم أشباه آلهة بين الشعوب الأخرى، وأن الأسر «النبيلة»، بين «الجنس الأبيض»، هى بدورها النخبة الحقة بين المختارين[2].

وقبل أن تتطور هذه الأسطورة المأساوية، وبخاصة من خلال التفسيرات الجنونية التى ذهب إليها جوبينو - كان أقرب الأفكار إلى فكرة الجنس هو المفهوم القبلى عن وحدة الدم «المبررة» فى جميع الحضارات، على أساس الوجود الأسطورى لجد مشترك، بطل، تحمل القبيلة «اسمه»، كما تحمله السلالة الأسطورية، وهو ما نجده سواء عند الهنود الأمريكيين، أو فى قصة الإنييد Enéide [3]، كما نجده فى العهد القديم.

---

(١) الكونت أ. دى جوبينو «مدخل إلى نظرية تفاوت الأجناس الإنسانية - «introduction à l' sur L'inégalité des races humaines» (باريس ١٩٦٣) ص ٣٧٦.

(٢) كارل ماركس: أعماله (بالروسية) جـ ٣٢ ص ٥٤٦.

(٣) قصة ملحمية مشهورة لفرجيل، فى اثنتى عشرة أنشودة حول موضوع افترض أنه قومى، وهو تقليد رائع للإلياذة والأوديسا، يبهر قارئه بتصوير العواطف، ورقة الأشعار، وكمال الأسلوب (القرن الأول بعد المسيح) [المترجم].

ولكنه ليس «جنسا» بالمعنى المأخوذ من هذه الكلمة فى أوربا القرن التاسع عشر، أعنى: بعض الجماعات الإنسانية الكبرى، بل هو ذرية من نفس السلالة، فى مجتمعات قبلية صغيرة، أو فى بعض الطبقات الاجتماعية: ففى اللغة الفرنسية، لغة القرن السادس عشر، نجد مثلا أن أسرة ملكية معينة تنشىء «جنسا»، وفى القرن الثامن عشر يعارضون نبالة «الجنس» بالنبالة المكتسبة حديثا، ولم تكن فى السلالة.

وإنما كان الذى حدث فى القرن الثامن عشر، على يد بوفون Buffon [1] مثلا – أنهم اصطلحوا على نموذج أصلى للإنسانية، هو نموذج الجنس الأبيض، الذى «يفسد» كلما ابتعد عن المنطقة المعتدلة، ثم إنهم باسم التطورية Evolutionnisme شديدة العرقية، وقطبها دائما هو أوربا – رأوا أن غير الغربيين هم البدائيون، وحجتهم الأساسية «لتبرير» الغزوات الاستعمارية أن رسالة الإنسان الأبيض أن يحمل «التقدم»، والفكرة الحالية عن «التخلف» تكرر هذه الرؤية الطبقية التى بموجبها يصبح المسار النموذجى للإنسانية هو مسار الغرب: فأى شعب هو أكثر تقدما أو تخلفا بحسب درجة اقترابه من هذا المثل الأعلى!! ولقد نعى ليفى شتراوس Lévy strauss فى كتابه «جنس ودين» بشدة على هذه العرقية، مبينا إلى أى مدى كانت مُفْقِرةً، لأنها تنفى حوار الثقافات، قال: «إن المعيار الوحيد الذى يؤذى أية مجموعة إنسانية، ويمنعها من تحقيق ذاتها بصورة كاملة هو أن تكون وحدها» [ص ١٧].

---

(١) كاتب فرنسى ولد فى مونتبارد (١٧٠٧ – ١٧٨٨ م)، وهو مؤلف التاريخ الطبيعى L' histoire naturelle، وأتبعه بكتاب عصور الطبيعة – Epoques de la nature، وهو القائل لتلك العبارة الشهيرة «الأسلوب هو الرجل ذاته» والتى تعنى أن الأسلوب هو العلامة الشخصية للكاتب، لا أن الأسلوب يعكس محاسن الكاتب ومساوئه (المترجم).

لقد استخدمت النظرية الكاذبة عن الجنس دائما لتبرير أعمال السيطرة والعنف، والمثال الذى بلغ الذروة فى ذلك هو النازية، فهتلر يتهم فى كتابه «كفاحى – Mein Kampf» اليهود بأنهم يريدون أن يدمروا بالغباء الناشئ، عن التهجين هذا الجنس الأبيض الذى يمقتونه ثم يقول: «إن اليهودى يسمم دم الآخرين، ولكنه يحتفظ بدمه».

إن العنصرية ليس لها أى أساس علمى، ولقد ظهر من الناحية البيولوجية أن النظرية القديمة التى كانت تستخدم «دليل الجمجمة»، لتمييز مستطيلى الرأس عن «عراض الجمجمة» هى نظرية يستحيل التسليم بها، ذلك أن علم الوراثة الحديث أثبت أن بعض «الجينات» تحكم الخواص المَصْلِيَّة فى الدم، وهو دليل يكشف بطلان المفهوم البيولوجى عن الجنس.

. وجاء أعظم المتخصصين فى الموضوع، وهو الأستاذ جان برنارد Jean Bernard فهدم «أسطورة الدم»، التى تفترض تفاوت الدماء، والقيمة المتفاوتة لدماء الناس المختلفين. وكتب يقول: «إن هناك علاقة مقررة، ومسلمة، بين قيمة الدم من ناحية، وقيمة الإنسان من ناحية أخرى، ذكائه، وقوته، وشجاعته، وفضائله المادية والأخلاقية، وتلك نظرية قديمة جدا، ذاعت كثيراً فى القرن التاسع عشر، وفى القرن العشرين، من جالتون Galton، وهو قريب من داروين، إلى هتلر، مرورا بفاشر دى لبوج Vacher de lapouge، وجوبينو، وهى مازالت تلهم حديثا بعض المتمسكين بها من البيولوجيين الاجتماعيين الجدد – Socio Biologies – ولم تكف خواص الدم، وصفات الذكاء عن أن تتشابك على طول هذا التاريخ الخطر، تارة يكون التركيز على خواص الدم، وتارة أخرى على صفات الذكاء.

والحق أن هذه الأحكام المؤكدة، الخادعة والمهلكة فى ان واحد – لا تقوم على شىء»[1].

---

(١) جان برنارد: الدم والتاريخ – «Le Sang et l' histoire» ط. بوشت شاستل، باريس ١٩٨٣ – ص ١٧.

لقد كان الهدف من القوانين الهتلرية فى نورمبرج «حماية الدم الألمانى» بمطاردة الدم اليهودى، وقد اصطدم تطبيقها بنفس المشكلات الزائفة التى هى اليوم مشكلات دولة إسرائيل فيما شرعته من «قانون العودة»: من يكون اليهودى؟، إذ إنه لم يعد يوجد «جنس يهودى»، كما لا يوجد «جنس آرى».

والأصل – كما رأينا – أن العبرانيين كانوا قبائل سامية، ضمن قبائل أخرى، متبدية مترحلة، من شبه الجزيرة العربية إلى العراق، وإلى سورية، وإلى فلسطين، وإلى مصر.

وقد استمدت القصص الكتابية سمتها من هذا المجتمع الأصلى، ومن هذا الخليط من الشعوب: فليس إبراهيم وحده هو الذى لم يكن عبرانيا، بل آراميا [التثنية ٢٦ / ٥]، بل إن حزقيال يقول عن أورشليم: «مخرجكِ ومولدكِ من أرض كنعان، أبوكِ أمورى، وأمكِ حثية» [١٦ / ٣].

وأبرز السمات فى الصهيونية السياسية الراهنة، وفى استغلالها السياسى لليهودية – أنها تختار لهذا الاستغلال، من التقاليد اليهودية أبلاها وأقتلها، أبلاها، وهو (التقليد القبلى)، وأقتلها وهو (التعصب).

إن الرفض الصهيونى للاندماج **assimilation** يعتمد على سلم للقيم، ثبته الفريق الكهنوتى الذى حصر التاريخ اليهودى فى هذا المخطط: العصر الذهبى هو عصر العزلة القبلية، من حيث هى نقاء وطهارة، والانحطاط هو الانفتاح على الآخرين، والحوار من أجل الخصب المتبادل، «وتمثل» كل ما هو سام عند الآخرين.

* * * * *

إن معنى ذلك إنكار الرسالة العميقة ، رسالة الهلال الخصيب ، الرسالة التى سوف يحملها أعظم المفكرين اليهود فى القرن العشرين ، مارتين بوبير Martin Buber [1] إن العبرانيين ، منذ استقرارهم فى كنعان قد اختلطوا بالدم وبالثقافة مع الشعوب المحلية ، وذلك بشهادة الكتاب المقدس ذاته كما سبق أن ذكرنا ، فعندما كان عزرا ونحميا يمليان القوانين الأولى لحماية الدم ، كان هذا التهجين قد مضى عليه أكثر من خمسة قرون ، يقول نحميا فى سفره [١٣ / ٢٣ - ٢٥] ، محددا حالة اليهود يومئذ : «رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمّونيات ومؤابيات ، ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودى» .

ولقد بقى الزواج المختلط كثيراً فى يهود الشتات diaspora كما تشهد بذلك جهود المجامع لإيقاف تياره ، فكان الحظر الذى أصدره مجمع تُوليد (عام ٥٨٩ م) ، والذى أصدره مجمع روما (عام ٧٤٣ م) ، والذى أصدره مجمعا لتران ، عامى (١١٢٣ ، ١١٣٩م) .

ولا ريب أن سياسة المجتمعات المغلقة (الجيتو) قد بطّأت هذه الحركة ، ولكنه بمجرد أن سقطت الحوائط ، فى أوربا الغربية ، فإن معدل الاختلاط لم يكف عن الارتفاع ، ففى ألمانيا ، ما بين عامى (١٩٢١ و ١٩٢٥) كان هناك من بين كل مائة زواج يهودى اثنتان وأربعون زيجة مختلطة [2] .

وفى عام ١٩٢٦ عقدت فى برلين ٨٦١ زيجة بين اليهود ، و ٥٥٤ زيجة مختلطة .

---

(١) مارتين بوبير «أنا وأنت Je et tu» ط . أوبيه مونتينى - باريس ١٩٦٠ .

(٢) ج . كومارس J. Comas «مسألة الجنس فى العلم الحديث - The race question in modern Science » اليونسكو - باريس ١٩٥٨ ص ٣١) ، وانظر أيضا : آرثر كوستمر : The Thirteenth Tribe - ط . هوشنسون - لندن ١٩٧٦ ص ١٨٨ .

وفى الولايات المتحدة لاحظت مجلة التايم – فى العاشر من مارس ١٩٧٥ – أن اليهود الأمريكيين يميلون إلى أن يتزوجوا من خارج مجتمعهم، فكان حوالى ثلث الزيجات مختلطة[١].

ومع ذلك فقد تم المزج – خارج الزيجات المختلطة – عن طريق التحول الدينى، وغالبا ما يكون فى صورة زواج مختلط.

وقديما، خلال السبى البابلى، عند منح ملك الفرس، أشويرس Assuerus – سلطات واسعة لرئيس الطائفة اليهودية مرودخى – حدث أن كثيرين من أبناء البلاد اعتنقوا اليهودية، لأن خوف اليهود كان قد أمسكهم [٢]، وقد شهد المؤرخ اليهودى فلاقيوس جوزيف بأن اليهود فيما وراء الفرات كانوا «لا يحصون عددا».

ومن الصعب أن نتصور أن بضع عشرات من ألوف الأشراف المنفيين، والذين عاد عدد غير قليل منهم إلى فلسطين بعد عفو قورش – كان من الممكن أن يُوجِدُوا مجتمعا بهذا القدر من الأهمية، إلا أن يكون ذلك عن طريق تحول عدد كبير من الناس إلى اليهودية.

ففى شمالى آشور القديمة اعتنق ملك الأبيادين اليهودية وتبعه عدد كبير من أتباعه.

ولقد فرضت الأسرة العصومية (من ١٣٥ – ٦٣ ق. م)، خلال غزواتها – اليهودية على السكان المهزومين، وبخاصة الأدومنيون، الذين دخلوا بالإيمان فى الأسرة اليهودية، ولقد بان أنهم مخلصون، شديدو والإخلاص، حتى إنهم قدموا إلى إسرائيل آخر ملوكها الكبار، ولعبوا دورا من الدرجة الأولى فى الحرب ضد الرومان.

---

(١) أجريت فى الولايات المتحدة دراسة تركيبية عن الزواج المختلط، قام بها إيرك روزنتال – Eric Rosenthol - فى: الكتاب السنوى الأمريكي American Jewish Year book عام ١٩٦٣.

(٢) فلافيوس جوزيف: تاريخ اليهود القديم Histoire ancienne des Juifs [ط ليدز ١٩٨١ – ص ٣٥٧].

وخلال القرون الثلاثة الأولى من المسيحية، وقبل أن تصبح الكنيسة فى نيقية مضطهدة لليهود بالهرطقة – حقق التبشير اليهودى نجاحا كبيراً، وقد كتب فيلون اليهودى يقول: «إن أعرافنا تكسب، وتجذب إليها البرابرة والهلينيين، القارة والجزر، الشرق والغرب، أوربا وآسيا، والأرض كلها من طرف إلى آخر»[1]، وكان عدد اليهود فى مدينة الإسكندرية بمصر مائتى ألف يهودى.

هذا ما يؤكده إحصاء اليهود الذى أمر به الإمبراطور كلود (عام ٤٣ م)، وهو يبين أن الإمبراطورية الرومانية كان بها أكثر من ١٠ ٪ من رعاياها من اليهود.

ولقد تتابعت هذه الحركة من التحول إلى اليهودية فى المقاطعات التى خلت من رقابة الكنيسة الرومانية، وفى مطلع القرن السادس الميلادى كان ملك اليمن ذو نواس، وجزء كبير من الشعب العربى، قد تحولوا إلى اليهودية.

وفى القرن السابع، كان شعب الخزر، ذو الأصل التركى والروسى والماجيار، قد أنشأ مملكة كبيرة على أرض أوكرانيا الحالية، وحوالى عام ٧٤٠ م اعتنق ملك الخزر بولان Bulan اليهودية، لأنه لم يكن يريد أن يتبع البيزنطيين النصارى، ولا الفرس المسلمين، وقد استهوى معه قسما كبيراً من شعبه، يبلغ الثلث، إذا ما استرشدنا بتكوين المحكمة العليا للمملكة، حيث كان يجلس فيها يهوديان، ونصرانيان، ومسلمان، ومشرك واحد.

ومنذ القرن الحادى عشر، حتى الثالث عشر تشتتت هذه المملكة تحت هجمات الروس والبيزنطيين، ولا سيما هجمات جنكيزخان، وبذلك طورد الخزر إلى بولندا، والمجر، والترنسلفانيا، مع مشاركيهم فى الدين Coreligionnaires الذين قدموا من ألمانيا والبلقان، فشكلوا المجتمعات اليهودية الكبرى فى أوربا الوسطى والشرقية.

---

(١) برنارد لازار «معاداة السامية l' Antisémitisme – باريس ١٩٨٢ ص/ ٢٧.

والنتيجة بسيطة، لقد استهلّ روفائيل بتاى Raphaël Patai مقاله عن «اليهود – Jews» فى دائرة المعارف البريطانية بهذه العبارة الثمينة: «لقد ثبت من كشوف الأنتروبولوجيا الفيزيقية أنه لا يوجد جنس يهودى، خلافا للفكرة الشائعة» (1).

ثم أشار، وهو يلخص البحوث التى أجريت على الفصائل الدموية إلى أن «مجموعات اليهودية تحمل فى دمائها اختلافات ذات اعتبار فيما بينها، كما تحمل تشابها مذهلا مع غير اليهود فى نفس البلد، ولما رجع إلى السلم البيوكيمائى الذى وضعه هيرتزفيلد Hirszfeld ذكر أن مؤشرات الدم على طرفى السلم بين يهودى ألمانى، وألمانى غير يهودى تظهر أن الفرق طفيف: فهو ٢,٧٤ بالنسبة إلى فريق، و٢,٦٣ بالنسبة إلى الآخر، وكذلك الأمر بين يهودى تركى، وتركى غير يهودى: ٠,٩٧ بالنسبة إلى فريق، و ٠,٩٩ بالنسبة إلى فريق آخر، فالمعامل يتراوح إذن بين ٢ و ٤ ٪ بين اليهود ومواطنيهم فى بلدهم الخاص، على حين أنه يختلف، قريبا من ٣٠٠ ٪ بين اليهود من بلدان مختلفة، وتركيب الدم هو بصفة عامة قريب إلى درجة التماثل بين اليهود وغير اليهود فى البلد الواحد: ١,٥٤ بالنسبة إلى اليهود الرومانيين، و ١,٥٣ بالنسبة إلى غير اليهود، وهو فى مراكش ١,٦٣ بالنسبة إلى الجميع (2).

إن من اللغو أن نتوقف عند دليل كهذا لو لم يكن الصهيونيون قد أسسوا أسطورة «العودة» على أسطورة الاستمرار العرقى والتاريخى بين العبرانيين الكتابيين، وبين اليهود المعاصرين، ولو لم يكونوا قد حاولوا حمل الآخرين على الاعتقاد بأن كل «يهودى»، أينما وجد فى العالم، عندما يجىء إلى إسرائيل – إنما «يعود» إلى أرض أجداده، فى حين يقرر الواقع أن ٩٩٪ على الأقل من اليهود المعاصرين ليس من أجدادهم أحد وطئت قدماه أرض فلسطين، بسبب التحول من ناحية، وبسبب الزيجات المختلطة خلال القرون من ناحية أخرى.

---

(١) دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britaunica جـ ١٢ ص ١٠٥٤.

(٢) رفائيل بتاى، السابق.

لقد استنتج مكسيم رودنسون بهدوء قوله: «إن من المحتمل جدا، على ما أثبته علم الانثروبولوجيا الفيزيقية – أن السكان الموصوفين بأنهم «عرب» فى فلسطين، (وقد كانت للأغلبية مع ذلك «مستعربة») كان فيهم من دم قدماء العبرانيين، أكثر مما لدى أغلبية اليهود فى الشتات، الذين لم يمنعهم التعصب الدينى مطلقا من أن يمتصوا من المتحولين ذوى الأصول المختلفة[1].»

وهكذا تنهار أسطورة «العودة» وقد لجأ القادة الصهيونيون الإسرائيليون إلى هذه الأساطير كيما يخفوا غزوتهم الاستعمارية تحت قناع «عودة» اليهود، الذين ليس لأغلبيتهم الساحقة أى جد أصلى من هذا البلد، إن أوضح نتائج هذه الخديعة قد صاغها توماس كيمان Thomas Kieman فى قوله: «إن الصهيونيين أوربيون، وليس هنالك مطلقا أى رباط بيولوجى، أو أنثروبولوجى بين أجداد اليهود فى أوربا، وبين قدامى الأسباط العبرانيين»[2].

---

(١) مكسيم رودنسون: إسرائيل واقع استعمارى «Ysraël Fait Colonial» مقالة منشورة فى كتاب: «شعب يهودى أم مشكلة يهودية – «Peuple juif ouProbléme Juif – باريس ١٩٨١ ص ٢١٨.

(٢) توماس كيمان: العرب – The Arabs – ط. لستيل براون اندسى» بوسطون ١٩٧٥ ص ٢٥٣.

* * * * *

ب – أسطورة الأرض

شأنُ القوميات جميعا أن الإيمان بالأرض مرتبط بأسطورة الجنس، وقد كان هذا تراث الرومانسية الأوربية فى القرن التاسع عشر.

وعندما كتب فختة Fichet[1] (١٧٦٢ – ١٨١٤) كتابه «خطب إلى الأمة الألمانية» عام ١٨٠٧، وكان مع ذلك منفصلا عن فلسفته للسابقة – وجدناه يطور مفهوما ميتافيزيقيا عن «الأمة – القوم nation[2]» فلم تعد – كما هى عند جان جاك روسو، وفى نظرية الثورة الفرنسية – «عقدا اجتماعيا» صادرا عن الإرادة الحرة، والعقلية للمواطنين، بل لقد أصبحت وحدة ميتافيزيقية، سابقة فى وجودها على ضمير الناس وإرادتهم الخالدة، والأفراد الذين يكونونها مرتبطون بانتمائهم إلى هذه الأمة – القوم، بمصدر الحياة الجذرى، هذه القومية هى انعكاس إرادة إلهية عينت لها رسالة عالمية شاملة. والألمانى فى «خطب – فختة – إلى الأمة الألمانية» هو وحده الذى يستطيع أن يعبر عن جوهر الإنسان، وفضائله، لأنه هو وحده الذى يستطيع أن يدرك – من خلال الجوهر الميتافيزيقى لقوميته المختارة منذ الأزل – ماضيه وأرضه، «الوجود» الحقيقى لكل تاريخ إنسانى، لقد كتب يقول: «الألمانى وحده يستطيع أن يكون وطنيا، لأنه وحده الذى يستطيع أن يجمع فى غايات قومه مجموع الإنسانية»[3].

---

(١) فيلسوف ألمانى، ولد فى رمينو، وهو تلميذ كانت، كان فكره يصدر أولا عن فكر كانت، ثم انتهى بأن صار مثالية مطلقة، ليس فيها من الواقع سوى الكلمة.

(٢) يختلف معنى (الأمة) فى المفهوم الأوربى الدال على (القوم) عرقيا، عنه فى المفهوم الإسلامى الذى يقوم على الإيمان، ولذلك اخترنا هذا التصرف فى الترجمة للتمييز بينهما (المترجم).

(٣) فخته: «حوار وطنى – Dialogue patriotique» – جـ ٣ ص ٢٣٤.

إنها تبرر مقدما جميع أعمال الاغتصاب للأراضى، بناء على أن هناك رباطا صوفيا يوحد ما بين الجنس والأرض «المقدسة»، ويجعل منهما كلا، لأن هذه الأرض هى المكان الوحيد الذى لا تنفصل فيه الروح عن الجسد، فهى تؤدى فيه رسالتها الخالدة.

يقول الكاتب الرومانسى الألمانى ستيفنز:

«إن العالم الخارجى ذاته هو مظهر لوجودنا الداخلى، وهذا الحوار العظيم الذى يتحاور فيه الكل مع ذاته، والذى يتلاحق فى كل منا بشكل خاص ومحدد - هو السر الحقيقى»، وستيفنز هذا هو استمرار لشيلنج.

كان هذا هو الموضوع المحورى للرومانسية الألمانية، التى صاغها نوفاليس بقوله: «هل الطبيعة إلا الإنسان فى وعاء تاريخ، هو له بمثابة روح؟»[1].

ففكرة «الأماكن التى تتنفس فيها الروح» (مرتبطة بفكرة الجنس) هى الخيط الذى يقود جميع حوادث اغتصاب الأراضى التى ارتكبتها القوميات فى القرن التاسع عشر.

ومن قبل، ربط تيودور هرتزل، الذى تشرب الثقافة الألمانية بعمق، بين هذين الموضوعين، فهو فى كتابه: «الدولة اليهودية» يلح ابتداء من المدخل، على فكرة «الجنس اليهودى»، فيقول: «إن اليهود، وهم الأعلون ماديا وأدبيا، قد فقدوا فقدانا كاملا شعورهم بالترابط الجنسى... إن اليهود الأقوياء يعودون فخورين إلى جنسهم عندما يتفجر الاضطهاد»[2].

---

(١) نوفاليس: «تلاميذ سايس Les disciples de sais» فى أعمال الرومانتيكيين الألمان». ط لا بلاييد جـ ١ ص ٦٩.

(٢) تيودور هرتزل: الدولة اليهودية - L' Etat Juif ط ليرن ١٩٦٩ ص ٢٢

ثم يضيف قوله: فليعطونا السيادة على جزء من الأرض ذى علاقة بحاجاتنا المشروعة... فلسطين هى وطننا التاريخى الذى لا ينسى، وهذا الاسم وحده سوف يكون صرخة التجمع القوية لشعبنا»[1].

والواقع أن المسألتين الرومانسيتين «للجنس والأرض» لم يتناولهما هرتزل بسبب من أساسهما الموضوعى، بل بسبب من قدرتهما على الحشد، فهو لا يجزىء أى وهم من الأوهام التى ينشرها.

وقد كتب فيما يتعلق بالجنس يقول: «إننا – والحق يقال – لا نرى أنفسنا منتمين إلى نفس الجنس إلا فى إيمان أجدادنا»[2]، واليهودية Judaisme لا يمكن أن تعرّف إلا من حيث هى إيمان، اللهم إلا إذا عُرِّف التهود Judaité بالنقيض، «فنحن شعب، هكذا جعلنا عدونا، دون تدخل إرادتنا، وقد كان هذا دائما معروفا خلال التاريخ»[3].

ولسوف نرى فيما بعد كيف أن مؤسس الصهيونية السياسية قد لعب دوره بمهارة فى صياغة غموض هذا التعريف المزدوج، فهو لم يكف عن مناضلة أولئك الذين ينظرون إلى اليهودية على أنها دين فقط.

ولقد سأله مرة أشر مايرز Asher Myers محرر صحيفة جويش كرونيكل: كيف تضعون أنفسكم من الكتاب المقدس؟ فأجابه: أنا حر – مفكر، ومبدؤنا سوف يكون أن لكلٍّ أن يبحث عن خلاصه بطريقته»[4].

---

(١) السابق ص ٤٥.

(٢) الدولة اليهودية – السابق ص ١١٢، وهو يقول أيضا فى صحيفته: «إننا نعترف بأنفسنا قومية من خلال ديننا» (دياترس – السابق ص ٤١).

(٣) السابق ص ٤٠.

(٤) يوميات تيودور هرتزل – ترجمها مارفن لونثال – ط فيكتور جلفاز – محدودة – ١٩٥٨ ص ٨٤.

ويكتب فى صحيفته قائلا: «الحق أن مفهومى عن الله هو مفهوم سبينوزى، وهو يقترب من الفلسفة الطبيعية للموحدين، بيد أن جوهر سبينوزا يبدو لى خامدا، .. فأنا أتخيله إرادة كلية مهيمنة، إن العالم جسد والله هو الذى يديره... ولست أعرف غايته الأخيرة، ولا أنا بحاجة إلى معرفتها»[1]، فها نحن أولاء فى صميم مذهب الحلولية الحيوية الذى قال به الرومانسيون الألمان.

وهو يكرر لربانى النمسا الكبير ما سبق أن قاله للربانيِّين جودمان وزادوك خان: أنا لا أخضع لدافع دينى، ولكنى بالتأكيد أحترم الإيمان، ولست أقل احتراما لإيمان آبائى من احترامى لإيمان الآخرين»[2].

إنه يعرف جيداً أن فكرة الجنس خيال، محض خيال، ليس لها أساس علمى، وهو يصف السمات الفيزيقية فى مناقشة مع إسرائيل زنجويل، وكأنها معارضة لسماته معارضة تامة، فيقول: «إنه يستمسك بفكرة الجنس، وهو شىء لا أستطيع أن أقبله، وليس أمامى سوى أن أنظر إليه وأنظر إلى نفسى، فكل ما أقوله هو: نحن وحدة تاريخية وقومية ذات تنوع أنثروبولوجى، وهذا يكفى لقيام دولة يهودية، إذ ليس لأية قومية جنس منسجم»[3].

ويضيف أيضا أن ماكس نوردو يتفق معه فى الاعتراف بأن «اللاسامية وحدها هى التى صنعت منا يهودا، «فهو جد مقتنع بأن أفكار (الجنس)، بل وأفكار (الشعب) و (القومية) اليهودية ليس لها من واقع إلا أنها تعبير عن مجتمع مؤمن، وأن القاسم المشترك الوحيد بين اليهود لا يمكن أن يكون سوى الإيمان، وهو ما طالب به فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ م، فى خطبة الافتتاح، بقطع النظر عن رأيه الشخصى، قال: «إن الصهيونية هى العودة إلى اليهودية، قبل أن تكون عودة إلى الوطن اليهودى».

---

(١) اليوميات السابق ص ٦٢ (٢) السابق ص ٨٠.

(٣) السابق ص ٧٨.

أما فيما يتعلق بأسطورة الأرض فقد ذكرت جريدة جويش كرونيكل (فى ١١ من أغسطس ١٩١١ (ص ١٤) أن هرتزل لم يهتم بالأفكار الدينية عن فلسطين إلا «حين كانت تخدم المثل الأعلى القومى، ومن رأيه أن العقائد الدينية، وهى نسيج يحيط بالأرض المقدسة، لم يكن لها من نفع إلا باعتبارها وسيلة صحيحة لحماية القوى الغالية الوليدة للقومية ضد عناصر الاندماج المفترسة».

والواقع أنه يرى أن المشكلة الجوهرية هى خلق دولة قوية فى أى مكان تكون.

ولقد تصور على التوالى أن تكون فى الأرجنتين[1]، حيث كان البارون هيريش قد أقام مستعمرات يهودية، ثم تصور أن تكون فى شبه جزيرة سيناء والعريش[2]، ثم طلب بعد ذلك قبرص من الحكومة الإنجليزية، فلفت وزير الخارجية جوزيف تشمبرلن نظره إلى أن قبرص يقطنها اليونانيون والمسلمون، فلن يكون بوسعه أن ينزع ملكيات لصالح القادمين الجدد[3].

فماذا أجاب هرتزل؟ لقد قال: «فليذهب المسلمون، وأما اليونانيون فسيكونون سعداء إذا باعوا أراضيهم بثمن غال، ثم يهاجرون إلى أثينا أو إلى كريت»[4].

ثم طلب بعد ذلك أرضا من البرتغال فى مستعمرتها موزمبيق، ومن بلجيكا، فى الكونغو[5].

---

(١) الدولة اليهودية (ص ٤٤).

(٢) يوميات هرتزل (لوينثال) - السابق ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٣) يوميات - السابق - ص ٣٧٥.

(٤) السابق ص ٣٧٦ (٥) السابق ص ٣٨٦.

وأخيراً اقترحت عليه الحكومة الإنجليزية أوغندا[1]، وهى فى الواقع جزء من كينيا[2]، ولقد تقدم هرتزل بهذا الاقتراح يؤيده فيه ماكس نوردو، إلى المؤتمر العشرين الصهيونى، فى أغسطس ١٩٠٣، وكانت فضيحة: فقد صوت ٢٩٥ مندوبا معه، وصوت ١٧٧ ضده، وغادروا قاعة المؤتمر. وعندها تراجع هرتزل، وأعلن أن هذه لم تكن سوى مرحلة، وأن الهدف النهائى لا يمكن أن يكون سوى فلسطين[3]، وتزعزع كيان المؤتمر، ومضت أشهر ستة بعد هذه الأزمة، حين قام بباريس صهيونى روسى فأطلق رصاصة من مسدس على «نوردو الأوغندى»[4].

ولم يستمر هرتزل بعد ذلك فى مساعيه فى نفس الاتجاه، وفى ٢٣ من يناير ١٩٠٤ التقى بملك إيطاليا الذى بدأ يتكلم عن سبتاى زفى، المسيح المزيف، الذى كان أحد أجداده قد تواطأ معه[5].

وقد أثارت هذه المقارنة هرتزل، الذى خاطبه الملك بقوله بأنه عامله أولا على أنه كاهن ربانى.

ورد هرتزل: لا، ياسيدى، إن حركتنا ذات صبغة قومية محضة[6].

وحدد له هرتزل عندئذ موضوع مساعيه، على أنه:

«إطلاق حركة التهجير اليهودى إلى أقصاها فى طرابلس الغرب فى ظل القوانين، والنظم الليبرالية، لإيطاليا»[7].

---

(١) السابق ص ٣٨٣.

(٢) السابق ص ٤٠٦.

(٣) السابق ص ٤٠٩، وقد أضاف هرتزل فى خطابه الختامى قوله: «اسمحوا لى أن أكرر أيضا بلغة أسلافنا القسم القديم الذى يقيدنى كذلك: لو نسيتكِ يا أورشليم فلتنسنى يمينى».

(٤) السابق ص ٤٠٦ (٥) السابق ص ٤٢٥.

(٦) السابق ص ٤٢٦ (٧) السابق ص ٤٢٧.

وكانت إجابة الملك، التى ذكرها هرتزل نفسه[1]، ذات مغزى (تماما كما كانت إجابة تشمبرلين عن قبرص)، قال له: «Ma é ancora casa di altri»، أى: ولكن هذه أيضا ديار أناس آخرين»، وقد أجاب هرتزل على هذا بعقلية استعمارية وإمبريالية غاية فى الصفاء، قال: «ولكن تقطيع أوصال تركيا قريب».

إن هذا الموقف من تيودور هرتزل، وهو يرفض أن يرى فى العالم ما ليس يهوديا، اللهم ما عدا القوى الاستعمارية التى تساعده على هدفه – هذا الموقف علامة مميزة: فهو يرى أن المواطنين الأصليين لا وجود لهم. وكتابه: «Altneuland» (وقد ترجم إلى الفرنسية بعنوان: Terre ancienne, Terre nouvelle –أرض قديمة وأرض جديدة)[2] – هذا الكتاب كاشف عن موقفه، فهو قصة سياسية، وخيال جوهره لوحة متناقضة عن فلسطين، التى زارها فى أكتوبر عام ١٨٩٨، وفلسطين التى يتخيلها وقد صارت دولة يهودية عام ١٩٢٣. وفى هذه الصفحات التى بلغت ثلثمائة وإحدى وثلاثين صفحة لا يظهر سوى المستعمرين اليهود، لأول مرة فى مستعمرات البارون دى روتشيلد، ثم يظهرون للمرة الثانية باعتبارهم سادة البلد، حتى إن كلمة (عرب) ذاتها لا تظهر سوى مرة واحدة، يحكى فيها أن المستعمرين فى مستعمرة ريكوبوت Rechobot قدموا مهرجان فروسية على الطريقة العربية» (ص ٥٢).

ففى ظل الدولة اليهودية لا ينطق الاسم، مجرد نطق، وهم يروننا فقط «الشعب المدجّن... الذى احتلته منتجات الغرب»، ثم يصف لنا الذهول العميق الذى يحدثه فى الشرقيين ظهور هذه الأعاجيب» (ص ٢٣١).

---

(١) السابق.

(٢) ط. ريدر، باريس ١٩٣١.

هذا هو كل شيء. ولم يكن لدى هرتزل، لا فى صحيفته، ولا فى قصته - نظرة إلى هذا المعمار العالمى الرائع، الذى تمثله فى أورشليم قبة الصخرة، فهذا الشعب وثقافته لم يوجدا.

ولنذكر أنه فى هذا العصر - حتى بعد الموجة الأولى من المهاجرين التى أعلنت بسبب مذبحة اليهود فى روسيا، (بدءا من عام ١٨٨١ م) - أن فلسطين كانت تضم ٤٥٠٠ يهودى فى الريف، و ٤٥,٠٠٠ فى المدن، وسط شعب تعداد سكانه حوالى ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف: لقد كان تسعة أعشار السكان فى نظر هرتزل مشطوبين من الكون[1].

ولم يكن لفلسطين وجود سوى وجود الأسطورة شأن كل أرض تخاتلها القومية.

لقد كتب إبراهام إسحاق كوك (١٨٦٥ - ١٩٣٥)، والذى ولد فى نفس عصر هرتزل - كتب يقول: «إن تصور الناس فى الأرض المقدسة واضح وجلى، رائق ونقى، قادر على أن يستقبل وحى الحقيقة الإلهية، وعلى أن يجسد المغزى الأسمى للمثل الأعلى، مثل القداسة المهيمنة[2]».

وهناك معاصر آخر لهرتزل، ولد لسنتين بعده، عام ١٨٦٢ م، وقد سيطر عليه نفس الهذيان القومى الرومانسى، (ولكن تلك القومية الرومانسية كانت ضد السامية، بصورة عنيفة، لأن أية قومية متعصبة لا تعيش - بموجب التعريف - إلا من بغض الآخرين جميعاً) - هذا المعاصر هو موريس بريز، وقد كتب فى كتابه «La colline inspirée - ربوة الإلهام».

---

(١) هذا هو الموقف الثابت للصهيونية: فقد أعلنت السيدة جولدا مائير فى صحيفة الصنداى تيمس، فى ١٥ من يونيو ١٩٦٩ قولها: «ليس هناك فلسطينيون، فليس الأمر كما يتصور، كأنما كان فى فلسطين فلسطينيون، يعتبرون أنفسهم شعبا فلسطينيا، وكأننا جئنا لنطردهم ونأخذ بلدهم!! إنهم لم يوجدوا أصلا».

(٢) هرتزبرج - السابق ص ٤٢١.

يقول: «هنا النقطة الروحية لهذا القطر العظيم القدر، هنا ترتبط حياته العادية بالحياة العلوية..» وها هو ذا السلتى الذى اهتدى إلى طريقه: «لقد وجدتنى فى مجتمع، مع بضعة آلاف من الكائنات التى مرت من هنا، إنه محيط... وهاأنذا فى المروج الخضراء حيث المفتاح الذهبى، مفتاح أحلام اليقظة الكبار...» وهو أيضا على «ربوة الإلهام» هذه، «يهيجه ريح صهيون»، بيد أن صهيون هذا هناك، موجود فى اللورين! السلتى ضد الرومانى!.

بيد أن للرومانى أيضا أرضه السحرية، فعلى الحائط الذى يحاذى فى روما ميدانها التاريخى توجد الخرائط التى نقشها موسولينى: خرائط الإمبراطورية الرومانية، أرض أخرى «مقدسة» للفاشيست الإيطاليين، سعيا إلى الاغتصاب.

وهذا السلتى الأرضى سوف تقام له الاحتفالات أيضا، فى نورمبرج، طبقا لطقوس المشاعل الهتلرية، لتذكر العقول بالأرض الجرمانية، وبمجموعة طقوس ووتان [1].

إن التلوين الكتابى الذى أضفته القومية الصهيونية على هذه الموضوعات لا يغير شيئا من الواقع، وهو أنها مشتركة بين جميع القوميات الأوربية، وأنها ليس لديها أساس غير هذا، لا فى الماضى، ولا فى الحاضر.

فأما الماضى فقد سبق أن أبنَّا لك أن التفسير الصهيونى «للوعد» كان غير مرضى من الناحية اللاهوتية، سواء من اليهود أو النصارى، ونحن نضيف هنا فقط ملاحظة تاريخية هى: أن قراءة النصوص المقدسة فى الشرق الأوسط ترينا أن جميع الشعوب قد لمست فيها وعوداً متشابهة، من ربها، تعدها بالأرض، من العراق إلى مصر، مروراً بالحثيين.

---

(١) ووتان Wotan أو أودين Odin إله الأسطورة الأسكندنافية، وهو مبدأ كل شىء: البلاغة، والحكمة والشعر... الخ، وهو الذى يمنح الشجاعة (المترجم).

وفى مصر أقام تحتمس الثالث معبد الكرنك (بين ١٤٨٠ و ١٤٧٥ ق . م) حتى يحتفل بانتصاراته التى حققها على طريق غزة، مجدو ، قادش، إلى الكرك (على الفرات)، وقد قال له الإله: «لقد حددت لك بأمرى الأرض، بالطول والعرض، جئت لأمكنك من أن تسحق أرض الغرب».

وعلى الطرف الآخر من الهلال الخصيب، بالعراق، فى اللوحة السادسة من «قصة الخلق البابلية» نجد الإله مردوخ «يعين لكلٍّ حظه» [العبارة /٦]، ولكى يختم العهد يأمر ببناء بابل ومعبدها»[١].

وبين الاثنين نجد الحثيين يغنون لأرينّا، إلهة الشمس:

«إنك تسهرين على أمان السموات والأرض وأنت تحرسين حدود البلاد»[٢].

فلو لم يتلق العبرانيون وعدا كهذا لاعتبروا فى الحقيقة شذوذا واستثناء[٣].

وعليه، فإن ما يعد استثناء وشذوذا هو استخدام هذا الوعد، بعد ثلاثة آلاف عام، على نحو ما حدث: أن يتخيلوا العراق أساسا من أسس مزاعمهم حول الأرض، طبقا لوعد مردوخ، أو الأرض السورية طبقا لوعد أرينا «لأجدادهم» الحثيين، أو مصر، طبقا لوعد آمون لتحتمس! لقد كان العالم كله على صواب أن يأخذ هذه الوعود جميعاً مأخذ السخرية والاستهزاء.

ولكن لماذا نتخذ موقفا آخر تجاه نصوص متماثلة، لحضارة مجاورة، إن لم يكن ذلك لأننا نعتقد، صوابا أو خطأ، أننا نحن ورثتها؟.

---

(١) أديان الشرق الأدنى «les religions du Proche Orient» تأليف رينيه لابت ط. آيارد ١٩٧٠ ص ٦٠.

(٢) السابق ص ٥٥٧.

(٣) انظر عن: الوعد – رسالة الأب لاندوزيس Landouzies فى المعهد الكاثوليكى بباريس بعنوان: « هبة أرض فلسطين – «le don de la terre de Palestine»، ١٩٧٤ – ص ١٠ – ١٥.

إن التاريخ المقارن للأديان يرينا، بصفة أكثر عموما، كيف أن قبائل جميع الشعوب، من إفريقيا إلى بولينيزيا[1] – قد أنشأت قصصا معبرة عن أنسابها، تصلها بأجداد أسطوريين، هم أبطال رمزيون، منحوا أسماءهم للقبيلة، وضمنوا لها أرضها، هذا النوع من الأسطورية نما أيضا فى الغرب: فكانت الإلياذة والأوديسا لدى اليونانيين «سفر التكوين»، وعندما أصبح أو غسطس أمبراطوراً لروما، كانت أشعار فيرجيل (L' Enide) هى التى تروى ملحمة البطل، مؤسس «المدينة الخالدة»، إينيه Enée، أحد الناجين من حصار طروادة، وهو يتلقى النصوص القديمة للإلياذة والأوديسا، •والتقاليد الشفهية التى يحكى كثير منها أحداثا تاريخية واقعية، على الطريقة اليونانية، ولقد رأينا كيف أن القوميات المختلفة فى القرن التاسع عشر – عمدت إلى إحياء هذه الأساطير.

ومع ذلك سوف يكون شذوذا واستثناء، أن نجد سليمان (فى اللحظة التى وُحدت التقاليد الشفهية وحُرِّرت كتابة) – لا يتخلى عن محاولته أن يعثر فى ماضى الكهنة السحيق على مصدر يبرر إنشاء مملكة داود، ويقرر مشروعيتها؟.

إن أية قومية تحتاج إلى أن تضفى صفة القداسة على دعواها، فبعد تفسخ المسيحية عمدت كل دولة – قومية إلى ادعاء أنها جمعت التراث المقدس، وأنها تلقت من الله تنصيبا، ابتداء من روسيا المقدسة، إلى الملوك الكاثوليك بأسبانيا، وفرنسا، الابنة الكبرى للكنيسة، التى تم بها عمل الرب، إلى ألمانيا (فوق الجميع)، لأن الرب معها، وأعلنت إيفا بيرون «أن رسالة الأرجنتين هى أن تأتى بالرب إلى العالم»، وفى عام ١٩٧٢ أشهر رئيس وزراء جنوب إفريقيا، فورستر بعنصريته المتوحشة، سياسة التمييز العنصرى، وتكهن بدوره قائلا: «يجب ألا ننسى أننا شعب الرب، مختارون لرسالة»[2].

---

(١) قسم كبير من المحيط الهادى يضم جميع الجزر المتفرقة فى شرق استراليا (المترجم).

(٢) جاء فى صحيفة فيفان يونيفر Vvant univers – عدد رقم ٢٩٠ يناير – فبراير ١٩٧٤، عبارة «أنتم جند المسيح»، وذلك فى كلمة الكاردنيال سبيلمان إلى قوات الحملة الأمريكية فى فيتنام، دون أن يستنكر البابا قولته هذه.

ولسوف يكون غريبا ألا تتقاسم القومية الصهيونية مع سائر القوميات هذه النشوة، ولاسيما أن الصهيونية السياسية ترفض من الناحية المنهجية فكرة أن اليهودية دين فقط، وترى أن اليهودية أمة - قومية.

ولقد قال تيودور هرتزل فى كتابه «الدولة اليهودية» (ص ٢٠٩) بصراحة: «ليست المسألة اليهودية فى رأيى مسألة اجتماعية، ولا مسألة دينية، على الرغم من أنها تأخذ أحيانا هذه الأشكال وغيرها، إنها مسألة قومية، ولكى نحلها يجب أن نجعل منها قبل كل شيء مشكلة سياسية دولية، تناقش وتحل بوساطة جمعية للأمم المتحضرة فى العالم، نحن شعب، وشعب واحد» [1].

فهذه هى المسَلَّمةُ الأساسية للصهيونية السياسية: أن اليهودية ليست دينا أساسا، ولكنها قومية أولًا.

ولقد كتب ماكس نوردو، وهو من أقرب زملاء هرتزل إليه - كتب عام ١٩٠٢ يقول: «إن النقطة الوحيدة التى تنفى إلى الأبد احتمال أن يتفق اليهود الصهيونيون واليهود غير الصهيونيين هى مسألة القومية اليهودية، فالذى يعتقد ويؤيدَ أن اليهود ليسوا قومية لا يمكن - فى الواقع أن يكون صهيونيا» [2].

ويضع جاكوب كلازكن (١٨٨٢ - ١٩٤٨) تعريفا قوميا لليهودية فيقول: «أن تكون يهوديا لا يفترض الارتباط بعقيدة دينية أو أخلاقية... ولكى تكون جزءاً من القومية ليس من الضرورى أن تؤمن بالدين اليهوى، أو بالمفاهيم الروحية اليهودية» [3].

ويلخص ج. هـ. جوتهل (١٨٦٢ - ١٩٣٦)، وهو أول رئيس للاتحاد الصهيونى الأمريكى - يلخص بكل وضوح النظرية فيقول: «إننا نؤمن بأن اليهود أكبر من أن يكونوا مجرد مجتمع دينى محض، وهم ليعتوا جنسا فحسب، ولكنهم قومية» [4].

---

(١) دراسة أنثروبولوجية للنصوص الصهيونية - Anthropologie des textes Sionistes - نشرة رابين آرثر هيرتزبرج بعنوان «الفكرة الصهيونية - The Sionist idea - (نيويورك ١٩٥٩) ص ٢٠٩.

(٢) السابق ص ٢٤٣ (٣) السابق ص ٣١٧ (٤) السابق ص ٥٠٠.

٣ - المعارضة الدينية للصهيونية السياسية واعتبارها هرطقة يهودية.

نشأ عن هذا الاتجاه صراع عنيف بين الإيمان اليهودى، وبين قومية الصهيونية السياسية.

لقد استخدمت هذه القراءة القبلية للكتاب المقدس، لتغطية القومية بحجج دينية، وكذلك تغطية المبدأ الاستعمارى للصهيونية السياسية، الذى وضعه تيودور هرتزل، والذى التزمت به أخيراً دولة إسرائيل ، ولقد وقف ضده اليهود الذين يرون فى هذا المشروع السياسى خيانة للإيمان النبوى اليهودى، فعندما أسست الصهيونية السياسية فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧، بدفع من هرتزل، كان مؤتمر مونتريال (١٨٩٧) يبحث اقتراح الربانى إسحاق ماير وايز (١٨١٩ - ١٩٠٠)، وهو أبرز الشخصيات اليهودية فى أمريكا، آنئذ، وكان المؤتمر يرى هذا الرأى الذى كان يسجل التعارض الثابت بين القراءتين: القبلية والعالمية، للكتاب المقدس، قال بيان المؤتمر: «إننا نستنكر كلية أية محاولة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية، وإن محاولات من هذا القبيل لتكشف عن مفهوم ضال لرسالة إسرائيل، التى امتدت من مجال سياسى وقومى ضيق إلى التوجه بالدين إلى الإنسانية بأكملها، والارتقاء به ليكون دينا ليبراليا وعالميا، كما أعلنه الأنبياء اليهود من قبل..

ونحن نؤكد أن هدف اليهودية ليس سياسياً ولا قومياً ، ولكنه هدف روحى، وأنه يحمل عبء الإكثار من فرص السلام، والعدالة والحب للناس جميعاً، وأنه يهدف إلى بناء عصر مسيحى Messiannique يعترف فيه كل الناس بانتمائهم إلى «مجتمع واحد كبير» لإقامة ملكوت الرب على الأرض[1].

---

(١) المؤتمر المركزى للربانيين الأمريكيين - الكتاب السنوى السابع - ١٨٩٧ ص ١٢. وقد أنشا الربانى وايز Wise عام ١٨٧٦: اتحاد الجماعات العبرية فى أمريكا، وكلية الاتحاد العبرى، ولمعرفة ترجمته انظر: إسرائيل نوكس The Story of Isaac —Knox Rabbin in America - ووايز W. Wise - ط ليتل براون اندسى، بوسطن ١٩٥٧.

هذه المعارضة لم تتوقف بإنشاء دولة إسرائيل، تلك الدولة التى كانت سياستها تبريرا لخوف اليهود المخلصين للإيمان النبوى.

وقد لخص الربانى هرش هذا النقد اللاهوتى الأساسى فقال فى حدة وغضب، فى صحيفة الواشنطن بوست فى الثالث من أكتوبر ١٩٧٨: «إن الصهيونية تتعارض تعارضا كاملا مع اليهودية، فالصهيونية تريد أن تعرّف الشعب اليهودى على أنه وحدة قومية... وتلك هرطقة، فلقد تلقى اليهود الرسالة من الرب، لا لكى يفرضوا عودتهم إلى الأرض المقدسة، ضد إرادة من يسكنونها، فإذا فعلوا ذلك فإنهم يتحملون نتائجه، والتلمود يقول: إن هذا الانتهاك سوف يجعل من لحمكم فريسة للسباع فى الغابة... إن المذبحة الكبرى نتيجة من نتائج الصهيونية»[1].

ولكى نفهم هذا الغضب ينبغى أن نذكر كم رفض الإيمان اليهودى خلال حوالى عشرين سنة أن يتحد مع أية سلطة سياسية، أية كانت، حتى يؤدى رسالته العالمية

وعليه إن الصهيونية السياسية، منذ الازدهار الذى حققته فى الطريق الذى شقه تيودور هرتزل - ليست حركة دينية، نابعة من اليهودية، ولكنها حركة سياسية، كسائر التيارات القومية فى القرن التاسع عشر.

بل إن اعتبارها حركة سياسية هو ما تؤكده «دائرة معارف الصهيونية وإسرائيل» المنشورة فى نيويورك بوساطة مؤسسة هرتزل للصحافة عام ١٩٧١م.

---

(١) سوف نذكر فيما بعد مسئوليات القادة الصهيونيين عن مذابح اليهود على أيدى النازيين.

وتحدد مقدمة هذه الموسوعة أنها أعدت بإشراف فخامة الرئيس م. سلمان شازار M. Salman Shazar رئيس إسرائيل، فليس فى وسع أحد أن يحصل على تعريف رسمى للصهيونية أدق مما تقدمه الموسوعة، وقد جاء فى مادة Sionisme (ص ١٢٦٢ من الجزء الثانى) هذا التعريف هو: «مصطلح صيغ عام ١٨٩٠ للحركة التى تستهدف عودة الشعب اليهودى إلى أرض إسرائيل (فلسطين)، ومنذ عام ١٨٩٦ تعنى «الصهيونية» حركة سياسية أسسها تيودور هرتزل». (وهو ما أكدته من قبل: ر. ج.)

وعندما أسس هرتزل هذه الحركة السياسية اصطدم بمعارضة الأغلبية الساحقة من اليهود وربانييهم.

والدليل: أن أكبر جزء فى المجلد الأول عن «الكتابات الصهيونية – Zionist Writings»» لتيودور هرتزل – وهو يغطى الفترة من ١٨٩٦ – ١٨٩٨ – خصص للإجابات على إعلانات الربانيين القادة فى ذلك العصر، ومقالاتهم، من أمثال الدكتور جدمان – Dr. Gudeman، الربانى الكبير فى فينا، والدكتور مايبوم Dr. Maybaum، رئيس الجمعية الربانية الألمانية، والدكتور فوجلستين Dr. Vogelstein، مؤسس ورئيس جمعية الربانيين الليبراليين، وربانيى بلسن Pilsen وستتن Stettin الربانى الكبير أدلر دولوندر Adler de londres، والربانى الكبير بلوش دوبروكسل – Bloch de Bruxelles وخصص مكان كبير أيضا للإجابة على كلود منتفيور – Claude Montefiore رئيس الحركة الليبرالية اليهودية فى انجلترا، ورئيس الجمعية الأنجلو – يهودية، وهناك أيضا إجابة على إعلان اللجنة التنفيذية لجمعية الربانيين بألمانيا، وهو موقع من الربانيين ببرلين، وفرانكفورت، وبرسلو، وهليرستات، وميونخ، وهم يعارضون «الأفكار الضالة» عن «مبادىء اليهودية، وأهداف عقائدها»، وتبرز هذه الإجابة جزئيا فى الدعوة إلى المؤتمر الأول الصهيونى وجدول أعماله.

وهناك أيضا شروح على اعتراض الجماعة الدينية اليهودية بميونخ على دعوة المؤتمر الصهيونى الأول، الأمر الذى اضطر منظميه إلى أن يغيروا مكان المؤتمر من ميونخ إلى بال[1].

ويلخص رفوز ليرسى – رد الفعل الأول للمنظمات اليهودية الأوربية على رسالة هرتزل بقوله «إن المنظمات اليهودية ذات الشأن فى أوربا الغربية، وهى: «العهد الإسرائيلى العالمى فى فرنسا، – «l' Alliance Israëlite Universelle de France» وفرعها بالنمسا: العهد الإسرائيلى، «وجمعية الاستعمار اليهودى بلندن – «l' association Pour la Colonis ation Juive de Londre»، هذه المنظمات اعترضت على رسالة هرتزل... أما المكابيون، وإحدى جمعيات المثقفين اليهود بلندن، فقد استمعوا إلى هرتزل، بأدب، ولكن ببرود»، على حين أن بعض الربانيين الأرثوذوكس قد أعلنوا معارضتهم، «وكان أشد المعارضين حماساً هم جميعاً من الربانيين الإصلاحيين، وكانت حجتهم أن قالوا، إن اليهود ليسوا قومية، ولا ينبغى لهم أن يسعوا إلى أن يصيروها»[2]، لقد قامت هذه المعارضة ضد الصهيونية السياسية، وضد اتجاهها القومى على جوهر التقاليد اليهودية.

«إن السبى البابلى (فى القرن السادس قبل الميلاد) هو حدث باق دائما، لافى تاريخ اليهود فحسب، بل فى تاريخ الحضارة، ... مجتمع كبير يفصل عبادته لربه عن تمسكه بأرض أسلافه.... كانت هذه نقطة الانطلاق لمفهوم الأخوة الإنسانية، والتخلى عن الحكم المسبق الذى يحول حب فرد لشعبه وبلده إلى كراهية لكل الآخرين، وأخيراً تقرر هذا المبدأ:

---

(١) نشرت الطبعة الأولى فى ألمانيا بعنوان: «كتابات صهيونية – Zionistische Schriften» بوساطة ليون كلنر (فى مجلدين – برلين ١٩٠٥) أما مراجع المناظرات المذكورة آنفا فهى فى الطبعة الانجليزية (ص ٦٢، ٧٠، ٨٩ – ٩٧، ١١٩ – ١٢٤، ١٤٨ و٢٣٢ – ٢٣٩).

(٢) رفوز ليرسى: إسرائيل: تاريخ الشعب اليهودى – Israël: A History of the Jeuish People» كلفلاند، ويرلد ببلشنج كو ١٩٦٦. ص ٥٤١ – ٥٢٢.

إن الله ليس لمكان خاص من الأرض، ولكن كل البلاد، وكل الشعوب سواء عنده»[1].

لقد عادت إلى فلسطين أقلية من المنفيين، كيما تنشىء فيها، برعاية ملك الفرس، مجتمعا مغلقا، فرض عليه عزرا ونحميا الحصار العنصرى مع تيوقراطية كهنوتية.

أما الأغلبية فقد بقيت فى بابل، واعتبرت منذئذ أن الكتاب المقدس هو وطنها، فكانوا «رجال الكتاب»، وهناك سوف ينشىء الدين اليهودى التلمود الأول، وسوف يظهر فيه أكابر المفسرين، من أمثال الربانى هليل.

وأما فى فلسطين، فقد رأينا أنه بعد حركة المقاومة التى قامت من أجل الحرية الدينية، ضد غزو الهلينية، وهى حركة قادها متاتيا حشموناى وابنه يهودا المكابى – رأينا أن الأسرة الحاكمة التى برزت عن حركة المقاومة الدينية التى قاداها، وهى أسرة الحشمونيين – سرعان ما تتحلل إلى قومية استبدادية وطائفية، تقضى نحبها عند الغزو الرومانى.

ثم تكون انتفاضتان للقومية، مع ثورات الزيلوتيين، من عام ٧٠ – ١٣٥م، تقودان فلسطين إلى الكارثة، وتنهيان حكم الصدوقيين، وقومية الزيلوتيين، وبذلك تعود القيادة الروحية، قيادة المعبد، إلى الفريسيين وحدهم.

كان رائد هذا التحول الراديكالى للقومية العبرانية إلى الدين اليهودى، دون أدنى ارتباط بأية قومية – هو الربانى يوحنا بن زكاى، الذى فكر عام ٧٠ م، إبان الثورة الزيلوتية الأولى، فتسلل خلال حصار أورشليم إلى معسكر الرومان وحصل من الإمبراطور على موافقة لإنشاء أكاديمية يهودية ليَهْوَه (قريبا من مدينة يافا)، وقد اعترف الرومان عام ٨٠ م بالربانى جماليل Gamaliel، باعتباره بطريقا للمجتمع الروحى اليهودى.

---

(١) لويس فنكلستين: «الفريسيون – The « Pharises » Jeursh Publication Society of America» فيلادلفيا ١٩٤٦ جـ ٢ ص ٤٤٣. (والفريسيون: طائفة من يهود عهد المسيح عرفت بتمسكها بالطقوس وبالتقوى الكاذبة) [المترجم].

لم تعد اليهودية تتحقق فى شعب، أو تتحد بأرض، ولكن إشعاعها كقوة روحية كان يتعاظم، على نحو ماكتبه الربانى البابلى إليعازر بن بيدات، فى القرن الثالث (ق. م)، حين قال: «إن القديس، باركه الرب، لم يترك إسرائيل وسط الأمم إلا بهدف أن يهدى الناس، ومنذ هُدِم المعبد نُزع حائط من حديد بين إسرائيل وأبيها الذى فى السموات»[1].

وحين لم تعد اليهودية محاصرة فى حدود قومية انطلق إشعاع الإيمان اليهودى، على النحو الذى بلغ به التبشير باليهودية أَوْجَه، فعندما ألغيت البطريركية اليهودية، على يد تيودور الثانى، عام ٤٢٥ م، بهدف إيقاف هذا التبشير، كانت الإمبراطورية الرومانية تعج بملايين من اليهود، ومن قبل، حين أمر الإمبراطور الرومانى كلود بإحصاء المواطنين اليهود، فى الإمبراطورية الرومانية، (عام ٤٣ ق. م) سجل الكاتب السوريانى بار العبرانى نتيجة هذا الإحصاء فإذا هى ٤,٩٤٤,٠٠٠ يهودى، وقد قدر س. و. بارون فى مذكراته «تاريخ إسرائيل Histoire d' Israël» العدد الكلى بثمانية ملايين، منها مليونان فى سورية – فلسطين، ومليونان فى بابل، وأربعة فى بقية أراضى هذه الإمبراطورية، التى يعيش فيها من ٦٠ إلى ٧٠ مليونا من السكان، بحيث كان بين كل عشرة من المواطنين يهودى واحد.

كان مركز إشعاع الإيمان اليهودى الذى بلغ أوجه من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر – فى بابل، ثم فى بغداد (ابتداء من القرن التاسع)، فى زمن الخلفاء المسلمين: لقد كان نائب ملك اليهود – l' Exilarque[2].

---

(١) ذكره أندريه شراقى فى «تاريخ اليهودية» Histoire du Judaisme – مرجع سبق ذكره ص ٢٥.

(٢) لم يكن لقب ملك اليهود بغريب على ذلك العصر، وقد ورد فى أبيات تسجل ما بلغه اليهود فى تلك الفترة، قال الشاعر (يشير إلى العصر الفاطمى):

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمُ ومنهم المستشار والملِك
ياأهل مصر قد نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك

(المترجم)

«يتصدر فى بلاط الخلفاء، وله حق التقدم على كبار الموظفين النصارى، إذ كان يستمد صلاحياته من الخليفة مباشرة، ويعين كبار الموظفين اليهود فى الإمبراطورية»[1].

هذه المرحلة من ازدهار الإيمان اليهودى، فى ظل الخلافة العربية، والتى يطلق عليها عصر الجاهون Gahons (بالعبرية: المزدهر)[2] – سجلها بعض يهود بابل (العراق الآن)، وكذلك أحد العلماء اليهود، الربانى صدياح بن يوسف الفيومى، (٨٨٢ – ٩٤٢م)، والحق أن تاريخ فلسطين لا يمكن أن ينفصل عن مجموع «الهلال الخصيب»، ومجموع هذين القطبين: العراق ومصر، وكانت لغة صدياح هى العربية، كسائر يهود عصره، ولذا فقد ترجم الكتاب المقدس إلى العربية.

وقد انحطت الثقافة اليهودية تبعا لمصير الإمبراطورية العربية، التى ازدهرت فيها، فقد انكسر أوجها مع سيطرة الأتراك السلاجقة على الحكم فى بغداد (عام ١٠٥٥ م)، وبغزو الصليبيين لأورشليم (عام ١٠٩٩ م)، فصار مركز إشعاع اليهودية منذئذ إسبانيا، على عهد الخلافة الإسلامية.

حتى إن «أمراء» المجتمع اليهودى، مثل: حسداى بن صبروت، كان وزيرا لخليفة قرطبة، وصمويل هنا جيد، وكان وزيرا لسلطان غرناطة. وظهر بعض الفلاسفة، والمتكلمين والشعراء، مثل: سليمان بن جبريل (١٠٢٠ – ١٠٥٠ م)، ويهوذا حلفى (١٠٨٥ – ١١٤١ م)، وعلى رأسهم موسى بن ميمون (١١٣٥ – ١٢٠٤ م) – كل هؤلاء قد تألقوا فيما أطلق عليه أندريه شراق «الساعات الذهبية» لليهودية، فى إسبانيا الإسلامية، حيث كان التآلف اليهودى العربى يحمل أجمل ثماره»[3].

---

(١) أندريه شراق «تاريخ اليهودية» السابق – ص ٥٤.

(٢) هو عصر الأحبار الكبار (المترجم).

(٣) السابق – ص ٦١.

وفى قرطبة ولد، وتربى أشهر الفلاسفة اليهود: موسى بن ميمون، وحين هرب من إسبانيا التى حكمها الموحدون المتزمتون لجأ إلى القاهرة، فصار فيها طبيبا وصديقا لصلاح الدين، الذى طرد الصليبيين من بيت المقدس، وكشف بمساعدة صديقه ميمون عن المعابد، وقد استطاع ميمون، فى كتابه «دلالة الحائرين»، وهو قدر من اللاهوت اليهودى، مكتوبا بالعربية - أن يقدم صياغة دقيقة ورائعة لمبادىء الإيمان اليهودى، وقد عرف كيف يحافظ على الإيمان من مغامراته السياسية، وقال «إن الشريعة لا يمكن أن تستخدم تاجا، وسيفا».

فإذا كان المبدعون الكبار ذوو الإيمان اليهودى قد قدموا فى جميع المجالات إسهاما وافراً لتنمية الحضارة العربية، فى أوجها، فإنهم قد قدموا أيضا فى كل مجال إسهاما وافراً لتنمية الحضارة الغربية، من سبينوزا إلى كافكا، وإينشتين.

إن اليهود الذين قرروا أن يظلوا مؤمنين بدعوة إيمانهم العالمية، والذين ظلوا يصارعون، فى أخريات القرن التاسع عشر، كيما يختموه فى كل البلاد، وقد قضوا على التمييز العنصرى القديم - لا يمكن إذن أن يروا فى الصهيونية السياسيةإلا خيانة لمثلهم الأعلى، وخروجا على تقاليدهم السامية.

* * * * *

٤ – ميلاد الصهيونية السياسية

لا ريب فى أن المؤسس الأول للصهيونية السياسية هو تيودور هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤م)، سواء بكتابه (الدولة اليهودية L' Etat Jiuf) (عام ١٨٩٥ م)، أو بالمؤتمر الصهيونى الأول فى بال (عام ١٨٩٧ م).

وهرتزل نفسه يعترف بمحض إرادته بأن فكرة الصهيونية عن «عودة» اليهود إلى فلسطين، ليست جديدة، وهو يذكر فى صحيفته أن أحد أصدقائه (شيف Schiff) قال له فى ١٧ من يونيو ١٨٩٥ : «إنها شىء حاول أحد الناس – سبتاى – تحقيقه»[١]، لقد كان سبتاى زفى هذا مسيحاً زائفا فى القرن السابع عشر الميلادى، ودون أن نذهب بعيداً فإن نفس الموضوع قد عولج على يد موسى هيس فى كتابه «روما وأورشليم – Rome et Jerusalem) (١٨٦٠ م)، وفى كتابه بعنوان: «مشروع استعمار الأرض المقدسة – Projet de » Colonisation » de la terre sainte (١٨٦٧ م)، كما تناوله ليون بنسكر فى كتابه عن (التحرر الذاتى – l' autoémenci Pationo) (١٨٨١ م)، وكتاب ناثان بيرن بوم Nathan Birn baum الذى نشر عام ١٨٩٣ م عن «النهضة القومية للشعب اليهودى على أرضه الخاصة، باعتبارها حلا للمسألة اليهودية – La renaissance nationale du Peuple Juif sur sa Propre terre comme solution de la question Juive.» .

فهرتزل عندما صاغ الشعارات : «نحن شعب»، «وفلسطين وطننا التاريخى الذى لا ينسى»[٢] – فإنه لم يفعل سوى أن تناول ما أطلق عليه هو نفسه : «الأسطورة العظيمة»[٣] التى «تُطلِقُ صرخةَ تجميعٍ لقوةٍ لا تُقهَرُ»[٤].

---

(١) يوميات – السابق ص ٤٩ .

(٢) الروح اليهودية L' Esprit Juif – السابق ص ٤٥ .

(٣) قدمت يوميات هرتزل كاملة بنشر رفائيل بتاى ١٩٧٠ ج ١ ص ٥٦ .

(٤) الدولة اليهودية – السابق ص ٤٥ .

وهو يؤكد فى خاتمته أن: «المكابيين يُبْعَثُون... فمن أراد من اليهود البعث كانت له دولته»[1].

إنه على يقين من أن أصالته ليست هنالك، ومع ذلك فهو لم يخصص فى كتابه «الدولة اليهودية» - إلا صفحات (سبع عشرة صفحة بالضبط) للتذكير بالهدف، وهو فى مقابل ذلك يعرض منهجه فى سبعين صفحة، وهو المنهج الذى يتضمن إنشاء «شركة يهودية - Jewish Company» قال لنا عنها: إنها متصوّرة على غرار نموذج شركات الأراضى الكبرى[2] - شركة ممتازة يهودية - Une charactered Company Juive» ، وهنا كانت فى الواقع لَقطَة تيودور هرتزل الحقيقية: أن يجعل من «الأسطورة العظيمة» واقعا من خلال «شركة امتياز».

وتعرف الموسوعة البريطانية[3] شركة الامتياز Chartered Company - بأنها: «شركة تتمتع ببعض الحقوق والامتيازات وهى مرتبطة ببعض الالتزامات، خاضعة لميثاق توافق عليه السلطة الحاكمة فى الدولة... والميثاق، بصفة عامة يخول للشركة احتكاراً فى مجال عملياتها»، وهذه المادة تحدد أن «هذا النظام يحقق الانتشار ابتداء من القرن السادس عشر، بفضل الكشوف الكبرى التى تنشط التجارة، والملاحة، والصناعة»، وكان نموذج هذا النوع من الشركات هو شركة الهند، وقيل أيضا (ص ٣٣٤) «فى نهاية القرن التاسع عشر أنشئت شركات امتياز جديدة، لتشجيع التوسع الاستعمارى» وأكثر الأمثلة تعبيراً عن هذا النوع هو الميثاق الذى وافق عليه فى عام (١٨٨٩ م) اللورد ساليسبورى (رئيس وزراء انجلترا)، للشركة البريطانية الممتازة لجنوب إفريقيا» وكان على رأسها سيسل روديس، فهذا هو النموذج الذى اختاره هرتزل، لأنه لاحظ فاعليته، (وطلب من سيسل روديس مشورته ودعمه).

---

(١) السابق ص ١٢٦.

(٢) السابق - ص ٤٩ (٣) جـ ٥ ص ٣٣٣.

وقد كان سيسل روديس (١٨٥٣ - ١٩٠٢ م) مقتنعاً بأن الجنس الأنجلوسكسونى هو قمة التطور الإنسانى، لما يقوم به من أمر إلهى (وقد أوصى بثروته الهائلة لإنشاء شركة تمد نفوذ الإمبراطورية البريطانية إلى العالم كله).

لقد كان مالكا لمناجم الذهب فى جوهانسبرج، ولمراكز الماس فى إفريقية الجنوبية، فبعد مؤتمرى برلين، عامى ١٨٧٨، و ١٨٨٥ اللذين أطلقا الأطماع الأوربية على إفريقيا، أفاد من تنافس القوى الاستعمارية لتقوية الشركة التى يملكها: «الشركة البريطانية لجنوب إفريقيا - British South Africa Company»، بأن منحها احتكار إدارة لإستغلال أراضى الملك لوبنجولا، بموجب معاهدات قائمة على الاحتيال، تحت ستار من الشرعية، وقد انتهز فرصة أن الألمان أقاموا محمية فى الأقاليم المجاورة لناماجلاند وداماالابند (١٨٨٣ - ١٨٨٤ م) فحصل من روتشيلد على مليون من الجنيهات الإسترلينية، وحصل من انجلترا بخاصة على احتكار التنقيب عن المعادن، وعلى الحماية العسكرية، وفى عام ١٨٩٥ م نجح فى أن يحصل من إنجلترا على توحيد ماشونالند وماتابيلالند، وأطلق عليهما اسمه الشخصى: روديسيا.

لقد كانت الفكرة المهيمنة على تيودور هرتزل هى أن يطبق فى الشرق الأوسط السيناريو الذى حققه سيسل روديس فى إفريقية الجنوبية، وقد أفاد - هو أيضا - من الظروف: ففى إفريقية كان انطلاق القوى الإمبريالية لتقطيع أوصالها قد بدأ بمعاهدات برلين لخدمة أهداف سيسل روديس، و «المسألة الشرقية» بما صاحبها من تطلع الاستعماريين الأوربيين إلى تقسيم أسلاب الإمبراطورية العثمانية وغنائمها، وقد كانوا يترصدون عملية التقطيع - كل ذلك سوف يؤدى نفس الدور فى مهمة تيودور هرتزل، لقد كان على وعى كامل بهذا التماثل فى الوضعين، ولذلك طلب فى ١١ من يناير ١٩٠٢ م من سيسل روديس مساندته، وكتب إليه يقول: «أرجوك، أرسل إلى نصا يقول إنك فحصت برنامجى، وأنك توافق عليه، وقد تتساءل: لماذا أتوجه إليك يا مسيو روديس، لأن برنامجى هو برنامج استعمارى»[1].

---

(١) تيودور هرتزل - Theodor Herzl' s Tagebuicho جـ ٣ ص ١٠٥

ذلكم هو السر فيما صادفه المشروع الصهيونى من نجاح منقطع النظير، كنجاح مثيله، مشروع إفريقيا الجنوبية، وقد نجح أصحابه فى الإبقاء عليه حتى نهاية القرن العشرين، على الرغم من التيار المضاد، الذى تمثله الحركة العالمية لتصفية الاستعمار، فهما آخر معاقل الاستعمارية والعنصرية، أحدهما فى مواجهة عالم السود، والآخر فى مواجهة عالم العرب [1].

ففكرتا القوة «للدولة اليهودية» هما إذن :

- أسطورة «العودة» التى تحشد الجموع

والوسيلة القوية المثلة فى «الشركة الممتازة»، فى كنف الإستعمارية الأوربية

وقد استطاع هرتزل، بناء على هذا الأساس المتين أن ينظم المؤتمر الصهيونى الأول فى بال، عام ١٨٩٧ م، وكان يحلم بأن يعقده فى ميونخ، غير أن معارضة الربانيين الألمان، والمجتمع اليهودى فى ميونخ قد اضطراه أن يقنع بعقده فى بال [2].

كانت الأغلبية الساحقة بين المشاركين فى بال، قد قدمت من أوربا الشرقية من «يهود الجيتو» المنبوذين، على ما قال هرتزل، وقد زاد فى إغرائهم تطلعهم إلى أن يحصلوا على حى مغلق (جيتو)، أكثر اتساعا، حيث يكونون بمأمن من المذابح فى حين أن اليهود الغربيين، المهتمين بأن يتموا «اندماجهم» فى بلادهم الخاصة، وهم لم يكونوا مهددين بشيء [3] قد ظلوا على خصومة للصهيونية السياسية.

---

(١) فى إطار ضيق، كما سوف نراه فيما بعد.

(٢) يوميات هرتزل (لوينثال) السابق من ٢٠٢ - ٢١٣.

(٣) كانت مهمة دريفس، فى فرنسا، استطلاعية، لبيان: كيف أن النزعة المعادية للسامية تجاه اليهود قد استخدمت وسيلة إلى تغطية الفساد، والأكاذيب، والأغراض المنحطة للطبقة الحاكمة، ومن يلوذ بها من السياسيين، والجيش والكنيسة... وكان هذا فى نظر الشعب الفرنسى نذيرا بعار معاداة السامية، ودورها الرجعى، ولذا فإن معاداة السامية المفضوحة لن يكتب لها البقاء فى فرنسا.

وإذن ففى أغسطس ١٨٩٧ - افتتح مؤتمر بال، وهو الحدث المؤسِّس للصهيونية السياسية.

وقد صيغ «برنامج بال» للتنظيم الصهيونى العالمى على النحو التالى: «إن الصهيونية تستهدف أن تنشىء للشعب اليهودى، وطنا فى فلسطين، مضمونا بوساطة القانون العام.

وللوصول إلى هذا الهدف يطالب المؤتمر بالوسائل الآتية:

١ - تطوير استعمار فلسطين، على أحسن وجه، بالمزارعين والمهنيين، والتجار اليهود.

٢ - تنظيم اليهود، وتوحيدهم فى العالم أجمع، فى تشكيلات محلية أو قومية، تبعا لقوانين كل بلد.

٣ - تقوية الشعور القومى اليهودى، ووعيهم بأنهم قومية.

٤ - المساعى التحضيرية للحصول على موافقة الحكومات، التى هى ضرورية لبلوغ أهداف الصهيونية.» .

وقد ظل هذا البرنامج دستور الحركة الصهيونية حتى المؤتمر الثالث والعشرين الصهيونى عام ١٩٥١، فى أورشليم، حيث صيغت الأهداف بطريقة جديدة، وقد صيغ هذا البرنامج، «برنامج أورشليم» الذى أعقب برنامج بال، هكذا:

«إن أهداف الصهيونية هى: وحدة الشعب اليهودى، على أن تكون إسرائيل مركز حياته، تجميع الشعب اليهودى فى وطنه التاريخى، أرض إسرائيل، هجرة تفد من جميع البلاد، تقوية دولة إسرائيل المؤسسة على المثل العليا النبوية للعدالة والسلام، المحافظة على شخصية الشعب اليهودى بتطوير التربية اليهودية والعبرانية، وبالقيم الروحية والثقافية اليهودية، حماية حقوق اليهود فى كل مكان».

وكان تيودور هرتزل قد قبل فى مؤتمر بال، بنوع من المواءمة، صيغة «وطن» فى فلسطين، لا «دولة يهودية»، بحسب عنوان كتابه «Judeustaat»، كما قبل صيغة «القانون العام» بدلا من «القانون الدولى» حتى لا يشعر تركيا بأنه يعتدى على سيادتها فى فلسطين.

وقد كتب ماكس نوردو عام ١٩٢٠ م عن مؤتمر بال فقال:

«لقد بذلت جهدى لإقناع أولئك الذين كانوا يطالبون «بدولة يهودية» فى فلسطين أننا يجب أن نلجأ إلى التعمية للتعبير عنها، فى صيغة تتحاشى أن تثير قادة الأتراك فى الأرض التى نطمع فيها، واقترحت أن تكون عبارة «وطن قومى – Heimstätt» مرادفا لكلمة «دولة».

فهذه هى قصة هذا التعبير الذى كان مثار جدل كثير، فقد كان غامضا، ولكننا كنا نفهم ما يريد أن يقوله، أما بالنسبة إلينا، فقد كان يعنى آنئذ «دولة يهودية – Judenstäat»، وله نفس المعنى اليوم، ولكن لم يعد هناك سبب الآن لإخفاء هدفنا الحقيقى».

فهذه الصيغة الغامضة «وطن Foyer» تعنى لدى هرتزل ونوردو واقعا محدداً، وقد كتب هرتزل فى صحيفته، فى ٣ من سبتمبر ١٨٩٧ م، يقول:

«إذا كان واجبا أن ألخص المؤتمر فى كلمة واحدة، كنت أمسكت عن نطقها علنا، فهذه الكلمة هى أننى فى بال أسست «الدولة اليهودية»[1]، ثم أضاف:

«بيد أن هذا شىء لا يقال بصوت عال».

---

(١) يوميات / السابق ص ٢٢٤. وإن الازدواجية والمداهنة التى يتصف بها تاريخ الصهيونية كله، تتجلى فى «تفسيرات» ما أسفرت عنه جهود هرتزل: وعد بلفور (عام ١٩١٧ م)، فإن نفس الصيغة «وطن قومى يهودى» قد قيلت فى مؤتمر بال، وكان اللورد روتشيلد قد أعد مشروعا يطالب «بمبدأ الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودى»، أما الإعلان النهائى لبلفور فإنه لم يتكلم عن كل فلسطين بل عن إقامة وطن قومى فى فلسطين، للشعب اليهودى، «والواقع أن كل العالم يطلق كلمة «وطن Foyer – على أنها مركز روحى وثقافى، ويرى أن كلمة «دولة – Etat» تعنى ما عناه بها هرتزل نفسه، وقد كتب لويد جورج فى كتابه: «حقيقة معاهدات السلام –

وقد انتقل فوراً إلى تحقيق المشروع، مستخدما قوتين محركتين، سوف تضمنان له النجاح:

أولًا: الأطماع المتنافسة للقوى الاستعمارية، فى «المسألة الشرقية»، والمشحوذة بتوقع انهيار الإمبراطورية العثمانية وتحللها.

وثانيا: نزعة معاداة السامية L' Antisémitisme، والموجهة إلى اليهود المضطهدين، تُريهم أن مخرجهم من بؤسهم ليس «الاندماج»، بل الهجرة.

والموجهة إلى الحكومات المعادية للسامية، تَعِدُها بتخليصها من اليهود، إذا ما أعطُوا أرضاً.

= The truth about the peace treaties» (ط. جلنكز ١٩٣٨ جـ ٢ ص ١١٣٨ – ١١٣٩) كتب يقول: «لا يوجد أدنى شك حول ما كان لدى أعضاء مجلس الوزراء فى ذلك الوقت... من أن فلسطين سوف تصبح دولة مستقلة»، ومما له مغزى ودلالة أن الجنرال سموتس Smuts، عضو مجلس الحرب قد أعلن فى جوهانسبرج فى الثالث من نوفمبر عام ١٩١٥ – أنه: «خلال الأجيال القادمة سوف تشهدون هناك (فى فلسطين) قيام دولة كبرى يهودية».

وفى الثامن والعشرين من يناير عام ١٩١٩ – كتب اللورد كيرزن يقول: «على حين يقول لك وايزمان شيئا، وأنت تفكر فى «وطن قومى يهودى» فإن لديه شيئا آخر مختلفا تمام الاختلاف، إنه يتصور دولة يهودية، وسكانا من العرب خاضعين ومحكومين باليهود، إنه يحاول أن يحقق هذا خلف الستار، وخلف حماية الضمان البريطانى».

وعندما استخدم وعد بلفور عام ١٩١٧ تعبير «وطن قومى يهودى فى فلسطين» فإن المسئولين البريطانيين استخدموا من جانبهم ازدواجية هرتزل ودهاءه، فهم يقولون «وطن قومى»، ويقصدون «دولة يهودية»، وقد شرح وايزمان بكل وضوح للحكومة البريطانية أن هدف الصهيونية كان إنشاء «دولة يهودية» (بأربعة ملايين أو خمسة، من اليهود)، فقدم له لويد جورج وبلفور الطمأنينة بأنهما وهما يستعملان مصطلح «وطن قومى» فى إعلان بلفور فإنما يقصدان فعلا به «دولة يهودية». (دورين انجرام – Doreen Ingrams، ورقات فلسطينية Palestine Papers (1917 - 1922)، بذور الصراع Seeds of conflict - N.Y. Brasilles, 1973, P. 146.

الفصل الثالث

أسباب نجاح الصهيونية السياسية

١ – الصهيونية والتنافس الاستعمارى فى المسألة الشرقية

كان أول من أبصر أهمية إنشاءدولة يهودية فى فلسطين، لحل «المسألة الشرقية» لصالح قوة استعمارية، ومستهدفا تفتيت الإمبراطورية التركية – هو السكرتير الخاص لنابليون الثالث لهران LAHARANNE، عام ١٨٦٠ م، فقد كتب رسالة بعنوان «المسألة الشرقية الجديدة»، دعا فيها اليهود إلى بعث وطنهم، «تحت حماية مقدسة من فرنسا المحررة».

وظهرت اهتمامات مشابهة فى انجلترا، حيث كتب أحد الكتاب والدبلوماسيين، وهو لورانس أو ليفانت Laurence Oliphant يطالب بزرع اليهود وراء نهر الأردن، فى كتابه بعنوان: The land of Gilead, with Excursios «in the lebanon» نشر عام ١٨٨٠ م.

وقد كتب إلى المركيز سالسبورى فى ١٤ من ديسمبر ١٨٧٨ م يقول: «لقد بذلت أكثر من محاولة فى هذا الاتجاه، (إقامة مستعمرة يهودية فى فلسطين)، ولكنها جميعا أخفقت بصورة لا يمكن تجنبها، لأنها قامت على جوهر عاطفى ودينى، أكثر من أن تقوم على أسباب ذات طابع سياسى واقتصادى. والآن تبدو الفرصة مواتية، إذ إن التعاطف الحار للأغلبية الكبيرة من الجمهور البريطانى يمكن أن يضمن بلوغ أهداف مهمة سياسية، وتحقيق نتائج مالية جوهرية ...».

كانت هذه صورة طبق الأصل من طريقة العمل بدهاء فى سياق الدوافع والأسباب المقدمة فى تلك الحقبة من التوسع الاستعمارى[1].

---

(١) فيليب هندرسون: حياة لورانس أوليفانت – «the life of laurence Oliphant» ط. روبرت هال – لندن ١٩٥٦ – ص ٢٠٣ – ٢٠٥.

أ – هرتزل مبدع الاستراتيجية الصهيونية

كان تيودور هرتزل، مناورا داهية فى الدبلوماسية، بين هذه الأهواء المتصارعة: فمنذ يوليه عام ١٨٩٧، وقبيل مؤتمر بال وجدناه يناقش فى صحيفته «Die Welt» – مقالا لمجلة Ouarterly Review كان يطالب بتقسيم تركيا، وفى هذه القسمة يجب أن تئول مصر وسورية (بما فيها فلسطين) إلى انجلترا، التى كانت بحاجة ماسة إلى هذه الطريق المختصرة إلى الهند، قال: «إن البحث عن طريق الهند قادنا إلى كثير من الكشوف السعيدة، المفيدة للإنسانية، فقد ارتدنا شواطى إفريقية، وتم كشف أمريكا، وشُقّ برزخ السويس، وربما كان حل المشكلة اليهودية أيضا موجودا على طول الطريق البالغ القصر إلى الهند» (١).

بيد أن هرتزل، وهو يسعى للإفادة من جميع الأطراف، فى أوربا المتلهفة على تقسم أسلاب الإمبراطورية العثمانية – قدم إلى ألمانيا نفس الاقتراحات التى قدمها إلى انجلترا: شركة امتياز تحت حماية ألمانية.

لقد قابل أولا، فى ١٦ من سبتمبر ١٨٩٩ م سفير ألمانيا فى فينا، أو لنبرج، ومس مباشرة الوتر الحساس: وهو المنافسة مع انجلترا قائلا: «إن قوة أخرى بوسعها أن تساعد هذه الحركة، ولقد فكرت أولًا أنها ربما تكون انجلترا، وهذا طبيعى، ولكنى سوف أكون سعيداً أن تكون ألمانيا» (٢).

وفى ١٩ من أكتوبر ١٨٩٨ م، وبفضل هذا التخويف، حصل على مقابلة مع القيصر، يقول: «وعندما اقترحت عليه قضيتى: شركة الامتياز، والحماية الألمانية، أمّن على ما قلت مؤيداً» (٣).

---

(١) انظر: إسرائيل زنجويل: «كلمات، مقالات، رسائل» لندن ١٩٣٧، و. هـ سيدبوتام (انجلترا وفلسطين «England ef Palestin») لندن ١٩١٨.

(٢) يوميات – السابق ص ٢٣٦ (٣) السابق ص ٢٦٧.

لقد لمح هرتزل أمام القيصر بالدور الذى يمكن أن تؤديه الصهيونية لتخليصه من الاشتراكية، وكان خوف الإمبراطور منحصراً فى أن «اليهود إذا شعروا بأنهم تحت حمايته فإنهم لن يتركوا ألمانيا بعد ذلك»[١].

وقد وجد هرتزل لذلك إجابة، فقد أجاب فى إبريل ١٨٩٦ م على الدوق دى باد الذى كان يخشى «أن ينقلب إلى معاداة السامية وهو يؤيد قضيتنا»[٢] - كتب إليه يقول:

«إن اليهود الألمان يتقبلون جيدا حركتنا لأنها سوف تحول تدفق اليهود من أوربا الشرقية»[٣].

وقد حاول هرتزل أن يبرهن جهده على أن الصهيونية تخدم المصالح الألمانية، ليس ضد انجلترا فحسب (كما سبق أن بين لأولنبرج)، ولكن ضد فرنسا وروسيا، فقال:

«لقد ضعفت فرنسا... وصارت هيبة روسيا فى الحضيض»[٤] وقال: «إن فرنسا ليست فى وضع تستطيع معه أن تعرقل مشروعنا»[٥].

ثم ذكر هرتزل العقبات التى يصطدم بها القيصر Tsar لإنشاء الخط الحديدى عبر سيبريا - Transiberien وطريق الهند بالغ القصر بالنسبة إلى الإنجليز، وقد كان الرجل يعرف سياسة ألمانيا فى الشرق، ومشروع خط برلين - بيزنطة - بغداد، حتى تمد نفوذها فى دوله، ولذلك أضاف قائلا عن لقائه بالسفير:

«عندما كلمته عن الطريق البرى الجديد إلى آسيا، والعراق والخليج الفارسى - بدا وقد غرق فى تفكيره، وكان تعبيره وموقفه يشيان بأنه قد صدم»[٦].

---

(١) السابق ص ٢٦٨ (٢) السابق ص ١١٨ (٣) السابق ص ١٢٠.
(٤) السابق ص ٢٦٩ (٥) السابق ص ٢٧١ (٦) السابق ص ٢٧١.

من هذه المقابلة بدأ هرتزل يتجه إلى هدفه مباشرة، إذ قال له الإمبراطور، وهو مزهو بكونه وحده موضع ثقة السلطان عبد الحميد: «قل لى فى كلمة واحدة ما ينبغى أن أطلبه من السلطان»، وأجاب هرتزل: «شركة الامتياز التى أنشأتها تحت الحماية الألمانية» [١].

وبذلك صار الطريق إلى فلسطين، أمام هرتزل، يمر بالقسطنطينية، فهو يريد أن يقابل السلطان بتوصية من إمبراطور ألمانيا، لهدف واضح، هو أن يشترى فلسطين،لكن هذا يحتاج إلى المال [٢].

وعلى الرغم من مقاومة روتشيلد - الذى كان فى البداية، خصما للصهيونية (مع أن «الدولة اليهودية» التى أرادها هرتزل لم تكن سوى تطوير «لرسالة إلى روتشيلد») - فإن هرتزل ظفر فى المؤتمر الصهيونى الثانى فى بال، أغسطس عام ١٨٩٨، بإنشاء البنك الذى كان يحلم به «البنك (الترست) الاستعمارى اليهودى - «le Trust colonial juif»، وعن طريقه سوف يحصل فى فبراير عام ١٩٠٢م على ثلاثة خطابات ائتمان (قرض)، أولها: من بنك الكريدى ليونيه فى باريس، والثانى من بنك دريسدر فى برلين، والثالث من بنك لويدز فى لندن، وهى كلها مبالغ أودعت فى البنوك التركية [٣].

---

(١) السابق ص ٢٧٢.

(٢) ولو كان (السلطان) أراد أن يبيعنى فلسطين فوراً لتحيرت حقا، إذ كان يجب أن أجد المال أولا، (يوميات هرتزل - السابق ص ٣٣٤).

(٣) انظر فى تفاصيل العملية: ارنست تلهاك: «تيودور هرتزل ونظريته»، Ernest Teilhac (Theodor Hezl et Sa doctrine)، وارنست تلهاك أستاذ للقانون بجامعة القديس يوسف ببيروت، (١٩٥٢) ص ٢٩٤.

وهكذا استطاع هرتزل أن يكلم السلطان عبد الحميد، الذى كان يختنق من الإفلاس، فأصبح هرتزل فى مركز القوة.

كان حديثه إلى السلطان واضحاً: بيعوا لى فلسطين، ولسوف أنهض ماليتكم، وأدفع ديونكم[1]، وقد أسهم فى تلبيس هذه الخطة كثير من الدبلوماسيين.

وهرتزل - هذا - الذى كان يتلاعب كثيراً بمضاربات القوى الاستعمارية فى الغرب، من أجل تفتيت الإمبراطورية العثمانية، والذى كان يكنّ لمحدثه أعظم احتقار، حتى لقال فيه: «كان أمامى سلطان هذه الإمبراطورية، لصا فى آخر أيامه»[2]- هرتزل الذى يقول هذا لم يحترز عن تملق السلطان عبد الحميد، فهو يتحدث إليه عن «حيوية تركيا، التى أومن بها إيمانا كبيراً»[3].

لقد لحس تماما كلامه، والوعود التى أعطيت له فى الغرب، إذ يقول: «لقد شرحت له أسباب إلحاحى، فإن القوى الكبرى التى تريد تركيا ضعيفة سوف تفعل كل ما فى وسعها لتحول دون إنهاضها»[4].

---

(١) يوميات. ص/٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) يوميات. ص ٣٥١ - ولا غرابة فى أن يصف هرتزل السلطان العظيم عبد الحميد بهذا الوصف الذى ينم عن حقارة قائله وحقده، ذلك أن السلطان رغم ما كانت تعانيه الخلافة العثمانية رفض أن يخضع للضغوط، وأن يساوم على السيادة الإسلامية على فلسطين بعامة، والقدس بخاصة، وهو مالم يكن يتوقعه هرتزل، المغامر الذى أصيب بالإحباط، على ما سوف يشرحه المؤلف (المترجم).

(٣) السابق ص ٣٣٩.

(٤) السابق ص ٣٤٠.

ولكن هرتزل هو المنقذ، «فإن العملية سوف تصل إلى خير بفضل أصدقائى فى كل أسواق المال (البورصات) فى أوربا بشرط أن أنال تأييد صاحب الجلالة»[(١)]، «ولسوف أجتذب مودة يهود العالم أجمع تجاه الإمبراطورية التركية»[(٢)].

وقد حاول هرتزل أن يرد على جميع الاعتراضات، وكان مما قاله السلطان لصديق هرتزل، نفلنسكى Nivlinski: «ولكن فلسطين هى أيضا مهد الأديان الأخرى!، ويجيب نفلنسكى، وهو يضغط على السلطان (كما ضغط هرتزل على القيصر بقوله: إننا نستطيع أن نتجه إلى انجلترا) – قال: «إذا لم يستطع اليهود أخذ فلسطين فسوف يتوجهون دون ريب نحو الأرجنتين»[(٣)].

وفى هذه الحالة لن تقع السلة المالية فى يدى تركيا!!.

ويمضى هرتزل إلى ما هو أبعد من ذلك أيضا، فإن صديقه فمبيزى Vambezy – كان قد أعلمه: بأن السلطان يرى أن «القدس (أورشليم» أيضا مقدسة كمكة، غير أن الصهيونية هى ضد المسيحية»[(٤)].

ولذلك لم تكن مفاجأة لهرتزل عندما عبر له السلطان عن عدم ثقته بالمسيحيين، قائلا: «لقد كنت ومازلت صديقا لليهود، وأنا أعتمد على المسلمين واليهود، أما غيرهم من الرعايا فلا ثقة لى بهم».

وعلى الرغم من كل هذه التنازلات، حيث وافق عبد الحميد على أن يترك اليهود يدخلون فلسطين، ويشترون أراضيها، مع تحفظ هو «أنهم يجب أن يصيروا رعايا مسلمين»[(٥)]» – يقول هرتزل: لقد تظاهرت بالسعادة، مع توقع أن أصبح فى ظل الصولجان القديم، والمطمئن، والعظيم لعبد الحميد[(٦)] لأن المهم فى رأيه أن يحصل على امتياز لشركته.

---

(١) و(٢) السابق ص ٣٤٠ (٣) السابق ص ١٦٥ (٤) السابق ص ٣٣٣.

(٥)السابق ص ٣٣٩، وعندما قال البابا بى – Pie العاشر لهرتزل «إنه لمن غير المناسب أن نرى الترك يسيطرون على أماكننا المقدسة... ولكن إذا كان البديل المقابل هو رغبة اليهود أن يحتلوها فإننا لا نستطيع أن نفعل هذا» [السابق ص ٤٢٨]، وهنا يعد هرتزل بأنه يضمن «حصانة، الأرض المقدسة «l' extérritorialité»» [السابق ص ٤١٩ و ٤٢١.

(٦) السابق ص ٣٥٦.

لكن شيئا لم يحدث، فقد رفض السلطان أن يبيع فلسطين وقال لهرتزل: «إننى لا أريد أن أبيع، حتى ولا بوصة، من هذه الأرض، لأنها ليست أرضى، بل أرض شعبى، وقد بنى هذه الإمبراطورية ورواها بدمه... إن اليهود يستطيعون أن يحتفظوا بملايينهم، إلى أن تتمزق إمبراطوريتى فربما يحصلون على فلسطين دون مقابل، أما أنا فها هو ذا جسدى يمكنهم أن يمزقوه، ولكنى لا أستطيع أن أوافق على اقتطاع فلسطين»(١).

واستدار هرتزل مرة أخرى إلى من يقتطع له ما يريد: انجلترا، ففى خطابه لافتتاح المؤتمر الرابع بلندن، فى ١٣ من أغسطس عام ١٩٠٠م استخدم نبرات غنائية فى عباراته وهو يقول: «انجلترا العظمى، انجلترا الحرة، التى تمسك تحت رقابتها بالسبعة البحور، تفهمنا وتفهم أهدافنا... قطعة من هناك، ولسوف تبلغ الفكرة الصهيونية أوج تحليقها، إلى أعلى، وإلى بعيد، ولسوف نكون فى تحليقنا مطمئنين».

وعلى عكس ما قاله هرتزل للسلطان، بدأ يوضح «الفوائد التى تحققها الدولة اليهودية، لمصالح أوربا أجمع»(٢)، وهوّ ما فعله أمام دوق دى باد.، وقال: إنها ستكون حصنا متقدما للحضارة الغربية فى وجه البربرية الشرقية»(٣).

وكانت قصته Altneuland من وجهة النظر هذه – موحية، فهى تمجد روح الحروب الصليبية، وتنعى على أوربا أنها خسرتها، إذ يقول: «كان جود فروى دى بويون وفرسانه الشجعان يرون جريمةً أن تبقى فلسطين بأيدى المسلمين، فأين تجدون شعوراً كهذا بين فرسان وأمراء نهاية القرن التاسع عشر؟ ولدى الحكومات؟ من منهم يخاطر بنفسه ليقدم إلى برلمانه عرضا بقرض استثنائى لتحرير الأرض المقدسة»(٤).

---

(١) السابق ص ١٥٢ . (٢) السابق ص ١٢٢.

(٣) الدولة اليهودية – L' état Juif – ص ٣٢.

(٤) هرتزل: «أرض قديمة وأرض جديدة» السابق ص ١٤٦.

وفى هذا البلد «الذى يقع على هامش أية حضارة»[1] سوف يأتى بالتصنيع الغربى، وبروح السانسيمونية Saint - simonisme التى صارت مع الأب انفنتين Enfantin[2]، والمالىّ بيرير Pereire، وفرديناند ديلسبس – نزعة صناعية ،مفرطة industrialisme – بهذه الروح يحلم بأن يزرع فى فلسطين «كل الصناعات المعروفة»[3].

وهو يصف هذا المستقبل فيقول: «المدن الكبيرة تدوى، والتقدم الصناعى يفرض نفسه، وسكك الحديد تجوب فى هذا المكان، مكان النمو العالمى، كهربة عامة مستمدة من مساقط الماء، من حرمون ولبنان، ومستمدة أيضا من الفرق فى المستوى بين البحر الأبيض والبحر الميت، وقناة تربطهما».

ويحدد فى صحيفته: «وعندما سنكون فى العريش، تحت العلم البريطانى، هنالك سوف تقع فلسطين أيضا فى مجال النفوذ البريطانى»[4].

ولكى نبلغ هذه الأهداف يجب أيضا أن نجذب عددا كبيراً من اليهود إلى فلسطين، مع أنهم لن يكون لديهم حماة كثيرون.

وفى عيد الفصح، عام ١٩٠٣ وقعت فى روسيا القيصرية، فى كيشنيف، مذبحة لليهود، راح ضحيتها ٤٥ قتيلا، وأكثر من ١٠٠٠ جريح، و ١٥٠٠ منزل، انتهبت وهدمت، وكان المسئول عن ذلك هو وزير داخلية القيصر: فياشسلاف بلف Vyacheslav Plehve، فطلب هرتزل من صديقة له، هى الكونتيسة البولونية كورفن – بياتروفسكا Korvin Piatrovska أن ترتب له لقاء مع بلف، فأجابته بأن «بلف سيكون سعيداً بأن يتعرف على شخصية مهمة بالقدر الذى تتمتع به شخصية الدكتور هرتزل، وأنها سوف تشجع من كل قلبها حركة تهجير اليهود»[5].

---

(١) السابق ص ٤٦.

(٢) الأب انفنتين هو نبى السانسيمونية التى جاءت إلى مصر، لحفر برزخ السويس عام ١٨٣٦، وكان يحلم بأن يعيد إنشاء إسرائيل فى فلسطين، وقد بعث مساعده المالى اليهودى ديكتال، لكى يحمس مترنيخ لهذا المشروع.

(٣) السابق ص ١٨٤ (٤) يوميات – السابق ص ٣٨٤ (٥) السابق ص ٣٨٧

وطلب هرتزل أيضا من اللورد روتشيلد أن يتدخل لدى الكونت دى وت، وزير المالية، ومع أن اللورد روتشيلد لم يرسل إليه هذه الرسالة فإن هرتزل حظى بهاتين المقابلتين.

واستقبله بلف، جلاد كيشنيف، استقبالا طيبا فى سان بطرسبرج، فى ١٠ من أغسطس عام ١٩٠٣، وسأله ببساطة: هل لى أن آمل ألا تفعل شيئا غير مناسب فى محادثتنا»

وأجاب هرتزل: إننى لن أفعل أى شيء، إلا ما تأمرنى فخامتك أن أفعل.

وبعد هذه الأوليات من المجاملة، تطرق بلف إلى صميم المشكلة، قائلا: إننا نؤيد الحركة الصهيونية عندما يكون الهدف منها التهجير، إنكم ليس لكم أن تفرضوا عَلَىَّ حركتكم، فأنت تعظ من يهتدى ولكن، منذ مؤتمر منسك Minsk (عقد هذا المؤتمر فى سبتمبر ١٩٠٢) لاحظنا تغيراً فى أغطية الرأس الغليظة، وهم يتحدثون قليلا عن الصهيونية الفلسطينية، وكثيراً عن الثقافة، والتنظيم، وعن القومية اليهودية، وهذا أمر لا يناسبنا»(١).

وحين وجه بلف إلى تيودور هرتزل تأييدا مكتوبا لمقترحاته، بناء على طلبه صوتت «لجنة العمل الصهيونى» ضد نشره، وقال هرتزل: «لقد خالفت قرارهم»(٢)، ونشر الخطاب، وأراه لجميع محدثيه، سواء أكان متعلقا بالدوق دى باد، أو بملك إيطاليا، أو بالبابا!، وهذا هو النص الكامل لبراءة العار الموجهة إلى هرتزل من جزار كيشنيف(٣):

---

(١) السابق ص ٣٩٠.

(٢) السابق ص ١١١.

(٣) نشره شيفر S. Shiffer، فى مجموعة وثائق عن إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين»، جوف وسى – ناشرون، باريس ١٥ شارع راسين ٤١٤١٣-١٦، ص ٣١ – ٣٢.

دولة يهودية فى فلسطين وفى روسيا

خطاب اعتماد من مسيو دى بلف إلى الدكتور هرتزل.

وزير الداخلية.

سيدى:

عبرتم ، عن الرغبة فى الاحتفاظ بأثر لمحادثتنا، وإنى أستجيب بكل سرور لهذه الرغبة، دفعا لكل ما يمكن أن يولد آمالا جامحة، أو شكوكاً مقلقة.

لقد واتتنى الفرصة أن أعرفكم وجهة نظر الحكومة الروسية التى تتصور بها الآن الصهيونية، والواقع أن هذه الوجهة يمكن ببساطة شديدة أن توحى إليها بضرورة تغيير سياستها فى التسامح ضد الإجراءات التى تمليها السلامة القومية، فمادامت الصهيونية تستهدف إنشاء دولة مستقلة فى فلسطين، وتسمح بتنظيم الهجرة من روسيا لعدد من الرعايا اليهود-فإن الحكومة الروسية يمكن أن تتعاطف معها تعاطفاً كاملًا.

ولكن بمجرد انحراف الصهيونية عن هذا الهدف الأساسى، لتحل محله دعاية لتركيز اليهود قوميا فى روسيا فمن الطبيعى ألا تستطيع الحكومة فى أية حال، أن تتسامح مع هذا المسلك الجديد للصهيونية، ولن يكون لهذا المسلك الجديد للصهيونية من نتيجة سوى خلق مجموعات من الأفراد الغرباء تماماً، والذين هم خصوم للمشاعر الوطنية التى هى قوة أية دولة.

هذا هو السبب فى أن الثقة لا يمكن أن ترد للصهيونية إلا بشرط أن تعود إلى برنامجها القديم فى العمل، وبوسعها فى هذه الحالة أن تعتمد على الدعم الأدبى والمادى، يوم تستخدم بعض إجراءاتها العملية لتقليل السكان اليهود فى روسيا، وهذا الدعم يمكن أن يتمثل فى حماية المندوبين الصهيونيين لدى الحكومة العثمانية، وتيسير عمل جمعيات التهجير، وأيضا المساعدة فى احتياجات هذه الجمعيات، من خارج موارد الدولة بداهة، وبوساطة إسهامات تفرض على اليهود مسبقا.

وإنى لأعتقد أن من الضرورى أن أضيف أن الحكومة الروسية، وهى ملزمة بأن توفق بين طريقتها فى المسالة اليهودية وبين مصالح الدولة — لم تبتعد مع ذلك مطلقاً عن المبادىء الكبرى للأخلاق والإنسانية.

وأخيراً، فقد وسعت الحكومة الروسية حقوق الإقامة فى تخوم المحليات المخصصة للسكان اليهود، ولا مانع من أن نأمل فى تطوير هذه الإجراءات بعد أن تتحسن ظروف المعيشة لليهود الروس، ولا سيما حين تقلل الهجرة من عددهم.

وتقبلوا صادق عواطفى واعتبارى

دوبلف

٣٠ من يوليو (١٢ من أغسطس) سنة ١٩٠٣

وقد رد هرتزل على بلف فى ١٥ من سبتمبر عام ١٩٠٣ م، فقدم له تقريره عن المؤتمر الصهيونى السادس فى بال، وكتب يقول: «لى الشرف أن أقدم لفخامتكم التقرير التالى، لقد كان توجيه هذا المؤتمر مهمة صعبة... ومع ذلك فقد نجحت فى حفظ النظام، وإقرار الهدوء، والحق أنه لولا الخطاب الذى تكرمتم بإرساله إلى فى ١٢ من أغسطس، لكان ذلك مستحيلا.

وحين نشرت خطابكم نجحت فى أن أقطع الطريق على أية مناقشة، ... وقد كانت المعارضة صادرة بخاصة من الصهيونيين الروس، وفى اجتماع خاص للصهيونيين الروس كانوا على وشك أن يتهمونى بالخيانة... وكان فى المؤتمر ٢٩٥ صوتا لصالح أن يؤخذ فى الاعتبار مشروع شرق إفريقية، و ١٧٧ صوتاً ضده، وهم تقريبا من الروس بخاصة... والآن تتضح الأمور: فإذا كان للاستعمار فى إفريقية أنصار فإنهم لا يوجدون إلا فى بلاد خارج روسيا... ذلك أن التهجير إلى إفريقية ربما لا يجتذب سوى بضعة آلاف من الحرفيين، ولن يخدم إذن أى هدف سياسى، على حين أن زرع الشعب اليهودى إذا تم فإن العناصر الراديكالية سوف تُكْرَهُ على الانقياد للحركة حتى لا تتخلف فى المجتمع الجديد، فتسبقها الطبقات المتوسطة الرجعية والمحافظة، التى لن تتقاعس عن المشاركة فى الأمر.

وإذن، فقد أقر المؤتمر إقرارا كاملا ما تشرفت بإيضاحه لكم فى سان بطرسبرج، وهو أن هجرة بلا عودة لا يمكن أن تكون فى مكان آخر خارج فلسطين.

وهناك آمال كبار معقودة منذئذ على الوعود الرسمية للحكومة الروسية، والتى قدمتموها فخامتكم فى خطابكم فى ١٢ من أغسطس»[(١)].

ولما قدم إلى بلف تقرير المؤتمر الصهيونى على هذا النحو طلب منه «خطاب توصية من صاحب الجلالة إمبراطور روسيا من أجل المشروع الصهيونى، حتى يقدمه إلى جلالة السلطان[(٢)].

وقد كان هرتزل يعرف – مع ذلك – معرفة كاملة المشاعر المعادية للسامية «لصاحب الجلالة إمبراطور روسيا»، وروى فى الواقع فى صحيفته المحادثات التى تمت فى سان بطرسبرج مع وزير المالية، الكونت وتّ Witte فى ٩ من أغسطس عام ١٩٠٣ م، لقد قال لهرتزل منذ البداية:

– أتريد خروج اليهود من البلاد؟ أأنت عبرانى؟ باختصار، إلى من أتكلم الآن؟.

– أنا عبرانى، ورئيس للحركة الصهيونية.

– إذن ماذا علينا أن نقول، أنت وأنا؟[(٣)].

وأخذ وتّ يعدد مطاعن القيصر ضد اليهود، وهى المطاعن ذات الطابع الدينى، والاقتصادى، والسياسى: «وعليه، فإذا كان هنا سبعة ملايين فقط من اليهود وسط شعب تعداده مائة وستة وثلاثون مليونا – فإن اليهود يشكلون ٥٠٪ من القوة المؤثرة فى الأحزاب الثورية[(٤)].

– إلى من تعزون فخامتكم هذا؟.

– أظن أن هذه غلطة حكومتنا، فإن اليهود جد مضطهدين،ولقد كنت دائما أقول للإمبراطور الراحل الكسندر الثالث:

لو كان من الممكن يا صاحب الجلالة أن نغرق ستة ملايين أو سبعة، من اليهود فى البحر الأسود، فربما أكون راضيا رضا كاملا، ولكن إذا لم يكن هذا ممكنا، فيجب أن نتركهم يعيشون، وأنا لم أغير رأيى، ولكنى قوبلت بتعاظم الاضطهاد[(٥)]

---

(١) السابق ص ٤١٣ (٢) السابق (٣) السابق ص ٣٩٤.

(٤) السابق ص ٣٩٥ (٥) السابق.

لم يخدع هرتزل بهذه «الأريحية» تجاه اليهود، وقد عزاها بحق إلى حرص وتّ على تكديس الأحقاد المتجمعة لمصلحته، وضد غريمه بلف، وذلك بمناسبة مذبحة اليهود فى كيشنيف: «لو ساءت الأمور فسوف يسقط بلف، وسوف يرتفع وتّ إلى الذروة»[١].

لقد كان وضع وتّ محدداً بأمرين.

– وسأله هرتزل: إن جنوداً من الترك يحرسون قبر المسيح، ما رأيكم؟.

– ربما يكون أعظم سوءاً لو كان اليهود هم حراسه[٢].

وكتب هرتزل يقول: وأخيراً سألنى عما أريد منْ حكومته؟ فقلت له: بعض التشجيع.

– ولكنا نشجع اليهود على الهجرة، مثلا بركلات الأقدام، أو (الشلاليت).

– لست أتحدث عن هذا النوع من التشجيع، فقد عرف.

ثم قدمت إليه النقاط الثلاث التى ذكرتها فى مذكرتى إلى بلف[٣].

وكانت صيحة السرور فى صحيفة هرتزل، يوم الجمعة ٧ من نوفمبر عام ١٩٠٢: «أهذا ممكن؟ إننا نوشك أن نحصل على شركة امتياز بريطانية، وأن نؤسس الدولة اليهودية[٤]!.

---

(١) السابق ص ١٩٧.

(٢) السابق.

(٣) السابق ص ٣٩٦، ولنذكر هذه النقاط الثلاث:

(أ) التدخل لدى السلطان ليوافق على الامتياز.

(ب) المساعدة الروسية للهجرة بوساطة فرض ضرائب مسبقة على اليهود.

(جـ) التسهيلات الممنوحة للنظام الصهيونى الروسى.

(٤) السابق ص ٣٨١.

لقد قدم له تشمبرلن أوغندا، ولكنه رفض أن يعطيه سيناء، بسبب معارضة اللورد كرومر فى مصر من ناحية، وخوفه أيضا من قيام حملة من العريش إلى فلسطين من ناحية أخرى [1].

وقال تشمبرلن: «إن نفوذنا فى آسيا الصغرى يتضاءل، وعما قريب سوف ينشب صراع فى هذه المنطقة بين فرنسا، وألمانيا، وروسيا، فى حين أننا سوف نكون مشدودين إلى حقول العمل البعيدة، وإنى لأسأل نفسى: ماذا سيكون فى هذه الحالة حظ مستعمرتكم اليهودية، إذا ما افترضنا أنكم نجحتم فى تأسيسها؟.

وقلت له: أتصور أن حظنا فى هذه الظروف سيكون أفضل، فنحن نقوم بدور دولة صغيرة – عازلة ولسوف نظفر بهذا الوضع، لا بسبب من الإرادة الطيبة للقوى الكبرى، بل بسبب من غيرتها، وحين نوجد تحت الراية البريطانية فى العريش، فإن فلسطين سوف تسقط أيضا حينئذ فى مجال النفوذ البريطانى [2].

وفى اللحظة التى كانت هذه المحادثات تجرى مع جوزيف تشمبرلين، وزير الدولة للمستعمرات، وهو معاد للسامية مرموق – كان رئيس الوزراء بلفور يُعِدّ التصويت على قوانين الأجانب «Aliens acts» لتحديد الهجرة اليهودية فى انجلترا، وصدر النص فى عام ١٩٠٥ م، وفى المؤتمر الصهيونى السابع، فى بال، اتهم مندوب انجليزى، هو ماكس شير Max Shire، بلفور، بمعاداة السامية، المعلنة ضد كل الشعب اليهودى» [3].

ولقد أدينت هذه المعاداة للسامية لدى بلفور مرات كثيرة، وبخاصة فى صحيفة «جويش كرونيكل» (١٧ من نوفمبر، و٨ من ديسمبر عام ١٩٠٥ م).

---

(١) السابق ص ٣٧٨ (٢) السابق ص ٣٨٤.

(٣) بروتوكول: المؤتمر الصهيونى السابع، ص ٣٦ م.

وعند موت هرتزل كانت قد ارتسمت بوضوح، من خلال هذا التوافق الرمزى للحسابات الاستعمارية مع تشمبرلين، وحملة بلفور من أجل القوانين المعادية للسامية - ارتسمت ملامح مستقبل الصهيونية، وسر نجاحها، وهو ما سبق أن تخيله هرتزل حين قال: إن برنامج الصهيونية، هو بشكل ما «مرسوم محفور» فى الأهداف الاستعمارية للقوى الكبرى، وبفضل معاداة السامية لم يعد أمامه إلا أن يصب فى هذا النهر.

* * * * *

ب - نحو الحرب العالمية الأولى وإعلان بلفور ١٩٠٤ - ١٩١٧

كان هرتزل قد لاحظ، على الرغم من كل حيله ودبلوماسيته - أن أفضل كارت للعب، بين القوى الاستعمارية، هو كارت انجلترا، فبدأ به وختم به، ولسوف يحافظ خلفاؤه بقوة على هذا الخط، حتى ميلاد دولة إسرائيل.

وهكذا نالت الصهيونية الدعم على ثبات من السياسة الإنجليزية، فمثلا بعد المعاهدة الروسية التركية، معاهدة أنقرة - سكلسى Unkiar - Skelessi (عام ١٨٣٣ م) - أبرم عهد بين القيصر والسلطان تحت ذريعة «حماية المسيحيين الأورثوذوكس» فى الشرق الأدنى، وسرعان ما ردت انجلترا بأن اختارت محمييها، لتحمى مناطق نفوذها الاقتصادى، وقد كتب اللورد شفتسبورى مؤثراً على بلمرستون (١٧٨٤ - ١٨٦٥ م) قائلا: «إننى مضطر إلى أن أتكلم بمصطلحات سياسية، ومالية وتجارية، لأن أحداً لا يبكى على أورشليم» [١].

والواقع أن بلمرستون لم يكن متأثراً بالخطاب الذى أوصله إليه فى يناير ١٨٣٩ م سكرتير القوات البحرية داعيا كل القوى البروتستانتية فى أوربا وأمريكا إلى اقتفاء آثار قورش Cyrus «لتحقيق مشيئة الرب فى السماح بعودة اليهود إلى فلسطين».

وكانت فلسطين - بخاصة - منذ ضعفت الإمبراطورية العثمانية، وامتد إليها مبكراً تأثير السياسة الدولية فيما يسمى «المسألة الشرقية» - كانت فلسطين قد صارت بالتدريج مجالا لصراع القوى.

---

(١) ذكره نورمان بنتويتش (Morman Bentwich) وجون شفتلسبرى «رادة الصهيونية فى العصر الفيكتورى = Précurseurs du Sionisme à l' époque victorienne » ص ٢١٤ .

ومن قبل لجأ نابليون، حين أراد أن يكسب المسلمين إلى صفه ضد انجلترا، إلى أن يعلن لدى نزول جنده فى مصر أنه يمثل الإسلام الصحيح، وهو يقترب من عكا، ولكى يتوافق مع المموّلين اليهود (ضد انجلترا أيضا) اقترح إنشاء دولة يهودية فى فلسطين [1].

وفى عام ١٨٤٥، عندما أرسل إدوارد ميتفورد إلى انجلترا خطة مماثلة أطلق عليها «نداء لصالح الأمة اليهودية»، مرتبطة بالسياسة البريطانية فى الشرق، كتب يقول: «على الرغم من الميزات الاقتصادية والاستراتيجية التى لا تحصى، فإن الدولة اليهودية سوف تمكننا تماما من تنظيم طرق مواصلاتنا التجارية، وسوف تمنحنا وضعا مسيطرا فى المشرق، حيث نستطيع أن نجهض كل محاولات تعويقها، وأن نتفوق على أعدائنا، وأن نصد هجماتهم» [2].

وبعد بضع سنوات تطرح المشكلة على انجلترا بصورة أكثر حدة، أيضا: أن تراقب طريق الهند، والمرور عبر قناة السويس، وتأمين محطة ذات كفاءة لتموين سفنهم بالفحم.

وكان أكثر المتحمسين لمشروع زرع دولة يهودية فى فلسطين هو لورانس أوليفانت (١٨٢٩ - ١٨٨٨م)، فى كتابه «The land of Gilead»، وقد كتب عن فلسطين: «إن على انجلترا أن تقرر ما إذا كانت سوف تشرع فى مهمة ارتياد المدن المهدمة، وتنمية مواردها الزراعية الواسعة فى هذا البلد، وذلك بأن تعيد إليه الجنس Race، الذى تَمَلَّكَه أولا، منذ ثلاثة آلاف عام، وبذلك تؤمن لنفسها أيضا المنافع السياسية الكبرى التى تترتب على هذه السياسة» [3].

---

(١) كان حاييم وايزمان يعتبر نابليون «أول الصهيونيين المعاصرين غير اليهود»، وذلك فى رسالة وجهها إلى ونستون تشرشل، وكان وايزمان فى الواقع أول رئيس دولة يقول بهذا الرأى، ذكره ريتشارد كروسمان فى «قومية تولد من جديد Nation Reborn»، لندن ١٩٥٦ ص ١٣٠.

(٢) إسرائيل كوهين «الحركة الصهيونية The Zionist moulvement» نيويورك ١٩٤٦ — ص ٥٢.

(٣) ذكرته بربارا توتشمان فى كتابها «الكتاب المقدس والسيف — The bible & the Sword» لندن ١٩٥٥ ص ١٧٣.

ويلخص كاتبُ ترجمتِه هندرسون الهدفَ الأساسى لأوليفانت، هكذا: «إن ما يقترحه أوليفانت ليس سوى الاختراق السياسى والاقتصادى، تقوم به انجلترا فى فلسطين، على أن يكون اليهود بيادق فى اللعبة»[1].

وقد كان مشروع أوليفانت يقترح كذلك أن يُطْرَدَ من فلسطين البدوُ المحاربون، وأن يُودَعَ الفلاحون العرب فى معازل، كهنود أمريكا الشمالية.

وكانت الأهداف الإنجليزية قد تحددت عندما أنجز الاستعمار إعداد مناهجه، ففى عام ١٨٧١م، وبعد أن صدرت فى انجلترا الجرائد الكبرى، مثل: «جويش كرونيكل – Jewish chronicl»، «وعبرو أوبزرفر – Hebrew Observer»، «وصوت يعقوب – Voice of jacop» – ظهرت مجموعات من المقالات فى هذه المجلات، بتوقيع إسحاق آشر، وهى تقترح تكوين «شركة امتيازات» فى فلسطين، من نوع «شركة الهند الشرقية»، أو «شركة هدسون بك Hudson Bay Company» لشراء الأرض فى فلسطين، وحرثها بتدفق رؤوس الأموال، التى تسمح بتحسين التربة، وإنشاء المشروعات، وأخيراً تسمح بتأمين الدفاع العسكرى عن الشركة، وكانت هذه رؤية تستبق المشروع المستقبل «الصندوق القومى اليهودى – Fonds national juif» بثلاثين سنة، وهو المؤسسة التى سوف ندرسها فيما بعد.

وبعدما اغتيل القيصر الكسندر الثانى عام ١٨٨١، وعقب التفتت المتزايد للإمبراطورية العثمانية لم يعد واقعيا الدفاع عن سلامة سلطة السلطان ضد روسيا، بل أصبح أكثر واقعية الاستيلاء على جزء من إمبراطوريته، كان هذا هو تكتيك دزرائيلى – Disraéli، فقد كان المهم فى نظره، وهو زعيم السياسة الإمبريالية الإنجليزية – أن يحمى طريق الهند، وبذلك كانت فلسطين ذات معنى جديد على رقعة الشطرنج الدولية، وإنما ترجع أهميتها منذئذ إلى قربها من مصر، وقد نصح اللورد كيتشنر وهو واضع السياسة الشرقية الجديدة، لحكومته «أن تتخذ من فلسطين حصنا تحمى به الوضع الإنجليزى فى مصر.

---

(١) هندرسون: «حياة لورانس أوليفانت – The life of laurence Oliphant» (روبرت هال) – لندن ١٩٥٦ ص ٢٠٤.

بقدر ما تكون رباطا مع الشرق [١].

وجدير بالملاحظة أن الكتيب الذى أصدره وليام هتشلر (١٨٤٥ - ١٩٣١م)، وهو راع أنجليكانى من رعاة الكنيسة، وعنوانه: «بعث اليهود فى فلسطين - « The restauration of the jeus to Palestine » (١٨٩٤) يسبق بعامين ظهور كتاب هرتزل عن «الدولة اليهودية» (١٨٩٦)، فى ذاك الوقت كان جوزيف تشمبرلين وزيراً للدولة لشئون المستعمرات، وقد كان قليلا ما يعبأ بنبوءات الكتاب المقدس، ولكنه يعتبر أن «الاتجاه القومى» للإمبراطورية البريطانية هو أن تصبح «القوة المهيمنة على التاريخ العالمى، وعلى الحضارة الإنسانية» [٢].

«لقد كان يعتبر اليهود - كما ذكر محرر سيرته امرى [٣] - مجموعة من المستعمرين المستعدين لأن يُزْرَعُوا (فى فلسطين)، لتنمية الأرض، واستخدامها، تحت قيادة انجلترا.

ولقد رأينا بأية مهارة دبلوماسية سلك تيودور هرتزل مشروعه ضمن هذه الحسابات.

ويجب أن نعترف، على ما يؤكده أوسكار ك. رابينوفتش فى كتابه: «هرتزل، معمارى إعلان بلفور - [٤] «Herzl, Architecte de la déclaration de Belfour»-نعترف بأن خلفاء هرتزل لم يضيفوا شيئا جديدا، حتى كان تشكيل دولة إسرائيل، وأما مشروع برنامج عام ١٩١٦ م الذى أعده الدكتور وايزمان، والذى يصور مقدما خطة «الوصاية البريطانية» على فلسطين، التى سوف تحكم ما بين الحربين - فهى تجسيد لأفكار هرتزل.

---

(١) ليونارد ستن «إعلان بلفور - «The Belfour declaration»» لندن - ١٩٦١ ص ٥٢.

(٢) جوليان أمرى: «حياة جوزيف تشمبرلين - « The life of Joseph CHAMBERLAIN»، لندن ١٩٥١ - جـ ٤.

(٣) السابق.

(٤) هرتزل برس Herrl Press - نيويورك ١٩٥٨ ص ٦١.

وحين مات هرتزل، يبدو أن خليفته وايزمان قد ابتعد عنه مسافة، فبعد موته مباشرة أخذ يتكلم عن «منهج الخداع والأبهة، وعن أنه يجب أن ينتهى مع هواء فينا، وأن نبدأ جادين خطوات عملية»[1].

والحق أن وايزمان ومشاركيه قد ركزوا منذئذ جهودهم حول مشكلتين محسوستين:

١ - تطوير البنك الاستعمارى اليهودى - (The Jewish Colonial Trust)

٢ - تطوير المستعمرات اليهودية فى فلسطين.

بيد أن الإنسان الذى أعطى الدفعة الأولى كان تيودور هرتزل، فلقد أنشأ فى المؤتمر الخامس الصهيونى عام ١٩٠١ - الأداة الأساسية لوضع اليد على أراضى فلسطين، وهى «المؤسسة القومية اليهودية - Kéren Kayémet Israel» المكلفة بتركيز شراء الأرض فى فلسطين، وقد حُدِّد فى الفقرة د (من المادة ٣ من إنشاء لائحة الوكالة أن «الأراضى تملك على أنها ملكية يهودية، وأن الأراضى المشتراة تسجل باسم Kéren Kayemet Israel، وتظل مسجلة باسمها حتى تصير ملكية للشعب اليهودى، لا يمكن التصرف فيها[2].

---

(١) حاييم وايزمان: التجربة والخطأ - Trial & Error - مكتبة الشرق والغرب - لندن ١٩٥٠ ص ١٢٥.

(٢) كان النص الأول، كما ذكر بعض المؤرخين (وهو بسيسو سعدى) فى كتابه (السياسة الأنجلو صهيونية فى فلسطين - «La Politique anglo Sioniste eu Palestine» (باريس ١٩٣٧) - تتضمن التعبير: «ملكية لا يمكن التصرف فيها **للجنس** اليهودى، ثم قال النص النهائى: «ملكية لا يمكن التصرف فيها **للشعب اليهودى**».

وتحدد المادة ٧ من قانون الوكالة أن المستعمر يتعهد خلال مدة القرض أن يقيم فى المزارع، وأن يؤدى فيها عمله الزراعى، بنفسه، أو بمساعدة أسرته، أما إذا احتاج إلى يد عاملة مساعدة فإنه لن يستخدم سوى عمال يهود».

إن التشريعات الاستعمارية ذاتها، والتى كانت فى غاية التشديد، لم تكن مطلقا بهذا القدر من الوضوح فى تعبيرها عن أنانيتها الجنسية.

ولقد تنامى البنك، والاستعمار، وكان الأول أسرع فى تناميه من الثانى.

بيد أن الفضل يرجع فقط إلى الحرب العالمية الأولى، إذ هى التى جعلت المشروع الصهيونى لاحتلال فلسطين يدخل مرحلة جديدة، وحاسمة فى طريق التحقيق، فلم يعد الاحتلال الصهيونى لفلسطين مركزاً متقدما للاستعمار الأوربى، بل صار رهانا على تنافس الأعداء فى الحرب ما بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٨م.

وحتى ذلك الحين كانت المشكلة استعمارية، فصارت عسكرية.

إن مشكلة الاستعمار الصهيونى لفلسطين إنما تطرح بنفس المصطلحات التى تعرفها مشكلات المستعمرين الآخرين جميعاً، فالاستعمار يرى أن أية أرض تعتبر «خالية» مادامت غير مسكونة من البيض، الغربيين، وقد عبر عن هذا المعنى ببراءة وقحة أحد الصهيونيين الأمريكيين فقال:

«أنا أعلم أن الأمريكى كان دائما موضع نقد، لأنه استغل واحتل تكساس، وكاليفورنيا، إبان حرب المكسيك، التى توصف بأنها عمل عدوانى، ولكنى أسأل نفسى: ما قيمة نقد كهذا حين يكون البديل أن يحرم مجموع الجنوب الغربى من طيبات الحضارة الأمريكية، عندما توجد أرض «خالية» بالقوة (افتراضاً) فإن العالم يدعو إلى خلاصها، وفلسطين المقفرة كانت بالضبط تكساس مصغرة، ومنطق التاريخ يتطلب أن تُملأ هذه «المساحات الخاوية»، لأن الطبيعة يرعبها الخواء[1].

---

(١) برنارد روزنبلات: «الجسر الأمريكى إلى الكومنولث الإسرائيلى The AmericanBridg to the Israël Commonwealth » - نيويورك ١٩٥٩، قرار - شتراوس أندسدالى ص ١٢٣.

ولقد كان هذا من قبل هو الشعار الذى رفعه زنجويل عام ١٩٠٤ م: «أن تعطى أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، (وقد كان تعداد سكان فلسطين آنذاك أكثر من ستمائة ألف من السكان العرب، مع كثافة سكانية مماثلة لكثافة الشقق الفرنسية المتوسطة).

بيد أن هذا هو موقف الأمريكيين تجاه الهنود، وموقف البيض فى إفريقية الجنوبية تجاه السود، وموقف الصهيونيين تجاه العرب، وكلهم يرون أن فلسطين أرض «خالية»، وقد كتبت السيدة جولدامائير، فى أول سطر من رسالتها ذات المغزى، فى ٢٤ من أغسطس ١٩٢١ م - تقول: «إن الإنجليز لم يختاروا العرب لاستعمار فلسطين، بل اختارونا نحن»[(١)].

ولقد حسمت الحرب ما بين ١٩١٤ - ١٩١٨ م هذا الاختيار.

لقد كان خيارا صعبا فى الواقع بالنسبة إلى الحكومة الألمانية، المتحالفة مع الأتراك، أن تعد بجزء من الإمبراطورية العثمانية، للصهيونيين، أو للعرب (المستعدين للثورة ضد استبداد المحتل التركى).

أما انجلترا، فعلى العكس، كانت تسعى للإفادة من الطرفين، وقد كان إصدار «وعد بلفور» فى نوفمبر ١٩١٧ - عملا ذا مغزى فى هذا الشأن.

ولقد نجحت انجلترا، وهى فى غمرة الحرب، فى أن تسبق ألمانيا التى حاول الصهيونيون (الألمان والنمسويون) أن ينتزعوا منها التزاما مماثلا، وفى يوليو عام ١٩١٨ كانت ألمانيا وتركيا قد قررتا الموافقة على «شركة امتياز» للصهيونيين فى فلسطين[(٢)]، بيد أن مسعى الصهيونيين الألمان والنمسويين كان مفهوماً، فقد كانوا يحاربون روسيا القيصرية التى كانت تضطهد اليهود.

---

(١) مارى سركين «جولدا مائير» - ط جاليمار - باريس ١٩٦٦ ص ٦٣.

(٢) المعهد الملكى للشئون الدولية (CG .B. and Palestine) (١٩١٥ - ١٩٤٥)، لندن ١٩٤٦ ص ١٠.

وفى أمريكا أسس إسحاق شتراوس، عام ١٩١٦ م صحيفة «ذى أمريكان جويش كرونيكل»، وهى هيئة للدعاية ضد الألمان، وقد كان كورث بلمفيلد ينصح الحكومة الألمانية بالتعاون مع الصهيونيين [١]، وأخذ دافيد تريتش يعيد فكرة هرتزل عن الحماية الألمانية فى فلسطين [٢].

وفى عام ١٩١٥ تلقى القناصل الألمان معلومات تفيد «أن الحكومة الألمانية تنظر باهتمام إلى نشاط اليهود لتحقيق التقدم الاقتصادى والثقافى اليهودى، كما تنظر باهتمام أيضا إلى هجرة يهود البلاد الأخرى واستقرارهم» [٣].

وإذن فقد كان المقصود بإعلان بلفور أن يستبق ألمانيا والنمسا فى التأثير على يهود الإمبراطوريات الوسطى وروسيا، لأن الحلفاء كانوا بحاجة إلى روسيا، وإلى اليهود فى وقت واحد.

ثم إن الزعماء الإنجليز لم يدعوا أدنى شك حول المغزى الحقيقى لإعلان بلفور، كتب ونستون تشرشل يقول: «إن إعلان بلفور لا ينبغى أن يعتبر وعدا مبذولا لأسباب عاطفية، لقد كان إجراء عمليا اتخذ لمصلحة القضية المشتركة، حينما كانت خدمة هذه القضية لا يمكن أن تتجاهل أى عامل لدعمها، ماديا ومعنويا [٤]».

---

(١) مجلة بروسيشر جهربوشر Preussicher Jahrbücher عدد سبتمبر ١٩١٥.

(٢) داى جودن در تركى – ليبزج ١٩١٥ (مذكور فى التيمس، تاريخ الحرب جـ ١٤ ص ٣٢٠ – ٣٢١) وقد قدم تحليلا جادا عن هذه المرحلة بشارة خضر فى «تاريخ فلسطين Histore de la Palestine» – الدار التونسية للطباعة، ١٩٧٦ ص ١٣٢ – ١٨٩.

(٣) ريتشارد ليختهان « مذكرات «Mémoires»» منشورة بالعبرية – تل أبيب ١٩٥٣ – الفصل الثامن عشر.

(٤) ستيفن دايز وجاكوب دى هاز: «المخادع الكبير «The great Betrayel»» برينتانوز – نيويورك ١٩٣٠ ص ٢٨٨.

وقد كان لويد جورج أكثر وضوحا أيضا، حين قال: «ليس أدل على قيمة إعلان بلفور، باعتباره خطوة عسكرية as a military move من أن المانيا قد أجرت مفاوضات مع تركيا لمحاولة إيجاد بديل يمكن أن يجذب الصهيونيين[1]».

والهدف الثانى لإعلان بلفور أن يمنع اليهود من أن ينضموا إلى الثورة الروسية (فقد سبق إعلان بلفور ثورة أكتوبر التى نشبت فى ٧ من نوفمبر ١٩١٧ بخمسة أيام). «كانت بريطانيا العظمى تعتقد أن قرارها بتأييد الصهيونية يمكن أن ينزع اليهود الروس من الحزب البلشفى،... كيما تبقى على روسيا فى معسكر الحلفاء[2]».

لقد كان هذا القرار من الأهمية بحيث جعل البلاشفة يقررون أن يمارسوا «الانهزامية الثورية - «Défaitisme révolutiomaire»» حتى يحققوا سقوط القيصرية[3]، وهكذا يكون الحلفاء قد حرموا من روسيا، التى كانت تقف ضد ألمانيا فى جبهة الشرق.

والاعتبار الثالث - وربما كان الاعتبار الأهم - هو أن الصهيونية استطاعت أن تساعد بقوة فى اشتراك الولايات المتحدة فى المجهود الحربى.

وقد صرح لويد جورج «للجنة الملكية لفلسطين - «Palestine royal Commission»» - عام ١٩٣٦ م بأن «الزعماء الصهيونيين وعدونا صراحة بأنه إذا ما تعهد الحلفاء بمنحهم تسهيلات من أجل الاستقرار فى وطن قومى يهودى فى فلسطين فإنهم سوف يبذلون أقصى ما فى وسعهم لحشد المشاعر، المساعدات اليهودية من أجل قضية الحلفاء فى كل أنحاء العالم .... وهم ملتزمون بكلمتهم»[4].

---

(١) لويد جورج: «مذكرات مؤتمر السلام - «memoir of The Peace conference»» نيوهافن - ط جامعة يال ١٩٣٩ جـ ٢ ص ٧٣٨.

(٢) جاتانو بلداكسى: «عربى وعبرى - «Arabi e Ebrei»» لونجانسى ميلانو ١٩٦٨ ص ٨٧.

(٣) يقصد أن البلاشفة بدأوا يرون أن سقوط القيصرية أهم من الانتصار فى الحرب الأولى، وهى فكرة يعبر عنها المؤلف بالانهزامية الثورية (المترجم).

(٤) مكسيم رودنسون «إسرائيل واقع استعمارى - «I Sraël, fait Colonial»» السابق ص ٣٦ - ٣٧.

وهو فى سبيل أن ينمى هذا التبرير أمام مجلس العموم عام ١٩٣٧م يصرح بأن الصهيونيين «قد ساعدونا فى أمريكا، وفى روسيا، اللتين كانتا حتى تلك اللحظة تتهربان، وتتركانا وحدنا»[1].

وحتى قبل دخول الولايات المتحدة الحرب، وقبيل توقيع المشروع النهائى لإعلان بلفور – كان الإنجليز يؤملون أن يقوم اليهود بحشد الجموع الأمريكية، وبخلق مناخ فى أمريكا متعاطف مع الاشتراك فى الحرب[2]، وفى لحظة كان الحلفاء يتعرضون خلالها لخسائر فادحة.

ومن المؤكد أن يهود أمريكا كانوا عاملا مهما، ولكن غير حاسم، فى قرار الولايات المتحدة بالاشتراك فى الحرب، ونحن نستقى هذه النتيجة من رسالة موجهة من جيمس مالكوم إلى سايكس الذى أشركه فى مشروع مجلس الوزراء البريطانى، بإدخال الولايات المتحدة فى الحرب، وقد كتب جيمس مالكوم يقول:[3]: «You are going the wrong way about it. you can win sympathy of Certain Politically - minded jew everywhere, and especially in the USA. in one way, and that is by offering to try and secure Palestine for them»

---

(١) اللجنة الملكية لفلسطين تقرير C M D، ٥٤٩٧، ورقات برلمانية عن بريطانيا العظمى (لندن ١٩٣٧) ص ٢٣.

(٢) ج. لنكزوفسكى: الشرق الأوسط فى الشئون العالمية «The Middle East in world offairs» – مطابع جامعة كورنيل – N.Y. ١٩٦٢ ص ٧٢.

(٣) جيمس ملكوم أرمنى ذو نفوذ، وصفه سكوكم بأنه «رجل أعمال معتد بنفسه» (خطاب من سكوت إلى وايزمان فى ٢٠ من إبريل ١٩١٧ م-أوراق وايزمان).

«إنك تفهم المسالة خطأ ، يمكنك أن تحظى بتعاطف بعض المثقفين السياسيين اليهود ، أينما كانوا ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، وذلك بأن تعرض محاولة تأمين فلسطين لهم» .

ولاريب أنه قد بقيت بين دوافع إعلان بلفور الاهتمامات التقليدية الاستعمارية ، التى اتصفت بها إنجلترا ، وهى : أن تؤمن لنفسها ممرا مائيا ، لحماية قناة السويس [١] ، و «ضمان استمرارية برية بين مصر والهند» [٢] ، وبدهى أيضا أنها تريد أن تحقق توازنا للحماية الفرنسية الحتمية على سورية ولبنان .

لقد وقع مشروع الإعلان السير بلفور ، ووجهه فى ٢ من نوفمبر ١٩١٧ إلى اللورد والتر روتشيلد ، حتى يعلم به التنظيم الصهيونى ، فكان هذا هو إعلان بلفور : «إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى ، وسوف تستخدم كل جهودها لتسهيل تحقيق هذا الهدف ، ومن الواضح طبعا أن لاشىء مما سوف يحدث يمكن أن يضر بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود فى فلسطين ، كما لايضر بالحقوق ، والأوضاع السياسية لليهود ، والتى يتمتعون بها فى جميع البلاد الأخرى» .

وهنا ملاحظتان على الأقل تفرضان بصدد هذه الوثيقة ، التى كانت ذات تأثير حاسم على التاريخ اللاحق لفلسطين :

---

(١) وليام كونجو «أصول إعلان بلفور The origins of The Balfow dedaration» (أوراق أكاديمية ميتشجان للعلوم والفنون (والاداب» جـ ٢٨) (١٩٤٢) صـ ٥٩٧ وما بعدها .

(٣) اليزابيث مونرو : «أيام بريطانيا فى الشرق الأوسط – Britain's moment in The middle East» (ط جانو اند وندوس ١٩٦٣ ص ٣٩ .

أولا: من ناحية الواقع التاريخى ، فإن من يطلق عليهم «المجتمعات غير اليهودية» كانوا يشكلون فى ذلك الوقت ٩٢ ٪ من سكان فلسطين .

وثانيا: من الناحية القانونية : فإن إعلان بلفور يخص أرضا لم يكن لبريطانيا العظمى فيها أى حق ، ومن ثم لم تكن تستطيع أن تتصرف فيها .

وكانت اتفاقية لاهاى الرابعة تشترط فى مقدمتها عن حق الحرب أن يظل سكان الآراضى المحتلة تحت حماية قواعد القانون الدولى . وفضلا عن ذلك إن الخطاب مرسل إلى شخصية خاصة هى اللورد روتشيلد ، وهو مواطن بريطانى ، كيما يبلغه إلى منظمة دولية لم تكن فى ذلك الوقت شخصا من أشخاص القانون الدولى .

وكان التردد الفرنسى والإيطالى فى اعتمادهما الإجبارى لإعلان بلفور ذا مغزى ، فقد أعلن بيكو وزير الشئون الخارجية الفرنسى فى مجلس النواب أن السيطرة التركية لايمكن أن يحل محلها إدارة فرنسية أو إنجليزية ، وإنما «نظام دولى قائم على العدالة والحرية» (١) .

وفى ١٤ من فبراير عام ١٩١٨ كتب إلى سوكولاو Sokolaw رسالة يوافق فيها على الإعلان «بإقامة وطن قومى لليهود» فى فلسطين . أما فى سان ريمو وفى لندن فإن الحكومة الفرنسية أنكرت مع ذلك أن تكون هذه الرسالة اعتمادا رسميا للإعلان .

وجاءت موافقة الحكومة الإيطالية أيضا أكثر تقييدا ، فقد قال وزير الشئون الخارجية البارون سنينو : إنه مستعد «لتسهيل إقامة مركز قومى عبرانى فى فلسطين ، علما بأنه لاشىء يتم على حساب الإضرار بالوضع القانونى

---

(١) الجريدة الرسمية – مجلس النواب – الجلسة الثانية فى ٢٧ من ديسمبر عام ١٩١٧ م .

والسياسى للمجتمعات الدينية الموجودة ، ولا على حساب الحقوق المدنية والسياسية التى يتمتع بها الإسرائيليون فى أى بلد آخر » [١] .

وأخيرا ، فإن اعلان بلفور متعارض أساسا مع ميثاق « عصبة الأمم » الذى ينص فى المادة ٢٠ « على أن أعضاء العصبة يعترفون ، كل فيما يخصه ، بأن الميثاق الحالى يلغى أى التزامات أو اتفاقات لاتتفق مع نصوصه ، وهم يتعهدون علنا ألا يتعاقدوا على مثلها فى المستقبل . وإذا كان عضو ما قبل انضمامه إلى العصبة قد تحمل التزامات لاتتوافق مع نصوص الميثاق فيجب أن يتخذ الإجراءات العاجلة للتخلص من هذه الالتزامات » .

وقد قدم الكاتب آرثر كوستلر – دون شك – أفضل تعريف بهذا الخطاب حين قال : « إنه وثيقة تَعِدُ فيها قومية « قومية » أخرى رسميا ، بأرض قوميةٍ ثالثة ، مع أن القومية التى بذل لها الوعد لم تكن قومية حقا ، بل كانت جماعة دينية ، والأرض عندما وعد بها كانت تابعة لقومية رابعة ، هى تركيا [٢] .

من هنا يبدأ غزو فلسطين خلال الحرب ، وسط كثير من « المعاهدات السرية » بين الحلفاء لتجزئة الإمبراطورية العثمانية . كان كل شىء فى ذلك العصر ، يبدو تابعا للنصر ، وبذلت وعود إلى جميع « الحلفاء » لإبقائهم فى « الحلف » ، أو ضمهم إليه ففى عام ١٩١٥ وقع الهجوم الإنجليزى الفرنسى على الدردنيل فى (١٩ من فبراير ١٩١٥) ، وكان الهدف الرسمى منه تخفيف الضغط التركى على روسيا فى القوقاز ، وكان الأمل غير المعلن إبعاد الروس عن المضايق ، وفى ٤ من مارس عام ١٩١٥ أعلن وزير شئون خارجية القيصر سازونوف – ضم المضايق ، ومدينة القسطنطينية إلى الإمبراطورية الروسية ، وكان على الإنجليز والفرنسيين أن يقبلوا ذلك ، حتى لايعرضوا فى غمرة

---

(١) سوكولاو « تاريخ اليهودية History of judaism » لونجمان لندن ١٩١٩ ص ١٢٩ .

(٢) آرثر كوستلر : « تحليل معجزة – Analyse d un miracle .

الحرب ، علاقاتهم مع روسيا للخطر ، وقد سجل اتفاق القسطنطينية فى مايو ١٩١٥ نهاية النفوذ الإنجليزى فى تركيا ، والمضايق ، كما قسم إيران . فجعل للروس الشمال يحكمونه ، والجنوب للإنجليز .

لقد كانت التسويات والمواءمات بين الشراهات الاستعمارية المتصارعة لاتتوقف هناك : ففى ٢٦ من إبرايل ١٩١٥ وُقِّعَتْ فى لندن معاهدة سرية بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وإيطاليا ، وللمساومة على دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء استمروا فى رهن تركة الإمبراطورية العثمانية ، فالمادة (١٠) تنقل إلى إيطاليا جميع حقوق السلطان على ليبيا ، وفى مقابل ذلك دخلت إيطاليا الحرب فى ٢٠ من أغسطس عام ١٩١٥ م ، وجرت مفاوضات لإتمام قسمة مسبقة بين انجلترا وفرنسا ، وهو اتفاق سايكس - بيكو فى ١٦ من مايو ١٩١٦ م . وكان السخف واضحا فى هذا الاتفاق ، وقد سخر منه لويد جورج ، رئيس الوزراء الانجليزى فى عام ١٩١٧ واعتبره وثيقة سخيفة (Foolish decument) . وذكر أن من « الغموض بمكان أن يقدم رجل يملك ذكاء السير سايكس على توقيع اتفاق هذه التسوية [١] » .

وقد كتب اللورد كيرسون ، ممثل انجلترا فى مؤتمر السلام عام ١٩١٩ م والذى صار وزيرا للشئون الخارجية بعد بلفور - يقول : « عندما عرض اتفاق سايكس - بيكو لم يكن الموقف سوى تصور خيالى (a sort of fancy sketch) يعالج موقفا لم ينشأ بعد .... وأعتقد أن هذا هو التفسير الرئيسى للجهل الغشيم الذى رسمت به الحدود فى هذه الخطة [٢] » .

وبقى المطلوب هو دخول العرب فى الصراع ضد الترك ، وذلك عن طريق « بلورة سخط العرب ضد السيطرة التركية » [٣] .

---

(١) لويد جورج : « حقيقة معاهدات السلام - The truth about the peace treaties » - ط جولتكز - لندن ١٩٣٨ ص ٦٦٥ .

(٢) لويدجورج : مذكرات مؤتمر السلام - memoirs of the peace coferece (نيوهاض - مطابع جامعة يال ١٩٣٩ جـ ٢ ص ٦٦٤ - ٦٦٥ .

(٣) نشرة قسم الدولة الأمريكية (مجموعات الشرق الأدنى N . I .) الوصاية على فلسطين . واشنطن ١٩٣١ ص ٥ .

ذلك أنه ماكان أغرب هذا الاتفاق (اتفاق سايكس - بيكو)!! لقد طبق عندما انتهت الحرب حرفيا ، لتحديد «الوصاية الإنجليزية» على فلسطين .

أما الوعود التى أعطيت للعرب ، خلال الحرب من ١٩١٤ - ١٩١٨ ، لاستدراجهم إلى جانب الحلفاء ضد الترك - فقد انتهكت دائما ، وكان نفاق الاستعماريين الإنجليز فاضحا .

ولقد تبودلت مراسلات طويلة ، من ١٤ من يوليو ١٩١٥ حتى ٣٠ من يناير ١٩١٦ م ، بين المندوب السامى البريطانى فى القاهرة ، السير هنرى مكماهون ، وبين الشريف حسين فى مكة ، وكان هدف الحكومة الإنجليزية أن تستغل سخط العرب ضد المحتل التركى ، واعدة الشعوب العربية بالاستقلال بعد النصر ، وعلى الرغم من المساومات على تحديد خط الحدود ، فقد تم اتفاق فيما يبدو بل وأُكِّد عدة مرات .

هذا «النصب التذكارى الغامض» (كما وصفه خبير انجليزى) كان من شأنه أن يمنح العرب انطباعا بأنهم إذا مادخلوا الحرب ضد الترك فسوف يكون الاستقلال عشية النصر مضمونا لجميع البلاد العربية .

وعندما صار الشريف حسين ، بمكة ، ملكا على الحجاز منذ عام ١٩١٦ طلب إيضاحات لإعلان بلفور ، فوجه إليه المقيم العام بمصر رسالة - (يطلق عليها رسالة هوجارث ، وهو اسم الضابط الذى نقلها) - يؤكد له فيها أن «الاستقرار اليهودى فى فلسطين لن يسمح به إلا إذا كان متوافقا مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان العرب» .

وفى أثناء اللقاء بين الشريف حسين ، والقومندان هوجارث ، فى يناير ١٩١٨ أكد هوجارث أن فلسطين كانت داخل حدود الدولة العربية ، التى تقرها انجلترا . وأضاف هوجارث أن «الملك لن يقبل دولة يهودية فى فلسطين» [1] .

---

(١) Statements made on behelf of his Majesty's governement during The year 1918 in regard to The future status of Certain parts of the ottoman Empire . CMD . london 1939 p . 5

وترجمة النص : «تعبير عن موقف حكومة جلالة الملك خلال عام ١٩١٨ ، بالنسبة إلى مستقبل الأوضاع فى بعض أجزاء الإمبراطورية العثمانية» .

وفى ١٦ من يونيو عام ١٩١٨ ألقى هوجارث هذا محاضرة عن إجابة الحكومة البريطانية على رسالة «حزب سورية المتحدة» ، أمام رجالات سورية المجتمعين فى القاهرة ، فقال : «إن حكومة صاحب الجلالة تريد أن تكون جميع الأمم الناطقة بالعربية متحررة من النير العثمانى ، وأن تعيش فى ظل حكومة تختارها بنفسها» [١] .

وفى ٨ من فبراير عام ١٩١٨ تكرر «رسالة باسيت» أن « حكومة صاحب الجلالة البريطانية تؤكد وعدها باحترام حرية الشعب العربى وتحريره» .

وكان الإعلان الإنجليزى – الفرنسى فى ٩ من نوفمبر ١٩١٨ يبدو دون لبس حين قال : «إن فرنسا وبريطانيا العظمى متفقتان على تكوين حكومات ، ونظم أهلية فى سورية (التى كانت تضم آنذاك فلسطين) ، وفى العراق» [٢]

وقد كتب الملك فيصل ، ملك الحجاز ، وكان يعتقد حينئذ بحسن نية الاستعماريين – كتب فى مارس ١٩١٩ إلى الزعيم الصهيونى فيلكس فنكفورتر (وكان فيما بعد قاضيا بالمحكمة العليا بواشنطن) :

«إننا نشعر بأن العرب واليهود ينتمون إلى نفس الجنس ، وأنهم عانوا نفس الاضطهاد من جانب القُوَى الأقوى ، ونحن العرب ننظر بتعاطف عميق إلى الحركة الصهيونية ، ونعمل معا على تجديد الشرق الأدنى ونهضته ، ... إن حركتينا متكاملتان .... وفى سورية متسع لنا ولكم (ولنذكر أن فلسطين كانت جزءا من سورية . ر . ج) ، بل إنى أعتقد أن أحدا منا لايستطيع أن ينجح بدون الآخر ... وإنى لأؤمل فى مستقبل تساعدوننا فيه ونساعدكم ، حتى تستطيع البلاد التى لنا فيها مصالح مشتركة أن تأخذ مكانها من جديد فى مجتمعات الشعوب المتحضرة فى العالم [٣] » .

(**فيصل**) [٤] .

---

(١) د . كنعان : «صراع فى أرض السلام Conffict in The Land of Peace – القدس ١٩٣٦ ص :

(٢) جفرى : فلسطين . الواقع – Poalestine Zhe rea لونجمان – جرين اندس – نيويورك – ١٩٣٩ ص ٢٣٧ – ٢٣٨) – Lity .

(٣) حايم وايزمان : «التجربة والخطأ» سبقت الإشارة إليه . نيويورك ١٩٤٩ ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

(٤) هو فيصل بن الشريف حسين . (المترجم) .

فقد استقبل الملك فيصل الصهيونيين إذن ضيوفا كراما ، وهو لم يكن يتصور ، بمفهومه عن الضيافة – أن الضيف يمكن أن يطرد مضيفه الذى تلقاه بالأحضان .

ولقد عاضدت القوى الاستعمارية الصهيونيين ، وتصرفت على هذا النحو بأسلوب النفاق المتعمد . فأعلن مكماهون فى رسالة وجهها إلى صحيفة التيمس ، فى ٢٣ من يوليو ١٩٣٧ قوله : «إن من واجبى أن أعلن للملأ ، وبكل صراحة ووضوح ، أنى لم أكن أنوى أن أدخل فلسطين فى منطقة الاستقلال العربى عندما أعطيت ضمانات للملك حسين» .

وتضم الوثائق السرية التى كشفت عام ١٩٦٤ على يد ليونارد ستن [١] فى جامعة ستانفورد ، حيث أودعها البروفسور وليام ليون وسترمان ، المستشار بالوفد الأمريكى فى مؤتمر السلام بفرساى – تضم وثيقتين تكشفان عن النفاق الاستعمارى ، فقد قيل فى الجزء الرابع من هذه المذكرة : «أما فيما يخص فلسطين فإن حكومة صاحب الجلالة قد تعهدت بإدخالها ضمن حدود الاستقلال العربى [٢]» .

وفى ١٤ من يوليو عام ١٩١٨ أشار الرئيس ولسون إلى اتفاق السكان المعنيين فى أى تنظيم للمسائل المتعلقة بالأراضى ، وبالسيادة ، وبالوضع الاقتصادى ، وبالعلاقات السياسية [٣] .

---

(١) أوراق وسترمان : مذكرة عن التزامات بريطانيا تجاه الملك حسين – « Oemmrandum on Britesh cbmmitmento ta king Hussein جامعة ستانفورد ، مؤسسات هوفر (I.d.) خاص ٣ ص ٩ ومابعدها) نشر بصحيفة التيمس فى ١٤ من ابريل ١٩٦٤ .

(٢) أضواء على وعود بريطانيا فى فلسطين – Light on Britesh's Palestine Promises – نشر فى التيمس فى ١٤ من إبريل ١٩٦٤ ، ولم يكن المهم هو نوايا مكماهون الشخصية ، بل موقف الحكومة البريطانية .

(٣) هربرت هوفر : محنة وودرو ويلسون – Ordeal of Woodrow Wilson » – كتاب ماك جريف هل – Ny ١٩٥٨ ص ٢٥ .

وفى ٩ من نوفمبر ١٩١٨ نشرت فرنسا وانجلترا إعلانا مشتركا ، بالمنطوق التالى : «إن الهدف الذى تتوخاه فرنسا وبريطانيا العظمى .. هو التحرير الكامل والنهائى للشعوب التى طال اضطهادها على يد الأتراك ، وإقامة حكومات وإدارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحر للشعوب المدجنة [١] » .

وقد كتب اللورد بلفور فى مذكرة بتاريخ ١١ من أغسطس ١٩١٩ ، مانصه : «إن القوى العظمى الأربع (انجلترا ، والولايات المتحدة ، وفرنسا ، وإيطاليا) قد انحازت إلى الصهيونية ، وسواء أكانت الصهيونية صوابا أم خطأ ، خيرا أم شرا ، فإن جذورها تمتد فى تقاليد عريقة ، وفى حاجات قائمة ، وفى آمال مستقبلة ، ذات أهمية أعمق بكثير من الرغبات وألوان الحرمان التى يشعر بها سبعمائة ألف عربى ، يسكنون اليوم هذه الأرض القديمة ، وفى رأيى أن هذا حق ، ولكن مالم أفهمه مطلقا ، ولا قدرت على فهمه ، هو كيف يمكن أن يكون هذا متفقا مع الإعلان (الإعلان الفرنسى – الإنجليزى) ، والتعهد (الاتفاقات بين حسين ومكماهون) ، وبيانات لجنة التحقيق» [٢] .

وهناك وزير آخر بريطانى ، للشئون الخارجية ، هو اللورد جراى ، كان فى الخدمة الوظيفية ، وقت المراسلة بين حسين ومكماهون ، ومن ثم كان مسئولا عن الوعود التى قطعتها هذه المراسلة ، وعن تفسيرها . هذا الوزير صرح فى ٢٧ من مارس ١٩٢٣ – فى مجلس اللوردات بقوله : «إننى مقتنع بأنه لن يكون سلوكا مشرفا أن نقبل التزاماتنا (فى الشرق) ، ونحن نعلن أنها متلائمة ، مالم تكن كذلك فى الواقع . وإنى لمقتنع بأن السلوك الأشرف يتضمن أن ننشر التزاماتنا ، وإذا ماكانت متعارضة فيجب أن نقرر ذلك صراحة ، وأن نبحث عن المنهج المشرف للخروج من المأزق الذى ضللنا فيه» .

---

(١) هوروفتز : الدبلوماسية فى الشرقين الأدنى والأوسط Dipomacy in the Near and Middle East» تسجيل وثائقى ١٩١٤ – ١٩٤٥ – برنستون ١٩٥٦ ج ٢ ص ٣٠ .

(٢) فى «وثائق عن السياسة الخارجية البريطانية – Documents an Britesh Foreign Policy» ١٩١٩ – ١٩٣٩ – نشريات وود وارد أنربتر – ص ٣٤٥ .

وأمام هذا الازدواج المنافق قال بلفور نفسه للقاضى برانديز ، فى يونيو ١٩١٩ :

« كان من العسير علىّ أن أتصور كيف سيتمكن الرئيس ولسون من التوفيق بين اتصاله بالصهيونية وبين نظرية حق تقرير المصير » .

وبعد قليل كتب فى مذكرته فى ١١ من أغسطس عن مستقبل فلسطين ، قائلا : « أما عن فلسطين ، فإن القوى الكبرى لم تقم بأى تقييم يتسم بالنزاهة ، ولم يكن لها أى إعلان لاتنوى انتهاكه ، حرفيا على الأقل » (١) .

والواقع أن النفاق قد بلغ أوجه ، لأن فلسطين كانت فى الوقت نفسه موعودة للصهيونيين ، ولنفس الأسباب التى تزعم أن اليهود فى بلادهم المتفرقة ، ولاسيما فى الولايات المتحدة ، قد مارسوا الضغط لصالح انضمامها إلى الحلفاء .

وعلى هذا الغموض الأساسى فرضت « الوصاية » على فلسطين ، واختيرت لها انجلترا فى ٢٩ من سبتمبر ١٩٢٣ .

* * *

* * * * * *

---

(١) السابق .

جـ – نحو الحرب العالمية الثانية وإنشاء دولة إسرائيل

كان حل «المسألة الشرقية» بمجرد انتهاء الحرب العالمية الأولى : ففى ٣٠ من أكتوبر عام ١٩١٨ هزمت تركيا ، وفى ٣٠ من يناير عام ١٩١٩ قرر الإنجليز والفرنسيون أن يقتسموا غنائم الإمبراطورية العثمانية ، حسب الخطة التى سبق تخيلها فى اتفاقات سايكس – بيكو .

وفى ٢٨ من يونيو ١٩١٩ م وقعت معاهدة فرساى ، وميثاق عصبة الأمم التى أنشئت حديثا ، وكان الميثاق يكرس انتصار الاستعمار فى صيغة جديدة ، فالمادة ٢٢ ، ابتداء من فقرتها الأولى ، وهى تعلن المبادىء المطبقة على المستعمرات التى انتزعت من المهزومين ، تعالج «شعوبا ليست بعد قادرة على أن تدير نفسها بنفسها» ، وقيل فيها : إن تطوير هذه الشعوب هو «مهمة مقدسة للحضارة» .

وجاءت الفقرة الثالثة فوضعت هذه الشعوب تحت «نظام للوصاية أو للحماية» .

وتتحدث الفقرة الرابعة عن «بعض المجتمعات التى كانت تابعة من قبل للإمبراطورية العثمانية ، وقد بلغت درجة من التطور ، وهذه يمكن أن يعترف بوجودها ، أمما مستقلة ، مؤقتا ، بشرط أن يعين لها وصى أو حام يشير عليها ويساعد فى إدارتها ، إلى أن تصبح قادرة على أن تقود نفسها» .

وكان يحتل هذه الدرجة العراق (إنجلترا) ، وسورية ولبنان (فرنسا) ، وفلسطين (إنجلترا) ، على حسب تقسيمها فى مؤتمر سان ريمو (فى ٢٤ من إبريل عام ١٩٢٠)، بين المنتصرين ، دون أدنى مشورة من عصبة الأمم .

ولقد واصلت الحماية على فلسطين نفس أساليب الغموض ، التى تجلت فى إعلان بلفور : فبقيت فلسطين الأرض الموعودة مرتين ، مرة للصهيونيين ، وأخرى للعرب . وتحيل المقدمة إلى إعلان بلفور ، وتكرر من مصطلحاته

عبارتى : وطن قومى لليهود ، من ناحية ، واحترام السكان غير اليهود من ناحية أخرى .

بيد أنها أضافت تعارضا جديدا مع ميثاق عصبة الأمم ، الذى تنص مادته العشرون على أن «الميثاق الحالى يبطل جميع الالتزامات ، والاتفاقات الداخلية التى لاتتفق مع هذه النصوص» . وكانت هذه – بداهة – حال بريطانيا العظمى ، التى تحملت بموجب إعلان بلفور التزامات نحو أراض لم تكن تخصها .

وبرغم هذا نجد عصبة الأمم وقد صدقت على الرجوع إلى إعلان بلفور ، فى فرض الحماية ، معترفة – هكذا – «بالأمر الواقع» تبعا لإرادة الاستعماريين .

★ ★ ★

وقد استطاعت الحماية منذئذ أن تخدم أغراض الصهيونية فى حرية .

فمنذ يوليو عام ١٩١٩ وصل إلى القدس لويس برانديز ، الصهيونى من الطبقة الرفيعة ، والقاضى بالمحكمة العليا بالولايات المتحدة ، وأخذ يتكلم باعتباره سيدا ، فأعلن للجنرال لويس بلوس المدير العام للحماية – قوله : «إن أوامر السلطات العسكرية يجب أن تخضع بالدرجة الأولى للجنة الصهيونية» ، وأمام احتجاجات القيادة العامة ، التى أدهشها أن يقدم قاض ، بهذه الكيفية ، على انتهاك القانون – أضاف برانديز : «يجب أن يكون معلوما أن الحكومة البريطانية مكلفة بتقديم دعمها للقضية الصهيونية ، فإذا لم تطبق هذه القاعدة السلوكية فسوف أكتب تقريرا إلى وزارة الخارجية» .

وفى مارس ١٩٢٠ شكا الجنرال بلوس فى لندن من تدخلات اللجنة الصهيونية فى كل شئون إدارته ، وقال : «إن هذه الحال لايمكن أن تستمر .... وليس يفيد فى شىء أن نقول للعناصر الإسلامية والمسيحية من السكان : إن إعلاننا فيما يخص الوضع القائم مُرَاعىً ، فى حين أن الأحداث تشهد بالعكس ، فلقد أقنعوا غير اليهود بتحيزنا ، كما أن اللجنة الصهيونية تتهمنى ، أنا وضباطى ، بعداوة السامية ، وهذه حال لايمكن التغاضى عنها .... وواضح أنه من المستحيل أن نخضع لأناس يعلنون رسميا أنهم لايريدون شيئا سوى «وطن

قومى» ، ولكنهم فى الواقع لايقنعون بشىء سوى «دولة يهودية» بكل تبعاتها السياسية » [1] .

وفى يوليو ١٩٢٠ كان الجنرال السير لويس بلوس قد عزل من مناصبه ، واستبدل به السير هربرت صمويل ، الصهيونى الدولى ، الذى كتب عنه زعيم التنظيم الصهيونى العالمى حاييم وايزمان – عام ١٩٢١ فقال : «كنت المسئول الأول عن تعيين السير صمويل فى فلسطين ، فهو صديقنا ، وقد قبل هذه المهمة الصعبة بناء على طلبنا ، فهو صمويلنا » [2] .

ومنذ ذلك الحين تسارع نمو الصهيونية فى فلسطين بشدة ، بوساطة الحماية البريطانية . لقد كانت فلسطين عام ١٩١٨ بلدا عربيا شبيها بكل البلاد الأخرى ، وكان تعداد سكانه سبعمائة ألف ، منهم ٥٧٤,٠٠٠ من المسلمين ، و ٧٠,٠٠٠ من العرب النصارى ، و ٥٦,٠٠٠ من ذوى الديانة اليهودية (وأغلبهم أيضا من العرب) .

وجاء إحصاء نوفمبر عام ١٩٣١ م، وكان السكان يزيدون قليلا عن مليون ، منهم ٧٥٠,٠٠٠ من المسلمين ، و ١٧٤,٠٠٠ من اليهود (وهم فى هذه المرة ذوو أصول أوربية) ، و ٩١,٠٠٠ من النصارى .

فقد نقلت الهجرة المجتمع اليهودى من ٧ ٪ إلى ١٧ ٪ ، مع أن بطء وصول بقايا يهود الشتات كان أحيانا يبطىء الحركة ، ففى عام ١٩٢٧ تفوق النزوح اليهودى على التهجير ، وفى عام ١٩٣٧ وصل إلى فلسطين ٢٧١٣ يهوديا ، فى مقابل ٥٠٧١ نازحا عنها . [3] .

---

(١) نيفيل باربون : Nisi Dominos » – ط . جورج هرّب و سى – لندن ١٩٤٦ ص ٩٧ .

(٢) ذكره . ج . ب . آلم فى كتابه : «يهود وعرب – Juifs et Arabes» جراسيه ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٦ ، ومع ذلك فسوف يجد وايزمان صمويل بريطانيا مائة فى المائة ، حين يراه موضوعيا تماما فى إدارته .

(٣) التقرير السنوى عن عام ١٩٣٥ ص ٤٣ و ٢١٤ .

والسنة المرجع فى الإحصاء من نوفمبر ١٩٣١ – هى سنة مهمة ، لأنها سابقة على اضطهاد هتلر لليهود .

وأما فيما يخص الأرض ، ففى عام ١٩١٨ كان السكان اليهود يملكون ٢ ٪ من الأرض ، وفى نهاية الحماية البريطانية تضاعفت هذه المساحة إلى ثلاثة أضعاف ، فكانت الملكية غير القابلة للتصرف – للشعب اليهودى قد وصلت إلى ٦ ٪ ، وتقع فى أجود الأراضى وأفضلها ريا .

وحين فرض الصهيونيون قانونهم بالتدريج ، مع التواطؤ البريطانى – حاولوا أيضا شراء أراضى وقف حول المسجد الأقصى ، فى القدس ، قريبة من حائط المبكى (وهى عقارات موقوفة يخصص عائدها للأعمال الدينية) ، حتى إن المسلمين أنشأوا عام ١٩٢٨ «لجنة الدفاع عن المسجد الأقصى» .

وكانت ميزانية الحماية البريطانية من حظ الصهيونية ، فخلال الحماية انتقل «الوطن» من ٨٠,٠٠٠ ألفا من السكان عام ١٩٢٢ – إلى ٦٤٠,٠٠٠ ألفا عام ١٩٤٨ ، وكانت الحركة الصهيونية مالكة لمدنها ، وأراضيها ، وصناعتها ، وجيشها .

* * *

وفى مقابل فترات الهدوء التى عاشها العرب قامت ثورات ضد الاحتلال المزدوج ، الصهيونى والإنجليزى ، فى إبريل عام ١٩٢٠ ، وفى مايو ١٩٢٠ ، وفى أغسطس ١٩٢٩ ، ثم كانت ثورة ١٩٣٦ – ١٩٣٩ م .

فبعد إيداع نتائج لجنة التحقيق الإنجليزية عن الثورة الأولى ، والتى أوضحت أن الاضطرابات نشأت عن أعمال الاغتصاب المتزايدة التى يقوم بها الصهيونيون – أصدر الوزير الإنجليزى للمستعمرات ، ونستون تشرشل إعلانا يقول فيه : «لقد استخدمت عبارات مثل : يجب أن تصبح فلسطين يهودية بقدر ماتكون إنجلترا إنجليزية ... إن حكومة صاحب الجلالة ترى أن هذه التوقعات يتعذر تنفيذها ، وهى لاتسير وراء هذه الغاية ، كما أنها لاتتصور اختفاء السكان العرب ، أو اللغة أو الثقافة العربية ، أو تبعيتها فى فلسطين ، وهى تلفت الانتباه إلى أن عبارات إعلان بلفور التى تستند إليها لاتتجه إلى تغيير

فلسطين بأجمعها إلى وطن قومى يهودى ، ولكنها تتجه إلى القول بأن وطنا يجب أن يُنْشَأ فى فلسطين[١] » .

وكانت ثورة ١٩٢٩ فى مبداها « حرب فلاحين » ، فلاحين بلا أرض ، طردتهم الوكالة الصهيونية حين اشترت الأرض من الملاك الكبار ، أصحاب الملكية العقارية ، وهم فى أغلب الأحيان يقيمون بالخارج : فبين عامى ١٩٢٢ و ١٩٢٩ مثلا كان أكثر من ٩٨ ٪ من الأرض المبيعة لجماعات من كبار الملاك ، منهم ٩٦ ٪ غير مقيمين بفلسطين .

وهكذا يحلل كريستوفر سايكس نتائج الاستعمار الصهيونى فيقول : « إن مشكلة الأرض فى فلسطين إنما تنشأ أساسا ... من بيع مساحات شاسعة من الأرض ، بوساطة ملاك متغيبين موكلين ، إلى أفراد ، وإلى نقابات صهيونية . وهناك شرط معتاد فى هذه البيوع هو طرد شاغليها ، .... أما التعساء الذين عاشوا غالبا على هذه الأرض خلال أجيال عديدة فإنهم يرون أنفسهم مطرودين من أرضهم ، ومحرومين دون تعويض عن وسيلتهم الوحيدة للبقاء ... إن المستأجرين المطرودين ، وهم الضحايا الحقيقيون للهجرة اليهودية هم جوهر المشكلة الفلسطينية[٢] » .

هؤلاء الفلاحون ، بلا أرض ، لم يكن لهم أن يُسْتَأْجَروا ، عمالاً زراعيين لدى الملاك الجدد الصهيونيين ، لأن ميثاق المؤسسة القومية اليهودية كان يحرم هذا .

وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى العمال ، فقد كان دستور النظام الذى وضعه المركز النقابى الصهيونى هو : **« عمل يهودى »** .

أما ميثاق الوكالة اليهودية الذى صودق عليه فى ١٤ من أغسطس عام ١٩٢٩ فى زيورخ — فيقرر أنه « فى جميع الأعمال والمشروعات

---

(١) CMD . 1700 « مذكـــرة تشرشل — The Churchill memorandum ، فى ٣ من يونيو ١٩٢٢ .

(٢) كريستوفرسايكس : « Order Wingate »لندن ١٩٥٩ ص ١٠٦ .

التى تنفذها الوكالة اليهودية ، أو تؤيدها – يجب الالتزام بالمبدأ الأساسى ، وهو استخدام عمال يهود . » .

بل إن منطق هذه السياسة الصهيونية ذاته ، والمتمثل فى إبعاد العرب عن فلسطين – وإذا اتحد السبب اتحد الأثر – سوف يؤدى هذا المنطق إلى ثورات جديدة للفلسطينيين خلال الأعوام من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ .

وهى حركة شعبية للفلاحين بلا أرض ، ثم إضراب دام ١٧٤ يوما ، يتطور إلى ثورة حقيقية .

لقد سحقت هذه الثورة فى الدم ، فقتل فيها أكثر من ثلاثة آلاف عربى ، وجرح الآلاف ، وأودع أكثر من ستة آلاف ، داخل السجون ، معسكرات التجميع البريطانية .

* * *

وهكذا كان موقف المحتل الإنجليزى واضحا إلى جانب انتشار الصهيونية ، فلم يعد للصهيونيين حاجة إليه ، إذ إنهم لم يعودوا بعد عملية السحق التى تمت يخشون غضب العرب ، فلم يبق عليهم إلا أن يطردوا الإنجليز ليصبحوا سادة البلاد .

ومن المهم أن نؤكد أن صراع العرب ، وصراع الصهيونيين ضد الإنجليز كانا مختلفين اختلافا جذريا .

فأما الفلسطينيون فقد كان صراعهم صراع تحرير معادٍ للاستعمار ، موجه ضد الغزو الصهيونى ، وضد المحتل الإنجليزى الذى يمالئه .

وأما الصهيونيون ، فبعد أن أفادوا من اضطهاد العرب استداروا إلى الإنجليز ، وهذا شىء آخر جد مختلف ، فهو نزاع يشبه نزاع المستعمرين ضد بلدهم الأصلى .

بيد أن هؤلاء المستعمرين المتمردين ضد بلدهم يزمعون إحكام سيطرتهم على سكان البلاد : وقد كان «الثوار» الأمريكيون يريدون الاستقلال عن إنجلترا ، ولكنهم استمروا فى إبادة الهنود الحمر ، وظلوا لقرن من الزمان يمارسون استعباد السود .

وحين تمردت دولة جنوب إفريقية ، فإنما كان تمردها من أجل إحكام نيرها على السود .

وكذلك الصهيونيون ، فإنهم لم يقوموا بحرب تحرير ضد الاستعمار ، فقد كان إرهابهم ضد الإنجليز يستهدف فقط أن يمارسوا سيطرتهم على أهل البلاد العرب .

وهناك قياس قريب من هذا ، يتيح لنا أن نفهم بصورة أفضل الفرق بين الكفاحين ضد الإنجليز : كفاح الفلسطينيين ، وكفاح الصهيونيين : فهو نفس الفرق بين كفاح التحرير الوطنى للشعب الجزائرى ، وانقلاب الـ O.A.S ضد فرنسا الأم ، التى اتهموها بأنها لم تكن فعالة بصورة كافية ضد الحركة الجزائرية للتحرير الوطنى .

وحين نشرت الحكومة الإنجليزية «كتابا أبيض» جديدا ، هو كتاب مكدونالد فى ١٧ من مايو ١٩٣٩ م منتهية إلى أن «الوطن القومى» قد تحقق منذ ذلك الحين ، وأنه لاينبغى تشجيع الهجرة أكثر من ذلك ، ولا شراء أراض جديدة من العرب [١] هاج الصهيونيون ، ولم تتوقف منظماتهم العسكرية ، وشبه العسكرية : الهاجاناه بقيادة بن جوريون ، والأرجون بقيادة بيجن ، ومجموعة شتيرن بقيادة شامير - أو لم تعد تتوقف منذئذ عن السيطرة على الأرض ، حتى كان إنشاء دولة إسرائيل الصهيونية ، وبعده . «والحل النهائى» واضح ، وهو طرد العرب من فلسطين أو إبادتهم . وقد كان هذا الهدف محددا تماما عندما اعتقدت الصهيونية أنها فى طريقها إلى بلوغه .

كتب بنزيون دينور - الذى كان أول وزير للتربية القومية فى دولة إسرائيل ، والصديق المقرب لمؤسس دولة إسرائيل ، دافيد بن جوريون - عام ١٩٥٤ م ، فى مدخله لكتاب «تاريخ الهاجاناه» ، المنشور بوساطة التنظيم الصيهونى العالمى - كتب يقول : «لامكان فى بلادنا إلا لليهود ، ونحن نقول للعرب : اخرجوا !! فإذا لم يوافقوا فسوف نخرجهم بالقوة» .

---

(١) CMD . 6019 : «الورقة البيضاء لمكدونالد - The Macdonald Wahite paper» فى ١٧ من مايو ١٩٣٩ .

وكتب جوزيف فيتز ، المدير القديم لقسم الاستعمار فى الوكالة اليهودية – عشية حرب يونيو ١٩٦٧ : «إنه لمن الواضح بيننا أن لامكان فى هذا البلد للشعبين ، والحل الوحيد هو (أرض إسرائيل – L' Eretz — Israél) ، مع إسرائيل الغربية – على الأقل (إلى الغرب من نهر الأردن) ، بلا عرب ، ولا يوجد مخرج آخر سوى نقل العرب خارج البلاد ، إلى البلاد المجاورة» (١) .

ونحن نقتصر هنا على الأمثلة الأكثر تعبيرا عن هذا الإرهاب ، الذى يرى أن الغاية تبرر الوسائل:

– فقد أعلن اللورد موين ، وزير الدولة الإنجليزى ، بالقاهرة ، فى ٩ من يونيو ١٩٤٢م ، فى مجلس اللوردات أن اليهود لم يكونوا أحفاد العبرانيين القدماء ، وليس لهم شرعا أن يستردوا الأرض المقدسة . وقد كان نصيرا لتهدئة الهجرة إلى فلسطين ، فاتُّهِم حينئذ بأنه عدو عنيد للاستقلال العبرانى (٢) .

وفى ٦ من نوفمبر ١٩٤٤ م اغتيل فى القاهرة على يد عضوين فى مجموعة شتيرن .

وفى ١٧ من نوفمبر ١٩٤٤ م يعلن ونستون تشرشل رئيس الوزراء ، فى مجلس العموم تصريحه : «إذا كانت أحلامنا من أجل الصهيونية يجب أن تتلاشى فى دخان مسدسات القتلة ، وإذا كانت جهودنا من أجل مستقبلها قد أنتجت عصابة جديدة من قطاع الطرق الجديرين بالانتماء إلى ألمانيا النازية ، فإن هناك كثيرين ، مثلى ، سوف يعيدون النظر فى موقفهم الذى كان دائما موقفنا ، وإذا كان هناك أمل فى مستقبل سلمى للصهيونية فإن هذه النشاطات الملعونة يجب أن تتوقف ، كما يجب أن يُحَطَّمَ أولئك المسئولون عنها ، أن يبادوا ويعدموا» .

---

(١) جوزيف فيتز ، صحيفة تل أبيب ١٩٦٥ ، ذكره نوم تشوسكى : «يهود إسرائيل وعرب فلسطين . Israel — Jeus and Palestinian arabs in Holy cross quaterly – ايتى ١٩٧٢ ص ٩ .

(٢) إسحاق زار «إنقاذ وتحرير : نصيب أمريكا فى ميلاد إسرائيل – Rescue and lilberotian America's Part in the birth of Israel) نيويورك – بلوش ببلشنج س . ١٩٥٤ ص ١١٥ .

وبعد سنوات طوال، فى ٢ من يوليو ١٩٧٥ تكشف صحيفة «إيفننج ستار» دوكلاند – أن جثتى القاتلين اللذين أعدما، قد تم تبادلهما نظير عشرين مسجونا عربيا، كيما يدفنا فى «مقبرة الأبطال» بالقدس، ولقد أعربت الحكومة الإنجليزية عن أسفها لأن إسرائيل «تكرم القتلة» وتجعل منهم أبطالا.

فى ٢٢ من يوليو عام ١٩٤٦ م – وقع انفجار بجناح فندق الملك داود، بالقدس، حيث كانت تقيم القيادة العامة العسكرية، والحكومة الإنجليزية، وقد أودى الانفجار بحياة مائة شخص: إنجليزى، وعربى، ويهودى.

وكان هذا عملا من أعمال الأرجون بقيادة مناحم بيجن، الذى أعلن مسئوليته عنه.

إن من السهل أن نجد كثيرا من الأمثلة على هذا الإرهاب الذى صار الوسيلة الرئيسة للزعماء الصهاينة، لبلوغ أهدافهم. وقد قدم مناحم بيجن أوضح صياغة لهذا الاتجاه، المحارب والإرهابى، اتجاه الحرب الوقائية، فكتب يقول:

«نحن نقاتل، إذن نحن موجودون [١]، بالدم، والنار، والدموع، والدخان، وبنوع جديد من الإنسانية، نوع مجهول تماما للعالم، منذ أكثر من ألف وثمانمائة عام: اليهودى المحارب.

قبل كل شىء، يجب أن نبدأ الهجوم، سوف نهاجم القتلة. فمن الدم والعرق سوف يولد جيل فخور، كريم، قوى [٢]».

وفى مايو ١٩٤٢ م كان المنعطف الحاسم، منذ اجتماع لجنة الطوارىء للشئون الصهيونية، فى فندق بلتيمور، فى نيويورك.

---

(١) استعار بيجن صيغة عبارته هذه من العبارة الشهيرة «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، فجعل القتال فى فلسفته الصهيونية مقابل التفكير فى الرؤية الإنسانية. (المترجم).

(٢) مناحم بيجن: «التمرد – The Revolt» – قصة الأرجون.

وقد صودق على «برنامج بلتيمور» فى ٢٢ من مايو ١٩٤٥، من الوكالة اليهودية، ثم قدم إلى إنجلترا على أنه كلمة نهائية تحدد للمرة الأولى صراحة الأهداف التالية:

– لا «وطن قومى» فى فلسطين، بل دولة يهودية فى كل فلسطين، بجيشها الخاص بها.

– هجرة غير محدودة تهيمن عليها الوكالة اليهودية وحدها.

– سوف تخصص التعويضات الألمانية لبناء الدولة الصهيونية.

إن هذا تحول حقيقى فى الصهيونية، يمكن إدراكه على النحو التالى:

أولا: فمنذ مؤتمر بال عام ١٨٩٧م، وإعلان بلفور عام ١٩١٧م لم يكن معلنا سوى مسألة «وطن قومى يهودى» فى فلسطين. أما مسألة «دولة» مسيطرة على كل فلسطين فقد كان الزعماء الصهاينة يفكرون فيها دائما، ولكنهم لم يتحدثوا عنها أبدا، (على الأقل رسميا).

والهجرة اللا محدودة، تحت هيمنة الوكالة اليهودية وحدها – كانت تعنى إجازة عطلة لإنجلترا: لقد حاولت حقا أن تفى بوعودها فى إعلان بلفور، ومن خلال الحماية، وهى ترتب فى ظروف معينة حقوق «السكان غير اليهود». لقد صدر الكتاب الأبيض لمكدونالد، عام ١٩٣٩م – باطلا، وصارت إنجلترا خارج اللعبة. وكان ذلك سهلا منذ الحرب العالمية الثانية، التى تحملت فيها إنجلترا – فى الغرب – أثقل التضحيات، وخرجت منها مستنزفة الدم، مدنها رماد، وإمبراطوريتها مقوضة، ومن ثم اختار الزعماء الصهاينة فى بلتيمور حاميا لهم، أكثر قوة: الولايات المتحدة، التى كانت لها منذ ذلك الحين الهيمنة على العالم الغربى كله.

وأخيرا، فإن طلبهم ألاتدفع التعويضات الألمانية للضحايا اليهود، حيث ينبغى أن تكون، بل إلى دولة إسرائيل، يعنى أن الصهيونية هى الممثل الوحيد لليهود فى العالم، فى حين أنهم لم يكونوا – حتى ذلك الحين – سوى أقلية ضعيفة.

لقد أثار منعطف بلتيمور ، الذى سجل انطلاق سيطرة الصهيونية السياسية ، الأكثر قومية ، على جميع التنظيمات اليهودية الأخرى فى العالم ، بما فى ذلك الصهيونية الدينية العالمية - أثار هذا المنعطف بعض الاحتجاج .

ففى عام ١٩٣٨م كان ألبرت أينشتين قد أدان هذا الاتجاه ، وكتب :

« فى رأيى ، ربما كان أكثر معقولية أن نصل إلى اتفاق مع العرب على أساس حياة مشتركة سلمية ، من أن ننشىء دولة يهودية ... إن شعورى بالطبيعة الجوهرية لليهودية يصطدم بفكرة دولة يهودية ذات حدود ، وجيش ، ومشروع سلطة زمنية ، بهذا القدر من التواضع . وإنى لأخشى الخسائر الداخلية التى سوف تتعرض لها اليهودية بسبب من تطورها فى طبقتنا إلى قومية ضيقة ... فنحن لم نعد يهود مرحلة المكابيين . ولئن عدنا قومية ، بالمعنى السياسى للكلمة ، فذلك يعدل أن نحيد عن روحنة مجتمعنا التى ندين بها لعبقرية أنبيائنا » (١) .

ولقد أنشأ يهوذا ل . مجنس ، رئيس الجامعة العبرية بالقدس ، (منذ عام ١٩٢٦م) ، والفيلسوف اليهودى للحوار مارتن بوبر (١٨٧٨ - ١٩٦٥م) ، وهو صهيونى منذ اللحظة الأولى - أنشأ ، فى رد الفعل من جهتهما ضد اتجاه بلتيمور : تنظيم أحود - Ihud (اتحاد) ، من أجل دولة مزدوجة القومية فى فلسطين ، بين اليهود والعرب ، إذ كان يهوذا مجنس يرى أن « برنامج بلتيمور » قد يقود إلى الحرب ضد العرب . (٢) .

وصرح مارتن بوبر فى نيويورك بأن : « المشاعر التى أحس بها منذ ستين سنة عندما دخلت الحركة الصهيونية ، هى ما أُحِسُّ به اليوم أساسا .. فقد كنت آمل ألا تتبع هذه القومية طريق الآخرين - بدءا بأمل كبير - ومنتهية إلى

---

(١) موشى منوحم : « انهيار اليهودية فى عصرنا - The decadence of Judaism in our Time » ١٩٦٩ ص ٣٢٤ .

(٢) نورمان بن تويتش : « من أجل خاطر الصهيونية - Far Zion's Sake (سيرة يهوذا مجنس) فيلادلفيا - النشريات اليهودية للمجتمع الأمريكى ١٩٥٤ ص ٢٥٢ .

أن تصبح أنانية مقدسة « Egoisme sacré » ، حتى لتجرؤ على أن تستعلن كما فعل موسوليني حين اتخذ شعاراً له Sacro egoismo ، كأنما يمكن للأنانية الجماعية أن تكون أكثر قداسة من الأنانية الفردية .. إننا حين عدنا إلى فلسطين كان السؤال الملح هو : هل تريدون المجيء إلى هنا مجيء صديق ، أخ ، عضو فى مجتمع شعوب الشرق الأدنى ، أو مجيء من يمثلون الاستعمار والإمبريالية ؟ .

لقد قسم التناقض بين الغاية وبين وسائل بلوغها الصهيونيين فريقين : فريقا كان يريد أن يتلقى من القوى الكبرى امتيازات سياسية خاصة ، وآخر ، وبخاصة الشباب ، كانوا يريدون فقط أن يسمح لهم بالعمل فى فلسطين مع جيرانهم ، من أجل فلسطين ، ومن أجل المستقبل ...

فأما الرواد Chalutzim فقد جاءوا إلى فلسطين لأنهم لم يجدوا فى أى مكان سواها معنى لحياتهم ، أو كالا ... فلم يكن يعنيهم أن يقيموا دولة سياسية ، بل كانوا يريدون أن يبنوا مجتمعا إنسانيا جماعيا . لم يكن شيء ما جاهزا فى علاقاتنا مع العرب ، ولكن كان هناك بصفة عامة حسن جوار بين قرية يهودية وقرية عربية .

هذه المرحلة العضوية من الاستقرار فى فلسطين استغرقت حتى عهد هتلر .

وجاء هتلر فدفع بجموع من اليهود إلى فلسطين ، لم يكونوا صفوة من الناس جاءوا يقضون حياتهم ، ويعدون للمستقبل . وهكذا أعقبت النمو العضوى المنتقى هجرة جموع ، دفعتها الضرورة إلى البحث عن قوة سياسية توفر لها الأمان ... وقد فضلت أغلبية اليهود أن تتعلم من هتلر ، لا منا .. وقد أوضح هتلر أن التاريخ لايتبع طريق الروح ، بل طريق السلطة ، وأنه عندما يكون شعب ماقويا فإنه يستطيع أن يقتل دون أن يناله عقاب ... وتلك هى الحال التى كان علينا أن نصارعها ..... فاقترحنا فى جماعة أحود .. ألا يكتفى اليهود والعرب بأن يتعايشوا ، بل لابد أن يتعاونوا .. فلعل هذا ، يجعل تنمية الشرق الأدنى الاقتصادية أمرا ممكنا ، وبذلك يكون بوسع الشرق أن يقدم لمستقبل الإنسانية إسهاما كبيرا ، وجوهريا » (١) .

---

(١) مارتن بوبر : « نص هذه الخطبة كاملة فى « جوّيش ينوزلتر – Jeuish Newsletter » عدد ٢ من يونيو ١٩٥٨ .

وكتب البروفسور يهوذا مجنس الذى عاش فى فلسطين منذ عام ١٩٢٤م ، حيث جاء ليعيش صهيونية دينية : «إن أكثر مايقلقنى هو عدم وجود أى اقتراح بناء حول الطريقة التى يمكن بها للنزاع أن يُحَلَّ بين الشعبين دون حرب ، ..... إن لدى اليهود كثيرا من الأسباب التى تدفعهم إلى أن يطلبوا العدالة من العالم .... أما أنا فلست مستعدا أن أنصف اليهود بظلم العرب ، ووضعهم تحت شريعة اليهود «دون موافقتهم . فإذا لم أكن مع القول بدولة يهودية فذلك للسبب الذى قلته : لست أريد حربا مع العالم العربى (١) .

ويضيف يهوذا مجنس ، وهو برغم ذلك صهيونى من أول لحظة : «هل اليهود هنا (فى فلسطين) فى جهودهم من أجل إنشاء كيان سياسى سيصيرون مشدودين إلى القوة الغاشمة ، وإلى النزعة العسكرية ، كما كان بعض متأخرى العصمونيين ؟ يبدو أننا قد فكرنا فى كل شىء ماعدا العرب» (٢) .

ولقد خطب فى الجامعة العبرية بالقدس ، حيث كان رئيسها منذ عام ١٩٢٦م ، وكانت خطبته لدى العودة عام ١٩٤٦م ، خطبة افتتاح موجزة ، قال فيها : «إن الطريقة اليهودية الجديدة تتكلم بفم البندقية ... تلكم هى التوراة الجديدة لأرض إسرائيل ، لقد استُدْرِجَ العالم إلى جنون القوة المادية ، فلتحفظنا السماء من أن نكبِّل الآن اليهوديةَ وشعبَ إسرائيل إلى هذه القوة ، فهذه يهودية ملحدة غزت قسما كبيرا من يهود الشتات الأقوياء ... ولقد كنا نظن فى زمن الصهيونية الرومانسية أن صهيون يجب أن تعود إلى منهج الاستقامة . إن جميع يهود أمريكا يتحملون مسئولية هذه الغلطة ، وهذا التحول .... حتى أولئك الذين ليسوا على وفاق مع التصرفات الرديئة للقيادة الإلحادية ، ولكنهم يبقون فى أماكنهم ، مكتوفى الأيدى ، فإن تخدير المعنى الأخلاقى يؤدى إلى الضمور والهزال» (٣) .

---

(١) نورمان بن تويتش : «من أجل خاطر الصهيونية – For Zion's sake (سيرة يهوذا مجنس) فيلادلفيا – النشريات اليهودية للمجتمع الأمريكى – ١٩٥٤ ص ١٨٨ .

(٢) السابق ص ١٣١ .

(٣) بن تويتش : السابق . ص ٢٤٠ – ٢٤٢ .

ومع ذلك فقد كانت بالولايات المتحدة أقلية بين الربانيين واليهود العلمانيين ، حاولت أن تقاوم .

ففى ٣١ من أغسطس عام ١٩٤٣ م اجتمع اثنان وتسعون ربانيا ، فى أتلانتيك سيتى ، فى محاولة لعرقلة تيار الشوفينية الصهيونية ، التى عبر عنها برنامج بلتيمور ، فأخرجوا منشورا (منيفستو) يعرض مبادئهم ، وكان من قولهم : «لقد حان الوقت الذى يجب علينا فيه أن نصرخ : قف مكانك !! إن تهيئة اليهود الأمريكيين لرفع علم يهودى ، ولتكوين جيش يهودى ، ودولة فى فلسطين ، وجنسية مزدوجة فى أمريكا - هو أكثر مما نستطيع قبوله . لقد لاحظنا بقلق وحزن شديدين العلمنة المتزايدة لحياة اليهود الأمريكيين ، وامتصاص كثير منهم فى الصراع القومى اليهودى .... ويزعم المتطرفون أنهم يتكلمون باسم جميع اليهود الأمريكيين ، وهناك جهود تبذل من أجل زرع الخلاف وتنميته بين اليهود ومواطنيهم الأمريكيين .... وجعل ديننا أساسا من الدرجة الثانية للحياة اليهودية ، إننا لانستطيع أن نتفق مع مجتمع أصبحت القومية فيه عقيدة مفروضة ... إننا لانستطيع أن نسهم فى التوجيه السياسى الذى يسيطر على البرنامج الصهيونى الحالى ، ولانؤيده ، وذلك على هدى مفهومنا العالمى لتاريخ المصير اليهودى ، ولأننا مهتمون بوضع اليهود ، وأمنهم ، فى الأجزاء الأخرى من العالم . ونحن نعتقد أن القومية اليهودية تعمل على خلق الحيرة والغموض لدى رفاقنا ، حول مكانهم ، ووظيفتهم فى المجتمع ، وتحويل انتباههم عن دورهم التاريخى ، وهو : أن يعيشوا فى مجتمع دينى أينما كانوا» .

وقد اقترح «المجلس الأمريكى لليهودية» حلا ماديا لمشكلة «الأشخاص المهجرين» (كما يوصفون فيما بعد) ، فقال : «إننا نطلب من الأمم المتحدة أن تؤمّن - بالأحرى - إعادة ترحيل جميع الشعوب التى انتزعت من جذورها فى أوطانها ، على يد قوى المحور ... وأن تجد لهم ملاجىء لإيوائهم ، أية كانت معتقداتهم ، أو أفكارهم السياسية ، أو أصولهم القومية ، أما إخواننا اليهود ، فنحن نطلب لهم فقط : المساواة فى الحقوق وفى الواجبات مع مواطنيهم من كل أمة ... إننا نعترض على إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، أو فى أى مكان آخر، فتلك فلسفة انهزامية ، لاتقدم حلا عمليا للمشكلة اليهودية ....

إن فلسطين جزء من التراث الدينى لإسرائيل ، كما أنها جزء من تراث الدينَيْن الآخرين ، ونحن نرجو أن تقوم فى فلسطين حكومة ديموقراطية ، مستقلة ، يمثّل فيها كل من اليهود ، والمسيحيين ، والمسلمين تمثيلا عادلا .

إننا نحث كل يهود العالم على تأييد تفسيرنا للحياة اليهودية وهدفها ، حتى نصون التقاليد العليا لإيماننا ، ونحن نعتقد أن هذه الحقائق تصلح أساسا لأى برنامج يوضع من أجل مستقبل حافل بالأمل ، يقدمه رجال أحرار» [١] .

بيد أن آلة التنظيم الصهيونى الرهيبة كنست كل ماتصدى من مقاومة للموجة القومية ، ونجحت فى أن تكسب إلى صفها ٨١٨ ربانيا من ربانيى أمريكا أصدروا إعلانا ، فى مواجهة الاحتجاج الدينى الذى تبناه الربانيون الاثنان والتسعون ، وكان الإعلان ينكر أشد البداهات وضوحا وهو يقول : «إن الصهيونية ليست حركة عَلْمَانية .» [٢] .

كيف كان ممكنا أن يحدث تحول من هذا القبيل ؟ . لسوف يكون هذا التحول غامضا مبهما إذا مافصل عن السياق التاريخى للاضطهاد الهتلرى الشيطانى لليهود ، وعن استغلال هذه النزعة المعادية للسامية من قِبَل الصهيونية ، لامن أجل الدفاع عن الحقوق الإنسانية ، بل من أجل إنشاء دولة صهيونية قوية .

إن عملنا إذن أن نحلل هنا العلاقات بين الصهيونية ومعاداة السامية .

* * *

---

(١) صمويل هلبرين «العالم السياسى للصهيونية الأمريكية – The Political world of American Sionism» – مطابع جامعة واين ستيت ، ديتروا ، ١٩٦١ ، ص ٨٤ و ٨٥ .

(٢) السابق : الملحق ، «ونذكر منه : Cl . S . P . 255 تعريف الصهيونية ، من موسوعة الصهيونية وإسرائيل : Eencyclopoedia of Zionism and Israél وهو يقول : «منذ عام ١٨٩٦ تقوم الصهيونية على حركة سياسية أسسها تيودور هرتزل» (جـ ٢ صـ ١٢٦٢) مطابع هرتزل – نيورك ١٩٧١ .

٢ - الصهيونية ومعاداة السامية

أ - هرتزل ومعاداة السامية ، باعتبارها قوة محركة للحركة .

حدد هرتزل فى مقدمة كتابه «الدولة اليهودية» عام ١٨٩٦ م - بكل وضوح : على أية قوة سوف يعتمد فى تحقيق مشروعه ، للكفاح ضد «دمج» اليهود فى بلادهم الخاصة ، وللهجرة إلى فلسطين .

وكتب يقول : «هذا المشروع ينطوى على استخدام قوة محركة موجودة فى الواقع ... كل شىء يجرى على القوة المحركة . فما هذه القوة ؟ إنها محنة اليهود» (١) .

لقد كان يعرف جيدا أن القوة المحركة إلى العودة ليست نوعا من الحنين الروحى ، فيما تصوره عبارة : (إلى أورشليم فى العام القادم) (٢) .

وإنما هى الاضطهادات المعادية للسامية ، التى تدفع اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين ، دون إكراه . والتاريخ كله يشهد بذلك . ففى العصور التى كانت فلسطين خلالها مفتوحة لهم لم يُظهِر يهود العالم كله مطلقا رغبتَهم فى المجىء للاستقرار فيها : مثلا إبان الحروب الصليبية لم تكن هنالك أية عقبة أمام دخول اليهود ، ومع ذلك إن حاجا يهوديا هو بنيامين دوتُوليد ، لم يجد سوى ١٤٤٠ يهوديا فى فلسطين . كانت الحروب الصليبية وحشية ، ولكن منذ استولى صلاح الدين على القدس أصلح المعابد ، وفتح فلسطين لليهود . وفى عام ١١٨٧ م لم يفد عليها أى مسافر .

---

(١) تيودور هرتزل : الدولة اليهودية (O.C.) ص ١١ .

(٢) هذه عبارة تتبادل فى التحية تفاؤلا مثل قول العامة : (السنة الجاية عند النبى) . (المترجم) .

وحاج آخر يهودى ، هو ناحوم جيروندى ، حج عام ١٢٥٧ م فلم يجد سوى أسرتين يهوديتين فى القدس ، وبقيت القدس بالنسبة إلى اليهود الأتقياء رمزا لإيمانهم، كما هى عند النصارى (القدس السماوية فى الكاتدرائيات القوطية) ، بالمعنى الذى كتبه بيير أبيلارد Pierre Abelard فى القرن الثالث عشر :

«الحق أن أورشليم هى مدينة
هذا السلام ، وهذا النعيم العلوى ،
الذى لايتقدم فيه الواقع على الرغبة ،
وحيث تكون الرغبة هى الجزاء»[١] .

فهى فى أفضل الحالات مكان الحج ، إلى «أرض مقدسة» ، كما هى فى نظر المسيحيين .

وحتى فى فترات الاضطهاد ، وعندما كان الوصول إلى فلسطين غير مقيد ، كان اليهود يتركون بلد محنتهم ، ويلجأون خارجه ، مثلا : عندما طرد العرب من إسبانيا ، عام ١٤٩٢ م كان «الملوك الكاثوليك» يطردون اليهود ، أو يكرهونهم على التحول إلى النصرانية ، أو يذبحونهم ، تماما كما فعلوا بالمسلمين . وقد نتج عن ذلك هجرة جموع من اليهود ، فهاجرت الأغلبية الساحقة ، إمّا نحو الشمال ، إلى فرنسا ، وهولندا ، وإيطاليا ، حتى وصلت إلى البلقان ، وإمّا نحو الجنوب ، إلى مراكش فى المغرب ، وإلى قبرص ، ومصر ، ولكن عددا قليلا منهم استقر فى فلسطين ، قريبا جدا من البلقان ، ومن قبرص ، ومن مصر ، حيث استقروا .

وكذلك الحال إبان المذابح الوحشية على يد بوجدان خميلينتزتى Bogdan Khmielnitzty، فى أوكرانيا ، عام ١٦٥٨ م ، مع أنه فى عام ١٨٤٥ م ، حين كان عدد اليهود فى العالم عشرة ملايين ، وهم يرددون كل يوم دعاءهم العجيب : «إلى أورشليم فى العام القادم» – لم يكن بفلسطين سوى ١٢,٠٠٠ ألفا من اليهود المقيمين .

---

(١) هكذا جاءت عبارته مقسمة على أسطر .

(المترجم) .

وكذلك الحال إلى أيامنا هذه: فبعد تحرير الجزائر، عام ١٩٦٤ م، غادرها اليهود كما غادرها الفرنسيون الآخرون، فجاءوا إلى فرنسا، ولم يذهبوا إلى إسرائيل، رغم جهود الإسرائيليين، الذين أنشأوا وكالة من أجل «العودة»، وظلوا يذكرونهم بها، فلم يأتهم زبون واحد !!

وحتى بعد الحملات المدوية التى شنها هرتزل على الوحدة العالمية «للشعب اليهودى»، بعد أن أكد فى كتابه «الدولة اليهودية» على القدرة الحاشدة التى تتضمنها الدعوة إلى فلسطين، وقال: «هذا الاسم وحده سوف يكون صرخة تجميع تؤثر بقوة على شعبنا». بل حتى بعد الصيحات المعبرة عن الانتصار، عقب إعلان بلفور – لم يفد إلى فلسطين للإقامة بها خلال السنوات الخمس التالية، مابين (١٩١٧ – ١٩٢٢م) سوى ٢٨,٠٠٠ ألف يهودى فحسب.

ويبقى «المحرك» الحقيقى هو معاداة السامية، وكانت الموجة الأولى للعودة (ألياه – alyah) مابين ١٨٧١ و ١٨٩٠ إثر المذابح الأولى فى روسيا.

وكانت الموجة الثانية (من ١٩٠٣ – ١٩١٤م)، وقد بدأت مع مذابح كيشنيف عام ١٩٠٣م. ولكن الحركة تسارعت بخاصة مع نزعة معاداة السامية النازية، (ومع ذلك كانت بطيئة، لأن الهجرة اتجهت أكثر إلى البلاد الغربية، برغم قيود قوانينها، منها إلى فلسطين، التى جاء إليها من ألمانيا ٣٠,٠٠٠ ألفا فقط عام ١٩٣٣م، و ٤٥,٠٠٠ ألفا عام ١٩٣٤، و ٦٢,٠٠٠ ألفا عام ١٩٣٥م).

وحين لم يكن اليهود مضطهدين، فإنهم لم يشعروا قط بحاجتهم إلى مغادرة بلادهم للذهاب إلى فلسطين.

والمثال الأمريكي معبر عن هذا تماما: فإن من بين خمسة ملايين ونصف مليون من اليهود الأمريكيين لم يهاجر إلى إسرائيل فى الفترة من ١٩٤٨م إلى ١٩٦٥ م سوى عشرة آلاف يهودى فقط (أى: أقل من اثنين فى الألف).

ثم انقلب التيار أيضا، فهناك مالايحصى من الإسرائيليين الذين يذهبون للاستقرار فى أمريكا، وهم أكثر ممن يذهب من الأمريكيين للاستقرار فى إسرائيل.

فعلى حين أن عشرة آلاف من اليهود الأمريكيين ذهبوا للعيش فى إسرائيل خلال سبعة عشر عاما ، فإن خمسة آلاف غادروا إسرائيل إلى الولايات المتحدة فى عام واحد .

«وفى عام ١٩٦١ م سجلت القنصلية الإسرائيلية فى نيويورك ٣,٩٣٥ طلبا لإسرائيليين قرروا النزوح نهائيا ، منهم ٢٤٤١ إلى الولايات المتحدة . والعدد الواقعى للنازحين إلى قارة أمريكا الشمالية مرتفع ، إذ إنه فى نفس السنة أعلنت كندا أن أكثر من ثلاثة آلاف إسرائيلى التمسوا الجنسية الكندية . بل إن كثيرين من يهود (الصابرا) لايعلنون رسميا ، وهم يغادرون إسرائيل ، نيتهم على النزوح ، فهم يجيئون إلى الولايات المتحدة ، بعضهم دارسا ، وآخرون فى مهمة رسمية ، أو خاصة ، ثم يبقون فيها ، وفريق ثالث أيضا . يفدون سياحا ، ثم يتزوجون فيها» [١] .

وقد قدم عالم الاجتماع الأمريكى ، إريك روزنتال ، أرقاما محددة : ففى الجيل الثالث ، فى واشنطن ، كان عدد الزيجات المختلطة قد تضاعف ، منتقلا من ١٧ ٪ إلى ٣٧ ٪ . [٢]

وفى صحيفة «جيروزاليم بوست» ، عدد ٢٢ من مايو عام ١٩٦٤ م ، ثم عدد يونيو – ثارت مناقشة حامية على إثر مقال كان عنوانه يلخص الوضع : «الإسرائيليون فى الولايات المتحدة ضاعوا من أجل إسرائيل» .

لقد كان هذا واضح الرؤية مسبقا ، فى منظور هرتزل حين قال : «إنهم بمجرد أن يمسكوا عن تحديد اليهودية بالإيمان ، ويحددوها باعتبارها قومية ،

---

(١) جورج فريدمان «نهاية الشعب اليهودى – Fin du Peuple Luif » – جاليمار ١٩٦٥ ص ٢٧٥ .

(٢) إريك روزنتال : الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى – American Jeuish Yearbook .

فإنهم لن يُعوِّلوا بعد ذلك على الدوافع الدينية (التى رأينا أنها قليلا ماكانت «محركا» ، لأن هذا المفهوم «المادى» لأورشليم كان ضد التقليد اليهودى السامى ، الذى تهيمن عليه فكرة طاعة الرب ، القائلة بأن : التوراة هى وطننا» .

فلم يبق إذن أمام هرتزل إلا أن يمجد «قومية فوق القومية — Nationalisme extranational» ، تصور اليهود على أنهم أجانب فى البلاد التى يعيشون فيها (وهو مايعطى خير عنصر للنزعة المعادية للسامية ، حتى كأن هذه النزعة ، بالتبادل مع القومية ، هى خير مثير يحرك اليهود إلى الهجرة) .

ولقد رأينا من قبل ، فى رسالة بلف ، وفى استعمال هرتزل — هذه التكاملية ، وذلك التواطؤ بين الصهيونية ومعاداة السامية .

وهرتزل نفسه لم يجعل من ذلك سرا ، فهو يعرف جيدا أين يحرك مسلماته الثلاث التى ترى :

١ — أن اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وفى أى بلد أقاموا ، لايكونون جماعة دينية ، بل «شعبا» ، وهو يقول غالبا فى كتابه : «الدولة اليهودية» : «جنسا» (انظر ٢٠ و ٢٥ و ١١٢ .. الخ) .

٢ — ولقد كانوا عرضة للاضطهاد فى كل زمان ، وفى كل مكان .

٣ — وهم أجسام غريبة لايمكن دمجها فى الأمم التى يعيشون فيها ، (وهذه مسلمة مشتركة بين جميع القوميين ، والعنصريين ، والمعادين للسامية .) .

وهو فى كتابه «الدولة اليهودية» (ص ٢٣) يدرك إدراكا كاملا هذا الترابط بين الصهيونية ومعاداة السامية ، فيقول : «هناك اعتراض جاد يعمد إلى القول بأننا حين نعتبر شعبا واحدا ، فإننى أساعد المعادين للسامية ، حين أمنع دمج اليهود ، وهو اعتراض يثار بخاصة فى فرنسا» ... ثم يعقب على ذلك بقوله : «إذا كان اليهود الفرنسيون يحتجون ضد المشروع ... فإن إجابتى بسيطة ... هذا الدواء ليس لهم ، فهم هنالك فرنسيون إسرائيلون ، وكفى ، على حين أن هذا شأن ذاخلى من شئون اليهود» . (السابق ص ٢٤) .

أما هرتزل فى « صحيفته » (التى لم تكن مخصصة « للعامة » ككتابه : « الدولة اليهودية ») - فهو أعظم وقاحة وصلفا ، إنه فى باريس ، فى ١٦ من نوفمبر ١٨٩٥ م يلخص حديثه مع الربانى الكبير زادوك كاهين هكذا : « هو أيضا يدعى أنه صهيونى ، بيد أن « الوطنية » الفرنسية لها مقتضياتها أيضا ، نعم ، إن أى إنسان يجب أن يختار ، فإما صهيون ، وإما فرنسا » [١] .

وهو يحدد لمحدث ألمانى ، هو سبيدل Speidel، منذ عام ١٨٩٥ م قوله : « أنا أفهم معاداة السامية ، نحن ، اليهود ، ظللنا ، حتى ولم يكن الخطأ خطأنا ، جسما غريبا فى مختلف الأمم » [٢] « إننى أقول للقيصر ، دعوا شعبنا يرحل ، فنحن غرباء » [٣] .

وهو يقول هذه العبارة الواضحة : « سوف يصبح المعادون للسامية أصدقاءنا الخلص ، وسوف تصبح البلاد المعادية للسامية حلفاءنا . » [٤] .

وهذا هو ماحدث فى الواقع ، فلقد حققت الصهيونية أحلام جميع المعادين للسامية : طردَ اليهود ، وإيداعَهم جميعا فى منفى عالمى للمنبوذين Ghetto Mondial[٥] .

لقد أنذر رئيس البرلمان النمسوى ، البارون جوهان فون كلوسكى هرتزل ، بقوله : « إذا كانت نيتكم ، وهدفكم من دعايتكم هو أن تثيروا معاداة السامية فإنكم تستطيعون أن تبلغوا هذا الهدف ، وإنى لمقتنع تماما بأن دعاية من هذا القبيل تزيد معاداة السامية ، وأنكم تقودون اليهود إلى مذبحة » فأجابه هرتزل : « لست أعنى بحال سوى أن الصهيونيين يعملون ، ويستطيعون أن يعملوا فى وفاق مع المعادين للسامية » .

---

(١) « يوميات » هرتزل - السابق ص ٧٣ .

(٢) السابق ص ٩ .　　(٣) السابق ص ١٩ .

(٤) اليوميات الكاملة (بتاى - Patay O. C) ، جـ ١ ص ٨٤ .

(٥) يقصد إسرائيل ، وهى كذلك إلى يوم يعود الإسلام إلى فلسطين وهى نبوءة القرآن : « فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » . (المترجم) .

ومع ذلك تلقى المعادون للسامية هذه النظريات الصهيونية بحماس بالغ .

فعندما قدم هرتزل مخططه للدوق دوباد الأكبر ذكر فى صحيفته (فى ٢٣ من إبريل ١٨٩٦ م) أن : «التحفظ الوحيد يأتى من أنه يخشى ، وهو يؤيد قضيتنا – أن يتهموه بمعاداة السامية» [١] .

وفى مقابل ذلك كان تلقى المعادين للسامية لرأيه حماسيا ، ويذكر هرتزل فى ٣ من فبراير ١٨٩٦ م رد الفعل لدى ناشرَىْ كتابه فيقول : «ربما كانا من المعادين للسامية ، ولكنهما تلقيانى بقلب صاف ، وأحبا كتابى» [٢] .

وفى ٢٦ من فبراير ١٨٩٦م يبين أن «صحيفة وستن جاريشر جرينزبوت Westun garisher Grenzbote – نشرت مقالا افتتاحيا عن كتابه ، بتوقيع النائب المعادى للسامية سيمونيى Simonyi وقد عالجه علاجا طيبا جدا [٣] .

لقد مضى هرتزل فى كراهيته لأى إنسان يدعى تعريف اليهودية على أنها دين ، لاقومية – إلى حد أن اعتبر من باب الشذوذ أن يعظ ربانىٌّ بالإيمان يهودياً خارج بلده الأصلى ، وهو يستخدم فى ذلك براهين لايقول بها إلا شِرارُ المعادين للسامية ، فهو يقول : إن البطل الرئيس للوطنية البريطانية ، هو ربانى لندن الكبير م . أدلر ، ألمانىٌّ ، وإن الدروس عن الوطنية البروسية قد تلقاها الناس عن الربانى الدكتور ماكسيوم دو برلين ، هنغارى ، وفى العصر الحديث اشترك ربانى بروكسل فى الاحتجاج باعتباره بلجيكيا ، وهو السيد بلوش ، ولو حكمنا عليه باسمه ، لوجدنا أنه ليس فلمنكيا ، ولا ولونيا [٤] » .

وأماعن إعلان بلفور ، فإن العضو اليهودى الوحيد فى الحكومة البريطانية ، وهو اللورد مونتاجو – وجه إلى زملائه فى الوزارة ، فى ٢٣ من أغسطس

---

(١) يوميات – لوينثال ص ١٠٨ .

(٢) السابق ص ٩١ .   (٣) السابق ص ١٠١ .

(٤) خطبة هرتزل فى مؤتمر بال ١٨٩٧ فى Zionist Schriften برلين ١٩٢٠ ص ١٥٤ .

١٩١٧ م ، مذكرة بعنوان : «معاداة السامية فى الحكومة الحالية» ، وفيها قال على الأخص : «أنا لست أذهب إلى أن الحكومة معادية للسامية عن عمد ، ولكنى أريد أن أحدد أن سياسة حكومة صاحب الجلالة معادية للسامية بنتائجها ، وأنها سوف تقدم برنامج تجميع للمعادين للسامية فى العالم أجمع ...

إن الصهيونية هى فى نظرى دائما عقيدة سياسية مشئومة ، مرفوضة من المواطن الوطنى فى المملكة المتحدة . ولو أن يهوديا انجليزيا استدار ببصره نحو جبل الزيتون ، وحلم باليوم الذى ينفض فيه عن حذائه غبار التراب البريطانى ، فقد رضى – فى رأيى – أهدافا متعارضة مع المواطنة البريطانية .. ولقد فهمت دائما أن أولئك الذين يجتمعون إلى هذه العقيدة كانوا مدفوعين برفض الحريات المعروضة على يهود روسيا ، .... ولكن يبدو لى غير معقول أن تتلقى الصهيونية من الحكومة البريطانية اعترافا رسميا ، وأن تكون للسيد بلفور سلطة أن يقول : إن «وطنا قوميا يهوديا» سوف يقام فى فلسطين . لست أدرى ماسوف يترتب على هذا ، ولكن يبدو لى أن ذلك يعنى أن المسلمين والنصارى يجب أن يتخلوا عن مكانهم لليهود ، وأن اليهود يتمتعون بوضع متميز . بحيث إن الترك ، والمسلمين الآخرين فى فلسطين سوف يعدون غرباء .

وإنى أؤكد أنه لاتوجد قومية يهودية .... وليس قولنا : إن يهوديا إنجليزيا ويهوديا مراكشيا هما من نفس القومية – بأصدق من قولنا : إن مسيحيا إنجليزيا ومسيحيا فرنسيا هما من نفس القوم ، ونفس الجنس ...

وأنا أزعم أن الحياة التى عاشها اليهود الإنجليز ، والغايات التى توخوها ، والدور الذى أدوه فى حياتنا العامة ، وفى مؤسساتنا – قد منحهم ذلك كله حق أن يُعْتَبَروا ، لايهودا إنجليزاً ، بل إنجليزا ذوى ديانة إسرائيلية . إننى أرفض الصهيونية صراحة ، وأطالب بأن ترفضوا الصهيونية باعتبارها نظاما غير مشروع ، ومضاداً للصالح القومى ... إننى أنكر أن يوجد اليوم أى رباط بين اليهود وفلسطين ، ومن الحق الصراح أن لفلسطين دورا كبيرا فى التاريخ اليهودى ، ولكن الأمر كذلك أيضا بالنسبة إلى التاريخ الإسلامى ، وبعد العصر اليهودى لعبت فلسطين دورا أكثر من أى بلد آخر فى التاريخ المسيحى .

كان المعبد فى فلسطين ، ولكن كان أيضا القسم على الجبل ، والصلب ، وإنى لحريص على أن أقول للورد روتشيلد : إن الحكومة يجب أن تفعل كل مافى وسعها لتؤمن لليهود الحرية الكاملة ، للاستقرار فى فلسطين ، وليعيشوا فيها على قدم المساواة مع سكان هذا البلد ، **الذين يعتنقون عقائد دينية** أخرى . وأطالب الحكومة ألا تذهب إلى أبعد من هذا [1] » .

ولكن هرتزل كان منذ بداية حركة الصهيونية السياسية – قد قرر أن يذهب إلى ماهو أبعد ، معتمدا على معاداة السامية .

وأول عقبة قهرها تيودور هرتزل هى معارضة الأغلبية الساحقة من اليهود لمشروعه ، فكان ينبغى أن يكون هدفه الأول إذن : غزو المجتمعات ، وكان يقول : « إننى أدير شئون اليهود دون أن أكون موكلا فى إدارتها ، ومع ذلك أظل مسئولا أمامهم عما أفعل » [2] .

وكان التنظيم الذى أعده بالضرورة كثير التدرج ، إذ كان يريد أن يرضى جمهرة من اليهود الذين يرفضون أهدافه ، وتكتيكه ، وكان التنظيم تنظيما **عسكريا للشباب** ، وفيه يقول : « يجب أن أستدرج الشباب ليكونوا جنودا ، وأنشىء جيشا محترفا تمام الاحتراف ، وأربيه على أغنيات وطنية ، هى تقاليد المكابيين .... الخ .... [3] .

وكان على هرتزل ، فى مواجهة آلاف اليهود الذى كانوا يكافحون حتى يمحوا آخر آثار التفرقة العنصرية ، بأن يحققوا الاندماج فى بلادهم الخاصة ، مع

---

(١) إدون مونتاجو : حلسة رقم ٢ أ / ٢٤ فى ١٣ من أغسطس ١٩١٧ .

(٢) اليوميات الكاملة (تباى) – مجلد ١ ، ص ٤٨ ، وفى يوميات مروين لوينثال (O.C.) ص ٣٧ (٧ من يونيو ١٨٩٥) .

(٣) يوميات (لوينثال) (O.C.) ص ٣٦ ، وهو يضيف : إن المغاربين سوف يكونون جند يهوذا ، إنهم أروع الرجال فى الفروسية » – السابق ص ٤٨ .

احترام إيمانهم الدينى ، وثقافتهم ، وطريقتهم فى الحياة – كان على هرتزل أن يفرض توجيها مخالفا تماما لهذا التوجيه ، وهو : أن يعتبروا أنفسهم غرباء فى الأمم التى هم فيها مواطنون ، وأن يتجمعوا فى مُنْتَبَذٍ عالمى .

ولكى يحقق هرتزل هذا الجزء الأول من مهمته ، وهو غزو المجتمعات – فقد تخيل – إذن – تنظيما يقوم على الصفوة ، يضم كثيرا من المراحل ، بحيث ، لايمكن أن يكشف المشروع إلا بوساطة المرحلة . (١) .

فجعل على قمة التدرج « مجلس الأسرة » الذى ينبغى أن يعرف منذ البداية مجمل خطته . وفى الدرجة الثانية وضع صفوة المراكز اليهودية المختلفة فى أنحاء العالم ، وهم الذين يحق لهم ، تحت خاتم السر ، أن يحيطوا بموجز للخطوط العريضة فى النظام ، ثم تكلف هذه المجموعات حينئذ باختيار درجة ثالثة ، يكشف لها عن خطة الهجرة المنظمة ، دون أن يذكر لها مسألة إنشاء الدولة ، أما فيما يتعلق بالمجاميع اليهودية فقد كان يجرى أسلوب معالجتها بهذا التدرج القائم على الصفوة ، حتى إذا وصلت إلى أراضى الدولة المستقبلة نظمت إلى أفواج عمل ، ذات إيحاء عسكرى قومى (٢) .

وجميع الشباب يجب أن ينظموا طبقا لنموذج عسكرى ، وأفواج عمل ، ووحدات جيش ، لقهر مقاومة أبناء البلد الأصليين ، وبذلك يحتلون الأرض طبقا لنظام وترتيب .

وهناك مندوبون خصوصيون سوف « يكلفون بمهمات خطرة تتطلبها الدولة ، أكان ذلك حَقْنًا ضد الكوليرا ، أو جهادا ضد عدو قومى ، سواء ، وبهذه الطريقة تهبط الخسائر التى يحتملها صراع من هذا القبيل إلى الحد الأدنى ، ونحصل منه على مكاسب هائلة . (٣) .

---

(١) اليوميات الكاملة لتيودور هرتزل جـ ١ ص ٤٢ .

(٢) السابق ج ١ ص ٣٨ .

(٣) السابق ج ١ ص ٥٠ ، وهو يضيف (فى ج ١ ص ٣٨) : « كان علىّ خلال العشرين سنة التى سوف تسبق نمو المشروع أن أجذب شبابنا ليصبحوا جنوداً

ومات هرتزل فى يوليو ١٩٠٤ م ، وفى أكتوبر من نفس السنة نشرت صحيفة (جويش كارترلى ريفيو) نتائج تحقيق عميق ، قام به العالم اليهودى الإنجليزى لوسيان وولف – عن معاداة السامية والصهيونية: أسبابهما ، وعلاقاتهما ، والمغزى الذى يهم المجتمعات اليهودية المحررة فى أوربا الغربية ، والتى لم تحرر بعد فى أوربا الشرقية ، (رومانيا ، وروسيا) .

فأما عن معاداة السامية فى بلاد التحرير فقد لاحظ وولف: «أن دلائل زوال معاداة السامية المنظمة حين قيست فى ضوء تمثيلها البرلمانى – كانت جد واضحة ، وذلك رغم أن مشكلة الدمج تضع فى طريقها بعض العقبات» .

ولكن الدعاية الصهيونية كما يرى وولف: «سوف تعيد الحياة قطعا للإثارة المعادية للسامية ، والتى تسير من ناحية أخرى وراء قيادة هابطة» .

ثم يختم وولف حديثه بقوله:

«وموجز القول أن خطر الصهيونية الأكبر هو أنها حليف طبيعى ، ودائم لمعاداة السامية ، وأنها مبررها الأقوى» .

هذه التنبؤات لم تلبث أن تأكدت ، لأن كتاب هرتزل «الدولة اليهودية – L'etat Juif» عام ١٨٩٦ ، ومؤتمر بال ، عام ١٨٩٧ م كانا يقدمان إلى المعادين للسامية فرصة شن حملة لامثيل لها .

لقد اهتم البوليس الروسى بخاصة بمؤتمر بال ، لأن أكثر من ثلث المشاركين فيه جاءوا من إمبراطورية القيصر ، وقد قدم مدير البوليس أ . لوبوخين A . Lopoukhine لحكومته تقريرا ضخما عن المؤتمر ، بعد أن بث عملاءه فى أروقته .

كانت النظرية المحورية لدى هرتزل هى: نحن شعب ، وكانت المساعى الدبلوماسية التى ضاعفها فى كل أنحاء أوربا ، تستهدف أن يقدم لكل حكومة الوعود التى قد تغريها بتنظيم يكون على المستوى الدولى ، لغزو فلسطين ، وكان القرار الثابت للمؤتمر أن ينشىء فى كل بلد شبكة دعائية ، وتنظيما لتنمية القومية اليهودية ، وتوحيدها على المستوى العالمى ، وكل هذا كان يقدم

للمعادين للسامية الحجج الضرورية ، حتى يصرخوا بأن «مؤامرة دولية» يتم تنظيمها .

وبقى أن تقدم حبكة درامية للقضية ، حتى يتم خلق ذهانٍ معادٍ لليهود فى الرأى العام ، وهذا هو ماتحقق اختلاقا على إثر مؤتمر بال ، بوثيقة مزورة ، لم يكن لها فى البداية صدى كبير ، فقد تدوولت أولا فى ترجمة مطبوعة بالبلوظة ، عام ١٨٩٧ م ، بالروسية ، تحت عنوان : «البروتوكولات القديمة والحديثة لاجتماعات حكماء صهيون» ، ثم طبعت للمرة الأولى عام ١٩٠٣ م ، فى سان بطرسبورج ، فى عددى ٢٨ من أغسطس ، و٧ من سبتمبر عام ١٩٠٣ م ، من مجلة «زنميا ZNAMIA» أو (الراية) ، التى يديرها المعادى للسامية ب . خروشيفان ، وهو واحد من الشخصيات الرئيسة التى حرضت على مذبحة كيشينيف فى إبريل ١٩٠٣ م ، وكان نشرها تحت عنوان : «برنامج غزو العالم بوساطة اليهود» .

ومن المهم للغاية أن نؤكد أنها وثيقة بينة التزييف ، تكشفت أسرار اختلاقها منذ أكثر من ستين عاما ، لأن استخدام هذا النص يوفر للصهاينة المعاصرين «حجة» عارضة لرفض أى تحليل لسياستهم العدوانية ، إذ يزعمون أن هذا التحليل هو اختلاق أيضا ، شبيه «ببروتوكولات حكماء صهيون» المزيفة .

من أجل هذا ، فإننا فى هذا الملف الذى نقدم فيه الأدلة المادية الدامغة على هذه السياسة التوسعية ، نضرب صفحا عن هذه الوثيقة المختلقة ، لأن الرجوع إليها اليوم معناه مساعدة الصهيونية ، دون قصد .

إن الذى أوحى باختلاق هذا الإفك لايمكن أن يكون سوى وزير الداخلية فون بلف — Von Plehve، والرسالة التى وجهها هذا السفاح الدموى ، المعادى للسامية — إلى تيودور هرتزل ، فى ١٢ من أغسطس عام ١٩٠٣ — قد حددت نقطتين أساسيتين هما : ابتداء الاتفاق مع صهيونية هرتزل السياسية ، التى تتفق فى هدفها مع هدفه ، وهو التخلص من اليهود ، بإرسالهم إلى منتبذ

فلسطين أو فى أى مكان آخر ، ثم إن بلف أكد على أن أتباع هرتزل فى روسيا كان لهم اتجاه آخر ، هو أن ينشئوا فى روسيا قومية يهودية (وهرتزل نفسه يؤكد فى «صحيفته» تمرد الزعماء الصهيونيين اليهود ضده ، عندما اقترح عليهم أوغندا ، كما سبق ذكره) .

وهذا مالم يغفره بلف ، فأصدر مرسوما بحظر الحركة .

لقد كان إذن ضروريا بالنسبة إلى شرطة بلف أن يبرروا هذا الاضطهاد الجديد ، الذى جاء بعد المذابح (التى سبقت ولحقت مذابح كيشنيف) ، وذلك حتى يَدُلّوا على أنهم يكافحون ضد «مؤامرة عالمية» ، وأيضا لكى يستمروا فى صراعهم ضد الليبراليين الروس الرافضين لمعاداة السامية ، بقدر مايضفون صفة الشرعية على هذه الإجراءات الاستثنائية تجاه الرأى العام الدولى .

والهدف الثانى لاختلاق هذا الزور كان عملية سياسة داخلية ، تهدف إلى التهوين من شأن خصم بلف الكونت دو وتّ ، وزير المالية ، الذى كان يتهمه بلف واليمين المتطرف باتباع سياسة غوغائية ، حتى يصبح شخصية شعبية ، من أجل الاستحواذ على السلطة . فالهدف كان إظهار أنه أداة فى يد اليهود ، الذين وافق كبار رجال البنوك منهم على منحه قروضا ، وأوحوا إليه بسياسته .

وإن تحليل النص ليكشف أنه مختلق من مصدرين رئيسين :

أولا : نشرة مكتوبة فى فرنسا ، عام ١٨٦٤ م ضد نابليون الثالث ، وقد وصفت باقتدار طريقة السيطرة على الحكم .

وثانيا : مقالات مكتوبة ضد وتّ بقلم مهاجر روسى هو : إيليا تسيون (الذى أطلق على نفسه فى فرنسا : إيلى دو سيون) ، والمقالتان هما : «السيد وتّ والمالية الروسية – Monsieur de witte et Les Finances russes (باريس عام ١٨٩٥) والأخرى : «إلى أين تمضى ديكتاتورية وتّ بروسيا – Où la dictature de M . Witte Coudut la Russie (**باريس ١٨٩٥**) .

فأما أولا : ومؤداه أن المزورين كانوا فى البداية منتحلين – فإن هيكل وثيقتهم مستعار من نشرة لكاتب فرنسى ، هو موريس جولى ، الذى كان قد أدار هجمة ضد نابليون الثالث ، عام ١٨٦٤ م ، والكتاب نشر خفية فى بروكسل ، وكان بعنوان : « حوار فى الجحيم بين مونتسكيو ومكيافيلى » [١] .

وقد أجرى المؤلف على لسان مكيافيلى آراء المستبد الطاغية البالغ الصلف ، وأنطقه بالمناهج والمبادىء المقيتة فى سياسته ، على حين كان مونتسكيو يمثل الأفكار الأكثر تحررا ، ومعارضة للإمبراطور .

هكذا وصف موريس جولى ، من خلال الآراء المقتبسة عن مكيافيلى – السمات الأساسية لأية ديكتاتورية ، ولأى مشروع للسيطرة ، وكذلك فعل كافكا ، حيث تتجلى عبقريته فيما يقدم فى كتابه « القضية Le procés » من صورة لكل نظام استبدادى شمولى يقوم على قيمة تَنَبُّئِيَّة ، طبقا لنظامى هتلر وستالين .

وفى عام ١٩٣٩ م أثبت كاتب فرنسّى هو هنرى رولان [٢] بطريقة لاتحتمل الشك – هذا الانتحال : فكل من الأربعة والعشرين بروتوكولا يعيد الآراء المقررة فى الأربعة والعشرين حوارا ، بنفس النسق ، ونفس الصياغة .

وهكذا وصفت الآلية المشتركة لجميع مشاريع السيطرة : تحقير الدين ، وإهانة احترام القيم الأخلاقية لدى الشباب ، ومراقبة جميع المراكز المالية

---

(١) توجد الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى المكتبة الوطنية بباريس ، فى التصنيف Lb. 56 /١٤٦٩ ، وقد أعيد طبعه عام ١٩٦٨ بوساطة (طبعات كالمان ليفى – باريس .

(٢) هنرى رولان : قيامة عصرنا – Apocalypse de notre temps (ط . جاليمار ١٩٣٩) . وعندما احتل النازيون باريس عام ١٩٤٠ طلبوا إتلاف الكتاب ، محاولين أن يمحوا أى أثر لكتاب كان يقضى على أداة من الأدوات المفضلة فى دعاية هتلر ضد اليهود .

والتحكم فيها ، وكذلك الهيئات السياسية ، ووسائل التعبير ، من طباعة ونشر ، وهدم الأرستقراطيات القديمة الريفية ، من أجل تركيز السلطة الاقتصادية فى أيدى رجال الصناعة والبنوك . وموجز القول : أن نكون قادرين على أن نعلن ، فى اللحظة المناسبة ، أزمة أو كارثة تسفر عن نظام استبدادى ، من نموذج جديد .

وفى رأى موريس جولى أنه يجب أن ندين القيصرية التى تقوم على استفتاء الشعب ، والتى كان يتبعها نابليون الثالث .

لقد استخدم مزيفو «البروتوكولات» هذا التخطيط ليبينوا ماذا تكون السيطرة العالمية لليهود ، وكان الانتحال شديد الفجاجة ، حتى إنه – مثلا – أراد أن يبين كيف يمكنهم أن يفجروا أزمة اقتصادية عالمية ، فأعادوا فى البروتوكولين (٢٠ و ٢١) نفس الأرقام المستخدمة لدى جولى ، بالنسبة إلى فرنسا ، فى الحوار (٢٠ و ٢١) !! .

ولا حاجة بنا إلى أن نقوم بتحليل شامل كذلك الذى عكف عليه حتى أنجزه هنرى رولان ، فلنقدم بعض نماذج التقابل التى تثير الدهشة :

الحوار الرابع [1]	البروتوكول الثالث
يجب أن تسيطروا على كل القوى المعادية ، وأن تحركوا كل المغامرات وأن تعطوا الأسلحة لجميع الأحزاب وأن تعرضوا السلطة لهجوم كل المطامح وأن تجعلوا من الدولة حلبة مصارعة تعربد فيها العصابات	ضربنا كل القوى بعضها ببعض ، وشجعنا لهذا الغرض كل مغامرة ، وسلحنا جميع الأحزاب ، وجعلنا من السلطة هدفا لكل المطامع ، وحولنا الدول إلى حلبات تنمو فيها الاضطرابات .

(١) « حوار فى الجحيم بين مكيافيلى ومونتسكيو » – ط كلمان ليفى – باريس ١٩٦٨ – ص ٣٣ .

سوف أنشىء احتكارات ضخمة مالية ومستودعات للثروة العامة التى يتوقف عليها إلى حد كبير مصير كل الثروات الخاصة التى تتبدد مع ديون الدولة بعد كل كارثة سياسية. لقد اختفت الأرستقراطية باعتبارها قوة سياسية، ولكن البرجوازية الإقليمية مازالت عنصرا من عناصر المقاومة الخطرة، بالنسبة إلى الحكومات، لأنها مستقلة عن نفسها: ولقد يكون من الضرورى أن نفقرها أو أن نقوضها كلية، ويكفى لهذا أن نضخم الأعباء التى تضغط على الملكية العقارية، وأن نبقى الزراعة فى حالة انحطاط نسبى، وأن نشجع التجارة والصناعة إلى أقصى حد، نقصد المضاربة، لأن الرخاء الكبير فى الصناعة يمكن أيضاأن يصبح خطرا، حين يوجد عددا كبيرا من الثروات المستقلة

سوف ننشىء قريبا احتكارات ضخمة ومستودعات للثروات الهائلة، التى ترتبط بها الثروات الكبيرة للمسيحيين (٢) حتى تبتلع فيها، كما يحدث لديون الدول غداة حدوث كارثة سياسية. لقد اختفت أرستقراطية المسيحيين باعتبارها قوة سياسية، فلم يعد أمامنا مانخشاه منها، ولكنهم باعتبارهم ملاكا للأموال الإقليمية يمكن أن يسببوا لنا الضرر، فيما تكون فيه مواردهم مستقلة. ويجب علينا إذن أن ننزع ملكية أراضيهم مطلقا، والوسيلة الجيدة لهذا أن نزيد الضرائب على الملكية العقارية، .. وهذه الإجراءات سوف تجعل الملكية العقارية فى حالة تبعية مطلقة. وفى نفس الوقت يجب أن نحمى التجارة والصناعة بقوة، ولاسيما المضاربة، فبدون المضاربة قد تضاعف الصناعة رؤوس الأموال الخاصة.

---

(١) «حوار فى الجحيم بين مكيافلى ومونتسكيو» - موريس جولى ص ٥٩، (وكل مراجعنا مأخوذة من طبعة كلمان ليفى عام ١٩٦٨، وهى الطبعة التى يسهل الحصول عليها).

(٢) هكذا هى فى الأصل الفرنسى لجارودى، وفى البروتوكولات المترجمة للأستاذ محمد خليفة التونسى يستخدم بدل (المسيحيين): الأمميين. (المترجم).

مكيافلى:

ليست الصحافة فقط هى التى أريد إخضاعها .

مونتسكيو: بل هى المطبعة ذاتها .

مكيافلى: إنك تفهم تماما أنه ليس المهم أن نهرب من هجمات الصحافة، إذا كان يجب أن نظل معرضين لهجمات الكتاب، وأنا آمر ألا تتمكن صحيفة في المستقبل من الصدور إلا بموافقة الحكومة ... وسوف أفرض على جميع الصحف الحالية والمستقبلة بأجراءات مالية تعطل - كما ينبغى - مشروعات الدعاية والإعلان، وسوف أخضع

سوف نلجم[1] الطباعة وسوف نجعل لها أعنة قوية، وسوف نفعل ذلك بعينه مع المؤلفات الأخرى المطبوعة، إذ ماجدوى أن نتخلص من الصحافة إذا كان علينا أن نتعرض لسخرية الرسائل والكتب؟ وسوف نغير الدعاية والإعلان اللذين يكلفاننا كثيرا اليوم، فالإعلان هو الذى يتيح لنا أن نراقب الصحف

فى موضوع يتصل بدخل دولتنا . سوف نفرض ضرائب خاصة على الطباعة ، ونطلب تأمينا ، عندما تؤسس الصحف ، والمطابع ، وهكذا تأمن حكومتنا أى هجوم

* * *

(١) أى: نضع لها لجاما . (المترجم) .

الحوار الحادى عشر	البروتوكول الثانى عشر
الأوراق العامة لماتسميه اليوم: الطابـــع ، والتـــأمين .(١) وإذا وجد كتاب يجرءون على كتابة مؤلفات ضد الحكومة فإنهم لن يستطيعوا أن يجدوا من يطبعها ، فقبل أن تتمكن المؤلفات الجديدة من الظهور يأتى الطابعون والناشرون ليستعلموا ، وبهذه الطريقة ، تحاط الحكومة علما دائما بالمنشورات التى تعد ضدها .(٢)	من جانب الصحافـــة . وإذا وجد أشخاص يريدون الكتابة ضدنا فلن يجدوا شخصا يطبع لهم ، فقبل قبول مؤلِف لطبعه يتعين على الناشر أو الطابع أن يذهب إلى السلطة ليحصل على موافقتها لطبعه ، بحيث إننا سوف نعرف مقدما الشراك التى تنصب لنا .

★ ★ ★

(١) السابق ص ١٠٤ .

(٢) السابق ص ١١٠ .

«سيكون لصحافتى مائة ذراع ، كأذرع الإله فشنو ، وستوصل هذه الأذرع اليد إلى كل ألوان الفكر ، أية كانت على سطح البلد بأكمله ، سوف يكونون من حزبى دون أن يعرفوه ، وأولئك الذين يعتقدون أنهم يتكلمون لغتهم ، سوف يتكلمون لغتى ، والذين يعتقدون أنهم يحركون حزبهم سوف يحركون حزبى، والذين يعتقدون أنهم يمشون تحت رايتهم سوف يمشون تحت رايتى» (١)

«سوف يكون لهم ، كما للإله الهندى فشنو ، مائة يد ، تقود الرأى العام ، فى الاتجاه الذى يتفق مع هدفنا ، فأما المغفلون الذين يعتقدون أنهم يرددون رأى صحيفة حزبهم فسوف يرددون رأينا ، أو الرأى الذى يعجبنا . سوف يتخيلون أنهم يتبعون هيئة حزبهم ، وهم يتبعون – فى الواقع – الراية التى نصبناها من أجلهم» .

* * *

(١) السابق ص ١١٤ .

الحوار السابع عشر	البروتوكول السابع عشر
مونتسكيـــــــــــــــــو : «أنا الآن أفهـم حكمـة الإلـه فشنـو ، أن لكـم مائة ذراع مثـل الصنـــم الهنـــدى ، وكل إصبع من أصابعكم يلمس دائرة . فكما أنكم تلمسون كل شيء هل بوسعكم أن تروا كل شيء؟ . » [1] .	«سوف يقوم نظامنا على حكمة السيطرة التى قال بها فشنو ، والتى كانت رمـــزا لها ، فأيدينـــا المائـــــة سوف تمسك كل منها بلولب فى الجهـاز الاجتماعـى للدولـة»

ليست الصورة الحرفية وحدها واحدة بينهما ، فنحن نستطيع أن نضاعف الأمثلة (كما فعل هنرى رولان ، وكما فعل نورمان كوهن - حديثا) [2] ، ولكن الأكثر إدهاشاً هو التعبير ، لأننا لانملك سوى إعادة الترجمة من الروسية للنص الفرنسى للبروتوكولات ، فنظام «البروتوكولات». نفسه هو نظام «الحوارات» ، (وينحصر الفرق بينهما فى أن «الحوارين» الأولين لم يجتمعا فى البرتوكول الأول) .

وأما ثانيا : فإنه ليس ضروريا هنا أن نقدم نفس التدليل على المصدر الثانى ، لأنه يعتبر مشكلة سياسة داخلية روسية ، (وهى الخصومة بين بلف و وتّ) ، فهى لاتدخل إذن فى موضوعنا ، إلا فيما يتصل بإثبات طريقة الاختلاق .

---

(١) السابق ص ١٦٦ .

(٢) نورمان كوهن : مبرر للإبادة - Warrant for genocid أ . بليكان بوك ١٩٧٠ ، ص ٣٠٦ .

وواضح أن الذين أوحوا باختلاق البروتوكولات كانوا ينتمون إلى المجموعات المخاصمة للكونت وتّ ، حتى إنهم اتهموه بأنه يلغم الأوتوقراطية القيصرية ، ويُعدّ لدكتاتوريته الخاصة ، معتمدا على البنوك اليهودية فى العالم كله .

هذا المصدر الأخير للتزوير يشهد به واقع هو أن التحريفات فى نص موريس جولى إنما تتدسس فى القسم الذى وردت فيه المطاعن ضد وزير المالية ، الكونت وتّ : فإدخاله (عيار الذهب) الذى وضع به – فى رأيهم – الماليات الروسية تحت رحمة البنوك اليهودية الدولية ، وقراره بأن ينظم احتكار الدولة للكحوليات ، يدل – فى نظرهم – على إرادته أن يذل الشعب بوساطة الكحولية .

وقد كتب دوسيون Decyon ، وهو واحد من أشرس أعداء وتّ يقول : «إنه يغير الإمبراطورية الروسية ، بالطريق التشريعى ، طبقا لمبادىء ماركس » [1] !!

وهكذا يحدد «البروتوكول» الثانى النجاحات الإيديولوجية ، لهدم الشعوب من الناحية الأخلاقية ، يقول مانصه : «لاحظوا النجاحات التى عرفنا كيف ننشئها بالداروينية ، والماركسية ، والنيتشية » .

وموجز القول أنهم كانوا يريدون أن يبينوا أن الكونت دو وتّ كان أداة «لحكماء صهيون» ، وأنه كان يطبق سياستهم تطبيقا حرفيا ، وكان الدواء الوحيد هو إصلاح نظام أوتوقراطى مطلق .

ومنذ صدرت الطبعات الأولى تطوع كل جانب بتقديم حكاية وهمية عن أصل الوثيقة ، فأكد الناشرون (من مثل نيلس Nilus – فى طبعات ١٩٠٥ و ١٩١١ و ١٩١٢). أنه لاينبغى الخلط بين «حكماء صهيون» ، و «ممثلى

---

(١) دوسيون : «إلى أين تقود دكتاتورية وتّ روسيا – où la dictature de witt conduit la Russie ص/ ٩٩ ودوسيون مع هذا كان محترف انتحال وتزوير : فقد اعترف بنفسه أن نشرته ضد وتّ كانت مأخوذة من كتاب جومل : «أسباب الثورة الفرنسية : Gomel » Causes de la révolution francaise ، وقد وضع دوسيون اسم وتّ مكان اسم دو كالن de Calonne .

الحركة الصهيونية » ، ثم قال : إن « البروتوكولات » قد وضعت فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ م ، ونسبها إلى « الرابطة الإسرائيلية العالمية » (التى كان مقرها فى باريس) .

ولقد كانت هذه النسبة أكثر احتمالا لولا أن « الرابطة الإسرائيلية العالمية » فى ذلك الوقت ، كانت سياستها الثابتة معارضة لسياسة الصهيونية ، فهى لم تكن تنادى بالقومية الصهيونية ، و « العودة » ، بل على العكس كانت تنادى « بالاندماج » .

أما الذين كانوا يريدون استغلال التزوير بفاعلية ، فقد كان عليهم أن يبحثوا عن مصدر أكثر احتمالا واستساغة ، وقد تقدم نيلس Nilus نفسه أيضا فى طبعته للبروتوكولات عام ١٩١٧ م ببيان أصل آخر للوثيقة ، فكتب يقول : « لم أعرف إلا اليوم ، بصورة مؤكدة أن هذه البروتوكولات ليست سوى الخطة الاستراتيجية لغزو العالم ... وهى تخضع لمجلس القدماء بوساطة أمير المنفى : تيودور هرتزل » . ثم أضاف هذا التعليق : « كانت البروتوكولات قد أخذت سرا .. من السجل الكامل لمحاضر المؤتمر الصهيونى الأول ، المنعقد فى بال ، فى أغسطس عام ١٨٩٧ م » (١) .

لقد قام بترجمة هذه البروتوكولات فى أنحاء العالم كله مترجمون من المعادين للسامية ، ولكنها كانت ذات انتشار محدود ، حتى عام ١٩٢٣ م ، حتى إن الصحيفة الإنجليزية « التيمس » ، التى اعتقدت ابتداء فى صحة هذه « للكشوف » ، نشرت عام ١٩٢١ مقالات مراسلها فى استنبول الذى كشف عن طريق المصادفة – كتاب موريس جولى ، وحين قارنه « بالبروتوكولات » استطاع أن يقدم البرهان على مافيها من خداع . وقد اعترفت « التيمس » فى ١٦ و ١٧ و ١٨ من أغسطس عام ١٩٢١ صراحة بأنها كانت ضحية غش ومخاتلة .

---

(١) هذا التأكيد يثير السخرية والضحك ، فإن التقرير المفصل عن المؤتمر ، والذى أعده عملاء البوليس الروسى الذين تسللوا إليه لم يذكروا هذه الوثيقة المزعومة بأدنى إشارة .

لم يبدأ الاستخدام الضخم لهذا التزوير – فى الواقع – إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، ولاسيما فى العشرينيات .

كان ذلك لأسباب واضحة ، فقد كان الهدف أولا بيان أن الثورة الروسية كانت من عمل اليهود ، ومؤامرتهم التخريبية .

ففى أمريكا – مثلا – كان ملك السيارات هنرى فورد ، هو أكثر الموزعين تحمسا للبروتوكولات ، مع مايملك من وسائل هائلة ، وقد أشاع فى الصحافة ، وفى كتاب وضعه بعنوان : « اليهودى الدولى ، مشكلة العالم الأولى – The international Jew , The world 's foremost Problem » أشاع فكرة أن الثورة البلشفية كانت « انتقاما هائلا لليهود » .

وفى عام ١٩٢٧ م اعترف أنه كان على خطأ فى أن يعتقد « اعتقادا أعمى فى أولئك المبلغين الذين أساءوا استخدام ثقته » .

بيد أن مؤلفه قد استُغِل استغلالا واسعا ، استغله أولا المهاجرون الروس ، وهم الأصدقاء القدامى لكولتشوك Koltchak بخاصة ، وهم الذين كشفوا أن « البروتوكولات » كانت الكتاب المفضل ، موجها من الإمبراطورة إلى إيكاترين بورج ، وأنهم كانوا يؤملون ، بعد سقوطهم فى روسيا ، أن يستخدموا « البروتوكولات » لإشعال حرب صليبية ضد البلشفية ، التى كانت فى رأيهم وفى رأى فورد – التجسيد الرهيب لدورهم التخريبى .

وفى ألمانيا استخدمت فكرة الحرب الصليبية ضد البلاشفة ، ذريعة للحصول على موافقة الحلفاء أن يزيدوا عدد جيوشهم ، وكانت « البروتوكولات » مستخدمة آنئذ بأقصى حد ، دون أن يكون لمسألة صدقها أدنى دور . وقد كتب هتلر نفسه فى كتابه : « كفاحى » فى هذا الصدد قوله « من أى رأس يهودىٍّ خرجت هذه الرؤى ، هذا أمر لايعنينى تماما ، وإنما المهم هو أنها تفصح بدقة مذهلة عن طبيعة نشاط الشعب اليهودى ، وعن مناهجه ، وعن هدفه النهائى . إن خير نقد للبروتوكولات هو الواقع » [1] .

---

(١) أدولف هتلر « كفاحى Mein Kampf » – ط ميونخ ١٩٢٣ ص ٣٣٧ .

وعليه ففى عام ١٩٢٣ صبت الحركة الصهيونية بيدها ماء فى طاحونة هتلر ، حين نشرت جورنال هرتزل باللغة الألمانية .

كانت كل فقرات الصحيفة خاصة « بالتنظيم العسكرى » للشباب والبنية الدولية المتدرجة للحركة ، والبناء المالى الذى عرضه هرتزل فى كتابه « الدولة اليهودية » ، وقد تحقق عام ١٩٠١ م بوساطة « الصندوق القومى اليهودى - Fonds national juif » ، وفروعه الدولية ، والاتصالات الدبلوماسية فى كل الاتجاهات ، والتى قصها هرتزل بغاية المجاملة . مع النفاق ، يعترف به ، فى تحقيق المشروع ، كل هذا يزود قصة المغامرة البوليسية باحتمال تزوير البروتوكولات .

ولكى نقيس أهمية الإسهام الذى قدمته الصهيونية ، لتنمية معاداة السامية ، فإن هدف هذا الكتاب عن « ألاعيب السياسة » التى تنشئها « بروتوكولات حكماء صهيون » - واضح بين :

- لقد اختُلِقَ (فُبرِكَ) عام ١٨٩٧ م ، أى : بعد كتاب « الدولة اليهودية » لهرتزل بعامين ، عقب مؤتمر بال .

- وبدأ يحرز انتشارا دوليا هائلا بعد إعلان بلفور عام ١٩١٧ م .

- وبلغ أوج استغلاله بمعاداة السامية الهتلرية ، بعد عام ١٩٢٣ م ، أى : بعد أن نشر بالألمانية (جورنال هرتزل) ، (Théodore HERZL'S Tagebucher) (ثلاث مجلدات فى مجموعة) منشورة بوساطة : (les judischer verlag in Berlin) عام (١٩٢٢ - ١٩٢٣م) .

لقد كانت هذه الإدانة ضرورية ، لأن هذه القصة البوليسية عن « الحيل السياسية » لما كانت تفسد قواعد أى نظام للحكم ، سواء أكان نظام نابليون الثالث ، أم نظام هتلر ، أم نظام ستالين ، أم نظام الديكتاتوريات فى أمريكا الجنوبية ، أم نظام الزعماء الصهيونيين - مادامت تزويرا فاحشا ، فإن هذه النظم تتمسك بها باعتبارها وثيقة واقعية ، وبذلك تقدم للصهاينة حجة ذات وزن ، ليصفوا أى نقد لسياستهم فى الشرق الأدنى ، ولمجموعات ضغطهم فى العالم ، بأنه كذب وزور واختلاق ، كهذا العمل الملفق .

إن إدانة شرور الصهيونية السياسية لاتحتاج إلى أى كذب ، وإنما ينبغى أن نرفض أكاذيب «البروتوكولات» ، لنضع مكانها الوثائق الواقعية ، التى يسهل على كل إنسان أن يصل إلى مصادرها ، ومراجعها ، المحددة ، التى تسمح بتحقيقها ، بل وإمكان استحضارها كاملة .

* * *

ب : مسئوليات الزعماء الصهاينة أمام معاداة السامية الهتلرية

الحق أن الزعماء الصهاينة كانوا يؤملون فى استخدام هذه الانفجارات المعادية للسامية ، من أجل نجاح حركتهم . فهم يرون أن معاداة السامية قد تقوى الشعور بالمجتمع القومى اليهودى ، وتدفع الهجرة إلى الأمام ، فتسهم فى إبلاغهم أهدافهم الجوهرية ، التى لم تكن إنقاذا فرديا لحياة اليهود ، وإنما كانت تحقيقا لدولة قوية فى فلسطين .

فى عام ١٩٢٥ م قام أحد المنظرين الكبار للصهيونية (وكان مشاركاً فى نشر الموسوعة اليهودية الأثرية) ، وهو يعقوب كلاتزكن JACOB KLATZKIN – بتعريف العلاقات بين الصهيونية – وبين معاداة السامية ، فقال :

«إذا كنا لانقر شرعية معاداة السامية فإننا ننكر شرعية قوميتنا الخاصة . وإذا كان شعبنا يستحق أن يعيش حياة قومية ، وهو يريدها ، فهو إذن جسم غريب فى الأمم التى يعيش بين ظهرانيها ، جسم غريب يركز على شخصيته الخاصة به ، فمن العدل إذن أن تكافح هذه الأمم ضدنا فى سبيل تكاملها القومى» .

وبدلا من أن ننشىء جمعيات للدفاع ضد المعادين للسامية ، الذين يريدون تقييد حقوقنا ، يجب أن ننشىء جمعيات للدفاع ضد أصدقائنا الذين يريدون أن يمنعونا حقوقنا» [١] .

وينبغى الاعتراف بأن يعقوب كلاتزكن كان يرى بطريقته توافق الفكرة الصهيونية ومنطقها ، فهو يقول : «إذا كان العدو هو الدمج L'Assimilation

---

(١) جاكوب كلاتزكن : Krisis und Entscherdung im judentum برلين ١٩٢١ ص ٦٢ – ٦٣ .

(أى : المساواة فى الحقوق) ، وإذا كان الهدف الرئيسُ هو إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، فإن معاداة السامية تساعد على تحقيق هذا المشروع ، والدفاع عن المساواة فى الحقوق هو على العكس عقبة فى طريقه» .

وكتب سيجفريد موسس ، Siegfried MOSES، زعيم الاتحاد الصهيونى الألمانى ، فيما بعد ، مقالا فى مجلة Rundschau يذكر هذا المبدأ الأساسى للصهيونية فقال : «إن الدفاع ضد معاداة السامية ليس مهمتنا الرئيسة ، وهو لايخصنا كذلك ، وليس له من الأهمية قدر ما للعمل من أجل فلسطين» (١) .

بدون هذا الخيط القائد سوف يكون من المستحيل أن نفهم سياسة الحركة الصهيونية فى عصر المستبدين (الديكتاتورين) . (٢) .

وإليك فقرات من مذكرة أشار إليها الربانى جداشيم برنز عام ١٩٣٧ م عندما غادر برلين إلى أمريكا ، والمذكرة موجهة من الاتحاد الصهيونى بألمانيا إلى الحزب النازى فى ٢١ من يونيو ١٩٣٣م .

«كل الناس فى ألمانيا يعرفون أن الصهيونيين وحدهم هم الذين يستطيعون تمثيل اليهود تمثيلا صحيحا فى المفاوضات مع الحكومة النازية .... إن نهضة الحياة القومية ، تلك التى تتجلى فى ألمانيا ، بالتزامها بالقيم المسيحية والقومية — يجب أن تحدث كذلك فى المجتمع القومى اليهودى ، فأما اليهود فإنهم يرون أن الأصل ، والدين ، ومجتمع المصير ، والضمير الجماعى ، يجب أن تكون هذه كلها ذات مغزى حاسم فى تشكيل الحياة ...

---

(١) مرجريت ايدليهم موشسام «ردود الفعل لدى الصحافة اليهودية تجاه التحدى النازى Reaction of The jewish Press to The nozi Challeng الكتاب السنوى لمعهد ليوباك ج ٥ ص ٣١٢ .

(٢) لينى برنر «الصهيونية فى عصر المستبدين» — Zionism in (The age of The dictators — كراون هلم — لندن وكانبيرا ١٩٨٣ .

إننا ، فى تأسيس الدولة الجديدة ، التى أعلنت مبدأ الجنس - La race - نأمل فى أن نكيف مجتمعنا بهذه البنيات الجديدة .... إن معرفتنا بالقومية اليهودية تسمح لنا بإقامة علاقات واضحة ، ونقية مع الشعب الألمانى ، وواقعياته القومية والعرقية ، وذلك لأننا - على وجه التحديد - لانريد أن نبخس هذه المبادىء الأساسية قدرها ، ولأننا نحن أيضا ضد الزواج المختلط ، من أجل الحفاظ على نقاء المجموعة اليهودية ... إن اليهود الواعين لشخصيتهم ، والذين نتحدث باسمهم ، يمكن أن يجدوا مكانا فى بنية الدولة الألمانية ، لأنهم متحررون من الحقد الذى يشعر به اليهود المندمجون ، ... ونحن نعتقد فى إمكان قيام علاقات قانونية بين اليهود الواعين بمجتمعهم ، وبين الدولة الألمانية .

إن الصهيونية ، لكى تبلغ أهدافها العملية ، تؤمل أن تكون قادرة على المشاركة ، حتى مع حكومة تخاصم اليهود أساسا ... وإن تحقيق الصهيونية لايعوقه إلا حقد اليهود ، فى الخارج ، ضد الاتجاه الألمانى الراهن ، وإن الدعاية من أجل المقاطعة ، الموجهة حاليا ضد ألمانيا هى فى جوهرها - غير صهيونية » (١) .

وقد استمر هذا العمل المشترك بين الزعماء الصهاينة والنازيين حتى عام ١٩٤١ م ، وهو عمل لم ينقطع مطلقا بتأثير قوانين نورمبرج العنصرية ، عام ١٩٣٥ م .

وعندما صدرت هذه القوانين للمحافظة على نقاء الدم الألمانى ، أدلى كيرسكى رئيس المجتمع اليهودى - قديما - فى برلين بحديث إلى مجلة « أنجريف » التى كان يصدرها جوبلز ، قال فيه : « إن قوانين نورمبرج تبدو لى ، خارج صياغتها القانونية ، مطابقة تماما للرغبة فى حياة منفصلة ، تقوم على احترام متبادل » (٢) .

---

(١) لوسى دويدوفتش « قارىء المذبحة - A. Holocaust Reader » (ص ١٥٠ - ١٥٥) ، وهذه الوثيقة نشرت للمرة الأولى باللغة الألمانية ، فى إسرائيل ، عام ١٩٦٢ م . [المذبحة : التى أقامها هتلر لليهود - المترجم] .

(٢) جويش كرونيكل - لندن ٣ من يناير ١٩٣٦ ص ١٦ .

وكتب لينى برنر : «إن الزعماء الصهاينة كانوا مقتنعين بأن التشابه بينهم وبين النازيين كان كافيا ليعاملهم هتلر باعتبارهم «رفقاء أمناء» ، من أجل تحقيق انفراج ديبلوماسى ، وذلك لأنهم كانوا عنصريين يعارضون الزواج المختلط ، ولأنهم كانوا يعتبرون أن اليهود غرباء فى ألمانيا ، ولأنهم كانوا أعداء لليسار» (١) .

فعلى حين أن الصهاينة لم يكونوا يمثلون فى ظل جمهورية ويمر WEIMAR سوى أقلية ضئيلة جدا من اليهود (٢) ، فإن الزعماء الصهاينة ، وقد كانوا مدركين أن سياستهم فى التهجير إلى إسرائيل تتفق مع إرادة النازيين التخلص من اليهود ، فرضوا أنفسهم ، متحدثين وحيدين . مع الحكومة الهتلرية .

وكتب كيرين كايسود Keren KAYESOD تقريرا قدمه إلى المؤتمر الرابع والعشرين «للاتحاد الصهيونى لألمانيا» (ZVFD) ، فى يوليو ١٩٣٢ - قال : «عندما نقيّم عمل كرين كايسود فى ألمانيا ، فيجب ألا ننسى أن علينا فى ألمانيا أن نحسب حساباً ، لالعدم المبالاة لدى عدد كبير من اليهود فحسب ، ولكن أيضا لخصومتهم» (٣) .

وكتب جيرار هولديم ، الزعيم الصهيونى ، فى عدد ديسمبر ١٩٣٠ م من مجلة « Suddeutsche Monatshaft» (ص ٨٥٥) : «إن البرنامج الصهيونى يتصور المجتمع اليهودى كلا منسجما ، غير قابل للانقسام ، على أساس قومى . إن مقياس اليهودية ليس إذن اعتقادا دينيا ، ولكنه شعور كلى بالانتماء إلى مجتمع عنصرى ، متحد بروابط الدم ، والتاريخ ، وإرادة الاحتفاظ بشخصيته القومية» .

---

(١) لينى برنر «الصهيونية فى عصر المستبدين» (السابق ص ٨٩) ، وانظر بواز Boas فى كتابه (يهود ألمانيا The jews of Germany ص ١١١ .

(٢) فى عام ١٩٣٣ كان عدد المنتمين إلى الحركة الصهيونية فى ألمانيا هو ٨٧٣٩ عضوا بين ٥٠٣,٠٠٠ آلاف يعيشون فيها ، (أى أقل من ٢ ٪) . (ZVFD) ، فى حين أن «الاتحاد المركزى للمواطنين الألمان ذوى العقيدة اليهودية» كان يمثل أكثر من ٦٠ ٪ من المجتمع (وهو اتجاه دمجى) .

(٣) ذكر كورت لوينزتن Kurt Loewensten فى كتابه عن «رد الفعل تجاه أزمة الديموقراطية الألمانية داخل المجتمع اليهودى Réaction à la crise de la democratie allemond à l'intérleur de le Communauté juive» ص ٣٦٣ .

تلك كانت اللغة ، والموضوعات التى عالجتها : «الاشتراكية القومية الهتلرية» ، فليس غريبا إذن أن تجد مفاهيم من هذا القبيل صدى مناسبا لدى النازيين ، وقد كتب المنظِّر النازى الأكبر ، ألفريد روز نبرج يقول : إن الصهيونية يجب أن تؤيَّد بقوة ، حتى تتمكن من نقل فرقة سنوية من اليهود الألمان إلى فلسطين» (١) .

إن الاتحاد المركزى للمواطنين الألمان ذوى الإيمان اليهودى (C . V .) (وهو يمثل ٤/٥ اليهود الألمان عام ١٩٢٥ م ، وهى أغلبية ساحقة) ، ذلك الاتحاد الذى كان يعتبر اليهود ضمن الألمان ، وركز جهده بناء على ذلك لهدف هو أن يكونوا من الألمان ، جميعا ، وقد كافح منذ تأسيسه ضد معاداة السامية ، لامن أجل الانفصالية والهجرة — ذلك الاتحاد كان يؤكد على الخطر الذى تخلقه الصهيونية ، لأنها كانت تتبنى «بعض المسلمات التى يعتنقها القوميون الألمان» ، كما أن الحركة الصهيونية ضربت الكفاح ضد الفاشية «بطعنة فى الظهر» (٢) .

وقد نجح «الاتحاد الصهيونى لألمانيا» بمساعدة النازيين — «فى أن يستحوذ على احتكار تمثيل اليهود فى الرايخ الثالث ، بأن أبعد بالتدريج اتحاد الـ . C . V ، الذى كان يكافح الهتلرية دون هوادة .

وفى ٤ من يوليو ١٩٣٩ م أنشىء بالأمر «اتحاد يهود الرايخ» ، الذى كان اليهود ملزمين بالانضمام إليه ، والفقرة ١٢ من هذا الأمر كانت تحدد الغاية منه ، وهى أن : «اتحاد يهود الرايخ يهدف إلى تشجيع هجرة كل اليهود» (٣) وهكذا يتيح تحقيق هدف المشرع الألمانى ، وهدف الصهيونية — للقادة الصهاينة أن يقوموا بدور القادة بين اليهود الألمان .

---

(١) الفريدروزنبرج «سلوك اليهود فى عصر التحويل Le Cheminement des juifs a une Epoque de Mutation» ، ميونخ ١٩٣٧ ص ١٥٣ .

(٢) صادر فى ١١ من يوليو عام ١٩٣٠ — C . V . Zeitung IX .

(٣) النشرة التشريعية للرايخ — Bulletin Legislatif du Reich (الجزء الأول ، رقم ١١٨ ص ١٠٩٧ وما بعدها) .

ولقد سبق للبوليس السياسى فى بافاريا أن ذكر فى ٩ من يوليو ١٩٣٥ أن «التنظيمات الصهيونية قد نظمت بين أعضائها والمتعاطفين معهم مجموعات لتشجيع الهجرة ، وشراء أراضى فلسطين ، والمساعدة فى استعمار فلسطين .

إن هذه المجموعات لاتحتاج إلى موافقة حكومية ، لأنها تقتصر على دائرة مغلقة من اليهود .

ومع ذلك فليس لدى بوليس الدولة أى اعتراض ضد هذه الممارسات ، مادامت هذه المؤسسات مستخدمة لتسهيل الحل العملى للمشكلة اليهودية . » .

وحين نتصدى للمسألة من ناحية مسئولية الزعماء الصهيونيين ، عن مذابح اليهود على يد هتلر – على مابينته – ضمن آخرين – السيدة حنّة أرنت فى كتابها : «إيخمان فى القدس[1] » ، والربانى موشى شنفيلد فى كتابه : «ضحايا المذبحة يتهمون : وثائق وشهادات عن مجرمى الحرب اليهود» نيويورك ١٩٧٧ Neturei Karta of U . S . A . » ومجموعة الوثائق المعنونة «التعاون النازى – الصهيونى» ، وقد نشرها جازا jaza فى استراليا (اليهود ضد الصهيونية ومعاداة السامية) ، وهى كلها مراجع رئيسة فى المسألة – إننا حين نتصدى لهذه المهمة يهمنا أن نؤكد على جانبين رئيسين فى المشكلة :

١ – إن الكشف عن جانب المسئولية الواقعى والهام ، للزعماء الصهانية فى الكارثة اليهودية لايستتبع بأية حال أننا نبرىء ، أو نهوّن من شأن الرعب فى جريمة النازيين ، أو أننا نغضى عن جريمتهم ضد الإنسانية ، أو عن جريمتهم ضد اليهود ، وإن مثال التشنيعات المنظمة التى دبرها الصهاينة ضد كتاب حنة أرنت لذو دلالة على خبث مسعاهم ، وقد أدانته حنة أرنت نفسها ، ذاكرة الحملة المدبرة ضدها ، ولخصتها على النحو التالى :

«إن كل إنسان عرف وأكد أن «رأيى» هو أن اليهود قتلوا أنفسهم بأنفسهم» [2] .

---

(١) Honnah Arendt : (Eichmann in Jeiusolem) مطابع فايكنج – نيويورك ١٩٦٥ (والترجمة الفرنسية نشر جاليمار باريس ١٩٦٦) .

(٢) حنة أرنت «مجلة نيويورك للكتب New York Review of books) ٢٠ من يناير ١٩٦٦ .

ولقد شهدت حنة أرنت قضية إيخمان فى القدس ، وخرجت من هذه المحاكمة بنتيجة ثابتة هى :

«الحقيقة هى أنه ، لو كان الشعب اليهودى آنذاك مضطربا وبلا زعماء [١] ، فإن الفوضى كانت ستكون عامة ، ولحاق بهم كثير من البؤس ، ولكن عدد الضحايا حينئذ ماكان ليبلغ عددا يتراوح بين أربعة ملايين ونصف وستة ملايين (تبعا لإحصاء فروديجار ، ولاستطاع خمسون فى المائة من اليهود أن ينجوا بأنفسهم لولم يتبعوا تعليمات المجالس اليهودية [٢] » .

إن مما يشهد بالانحراف الذى قاد إليه الغضب من كتاب حنة أرنت ، الصهاينة – ماجاء فى كتاب «الرفض – Riéfutation» الذى كتبه يعقوب روبنسون ، حين قال : «لسوف يُقَوِّمُ المُعْوَجّ ، محاكمة إيخمان والكارثة اليهودية ، وقصة حنة أرنت» (مكميلان . N . C وكوليبة ، لندن ١٩٦٥) .

وحين ذكرت حنة أرنت هذا الكتاب (لروبنسون) ، الذى حاول أن يشوه كل سطر ، فلم يصل مطلقا إلى هدم الحقيقة – قالت حنة : لاأحد يشك مطلقا فى فاعلية التزييف الحديث «للصور القيمة» ، ولايوجد شخص ، يقف على حقيقة التنظيمات اليهودية ، وماتملك من قنوات اتصال – ثم يستطيع أن يهون من إمكانات تأثيرها على الرأى العام ...» [٣] .

---

(١) نقلا عن كتاب «دفاع عن الصهيونية « Apologie du Sionisme » بقلم إيزياه ترنك « Judenrat »أو «المجالس اليهودية فى أوربا الشرقية فى ظل الاحتلال النازى – The jewish Councils in Eastern Earop under nazi مكميلان .N. Y ١٩٧٢ (وقد كان ٢/٣ القادة فيها صهاينة) – Occupation.

(٢) حنة ارنت : إيخمان فى القدس» السابق ص ١٤١ .

(٣) حنة أرنت : «اليهودى المنبوذ – The jew as pariah » نيويورك ١٩٧٨ ص ٢٧٥ ، ولقد استطعت شخصيا أن أتحقق من هذه القوة الرهيبة للصهيونيين ، واقتدارهم على إسكات أى إنسان ينزع قناعهم : فمنذ نشر كتابى عن «قضية إسرائيل» ترفض جميع دور النشر الكبرى بباريس أن تنشر مؤلفاتى . (المؤلف) .

٢ – والملاحظة الثانية هى أن هذه السياسة من العمل المشترك مع النازيين ، بما صحبها من نتائج دامية بالنسبة إلى مجموع اليهود الأوربيين – لايمكن أن تنسب إلى أخطاء ، أو إلى ضعف شخصى ، يتصف به هذا الزعيم أو ذاك ، ممن أنسوا إلى هذا العمل المشترك ، ذلك أن الرباط بين الصهيونية وعداوة السامية إنما يعود إلى المنطق السياسى للصهيونية ذاتها ، كما تخيله تيودور هرتزل ، حين قال : إن هدف الصهيونية السياسية ، هدفها الأخص ، هو أن تنشىء دولة يهودية فى فلسطين ، وإن إنقاذ اليهود ليس سوى قضيتها العارضة ، حين يكون الهدف أن نوصل إلى فلسطين العناصر الفعالة (بعطائها المالى ، أو قدرتها على العمل ، أو موقفها من الكفاح فى الجيش) ، ولكن استقبال هذه العناصر فى بلد صديق لم يكن متوافقا مع هذا الهدف .

ومما له دلالته فى هذا المجال أن المتهمين فى الجرائم الكبرى ، جرائم التعاون مع هتلر ، مثل كستنر Kastner (الذى سوف نتعرض له) ، حتى عندما عرفت محاكم أول درجة ما ارتكبوا من وقائع وأدانتهم بها – أعيد لهم اعتبارهم فى المحكمة العليا بإسرائيل ، إذ إنه كان من غير المنطقى تماما ضربهم وهم قد طبقوا السياسة الثابتة للقادة الصهاينة ، الذين صاروا زعماء دولة إسرائيل .

لقد تحدد هذا الخط بصورة كاملة فى خطاب بن جوريون بتاريخ ٧ من ديسمبر ١٩٣٨ م ، حين قال : «إن المشكلة اليهودية لم تعد كما كانت .... آلافاً من اليهود مهددين بالإبادة : فلقد أخذت مشكلة اللاجئين أبعادا عالمية ، وهذه بريطانيا العظمى تحاول أن تفصل حل مشكلة اللاجئين عن مشكلة فلسطين ، يساعدها فى ذلك اليهود المعادون للصهيونية ... إذا كانت فلسطين لاتستوعب اللاجئين ، فإن أراضى أخرى تستوعبهم . ولسوف تكون الصهيونية فى خطر ... إذا كان على اليهود أن يختاروا بين اللاجئين ، – إنقاذ يهود معسكرات التجميع – وبين المساعدة فى إنشاء متحف قومى فى فلسطين ، لسوف تستولى الرحمة على شعبنا ، وتتجه كل طاقاته إلى إنقاذ اليهود فى مختلف البلاد ، وبذلك تشطب الصهيونية من التاريخ» .

وقد علق على هذا الخطاب التنظيم الاشتراكى الإسرائيلى – Matzpen فلخصه هكذا : «إن إنقاذ اليهود من يدى هتلر كان فى نظر بن جوريون تهديدا

بالقوة

موجها إلى الصهيونية ، مالم يتوجه هؤلاء اليهود إلى فلسطين ، وحين يكون على الصهيونية أن تختار بين اليهود والدولة اليهودية ، فإنها سوف تعطى الأولوية للثانية دون تردد » [١] .

وبن جوريون يعلن دون مواربة ، أمام الزعماء الصهاينة فى مجموعة (العمل) ، فى ٧ من ديسمبر ١٩٣٨ م قوله : لوعرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بتوصيلهم إلى إنجلترا ، فى مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين – فإنى أختار الحل الثانى ، إذ يتعين علينا أن نأخذ فى اعتبارنا ، لاحياة هؤلاء الأطفال فحسب ، بل كذلك تاريخ شعب إسرائيل [٢] .

هذا التعصب الدموى يذكرنا مثلا بموقف الوفد الصهيونى فى مؤتمر إيفيان ، فى يوليو ١٩٣٨ م ، حيث اجتمع ثمان وثلاثون قومية لمناقشة استيعاب اللاجئين من ألمانيا النازية : فعلى حين أن جمهورية الدومينيكان الصغيرة – مثلا – عرضت أن تستقبل ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لاجىء – طلب الوفد الإسرائيلى ، حلا وحيدا ممكنا هو قبول مائتى ألف يهودى فى فلسطين . (وهو ماكان فى ذلك الوقت ، ولأسباب ملحة – مستحيلا ماديا ، فى فلسطين التى كان تعداد سكانها آنذاك نصف مليون) ، وبذلك نسف الزعماء الصهاينة المؤتمر .

وقد علق أحد المدافعين عن الصهاينة ، وهو كريستوفر سايكس ، على هذا الموقف فقال : «إن مافعلوه فى إيفيان لم يكن فيه شىء يُرَى متفقا مع روح الصهيونية ، وهذا واضح : فإذا كانت الأمم قد أدت واجبها ، وقدمت الضيافة إلى اليهود ، الذين كانوا بحاجة ملحة إليها ، فإن الضغط من أجل «وطن قومى» فى فلسطين كان ينبغى أن ينخفض ، وهذا ما كان الصهاينة يزهدون فيه ، وبعد إيفيان صارت الاحتمالات بالنسبة إلى اليهود مظلمة فى كل أنحاء العالم ، «ماعدا

---

(١) انظر : آرى بوبير «إسرائيل الأخرى ، الحالة الثابتة ضد الصهيونية – The other Israel, radical case against Zionisme – أنشوربوك ، نيويورك ١٩٧٢ ص ١٧١ .

(٢) يواف جلبر «السياسة الصهيونية وقدر الشعب اليهودى الأوربى . (١٩٣٩ – ١٩٤٢) Zionist policy and The fat of European jewry فى Yad vashem Studies (أورشليم) ج ١٢ ص ١٩٩ .

النقطة المضيئة فى فلسطين» (على ماذكره نورمان بنتفيتش) . وقد كان الصهاينة يريدون أن يكون الموقف هكذا وحتى فى أفظع الأيام التى سوف تأتى ، فإنهم لم يخفوا مطلقا أنهم لايتمنون ملجأ يهوديا إلا فى فلسطين» ، ويضيف سايكس: «هذا التوقع ، وهذا المفهوم السياسى المميز للضيق المتزايد فى الروح الصهيونى يمكن أن يتجلى فى شكل مقاتل وشرس .[1] » . ثم حاول أن يبرر هذا الاختيار التاريخى بأنهم كان لهم هدف: هو أن يقيموا دولة إسرائيل .

إن الكشف عن هذا التوقع الذى سعى إليه الزعماء الصهاينة يلقى مزيدا من الوضوح على سياستهم فى التعاون مع هتلر ، ومسئوليتهم عن موت ملايين اليهود ، وبذلك يكون منطق النظام هو كما يلى:

١ – تخريب مقاطعة ألمانيا النازية .

٢ – رفض الاشتراك فى مقاومة الهتلرية .

٣ – التعاون مع النازيين [2] .

٤ – نبذ عروض استقبال اليهود خارج فلسطين:

* * *

١ – تخريب مقاطعة ألمانيا النازية:

من الواضح أن أفضل طريقة لإنقاذ ضحايا النازية (ومن بينهم اليهود) – كانت جهاد النازية وضربها بالمقاطعة الاقتصادية ، وبالمقاومة السياسية والعسكرية .

---

(١) كريستوفر سايكس: «طرق متقاطعة إلى إسرائيل – Cross — roads to Israel نل منتور – لندن ١٩٦٧ ص ١٩٩ – ٢٠١ .

(٢) تكرر مرة أخرى أن هذه الجرائم من صنع زعماء الصهيونية السياسية ، على حين أن عددا كبيرا من اليهود ، بل ومن الصهيونيين قد أفلتوا من تأثيرها ، وأنهم خاضوا مقاومة رائعة ضد قيادتهم .

وعليه ، فبمجرد وصول هتلر إلى السلطة ، وبعد المذابح الأولى ، دعا الرأى العام العالمى المعادى للفاشية إلى المقاطعة الاقتصادية ، لألمانيا النازية .

وفى ٢٣ من مارس ١٩٣٣ م نظم المحاربون اليهود القدماء ، فى نيويورك ، مظاهرة بالاشتراك مع عمدتها ، للدعوة إلى المقاطعة التجارية لألمانيا .

وفى ٢١ من يونيو ١٩٣٣ م قدم الاتحاد الصهيونى الألمانى (ZVFD) إلى الحكومة النازية مذكرة يقترح فيها أن « تعترف الدولة الألمانية الجديدة بالحركة الصهيونية ، باعتبارها التنظيم اليهودى المتميز ، للتعامل مع ألمانيا الجديدة . ومن ثم تنظيم أوضاع اليهود فى ألمانيا على أساس وضعهم كمجتمع ، لا على أساس الحقوق الفردية . وأخيرا ، لما كانت الهجرة يمكن أن تكون حلا للمسألة اليهودية فيجب أن تعتمد على تأييد الحكومة » ، وأضافت المذكرة : « أنه فى حالة ماإذا رضى الألمان هذا التعاون فإن الصهاينة سوف يبذلون كل جهدهم لتحويل اتجاه اليهود فى الخارج عن المناداة بالمقاطعة المعادية لألمانيا(١) » .

وهكذا عرض القادة الصهاينة أن يحطموا المقاطعة فى مقابل الاعتراف الرسمى بهم ممثلين وحيدين للمجتمع اليهودى .

وانفضت السوق .

وبدأ منذ عام ١٩٣٣ م العمل الاقتصادى المشترك : فأنشئت شركتان هما : هافاريا كومبانى Havaria Company فى تل أبيب ، وبلترو Paltreu فى برلين .

وسارت آلية العملية على النحو التالى : إذا أراد يهودى أن يهاجر فإنه يودع فى بنك فسرمان فى برلين ، أو فى بنك فربورج فى نورمبرج ، مبلغا لايقل عن ١٠٠٠ ألف جنيه استرلينى ، وبهذا المبلغ يمكن للمصدرين اليهود شراء سلع ألمانية تشحن إلى فلسطين ، وتدفع قيمتها طبقا للجنيه الفلسطينى لحساب شركة هافاريا ، فى البنك الأنجلو - فلسطينى ، فى تل أبيب ، وعندما يصل المهاجر إلى فلسطين يتسلم مقابل المبلغ الذى أودعه فى ألمانيا .

---

(١) لوسى دافيدوفتسن : « الحرب ضد اليهود - The wor against The jews (١٩٣٣ - ١٩٤٥) بنجوين بوكس ١٩٧٧ . ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

كانت العملية مربحة للطرفين: فقد نجح النازيون فى تحطيم التكتل (لأن الصهاينة كانوا يبيعون السلع الألمانية حتى فى إنجلترا)، وحقق الصهاينة هجرة «اختيارية»، هى التى كانوا يبتغونها، فالذين كانوا يستطيعون الهجرة هم أصحاب الملايين (الذين كانت رءوس أموالهم تسمح لهم بتنمية الاستعمار الصهيونى فى فلسطين).

ولقد كان من المهم جدا، طبقا لأهداف الصهيونية إنقاذ رءوس الأموال اليهودية من ألمانيا النازية، بما يسمح بتنمية مشروعاتها، وهذا أكثر أهمية من حياة اليهود البائسين، أو غير القادرين على العمل أو الحرب، الذين كانوا عبئا ثقيلا.

وقد اعترف رئيس التنظيم اليهودى العالمى ناحوم جولدمان نفسه، فى (سيرته الذاتية) بالخطأ الذى ارتكب بعدم تأييد المقاطعة الاقتصادية، فقال:

«إننا لو كنا توصلنا إلى خلق مقاطعة فعالة ضد النازية، ولو كنا حملنا ملايين اليهود، وفى مقدمتهم رؤساء اليهودية فى أمريكا وانجلترا، والبلاد الأخرى - على أن يستخدموا نفوذهم كاملا ضد النظام النازى الذى كان لايزال ضعيفا - لو كنا فعلنا ذلك فإننى مقتنع (بما لا أستطيع البرهنة عليه)، وهو أن الملايين من غير اليهود كانوا سوف ينضمون إلينا، وما كانت النتائج المتوقعة ستكون إلغاءً لقوانين نورمبرج، بل على الأقل تخفيفا لأعمال اضطهاد اليهود، وربما تحقق اتفاق ينص على هجرة اليهود الألمان، ونقل جزء مهم من ثرواتهم [1]».

- وفى مقابل ذلك فَهِمَ النازيون تماما، وهم الذين يكرهون اليهود كراهية مطلقة - أن القادة الصهاينة لم يكونوا هم العدو، لأنهم لم ينظموا ضدهم المقاومة فى أى مكان، لافى ألمانيا، ولا فى أى بلد من بلاد العالم، لم ينظموها فى ألمانيا حيث كان هدفهم أن يجنّدوا - كما سنرى - طبقا لقاعدة انتقاء داروينية صارمة، «أكفأ» العناصر لبناء دولة قوية فى فلسطين، ولم ينظموها فى أى مكان فى العالم حيث كانوا يحاولون أن يثنوا اليهود عن المشاركة فى الصراع ضد النازية، مع المناضلين من أجل الحرية.

---

(١) ناحوم جولدمان: سيرة ذاتية - «Avtobiography» ط. فيارد (الترجمة الفرنسية ١٩٧١ ص ١٥٦).

وقد كتب رينهارت هيدريخ ، الذى كان فيما بعد «المفوض» القاسى فى تشيكوسلوفاكيا – كتب عام ١٩٣٥ م ، عندما كان رئيسا لقوات الأمن (S .S .) ، فى صحيفتها الرسمية ، مقالا عن «العدو المرئى» ، فأجرى تفرقة بين اليهود ، قائلا : «يجب أن نقسم اليهود طائفتين : الصهاينة ، وأنصار الاندماج ، فالصهاينة يعتنقون مفهوما عنصريا إلى أقصى درجة ، وهم بالهجرة إلى فلسطين يساعدون على بناء دولتهم الخاصة ، تمنياتنا لهم ، وخير مالدينا من إرادة رسمية» [١] .

وكتب الربانى ستيفن وايز ، الزعيم الصهيونى ، فى صحيفته : «نشرة المؤتمر Bulletin de Congres» – معبرا عن فزعه : «إن الهتلرية هى قومية الشيطان ، وإن القرار بتخليص الجسم القومى الألمانى من العنصر اليهودى قد أدى بهتلر إلى أن يكشف «قرابته» من الصهيونية ، القومية اليهودية المحررة . لقد أصبحت الصهيونية الحزب الوحيد الشرعى فى ألمانيا (غير الحزب النازى) . وإنها لتفرقة مؤلمة للصهيونية أن يكون لها مكان خاص لحساب شريكها الشيطانى وفائدته» [٢] .

وبفضل هذا الموقف الممتاز ، الذى وقفتهَ الصهيونية فى ألمانيا النازية وجه الجستابو فى بافاريا ، فى ٢٨ من يناير ١٩٣٥ إلى الشرطة هذا المنشور : «إن أعضاء التنظيم الصهيونى ، وهم يوجهون نشاطهم تجاه الهجرة إلى فلسطين – لاينبغى أن يعاملوا بنفس الشدة التى يجب أن تستعمل مع أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية ، (الاندماجيين assimilationistes) [٣] .

وهكذا تُخَلِّدُ العلاقاتُ بين الصهاينة والنازيين العلاقاتِ بين هرتزل وفون بلف .

---

(١) هون Order of The dealh's Head » ص ٣٣٣ ، وكذلك شلونز فى كتابه : The « twisted road to Auschwitrzn » ص ١٩٣ – ١٩٤ .

(٢) «بعل ليس إلها – Baal is not god » نشرة جورجيس – ٢٤ من يناير ١٩٣٦ ص ٢ .

(٣) كورت جروسمان : «صهيونيون وغير صهيونيين فى ظل القانون النازى فى الثلاثينيات – Sionistes et non Sionists Sous La Loi nazie dans les années 30 – كتاب هرتزل السنوى – ج ٦ ص ٣٤٠ .

٢ – رفض الاشتراك فى المقاومة ضد الفاشية الهتلرية

إن مساومة من هذا القبيل تستبعد طبعا أى اشتراك فعلى فى مقاومة الهتلرية ، كتب إلياهو بن إليسار ، وهو أحد كبار معاونى مناحم بيجن ، فى كتابه «ديبلوماسية الرايخ الثالث واليهود» يقول : «كان للمسئولين القوميين – الاشتراكيين موقف غاية فى الغموض تجاه الصهيونية» [١]، ذلك أن النازيين كانوا يميزون بدقة بين الصهيونيين وغيرهم من اليهود الألمان ، ولما كانوا يريدون أن يخلصوا بلادهم من اليهود فقد كان طبيعيا أن يفكروا فى فلسطين : فألمانيا للألمان ، واليهود إلى فلسطين ، ولذا ارتفعت دائما صيحة حرب عداء السامية ، وقد كتب هتلر فى سبتمبر ١٩٢١ يقول : «ليس علينا أن نتكلم مع اليهود ، فلا شيء نناقشه معهم ، لأنهم لما كانوا غرباء فليس لهم أدنى حق فى أن يهتموا بشئوننا ، كما أنه ليس من حق ألمانى أن يهتم بسياسة الدولة اليهودية فى فلسطين» [٢].

ويضيف إلياهو بن إليسار ، أن هتلر – بعد ثلاث سنوات من موقفه هذا ، فى كتابه (كفاحى) – أعلن أن اليهود ، بأغلبيتهم ، ليس لديهم نية الاستقرار فى فلسطين ، «إنهم فقط يهدفون إلى إقامة تنظيم مركزى لمشروعهم الدجْلى للدولية العالمية – internation alisme Universel ، وسيكون لهذا التنظيم حقوق سيادة وصيانة من تدخل الدولة الأخرى» (كفاحى ص ٣٠٣) ، ولا ريب أن هتلر لا يحب هذا ، كما يقول إلياهو بن إليسار ، «ولكنه وجد – فقط – أن الصهيونيين هم بالتحديد الذين كانوا مستعدين لتْخليص ألمانيا من يهودها» ، ولما كان هذا الهدف يتفوق على الأهداف الأخرى فإن هتلر سوف يقبل بمنطقه النفعى الذى عرف به أن يتسامح فى تعاليمه النظرية الخاصة [٣].

---

(١) إلياهو بن إليسار : «la diplomatie du III éme Reich et les jeuifs» – ط . جوليارد ١٩٦٩ ص ٨٥ .

(٢) السابق ص ٨٦ . خطاب دورى لهتلر إلى المجموعات المحلية ، وإلى رئيس قسم الحزب القومى الاشتراكى الألمانى . رقم ٥ فى ١٧ – ٩ – ١٩٢١ .

(٣) السابق ص ٨٦ .

ويذكر المؤلف المنشور الصريح الذى أصدرته وزارة الخارجية الألمانية، والذى يقول: «إن الأغراض التى تتوخاها هذه الطائفة (من اليهود الذين يعارضون الاندماج، ويميلون إلى تجميع مشاركيهم فى الدين فى وطن قومى)، وفى مقدمتهم الصهاينة – هى أغراض لا تبتعد كثيراً عن الأهداف التى ترسمها فى الواقع السياسة الألمانية تجاه اليهود» (١).

ويضيف المؤلف الصهيونى: «إن اليهود الوحيدين الذين أقامت معهم الهيئات المختلفة للرايخ الثالث – ولا سيما هيئات الشئون الخارجية والاقتصادية – علاقات عمل حقيقية – هم الصهاينة واليهود الفلسطينيون» (٢).

ولقد أثار هذا السلوك من الزعماء الصهاينة استنكار اليهود المعادين للفاشية فى العالم، ولقى معارضة داخل الحركة الصهيونية ذاتها، «ففى ٢١ من أغسطس عام ١٩٣٣ يفتتح فى براج المؤتمر الصهيونى الثامن عشر، وهو أول مؤتمر ينعقد منذ وصول هتلر إلى السلطة، وكان وضع اليهود فى ألمانيا هو الموضوع الأساسى بداهة، تتركز حوله الاهتمامات والمناقشات، وقد جاء هوفن وروبن إلى براج مباشرة من برلين، ولام عدد كبير من المندوبين هوفن وكوهين، وهما المفاوضان الرئيسان، على أنهما أقاما شركة مصالح مع الشيطان، وأنهما خربا باتفاق الهاعفارا كفاح اليهود ضد السياسة العنصرية للرايخ، ودارت مناقشات حامية، ولكن مذكرة كانت تطالب بالمشاركة الفعلية فى تنظيم جهود مقاطعة ألمانيا – لم يوافق عليها، ثم أعلن فى وزارة الخارجية مع الاقتناع الكامل أن اتفاق الهاعفارا قد قوى وضع الأغلبية المعتدلة من المندوبين» (٣).

---

(١) خطاب دورى من بلوشفانت إلى جميع البعثات الدبلوماسية فى الرايخ الثالث رقم ٨٣ – ٢١ و ٢٨ – ٢ و ٢٨ – ٢ – ١٠٣٤.

(٢) السابق ص ٨٧ (٣) السابق ص ٩٣ – ٩٤.

وبذلك ازداد وضع الصهاينة فى ألمانيا قوة، فووفق للتنظيم الصهيونى على أن يفتتح فى ألمانيا مركزا للتدريب المهنى، والزراعى للمرشحين للهجرة، الراغبين فى أن يتجهزوا لحياة جديدة فى الشرق الأوسط، ونظمت دراسات للغة العبرية فى كثير من المدن، وبإشراف رجل ذى قيمة كبيرة، هو روبرت فلتش Robert WELTSCH، وصدرت صحيفة صهيونية هى جوديش روندشو Jüdische Rundschau فأدخلت إلى آلاف البيوت اليهودية الأمل فى حياة أفضل، ووافق وزير الداخلية على اشتراك وفد من الصهاينة الألمان فى المؤتمر الصهيونى التاسع عشر [1].

وعلى الرغم من القرار الذى اتخذ فى ١٩ من ديسمبر عام ١٩٣٤ بحظر ارتداء أعضاء حركات الشباب اليهودى لأزيائهم التقليدية، فقد أصدر – فى ١٣ من إبريل عام ١٩٣٥ – البوليس السياسى فى بافاريا، وقد كان إقطاعية حقيقية لهملر وهدريخ فى ذاك الوقت، موافقة استثنائية بارتداء الزى للمنضمين إلى إحدى هذه الحركات «فقد اتضح أن «صهاينة الدولة» هم أصحاب التنظيم الذى يحاول بكل الوسائل، حتى ولو كانت غير مشروعة – أن يرسل أعضاءه إلى فلسطين، بل إن نشاطه قد اتجه بإصرار وقوة نحو الهجرة، وهو بذلك يمضى فى نفس الاتجاه الذى تستهدفه الحكومة، ألا وهو ترحيل اليهود من ألمانيا» [2].

وقد كتب بولوشفانت إلى وزير الداخلية يقول: «ليس هنالك من سبب لتقييد النشاط الصهيونى فى ألمانيا بإجراءات إدارية، لأن الصهيونية لا تتعارض مع البرنامج القومى – الاشتراكى الذى يستهدف ترحيل اليهود من ألمانيا تدريجيا» [3].

---

(١) رسالة هيرنج إلى الاتحاد الصهيونى لألمانيا – رقم ١ أ ٤١٦/٥٠١٢.

(٢) منشور برونر إلى جميع قوات الشرطة رقم ١٧٩٢٩/٣٥.

(٣) وثيقة رقم ٦٢٣ ملف C × LV.

وقد اعترف الفريد روز نبرج نفسه، فى حديث أجراه معه ريمون كارتيه فى ٣ من مايو عام ١٩٣٥، لصحيفة إيكو دوباريس - Echo de Paris - اعترف بحسنات الصهيونية لأنها تعارض اندماج اليهود [١].

بل إن أحد القانونين الصادرين فى نورمبرج، وهو قانون «حماية الدم والشرف الألمانيين»، والذى يحظر على اليهود أن يرفعوا العلم القومى ذا الصليب المعقوف - سمح لهم أن يزينوا العلم الصهيونى «بالألوان اليهودية» التى لم تكن سوى الأزرق والأبيض، تقطعهما نجمة داود» [٢].

وبصرف النظر عن إسقاط بضع عشرات من المظليين المتطوعين الذين جاءوا إلى فلسطين ليتصلوا بزملائهم اليوغسلافيين، والبولنديين - فإن التنظيم الصهيونى العالمى الذى كان يتحكم عبر العالم كله فى وسائل الدعاية، والوسائل المالية، والأسلحة، كان أول ما يطلبه من القوى الكبرى هو الهجرة بلا قيد إلى فلسطين، وإعداد جيش يهودى تكون مهمته، لا قتال النازيين خلال الحرب، بل ضرب الإنجليز، وعلى الأخص العرب، بمجرد انتهاء الحرب.

ولقد أوضحت حنة أرنث فى كتابها «إيخمان فى القدس»، (ص ١٣٤ - ١٤١) السلبية، بل والتواطؤ الذى مارسته «المجالس اليهودية» (Judeurat) فى عملها المشترك مع النازيين، فقد كان ثلثا هذه المجالس يديره صهاينة.

هذا على حين أن آلافا من الألمان، وبينهم عدد كبير من اليهود، كانوا فى نفس الوقت يحاربون ببطولة فى إسبانيا، ضد الفاشية، وضد فيلق الكوندور الهتلرى.

إن أكثر من ٣٠٪ من الأمريكيين المتطوعين من لواء إبراهام لنكولن فى الألوية الدولية بإسبانيا - كانوا يهودا، وكان بالفرقة البولندية (دوبروفسكى) التى كان تعدادها ٥,٠٠٠ بولندى - كان بها ٢,٢٥٠ يهوديا (أى: أكثر من ٤٥٪)- جاء هؤلاء ليقاتلوا ويموتوا فى جبال إسبانيا، ضد الفاشية، المعادية للسامية، وضد قوات هتلر.

---

(١) فقرة ٤ من القانون (حماية الدم والشرف الألمانى) ١٩٣٥.

(٢) إلياهو بن إليسار - السابق ص ١٨٦ - ١٨٧.

والحق، كما يقول بيجن، أن الدولة الصهيونية قد خَلَقَتْ، للمرة الأولى فى التاريخ، منذ ألف وخمسمائة سنة، نموذجا مستحدثا من اليهود، هو: اليهودى المحارب، لقد شارك اليهودى العبرانى، فى إسبانيا، وفى غيرها من البلاد، فى معارك الحرية، قبل أن يوجهه الصهاينة إلى الحرب العدوانية، لكن زعماء الصهيونية لم يكونوا يريدون ذلك الصراع: ففى ٢٤ من ديسمبر عام ١٩٣٧، أدانت الصحيفة اليومية الصهيونيةفى فلسطين اليهود الأمريكيين المتطوعين فى لواء إبراهام لنكولن، والذين يقاتلون فى إسبانيا، بدلا من أن يجيئوا للعمل فى فلسطين [١].

ولقد طلب الزعماء الصهاينة من اليهود الإنجليز، الذين نظموا فى بلادهم، الكفاح، مع غيرهم من المناضلين من أجل الحرية، ضد المعادى للسامية موسلى، وهو فوهرر «الاتحاد البريطانى للفاشيست» (.B.U.F)، والذى كان يقلد هتلر – طلب الزعماء من هؤلاء اليهود أن يتحولوا عن هذا الكفاح، فهو بلا جدوى، وقال أحد ممثليهم فى لندن، فى مقالة نشرت بعنوان: «هل يجب على اليهود أن يشاركوا فى الحركات ضد الفاشية؟»، وأجاب بقوله: «لا، فهناك ثلاثة مثل عليا تتطلب مساعدة اليهود، هى:

١ – وحدة الشعب اليهودى.
٢ – الحاجة إلى قدر كبير من الكبرياء اليهودى.
٣ – بناء أرض إسرائيل.

فنحن نضيع وقتنا حين نسأل أنفسنا إن كان يجب أن نشارك فى المنظمات المعادية للفاشية» [٢].

---

(١) انظر: جويش لايف – Jewish life (إبريل ١٩٣٨ ص/١١).

(٢) رفائيل بويل: «الصهيونى الشاب – «Young Sionist»» لندن – أغسطس عام ١٩٣٤، ص ٦.

ويقص ناحوم جولدمان نفسه فى «سيرته الذاتية» لقاءه الدرامى مع وزير الشئون الخارجية التشيكى، إدوارد بنيز عام ١٩٣٥، وهو يلوم الصهاينة على أنهم حطموا مقاطعة هتلر بالهاعفارا، (وهى اتفاقات التحويل)، وبرفض التنظيم الصهيونى العالمى أن ينظم المقاومة ضد النازية.

وها هو ذا ناحوم جولدمان، رئيس التنظيم الصهيونى العالمى، ثم رئيس «المؤتمر اليهودى العالمى» يعترف، فيما يشبه النقد الذاتى، الذى لم يأت متأخراً فحسب، بل جاء سطحيا أيضاً – يعترف بالخطأ فى أنهم لم يكافحوا الهتلرية، ولكنه ينسب هذا إلى تخاذل الرجال، لا إلى المنطق الداخلى للصهيونية.

«ليس لنا عذر إذا ما هوجمنا، دون أن نستطيع رد الهجوم، إن كل ما استطاع هتلر ونظامُه فعلَه بنا كان معلنا من قبل سنوات بكل استهانة واحتقار، ولقد دفعتنا سذاجتنا، ودفعنا تفاؤلنا إلى التهوين من هذه النذر، وذلك هو السبب فى أننا فى هذه المرحلة المخزية للشعب اليهودى لم يكن لنا عذر، لا لجيلنا فى مجموعه، ولا للجانب الأكبر من الزعماء اليهود، فأما جيلنا فقد كان مُدَاناً بأنه شهد إبادة أكثر من ثلث شعبه، ليس ذلك فحسب، بل إنه ليتحمل الخطأ فى أنه تحملها دون أن ينظم دفاعا جديراً بهذا الاسم، ولقد حدث لى خلال سنوات من الكفاح العقيم ضد النازية بكل ما صحبه من خيبة الأمل – أنى وجدت الزعماء غير اليهود يزيدوننى فهما أكثر مما يفيدنى الزعماء اليهود، وسوف أقدم مثالا على ذلك محادثةً جرت فى جنيف مع وزير الشئون الخارجية لتشيكوسلوفاكيا، الذى كنت أرد له الزيارة بعد قليل من إعلان قوانين نورمبرج، لقد رأيته اليوم أيضا أمامى، فى صالونه المثلث، فى فندق بوريفاج، وقد أخذ خلال ساعتين يذرع الغرفة ذهابا وجيئة فى عصبية، بلغت تقريبا حد الصراخ، ويقذفنى بألفاظ اللوم العنيفة، قائلا: لماذا لم يقاوم الشعب اليهودى فوراً، وبالقدر الكافى؟ ولماذا لم نَدْعُ، أنا ورفاق، فوراً إلى مؤتمر عالمى يهودى لإعلان حرب بلا هوادة على النازية؟، ولقد طمأننى أنه هو وبعض الرجال الآخرين فى الدولة، غير اليهود، لن يمنعوا دعمهم، ثم قال:

«ألا تفهمون إذن أن اليهود يعرِّضون للخطر مستقبلهم، ومساواتهم القانونية فى العالم كله إذا لم يكن منهم سوى أن يقاوموا بهذه الطريقة الفاترة، دون أن يهزوا الرأى العام العالمى، ودون أن يتخذوا الإجراءات الشجاعة ضد الألمان؟.

لسوف يصبح مثال هتلر نموذجا يحتذى، إذ إنه سوف يشجع جميع المعادين للسامية فى العالم».

ثم يقول جولدمان:

«لقد شاركت طيلة حياتى فى محادثات كثيرة وصعبة، غير أنى لم أشعر مطلقا بهذا القدر من التعاسة والخجل الذى شعرت به خلال هاتين الساعتين، لقد كنت أشعر بكل ذرات كيانى أن بنيز على حق»[1].

وهناك مثال مأساوى بصفة خاصة، هو مثال بولندا.

فإن هدف القادة الصهاينة لم يكن الدفاع عن اليهود فى بولندا نفسها، ولكن كان هدفهم إعداد «أقلية نشطة» من أجل تنظيم غزو فلسطين، وفى ربيع عام ١٩٣٩ كان خمسة وعشرون عضوا فى الأرجون (عصابة مناحم بيجن) قد تدربوا فى زكوبان Zakopane، فى غابات تتراس Tatras، على فن التخريب والمؤامرات والتمرد المسلح، تحت قيادة معلمين بولنديين[2]، قدمتهم الحكومة المعادية للسامية، التى كان يرأسها الكولونيل بك.

---

(١) ناحوم جولدمان: «سيرة ذاتية - «autobiographie» ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) دانيل ليفين: «دافيدريزيل: الرجل وعصره - David Reziel: The man and his times» ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

وقد كان أبراهام شتيرن، الذى كان عضوا فى الجناح الفاشستى للصهيونية – يحاول تنظيم الذهاب إلى فلسطين، بمساعدة موسولينى ضد الإنجليز [١].

ومن ناحية أخرى، عندما دخل النازيون بولندا، وتلقى الجيش البولندى الأمر بمغادرة وارسو، التى أعلنت مدينة مفتوحة – هرب جميع الزعماء الصهاينة، ولا سيما رئيس التنظيم الصهيونى البولندى موشى سنيه، ورئيس المنظمة العسكريةBetaro مناجم بيجن، أما سنيه Sneh فقد وصل إلى فلسطين، حيث قاد عصابة الهاجاناه من عام ١٩٤١ إلى ١٩٤٦، وأما بيجن فقد اعتقله الروس فى ليتوانيا، ثم أفرجوا عنه عندما غزا النازيون الاتحاد السوفيتى، ولم تكن لديه مطلقا نية أن يبقى ليناضل فى بولندا، فقد كان رتب نفسه على الرحيل إلى فلسطين منذ اعتقاله، وكتب يقول فى هذا الصدد: «كنت قد تسلمت جواز مرور إلى كوفنو Kovno، لى ولزوجى، وتسلمت أيضا تأشيرة دخول إلى فلسطين، وكنا على أهبة الرحيل، بيد أن اعتقالى حال دون ذلك» [٢].

---

(١) السابق ص ٢٦٠، ولقد لعب القادة الصهاينة على الحبلين، إذ توقعوا معارضة انجلترا، فاتصلوا بموسولينى منذ عام ١٩٢٢، فاستقبلهم بعد دخوله روما فى أكتوبر عام ١٩٢٢ – يوم ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٢٢ (انظر: الجاسوس، حياة إنزوسيرنى – Ruth Bondy: The emissary, A life of Enzo Sereni، ص ٤٥)، وقد قابل موسولينى وايزمان فى ٣ من يناير عام ١٩٢٣، ثم قابله فى ١٧ من سبتمبر عام ١٩٢٦، ثم جرت محادثات بين ناحوم جولدمان، رئيس التنظيم الصهيونى العالمى، فى ٢٦ من أكتوبر عام ١٩٢٧، وبين موسولينى، الذى قال له: «إننى سوف أساعدك على إنشاء دولة يهودية»، (ناحوم جولدمان: «سيرة ذاتية»، السابق ص ١٧٠).

(٢) مناحم بيجن: الليالى البيضاء – «White nights» ص ٨٤ – ٨٥.

وتلقى (بيجن) من فلسطين رسالة تلومه على هربه من العاصمة البولندية، فى حين أن اليهود الآخرين تُركوا فيها، ثم تقول الرسالة:

«لقد كان عليه باعتباره قائداً للمنظمة العسكرية - Betar - أن يكون آخر من يغادر السفينة المشرفة على الغرق»[1].

وحين دخل النازيون وارسو أنشأوا «مجلسا يهوديا»، (Judeurat) وجعلوا على رأسه آدم تشرنياكو A. Czerniakow، وهو صهيونى رئيس لجمعية أنصار اليهود[2]، وكان النازيون يعيّنون على رأس هذه «المجالس» (Rat) من يتحكمون فيهم من الصهاينة، وقد منح النازيون خلال بضعة أشهر لليهود موافقات للرحيل إلى فلسطين، واستغلها القادة الصهاينة لتسفير زعماء حركتهم، ويحكى آدم تشرنياكو أنه تلقى هذا العرض ورفضه باحتقار قائلا لأحد القادة الصهاينة الذى استغل العرض ليدلف إلى فلسطين:

«أنت قذر دنىء، ... تدعى أنك زعيم، وتجرى فى التيار، مع هؤلاء الذين هم من نوعك، تاركين الجماهير فى هذا الوضع الرهيب»[3].

لم تقتصر الحال على أن هجر القادة الصهاينة وارسو، الجيتو أو (المنبذ)، بل إن الذين رأسوا «المجالس» أنفسهم لم يفعلوا شيئا لتنظيم المقاومة[4].

---

(١) ليسترا إيخمان وجيرترود هيرشلر: «مناحم بيجن» ص ٥٠.

(٢) برتراند جولدستن: «النجوم تشهد - «The Stars bear Wittness» ص ٣٥، وبلومنتال وكرمش ص ٢ « «THE Worshaw diary of A. Crezerniakow» يوميات آدم زرنوفسكى فى وارسوا ص ٢.

(٣) السابق. ص ١١٩

(٤) إيزياه ترنك «المقاومة اليهودية خلال المذابح «Jeursh resistance during the Holocaust» ص ٢٥٧، وإسرائيل جتمان (du Yadvashem Holocaust d' Israel): نشأة المقاومة فى منبذ وارسو - The genesis of the Resistance in Warshaw ghetto، وهو يعترف بنتائج هرب الزعماء.

وفى يوليو عام ١٩٤٢ انتحر آدم تشرنياكو، عندما أخرج النازيون ٣٠٠,٠٠٠ ثلثمائة ألف يهودى من منبذ وارسو، وكان انتحاره حتى لا يستمر فى التعاون مع النازيين أكثر من هذا.

وقد لام أحد المؤرخين الكبار لثورة الجيتو فى وارسو الدكتور ناثان إيك لدفاعه عن السياسة السلبية للزعماء، ووبخه فى إبريل عام ١٩٦٨، قائلا: «أتظنون أننا لو كنا انتظرنا حتى النهاية، وعملنا تبعا لنصائح القادة أكانت الثورة يمكن أن تقوم...؟ إننى أعتقد أنه ما كانت الثورة لتكون مطلقا، وأنا أتحدى الدكتور ديك أن يأتى بدليل مقنع على أن الزعماء كانوا يفكرون أدنى تفكير فى إحداث ثورة»[(١)].

وأَعْجَبُ مَثَلٍ فى هذا الموقف مَثَل موردخاى أريل فيتز، ذلك الصهيونى، ذو الأربعة والعشرين عاما، فقد عاد مختاراً من فيلنا Vilna، ليموت فى المعركة النهائية للجيتو، وهو مثال لا يمكن أن ينسينا الموقف الثابت للزعماء الصهاينة، والذى يتمثل فى حرصهم الشديد على إنشاء دولتهم فى فلسطين، ولذلك لم يعطوا أية دفعة للمقاومة.

إن الزعماء الصهاينة الذين اتخذوا من «المذبحة» حجتهم الأساسية صمتوا فى الوقت الذى كان يتعين عليهم أن يُعَرِّفوا العالم بالواقع المروع، حتى يضعوا نهاية للمجزرة.

لقد اتهم بعض الضحايا – ابتداء – «الوكالة اليهودية» بأنها أفلست فى دورها للإعلام بالمشكلة، وفى الحشد لها، واتهموا الزعماء بأنهم لم يكشفوا الخطط للحلفاء، كخطط الربانى دون وسماند، التى كان تحقيقها كفيلا بتوفير آلاف الأرواح.

---

(١) إسرائيل جتمان: المقاومة الإسرائيلية خلال المذبحة – «Jewish resistance duriug the holocoust» ص ١٤٨.

وقال صموئيل تامير، الذى كان وزيراً للعدل فى إسرائيل عن قضية كاستنر: «إنه حتى منتصف يوليو عام ١٩٤٤، أى: بعد ستة أسابيع من بدء الإيقاع الرهيب، لاثنى عشر ألف قتيل فى اليوم – لم تُقَلْ كلمة واحدة رسمية، من الوكالة اليهودية، أو من أحد الزعماء الصهيونيين، للكشف عن أن الإبعاد الجماعى الضخم قد بدأ، وأن نصف مليون من الناس من قبل قد أبيدوا.

لقد كان لدى الوكالة اليهودية آنذاك أفضل المعلومات، وأدقها عن مصير اليهود فى المجر، وعن الإبعاد، ولم يكن هناك رقابة بريطانية فى هذا الصدد، على ما ثبت أمام المحكمة، ..... فخلال شهر ونصف الشهر، ألغى السيد شاريت والوكالة اليهودية عن عمد واختيار جميع الأخبار التى كانت لديهم»[١]، ويتابع تامير حديثه قائلا: «لماذا هذا الإلغاء للأخبار المروعة، الذى أقدم عليه بن جوريون، وشاريت، ووايزمان، وجميع الزعماء الرسميين؟.. لأن الشعب فى فلسطين لو عرف ما كان يجرى فى المجر، ولو عرف أن قلوب زعمائه كانت من حجر، لهبت عاصفة على أرضنا، ولسقطت السلطة من أيديهم، وهذا فيما يبدو كان أهم شىء فى تقديرهم»[٢].

نعم، كانت العاصفة ستهب، لأن هؤلاء الذين سيقوا إلى الموت قد بعثوا برسائل تبين الطريق إلى إنقاذ الآلاف من بينهم.

وقد كان الربانى ميشيل دوف وسماندل، فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٤ – قد اختفى فى كهف بالقرب من لوبلن، فأوصل إلى الوكالة اليهودية هذه الرسالة:

---

(١) بن هشت: «الخديعة Perfidy» – مؤسسة جوليا نسنر، نيويورك ١٩٦١ ص ١٤٥.

(٢) السابق ص ١٤٧.

«أنتم يا إخواننا فى فلسطين، وفى كل البلاد، أحرار، أنتم ياوزراء كل الممالك، كيف تقدرون على التزام الصمت أمام عشرات الألوف من القتلى؟..» إن هؤلاء الزعماء الصهاينة الذين وجهوا إلى الحلفاء إنذارا نهائيا، فى برنامج بلتيمور، منذ عام ١٩٤٢، حين تعلق الموقف «بدولتهم»، هؤلاء الزعماء أنفسهم لم ينقلوا إلى الحلفاء الخطط المحددة للإنقاذ، التى وجهها إليهم، بين ما وجه - الربانى ميشيل دوف وسماندل، وقد كتب يقول: -

«إننا نطلب أن تُهدمَ أفران أشفتز بالقنابل من الجو، فهى مرئية بصورة كاملة، على ما تبينه الخريطة المرفقة، إن ضربْها بالقنابل على هذا النحو قد يؤخر أعمال القتلة، ومما له كبير أهمية أيضا أن تضرب الطرق الحديدية بين المجر الغربية وبولندا، وتضرب الكبارى بجوار الكَرْبَات[1]، اتركوا قضاياكم الأخرى تسقط، وافعلوا هذا، وتذكروا أن كل يوم تعيشونه فى الغفلة يقتل عشرة آلاف نفس.

إنكم يا إخواننا، أبناء إسرائيل، أأنتم مجانين؟ ألا ترون الجحيم من حولنا؟ ثم لمن تحتفظون بأموالكم؟ يالكم من قتلة، ومجانين»[2].

وقد كان الربانى وسماندل يحاول أن يجد لهم عذرا فقال: «ربما لم تكونوا على علم بما كان».

وفى قضية كاستنر سئل مناحم بادر رجل الوكالة اليهودية: هل تلقيت هذه الرسالة من الربانى وسماندل؟. فأجاب: «إن رسائل من هذا القبيل كانت تصلنا كل يوم»[3].

---

(١) سلسلة جبال فى أوربا الوسطى، أعلى سهول تشيكوسلوفاكيا والمجر، وهى تمتد من براتسلافا حتى الأبواب الحديدية على الدانوب (المترجم).

(٢) الربانى ميشيل دوف وسماندل: «مستند الدفاع - Exhibit of the defence» رقم ٣٦: State attorny V. M. Greenuvald district Court. Jerusalem 22, 124/53.

(٣) بن هاشت: «الخديعة» السابق ص ١٤٣.

٣ – تعاون القادة الصهاينة مع النازيين

إن أدل مثال على تعاون القادة الصهاينة مع النازيين هو مثال رودلف كاستنر، نائب رئيس التنظيم الصهيونى «فمع هذا الرجل كان إيخمان يتفاوض، إبان إبعاد اليهود فى المجر، وقد توصل هذان الرجلان إلى اتفاق، بمقتضاه يسمح إيخمان «بصورة غير قانونية» لعدة الآف من اليهود بالسفر إلى فلسطين، (والواقع أن قطاراتهم كانت تحرسها الشرطة الألمانية)، وفى مقابل ذلك كان «النظام والهدوء يخيمان فى المعسكرات التى أعدت لترحيل مئات الألوف من اليهود، بإشراف أشوتز، كان بين الناجين بضعة آلاف مذكورين فى هذا الاتفاق، هم من اليهود ذوى الشأن، ومن أعضاء التنظيمات الصهيونية للشباب» «وهم أفضل مادة بيولوجية»، تبعا للمصطلحات التى استخدمها إيخمان نفسه، وعلى حسب قوله: إن الدكتور كاستنر ربما ضحى بإخوانه فى الدين من أجل «فكرة» معينة، وقد حدث ذلك فعلًا.

كان القاضى بنيامين هالفى – وهو أحد ثلاثة قضاة حاضرين فى قضية إيخمان – قد ترأس قضية كاستنر، وفيها اتهم كاستنر بأنه تعاون مع إيخمان، وغيره من النازيين من ذوى المكانة الرفيعة، وقد كان هالفى يرى أن كاستنر قد «باع نفسه للشيطان»(١).

وعندما نشر صحفى إسرائيلى – هو ملشيل جرنيوالد – جرائم كاستنر، رفعت ضده الحكومة الإسرائيلية قضية قذف وتشنيع. بيد أن المحكمة اعترفت بواقع الأحداث، وبرأته، وأدانت الحكومة الإسرائيلية ذاتها، وألزمتها بأن تدفع إلى جرينوالد مصاريف القضية.

وإليكم بعض مقتطفات من مرافعة القاضى بنيامين هالفى:

«لقد أفاد النازيون من دروس منبذ (جيتو) وارسو... وكانوا يعرفون أن اليهود كان يمكن أن يبيعوا حياتهم بثمن غال، لو كان على رأسهم رجال شرفاء.

---

(١) حنه أرنت «إيخمان فى القدس» السابق – ص ٥٤.

ولم يكن إيخمان يريد وارسو جديدة، ولذا جهد النازيون فى أن يبدلوا اتجاه القادة اليهود ويفسدوهم، وكان القادة النازيون يعرفون أن الصهاينة هم العنصر الحاسم... [1].

ولكى يحصل كاستنر على حق ترحيل ١٦٨٤ شخصا من العناصر «النافعة» فى تحقيق الأهداف الصهيونية بفلسطين، تعهد لإيخمان بأن يسافر الـ ٤٧٠,٠٠٠ ألفا من اليهود دون مقاومة، فقد أخفى عنهم كاستنر أنهم يرسلونهم إلى الإبادة، وجعلهم يعتقدون أن المسألة مجرد انتقال، ويتابع القاضى هالفى حديثه قائلا: «وسافرت جموع اليهود المنبوذين من المجر، فى هدوء على قطارات النفى، غير عالمين بمصيرهم، وقد كانوا على ثقة كاملة بما زيف لهم من أخبار أنهم مرحلون فقط إلى كينرميز... لقد كانت التضحية بحياة الأغلبية اليهودية من أجل إنقاذ «نخبة» أساس الاتفاق بين كاستنر والنازيين، فى حين أن الآلاف من يهود الكلوج Kluj وندفار Nodvard، وسائر المجتمعات الأخرى – كانوا يستطيعون أن يهربوا من الحدود (رومانيا)، لو كان قادة «لجنة المساعدة» قد أدوا واجبهم».

ويذكر القاضى هالفى أن كاستنر تدخل لإنقاذ أحد مفاوضيه النازيين، وهو أحد جلادى هملر، مساعد الرئيس كورت بيشر، الذى أفلتته شهادة كاستنر فى محاكمة نورمبرج من العقاب، وكان القاضى صريحا وهو يقول:

«لا حقيقة، ولا إيمان فى شهادة كاستنر، لقد أقسم الرجل زورا متعمدا، فى شهادته أمام هذه المحكمة، عندما أنكر أنه يتدخل لصالح بيشر، فضلا عن أنه أخفى هذا الحدث الهام: وهو أن سعيه لصالح بيشر كان يقدم باسم الوكالة اليهودية، والمؤتمر اليهودى العالمى... ومن الواضح أن توصية كاستنر لم تكن باسمه الشخصى، وإنما كذلك باسم الوكالة اليهودية، واسم المؤتمر اليهودى العالمى... ولذلك أفرج الحلفاء عن بيشر.

---

(١) محاكمة القاضى بنيامين هالفى، حالة جنائية ١٢٤/٥٣ مرافعة المحامى العام ملشيل جرنيوالد، دائرة المنطقة – القدس – ٢٢ من يونيو ١٩٥٥.

وبعد الحكم تزلزل الرأى العام الإسرائيلى، فكتب الدكتور موشى كيرن فى صحيفة «هاآرتز»، فى ١٤ من يوليو عام ١٩٥٥: «إن كاستنر يجب أن يجرّم بالتعاون مع النازيين...» غير أن الصحيفة المسائية «يديعوت أحرنوت» (فى ٢٣ من يونيو ١٩٥٥) أخذت تفسر بإصرار: لماذا لا يمكن تجريمه... «لو أن كاستنر حوكم لغامرت الحكومة بأكملها بالانهيار الشامل أمام الشعب، بمجرد أن تتكشف هذه القضية».

ولكن كاستنر مات «لِأَجَلِهِ»، ورفعت الحكومة الإسرائيلية قضيته أمام المحكمة العليا، فأما أغلبية قضاتها فإنهم لم يكتفوا «برد اعتبار» كاستنر، بل لقد تضامنوا معه، وكانت الحجة الجوهرية لدى القاضى شلوموشسين، الذى تلا الحكم باسم أغلبية المحكمة - أن «اليهود المجرميين كانوا فرعا ميتا على الشجرة منذ دهر طويل... وأنهم لم يكونوا قادرين ماديا أو ذهنيا على ممارسة المقاومة...»[1].

هذا الاحتقار للجمهور اليهودى كان يبرر - على هذا النحو - أن يخدعوا أربعمائة وسبعين ألف يهودى، ليتكدسوا دون أن ينبسوا ببنت شفة، فى قطارات الموت إلى أشفيتز، على حين أن بضع مئات من الشخصيات «البارزة» يسافرون إلى فلسطين.

هذه «الداروينية» الاجتماعية، القائمة على «اختيار الأصلح» تتطابق تماما مع إيديولوجية القادة الصهاينة، كما تتطابق مع إيديولوجية هتلر.

وإذن، إن ما يستخلص من قضية كاستنر هو أن خطأ فرد أو جريمته لا قيمة لهما، فهما لا يعنيان سوى عجز إنسان ما، أما المأساة الحقيقية فهى أن محكمة عليا، بدعوة من الحكومة تتضامن معه، فنحن هنا أمام جريمة دولة، أضفت عليها الشرعية إيديولوجية فاشية.

---

(١) مذكور فى بن هشت: «الخديعة» - السابق ص ٢٧٠ - ٢٧٢.

ومثال آخر أعظم إثارة، هو تعاون الزعماء الصهاينة، وبخاصة مجموعة شتيرن، التى يقودها إسحاق شامير مع الحكومة الهتلرية.

هذه المجموعة التى تُدْعَى (لوهى – Lehi)، وهى الحروف الأولى من تعبير بمعنى (المقاتلون من أجل حرية إسرائيل) – قد اتهمت من قبل بن جوريون بارتكاب جريمة لا تغتفر من الناحية الأخلاقية: أنها نادت بعهدٍ مع هتلر، ومع ألمانيا النازية، ضد انجلترا» [1].

ومن قبل، فى ٧ من يوليو عام ١٩٣٣، اتهم دافيد بن جوريون فى الصحيفة الصهيونية (دافار) تصرفات فلاديميرجابوتنسكى (أستاذ مناحم بيجن) فى ألمانيا النازية، فقال: «بمجرد وصول هتلر إلى السلطة فى ألمانيا، وكانت اضطهادات اليهود الماركسيين على قدم وساق – فى ذلك الوقت جاء فلاديميرجابوتنسكى إلى برلين، وألقى خطبة عامة أثار فيها الكراهية ضد الماركسيين، والشيوعيين فى الحركة الصهيونية، فى فلسطين» [2].

لقد أنشئت مجموعة شتيرن على يد قائدها شتيرن الذى كان مساعده إسحاق شامير (الذى كان يدعى فى ذلك الوقت: أى. يزرنتسكى)، وبعد موت شتيرن، الذى قتله الإنجليز عام ١٩٤٢ – أدارت الجماعة قيادة ثلاثية مكونة من: إسرائيل إيلداد سنيب، وناتان يلين – مور، وإسحاق شامير، رئيس العمليات [3].

---

(١) بارزوهر: «بن جوريون: النبى المسلح – «Ben gourionLe Prophete armé ;» – ط. فيارد – باريس ١٩٦٦ ص ٩٩.

(٢) جوزيف ب. شختمان: «مقاتل ونبى – «Fighter and Prophet» قصة فلاديمير جابوتنسكى (نيويورك – لندن ١٩٦١) ص ١٨٥ و ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

(٣) فريد جولدستن: «الأرجون – L' Irgoun» ط. فرانس امبير مقدمة مناحم بيجن.

وقد تمت الاتصالات الأولى بالدولتين الفاشيتين، مع القنصل الإيطالى العام فى القدس، الكونت كينتو مازيلينو، ولكنها لم تؤد إلى أية نتيجة»[1].

ثم توجهت مجموعة شيترن مباشرة آنذاك إلى ألمانيا النازية، وكان أول مبعوث لها هو لوبنتشيك، أرسله إسحاق شامير إلى فون هنتج، مدير الخدمات السرية (المخابرات) النازية بدمشق، ثم تمت مقابلة أخرى، بوساطة نايلين تامور.

ويؤكد أحد القادة التاريخيين لمجموعة شتيرن، إسرائيل إيلداد سنيب، فى مقال منشور بالصحيفة اليومية بتل أبيب (يديعوت أحرنوت)، فى ٤ من فبراير عام ١٩٨٣ - يؤكد واقعة المفاوضات بين حركته، وبين الممثلين الرسميين لألمانيا النازية، قائلا: إن هؤلاء الرفاق قد أوضحوا للنازيين أن «وحدة فى المصالح بين نظام جديد فى أوربا، تبعا للمفهوم الألمانى، ومطامح الشعب اليهودى فى فلسطين، ممثلة فى المقاتلين من أجل حرية إسرائيل (لوهى) -- هى وحدة محتملة».

وقد كان هذا المقال تعقيبا على مقال نشرته صحيفة «هاآرتس» فى ٣١ من يناير ١٩٨٣، وفى هذا المقال ورد ذكر رسالة عليها عبارة «سرى»، موجهة فى يناير عام ١٩٤١ من سفير هتلر فى أنقرة، فرانزفون بابن، إلى وزارته، يقص فيها خبر اتصالاته مع زعماء مجموعة شتيرن، وأضيف إلى الرسالة مذكرة من عميل المخابرات السرية النازية فى دمشق، فرنر أوتو فون هنتج، عن المفاوضات مع مبعوثى شتيرن، وإسحاق شامير، وقد قال فى هذه المذكرة: «إن التعاون بين حركة تحرير إسرائيل والنظام الجديد فى أوربا سوف يكون مطابقا لما جاء فى إحدى خطب مستشار الرايخ الثالث، التى يؤكد فيها هتلر ضرورة استخدام جميع العلاقات، والتحالفات لعزل انجلترا وهزيمتها».

---

(١) فريد جولستين: «الأرجون»، طبعات فرانس امبير، تقديم مناحم بيجن.

وقيل فيها أيضا: إن مجموعة شتيرن «ذات علاقة وثيقة بالحركات الاستبدادية فى أوربا، إيديولوجية وتنظيماً»، هذه الوثائق موجودة فى متحف المذابح (يادفاشيم Yad vachem) بالقدس، مرتبة تحت رقم E 234151- 8.

وفى ١٩ من أغسطس عام ١٩٨٣ يكشف إليعازر هاليفى، وهو نقابى عمالى، وعضو فى كيبوتز يافا، فى الصحيفة الأسبوعية «هو تام» بتل أبيب – عن وجود وثيقة موقعة من إسحاق شامير (الذى كان يسمى آنذاك يزرنتسكى) وابراهام شتيرن، وقد سلمت إلى سفارة ألمانيا بأنقرة، فى حين كانت الحرب فى أوربا مستعرة، وكانت جحافل المارشال روميل مازالت على الأرض المصرية، وكانت إبادة اليهود على يد النازيين لا تكف عن الاشتداد – جاء فى هذه الوثيقة على الأخص: «أما من حيث المفهوم، فنحن متحدون معكم، فلماذا إذن لا يتعاون بعضنا مع بعض».

إن الكتاب الذى نطرحه الآن لا يوجد إلا بالعبرية وترجمة عنوانه هى:

دافيد إسرائيلى، الرايخ الألمانى وأرض إسرائيل

مشكلة أرض إسرائيل فى السياسة.

الألمانية، ١٨٨٩ – ١٩٤٥.

جامعة بار إيلان، قسم التاريخ العام.

رامات جان، ١٩٧٤.

דוד ישראלי

ה'רייך' הגרמני וארץ־ישראל

בעיות ארץ־ישראל במדיניות הגרמנית
בשנים 1889—1945



אוניברסיטת בר־אילן
והחוג להיסטוריה כללית
רמת־גן, תשל"ד

(صورة لصفحة الغلاف – من كتاب دافيد إسرائيلى).

إن النص الأساسي للمقترحات المقدمة للنازيين من مجموعة شتيرن (التي كان إسحاق شامير الرجل الثاني فيها، قبل أن يكون عضو القيادة الثلاثية التي أدارت المجموعة بعد موت شتيرن) - والنص هو:

Reproduktion der Titelseite und des Anhangs 11 (LEHI-Dokument, vergl. S. 43 f.) aus: David Yisraeli, "Das Deutsche 'Reich' und Eretz Israel" (Ramat Gan 1974).

Zur israelischen Bewältigung dieses Dokuments schreibt B. Michael in HA'ARETZ:
... Diesem Dokument scheint eine seltsame Eigentümlichkeit anzuhaften. Es taucht auf und verschwindet, taucht wieder auf und verschwindet von neuem, und wer immer darauf stößt, ist sicher, der erste zu sein, der es zu Gesicht bekommt. Die Prioritäten gebühren Prof. Jehoschua Porat und dem israelischen Journalisten Haviv Kna'an, und man erzählt sich eine Geschichte, wonach ein Mann namens Malkijor das Dokument in einem deutschen Archiv fand und wegen dieser Entdeckung Schwierigkeiten mit dem israelischen Sicherheitsapparat bekam. Malkijor soll Ben Gurion von diesem Dokument unterrichtet haben, und Ben Gurion habe aus wohlverstandenen

54

Gründen entschieden, die Sache auf sich beruhen zu lassen. (Ben Gurion hat nach der Staatsgründung dem LEHI-Triumviratsmitglied Jitzhak Schamir eine Spitzenposition beim Mossad, dem israelischen Geheimdienst, anvertraut; Zusatz des Übers.)
Die Wiederentdeckung hat ihr Gutes: das Bild rundet sich ab. Ein weiteres Detail, eine zusätzliche Information, und mittlerweile ist mehr bekannt als noch verborgen. Das Bild, das sich abzeichnet, ist das Bild einer Gruppe von entsetzlich naiven und fanatischen Leuten, einer extremen Gruppe, die wirklich vor nichts zurückschrecken würde. Wahre Kinder des 'brutalen Zionismus', der ihr geistiger Vater ist. Brutal in der einfachen Bedeutung des Wortes.
Aber das Jahr 1983 unterscheidet sich von allen anderen Jahren, in denen diese Angelegenheit zur Sprache kam. In diesem Jahr 1983 regieren ein paar Mitglieder jener Gruppe unser Land. Einige der Gehirne, die die Wahnsinnsidee ausbrüteten,

55

صورة الترجمة الألمانية للملحق (٢) وثيقة لوهي من الكتاب المذكور.

وترجمة هذا النص هى : «كتب بى ميخائيل فى صحيفة هاآرتز عن كيفية التناول الإسرائيلى لهذه الوثيقة، وتجاوزها فقال : هذه الوثيقة فيما يبدو ذات سمة نادرة فقد ظهرت، ثم أختفت، وظهرت ثانية ثم اختفت من جديد، وكل من يُوَاجَه بها يعتقد أنه أول من رآها.

إن لقضايا القتل قصة تستحق فى رأى الأستاذ يهوشع بوروت، والصحفى الإسرائيلى حبيب كنعان - أن تحكى، وفيها أن رجلا اسمه مالكى يور عثر على الوثيقة فى أرشيف ألمانى، ومن ثم بدأت مشكلاته مع جهاز الأمن الإسرائيلى.

وقيل : إن مالكى يور أخبر بن جوريون بخبرها، وقيل : إن بن جوريون قرر - لأسباب مفهومة أن يهمل أمر هذه القضية!! (كلف بن جوريون بعد تأسيس الدولة - عضو المجلس الثلاثى لتنظيم ليهى - إسحاق شامير بوظيفة قيادية فى الموساد، جهاز المخابرات الإسرائيلى) [إضافة من المترجم].

إن لإعادة الكشف عن هذه الوثيقة جوانب إيجابية .. فقد اتضحت الصورة بملامحها، وأضيفت إليها تفصيلات جديدة، ومعلومات إضافية، وأصبح المعروف أكثر من المستور، كانت الصورة لجماعة من القدريين السذج بشكل فادح، مع جماعة متطرفة لا يقف أمام تنفيذها لأغراضها أى شىء على الإطلاق، فهم أبناء حقيقيون «للصهيونية الغاشمة»... وحشية بالمعنى الدقيق للكلمة ..

ولكن عام ١٩٨٣ يختلف عن كل الأعوام الأخرى التى تناول الكلام فيها هذا الموضوع، ففى هذه السنة (١٩٨٣) يحكم اثنان من أعضاء تلك الجماعة بلدنا، وهما من بين العقول التى تبنت هذه الفكرة الرهيبة.

المبادىء الأساسية للتنظيم العسكرى القومى (N.M.O)، فى فلسطين (الأرجون زفاى ليومى) فيما يخص حل المسألة اليهودية، والاشتراك الإيجابى للتنظيم (N.M.O) فى الحرب إلى جانب الألمان.

يتحصل من خطب زعماء الدولة القومية – الاشتراكية الألمانية أن حلا ثابتا للمسألة اليهودية يستلزم جلاء للمجموعات اليهودية من أوربا (Judenreines Europa) .

هذا الجلاء للمجموعات اليهودية من أوربا هو الشرط الأول لحل المشكلة اليهودية، ولكن ذلك غير ممكن إلا باستقرار هذه المجموعات فى فلسطين، فى دولة يهودية بحدودها التاريخية.

إن حل المشكلة اليهودية بشكل نهائى، وتحرير الشعب اليهودى، هو هدف النشاط السياسى، والسنوات الطوال من الصراع الذى خاضته «الحركة لوهى» من أجل حرية إسرائيل، وخاصة تنظيمها العسكرى القومى فى فلسطين (أرجون زفاى ليومى).

وإن التنظيم العسكرى القومى، وهو يعلم الموقف الخير الذى تتخذه حكومة الرايخ نحو النشاط الصهيونى، داخل ألمانيا، ونحو الخطط الصهيونية للهجرة يقرر أنه:

أولا: من الممكن أن توجد مصالح مشتركة بين أى نظام جديد يقوم فى أوربا، تبعا للمفهوم الألمانى، وبين المطامح الحقيقية للشعب اليهودى، التى تجسدها حركة لوهى.

ثانياً: إن التعاون بين ألمانيا الجديدة، وبين قومية عبرانية مجددة (VolKish Nationalen Hebraertum) هو أمر ممكن.

ثالثاً: إن إقامة الدولة التاريخية فى فلسطين، على أساس قومى وشمولى، ومرتبط بمعاهدة مع الرايخ الألمانى يمكن أن يسهم فى حفظ وضع ألمانيا فى الشرق الأدنى، وتدعيمه فى المستقبل.

ولقد كان عرض التنظيم العسكرى القومى، وهو عرض سليم على المستوى العسكرى والسياسى، وعلى مستوى الإعلام، سواء فى داخل فلسطين، أو خارجها، مع التنظيم الضرورى لإعداد كل هذا – كان هذا العرض مرتبطا بالتدريب العسكرى، وبتنظيم اليد العاملة اليهودية فى أوربا، تحت قيادة (N.M.O)، ثم تشارك هذه الوحدات فى المعركة من أجل غزو فلسطين، فى

حالة ما إذا أقيمت هذه الجبهة.

أما المشاركة غير المباشرة لحركة تحرير إسرائيل فى إقامة نظام جديد فى أوربا، منذ مرحلته التحضيرية، فسوف تكون مرتبطة بحل ثابت حقيقى للمشكلة اليهودية فى أوربا، طبقا للمطامح القومية للشعب اليهودى، ولسوف يدعم هذا أساس النظام الجديد تدعيما معتبراً فى أعين العالم أجمع.

إن تعاون حركة تحرير إسرائيل سوف يمضى فى اتجاه الخطب الحديثة لمستشار الرايخ الألمانى، التى أكد فيها الزعيم هتلر أن جميع المفاوضات والارتباطات يجب أن تعمل على عزل انجلترا وضربها.

وإن حركة التحرير القومى إنما تصدر جزئيا عن مجمْوعة القناصة اليهود فى فلسطين لحركة التعديل (التنظيم الصهيونى الجديد) الذى ترتبط به (NMO) بصورة شخصية من خلال شخص السيد جابولنسكى، حتى نهاية حياته.

ثم إن موقف التنظيم التعديلى فى فلسطين، الموالى للإنجليز - يجعل من المستحيل تجديد هذا الاتحادِ الشخصى، فانتهى فى خريف تلك السنة إلى انفصالٍ سعيدٍ بينه وبين (NMO)، ثم إلى تجديد نشاطه على إثر هذا الانشقاق.

وكان هدف (NMO) هو إقامة دولة يهودية بحدودها التاريخية.

وقد كان موقف (N.M.O) فى مواجهة جميع التيارات الصهيونية رفض الفكرة القائلة بأن تسللا مستعمِراً سيكون هو الوسيلة الوحيدة للاقتحام، والاستيلاء التدريجى على الوطن، فلديه مبدأ نظام هو: الكفاح والتضحية، باعتبارهما وسيلة حقة، ووحِدَة للتحرير، ولغزو فلسطين.

ولقد كان هذا التنظيم بحكم صفته العسكرية، وموقفه المعادى للإنجليز - مضطراً إلى أن يمارس نشاطه السياسى سراً، وأن يعمل على التربية العسكرية لأعضائه فى فلسطين، مادام عرضة للاضطهاد الدائم من قبل الإدارة الإنجليزية.

ولقد تميز هذا التنظيم، الذى بدأ أعماله العسكرية فى خريف عام ١٩٣٦ - تميز بخاصة منذ بداية صيف عام ١٩٣٩، بعد نشر الكتاب الأبيض الإنجليزى - بتشديد نشاطه فى الإرهاق، والتخريب، ضد المحتل الإنجليزى، وقد توج دائما بالنجاح.

وكان هذا النشاط، بما صاحبه من إرسال إذاعى سرى يومى، موضع تفسير وتعليق من صحافة ذلك العصر كلها تقريبا.

وقد كان تنظيم NMO يحتفظ حتى بداية الحرب بمكاتب سياسية مستقلة فى وارسو، وباريس، ولندن، ونيويورك، وقد اشتغل مكتب وارسو أساسا بالتنظيم العسكرى، وبتكوين الشباب الصهيونى القومى، واحتفظ التنظيم بعلاقات وثيقة مع المجموعات اليهودية التى كانت فى بولندا، بخاصة، تتابع بحماس كفاح NMO فى فلسطين، وكانت تساعده بكل الوسائل الممكنة.

وظهرت فى وارسو صحيفتان هما: «دايتات Dietat»، «وأورشليم دايزيونا»، وكلتاهما كانت تنتمى إلى NMO.

واحتفظ مكتب وارسو بعلاقات وثيقة مع الحكومة البولندية، فى ذلك الوقت، ومع الدوائر العسكرية التى كانت تراقب بكثير من الاهتمام والفهم جهود تنظيم NMO.

وحدث أيضا خلال حرب عام ١٩٣٩ أن قام أعضاء NMO بمهمات سرية، أرسلوا من أجلها من فلسطين إلى وارسو.

وكان الضباط البولنديون هم معلمو التدريب العسكرى فى مراكز التدريب، وعقدت المفاوضات بين التنظيم وبين الحكومة البولندية فى وارسو من أجل تنمية مساعدتها مادياً، (وهو أمر ظاهر فى سجلات الحكومة البولندية آنذاك)، ثم انتهت هذه المفاوضات فى بداية الحرب.

وكان تنظيم NMO، طبقا لتكوينه ومفهومه عن العالم – مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحركات الشمولية فى أوربا.

ولم يحدث فى أية لحظة أن أصيبت القدرة على الكفاح لدى التنظيم بالشلل، أو قيدت نتيجة إجراءات دفاع ثابتة، فيما يخص الإدارة الإنجليزية، والعرب، وكذا الاشتراكيون اليهود.

وقد قطعت المفاوضات عندما اعتقلت القوات المتحالفة فى يونيو ١٩٤١ مبعوث إبراهام شتيرن وإسحاق شامير – نفتالى لوبنتشيك، فى مكتب المخابرات النازية ذاته، فى دمشق، وتابع أعضاء آخرون من المجموعة هذه العلاقات،حتى اعتقلت السلطات البريطانية إسحاق شامير فى ديسمبر عام ١٩٤١، بتهمة «الإرهاب والتعاون مع العدو النازى».

ومما يذكر أن السيد إسحاق شامير هو اليوم وزير الشئون الخارجية فى الدولة الصهيونية لإسرائيل، بعد أن كان رئيس وزرائها، ونحن فى انتظار عودته إلى هذا المنصب، بمقتضى قاعدة التبادل، المتفق عليها بينه وبين شيمون بيريز.

* * * * *

٤ – نبذ عروض استقبال اليهود خارج فلسطين

إن نفس المنطق القاتل الذى سهل مهمة الجلادين الهتلريين فى المجر وغيرها – هو الذى يملى، بكل تعبيره الرمزى، السير على «الخط» الذى اتبعه الوفد الصهيونى عام ١٩٣٨، فى إيفيان، وهو: نبذ أى ملجأ غير فلسطين لإيواء اليهود المهددين بالإبادة، ومن ثم، إغلاق أبواب البلاد التى كان يمكن أن تنقذهم.

ويورد الربانى سالمون شنفيلد، رئيس لجنة المساعدات التى نظمها الربانى الكبير لانجلترا – شهادة دامغة فى هذا الصدد، تقول: «إن تجربتى خلال عامى ١٩٤٢ – ١٩٤٣ أقنعتنى بأن البريطانيين كانوا مستعدين تماما للمساعدة، علانية، وبشكل إيجابى، وبدون تحفظ، وأن هذه الاستعدادات قد اصطدمت بمعارضة الزعماء الصهاينة، الذين أصروا على رأيهم بأن فتح فلسطين كان الحل الوحيد الممكن.... وفى ديسمبر عام ١٩٤٢ كونّا لجنة مساعدة ضد الرعب النازى... وقدم اقتراح... يطلب من حكومة صاحب الجلالة، بالاتفاق مع حكومة الدومينيون بالهند – أن توافق على مأوى فى أراضيها، أو فى أية أراض تحت سلطانها، من أجل الأشخاص المهددين بالخطر، وأن تدعو الحكومات الأخرى المتحالفة معها إلى اتخاذ إجراءات مماثلة، وقد حمل هذا الاقتراح، فى أسبوعين، ٢٧٧ توقيعا من البرلمانيين فى المجلسين... وقد سلمت حكومة صاحب الجلالة مئات من تصاريح الهجرة إلى جزيرة موريس والأراضى الأخرى،... وفى ٢٧ من يناير عام ١٩٤٣، وكانت المراحل الأخيرة قد انتهت – أعلن متحدث باسم الصهاينة أن اليهود يعترضون على الاقتراح، لأنه لم يَرْجِعْهم إلى فلسطين، وهكذا مات الاقتراح»[1].

---

(١) الربانى موشى شنفيلد: «ضحايا المذبحة يتهمون! وثائق وشهادة على مجرمى الحرب اليهود!» The Holocaust Victims accuse
«Netureikarta of U. S. N. Y. Documents and testimony on jewish war criminals» جـ ١ – ١٩٧٧ ص ٦٠ – ٦١.

إن هذه الشهادة تثبت شهادة موريس ل. إرنست، الصديق اليهودى للرئيس روزفلت، والذى كلفه الرئيس بإقناع بريطانيا العظمى باستقبال عدد يتراوح بين مائة ومائتى ألف من الناجين من المذبحة النازية، ونجح إرنست فى إقناع الإنجليز، الذين أعلنوا عن استعدادهم لاستقبال ١٥٠,٠٠٠ مائة وخمسين ألف مرحّل، يهودى أو غير يهودى، وكان على الولايات المتحدة أن تتصرف بنفس الطريقة، ولقد كان الرئيس روزفلت سعيداً بنجاح هذه المهمة، ولكن عند عودة إرنست قال له: «لافائدة! لن نستطيع أن نحقق هذا لأن الزعماء اليهود، الذين كان لصوتهم الغلبة فى أمريكا، لن يوافقوا عليه... لقد كانت الحركة الصهيونية تعرف أن فلسطين هى، وإلى حين، «مجتمع التحويل»، وهم يعلمون أنهم قادرون على تجميع مبالغ طائلة من أجل فلسطين، حين يقولون للدافعين: «إنه لا مكان غير هذا يمكن للتعساء اليهود أن يذهبوا إليه»[1]

وظل موقف الزعماء الصهيونيين عنيدا بالنسبة إلى جميع البلاد المستعدة لاستقبال اليهود، ومن الأمثلة على ذلك: السويد: «ففى عام ١٩٣٩، ومع اشتداد موجة الاضطهاد ضد اليهود الألمان – صوت البرلمان السويدى على قانون يسمح بدخول عشرات الألوف من اليهود الألمان حتى يهربوا من موت محقق... ولكن ربانى السويد الأكبر، الدكتور موردخاى اهرنبريتز (وهو صهيونى من أول لحظة، اشترك فى مؤتمر بال عام ١٨٩٧)، ومعه رئيس المجتمع اليهودى فى السويد... طلبا من الحكومة ألا تطبق هذا القانون، ونجحا فى ذلك، بحجة أن دخول آلاف اليهود سوف يطرح مشكلة يهودية فى هذا البلد الذى لم يعرف قط معاداة السامية، وبعد أربع سنوات، عندما دخل جميع اليهود الدانيماركيين فجأة وسرا إلى السويد، أخذت أهرنبريتز الدهشة والمفاجأة، ولم يستطع أن يمنع شيئا... فلم تكن حجة الخوف من معاداة السامية سوى تَعِلَةٍ لأهرنفلس، تتيح له أن يضم إلى خطته الإجرامية قيادة المجتمع اليهودى فى استوكهلم.

---

(١) تدخل موريس ل. إرنست... فى ٢٢ من أبريل ١٩٥٠، فى المؤتمر السنوى السادس «للمجلس الأمريكى لليهودية» – ذكره موشى منوهيم (O.C) ص ٩٢.

لقد كان الدافع الحقيقى لهذا المحارب القديم الصهيونى – هو بالضبط المبدأ الصهيونى القائل بأنه، حتى ولو كان الموت يهدد اليهود فليس لهم أن يبحثوا عن ملاذ سوى أرض إسرائيل... ولهذا عينه رئيس لجنة المساعدات فى الوكالة اليهودية بالقدس يتزشيك جرينبوم – عام ١٩٤٤ – فى لجنة المساعدات السويدية [1].

إن أحدا لا يستطيع أن يلخص مبدأ هذا العمل المشترك بين القادة الصهاينة والنازيين – بصورة أفضل مما قدمه المدعى العام حايم جوهن، وفى دفاعه عن كاستنر ضد جرينولد،وهو تلخيص وافق عليه وتحمل مسئوليته، قال:

«إذا لم يتوافق هذا مع فلسفتكم، فإن بوسعكم أن تنتقدوا كاستنر... ولكن ماذا يعنى هذا مع العمل المشترك؟.

لقد كان دائما من المقرر فى مأثوراتنا الصهيونية أن نختار صفوة من أجل تنظيم الهجرة إلى فلسطين... وكاستنر لم يفعل غير هذا» [2].

وهناك مثال نموذجى على الطريقة التى كانت تتبع فى إنقاذ اليهود (دون انتقاء)، فبدلا من أن ينعزلوا فى بقية البلاد، على ما تفرضه مبادىء الصهيونية ذاتها – كانوا على العكس يرتبطون بالسكان (دون أن يتخلوا عن نوعيتهم الدينية والروحية إطلاقا)، هذا المثال نجده فى الدانيمارك، وهى البلد الوحيد فى أوربا الذى أنقذ فيه اليهود كلهم تقريبا من المشروع الشيطانى لاستئصال اليهود.

وكان ذلك مما يلفت النظر، بفضل خطة بالغة الإنسانية للمقاومة غير العنيفة، فى مواجهة خصم متوحش، ومسلح بوسائل مؤثرة.

---

(١) الربانى موشى شنفيلد (٥٠٢٠).. ص ١١٠ – ١١١.

(٢) Cowrt record. cc 124/53. Jerusalem dislrect Cowrt.

وتحكى حنة أرنت كيف نجح الإنقاذ فى الدانيمارك فتقول :

«عندما عرض الألمان موضوع الذراعية الصفراء brassard ، (علامة من الجلد تلبس فى ساعد الذراع) – قالوا ببساطة : إن الملك سوف يكون أول من يلبسها ، وقد أعلن كبار الموظفين الدانيماركيين أن أى نوع من الإجراءات يتخذ فى مواجهة اليهود سوف يضطرهم إلى الاستقالة ، وقد تدخل فى هذه القضية عامل حاسم هو : أن الألمان لم يبلغوا حد فرض التفرقة ، التى تعتبر مهمة فى نظرهم ، بين اليهود المولودين فى الدانيمارك ، والذين كانوا حوالى ستة آلاف وأربعمائة ، وبين اليهود اللاجئين من ألمانيا ، والذين وجدوا فى هذا البلد ملاذا قبل بداية الحرب ، وقد أرادت الحكومة الألمانية أن تعلن أنهم مشردون .

هنا نجد أن العمال الدانيمركيين قد ثاروا ، حين رأوا أن فى مقدورهم أن يعجلوا بالهزيمة الألمانية ، فقامت مظاهرات فى الورش البحرية الدانيمركية ، لأن عمال الأحواض رفضوا إصلاح السفن الألمانية ، وشرعوا فى الإضراب ، فأعلن القائد العسكرى الألمانى حالة الطوارىء ، وفرض القانون العرفى ، وكانت هذه اللحظة فى تقدير هملر هى المناسبة للهجوم على المشكلة اليهودية ، التى كان حلها ينتظر منذ وقت طويل ، أما مالم يتوقعه فهو أن المسئولين الألمان – بصرف النظر عن المقاومة الدانيمركية – لم يكونوا كما طلب منهم ، وهم الذين كانوا يعيشون فى الدانيمرك منذ سنوات ، فقد رفض الجنرال فون هنكن ، القائد العسكرى للمنطقة أن يضع قواته تحت تصرف مفوض الرايخ ، الدكتور ورنر بست ، وقد حدث فى مرات كثيرة أن احتجت الوحدات الخاصة للـ (S.S) ، المخصصة للدانيمارك ، واحتج الكوماندوس ، ضد «الأوامر الصادرة من الوكالة المركزية» ، تبعا لشهادة بست فى نورمبرج ، أما بست نفسه ، فلم يعد موضع ثقة فى برلين ، حتى إن أحدا لم يكن يعرف مطلقا إلى أى مدى أصبح «غير مسئول» (وقد كان فى الواقع رجلا من الجستابو القدامى ، وكان مستشاراً قانونيا لهيدريك ، مؤلف كتاب ، كان آنذاك مشهوراً ، عن الشرطة ، وسبق أن عمل للحكومة العسكرية بباريس) ، ومع ذلك كان واضحا منذ البداية أن الأمور لا تسير على مايرام فى الدول الاسكندنافية .

وقد أرسلت مخابرات إيخمان إلى الدانيمارك واحدا من خيرة الرجال هو رولف جنثر، الذى لم يكن أحد يتهمه بنقص «القسوة بلا رحمة»، فلم يكن لجنثر أدنى تأثير على رفاقه فى كوبنهاجن، وهذا هو السبب فى أن هنكن رفض حتى أن يصدر مرسوما بأن يحمل اليهود شارةً وهم ذاهبون إلى العمل.

وذهب بست إلى برلين، وحصل على وعد بأن جميع يهود الدانيمرك، أية كانت طوائفهم، سوف يرحلون إلى ترسنستات، وكان هذا - من وجهة النظر النازية - تنازلا ذا بال.

وقرروا أن يقبض على جميع اليهود، ثم يُجْلَوْن فوراً، فى مساء الأول من أكتوبر، وكانت السفن جاهزة فى الميناء، ولما كانوا لا يستطيعون الاعتماد، لاعلى الدانيمركيين، ولا على اليهود، ولا على الفرق الألمانية المخصصة للدانيمرك، فقد كان عليهم أن يستقدموا وحدات من الشرطة الألمانية، لتقوم بالبحث عن اليهود، بيتا بيتا، وفى اللحظة الأخيرة أعلم بست هؤلاء الشرط أن لا حق لهم فى أن يحطموا الأبواب، لأن الشرطة الدانيماركية يمكن حينئذ أن تتدخل، وعليه فلا يصح أن تتواجه الشرطتان، ولم يكن أمام رجال الشرطة الألمان عندئذ إلا أن يقبضوا على اليهود الذين يسمحون لهم بالدخول إلى منازلهم بكامل رضاهم، وبذلك لم تعثر الشرطة الألمانية من المجموع الكلى الذى يُرْبِى على سبعة آلاف وثمانمائة يهودى، إلا على أربعمائة وسبعة وسبعين شخصا بالضبط، رضَوا أن يفتحوا أبوابهم.

ذلك أنه قبل التاريخ المقدر ببضعة أيام كان أحد وكلاء النقل الألمان، وهو جورج ف، دوكويتز قد علم، ربما من بست نفسه، بما سوف يحدث، فكشف المشروع الألمانى كله لبعض الموظفين الدانيمركيين، الذين أوصلوا بدورهم هذه المعلومة بغاية السرعة إلى المسئولين - فى المجتمع اليهودى، وقد قام هؤلاء المسئولون - بعكس غيرهم من المسئولين فى البلاد الأخرى - بنشر الخبر فى المعابد، بمناسبة قداس العام الجديد، فكان لدى اليهود وقت كاف ليغادروا شققهم، ويذهبوا ليختبئوا، وهو أمر كان فى الدانيمارك غاية فى السهولة، لأنه - كما تقرر فى المحاكمات - كانت «جميع طبقات الشعب الدانيمركى، ابتداء من الملك حتى المواطن البسيط»، مستعدة لاستقبالهم.

ولعل هؤلاء الهاربين كانوا سيبقون فى مخابئهم حتى نهاية الحرب لو لم يكن للدانيمركيين جيرة السويد، فكان من المعقول أن يرسلوا اليهود إلى السويد، وهو أمر تم بمساعدة سفن الصيد الدانيمركية، ودفع بعض المواطنين الدانيمركيين الأثرياء نفقات السفر (٥٠٠ NF تقريبا) لأولئك الذين لم يكونوا يملكونها، وربما كان هذا أشد ما أذهل الناس فى كل مكان، لقد كان اليهود فى كل بلد – فى ذاك الوقت، يدفعون نفقات ترحيلهم، وكان اليهود الميسورون ينفقون ثروة للحصول على تأشيرة خروج (فى هولندا، وسلوفاكيا، وأخيراً فى المجر)، سواء أكانوا يعطون قنائن الخمر للسلطات المحلية، أم كانوا يتفاوضون «قانونيا» مع الـ (S.S) أو الوحدات الخاصة، التى لم تكن ترضى إلا بالعملة الجارية، وفى هولندا كانوا يبيعون التأشيرات بخمسة وعشرين ألفا من الفرنكات، أو بخمسين ألفا من الفرنكات الحالية للشخص الواحد، وحتى هنالك حيث كان اليهود يَلْقَوْنَ تعاطفا واقعيا، وحيث كان الناس مستعدين لمساعدتهم كان عليهم دائما أن يدفعوا ثمن هذه المساعدة، ولذلك إن اليهود الفقراء لم يكن أمامهم أية فرصة للإفلات من المذبحة.

كان لابد من جزء كبير من شهر أكتوبر حتى يتمكن جميع اليهود من عبور البحر، فى مسافة تتراوح من خمسة كيلومترات، إلى عشرين كيلو متراً، هى التى تفصل بين الدانيمارك والسويد، ولقد استقبل أهل السويد ٥,٩١٩ من اللاجئين، منهم ١٠٠٠ ألف على الأقل من أصل ألمانى، و ١,٣١٠ كانوا نصف يهود، و ٦٨٦ من غير اليهود، وكن متزوجات من يهود، (وقريب من ٥٠٪ من اليهود الدانيمركيين بقوا فى بلادهم، وظلوا مختبئين).

أما اليهود غير الدانيمركيين فإنهم لم يعاملوا من قبل بهذا القدر من الإحسان: لقد حصلوا جميعاً على موافقة للعمل، وأما بضع المئات من اليهود الذين نجحت الشرطة الألمانية فى القبض عليهم فقد أرسلوا إلى ترسنستات، وكانوا من المسنين، أو من الفقراء، الذين لم يعلموا فى وقت مناسب، أو الذين لم يفهموا ما كان يجرى.

ولقد كان هؤلاء فى منبذهم (ghetto) يتمتعون أكثر من غيرهم من المجموعات، بامتيازات خاصة، لأن بعض المنظمات، والأفراد الدانيمركيين لم يكفوا عن السؤال عنهم، وعن مصيرهم، وقد مات من بينهم ثمانية وأربعون، وهو رقم منخفض نسبيا، بالنظر إلى العمر المتوسط لهذه المجموعة.

وعندما انتهى كل شيء - وجد إيخمان، بعد أن فكر مليا، «أن العمليات التى تمت بالنسبة إلى يهود الدانيمارك قد أخفقت، لأسباب مختلفة»، على حين أن الدكتور المدهش بست كان يعلن أن «هدف العمليات لم يكن القبض على عدد كبير من اليهود، بل أن تنظف الدانيمارك منهم، ولقد تحقق هذا الهدف»

إن أهم الجوانب فى هذه الحادثة، من الناحيتين السياسية، والنفسية هو سلوك السلطات الألمانية المقيمة فى الدانيمارك، فقد كان واضحا أنها خربت أوامر برلين.

وكانت هذه، بقدر علمنا، الفرصة الوحيدة التى وجدها النازيون لتقييم المقاومة المعلنة فى الشعوب المدجنة، ويبدو أن المسئولين النازيين الذين لاحظوها قد غيروا رأيهم، وأنهم أنفسهم قد توصلوا إلى الاعتقاد بأن إبادة شعب كامل لا يمكن أن تتم بسهولة» [1].

لقد تبين أن هذه الطريق - التى تعارض أساسا طريق الصهاينة الذين يندفعون إلى التمييز العنصرى - قادرة على أن تستنقذ آلاف اليهود من أيدى النازيين، بدلا من أن يتخذوا منهم، بفعل التعصب، أداة لهم.

ولقد كان على الزعماء الصهاينة، أنفسهم، أن «يعبروا الهاوية التى تفصل بين شكلين من أشكال المساعدة: مساعدة اليهود على أن يهربوا بأنفسهم، ومساعدة النازيين على إبعادهم ونفيهم» [2].

فلسنا هنا نحاكم رجالا، بل فلسفة، هى «الداروينية الاجتماعية»، وفلسفة «اختيار الأصلح»، التى هى القاسم المشترك بين هتلر والزعماء الصهاينة.

---

(١) حنة أرنت - السابق ص ١٩١ - ١٩٤ (٢) السابق ص ١٩.

الباب الثالث

تاريخ غـــزو

إن الغزو الصهيونى لا يمكن أن يفهم فهما كاملا إلا انطلاقا من الخطة التى كان تَصوَّرَها تيودور هرتزل، وهو يعلن، بما لديه من أسباب، عام ١٨٩٧ قوله: «فى بال أقمت الدولة اليهودية».

فينبغى إذن لكى ندرك المنطق الداخلى للصهيونية السياسية أن نبين تَخلّقهَا فى عمل هرتزل.

فهذا العرض سوف يتضمن إذن، وعلى الأقل بالنسبة إلى القارىء الذى قرأ الباب الثانى – عددا من المكررات فى مراجع جورنال هرتزل، ونحن فى الباب الثانى لم نستعمل سوى ملخص الجورنال (اليوميات) فى مجلد واحد، نشره لوينتال ونحن هنا نستقى بخاصة من «يوميات هرتزل الكاملة».

«The complet Diaries of Theodlor Herzl »

وهى فى أربعة مجلدات، قدمها رفائيل بتاى عام ١٩٧٠، إلى « Herzl Press» فى نيويورك.

* * * * *



الفصل الأول

مناهج الغزو ومنطلقاته



استند الغزو الصهيونى فى فلسطين إلى تَعِلَّاتٍ دينية، هى بخاصة: «الأرض الموعودة»، كأنما هذه الأرض كانت عطاء من الرب، ولم تَعُدْ عبارة «العام القادم فى أورشليم» كما كانت عبر القرون فى لسان اليهود الأتقياء، وكذلك بالنسبة إلى النصارى: أملامسيحياً بقيام مدينة الرب فى «أورشليم سماوية» – وإنما صارت اغتصابا للأراضى، على حساب أولئك الذين عمروها منذ آلاف السنين.

هذا المشروع الذى يقوم على الختل والخديعة يذكرنا بمشروع الحروب الصليبية، حين استغل زعماء سياسيون ودينيون الإيمان المسيحى المتأصل فى أعماق جماهير الشعوب الغربية، وقد كانت مستعدة لكل التضحيات، وإذا بهؤلاء الزعماء يستخدمون فى وقاحة وصلف أفكارا قادرة على إثارة حماس المسيحيين، كيما يخدموا مصالح حقيرة غالبا، هى مصالحُ بابويةٍ تريد أن تسترد هيمنتها على الأمراء الإقطاعيين، أمراء مسيحية الغرب، وأن تضع نهاية لانقسام كنيسة الشرق، وهى مصالح إقطاعيين متعطشين إلى أن يحوزوا ممالك فى «الأرض المقدسة»، أو مصالح تجار البندقية، وجنوا وغيرها، من أجل هذه المصالح كانت تلك الحملات تمثل إمكانات أسطورية فى التموين، والنقل، والتجهيز.

وكل هذا الذى تمثل فى البداية على أنه امتداد للحج إلى الأرض المقدسة، وعلى أنه حرب دفاعية ضد «الكفار» الذين يجب أن ينتزع من بين أيديهم قبر السيد المسيح – كل هذا كان لتبرير غزو دموى يستهدف اغتصاب الأراضى، وانتهاب الثروات، (التى سيظل الاستيلاء عليها واستلابها من القسطنطينية أشأم شهود تلك المرحلة).

والغزو الصهيونى يحمل نفس السمة، سمة انحراف الإيمان لخدمة المشروعات السياسية، والعدوان العسكرى، وغزو أرض طبقا لمناهج جديدة، هى مناهج الاستعمارية فى القرن العشرين.

وتتبع أساليب هذا الانحراف وحيله، بكل وضوح، من عمل مؤسس الصهيونية السياسية: تيودور هرتزل.

إن جميع النصوص التى تأتى ، والتى بدونها لا يمكن أن يُفْهَمَ تطورُ المشروع الصهيونى ، والمنطق الداخلى لاعتداءاته وتوسعه – هذه النصوص مستقاة من « جورنال » هرتزل ، الذى أودع فيه من عام ١٨٩٥ حتى عام ١٩٠٤ نواياه الحقيقة ، ومشروعاته ، ومساعيه ، كاشفا بذلك المعنى العميق للصهيونية السياسية .

وحتى نكوّن ملفا موضوعيا بقدر الإمكان ، عن المرحلة (القبتاريخية) التى تبين العدوان الصهيونى – فإن تعليقنا سوف يقتصر على الموضوعات الخمسة الرئيسة التى تستخلص من هذا « الجورنال » الذى يعلن مستقبل المشروع الصهيونى كله :

أولًا : إن غزو فلسطين ليس مسألة إيمان ، ولكنه يستخدم القوة الحاشدة « لأسطورة جبارة » ، وهرتزل واضح وضوحا كاملًا فى هذا الموضوع .

ففى ٢٣ من نوفمبر عام ١٨٩٥ يقول : « لقد قلت طبعا للربانى الأكبر فى لندن ، كما سبق أن قلت لزادوك كَهْنْ (ربانى باريس الأكبر) ولجودمان : إننى لا أخضع لأى دافع دينى ، فى مشروعى ، ولا ريب أنى أحترم إيمان آبائى ، على الأقل بقدر ما أحترم أشكال الإيمان الأخرى » [جـ ١ ص ٢٧٨] .

وفى ٢٦ من نوفمبر عام ١٨٩٥ يقول : « سألنى آشر ما يرس (مراسل الجويش كرونيكل – فى لندن) : ما علاقتك بالكتاب المقدس ؟ .. وأجبته : أنا مفكر حر ، ومبدؤنا سيكون : أن لكل إنسان أن يبحث عن خلاصه بطريقته » [جـ ١ ص ٢٨٣] ، فأجابه آشر مايرس :

« إن اليهود الأرثوذوكس سوف يتبعونك ، ولكنهم يرون أنك يهودى سيىء » (السابق) .

إن الهدف ، فلسطين ، لم يكن له عنده أى مغزى دينى ، ولكنه يسمح باستغلال أسطورة : « إن عيب فلسطين أنها قريبة من روسيا ومن أوربا ، وأنها فقيرة إلى المجال من أجل التوسع ، وكذلك مناخها الذى لم نتعود عليه .

ومن ميزاتها «الأسطورة الجبارة» (mighty legend) [٩ من يونيو عام ١٨٩٥ - جـ ١ ص ٥٦].

ولقد كان المغزى الدينى لفلسطين من القلة فى نظره بحيث إنه كتب يقول: «أستطيع أن أقول لكم كل شيء عن «الأرض الموعودة»، ما خلا المكان الذى تقع فيه، إنها مسألة علمية محضة، ويجب أن نأخذ فى حسابنا العوامل الطبيعية بكل أنواعها، الجيولوجية، والمناخية» [١٣ من يونيو عام ١٨٩٥ جـ ١ ص ١٣٣] لا يهم أين، أو بالأحرى: طبقا لمقاييس لا علاقة لها بالإيمان اليهودى.

وفى ١٣ من يونيو عام ١٨٩٥ كتب يقول:

ومنذ اللحظة التى تتكون فيها «جمعية اليهود» سوف ندعو إلى مؤتمر لكثير من الجغرافيين اليهود ليحددوا، بمساعدة هؤلاء العلماء المكان الذى سوف نهاجر إليه».

«من حيث المبدأ لست ضد فلسطين، ولا ضد الأرجنتين، وإنما يجب أن يكون لنا مناخ متنوع من أجل اليهود الذين تعودوا المناطق الباردة أو الحارة، أما عن تجارتنا العالمية المستقبلة فيجب أن نضع أنفسنا على البحر، وعن زراعتنا الميكنة على مستوى عال، فيجب أن نتحكم فى مساحات شاسعة، ولسوف يعطينا العلماء هذه المعلومات، وسوف يتخذ القرار بوساطة مجلس إدارتنا» (السابق).

وفى ١٦ من يونيو عام ١٨٩٥ كتب: لا أحد يفكر مطلقا فى أن يرى الأرض الموعودة حيث هى فى الواقع، ومع ذلك فهى قريبة جدا، هذا هو مكانها، هى فينا، لست أخدع أحدا، بل أقول الحقيقة، ويستطيع كل فرد أن يتحقق منها، لأن كل فرد سوف يصطحب فى نفسه قطعة من الأرض الموعودة، فواحد يجدها فى رأسه، وآخر فى يديه، وثالث فى اقتصادياته، إن الأرض الموعودة هى حيث نحملها.

ويسخر هرتزل من الآراء النبوية والصوفية، (التى كانت غريبة عنده تماما) عن فلسطين.

ولكن الذى يهمه هو على وجه التحديد الأساطير (اليهودية أو المسيحية) التى يمكن أن تبرر زرع «الدولة اليهودية» فى فلسطين، وتوسعها.

ويقص علينا هرتزل ما دار بينه وبين الراعى الإنجليكانى المحترم هخلر، وهما مسافران فى ٢٦ من ابريل عام ١٨٩٦: «لقد بسط خرائطه عن فلسطين، وعلمنى الكثير خلال ساعات:

حدود الشمال يجب أن تكون الجبال الواقعة فى مواجهة الكبادوس[1]، وحدود الجنوب قناة السويس، والشعار المعلن هو: «فلسطين داود وسليمان» [جـ ١ ص ٣٤٢].

ومع أنه كان سعيدا بهذا المفهوم، لم يأخذ السمة «النبوية» لها مأخذ الجد مطلقا، ففى ٢٤ من إبريل عام ١٨٩٦ [جـ ١ ص ٣٤٢] رسم على الأرض خطة الراعى هخلر عن إسرائيل الكبرى:

«لقد قدمت الخطة الكاملة التى لم تكن حتى ذلك الحين معروفة إلا عند هخلر، بجوانبها «النبوية»، والتى لم تكن لى بها علاقة ذات بال».

لم يفصل هرتزل رؤى اليهود المتدينين عن رؤى المسيحيين، حول فلسطين، أو يزدها تباعدا، يقول: «إن المسيحيين المتدينين فى انجلترا سوف يساعدوننا إذا ما ذهبنا إلى فلسطين، لأنهم ينتظرون عودة المسيح عندما يعود اليهود إلى بلدهم».

ومع جولد سميد وجدتنى فجأة فى عالم آخر.

---

(١) بلد فى آسيا الصغرى، غربى أرمينيا الواقعة جنوبى القوقاز، ومنابع دجلة الفرات، وكانت مقسمة بين تركيا وروسيا وفارس (المترجم).

إنه يريد أن يسلم قبر المسيح للمسيحيين، على أن يتعاوروه فيمابينهم، صلاة بصلاة، نصف لموسكو، والآخر لروما!!.

وكان، شأنه شأن مونتاجو، يفكر فى «فلسطين الكبرى»، [نوفمبر عام ١٨٩٥ جـ ١ ص ٢٨٢].

وهذا هو ما كان يهمه، وقد حدد لإبراهيم، الدبلوماسى التركى، فى ١٥ من فبراير عام ١٩٠٢ – أهدافه فيقول: «سألنى عن أهداف الصهيونية، فعرضت عليه ماذا تكون اليهودية القومية الخالصة من الصهيونية».

وهرتزل لم يكن لديه أوهام عن الوحدة العنصرية لليهود، وهو يذكر فى مناقشة مع إسرائيل زنجويل، فى لندن (٢١ من نوفمبر عام ١٨٩٥): أنه ينطلق من وجهة نظر الجنس – لا أستطيع أن أرتضى سواها، وأما حين أنظر إلى الاختلافات الجسمية بينه وبينى – فهنا أقول ببساطة: إننا نكوّن وحدة تاريخية، قومية تتضمن تنوعات أنثروبولوجية، وهذا يكفى لإنشاء دولة يهودية، فأية قومية لا تنطوى على توافق جنسى عنصرى» [جـ ١ ص ٢٧٦].

ومن قبل كتب فى «الدولة اليهودية»: «الحق يقال، إننا لا نرى أنفسنا منتمين إلى نفس الجنس، وإنما نحن منتمون إلى إيمان آبائنا»[1]. وهو أمر مثير بالنسبة إلى إنسان لم يعد يقاسمنا هذا الإيمان! (وهذه هى اليوم حال ٨٥٪ من الإسرائيليين).

وقد استغرب أيضا أن ملك إيطاليا عامله على أنه كاهن ربانى: «لا! لا! يامولاى، إن حركتنا قومية خالصة».

وأضاف أيضا: «لقد كانت لدى نابليون فكرة عن إصلاح القومية اليهودية».

ورد ملك إيطاليا عليه كلامه معقبا: «لا، إنه يريد فقط أن يجعل من اليهود الموزعين فى أنحاء العالم – عملاءه»، [جـ ٤ ص ١٥٩٩].

---

(١) هرتزل: «الدولة اليهودية» ط. هون ١٩٦٩ ص ١١٢.

فهذا الهدف القومى الخالص، والذى لا يمكن أن يقوم على الجنس، يستخدم إذن، إلى أقصى حد، ما يعتبره هو ذاته «الأسطورة الجبارة» الكتابية، لأنها تمثل قوة حاشدة: فهى وحدها التى تجذب بصورة لا تقاوم جميع اليهود الروس، باستثناء أقلية غاية فى الضآلة... إنها فلسطين.

أما البلاد الأخرى فإنها تجذب فقط الأطفال المفقودين من اليهودية، إن الأرض الموعودة، أرض أسلافنا تناديهم جميعاً، وتدعوهم المؤمنين» [١١ من سبتمبر عام ١٩٠٣ جـ ٤ ص ١٥٥٥].

وأما عن الدوافع الدينية التى لا يؤمن بها، فإنه يذكر بمناسبة المؤتمر الأول الصهيونى فى بال أنه «مراعاة للدوافع الدينية فقد ذهبت إلى المعبد، يوم السبت، قبل المؤتمر» [٦ من سبتمبر عام ١٨٩٧، جـ ٢ ص ٥٨٨].

وهو يتوقع لنفس الأسباب، استخدام الكهنة الربانيين فى «الدولة اليهودية» المقبلة: «لسوف يكون الكهنة دعائم تنظيمى، ولسوف أكرمهم لهذا،.. فهم يكونون طبقة ممتازة، سوف تكون دائما، وبالتأكيد، خاضعة للدولة» [١٤ من يونيو عام ١٨٩٥ – جـ ١ ص ١٠٤].

ثانيا: إن غزو فلسطين توحى به قومية مماثلة لقومية جميع البلاد الغربية، فى القرن التاسع عشر، فلم يكن لدى هرتزل، كما رأينا أى وهم عن أسطورة الجنس، ولكنه كان يريد ارتباطا غير مشروط بالدولة الصهيونية المقبلة، وانفصالا عن الولاء للبلاد التى يعيش فيها إسرائيليون، بمجرد أن يرتبطوا بالقومية الصهيونية.

وقد روى هرتزل محادثته فى باريس، فى ١٦ من نوفمبر عام ١٨٩٥، مع الربانى الأكبر زادوك كهن، يقول هرتزل وقد عرض عليه خلال ساعات برنامجه: «وبعد ذلك أعلن أنه صهيونى، ثم قال: ولكن «الوطنية» الفرنسية لها متطلباتها.

نعم: «إن أى إنسان يجب أن يختار بين صهيون وفرنسا»، [جـ ١ ص ٢٧٢]، ويضيف هرتزل فى ١٨ من نوفمبر: «إن الفرنسيين الإسرائيليين» – إذا اختاروا فرنسا – ليسوا يهودا فى نظرنا، وقضيتنا لا علاقة لها بشئونهم» – [جـ ١ ص ٢٧٥].

أما فى لندن، فقد كان أكثر رضا عندما اعترف له السير مونتاجو عضو البرلمان «سرا بأنه يشعر بأنه إسرائيلى أكثر منه إنجليزيا» [٢٤ من نوفمبر عام ١٨٩٥ – جـ ١ ص ٢٨٠].

وكان مفهوما آنذاك أن مما يثير «الخوف فى الصحف اليهودية الليبرالية أن يطرح المعادون للسامية مسألة وطنيتهم»، [١٨ من سبتمبر ١٨٩٧ – جـ ٢ ص ٦٦٦].

ثالثاً: تكامل الحركة الصهيونية مع الاستعمارية الغربية، بحيث لا يكون غزو فلسطين سوى جانب من السياسة الاستعمارية لأوربا.

إن هرتزل لم يُخفِ مطلقا أن الصهيونية السياسية كانت مشروعا استعماريا، وهو يقول: «إن مشروعى للاستعمار يحتاج إلى دراسة متعمقة»، وذلك فيما كتبه إلى اللورد روتشيلد فى ٢١ من يوليو عام ١٩٠٢ [جـ ٤ ص ١٣٠٨]، ففكرته المسيطرة هى فكرة جميع الاستعماريين: أرض يقال: إنها «شاغرة» مفتوحة للاستعمار، عندما لا تكون مسكونة من الغربيين: «لو كان بإمكانى أن أشير إلى أراض فى يد الإنجليز، ليس فيها سكان بيض، فمن الممكن أن نتكلم فى أمرها» [٢٣ من أكتوبر عام ١٩٠٢ جـ ٤ ص ١٣٦١].

فمشكلة الصهيونية السياسية، العامة، هى فى نظر تيودور هرتزل – أن تقحم نفسها فى السياسة الاستعمارية لألمانيا، وانجلترا، والهدف هو إنشاء «شركة امتياز Compagnie à charte»، التى تكون مشروعا خاصاً، ولكن تحت حماية دولة.

والمثل الذى يحتذيه هرتزل هو سيسل رودس، قطب صناعة الماس والذهب فى إفريقيا الجنوبية، والمغامر دون تردد، الذى توصل بملياراته إلى أن ينشىء «روديسيا» وجنوب إفريقية، بما خدع كل العالم، سواء الشعوب الإفريقية، وزعماؤها، أو الحكومة البريطانية، تماما كهرتزل، يحاول بثروة البارون هنريش أو اللورد روتشيلد، أو رجال المال الآخرين، أن ينشىء «دولته اليهودية»، وهو يمكر فى نفس الوقت بالسلطان عبد الحميد، والإمبراطورية العثمانية، والقيصر الألمانى، والحكومة البريطانية، وقيصر روسيا.

ولذلك استدار هرتزل بإعجاب إلى سيسل رودس، فكتب إليه فى يناير عام ١٩٠٢ : «لماذا أتوجه إليك؟ لماذا؟ لأن أمامنا قضية استعمارية... إن هناك حالمين ينظرون إلى بعيد، فى المستقبل، ولكن ينقصهم الحس العملى، هناك رجال عمليون... ولكن ينقصهم التخيل السياسى، ولكنك يا سيد رودس، أنت حالم سياسى، حالم مزود بحاسة عملية، وقد قدمت على ذلك الدليل، والذى أطلبه منك ليس أن تهبنى، أو تقرضنى بعض الجنيهات، بل أن تهبنى ثقل نفوذك وسلطتك للمشروع الصهيونى... فيم تتلخص هذه الخطة؟.. فى تنظيم عودة اليهود إلى فلسطين، واستقرارهم فيها»، [يناير ١٩٠٢ - جـ ١٣ ص ١١٩٤].

والهدف المعلن لتيودور هرتزل فى «الدولة اليهودية» - أن يجعل من الدولة الصهيونية «حصنا متقدما للحضارة الغربية فى مواجهة بربرية الشرق» [الدولة اليهودية ص ٣٢].

وهو فى رسالة بتاريخ ٢٦ من إبريل عام ١٨٩٦، إلى الدوق الكبير دوباد - يكرر أن الصهيونيين يرغبون فى دخول فلسطين «ممثلين للحضارة الغربية... ضد هذا الركن المتعفن من الشرق» [جـ ١ ص ٣٤٣].

وهو يجعل من نفسه، منذئذ، وكيلا عن الاستعمارية الجماعية، فيعرض دائما خدماته على مختلف البلدان الاستعمارية الغربية، (باستثناء فرنسا)، يعرضها على ألمانيا، وانجلترا، وروسيا، والبرتغال، وإيطاليا، وهو يغرى كلا منها بفائدة مختلفة.

أولها انجلترا، وهو يقول لها: «سوف أحاول أن أحصل على الأراضى الضرورية لاستعمارنا، فى إحدى الممتلكات البريطانية» [٢٣ من أغسطس عام ١٩٠٣ - جـ ٤ ص ١٣٥٢]، كان هذا هدفه الأول:

«وربما كنا على وشك الحصول على ميثاق بريطانى، وتأسيس الدولة اليهودية» [٧ من نوفمبر عام ١٩٠٢ - جـ ٤ ص ١٣٧٢].

وعندما يطلب من انجلترا أراضى فى العريش، من مصر، يذكر أنها واقعة على طريق الهند، وهو حين يتصور أن انجلترا قد ترحل من مصر يرى فى فلسطين بديلا للعبور نحو فارس والهند:

«إذا ما أجبر الإنجليز على مغادرة مصر فيجب أن يبحثوا عن طريق أخرى إلى الهند، غير قناة السويس، وحينئذ يمكن لفلسطين يهودية عصرية أن تقدم إليهم حلا: طريقا حديدية من يافا إلى الخليج الفارسى» [٢٤ من مارس عام ١٨٩٧ جـ ٢ ص ٥٢٧].

وعندما اقترح عليه تشمبرلين أوغندا يشير إلى أن المستعمرة الصهيونية تستطيع أن «تثبت الأمن الاستراتيجى والتجارى، للسكك الحديدية الإنجليزية، من الكاب إلى القاهرة»، [٤ من يناير عام ١٩٠٢ - جـ٣ ص١٠٢٣].

وهو فى نفس الوقت يستغل **المنافسة بين انجلترا وألمانيا**، ففى ١٦ من سبتمبر عام ١٨٩٩ يوحى إلى إلينبرج، سفير ألمانيا فى البندقية أن «قوة أخرى قد تساعد هذه الحركة، ولقد فكرت ابتداء أنها قد تكون انجلترا، وهو أمر طبيعى، ولكنى سوف أكون سعيداً أن تكون هذه القوة ألمانيا».

وبفضل هذا الابتزاز حصل فى ١٩ من أكتوبر عام ١٨٩٨ على مقابلة مع القيصر، وقال: عندما اقترحت عليه مشروعى: شركة الامتياز مع حماية ألمانية، أبدى ارتياحه».

لقد كان يقدّر أنه فى مقابل المساعدة الألمانية يمكن للمستعمرة الصهيونية أن تخدم المطامع الألمانية فى الشرق، ولا سيما إنشاء الخط الحديدى، برلين – بيزنطة – بغداد.

ثم هو يستغل فى نفس الوقت **المنافسة بين ألمانيا وفرنسا**، فينبه إلى الأخطار التى ينطوى عليها وصول سفير فرنسا كونستانس لدى السلطان: «ولن يمضى قليل وقت من الآن حتى تصبح القسطنطينية مركزاً لجميع المؤامرات الموجهة ضد النفوذ الألمانى» [ديسمبر عام ١٨٩٧ – جـ ٢ ص ٧٨١].

ثم هو أمام **المستشار بولو** Bulow، الذى يخشى صعود الاشتراكية – يحرص على أن يخلع على الحركة الصهيونية وصف الترياق المضاد، فيقول: «لقد تأثر كثيراً عندما ذكرت له ما حدث فى جامعة فينا، فقد حولنا الطلاب عن الاشتراكية... إن بعض الناس يظنون أنهم سوف يبدأون الاشتراكية فى الدولة المقبلة (الصنهيونية) «هناك»، ولكن هذا ليس توقعى»، [١٨ من سبتمبر عام ١٨٩٧ جـ ٢ ص ٦٦٨].

وفى اليوم التالى للمذبحة المعادية للسامية فى **كيشنيف** – يقترح هرتزل على وزير الداخلية، المسئول عن الإبادة، فون بلف – أن يساعده فى التخلص من اليهود، الذين يكادون بفعل الاضطهاد أن ينضموا إلى الاشتراكية، ويعده بأن «يضعف الأحزاب الثورية» [جـ ٢ ص ٧٨٣].

ويطلب إليه، وهو شرُّ معادٍ للسامية فى أوربا، أن يعطيه رسالة (هى التى أرسلها بلف إلى هرتزل فى ١٢ من أغسطس عام ١٩٠٣][1].

وملك إيطاليا، الذى طلب منه هرتزل، بنفس الروح الاستعمارية – أن يعطيه ليبيا، يجيبه قائلا:

«لكنها بيت شعب آخر» [جـ ٢ ص ١٥٩٧].

---

(١) انظر فيما سبق النص الكامل لهذه الرسالة (فى الباب الثانى) من كتابنا هذا.

وقد عقب هرتزل على ذلك بروح استعمارية خالصة، بأن تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، والتقسيم الاستعمارى لأسلابها وشيك.

ولم يمنعه ذلك من أن يساوم السلطان عبد الحميد على بيع فلسطين فى مقابل تسوية حالته المالية بوساطة رجال البنوك الصهاينة، والتأييد العالمى من الصحافة واللوبى الصهيونى، فأما فيما يخص الحالة المالية فقد حاك خديعة جديدة، فقال: «لقد أعلنت أننا نرغب فى شراء فلسطين لنجعل منها بلدا مستقلا تماما، وإلا فسوف نذهب إلى الأرجنتين»، [١٧ من يونيو عام ١٨٩٦ جـ ١ ص ٣٦٧].

وأما فيما يخص تأييد اللوبى الصهيونى فى أوربا، فإن هرتزل يقترح على السلطان أن يساعده فى إظهار سياسته بصورة أكثر مواءمة، بصدد مذبحة الأرمن: «فليعطنا السلطان هذه القطعة من الأرض، وفى مقابل ذلك سوف ننظم ماليته، وسوف نؤثر على الرأى العام فى العالم كله لمصلحته»، [٨ من يونيو ١٨٩٦ - جـ ١ ص ٣٦٣]، «إننى قادر على التأثير فى الصحافة الأوربية (فى لندن، وباريس، وبرلين وفينا)، حتى تُتَجَاوَز المسألةُ الأرمنيةُ بروح أكثر تعاطفا مع الترك» [٢١ من يونيو ١٨٩٦ - جـ ١ ص ٣٨٧].

وحين نهض بباريس برنارد لازار ليدافع عن الأرمن، لامه هرتزل، [جـ ٣ ص ١٢٠١]، فقد كان هذا فى الواقع حرمانا للمشروع الصهيونى من إحدى ورقاته الرابحة، قال: «إن هناك وسيلة أخرى لكسب السلطان، هى تأييده فى القضية الأرمنية» [٧ من مايو ١٨٩٦ - جـ ١ ص ٣٤٦].

وهرتزل يتبرع أحيانا بإظهار قوة لُوبِيِّه: «إن الصهاينة يخضعون لكلمة نظام واحدة، من مندكورى إلى الأرجنتين، ومن كندا إلى إفريقية الجنوبية، وإلى نيوزيلندا... إن لنا فى انجلترا أصدقاء مسيحيين لا يحصى عددهم، فى الكنيسة أو فى الصحافة، وفى مجلس العموم سبعة وثلاثون نائبا وعدوا بتأييدهم للصهيونية» [جـ ٣ ص ١١٩٥].

ويقترح السفير الأمريكى فى استنبول على هرتزل حلا بديلا هو:

«أن العراق يمكن أن يصبح لهم... فإبراهيم جاء من العراق، وإذن قد نستطيع أن نستغل العناصر الدينية» [٢٩ من ديسمبر عام ١٨٩٩ جـ ٣ ص٨٩٩]، ولا يستبعد هرتزل هذا الوضع عند التراجع.

وقدم أيضا مقترحات مالية مثيرة إلى البرتغال، ليأخذ مستعمرتها فى موزمبيق: «أستهدف الآن موزمبيق، سوف أحاول مع الحكومة البرتغالية، التى تحتاج إلى المال - أن أحصل على هذه الأرض الخاملة، لإنشاء شركة امتياز، وذلك بأن أعد الحكومة بأن أسدد عجزها، وأدفع لها بعد ذلك ضريبة» [جـ ٤ ص ١٤٨٧، فى ١٣ من مايو عام ١٩٠٣].

يتبين من هذا كله منذ مؤتمر بال، فى أغسطس عام ١٨٩٧، الذى استطاع تيودور هرتزل فى غداته أن يكتب بحق: «فى بال، أسست الدولة اليهودية» [جـ ٢ ص ٥٨١] يتبين - أن استراتيجيةالغزو الصهيونى تنحصر فى اقتفاء أثر الحركة الاستعمارية، ملتمسة الحماية من إحدى البلاد الاستعمارية، ومستغلة فى الوقت ذاته تنافسها، وعما قريب تواجهها.

«فلتختف عداواتهم، الإنجليز والروس، البروتستانت والكاثوليك، أو فليصطرعوا فوق رأسى، فإن ذلك يعنى أن قضيتنا تتقدم» [٢٢ من إبريل ١٨٩٦ - جـ ١ ص ٣٣٣].

إن تشاجر المطامع الاستعمارية فى «المسألة الشرقية»، أعنى فى احتمالات تقسيم الأسلاب، فى الإمبراطورية العثمانية، هو شرط ضرورى لنجاح المشروع الصهيونى:

«إن حل المسألة الفلسطينية - لم أعد أقول: حل المسألة اليهودية - إنما ينبع من أكثر من حدث طارىء فى آسيا» [١٠ من مارس ١٨٩٨ - جـ٢ ص ٨٠٠].

رابعاً: إن هذه المساومات مع القوى الاستعمارية المختلفة، للحصول على مستعمرة فى أى مكان يشير بداهة إلى أن «الأسطورة الجبارة» عن فلسطين، الوطن الأصلى للعبرانيين، والأرض الموعودة – لم تكن سوى تَعِلَّةٍ، وشعارٍ حاشدٍ لمشروع قومى واستعمارى محض.

وأول مجالات نشاطه هو أمريكا الجنوبية: «تلك الجمهوريات فى أمريكا الجنوبية يمكن أن نحصل عليها بالمال» [١٢ من يونيو ١٨٩٥ – جـ ١ ص ٩٢].

«لقد تخلينا عن مفاوضاتنا فى إفريقية الجنوبية حيث يعقدون معاهدات احتلال هذه الدول، ولدينا وعود قاطعة بأرض سوف نحتلها» [١٣ من يونيو ١٨٩٥ جـ ١ ص ١٣٦].

وهو يعلن لوزير الشئون الخارجية الإنجليزى، جوزيف تشمبرلين: «أريد أن أطلب من الحكومة البريطانية ميثاق استعمار.

– لا تقل «ميثاق» فللكلمة جرس ردىء فى هذا الوقت.

– فلنسمِّه كما تريدون. أريد أن أؤسس مستعمرة يهودية فى أرض ممتلكة لبريطانيا.

– خذوا أوغندا»، [١٩٠٢ – جـ ٤ ص ١٢٩٤].

ويصطدم هذا المشروع الإفريقى بمقاومات عنيفة، وبخاصة لدى الصهاينة الروس، الذين كانوا فى «تمرد مفتوح معلن، إنهم يريدون وضعى أمام إنذار نهائى: يجب أن أتخلى عن فكرة إفريقية الغربية... سوف أحشد القاعدة ضد المتمردين... سوف ألغى مساعدتهم المالية» [٤ من ديسمبر ١٩٠٣ – جـ ٤ ص ١٥٧٢].

ومازال أمام القضية وقت طويل: ففى المؤتمر الصهيونى السادس كان هرتزل متهما بالخيانة، وكانت الحركة على شفا الانشقاق، ولكن هرتزل كانت لديه اقتراحات: فى البحر الأبيض، وشبه جزيرة سيناء، وفلسطين المصرية، وقبرص بخاصة.

«نحن نخلق تياراً لصالحنا فى قبرص، ولسوف نُدْعَى للذهاب إلى هناك، ولسوف أرتب هذا مع ستة من المبعوثين، حتى إذا أنشئت شركة يهودية برأسمال قدره خمسة ملايين من الجنيهات الاسترلينية من أجل الاستقرار فى سيناء والعريش، فسوف يبدأ القبارصة، هم أيضا، فى أن يطلبوا أن يسقط هذا المطر من الذهب على جزيرتهم، فيرحل المسلمون، ويكون اليونانيون سعداء ببيع أراضيهم بثمن مرتفع، ثم يهاجرون إلى أثينا، أو إلى كريت».

[محادثة مع جوزيف تشمبرلين فى ٢٣ من أكتوبر عام ١٩٠٢ – جـ٤ ص ١٣٦٢].

ومع أمريكا الجنوبية و إفريقية (من أوغندا إلى موزمبيق)، والبحر الأبيض، هذه آسيا المختارة نقطة سقوط، ففى خطاب هرتزل إلى السلطان بتاريخ ٢٨ من يوليو عام ١٩٠٢ – يقترح من جديد تسوية الديون العثمانية، فيقول: «إننا نطلب مرة أخرى امتيازاً أو تنازلا، لإقامة مستعمرة فى العراق، أو جزء صغير من فلسطين، وطبيعى أن هذه الشركة سوف تدفع ضريبة نسبية بعدد الأسر القاطنة فى المستعمرات» [جـ ٤ ص ١٣٢١].

خامساً: إن أهداف هذا الغزو الاستعمارى، بحماية قوةٍ، أية كانت، هى أهداف متنوعة، ولكن المناهج المستخدمة هى دائما متماثلة، سواء أكانت مساومة على أرض، أو طرداً لشاغليها، أو استحواذا على أراض بالقوة، والهدف النهائى سرٌّ دائما.

«سوف أدعو عددا صغيراً من الرجال ليقابلونى، وسوف أجعلهم يُقْسِمُونِ على أن يحفظوه سراً، فأكشفَ لهم الخُطّة»،[١٢ من يوليو ١٨٩٥ – جـ ١ ص ٨٢].

«إن نزع الملكية الاختيارى سوف يتم عن طريق عملائنا السريين،.... ولن نبيع إلا لليهود، ولا شك أننا لن نستطيع أن نفعل ذلك بالإعلان عن بطلان الصفقات الأخرى، ولكن، حتى إذا لم يخالف هذا العدالةَ بالمعنى الذى يعرفه العالم الحديث، فإن قوتنا قد لا تكفى للتقدم والتغلب على العقبات» [١٢ من يونيو ١٨٩٥ – جـ ١ ص ٨٩].

وفى أمريكا الجنوبية مثلًا: «فى البداية، وقبل أن يعرفوا أين نريد أن نذهب، فإننا نستطيع أن نحصل على تنازلات كبيرة، مقابل مجرد أمل فى قرض بسعر أقل من واحد فى المائة»،[١٢ من يونيو عام ١٨٩٥ - ج١ ص٩٢].

هذا الدهاء يفرض نفسه فى جميع العمليات الأخرى، فمثلًا، فى ٢٤ من أكتوبر عام ١٩٠٢ - أكد للورد لانزدوين وزير الدولة الإنجليزى للشئون الخارجية، أنه لا ينبغى أن يخامره ظل من الشك فى الصيغة السلمية المطلقة لاستعمار العريش والمواقع الأخرى، إذا ما ووفق لهم عليها» [جـ ٤ ص ١٣٦٥].

وفى نفس اليوم قال له جوزيف تشمبرلين: «أكِّدْ للورد لانزدوين أنكم لا تنوون أن تجعلوا من العريش مركز إغارة على فلسطين، شبيها (بغارة جَمِسُون - raid Jameson) [(١)].

- لقد أكدت له ذلك تماما، يا مستر تشمبرلين - قلت ذلك مبتسما، [جـ ٤ ص ١٣٦٩].

هرتزل هذا هو الذى كتب فى جورناله، فى ٤ من يناير عام ١٩٠٢، عندما كان يؤمل أن يحصل على قبرص، قاعدة للانطلاق: «يجب أن نضم قبرص، ويوما ما يجب أن نستولى على إسرائيل بالقوة، كما أُخِذَتْ منا، منذ دهر طويل» [جـ ٣ ص ١٠٢٣].

وهو يعمم هذا المبدأ، فقد كتب فى أول يناير عام ١٨٩٧، يقول: «يجب أن ننظم أنفسنا لنبلغ هدفنا بسرعة، تحت علم صهيون، ونحفظ مطالبنا التاريخية.

---

(١) كان جمسون هذا مديرا استعماريا فى إفريقية الجنوبية، وهو الذى نظم عام ١٨٩٥ غارة فى جوهانسبرج ضد دولة البوير، وقد استنكرت هذا العدوان الحكومة البريطانية، واستدعت جمسون وحبسته.

ربما نطلب قبرص من انجلترا، مع احتفاظنا بالنظر إلى إفريقية، أو أمريكا، ومتوقعين تجزئة تركيا» [جـ ٢ ص ٦٤٤].

لقد كان واضحا إذن، لهرتزل، أن جميع التنازلات التى تعطى له ليست سوى قاعدة للانطلاق إلى غزو لاحق، ولسوف يكون هذا منذئذ العنصر الثابت فى السياسة الصهيونية، ثم فى دولة إسرائيل، مع نفس التَّعِلَّةِ الكتابية: «إن منطقتنا: من نيل مصر إلى الفرات» [١٥ من أكتوبر عام ١٨٩٧ – جـ ٢ ص ٧١١].

إن الفترة «القبتاريخية» للدولة الصهيونية إسرائيل – ترينا أنها ولدت بفضل حربين:

حرب ١٩١٤ – ١٩١٨، حيث اضطَرّتْ ضرورةُ الحصول على أكبر دعم ممكن ضد ألمانيا، فى العالم، وبخاصة فى أمريكا – اضطَرت انجلترا إلى إعطاء وعود إعلان بلفور عام ١٩١٧.

وحرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥، حيث نجح الزعماء الصهاينة فى فرض أسطورة صهيون، التى تعنى إنشاء دولة إسرائيل، وذلك حين رفضت كل البلاد أن تستقبل اليهود المضطهدين على يد النازيين، فكانت إسرائيل نتيجة حتمية للهتلرية.

وإذا كان تاريخ الدولة الصهيونية إسرائيل يبين أنها ولدت بفضل حربين، فقد امتدت حتى الآن بفضل خمسة حروب، هى:

الحرب التى انتهت عام ١٩٤٨ بالاستيلاء على أراض تتجاوز الحدود التى رسمتها الأمم المتحدة.

وحرب العدوان عام ١٩٥٦، (بالتواطؤ مع انجلترا وفرنسا).

وحرب عام ١٩٦٧ التى فرضت استيلاؤها على الأراضى.

وحرب عام ١٩٧٣. وأخيراً غزو لبنان عام ١٩٨١.

إن وضع الشرق الأدنى فى أتون النار والدم منذ فُرِضَتْ دولة إسرائيل – إنما ينبع من المنطق الصارم للصهيونية السياسية، وهو المنطق الذى صاغه تيودور هرتزل، والذى تحقق من خلال كل الأحزاب الإسرائيلية، سواء فى ذلك حزب بن جوريون، أو حزب مناحم بيجن، وعلى الرغم من هجماتهما المتبادلة فإنهما يعتنقان نفس إيديولوجية العنف.

وقد كتب المؤلف المداح الذى وضع سيرة بن جوريون، أول رئيس «للعمالية» الإسرائيلية – كتب عن بطله يقول:

«إنه لم يعتقد مطلقا بإمكان التعايش مع العرب، فكلما قل العرب (داخل حدود دولة إسرائيل المقبلة) كان ذلك أفضل، لم يقل هذا صراحة، ولكن الانطباع الذى يستخلص من آرائه وملاحظاته واضح، هجوم عاصف ضد العرب لا يقتصر على تحطيم هجماتهم، وإنما يقلل إلى أقصى حد نسبة السكان العرب فى الدولة... من الممكن اتهامه بالعنصرية، ولكن حينئذ ينبغى أن ترفع القضية ضد الحركة الصهيونية كلها، وهى التى قامت على مبدأ الوحدة اليهودية الخالصة فى فلسطين»[1].

وبن جوريون نفسه يصف بيجن بأنه «هتلرى»، وذلك عندما يتابع نفس الحلم الدموى، يقول بن جوريون: «إن بيجن ينتمى بلاريب إلى النموذج الهتلرى، إنه عنصرى مستعد لتحطيم جميع العرب فى حلمه عن توحيد إسرائيل، وهو مستعد لاستخدام جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الهدف المقدس»[2].

هذا الكلام يقرره مؤلف سيرة مناحم بيجن، وهو ليس أقل نزوعا إلى المدح والتقريظ من مداح بن جوريون.

---

(١) بارزوهر: «بن جوريون، النبى المسلح» (ط فيارد، باريس ١٩٦٦ ص ١٤٦).

(٢) أى. هابر: «مناحم بيجن، الرجل والأسطورة» – «Menahem « Begin, The man and the legand (دلّ بوك – نيويورك ١٩٧٩ ص ٣٨٣).

الفصل الثانى

كيف ولدت دولة إسرائيل؟
وكيف تبقى؟



أ - التقسيم وسياسة «الأمر الواقع»

كشفت محاكمة نورمبرج لمجرمى الحرب النازيين (أوائل عام ١٩٤٦) الجرائم التى ارتكبها الهتلريون ضد الإنسانية.

وقد جهدت الدعاية الصهيونية أن تلحق هذه اللحظة المأساوية من التاريخ بالتاريخ اليهودى: «وكل هذا لم يكن سوى ذبح أبشع للتاريخ»[1].

نسى التاريخ أن حرب هتلر قد كلفت العالم ستين مليونا من الموتى، وحفظ الرقم على أنه ستة ملايين من اليهود[2]، ثم أعلنوا أن هذه «أعظم أحداث الإبادة فى التاريخ».

إن هذا يثير قضية العالم كله: قضية الأمريكان الذين ارتكبوا مذابح أكبر من هذه وأبشع، لأكثر من عشرين مليونا من الهنود، وقضية الروس الذين كلفتهم حملات التطهير الستالينية أكثر من عشرة ملايين من القتلى، وقضية الاستعماريين الأوربيين (فرنسيين وإنجليزاً وغيرهم) وقد أسفرت عمليات «نخاسة السود» على أيديهم عن عدد يتراوح (بين ١٠ ملايين و ٢٠ مليونا من العبيد)، نفوا إلى أمريكا، وكانت الضحايا بنسبة ١٠ قتلى إلى أسير واحد، أى: إنه قتل فى هذه العمليات ما بين مائة ومائتى مليون من السود.

---

(١) حنة أرنت (السابق) ص ٢٩٤.

(٢) ومع ذلك إن هذا الرقم غير قابل للتحقق، وتقول حنة أرنت (فى كتابها السابق ص ١٤١): «من أربعة ملايين ونصف إلى ستة ملايين»، أما الكتاب الشامل تقريبا فى هذه المادة: «الحل النهائى» لرتلنجر فيضع علامات أخرى من الشك حين يقول: إن الجريمة ليست أقل، ولا هى أكبر، بل الجريمة أنهم أبادوا أربعة ملايين، أو ستة، أو ثمانية ملايين من الكائنات الإنسانية، مع تعمد إبادتهم.

إن «أكبر مذبحة فى التاريخ» سمحت بأن يلقى بسوابقها فى طوايا النسيان، فأما الصهاينة فقد كان هذا عندهم حجة إضافية تضفى الشرعية، لا على وجود دولة إسرائيل فحسب، ولكن كذلك على أية جريمة اغتصاب ترتكبها فى المستقبل مهما تكن: فهذا حدث مسيحى، وتتويج لتاريخ إسرائيل.

وكلمة Holocauste ذاتها كلمة اختيرت بمهارة، نظراً إلى مفهومها الصوفى، إذ يطلقون كلمة «holocauste» على التضحية الدينية التى تتمثل فى تقديم قربان أو أكثر للألوهية، وبذلك صارت الدولة الصهيونية فى موقع اللامساس، كأنها لحظة مقدسة من التدبير الإلهى للتاريخ، على ما لخص هرشل فى صيغة موحية: «دولة إسرائيل، إنها إجابة الله على أوشفتز»[1].

إن التاريخ – ولا أقصد التاريخ الصهيونى، ولا التاريخ الأسطورى – يدل فى الواقع على أن الدولة الصهيونية إسرائيل لم تولد من وعد، أو هبة من الرب، ولا حتى بقرار من الأمم المتحدة، ولكنها بكل أسف – ولدت ككل دولة فى العالم من العنف المسلح، ومن «الأمر الواقع».

إن حل تقسيم فلسطين صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧، وفى ذلك التاريخ كان اليهود يكونون ٣٢٪ من السكان، ويملكون ٥,٦٪ من الأراضى، وإذا بالدولة الصهيونية تتسلم ٥٦٪ من الأراضى، بما فى ذلك أخصب المناطق الزراعية.

---

(١) ابراهام هرشل: «إسرائيل: صدى الخلود – «Israël: an echo of eternity» ط. دوبل دى – نيويورك ١٩٦٩ ص ١١٥، وأوشفتز: هى المعسكر الألمانى للاعتقال (المترجم).

ولقد أتاح التصويت على هذه الخطة مجالا لمؤامرات حقيرة، ففى ١٨ من ديسمبر عام ١٩٤٧ وقف عضو الكونجرس الأمريكى لورانس سميث فذكر هذه المؤامرات أمام الكونجرس، وقال: «فلننظر ما جرى فى جمعية الأمم المتحدة خلال الاجتماع السابق من تصويت علىّ التقسيم، كان لا بد أن يصوت ثلثا الأصوات إلى جانب القرار للموافقة عليه .... لقد أعيد التصويت مرتين .... وفى أثناء ذلك تعرض مندوبو ثلاث دول صغيرة لضغط قوى... لقد كانت الأصوات الحاسمة هى أصوات: هاييتى، وليبيريا، والفلبين، ولقد كفت هذه الأصوات لإحراز أغلبية الثلثين، وكانت هذه البلاد قبل ذلك معترضة على التقسيم... إن الضغوط التى مارسها مندوبونا، ورجالنا الرسميون، وبعض المواطنين الأمريكيين تعتبر عملا ذميما»[١].

وكتب دروبيرسون فى صحيفة شيكاغو ديلى، فى ٩ من فبراير عام ١٩٤٨ محددا هذه النقاط: «لقد سعى هارفى فايرستون، مالك مزارع المطاط فى ليبيريا لدى الحكومة الليبيرية...».

ومارس الرئيس ترومان ضغطا لا مثيل له على رياسة الدولة، وكتب نائب رئيس الوزراء سمنرولز يقول: «استجابة لأوامر مباشرة من البيت الأبيض مارس الموظفون الأمريكيون ضغوطا مباشرة أو غير مباشرة.. حتى يؤمنوا الأغلبية الضرورية عند التصويت النهائى»[٢]، ويؤكد وزير الدفاع آنذاك جيمس فورستال أن «الطرق المستخدمة للضغط، ولإكراه الأمم الأخرى فى نطاق الأمم المتحدة، كانت فضيحة»[٣].

---

(١) مضبطة الكونجرس فى ١٨ من فبراير عام ١٩٤٧ ص ١١٧٦.

(٢) سمنرولز: «نحن لا نحتاج إلى السقوط — We need not fail» (بوسطون، بوجتون ميفلين، ١٩٤٨ ص ٦٣).

(٣) «مذكرات فورستال» (نيويورك — فايكنج برس ١٩٥١ ص ٣٦٣)

وأما عن أسلوب «الضغوط» التى مارسها «اللوبى» الصهيونى، وضغوط «التصويت اليهودى»، فقد اعترف الرئيس ترومان نفسه أمام مجموعة من الدبلوماسيين، عام ١٩٤٦ فقال:

«إنى آسف، أيها السادة، ولكن ينبغى أن أجيب مئات الألوف من الناس الذين ينتظرون نجاح الصهيونية، وليس عندى مئات الألوف من العرب بين نَاخِبِىَّ» (١).

ويقرر رئيس الوزراء الإنجليزى القديم إيرل كليمنت أتلى فى مذكراته هذه الشهادة: «إن سياسة الولايات المتحدة، فى فلسطين كانت خاضعة للتصويت اليهودى، ولمساعدات الشركات اليهودية الكبرى» (٢).

وبين قرار التقسيم فى ٢٨ من نوفمبر ١٩٤٧، والنهاية الفعلية للوصاية الإنجليزية على فلسطين فى ١٥ من مايو ١٩٤٨ - استحوذت القوات الصهيونية على أراضى المنطقة المخصصة للعرب، مثل: يافا وعكا.

فَمَنْ فى مثل هذه الظروف يستطيع أن يلوم الفلسطينيين، أو يلوم البلاد العربية المجاورة على أنها لم تقبل الظلم الصارخ «للأمر الواقع»، وعلى أنها رفضت أن تعترف «بالدولة الصهيونية»؟.

ولكن الأرض لا تكفى الدولة الصهيونية، فيجب تفريغها من سكانها، ليجُعْلَ منها، لا مستعمرة تقليدية لتشغيل الأيدى العاملة لأهل البلاد الأصليين، ولكن مستعمرة استيطان، يحل فيها المهاجرون محل أهل البلاد.

ولكى تصل الدولة الصهيونية إلى هذا الهدف نظمت إرهابا حقيقيا تمارسه الدولة، أعنى: «مذابح» حقيقية ضد السكان الفلسطينيين.

---

(١) وليام إدّى: «فرانكلين روزفلت يقابل ابن سعود» نيويورك، الأصدقاء الأمريكيون للشرق الأوسط عام ١٩٥٤ ص ٣٧.

(٢) كليمنت آتلى «رئيس الوزراء يتذكر» فرانس ويليام - ط هينهان لندن ١٩٦١ ص ١٨١.

وأصرخ مثال على ذلك مذبحة دير ياسين فى ٩ من إبريل عام ١٩٤٨ ، وقد دارت بمنهج يماثل مذبحة النازيين فى أورادور ، فقد أبيد السكان جميعاً، وعددهم ٢٥٤ نسمة (رجالا ، ونساء، وأطفالا ، وعجائز) على يد قوات «الأرجون» التى كان قائدها «مناحم بيجن»[1].

وقد كتب مناحم بيجن فى كتابه «التمرد» : تاريخ «الأرجون» : أن دولة إسرائيل ما كانت لتكون دون «انتصار» دير ياسين ، [ص ١٦٢ من الطبعة الإنجليزية] ، وهو يضيف : «كانت الهاجاناه تشن هجمات مظفرة على الجبهات الأخرى... أما العرب ، فحين تملكهم الهلع هربوا وهم يصرخون : دير ياسين» (السابق ص ١٦٢ ، وكررت فى الطبعة الفرنسية ص ٢٠٠) .

وفى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ أبلغ الأمين العام لجامعة الدول العربية السكرتير العام للأمم المتحدة أن الدول العربية أصبحت مضطرة إلى التدخل لتأمين السكان الفلسطينيين .

بيد أن الموقف الوحيد الذى ظهر خلال هذه المواجهة بين العرب والصهاينة (عام ١٩٤٨) كان دخول مجموعات من الفدائيين الذين ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين ، فى بداية عام ١٩٤٨ ، قبل دخول الجيوش العربية الرسمية ، وكان ذلك طبعا على الجبهة المصرية .

وقد سجل هؤلاء الفدائيون ، بما يملكون من روح عالية وإيمان عميق ، وحرص على الشهادة فى سبيل المبدأ ، وإصرار على مقاتلة الصهاينة ، والدفاع عن المقدسات - أروع الصفحات فى تاريخ الحرب الفلسطينية الأولى ، واستطاعوا أن يحتلوا كثيراً من المستعمرات اليهودية على طول الطريق بين الحدود المصرية وبيت لحم .

---

(١) عن مذبحة دير ياسين ، من المفيد أن نقارن الروايتين اللتين كتبتا عنها ، الأولى بقلم بيجن فى كتابه «التمرد» فى الطبعة الإنجليزية ، عام ١٩٥١ ، وفى الطبعة الفرنسية عام ١٩٧١ ، والثانية شهادة جاك رينر ، رئيس وفد الصليب الأحمر الدولى فى القدس ، فى كتابه (١٩٤٨ فى القدس) ط باكوينير - نيوشاتل ١٩٥٠ ، وأعيد طبعه عام ١٩٦٩ ص ٦٩ - ٧٨ .

وشارك فى هذه المعارك التى كانت تحمل طابعاً دينيا مجموعة من المتطوعين من المدنيين والعسكريين، بقيادة رجلين سجل اسماهما فى سجل هذه الحرب، الأول: هو البطل أحمد عبد العزيز، وقد استشهد خلال المعارك نتيجة مؤامرة فيما يبدو، والثانى هو السيد كامل الشريف الذى وضع كتابا معروفا عن هذه المعارك بعنوان: (الإخوان فى حرب فلسطين)، وقد ذهب لاجئا إلى المملكة الأردنية، حيث احتل مكانة سياسية مرموقة.

والعجيب أن هؤلاء الشباب الذين ضحوا بأرواحهم، واستشهد منهم كثيرون - اعتقلوا فى نهاية المعركة، كإجراء وقائى يمهد لايقاف الحرب.

وفى عام ١٩٤٩، بعد هذه الحرب الإسرائيلية - العربية، كان الصهاينة يتحكمون فى ٨٠٪ من البلاد، وطردوا ٧٧٠,٠٠٠ سبعمائة وسبعين ألفا من الفلسطينيين.

وقد عينت الأمم المتحدة وسيطا هو الكونت فولك برنادوت، وقد كتب فى آخر تقرير له: «إنه انتهاك للمبادىء الأولية أن يمنع هؤلاء الأبرياء، من ضحايا الصراع، من العودة إلى ديارهم، على حين يتدفق المهاجرون اليهود إلى فلسطين، وأكثر من ذلك، يهددون بشكل دائم، بأن يحلوا محل اللاجئين العرب المستوطنين فى هذه الأرض منذ قرون»، وهو يصف «النهب الصهيونى على نطاق واسع، وهدم القرى دون ضرورة عسكرية ظاهرة».

وهذا التقرير فى الأمم المتحدة (وثائق أ ٦٤٨ ص ١٤) قد أودع فى مكتب أمينها يوم ١٦ من سبتمبر عام ١٩٤٨، وفى يوم ١٧ من سبتمبر عام ١٩٤٨ قتل الكونت برنادوت ومساعده الفرنسى الكولونيل سيروت، فى القدس، فى القسم الذى يحتله الصهاينة.

وأمام السخط العالمى اعتقلت الحكومة الإسرائيلية رئيس مجموعة شتيرن ناثان - يلين، وقد أدين وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، ثم عفى عنه...

وانتخب عضوا فى الكنيست عام ١٩٥٠ وقد ادّعى شرف إصدار الأمر بالقتل – فى يوليو ١٩٧١ – باروخ نادل – أحد قادة مجموعة شتيرن عام ١٩٤٨ (١).

ولقد كان الزعماء الصهاينة فى دولة إسرائيل يكنون فى أنفسهم احتقاراً للأمم المتحدة بقدر ما كانت أغلبية هذه المنظمة متآمرة مشاركة فى الاغتصاب الصهيونى لفلسطين.

وفى عام ١٩٤٨، قبل زوال الاستعمار، كانت الأمم المتحدة خاضعة للغربيين، وقد خالفت المنظمة ميثاقها ذاته حين رفضت أن يكون للعرب حق تقرير مصيرهم، وهم آنذاك ثلثا السكان الفلسطينيين.

بل إنه من وجهة النظر القانونية المحضة نجد مجموعة من الأسئلة تطرح نفسها: (٢).

لقد اتخذ قرار التقسيم بوساطة الجمعية العامة، لا بوساطة مجلس الأمن، فقد كان له إذن قيمة التوصية لا قيمة القرار واجب التنفيذ !!.

---

(١) عن اغتيال الكونت برنادوت انظر تقرير الجنرال لندستروم (الذى كان جالسا فى سيارة برنادوت)، وهو تقرير موجه فى يوم الجريمة نفسه، (١٧ من سبتمبر ١٩٤٨) إلى الأمم المتحدة، ثم الكتاب الذى نشره هذا الجنرال فى الذكرى العشرين للجريمة «قتل الكونت برنادوت» – طبع فى روما، (ط. ايست، أ. فانيللى) عام ١٩٧٠ تحت عنوان: « un trbuts a La memoria del comte Folke Bernadotte »، وكتاب رالف هوينز: «الكونت برنادوت: حياته وعمله» (هتشنسون ١٩٤٨)، وفى الصحيفة الأسبوعية الميلانية (أوربا): «اعترافات باروخ نادل» (نشرت فى لوموند فى ٤ و ٥ من يوليو ١٩٧١).

(٢) عن هذا الجانب القانونى من المشكلة (انظر: هنرى قطان: فلسطين، العرب وإسرائيل – « Palestine , the Arabs and Israël »، ط. لونجمان – لندن عام ١٩٦٩.

لم يكن الفلسطينيون وحدهم يرفضون هذا التقسيم، فإن أرجون (مناحم بيجن) أعلنت آنذاك أن هذه التجزئة غير قانونية، ولا يمكن الاعتراف بها، ودعت اليهود: «لا إلى طرد العرب فحسب، بل إلى الاستيلاء على كل فلسطين»[1].

وقد كتب بن جوريون نفسه يقول: «إنه حتى رحيل البريطانيين لم تُخْتَرَقْ أية مستعمرة يهودية، حتى ولو كانت متطرفة بعيدة، أو يستول عليها العرب، فى حين أن الهاجاناه، بما وجهت من هجمات قوية وكثيرة – استولت على كثير من المواقع العربية، وحررت طبرية، وحيفا، ويافا، وصفد»[2].

وهكذا امتدت الأراضى التى منحت للصهاينة، من ٥٧ ٪ بوساطة الأمم المتحدة إلى قريب من ٨٠ ٪ من فلسطين.

واختصاراً، يخطىء من يقول: إن دولة إسرائيل أنشئت بوساطة الأمم المتحدة، فلقد أنشئت بمجموعة من الأحداث شكلت «الأمر الواقع»، صنعها عنف الهاجاناه، والأرجون، «ومجموعة شتيرن».

وهكذا تنتهى قصة «الحقوق التاريخية» بحساب ختامى من الكذب والدم وما كان يمكن أن يكون غير هذا.

أولًا: لأن فكرة «الحقوق التاريخية» ذاتها عندما يراد تطبيقها على مراحل متطاولة فإنها تقود إلى الإحالة، وإلى فوضى الحرب.

ولو أننا عممنا هذا النموذج «الصهيونى» «للمطالبة» القائمة على مثل هذه «الحقوق التاريخية» فإن الكرة الأرضية سوف تنتهى إلى الفوضى: إذ لماذا لا يطالب الإيطاليون «بحقوق تاريخية» فى فرنسا، وقد حكم الرومان منذ يوليوس قيصر بلاد الغال زمنا أطول مما حكم ملوك إسرائيل فى فلسطين ....؟..

---

(١) مناحم بيجن «التمرد: قصة الأرجون»، ص ٣٣٥، وأنظر أيضا ص ٣٨٦ من الطبعة الفرنسية (المائدة المستديرة: Latable ronde – ١٩٧١).

(٢) دافيد بن جوريون: «بعث وقدر إسرائيل – «Rebirth and Destiny of Israël» ص ٥٣٠.

ولماذا لا يطالب السويديون بنورماندیا، وإنجلترا، وسيشل، باسم «أجدادهم» النورمانديين؟..

وإلام تصير إفريقية لو أن الغزاة القدماء طالبوا باسترداد الإمبراطورية الماندنجية[1]، أو إمبراطورية الهجيمونيين البوهليين[2]؟.

بل، لنعد إلى أوربا، ولنتصور أن الدول الأوربية بدأت اليوم فى المطالبة «بحقوقها التاريخية» على الأراضى التى كانت تحكمها، أو كانت تكوّن غالبية سكانها، فى عصر أو فى آخر، حتى ولو لم ترجع إلا إلى معاهدات وستفالى، التى تعتبر بداية العصور الحديثة فى أوربا، وقد عقدت عام ١٦٤٨ (أى: لأقل من ثلاثة قرون ونصف القرن): وبداية العصور فى أوربا هى التصدع النهائى «للمسيحية»، وظهور «القوميات» – إن أوربا حينئذ سوف تلجأ إلى النار وإلى الدم، جراء الادعاءات «التاريخية» المتناقضة لكل دولة: من السويد إلى إيطاليا، وإلى النمسا، ومن الألزاس إلى البلقان، إنه الحريق حينئذ.

وماذا سيحدث لو أنهم صعدوا بالتاريخ إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، منذ خمسة عشر قرنا!! حين كانت كل «القوميات» وحدودها نتيجةً للمواجهات، وعلاقات القوة لهذا «الأمر الواقع» الذى صنع منه التاريخ؟..

لقد قال بليز باسكال صراحة: «إن الناس لما لم يستطيعوا أن يفرضوا أن ما يكون عدلا يكون قوة، درجوا على أن ما يكون قوة يكون عدلا».

---

(١) مجموعة زنجية سودانية، أسست عام ١٢٣٠ إمبراطورية مالى القوية التى ازدهرت فى القرن الرابع عشر الميلادى. (المترجم).

(٢) شعب إفريقى من أصل أبيض (بربرى أو أثيوبى)، استقر قديما بالسنغال، حيث أقام إمبراطورية غانا فى القرن العاشر، وهم الآن مستقرون بغينيا والسودان (المترجم).

ولدينا مثال دقيق على هذه الإحالة، يمكن أن نجده فى أمريكا، على ما كتبه اللاهوتى ألبرت دى يورى، من جامعة جنيف، قال: «إن استعمار أمريكا يقوم على تجريد القبائل الهندية بشكل فاضح شائن من ملكيتها، ولكن أحدا لا يستطيع اليوم أن يعتمد على هذا الواقع، لكى ينازع فى شرعية الولايات التى نشأت فى هذه القارة».

ومع ذلك، إن «الحقوق التاريخية» للهنود هى أوثق كثيراً جداً من حقوق الصهاينة: فإن الهنود ليسوا أول من سكن أمريكا فحسب، بل هم وحدهم الذين سكنوها منذ آلاف السنين، إلى أن جاء الإسبان، والبرتغاليون، والإنجليز، ومن ورائهم كل أمم أوربا – فذبحوهم، وسرقوا أرضهم، فإذا كان لهم اليوم الحق الذى لا يتقادم فى أن يطلبوا إمكان العيش، فمن الذى يجيز لهم أن يعتبروا أنفسهم سادة وحيدين فى أمريكا، حتى يطردوا أو يضطهدوا الأجناس الأوربية؟.

هل معنى ذلك أنه يجب فى كل لحظة من لحظات التاريخ – أن نخضع وأن نستسلم، «مثل الكلب الذى نفق مع تيار الماء»، أى: أن نستسلم لحكم القوة، أو «الأمر الواقع»؟.

إن دوام الظلم لا ينشىء حقا بأية حال، وإن اختفاء بولندا من خريطة أوربا خلال قرن ونصف قرن (١٧٦٤ – ١٩١٤) – لم يؤد إلى الموت التاريخى لهذا البلد، وما كانت نهضته ممكنة إلا بفضل ما أبدى شعب بولندا من رفض شجاع للاضطهاد الأجنبى.

وكذلك الحال اليوم بالنسبة إلى الشعب الفلسطينى، الذى جُرِّدَ من ملكيته، منذ أكثر من ثلث قرن، ملكية الأرض التى ظل يعيش عليها، ويعمل منذ آلاف السنين، كيما ينتهى به الأمر إلى أن يطرد منها، ولكى يعيش غريبا فى أرضه وبعيداً عن أرضه.

إن مقاومته ليست مطالبة «بحق تاريخى» مجرد، أو متباعد، بل هى الرفض الحيوى، العنيد لعدوان دائم على جذور حياته ذاتها.

ب – نشاط «اللوبى» الصهيونى فى الولايات المتحدة وفى الغرب

إن دولةً تنشأ طبقا للإيديولوجية الصهيونية، التى صاغها تيودور هرتزل فى كتابه «الدولة اليهودية» بدءا بنظرية «شعب يهودى واحد» موجود على المستوى العالمى، ومجتمعات يهودية فى كل مكان، مستعصية على الاندماج – لهى دولة ذات مشكلات تطرح دون أن يسبق لها مثيل بالضرورة.

فمفهوم «الشعب اليهودى» – ابتداء – (بعيداً عن المعنى الدينى، الذى لا يثير أية مشكلة)، هذا المفهوم يخول للدولة من أول لحظات قيامها صفة غريبة متناقضة، فإما أن تمضى إلى تجميع كل يهود العالم على ترابها، (وكان هذا رأى بن جوريون بخاصة، وفى ضوئه تعتبر الصهيونية فاشلة: فأقل من ٢٠٪ من اليهود هم الذين جاءوا للحياة فى إسرائيل)، وإما أن تَدَّعِىَ هذه الدولة أنها تشغل المكان المركزى فى «يهود الشتات – Diaspora» فهى وكيلة عنهم، وممثلتهم فى كل مكان من العالم، هذه الدولة «فوق القومية – Extranational» سوف تواجه مصاعب كبرى ذات طابع دولى.

لقد أعلن بن جوريون للمؤتمر الصهيونى العالمى الخامس والعشرين، فى يناير ١٩٦١ – أنه: «منذ اليوم الذى أقيمت فيه الدولة اليهودية فتحت أبواب إسرائيل لجميع اليهود الذى يرغبون فى المجىء إليها، فكل يهودى متدين ينتهك كل يوم تعاليم اليهودية، وتعاليم توراة إسرائيل، مادام باقيا فى الشتات»، ثم أنحى باللائمة على اليهود الباقين خارج إسرائيل، واعتبرهم (بلا ربّ Sans Dieu)[1].

(١) جويش نيوزلتر، فى ٩ من يناير ١٩٦١.

لقد كانت نظريته عن العلاقات مع يهود الشتات هى أن:

«دولة إسرائيل من الناحية الجغرافية جزء من الشرق الأوسط،... هذا عنصر ثابت Statique، أما من الناحية الديناميكية، ناحية الخلق والنمو، فإن إسرائيل جزء من الشعب اليهودى العالمى، وهى تستمد من هذه الطبقة المشتتة كل مواردها، وكل الوسائل الضرورية لبناء قومية إسرائيل، وتطوير أرضها، وهى – بفضل قوة اليهود فى العالم – سوف تبنى وتبنى دائما»(١).

وسوف يمضى بن جوريون فى مناسبة أخرى إلى ما هو أبعد، فيقول: «حين يتكلم يهودى فى أمريكا، أو فى إفريقية الجنوبية عن أصدقائه اليهود فى حكومتنا» فهو باستخدامه هذه العبارة إنما يقصد: حكومة إسرائيل، كما أن الجمهور اليهودى فى مختلف البلاد يعتبر سفارة إسرائيل ممثله الخاص»(٢).

وفى المؤتمر الثالث والعشرين للتنظيم الصهيونى العالمى عام ١٩٥١ – لم يقتصر أول رئيس للدولة الصهيونية، بن جوريون، على أن يعلن أن «أى صهيونى يجب أن يجىء إلى إسرائيل، مهاجراً»(٣)– بل إنه فى نفس الخطبة يحدد واجبات الصهاينة المقيمين فى الخارج، فيقرر أن هذه الواجبات تشمل: «التكليف الجماعى لكل التنظيمات الصهيونية فى مختلف الأمم بمساعدة الدولة اليهودية فى كل الظروف، وبلا قيد أو شرط.

---

(١) بن جوريون: «بعث وقدر إسرائيل» نيويورك – المكتبة الفلسفية ١٩٥٤ ص ٤٨٩.

(٢) الكتاب السنوى الإسرائيلى – ١٩٥٣ – ٥٤ ص ٣٥.

(٣) وهو ما أثار سخط الصهاينة الأمريكيين، وإخفاق الصهيونية هنا واضح جلى، فإن نسبة اليهود الأمريكيين الذين جاءوا للعيش فى إسرائيل أقل من اثنين فى الألف.

حتى ولو كان مثل هذا الموقف متعارضاً مع السلطات فى أوطانهم الخاصة»[1].

وحتى فى المؤتمر اليهودى العالمى، احتج جماعة من المعارضين، مقدرين أن أثر موقف كهذا «للحركة الصهيونية العالمية» يوشك أن يثير معاداة السامية، فيضع اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل فى موقف حساس، يخشون معه بحق أن يتهموا بالجنسية المزدوجة[2].

بيد أن بن جوريون مصر على موقفه حتى النهاية، ففى المؤتمر الإيديولوجى بالقدس، والذى دعا إليه التنظيم الصهيونى العالمى - طور بن جوريون نفس النظرية فقال: «إن صهيونيتى قامت على الاقتناع بأننا لسنا جزءا من الشعوب التى نعيش بين ظهرانيها».

(محاضر المؤتمر الإيديولوجى بالقدس ص ١٤٩).

* * * * *

(١) دافيد بن جوريون: «واجبات الصهيونى الحديث وسماته - Tasks and character of a modern Sionist» جيروزاليم بوست - فى ١٧ من أغسطس ١٩٥٢، وجويش تلغرافيك أجنسى فى ٨ من أغسطس ١٩٥١.

(٢) «المحاضر الرسمية» للمؤتمر الصهيونى العالمى الثالث والعشرين عام ١٩٥١.

إن هذا الموقف ليس شخصيا من بن جوريون، ذلك أن موضوع «الولاء المزدوج»، والواجب الأول، وهو خدمة مصالح دولة إسرائيل - إنما ينبعان من المنطق الداخلى للصهيونية.

ولقد حدث فى مناسبات كثيرة، وبخاصة فى خطاب ناحوم جولدمان، رئيس المؤتمر اليهودى العالمى، فى المؤتمر العالمى الثانى، الذى انعقد فى ٥ من أغسطس ١٩٦٣ - حدث أن أدان أولئك اليهود الذين يظنون أن «للدولة التى يعيشون فيها الحق فى أن تطالبهم بالولاء المطلق»، ثم ذكر أن من الادعاءات غير المقبولة من الدول ما كان من نوع التحقيق الذى تجريه لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى عن نشاط الوكالة اليهودية، وأكد أن مشكلة الجنسية المزدوجة طرحت بالنسبة إلى جميع يهود الشتات «مع أن كثيرين لا يريدون أن يوافقوا على وجودها، ويرون أن الانتماء إلى شعب يهودى عالمى هو عدم وطنية».

إن مثل هذه التدخلات تهدد بتفتيت الأمة الأمريكية، التى تتكون بأجمعها من مهاجرين، فى حالة ما إذا عمم هذا الموقف، فطبق المواطنون ذوو الأصول المختلفة هذا المبدأ القائم على «الجنسية المزدوجة»، وفيهم (إيطاليون، وألمان، ويونانيون، وصينيون... الخ).

لذلك وجدت الدولة نفسها مضطرةً إلى أن تقاوم هذا الاتجاه، فوجهت خطابا إلى «المجلس الأمريكى لليهودية» نشره المجلس فى ٧ من مايو ١٩٦٤، وقد استند فيه وزير الدولة تالبوت إلى مبادىء الدستور الأمريكى ذاتها، واعتبر مطالب الزعماء الصهاينة من قبيل التحدى، وذكر أن بلاده «تعترف بدولة إسرائيل دولة ذات سيادة، كما تعترف بمواطنة دولة إسرائيل (جنسيتها)، وهى لا تعترف بأية سيادة أو مواطنة فى هذا المجال، ثم هى لا تعترف بعلاقات سياسية قانونية، قائمة على هوية دينية للمواطنين الأمريكيين، فهى لا تعرف أدنى تفرقة بين المواطنين الأمريكيين، فيما يتصل بدياناتهم.

ونتيجة لذلك ينبغى أن يكون واضحا أن رياسة الدولة لا تعتبر مفهوم «الشعب اليهودى» من مفاهيم القانون الدولى»[1].

ولقد اتخذت الحكومة الأمريكية هذا الموقف حين كانت أعمال لجنة التحقيق المشكلة فى لجنة الشئون الخارجية، بمجلس الشيوخ الأمريكى، برياسة السناتور فولبرايت – ماضية فى تقرير شرعيته، وهى تعرى فى نفس الوقت طبيعة نشاطات التنظيم الصهيونى فى الولايات المتحدة، كما تكشف استحالة اتخاذ الإجراءات النابعة من هذا الإعلان للمبادىء، لسبب محدد هو قوة جماعة الضغط (اللوبى) الذى كانت شبكته منتشرة فى أمريكا، لفرض سياسة دولة إسرائيل.

ويهمنا أولا أن نؤكد أنه بفضل المبدأ الصهيونى الذى بمقتضاه تولت دولة إسرائيل مهمة «تجميع» كل اليهود، من أنحاء العالم، صار «التنظيم الصهيونى العالمى»، جزءا لا يتجزأ من الدولة، حتى كأنه نوع من الوزارة يمارس عمله فى الخارج.

وقد أقر تشريع هذا المبدأ بالقانون الذى صوت عليه فى البرلمان الإسرائيلى (الكنيست)، فى ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٥٢، حول «التنظيم الصهيونى العالمى – الوكالة اليهودية» وتحدد الفقرتان ٥ و ٦ من القانون اختصاصاته الرسمية:

الفقرة ٥: – إن مهمة تجميع اللاجئين – لما كانت المهمة المركزية لدولة إسرائيل وللحركة الصهيونية معا، فإن ذلك يقتضى جهداً مستمراً من يهود الشتات، وتعوّل دولة إسرائيل إذن على مشاركة جميع اليهود، والتنظيمات اليهودية فى بناء الدولة... وهى تعترف بالحاجة إلى توحيد جميع المجتمعات اليهودية لبلوغ هذه الغاية.

---

(١) ذكره جورج فريدمان فى كتابه: «غاية الشعب اليهودى Fin du peuple Juif – جاليمار ١٩٥٦ (Idées - Proche) ص ٢٩١ – ٢٩٢.

الفقرة ٦ : – إن دولة إسرائيل تعول على « التنظيم الصهيونى العالمى » لتحقيق هذا التوحيد[1] .

وقد تأكد هذا التشريع فى يوليو عام ١٩٥٤ بقرار جديد من الكنيست : « مبادىء أساسية لبرنامج الحكومة » ، وتشترط الفقرة ٥٩ من هذا التشريع مايلى : « تمشيا مع التنظيم الصهيونى العالمى ، ومع الاتفاق بين الحكومة ، واللجنة التنفيذية الصهيونية – تمنح الحكومة دعمها القانونى للحركة الصهيونية ، مؤكدة مطالبها ، وهى :

تحقيق أهداف الصهيونية ، الإسهام المالى المتزايد بسخاء ، نشر اللغة العبرية ، تطوير حركة الرواد ، تهجير الأطفال والشباب ، التوسع فى الهجرة ، وفى الاستقرار ، تدفق رءوس الأموال إلى إسرائيل ... الصراع ضد جميع مظاهر الاتجاه إلى الاندماج وإنكار أن اليهود يكونون شعباً واحداً » .

إن « التنظيم الصهيونى » فى كل بلد ليس مجرد عميل لبلد أجنبى ، هو دولة إسرائيل ، بل هو جزء من هذه الدولة ، وهو هيئة من هيئاتها الرسمية ، ينظمها القانون الإسرائيلى .

ومع ذلك إن « التنظيم الصهيونى » – (الوكالة اليهودية) – ينتفع فى الولايات المتحدة بنفس التشريع الذى ينظم جمعيات الإحسان ، مع جميع الإعفاءات الضرائبية التى تترتب عليه ، فيما يخص جمعه للأموال .

وفى عام ١٩٥٧ أعلن السناتور رالف فلاندرز فى مجلس الشيوخ الأمريكى أنه : « مادامت سياسة التهجير الإسرائيلية تستهدف جمع اللاجئين فمن الطبيعى أن نؤيد هذا النشاط ، وأن تعفى الإسهامات الأمريكية فيه من الضرائب ، غير أن السياسة الراهنة لم تعد تختص بلاجئين ، وإنما هى مرتبطة ببرنامج صهيونى هو جمع كل يهود العالم ، سواء أكانوا مضطهدين أم لا ، معوزين أم لا ، والشرط

---

(١) الكتاب السنوى للحكومة الإسرائيلية (Governement Printing Press القدس ١٩٥٣ – ٥٤ ص ٢٤٣ .

الوحيد أن يكونوا يهوداً ، فيتم توصيلهم إلى صهيون الجديد، دون التفات إلى صنوف الظلم التى تحيق بسكان هذه الأرض، وماينبغى مطلقا أن يعفى فلس واحد يذهب إلى هذا المشروع من الضرائب، إن واجب الأمانة حيال المساهمين الأمريكيين يقتضى من الخزانة أن تعيد النظر فى الإعفاءات الضريبية للمبالغ المدفوعة للنداء اليهودى الموحد».

إن التوجيه الجديد للتهجير مؤيد بأصوات إسرائيلية رسمية: «فإيجال آلون وزير العمل الإسرائيلى يرى أن فترة الهجرة إلى إسرائيل تصل إلى حدها بعد ثلاث سنين... فإن مستودعات الهجرة التى يمكن الوصول إليها قد استنزفت، واليهود الباقون فى إفريقية الشمالية مثلا – يبقون فيها لأنهم يعاملون معاملة طيبة»[1].

وقد وجه موشى ديان (الذى كان حينئذ وزيرا للزراعة) هذا النداء، إلى المؤتمر السنوى الثالث عشر لاتحاد المهاجرين الإنجليز فى إسرائيل: «إن الهجرة إلى إسرائيل، القادمة من بلاد أكره اليهود على تركها، تحقق الغاية منها، ويجب أن تقنع إسرائيل اليهود الغربيين بالمجىء إليها بأعداد كبيرة... إن فى أيديكم مفتاح هذه المشكلة»[1].

وفى ٢٩ من مايو، والأول من أغسطس عام ١٩٦٣ – أظهرت شهادات لجنة التحقيق بمجلس الشيوخ الأمريكى فى نشاطات «التنظيم الصهيونى» أن الأمر لا يقتصر على وقائع غش مالى، إذ إن التنظيم الصهيونى لم يقنع بأن يعتبر نفسه مؤسسة إنسانية (حتى يفلت المتبرعون من الضرائب)، بل إنه مضى فى نشاط سياسى لحساب قوة خارجية، وتلكم هى طبيعة هذه السياسة موضع الاتهام.

وقد كشفت لجنة التحقيق عن وجود «لوبى» إسرائيلى قوى فى الولايات المتحدة، وأنه أفسد فيها النظم المالية والسياسية.

---

(١) جويش كرونيكل – عدد ٦ من مارس ١٩٦٤.

(٢) جويش كرونيكل – عدد ١٣ من مارس ١٩٦٤.

ويسأل رئيس لجنة التحقيق، السناتور فولبرايت إزادور هملين، مدير القطاع الأمريكى فى «الوكالة اليهودية» (التنظيم السياسى العالمى):

الرئيس – سوف أريك نسخة من مذكرة غير مؤرخة، بعنوان «المجلس الصهيونى الأمريكى، بيانات وعلاقات سياسية» وهى مذكرة ترسم الخطوط العريضة لخطط اللجنة، لميزانية العام ١٩٦٢ – ١٩٦٣، وأسألك عما إذا كان مثال واحد من هذه المذكرة موجوداً فى ملفاتكم؟.

هملين – نعم، يا سيدى، هو موجود فى ملفاتنا»(١).

وهذا هو نص المذكرة:

١ – المجلات، زَرْعُ المحررين، وإثارة ونشر مقالات مناسبة فى المجلات ذات الانتشار الواسع، وإعادة طباعة النصوص وتوزيعها، وهى النصوص التى تبدو مؤيدة لنا فى المنشورات التى صدرت.

٢ – التلفزيون – الإذاعة – الأفلام – ينظم القسم مناقشات، وأحاديث فى الإذاعة والتلفزيون، ويستخدم الأفلام، وهو يزرع الشخصيات الموجهة فى هذه المجالات، ويشجع محطات الإذاعة والتلفزيون على إنتاج برامج تخص إسرائيل.

٣ – التنظيمات الدينية المسيحية: زرع القادة «المفاتيح»، والجمعيات، وعقد حلقات نقاشية عن إسرائيل لرجال الدين المسيحيين، وكتابة المقالات المؤيدة فى الصحافة البروتستانتية والكاثوليكية، ومقاومة كل مقال معاد فى هذه الصحافة.

٤ – الأوساط الجامعية: مساعدة الجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط... وزرع قادة المجتمع الجامعى، وتنظيم «يوم إسرائيل» فى الحرم الجامعى، والاشتراك مع الزملاء، والجامعات لإقامة حلقات نقاشية عن الشرق الأوسط، وتوجيه نصوص الصحافة الجامعية أو مقاومتها، وقيادة الطلاب الصهاينة، والطلاب الآخرين اليهود فيما يتعلق بالمشكلات بين العرب والإسرائيليين...

---

(١) محاضر استماع مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة ص ١٣٣٩.

٥ – **الصحافة اليومية، زرع** المحررين، وتحرير المقالات المؤيدة من خلال وكالات الصحافة، والصحفيين ... الخ .. ومقاومة المقالات المعادية، وإعادة طباعة المقالات المؤيدة وتوزيعها.

٦ – **الكتب** مساعدة الناشرين فى ترويج الكتب ذات القيمة فى القضية، توزيع الكتب فى المكتبات العامة والمدرسية.

٧ – **المحاضرون** يستمر مكتب المؤتمرات فى استخدام الإسرائيليين، والنصارى الأمريكيين، ويهود أمريكا فى معالجة موضوعات جامعية، دينية ومدنية، فى طول البلاد وعرضها، لإعطاء صورة إيجابية عن إسرائيل.

٨ – **الارتباط** بالمنظمات القومية أو المحلية، ولا سيما المنظمات التى تهتم بالعلاقات الدولية، مع ارتباط خاص بمجتمع السود.

٩ – **مشروعات ونشريات**: إعداد مادة خاصة لتوجيه المناقشات عن المسائل المتعلقة باللاجئين العرب، والعلاقات بين سورية وإسرائيل... الخ...

١٠ – **السفريات إلى إسرائيل**: إعانة أولئك الذين يشكلون الرأى العام (Public opinion molders)، ومساعدتهم فى التعرف على إسرائيل، تنظيم سفريات لهؤلاء «المشكلين للرأى العام، ترتيب الأمور بطريقة مناسبة فى إسرائيل «لهداية» الزائرين الأمريكيين»[١].

فهذا برنامج منهجى للتحكم والتلاعب بالرأى العام، وهو برنامج مذهل بالنسبة إلى جمعية «إنسانية»، معفاة من الضرائب، لهذا السبب!!.

وترجع كلمة «**زرع**» غالبا، بل وتتضح، فى السياق – عندما يقدم رئيس اللجنة – مثلا – إلى هملين خطابا صادراً من قيادة الوكالة اليهودية، مكتب أمين الصندوق، مؤرخاً فى ٣٠ من مايو عام ١٩٦٢ موجهاً من الدكتور بنكوس إلى ممثلها فى نيويورك الدكتور ل. مويال، من القطاع الأمريكى فى الوكالة اليهودية، وهو خطاب يخص المجلس الصهيونى الأمريكى. وقد جاءت

---

(١) المحاضر السابقة ص ١٣٣٩ – ١٣٤٠.

فيه هذه الفقرة: «إن مسألة المجلس الصهيونى الأمريكى (American Zionist Council A. Z. .C) سوف تحسم قبل اجتماع القيادة يوم الإثنين القادم، وأيا ما كان القرار، الذى سوف تعالج تفاصيله فيما بعد، فإنى أرجو أن تعطى، عن شهر يونيو – إلى السيد بيك مبلغ ١٥,٠٠٠ خمسة عشر ألف دولار فى الأسبوع، دون أن تسأله عن تفاصيل الطريقة التى ينفقها بها... إن التوصية التى سوف تقدم إلى القيادة، والتى يحتمل أن يكون عليها التركيز هى: أن إسهامنا سوف يكون فى حدود ٧١٢,٠٠٠ سبعمائة واثنى عشر ألف دولار منها ٣٠٠,٠٠٠ ثلثمائة ألف يجمعها المجلس الصهيونى الأمريكى ذاته»(١).

ودار حوار مفيد بين الرئيس والسيد هملين:

الرئيس – هل من الصواب أن نستنتج أن التسويات المالية مع المجلس الصهيونى الأمريكى كانت تعالج مباشرة مع الوكالة فى القدس؟.

هملين – إن أمين صندوق الوكالة اليهودية فى القدس، السيد بنكوس كان يناقش هذه التسويات مع الـ A. Z. C. – نعم يا سيدى»(٢).

الرئيس – من الواضح إذن أن أفهم أن قيادة الوكالة اليهودية... كانت تستخدم المجلس الصهيونى الأمريكى قناة لتبديد الأرصدة فى هذا البلد؟.

هملين – لقد كان المجلس الصهيونى الأمريكى (AZC) يتسلم هذه الأرصدة، وينقلها إلى التنظيمات الصهيونية...

---

(١) السابق ص ١٣٣٤.

(٢) السابق ص ١٧٠٥.

الرئيس – أليس هذا تجنبا للالتزام الصريح الذى كان متعينا لو أن الأرصدة دفعت مباشرة، وهو تقديم إقرار، طبقا لقانون تسجيل العملاء الأجانب – Foreing Agents registration act؟.. لقد سبق أن قلت: إن ذلك لم يكن هدف المجلس الصهيونى، وإنه كان هدف آخرين، ولكنه أُخْفِىَ بهذه الطريقة؟ نعم أو لا ؟.. ولقد أعطيتم هذه النقود إلى أ، وأعطاها أ إلى ب، و ب أعطاها إلى جـ، وكان جـ هو الذى استخدمها أخيراً، ولكن أحدا لا يدرى فيم استخدمها... فهناك إذن منظمة ذات أهداف مماثلة، وهو ما يجعل من المستحيل علىّ أن أتتبع ما يجرى...»[1].

وهكذا تم الكشف عن وجود «لوبى» لشبكة معقدة من المنظمات، تستطيع من خلالها قوة أجنبية، بوساطة ضغوط مختلفة – أن تتلاعب بالرأى العام، لتحويل السياسة الأمريكية، فى اتجاه يتطابق دائما مع مصالح إسرائيل.

وكانت قنوات التسلل شديدة التنوع (فبين مئات القنوات نجد مثلا):

– **الوكالة البرقية اليهودية** [2]، التى يمولها الاتحاد اليهودى الأمريكى، الذى يوصف بأنه «أعمال خيرية» (ومن هنا فهو معفى من الضرائب)، وهو الذى ينشر فى بعض الصحف برقيات حكومة إسرائيل، وفرعه الدولى هو «الاتحاد الصهيونى العالمى».

مجلس المعابد الأمريكية: وهو المكلف بإعداد النصوص «التربوية» عن «تعليم إسرائيل»، وقد استطاع رئيس اللجنة أن يضع فى الملف رسالة شكر، فى ٢١ من يونيو عام ١٩٦٠ موجهة من رئيس مجلس المعابد إلى نائب مدير الوكالة اليهودية فى إسرائيل، المعروفة بـ «التنظيم الصهيونى العالمى»:

---

(١) السابق ص ١٧٠٦ – ١٧٠٩.

(٢) السابق ص ١٣٦٧ – ١٣٦٨ وما بعدها.

السيد جوتليب هامر:

أوجه إليكم، للإعلام، التقرير المرفق المفصل السرى، عن الخدمات التى استطعنا أن نقدمها بفضل المساعدات الكريمة التى ندين بها لكم.

الربانى مارك فينمبوم

المدير (١)

- **مؤتمر الرؤساء:** المكون من رؤساء التنظيمات الصهيونية الأمريكية، ليتفاهموا فى الخطة السياسية(٢).

المؤسسة الثقافية العبرية: التى تخصصت فى صناعة نويات الجامعات «noyautage» وبخصوص المساعدات المقدمة من مركز دراسات الشرق الأوسط، بجامعة هارفارد - يطرح الرئيس على السيد هملين هذا السؤال: «أهو أمر عادى أن يساعد عميل أجنبى هارفارد أو الجامعات الأخرى؟(٣)».

وهكذا تزدحم ثلاثمائة صفحة من الوثيقة بمعلومات من هذا النوع، الذى لخصه رئيس اللجنة، السناتور وليام فولبرايت فى حديث: «واجه الأمة» أذيع من محطة «CBS» فى ٧ من أكتوبر عام ١٩٧٣، بقوله: «إن الإسرائيليين يراقبون سياسة مجلسى الكونجرس والشيوخ»، فهم يتحكمون فى أكثر من سبعين صوتا من مائة من الشيوخ، كما تشهد بذلك كل التصويتات فى المجلس، والتى ترفع بانتظام حجم المساعدات العسكرية والاقتصادية (الضخمة دائما)، والتى تقترحها الحكومة لدولة إسرائيل، وعندما يلفت محدثه نظره إلى أن هذا «اتهام خطير» - يجيب السناتور: «إنه فى الواقع اتهام خطير أن نقول إن زملاءنا فى مجلس الشيوخ، حوالى سبعين منهم، يأخذون قراراتهم تحت ضغط «لوبى» أكثر من أن يتخذوها بمحض رؤيتهم لما يرونه أشبه بمبادىء الحرية والحق».

وفى الانتخابات التالية فقد السناتور فولبرايت مقعده.

★ ★ ★

---

(١) السابق ص ١٧٦٥ - ١٧٦٧ (٢) السابق ص ١٧٥٦ - ١٧٥٧.

(٣) السابق ص ١٧٥٨ - ١٧٦٤.

ومنذ قام السناتور فولبرايت بتحقيقه لم يتوقف اللوبى الصهيونى عن بسط هيمنته على السياسة الأمريكية، وقد وصف بول فندلى فى كتابه « They dare to Speak out لقد جرؤوا على الكلام»، وكان عضوا فى الكونجرس بالولايات المتحدة خلال اثنين وعشرين عاما – والكتاب منشور عام ١٩٨٥ لدى لورانس هل وشركاه – وصف التشغيل الراهن «للوبى» الصهيونى وقوته، ذلك «الفرع الحقيقى من الحكومة الإسرائيلية»، فهو يراقب الكونجرس ومجلس الشيوخ، ورياسة الجمهورية، ووزارة الخارجية، والبنتاجون، كما يراقب الأجهزة الإعلامية، ويمارسُ نفوذه فى الجامعات، كما يمارسه فى الكنائس.

والأدلة والأمثلة الكثيرة تبين كيف أن مطالب الإسرائيليين تتقدم على مصالح الولايات المتحدة: ففى الثالث من أكتوبر عام ١٩٨٤ يلغى مجلس النواب بأغلبية أكثر من ٩٨٪ أى تحديد للتبادل بين إسرائيل والولايات المتحدة، على الرغم من التقرير غير الملائم الذى وضعته وزارة التجارة وجميع النقابات (ص ٣١)، وفى كل عام تزاد القروض المقدمة إلى إسرائيل، مهما تكن القيود التى تفرضها الأبواب الأخرى فى الميزانية، أما الجاسوسية فإنها تضع بين يدى الحكومة الإسرائيلية أكثر الملفات سرية، وقد كتب أدلاى ستيفنسون (المرشح القديم لرياسة الولايات المتحدة) فى العدد الصادر فى شتاء ٧٥ – ٧٦ من مجلة «الشئون الخارجية – Foreign Affairs» يقول: «من الناحية العملية لا يمكن لأى قرار يخص إسرائيل أن يتخذ، أو حتى أن يناقش، على مستوى السلطة التنفيذية – دون أن يكون معروفا للحكومة الإسرائيلية على الفور» (ص ١٢٦).

وعلى الرغم من رفض وزير الدفاع، المؤسس على القانون الأمريكى، تسليم إسرائيل، إبان عدوانها على لبنان، القنابل ذات الشظايا العنقودية، وهى سلاح موجه ضد المدنيين، فإن الإسرائيليين قد حصلوا عليها من ريجان، واستخدموها فى غارتين على بيروت لإبادة السكان (ص ١٤٣).

وفى عام ١٩٧٣ يشهد الأميرال الأمريكى توماس مور رئيس أركان حرب الأسلحة المشتركة: بأن الملحق العسكرى الإسرائيلى فى واشنطن موردخاى جور (قائد القوات الإسرائيلية فيما بعد) طلب من الولايات المتحدة طائرات مسلحة بصاروخ مطور جداً (يطلق عليه: مفريك – Maverick)، ويذكر الأميرال مورر أنه قال لجور: لا أستطيع أن أسلمكم هذه الطائرات، فليس لدينا منها سوى سرب واحد، وقد أقسمنا أمام الكونجرس أننا بحاجة إليها، فقال لى جور: «أعطونا الطائرات، أما الكونجرس فأنا كفيل به»، ويضيف الأميرال قوله: وهكذا ذهب السرب الوحيد المزود بصاروخ مفريك إلى إسرائيل» (ص ١٦١).

وفى الثامن من يونيو عام ١٩٦٧ قصف الطيران والبحرية الإسرائيلية السفينة الأمريكية (ليبرتى) المزودة بأجهزة للتجسس غاية فى التقدم، وذلك حتى تحول دون الكشف عن المخططات الإسرائيلية لغزو الجولان، فقتل فى هذه العملية أربعة وثلاثون بحاراً، وجرح مائة وواحد وسبعون، لقد حلقت الطائرات فوق السفينة لمدة ست ساعات، ثم قصفتها خلال سبعين دقيقة، ثم اعتذرت الحكومة الإسرائيلية عن هذا «الخطأ» وحفظت القضية. وفى عام ١٩٨٠ فقط استطاع أحد شهود العيان، ويدعى إينس، وكان ضابط اتصال السفينة «ليبرتى» – أن يقرر الحقيقة، ويهدم الرواية «الرسمية» عن «الخطأ» الذى اعتمدته لجنة التحقيق فى حينه، برياسة الأميرال إسحاق كيد، وقد برهن إينس على أن الهجوم كان متعمدا، وأنه كان حادثة قتل، وحين تمكن اللوبى الصهيونى من خنق كتاب إينس تولى الأميرال توماس مور تفسير السبب فى أن هذه الجريمة خيم عليها الصمت، فقال: «كان الرئيس جونسون يخشى ردود فعل الناخبين اليهود..» ثم يضيف الأميرال قوله: «إن الشعب الأمريكى كان يمكن أن يصبح مجنونا لو عرف ما يجرى» (ص ١٧٩).

وفى عام ١٩٨٠ تزعم أدلاى ستيفنسون تعديلا يطلب تخفيض ١٠٪ من المساعدة العسكرية المقدمة إلى إسرائيل، لحملها على إيقاف إنشاء المستعمرات فى الأراضى المحتلة، وذكر أن ٤٣٪ من المساعدة الأمريكية إلى إسرائيل (ثلاثة ملايين من السكان)، لتسليحها، على حساب ثلاثة مليارات من السكان الجياع فى الكرة الأرضية.

ويختم أدلاى ستيفنسون تقريره بقوله: إن لرئيس وزراء إسرائيل تأثيراً كبيراً متزايدا على السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، أكثر مما له فى بلده الخاص» (ص ٩٢).

إن جميع الوسائل صالحة بالنسبة إلى اللوبى الصهيونى، من الضغط المالى، إلى الابتزاز الأخلاقى، ومن مقاطعة أجهزة الإعلام والناشرين إلى التهديد بالموت[1].

ويختم بول فندلى تقريره أيضاً بقوله: «إن أى إنسان ينتقد سياسة إسرائيل يجب أن يتوقع ألوانا من الاضطهاد المؤلم والدائم، يصل إلى أن يعدم وسائل عيشه، جراءَ ضغوط اللوبى الإسرائيلى، فالرئيس يخاف منه، والكونجرس يخضع لجميع مطالبه، وتعمد الجامعات المحترمة إلى أن تستبعد من مناهجها كل ما يعترض عليه: إن عمالقة الأجهزة المتحكمة، والقادة العسكريين يخضعون لضغوطه» (ص ٣١٥).

* * * * *

(١) أستطيع شخصيا أن أشهد على فعالية هذه الطرق المستخدمة ضدى، كما حدث فى الولايات المتحدة وضد نعام تشومسكى، وضد كل أولئك الذين أرادوا أن يقولوا الحقيقة عن فلسطين، يهوداً كانوا أو غير يهود. (المؤلف).

جـ – تمويل دولة إسرائيل

هذه الدراسة عن اللوبى الأمريكى وسير عمله صادقة بالنسبة إلى البلاد الغربية الأخرى، فهى لا تكون مطلقا خروجا عن الخط فى «تاريخ فلسطين»، إذ إنه – منذ ولادة الصهيونية المسيحية فى القرن السادس عشر – على وجه التحديد، ومنذ ولادة الصهيونية السياسية على يد تيودور هرتزل، بل وأكثر من ذلك منذ إعلان بلفور – كان مصير فلسطين يتقرر خارجها.

إن أحدا لا يستطيع أن يؤرخ لدولة إسرائيل، ولكل ما فرض وجودها فى فلسطين من عوامل خارجية، كما أن أحداً لا يستطيع أن يقوم بدراسة المملكة الإفرنجية فى بيت المقدس، زمان الحروب الصليبية – دون أن يبين علام قامت ادعاءات الصليبيين عن فلسطين، وكيف أعد الغزو فى الأنفس، ولا كيف عاشت هذه المملكة من التبرعات المالية، وإرساليات الأسلحة، والتعزيزات من كل أنحاء أوربا.

ليس ميلاد دولة إسرائيل فحسب، هو الذى يرتبط بتاريخ الغرب، فإن سيره وتطوره، من حيث هو حصار الغرب للشرق الأوسط – لا يمكن أن يفهم إذا لم نبين من أين يستمد قوته؟.

إن دولة إسرائيل تضغط فى الواقع على الشرق الأوسط بكل ثقل أمريكا، التى تتعلق بها تعلقا كاملا، فى مالها، واقتصادها، وأسلحتها.

بعد الاستيلاء على الجولان، أرسل بيجن إلى سفير الولايات المتحدة مذكرة، ردا على التحذيرات الشفوية المحضة، التى وجهتها إليه إدارة ريجان، وقال فيها: «**مرة أخرى تعلنون عن نيتكم فى معاقبة إسرائيل... ماذا تعنى صيغة كهذه؟، هل نحن من رعايا الولايات المتحدة؟. هل نحن جمهورية من جمهوريات الموز؟ إنكم لن تصلوا إلى إرهابنا، وسنبقى صما لا نسمع إنذارات كائن، مهما كان.. لقد عاش شعب إسرائيل خلال ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة، دون اتفاق من هذا النوع مع أمريكا، ولسوف يستمر فى الاستغناء عنها ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة أخرى**».

هذا الصلف من بيجن لم يكن بذى خطر، لأن سياسة الصهيونية الإسرائيلية تتطابق تماما مع أهداف السياسة العالمية للولايات المتحدة، وهى تقوم بدور لا يمكن لغيرها، حتى إن الحكومة الإسرائيلية تستطيع أن تفعل ما تشاء، وهى آمنة من العقاب.

ومع ذلك، إن تمويل دولة إسرائيل كاشف أيضا عن طبيعة هذه الدولة.

لقد كشف بنحاس سابير، الذى كان الوزير الإسرائيلى للمالية، خلال «مؤتمر المليارديرات اليهودى» (S I C)[1]، المنعقد فى القدس، يومى ٩، ١٠ من أغسطس عام ١٩٦٧ – عن أن إسرائيل تلقت من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٦ سبعة مليارات من الدولارات، ولكى نقيس مغزى هذا الرقم يكفى أن نذكر أن مساعدة مشروع مارشال، التى ووفق عليها من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٤ – لأوربا الغربية، قد بلغت ثلاثة عشر ملياراً من الدولارات، أى: إن دولة إسرائيل قد تلقت عونا (موزعا على فترة أطول) لأقل من مليونين من السكان فى تلك الفترة، هو أكثر من نصف ما تلقاه مائتا مليون من الأوربيين، وهذا يعنى أن كل رأس من السكان الإسرائيليين قد تلقى نصيبه مضاعفا مائة مرة عما تلقاه الأوربيون.

والعنصر الثانى فى المقارنة: متوسط المساعدة السنوية الذى تلقته «البلدان النامية» خلال الفترة من ١٩٥١ حتى ١٩٥٩، وهو لم يتجاوز ٣,١٦٤ ثلاثة مليارات ومائة وأربعة وستين مليونا من الدولارات[٢]، على حين أن إسرائيل، وقد كانت فى ذلك الوقت ١,٧ مليونا من السكان تلقت ٤٠٠ أربعمائة مليون، أى: إن أقل من واحد على ألف من الشعوب النامية فى الكرة الأرضية

---

(١) (١) نص خطبة سابير موجود فى « The Israël economist» عدد سبتمبر ١٩٦٧، جـ ٢٣ رقم ٩

(٢) طبقا لإحصاءات الأمم المتحدة التى ظهرت فى «التيار الدولى لرؤوس الأموال ذات الأجل الطويل، والهبات العامة» ١٩٥١ – ١٩٥٩، ذكرها جورج كورم فى «ماليات إسرائيل» (IPS ١٩٦٨).

وهى إسرائيل ــ تلقت عشر المجموع الكلى، وتلقى كل فرد من الإسرائيليين، معونات أكثر مما تلقاه الفرد فى مليارين من البشر هم سكان العالم الثالث، بمائة ضعف.

بل إننا، لكى نقدم مقارنة واضحة، نذكر أن السبعة المليارات من الدولارات التى تلقتها إسرائيل فى ثمانى عشرة سنة، منحة، تمثل أكثر من مجموع الدخل القومى السنوى من العمل، فى مجموعة من البلاد العربية المجاورة (مصر، وسوريا، ولبنان، والأردن)، كان دخلها عام ١٩٦٥ ستة مليارات.

فإذا ما نظرنا إلى الإسهام الأمريكى، فإن كل إسرائيلى – خلال المدة من ١٩٤٥ حتى ١٩٦٧ – قد تلقى من الولايات المتحدة (٤٣٥) و دولاراً، وتلقى كل عربى (٣٦) دولاراً، أو بتعبير آخر: إنهم خصوا ٢,٥ ٪ من السكان بـ ٣٠ ٪ من المساعدة المخصصة لـ ٩٧,٥ ٪ من الباقين.

ولقد أوضح أحد الاقتصاديين الإسرائيليين المعروفين عالميا، وهو دون باتنكين، إلى أى مدى عجز الإنتاج القومى الخام فى إسرائيل، من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٨ – عن تمويل الاستهلاك الخاص والعام، وعن مجرد استهلاك رأس المال الموجود[1] ومعنى ذلك بتعبير بسيط أن: ناتج العمل فى إسرائيل لا يغطى الاحتياجات.

ونقلا عن الكتاب السنوى لإحصاءات الحساب القومى (١٩٦٥) والذى نشرته الأمم المتحدة – نجد أن تغطية الحاجات الإجمالية لدولة إسرائيل بناتجها القومى الخام (P.N.B. Produit national brut) قد تذبذبت بين ٨٠ ,٨٣ ٪، فى حين توجد بلاد كانت مشتبكة فى نفس الفترة فى حرب دائمة – مثل فيتنام – وصلت إلى أكثر من ٨٧ ٪، والأردن نفسه، وهو بدون موارد طبيعية، وقسم كبير من أراضيه صحراوى – تجاوز الأردن ٨٠ ٪ وبلاد أخرى أيضا «متخلفة» فعلا، مثل بوليفيا، وسيلان، والسودان، ومالطة، كانت نسبة تغطيتها أعلى من ٩٠ ٪.

---

(١) طبقا لإحصاءات الأمم المتحدة التى ظهرت فى «التيار الدولى لرءوس الأموال ذات الأجل الطويل والهبات العامة» (١٩٥١ – ١٩٥٩)، ذكرها جورج كورم، فى: ماليات إسرائيل (IPS ١٩٦٨).

ومع ذلك، إن الدولة الصهيونية إسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لها أكبر ارتباط بالخارج.

وقد دعا القادة الصهاينة فى إسرائيل، فى محاولة لملء هذا الفراغ، دعوا بعد حرب عام ١٩٦٧ - إلى مؤتمر سنوى للمليارديرات من يهود الشتات، وانعقد المؤتمر الأول فى إسرائيل عام ١٩٦٧ وقد حدد الدكتور ياكوف هرتزوج المدير العام لمكتب رئيس الوزراء، الهدف من هذه الاجتماعات، فذكر أنه: «أن نبحث كيف نجذب أهم الاستثمارات إلى إسرائيل، وكيف نصل وصلا وثيقا بين الاقتصاد الإسرائيلى وحائزى رءوس الأموال اليهود المقيمين فى الخارج، بحيث يكون لديهم شعور مباشر بالمسئولية والمشاركة... لقد خططنا الآن شيئا آخر: نوعا من الحوار العظيم عن توحيد يهود الشتات مع إسرائيل، فى إطار الصراع ضد الاندماج بالخارج».

لقد بدت العملية رابحة، لأن المنظمات اليهودية الأمريكية ترسل كل عام فى المتوسط مليارا من الدولارات إلى إسرائيل، هذه الإسهامات التى ينظر إليها على أنها «خيرية» - كانت تستنزل من ورقة ضرائب المتبرع، أى: إنها كانت تحمل دافع الضرائب الأمريكى، حتى ولو كانت لدعم «المجهود الحربى» لإسرائيل، وتمويل عدوانها، بيد أن الأساس يأتى بخاصة من الدولة الأمريكية، التى ترتفع مساعدتها فى بداية الثمانينيات إلى أكثر من ثلاثة مليارات فى السنة.

ومن المتوقع أن هذه المساعدة السنوية ذات المليارات الثلاثة سوف تزداد خلال عام ١٩٨٢ [1]، وهو أمر قد يبدو مدهشا أمام التخفيضات المفروضة على الميزانية الأمريكية بالنسبة إلى برامجها السياسية فى الداخل.

---

(١) وقد لوحظ أن هذه المساعدات الأمريكية تتزايد من سنة لأخرى، ٨٣، ٨٤و ٨٥، ولا أمل فى أن يتعقل الأمريكيون اندفاعهم فى هذا الاتجاه (المترجم).

وقريب من نصف هذه المساعدة - الرسمية - يتمثل فى هبات، وفى «قروض» سرعان ما «تنسى»... ثم يضاف الباقى إلى الدين الخارجى الإسرائيلى، الذى يتزايد بسرعة، ويقترب حاليا من عشرين ملياراً من الدولارات، أى بمتوسط لم يسبق له مثيل: خمسمائة دولار لكل رأس من السكان.

ويتكون جوهر هذه المساعدة السنوية من شحنات التسليح التى حاول الكونجرس أن يحد من أوصافها المذهلة، وأن يتحاشى نقدات الرأى العام بشأنها، فاقترح طريقة خاصة للتمويل فى قانون مراقبة تصدير السلاح عام ١٩٧٦.

وهكذا، بالنسبة إلى العام المالى ١٩٨٠ كانت الصفقة مليارا من الدولارات للأسلحة، ووفق عليها لصالح إسرائيل، وبمجرد التسليم، ووفق على اعتبار نصف المبلغ - خمسمائة مليون - قرضا، ثم أعفيت منه، والباقى أضيف ليضخم الدين الإسرائيلى للحكومة الأمريكية... وهو دين لا ترده إسرائيل إلا بعد أن تستفيد من فترة سماح أكثر من عشر سنوات، فإذا لاحظنا التفاقم الدائم للحالة الاقتصادية فى إسرائيل منذ عام ١٩٧٣، فإن سداد هذه الديون يعتبر صورياً، فى ظروف المقاصة بين المدفوع والمأخوذ بوساطة المساعدة السنوية الجديدة والمتزايدة، من الولايات المتحدة»[1].

ومن قبل، حين العدوان الإسرائيلى - عام ١٩٥٦ على مصر - كان العطاء الأمريكى من السلاح هائلا، حتى لقد كتب الصهيونى بارزوهر يقول: «ابتداء من شهر يونيو بدأت كميات ضخمة من الأسلحة تتدفق على إسرائيل، بناء على اتفاق سرى للغاية، ولم تعرف هذه الشحنات، لا فى واشنطن، ولا من القيادة الإنجليزية - الفرنسية - الأمريكية المكلفة بمراقبة توازن القوى فى الشرق الأوسط. ولا من وزارة الخارجية الفرنسية، التى

---

(١) ت. ستوفر: صحيفة كريستيان سانيس مونيتور، فى ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٨١

كانت تعترض بشدة على أى تقارب مجازف مع إسرائيل، قد يعرض للخطر مابقى من علاقات بين فرنسا وأصدقائها العرب»[1].

وتتزايد المساعدة مع العقود الخفية، ولا سيما فى مجال الطيران (فمثلا تلقت شركة إسرائيل إيركرافت عقود تصنيع عناصر فى طائرات ف ٤، وف ١٥).

وأخيراً المساعدة الاقتصادية، وتشمل تسهيلات موافقا عليها للصادرات الإسرائيلية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى صادرات تتمتع بتعريفة تفضيلية خاصة «بالبلاد التى فى طريق التنمية»، وبوساطة هذه التعريفة يدخل إلى الولايات المتحدة ٩٥٪ من هذه الصادرات (أى: مليار دولار) معفى من أية رسوم.

وباختصار، إن رقما واحدا يكفى لتحديد صفة الدولة الصهيونية إسرائيل: فمجموع «المساعدة» الرسمية الأمريكية التى تتسلمها، لها وحدها، يصل إلى ألف دولار لكل رأس من السكان، أى: إن هذا بقشيش يضاف إلى دخلها القومى، أكثر من ثلاثة أضعاف الدخل القومى العام، بالنسبة إلى الفرد، فى مصر، وأغلبَ البلدان الإفريقية.

وهكذا يتلاشى كثير من الأساطير:

أولها، وأخطرها أسطورة إسرائيل الصغيرة، والضعيفة، والمهددة دائما بأمواج البحر العربى، والمتهمة بأنها تصارع من أجل بقائها، على حين أنها تتحكم بفضل الولايات المتحدة فى وسائل توصلها خلال ثمان وأربعين ساعة إلى دمشق وبغداد وعمان والقاهرة، كما أنها وصلت إلى بيروت.

---

(١) ميشيل بارزوهر: «بن جوريون، النبى المسلح» الفصل السابع والعشرون.

وثانى الأساطير أن الخطر يتهددها دائما بالإبادة، فى حين أنها تشكل دائما تهديداً بالعدوان على جميع جيرانها، فالأسطورة (التى بفضلها ظل الرأى العام الغربى يقبل كل شىء من إسرائيل، حتى الجرائم التى يستحيل قبولها) أسطورة«المعجزة» الدائمة «لداود الصغير» المزعوم فى مواجهة جالوت العربى المفترس، على حين أن «داود الصغير» يستطيع أن يحمل فى جعبته كل الأسلحة، وكل الأموال، أموال الولايات المتحدة، وهو ما نؤكد عليه، فدولة إسرائيل الصهيونية تضغط على الشرق الأوسط، وهو على ملتقى الطرق إلى أوربا، وآسيا، والشرق والغرب، والشمال والجنوب – تُضغط عليه بكل أثقال أمريكا.

* * * * *

(*)نؤكد مرة أخرى أن هذه الأرقام لا يدخل فيها ما يدفعه يهود الشتات، ولا «القروض» الحكومية الأمريكية، التى سرعان ما تمحى، مع أن مجموع العطاء يمثل تقريبا ضعف هذا المبلغ، (أكثر من مليار دولار سنويا من يهود الشتات، و «القروض» الأمريكية المقنّعة.

إن هناك رسالة حديثة للدكتوراه، قدمها إلى جامعة باريس، السيد جاك بنديلاك، ونشرت تحت عنوان:

«الأرصدة الخارجية لإسرائيل (1)– «Les Fonds extérieurs d' Israël» وهى تقدم عن هذه الجوانب المختلفة للمالية الإسرائيلية، أرقاما محددة، مستقاة من مصادر لا يرقى إليها الشك.

وقد التزم المؤلف أساسا بدراسة العلاقات بين إسهامات يهود الشتات والمساعدة المباشرة للحكومة الأمريكية.

وهو بهذا يصف تطور هذه العلاقات، قال: «إذا كان يهود الشتات، حتى تاريخ حديث (السبعينيات) هم المقدم الرئيس لرءوس الأموال إلى إسرائيل فإن الاتجاه الحالى يشير إلى أن المساعدة الحكومية الأمريكية، وهى (ملياران كل عام تقريبا) تتجاوز بصورة كبيرة الإسهامات المالية ليهود الشتات (وهى حوالى ٩٠٠ مليون دولار سنويا).

أما فيما يخص مدفوعات يهود الشتات، نقلا عن الهيئة المالية المركزية للوكالة اليهودية (التنظيم الصهيونى العالمى) – فقد لوحظ تراجع لدى المتبرعين الأمريكيين (الذين كانوا يقدمون حتى عام ١٩٦٧ – ٨٠٪ من إسهامات يهود الشتات، وهم منذ عام ١٩٧٤ يقدمون ٦٥٪ فحسب)، إن الأرقام المسجلة للتبرع، والتى جاءت من يهودية جنوب إفريقية، تسجل أن المجتمع اليهودى مكون من ١١٥,٠٠٠ مائة وخمسة عشر ألف شخص، دفعوا عام ١٩٧١ – ١٣٨ مائة وثمانية وثلاثين دولاراً للفرد(2).

---

(1) ط «إيكونوميكا» مجموعات «توقعات اقتصادية ويهودية – Perspectives économiques et Judaiques» – باريس ١٩٨٢.

(2) على سبيل المقارنة، تضم فرنسا مجتمعاً يهوديا من ٥٣٥,٠٠٠ يهوديا، دفعوا مبلغ ستة دولارات لكل رأس، وهذه الأرقام مأخوذة من «تقرير المؤتمر الصهيونى الثامن والعشرين بالقدس» ص ٢٣٩ – ذكره بنديلاك ص ١٥.

ويقدم بنديلاك هذا التفسير: فضلا عن رخاء المجتمع اليهودى فى جنوب إفريقية، فإن الحكومة هناك قد عقدت اتفاقا مع الاتحاد الصهيونى، لتحويل الأرصدة بسرعة، «إلا خلال الفترة ما بين ١٩٦١ - ١٩٦٧ (بعد التصويت الوحيد لإسرائيل فى الأمم المتحدة بعدم تأييد نظام التفرقة العنصرية)، إن لإسرائيل دائما علاقات طيبة مع جنوب إفريقية (فمجموع التجارة بين البلدين ارتفع من ثلاثة ملايين دولار عام ١٩٦٧ إلى مائتى مليون ومايون عام ١٩٧٩»[١].

أما بالنسبة إلى مجموع التحويلات العالمية، من يهود الشتات ١٩٧٩ - فإن ٧٥٪ منها كانت من عمل الحركة الصهيونية، و ٢٥٪ جاءت من تنظيمات أخرى[٢].

وهناك مصدر مالى ثان، يتمثل فى سندات دولة إسرائيل وهى سندات بالدولار، بيعت فى الخارج، ولكن استرجاعها، وفوائدها تدفع بالنقود الإسرائيلية.

هذه السندات (التى بيع ٩٩,٨٪ منها عام ١٩٥١ فى الولايات المتحدة، وكذلك ٨٠٪ عام ١٩٧٨) - أتاحت للاقتصاد الإسرائيلى أكثر من خمسة مليارات دولار[٣].

وقد تلقت الدولة الصهيونية بين «السندات» و «السندات» من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٨٢ قريبا من أحد عشر ملياراً ونصف مليار من الدولارات[٤].

---

(١) السابق ص ١٧.

(٢) بنك إسرائيل: «التقرير السنوى» عام ١٩٧٩ ص ١٠٤، بنديلاك ص ٤٦.

(٣) المصدر: سندات دولة إسرائيل، القدس - نيويورك، الكتاب السنوى اليهودى الأمريكى، ١٩٧٢ ص ٢٧٣، ١٩٧٨ ص ٢٠٥، و ١٩٨٠ ص ١٥٣.

(٤) المصدر: مستخلصات إحصائية عن إسرائيل (سنوية) - بنك إسرائيل - التقرير السنوى.

إن فاعلية من هذا القبيل تستتبع ما أطلق عليه بنديلاك :

« التواطؤ بين السلطة وعالم المال » فى الحركة الصهيونية ، وهو يستخلص منه بالنسبة إلى فرنسا مثالا غاية فى الغرابة عام ١٩٨٢ :

« كان جى دو روتشيلد رئيسا للمؤسسة الاجتماعية اليهودية الموحدة ، وللـ AUJF، ودافيد أمينا لصندوق الـ FSJU، وعضو فرنسى فى مجلس إدارة الوكالة اليهودية ، وآلان رئيسا للمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا ، وللنادى الإسرائيلى المركزى ، وإيلى رئيسا للجنة التنفيذية للـ AUJF، وإدموند رئيسا للتنظيم الأوربى لسندات إسرائيل ، وأخيرا أليكس دو روتشيلد كانت رئيسة لمنظمة Aliya للشباب »[1] .

بيد أن الارتباط أكبر أيضا فى نطاق الحكومة الأمريكية ، ولا سيما منذ السبعينيات .

« فإبان حرب الأيام الستة كان العجز الخارجى قد بلغ (٧٠٠) سبعمائة مليون دولار ، ثم تجاوز المليار دولار فى بداية السبعينيات ، ولم يعد ما تقدمه اليهودية العالمية من مال يكفى لإشباع الحاجات الرئيسة فى الاقتصاد الإسرائيلى؟ فكان لابد من دعوة إلى مساعدة من الحكومة الأمريكية التى قدمت ابتداء قروضا عسكرية ، قبل أن تمد مساعدتها إلى القطاع الاقتصادى بعد حرب كيبور ، هذا العطاء من رءوس الأموال ، من جانب الحكومة الأمريكية قد تجلى فى ارتفاع مذهل فى المديونية الخارجية لإسرائيل ، وقد تجاوزت العشرين ملياراً من الدولارات عام ١٩٨٢ ، وهكذا نجد أن فساد المساعدة المالية ليهود الشتات ، منذ بداية السبعينيات يمكن تحليله بالقياس إلى جانبين من التبعية الاقتصادية لإسرائيل : المساعدة الحكومية الأمريكية وأثقال الدين الخارجى[2] .

---

(١) بنديلاك السابق ص ٧٦ ، مذكرة ٩٤ (٢) السابق ص ٧٩ .

ومنذ عام ١٩٤٨ بلغت مساعدة الحكومة الأمريكية لإسرائيل قريباً من (١٨) ملياراً من الدولارات، موزعة بالتساوى بين القروض، والتى كان ثلثاها موجها لغايات عسكرية(١).

إن تسريع هذه المساعدة يصيب من يلاحظه بالدوار، لقد كانت عام ١٩٧٥ أقلّ من ١٠٠ مائة مليون دولار، وصارت عام ١٩٨١ مليارين من الدولارات، وفى يناير ١٩٨٥ طلبت دولة إسرائيل أيضا اثنى عشر ملياراً من الدولارات لثمانى سنوات.

وأما فيما يتعلق بالدين الخارجى فقد زاد من ستة مليارات من الدولارات عام ١٩٧٣ إلى عشرة مليارات عام ١٩٧٦، إلى ١٧ ملياراً من الدولارات فى الأول من يناير عام ١٩٨١، وقد صار الرقم القياسى لعدد السكان أربعة ملايين وثلثمائة وخمسين ألفا، من المواطنين!!.

إن نتائج مؤلّف الأستاذ جاك بنديلاك، وهو يبدو متعاطفا، فى تحليلاته تجاه إسرائيل، تستحق أن تذكر، لأنها تقوم على توثيق رقمى، وهى مستقاة بكاملها من مصادر إسرائيلية، يقول المؤلف:

«إن التطورات الأخيرة فى مساعدة المجتمعات اليهودية، فى الشتات، ومن الحكومة الأمريكية تسمح لنا بأن نوضح الدور الحاسم لليهودية الأمريكية فى العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة، فهذة العلاقات تقدم فى الواقع فوق طبيعتها من الجانبين، صورة متعددة الجوانب بشكل أساسى، حتى إن السياسة الخاصة للبلدين «منقاة»، وهى تنتشر عبر ستة ملايين يهودى يعيشون فى الولايات المتحدة، وهم لذلك يتمتعون بوضع نوعى متميز فى الولايات المتحدة، التى هم مواطنون فيها، يماثل وضعهم فى إسرائيل،

---

(١) ص ٨٠ – المصادر: حتى عام ١٩٧٧: وزارة المالية، تقسيم المبادلات الخارجية، ومن عام ١٩٧٨ حتى عام ١٩٨١: سفارة الولايات المتحدة (تل أبيب).

التى يستشعرون نحوها روابط عميقة، تاريخية، ودينية، وعاطفية، إن الروابط الاقتصادية والسياسية التى تتمتع بها إسرائيل مع الولايات المتحدة إنما يؤكدها تبعيتها لليهودية الأمريكية، ذات التأثير الحاسم أحيانا على السياسة الخارجية لحكومة الولايات المتحدة، ومن هذا المنظور نرى أن الانخفاض النسبى فى الدعم المالى الذى تقدمه جماعات اليهود فى الشتات، قد أدى إلى زيادة دور التنظيمات اليهودية وأهميتها، وهى التى تعمل مباشرة لضمان استمرار وجود المساعدة الحكومية الأمريكية.

ومع ذلك إن التطوير الحديث للمساعدة المالية التى تقدمها الولايات المتحدة إلى إسرائيل يوصلنا إلى الظن بأن إسرائيل اليوم تتطابق أكثر مع التعبير الذى يصدر عن الحكومة الأمريكية، كما تتطابق مع إرادتها فى الاحتفاظ بتأثيرها السياسى فى المنطقة، وهو تطابق يتفوق على نتائج الضغوط التى تمارسها جماعة الضغط (اللوبى) اليهودية الأمريكية[1].

إن سياسة دولة إسرائيل منذ تأسيسها لا يمكن أن تكون مفهومة إلا فى السياق الدولى البعيد، الذى أتاح لها أن تتأكد وتترسخ.

وإن المساعدة غير المشروطة، وغير المحدودة للولايات المتحدة تسمح للمنطق الصارم الذى تسير عليه النظم الصهيونية أن ينتشر دون قيود، وهو يتلخص فى عدة نقاط:

١ - إيصال اليهود إلى فلسطين بأى ثمن.

٢ - طرد العرب منها.

٣ - القيام بالدور الذى حدده هرتزل فى كتابه: «الدولة اليهودية»، وهو أن ننشىء فى الشرق الأوسط قلعة للحضارة الغربية.

---

(١) (١) السابق ص ٩٠.

الفصـــل الثانـى

السياسة الداخلية للدولة الصهيونية

العنصرية – إرهابية الدولة

إن السمتين الرئيستين للسياسة الإسرائيلية هما: العنصرية، والتوسع.

والمبدأ الأساسى الذى يربط إحداهما إلى الأخرى قد صاغه بكل وضوح تيودور هرتزل، فى صحيفته، وهو يروى محادثاته مع الأمير هوهنلوه، مستشار الإمبراطورية الألمانية، فيقول فى اليوم الثامن من أكتوبر عام ١٨٩٨: «سألنى الأمير عن أى الأراضى نزمع الحصول عليها؟ هل ستكون إلى الشمال حتى بيروت، أو أبعد من ذلك؟ فقلت له: سوف نطلب ما نحتاج إليه، وكلما زاد المهاجرون وجب أن تزيد الأرض»(١).

ومن قبل، استخدم فى كتابه «الدولة اليهودية» صيغة مقلقة كذلك بالنسبة إلى المستقبل قال: «فليضمنوا لنا السيادة على جزء من الكرة الأرضية كبير، بقدر ما يشبع الحاجات المشروعة لأمة قومية، وأما الباقى فسوف نصنعه بأنفسنا»(٢).

وإنما يتحدد هذا الذهان عندما يسافر إلى القسطنطينية مع قس راع بروتستانتى، اسمه هخلر Hechler، وفى قطار الشرق السريع ينشر هرتزل خريطة فلسطين فى المقصورة، ويقول: «إن الحدود الشمالية يجب أن تكون عند جبال الكبادوس (فى تركيا)، والحدود الجنوبية: قناة السويس» ويختم حديثه قائلا: «وسيكون شعارنا: فلسطين داود وسليمان»(٣).

---

(١) هرتزل: يوميات (لوينثال) السابق ص ٢٥٧.

(٢) هرتزل: «الدولة اليهودية» ص ٣٢.

(٣) هرتزل «يوميات» السابق ص ١٢٤.

وقد كتب إليه أحد أصدقائه المقربين، وهو مستشاره دافيد تريتش، فى التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٨٩٩ : -

«أود أن أقترح عليك أن ترجع من وقت لآخر إلى برنامج «فلسطين الكبرى («إسرائيل الكبرى»)، قبل أن يفوت الأوان، إن برنامج بال يجب أن يتضمن كلمات: «فلسطين الكبرى» («اسرائيل الكبرى»)، أو «فلسطين والأراضى المجاورة»، التى بدونها يصبح البرنامج بلا معنى، إنكم لن تستطيعوا أن تستقبلوا العشرة الملايين من اليهود على أرض مساحتها ٢٥,٠٠٠ خمسة وعشرون ألفا من الكيلومترات».

إن كل تاريخ دولة إسرائيل فى العدوان والاستيلاء ينبع من هذا المنطق الذى لا يمكن التنبؤ به، منطق الصهيونية السياسية.

وعندما دقت ساعة قيام إسرائيل يحدد بن جوريون أن المشكلة الأولى هى استقدام المهاجرين، ففى ٣١ من أغسطس عام ١٩٤٩ يتوجه إلى مجموعة من الأمريكيين فى زيارة لإسرائيل فيعلن: «أنه على الرغم من أننا حققنا حلمنا فى إنشاء دولة يهودية، فإننا مازلنا فى البداية، فليس فى إسرائيل سوى ٩٠٠,٠٠٠ تسعمائة ألف يهودى، على حين أن أغلبية الشعب اليهودى هازالت توجد فى الخارج، إن مهمتنا المستقبلة هى استقدام كل اليهود إلى إسرائيل».

لقد كان هدف بن جوريون أن يجىء إلى إسرائيل بأربعة ملايين يهودى، بين عام ١٩٥١ وعام ١٩٦١، فجاء إليها ٨٠٠,٠٠٠ ثمانمائة ألف، وفى عام ١٩٦٠ لم يجىء إليها سوى ثلاثين ألف مهاجر، وفى عام ١٩٧٥ - ١٩٧٦ كان النزوح عن إسرائيل قد تجاوز الهجرة إليها، ومع ذلك استخدمت كل الضغوط فى الوقت المناسب، لاستقدام أكبر عدد ممكن من اللاجئين إلى فلسطين:

ضغوط سبق أن وصفناها، لإغلاق جميع الأبواب الأخرى: أبواب البلاد التى كانت مستعدة لاستقبال اللاجئين.

وضغوط على اليهود المضطهدين أنفسهم، ففى عام ١٩٤٥ كان هناك (١١٢,٠٠٠) مائة واثنا عشر ألفا من «الأشخاص المبعدين» موجودين فى المنطقة التى يحتلها الأمريكان، طلب (٥٥,٠٠٠) خمسة وخمسون ألفا منهم الهجرة إلى أمريكا، وطلبت الأغلبية الذهاب إلى أماكن أخرى غير فلسطين، على الرغم من الدعاية المحمومة التى قام بها التنظيم الصهيونى.

وقد بلغ مجموع اللاجئين من ضحايا النازية الذين نزحوا إلى الخارج ما بين عامى ١٩٣٥ و ١٩٤٣ مليونين ونصف مليون، لم يتوجه منهم إلى فلسطين للاستقرار بها إلا نسبة (٨,٥٪) ثمان ونصف فى المائة، وقد قصرت الولايات المتحدة استقبالها على (١٨٢,٠٠٠) مائة واثنين وثمانين ألفا (أقل من ٧٪)، وإنجلترا على (٦٧,٠٠٠) سبعة وستين ألفا (أقل من ٢٪)، والأغلبية الساحقة (١,٩٣٠,٠٠٠ مليون وتسعمائة وثلاثون ألفا)، أعنى: (٧٥٪) لجأوا إلى الاتحاد السوفيتى.

وهذه أرقام مأخوذة عن معهد الشئون اليهودية بنيويورك، وقد اقتبسها كريستوفر سايكس فى كتابه: «مفترق الطرق إلى إسرائيل Crossroads to Israel»، لندن عام ١٩٦٥، كما استخدمها ناثان ونستوك فى كتابه «الصهيونية ضد إسرائيل – Le Sionisme Contre Israël» ص ١٤٦.

ومن المفيد بهذه المناسبة أن نؤكد السمة العنصرية للدعاية المعربدة التى تطلقها الحركة الصهيونية، والتى تقوم بها جوقات منظمة على نطاق واسع، فى أمريكا، والعالم كله، مصورة مصير اليهود فى الاتحاد السوفيتى، (حيث بلغوا مليونين ونصف المليون).

ولنذكر أن الاتحاد السوفيتى – هو مع الولايات المتحدة – البلد الذى ضغط أعظم ضغط فى الأمم المتحدة، لاستصدار قرار تقسيم فلسطين، لصالح الصهاينة، وهو بذلك قد قام بدور حاسم فى إنشاء دولة إسرائيل.

ومن المناسب أن نذكر أن بعض اليهود كثيرا ما يكونون وزراء فى الاتحاد السوفيتى، وأن اليهود ممثلون بنسبة استثنائية فى النشاطات العقلية، والمهن الليبرالية، والوظائف القيادية: فعلى حين أن المجتمع اليهودى لا يكوّن سوى ١ ٪ من السكان، فإن نسبة اليهود بين الكتاب والصحفيين تصل إلى ٨,٥ ٪، وبين أساتذة الجامعات ١٠ ٪، وبين العلميين ١٠ ٪، وبين الموسيقيين، والرسامين، والمثالين، والممثلين ٧ ٪، وبين القضاة والمحامين ١٠ ٪، وبين الأطباء ١٥,٧ ٪، وفى عالم السينما ٣٣ ٪[1]، وليس فى الاتحاد السوفيتى مجتمع آخر، حتى «الروس الكبار – الذين يسيطرون بصورة شاملة على الأقليات القومية – يصل فى أُطُرِ الحياة العقلية إلى نسبة كهذه، تتناسب مع أهميتة العددية.

والحق أن سياسة «الدمج» هذه تعتبر من وجهة نظر الصهيونية شر الأعداء فى الاتحاد السوفيتى، كما هى كذلك فى الولايات المتحدة.

والحق أيضا أن الديَن اليهودى يصطدم بعدم الفهم الكامل من القادة السوفيت، بيد أن عدم الفهم مضافا إلى عدم الثقة، وإلى الانزعاج الذى ينشأ عنها – يضغط دائما بنفس الصورة على كل المجتمعات الدينية، اليهودية، أو النصرانية، أو الإسلامية.

والحق كذلك أن بعض اليهود يصطدمون بعقبات فى طريق خروجهم من الاتحاد السوفيتى، ولكن لماذا لا نذكر أن ذلك صحيح – للأسف – بالنسبة إلى جميع مواطنى الاتحاد السوفيتى؟.

إن من الضرورى أن نذكر هذه الوقائع، لا لكى نبرىء الاتحاد السوفيتى، وإنما لكى نبين ضيق الأفق الطائفى، والتعصب العنصرى لدى الصهاينة، المستبسلين فى الدفاع عن «يهود الاتحاد السوفيتى»، بدلا من أن يدافعوا عن الحقوق الدينية لكل المجتمعات، وعن حق حرية المرور لجميع الناس.

---

(١) ويليام ماندل: «Russia re examined» نيويورك ١٩٦٧).

وحين لا تكفى الدعاية يتخذ القادة الصهاينة خطوة أخرى: ففى الثانى من مايو عام ١٩٤٨ قدم الربانى كلوسنر، المكلف بشئون «الأشخاص المبعدين» – تقريراً، لازال معروفا، أمام «المؤتمر اليهودى الأمريكى»، وقد جاء فيه:

«إننى مقتنع بأنه يجب أن نُكْرِه الناسَ على الذهاب إلى فلسطين، إنهم ليسوا مستعدين لفهم وضعهم الخاص، ولا وعود المستقبل، وهم يرون أن دولارا أمريكيا يبدو لأعينهم أعظم الأهداف، إننى أقترح بكلمة «الإكراه» برنامجا، وهو ليس برنامجا جديداً، فقد استخدم من قبل، وحديثا أيضا، استخدم فى إجلاء اليهود من بولندا، كما استخدم فى قصة «الخروج».

إن الخطوة الأولى فى برنامج كهذا هى تبنى مبدأ: أن المجتمع اليهودى العالمى يجد نفسه مهزوما، ومن ثم يجب أن يذهب هؤلاء الناس إلى فلسطين... أما الذين يرفضون فيجب ألا يعتبروا من يتامى المجتمع اليهودى الذين نتعهدهم بالغذاء والكساء فى المعسكرات دون أن يسهموا فى أرزاقهم.

ولكى نطبق هذا البرنامج يجب أن يقلب المجتمع اليهودى سياسته كلية، فبدلا من أن يقدم العيش الرغد إلى «الأشخاص المبعدين»، يهيىء لهم عيشا نَكِداً بقدر الإمكان، فيسحب تموينهم من اللجنة الأمريكية المشتركة للتوزيع، وفى وقت لاحق يَسْتَدعِى إجراء معين تنظيماً مثل الهاجاناه لتكدير اليهود، ويخفض عدد المراخيض، أما عن الحماية المقدمة لهم حاليا من مستشار الشئون اليهودية، الدكتور ب، تشابلينز، ومن هيئة الوكالة، فيجب أن تلغى... ينبغى أن نتمثل دائما أننا نواجه مرضى، وليس علينا أن نسألهم رأيهم، بل أن نقول لهم ما ينبغى أن يفعلوا، ولسوف يعترفون بجميلنا خلال سنوات»[1].

---

(١) ذكره ألفريد ليلنتال فى كتابه: ← «What Price Israel» طبعة هنرى راجنرى (شيكاغو ١٩٥٣ – ص ١٩٤ – ١٩٥).

فإذا لم يُقْبلْ هذا البرنامج، فإن «أحداثا عوارض» قد تطرأ لِتُكْرِهَ المجتمعَ اليهودى الأمريكى على مراجعة سياسته، وتنفيذ التغيرات المقترحة هنا، وعندئذ قد يعانى من آلام كثيرة، وموجة عارمة من معاداة السامية، ويكون الصراع قاسيا من أجل النجاح ، وهو ما قد ينجح اليوم[1] .

أما «العوارض» التى أشار إليها فهى الأمر بإثارة الفتن المعادية للسامية، وهى الفتن التى نظمها الصهاينة الإسرائيليون أنفسهم، فمثلا فى عام ١٩٤٠، عمد القادة الصهاينة فى «الهاجاناة» (التى كان رئيسها بن جوريون) – إلى إثارة مشاعر الاحتقار ضد الإنجليز الذين قرروا إنقاذ اليهود المهددين من هتلر، باستقبالهم فى جزيرة موريس، وحين رست الباخرة التى تنقلهم فى ميناء حيفا فى ٢٤ من ديسمبر عام ١٩٤٠ لم يتورع هؤلاء القادة عن تفجير الباخرة، فقتل فى الحادث (٢٥٢) مائتان واثنان وخمسون يهوديا، وعدد من أعضاء الطاقم الإنجليز، وقد أعيد ذكر الحادث بعد ثمانى عشرة سنة، بوساطة الدكتور هرتزل روزنبلوم، صاحب الصحيفة اليومية الصهيونية الكبرى فى تل أبيب «يديعوت أحرنوت»، وكان موشى شاريت قد كتب فى صحيفته حين كان رئيسا دوريا للوزارء، ومديراً للوكالة اليهودية فى محاولة لتقييم هذا الحادث فقال :

«من الضرورى أحيانا التضحية ببعض الأفراد من أجل إنقاذ عدد كبير».

أما دافيد فلنكر مراسل الصحيفة الإسرائيلية «توج جورنال» فى نيويورك، فقد علق على الخطاب السنوى لشاريت واعترض قائلا: «نعم، إنه لمن الحق أن أى رئيس قد يتعين عليه أحيانا أن يرسل بعض الجنود إلى الموت، من أجل إنقاذ مدينة، أو بلد، ولكن المسألة هى أن تعرف إن كانت هذه هى الحال فى

---

(١) السابق ص ١٩٦.

قضية «باتريا» إن الإطاحة بهذه الباخرة كانت مظاهرة سياسية ضد الإنجليز استتبعت موت مائتين وخمسين يهوديا بريئا، رجالا، ونساء، وأطفالا.»[1].

فلم يكن العمل مطلقا عملا منفردا.

وهناك مثال آخر هو مثال اليهود الإسرائيليين بالعراق، الذين كانت نواتهم مكونة منذ ألفين وخمسمائة عام، من المسبيين المنقولين إلى بابل على يد بختنصر، بعد انهيار مملكة يهوذا، كان المجتمع الإسرائيلى المكون من (١١٠,٠٠٠ - مائة ألف وعشرة آلاف من الأشخاص، عام ١٩٤٨) مجتمعاً ضاربا بجذوره فى البلاد، وأعلن الربانى العراقى الكبير خضورى ساسون أن «اليهود والعرب قد تمتعوا بنفس الحقوق والامتيازات منذ ألف عام، وهم لا يرون أنفسهم عنصرين منفصلين فى هذه الأمة».

هنا بدأت الأعمال الإرهابية الإسرائيلية، عام ١٩٥٠، فى بغداد: ذلك أن الخدمات السرية الإسرائيلية حين رأت تحفظ اليهود العراقيين وترددهم أن يسجلوا أنفسهم فى قوائم الهجرة - لم تتورع أن تلقى ضدهم القنابل، كيما تقنعهم أنهم فى خطر، ولقد أسفر الهجوم ضد معبد شمتوف عن مقتل ثلاثة أشخاص وجرح عشرات[2]، وهكذا بدأ الخروج المعمّد: «عملية على بابا».

---

(١) جويش نيوزلتر» نيويورك ٣٠ من نوفمبر ١٩٥٨، وقبل ذلك فى صحيفة النيويورك مورننج فرانيهيت، فى ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٥٠، وقد كتب المراسل الإسرائيلى بمناسبة قرار الهاجاناه: «لقد كان ينبغى على الإنجليز أن يفهموا أن اليهود لا يصح أن يرحّلوا خارج بلادهم، فباتريا كان يجب أن تغرق ، وقد نقل القرار إلى أعضاء الهاجاناه على ظهر باتريا».

(٢) نص هذه الإثارة نشر بالصحيفة الأسبوعية «هاعولام هزه» فى ٢٠ من إبريل، والأول من يونيو عام ١٩٦٦، ثم أكد فى أغسطس عام ١٩٧٢ بوساطة كوخاف شميث فى صحيفة الأمريكيين السود Panthérs noirés وبوساطة الصحفى باروخ نادل فى تحقيق أجراه مع موردخاى بن بورات بوساطة المحكمة العليا فى تل أبيب فى ٧ من نوفمبر عام ١٩٧٧، ونشر التقرير فى صحيفة يديعوت أحرنوت فى ٨ من نوفمبر عام ١٩٧٧ (ذكره إيلان هاليفى: المسألة اليهودية» ص ٢٩).

ويبدو أن المنهج لم يتغير، فعندما وقعت مذبحة صبرا وشاتيلا فى بيروت طرح الكاتب طَهَر بن جِلّون هذه المسألة فقال:

«هناك توافقات أصبحت من فرط ما تكررت مؤشراً واضحاً، فنحن الآن نعرف ما جدوى مؤامرة معادية للسامية فى أوربا، ومن الذى يفيد من الجريمة؟ إنها تستخدم فى تغطية مذبحة متعمدة للسكان المدنيين، فلسطينيين ولبنانيين، ومن الممكن أن نلاحظ أن هذه المؤامرات قد جرت، وتبعها، أو وافقها حمام دم فى بيروت، لقد صعدت هذه العمليات الإرهابية بهذه الطريقة، ونفذت بأسلوب كامل، بحيث أدت حتى الآن، بصورة مباشرة أو غير مباشرة - الهدف السياسى التالى لها: وهو تحويل الانتباه كلما بدا أن المسألة الفلسطينية تكسب قدراً قليلا من الفهم، أو حتى التعاطف، وذلك بقلب الوضع بصورة منهجية، لتقديم ضحايا الجلادين، والإرهابيين.

إنهم يجعلون من الفلسطينيين «إرهابيين» فيطردونهم من التاريخ، ومن ثم يبعدونهم عن نطاق الحق.

* ألم تُسبَق مجزرةُ شارع روزييه فى ٩ من أغسطس - خلال ساعات قلائل - بطوفان القنابل من كل نوع على بيروت؟.

* ومذبحة بشير الجميل ألم يتبعها بساعتين دخول الجيش الإسرائيلى لبيروت الغربية، (وهو ما غطى فى نفس الضربة على الزيارة التاريخية التى قام بها ياسر عرفات للبابا).؟.

* ألم يتوافق انفجار السيارة المفخخة بشارع كاردينيه Cardinet، والتراشق بالرصاص، غداة الانفجار، أمام معبد بروكسل، ألم يتوافق هذان الحدثان مع المذبحة التى لم يسبق لها مثيل فى المعسكرات الفلسطينية بصبرا وشاتيلا؟[1]

---

(١) صحيفة لوموند، الأربعاء ٢٢ من سبتمبر عام ١٩٨٢، ص ٢.

إن معاداة السامية، منذ هرتزل، هى أفضل مساعد للصهيونية، ولقد أعلن رئيس التنظيم اليهودى العالمى، فى ٢٣ من يوليو عام ١٩٥٨، لدى افتتاح المؤتمر اليهودى العالمى بجنيف:

«أن سقوط معاداة السامية المعلنة يمكن أن يشكل خطراً على البقاء اليهودى... إن لليهود فى كل مكان تقريبا حقوقا متساوية مع المواطنين الآخرين، سواء على المستوى الاقتصادى، أو السياسى... ومع ذلك إن لاختفاء معاداة السامية، بالمعنى الكلاسيكى للكلمة – على الرغم من كونه نافعاً للوضع السياسى والمادى للمجتمعات اليهودية – آثاراً سلبية على الحياة الداخلية لحركتنا»(١).

ومما له مغزاه أن القادة الصهاينة، فى خوفهم من «الدمج» للحفاظ على الشخصية اليهودية – إنما يعتمدون على معاداة السامية بأكثر مما يعتمدون على ازدهار القيم اليهودية الخالصة، حتى أصبح من الصعب بداهة أن يُعَرِّفُوا اليهودى بإيمانه، وإنما هم يُعَرِّفونه بجنسه.

هذه الصعوبة فى تَعريف من يكون يهودياً خارج المقياس الدينى تتضح فى قلب التشريع الإسرائيلى ذاته، فهو يتذبذب دائما بين المقياس الدينى، والمقياس العنصرى.

وهناك مؤلَّف كاشف، هو مؤلف البروفسور كلين Clein، مدير معهد القانون المقارن بالجامعة العبرية بالقدس، وهو بعنوان «الصفة اليهودية لدولة إسرائيل» (طبعة كوجاس، باريس عام ١٩٧٧).

والنص الأساسى هو نص قانون العودة (٥٧١٠ لعام ١٩٥٠)، وهذا القانون ينص على أنه:

---

(١) ذكره موشى منوهيم (السابق) ص ٤٠١

* **مادة ١ –** «لكل يهودى الحق فى الهجرة إلى إسرائيل...» وانطلاقا من هذا من الضرورى وضع تعريف لليهودى.

* **مادة ٤ – فقرة ب**: «يعتبر يهوديا أى شخص ولد من أم يهودية، أو متحولة إليها»[١].

وهكذا، فيما عدا التحول إلى اليهودية، وهو أمر نادر جداً فى أيامنا هذه[٢] – فإن المقياس الجوهرى هو مقياس عنصرى: وهو الولادة من أم يهودية، وذلكم هو ما كان فى زمن الانحطاط اليهودى، زمن عزرا ونحميا.

وهو أيضا ما كان فى زمن القوانين النازية فى نورمبرج.

ولقد لاحظ قاضى المحكمة العليا الإسرائيلية حاييم كوهين – بمرارة أن: «السخرية المريرة للقدر جعلت من النظريات البيولوجية والعنصرية ذاتها، وهى التى روج لها النازيون، أساسا فى التعريف الرسمى لليهودية فى نطاق دولة إسرائيل»[٣].

ليس المهم هنا بكل أسف هو «سخرية» التاريخ، ولا سخرية «القدر» ولكنه المنطق الصارم للصهيونية: فليس هناك طرق كثيرة «للحفاظ على نقاء الجنس»، متى كان هناك اعتقاد فى أسطورة الجنس.

وفى قضية مجرى الحرب فى نورمبرج، وخلال استجواب «منظِّر» الجنس جوليوس ستريخر – وضع السؤال التالى:

---

(١) كلن، السابق، ص ١٥٥ – ١٥٦.

(٢) يعترف البروفسور كلين بأن «اليهودية ليست دينا يحبذ التبشير» (السابق ص ٤٩).

(٣) لوموند – ١٢ من مارس عام ١٩٦٦.

«فى عام ١٩٣٥، وفى مؤتمر الحزب فى نورمبرج – صدرت «القوانين العنصرية»، ومنذ أعد مشروع هذا القانون – هل دعيتم للمشورة، وهل شاركتم بأى وجه فى وضع هذه القوانين؟.

– المتهم ستريخر: نعم، أعتقد أنى شاركت فيها، بحيث إنى كتبت منذ سنوات أننا ينبغى أن نمنع أى اختلاط للدم الألمانى بالدم اليهودى، وكتبت مقالات فى هذا المعنى، وكررت دائما أننا يجب أن نأخذ الجنس اليهودى، والشعب اليهودى، باعتبارهما نموذجا، لقد كررت دائما فى مقالاتى أن اليهود يجب أن يعتبروا نموذجا للأجناس الأخرى، لأنهم أوتوا شريعة عنصرية، هى شريعة موسى التى تقول: «إذا ذهبتم إلى بلد أجنبى فلا تتخذوا نساء أجنبيات»، وهذا أيها السادة – ذو أهمية معتبرة عند الحكم على قوانين نورمبرج، تلكم هى الشرائع اليهودية التى اعتبرت نماذج، وعندما لاحظ المشرع اليهودى عزرا بعد عدة قرون أنه على الرغم من ذلك اتخذ كثير من اليهود زوجات غير يهوديات فإن هذه الزيجات فسخت، وهذا هو أصل التهود الذى استمر خلال عدة قرون، بفضل شرائعه العنصرية، على حين أن جميع الأجناس الأخرى، وجميع الحضارات، قد محيت»[1].

وهذه فى الواقع هى الطريقة التى استطاع بها القضاة المستشارون لوزير الداخلية النازى أن يضعوا «قوانين نورمبرج» عن حق سكان الرايخ، وعن حماية الدم الألمانى، والشرف الألمانى»، هذان القاضيان المستشاران: برتراند لوسنر، وفريدرك نوست هما اللذان شرحا النص فى مجموعة «قوانين نورمبرج»، فقالا:

---

(١) قضية كبار مجرمى الحرب أمام المحكمة العسكرية الدولية (نورمبرج فى ١٤ من نوفمبر عام ١٩٤٥، والأول من أكتوبر عام ١٩٤٦، والنص الرسمى باللغة الفرنسية، مناقشات ٢٦ من إبريل عام ١٩٤٦، جـ ١٢ ص ٣٢١).

«إن المسألة اليهودية فى ألمانيا هى بكل بساطة مسألة عنصرية، كيف وصلوا إلى هذا الحد؟، لا حاجة مطلقا إلى الرجوع إلى هذا، وحل المسألة على النحو الذى يتم الآن، شرط لازم لتشييد رايخ جديد، إن قوانين نورمبرج، حسب إرادة الفوهرر لا تستتبع – حقيقة – إجراءات خاصة لتحريك الكراهية العنصرية، وتأبيدها، بل على العكس، إن إجراءات كهذه تعنى بداية تهدئة فى العلاقات بين الشعب اليهودى والشعب الألمانى.

ولو كانت لليهود دولتهم الخاصة التى يأمنون فيها لاعتبرت المسألة اليهودية محلولة، سواء بالنسبة إلى اليهود أو بالنسبة إلى الألمان» «ولهذا السبب لم يثر الصهاينة، وهم الأكثر اقتناعا، أدنى اعتراض ضد روح قوانين نورمبرج، لأنهم يعلمون علم اليقين أن هذه القوانين تمثل الحل الوحيد الصحيح، وهم يعلمون كذلك أن الشعب الألمانى – وقد وعى ذاته – تلقى هذه القوانين كما تلقى الشعب اليهودى نفسه منذ آلاف السنين – (انظر سفر عزرا) – القوانين التى أحدثت ذهولا شعبيا، فردته قويا، ومكنته من الحفاظ على دمه النقى، غير المختلط، رغم أن أفراده عاشوا أجيالا لا تحصى فى قلب الغربة، ويبدو لنا مع ذلك أن لدى اليهودى ذى الدم النقى – على الأخص – فهما معينا للقوانين العنصرية فى ألمانيا الجديدة، وهو يرى أن أى شعب آخر لا يجب عليه أن يهتم بخلاصه منها، فهو (اليهودى) وحده المسئول عن ذلك، وبخاصة ما يتصل بنقاء الدم»[1].

ومن هنا تفهم صرامة قوانين الزواج الإسرائيلية، التى يتعلق بها «نقاء العنصر» واليوم تدعم الهيمنة الكهنوتية مبدأ العنصرية، كما كانت الحال على عهد عزرا، وذلك بإمدادها «بأساس» دينى، وهو ما يفصح عنه بخاصة تشريع الزواج، فهناك قانون اسمه «قانون السلطة القضائية للمحاكم الربانية» (قانون رقم ٥٧١٣ لسنة ١٩٥٣)، وهو ينص على ما يلى:

---

(١) ساملونج فهلن جـ ٢٣، لوزنر – كنوست: «قوانين نورمبرج – Les lois de Nuremberg» فصل ٤ عن «المسألة اليهودية» ص ١٧ – ط فرانز فهلن. برلين ١٩٣٦.

* **المادة ١** – «كل ما يخص زواج اليهود وطلاقهم فى إسرائيل وطنيين أو مقيمين، هو من اختصاص المحاكم الربانية».

* **المادة ٢** – زواج اليهود وطلاقهم يتمان فى إسرائيل طبقا للقانون الذى تقره التوراة.

وإذن، لا يوجد بالنسبة إلى اليهود زواج مدنى فى إسرائيل، ولقد يكفى أن نذكر مثالًا واحداً للنتائج المترتبة على هذه السلطة المطلقة للربانيين فى هذا الصدد: يهودى اسمه كوهين، لم يكن له حق الزواج بامرأة مطلقة (لأن الكوهينيين من نسل هارون، أخى موسى، يمارسون فى المعبد تكاليف كهنوتية)، فلكى يتخلص من هذا الحظر الربانى ينبغى أن يقوم بإجراء معقد ليحصل على قرار من المحكمة العليا»[1].

ومثال آخر: امراة أيّم «هاليتزا» أعنى: عزبة ولا ولد لها، لا تملك أن تتزوج مرة أخرى إلا إذا رضى أخو زوجها، فإما أن يتزوجها، وإما أن «يحررها».

والنتيجة الثانية: «أن مغزى هذا القانون واضح على المستوى العملى، **فهناك استحالة قانونية أن يتم تعاقد فى إسرائيل على زواج بين شخص يهودى، وشخص غير يهودى**»[2]، (**وهذه العبارة مأخوذة عن كلين**).

فالعنصرية والتيوقراطية مرتبطتان هنا بطريقة غامضة، فى نقطة أساسية هى: تعريف «اليهودى» نفسه.

فتعريفه «**بالدين**» يؤدى بالكنيست إلى أن يرفض تمكين قسيس كاثوليكى، من أصل يهودى، هو دانيل روفيسون، من حقه التلقائى فى الجنسية الإسرائيلية، المنصوص عليه فى قانون العودة عام ١٩٥٢.

---

(١) كلين: السابق ص ١٢٤، وقد قدم اقتراح بقانون يهدف، عام ١٩٧٢ – إلى تنظيم زواج «مدنى»، للإفلات من هذه التحريمات القديمة، ولكنه رفض.

(٢) السابق ص ١٢٣.

وتعريفه **بالعنصر** يؤدى إلى تناقضات أخطر، ففى يناير عام ١٩٧٠ – طلب ضابط بحرى يهودى، هو بنيامين شليت، وهو إسرائيلى ملحد، أن يحصل ابنه من زوجه غير اليهودية – الإسكتلندية، على الجنسية اليهودية، فأجابته المحكمة العليا إلى طلبه بالأغلبية: خمسة أصوات ضد أربعة (انظر: «جيروزاليم بوست» – عدد ٢٥ من يناير عام ١٩٧٠، مقال: من اليهودى؟ – Who is Jew ?)، وقد هدد الحزب الدينى آنذاك بأن يخرج من الائتلاف الحاكم، إذا لم يراجع القانون، من أجل احترام «الهلاخاه»[1]، أو الجانب القانونى من اليهودية.

---

(١) تعنى كلمة: هلاخاه (وهى من الجذر هالخ: أن يذهب) – الجانب القانونى من اليهودية، عكس كلمة: أجّاداه، بمعنى المواد غير القانونية، وخاصة فيما يتعلق بالأدب الخاص بالربانيين، وتشمل كلمة: هلاخاه كل الممارسات، والملاحظات الخاصة باليهودية، سواء أكانت شخصية أم اجتماعية، أم قومية، أم عالمية، وجمع الكلمة: (هلاخوت)، وهى القانون الذى أعطى لموسى على جبل سيناء، وقيل له بشأنه: «وعليهم الفرائض والشرائع، وعرفهم الطريق الذى يسلكونه، والعمل الذى يعملونه» [الخروج ١٨ / ٢٠]، ثم تطور استخدام الهلاخاه فأصبحت عنوانا على النظام القانونى الكامل لليهودية، وكانت دراستها فى فترة الربانيين من الواجبات السامية، هذا، ومن أجل صعوبة موضوعاتها وأهميتها من أجل الصهيونية العملية حظيت هذه الدراسة بمكانة فاقت كل الدراسات اليهودية.

ويستخدم المصطلح فى العبارات التالية: هلاخا لموسى: عرف أو سنة أو رأى ينسب لموسى، وهلاخا ناسخة لنص: عرف يَجُبّ نصا دينيا، وهلاخا بعد مناقشة: قرار اتخذ بعد مناقشة (المترجم).

ويراجع البرلمان القانون، ويوافق على منح الجنسية «الإسرائيلية» للمهاجرين، بشرط أن يكون لديهم على الأقل جد يهودى، وعلى منح «الجنسية اليهودية» لأولئك الذين يحصلون عليها تبعا للتفسير اليهودى التقليدى، وقد ترتب على التفرقة الناشئة عن التلفيق أن طفلا ثانياً ولد لبنيامين شليت، من نفس الأم غير اليهودية – فلم يعتبر هذا الطفل يهوديا، بل اعتبر إسرائيليا فقط.

وفى يناير عام ١٩٧٢، وبناء على هذه السابقة تقدم معارض للسياسة الحكومية، هو البروفسور تمرين، بطلب تعيين جنسيته بصفة «إسرائيلى» بدلا من «يهودى» (التى كانت من حقه)، وذلك حتى يندد بالتفرقة العنصرية التى تمارسها الدولة، وقد رفضت المحكمة العليا طلبه، وأجبر البرفسور تمرين على ترك كرسيه فى الجامعة العبرية بالقدس، وكانت حيثيات المحكمة العليا ذات مغزى تقول: «ليست هنالك أمة إسرائيلية منفصلة عن الشعب اليهودى، والشعب اليهودى لا يشمل فقط المقيمين فى إسرائيل، ولكنه يشمل كذلك اليهود المقيمين فى مختلف بلاد اللجوء»[1].

وأكثر نتائج هذا المفهوم درامية، والتى يُسْتَقْبَلُ اليهود بمقتضاها فى إسرائيل، من كل أنحاء العالم، باعتبار ذلك «حقا» لهم – نتيجةٌ هى أنه: إذا ما بلغت الصهيونية أهدافها، (كما حددها بن جوريون)، وذلك بأن جاء إلى إسرائيل ثلاثة عشر مليونا من اليهود ليستقروا فيها – فإن الصراع من أجل «المجال الحيوى» سوف يكون ضاريا أيضا.

وقد طرحت هذه المشكلة بوضوح شديد، حتى قبل وجود دولة إسرائيل، وكتب يوسف وتز، مدير «الصندوق القومى اليهودى» منذ عام ١٩٤٠ يقول:

---

(١) ذكره نعام تشومسكى فى مقال له فى صحيفة هاآرتز الإسرائيلية (١٣ من مارس عام ١٩٧٢) بعنوان «اليهود الإسرائيليون والعرب الفلسطينيون» (وقد ظهر أيضا فى – Holy Cross quartérly) عام ١٩٧٢ ص ١٧.

ينبغى أن يكون واضحاً لنا أنه لا مكان لشعبين فى هذا البلد، فإذا غادره العرب فإنه سيكفينا (....) ولا توجد وسيلة أخرى سوى أن نبعدهم جميعاً، فلا نترك قرية واحدة، ولا قبيلة... ويجب أن نبين لروزفلت، ولجميع زعماء الدول الصديقة، أن أرض إسرائيل ليست صغيرة إذا ما غادرها كل العرب، وإذا ما توسعت حدودها قليلا نحو الشمال، على طول نهر الليطانى، ونحو الشرق على هضاب الجولان»(1).

وفى الصحيفة الإسرائيلية الكبيرة يديعوت أحرنوت، عدد ١٤ من يوليو عام ١٩٧٢ يكرر يورام بار بورات - بكل قوة - الهدف الذى ينبغى بلوغه فيقول: «إن واجب الزعماء الإسرائيليين أن يشرحوا بوضوح وشجاعة للرأى العام عددا من الحقائق التى ينسيها الزمن، وأول هذه الحقائق أنه لا صهيونية، ولا استعمار، ولا دولة يهودية، دون طرد العرب، واغتصاب أراضيهم».

ونحن هنا أيضا محكومون بمنطق النظام الصهيونى الشديد الصرامة، والذى يطرح هذا السؤال: كيف يتم إنشاء أغلبية يهودية فى بلد يسكنه مجتمع عربى فلسطينى من الأهالى الأصليين؟.

وتأتى الصهيونية السياسية بالحل الوحيد النابع من برنامجها الاستعمارى، وهو: إنشاء مستعمرة للإسكان، بطرد الفلسطينيين، والاندفاع نحو الهجرة اليهودية.

ولقد كان طرد الفلسطينيين، والاستيلاء على أرضهم مشروعاً متعمداً وممنهجاً(2).

---

(1) يوسف وتز «الجورنال» - تل أبيب عام ١٩٦٥.

(2) ونذكر أنه إبان صدور إعلان بلفور لم يكن الصهاينة يملكون سوى ٢,٥٪ من الأرض، وكانوا يملكون إبان صدور قرار التقسيم ٦,٥٪ من أرض فلسطين، وهم فى عام ١٩٨٢ يملكون ٩٣٪ منها.

وقد كانت الأساليب المستخدمة فى انتزاع أبناء البلاد من أرضهم هى أساليب الاستعمارية الشرسة، مع تلوين عنصرى، أكثر وضوحاً فى حالة الصهيونية.

ومن هذه الزاوية يحسن أن نميز بين مرحلتين فى الاستعمارية الصهيونية، **الأولى**، وكانت لها سمات الاستعمارية الكلاسيكية، فهى حريصة على استغلال اليد العاملة المحلية، وذلك هو منهج البارون إدوارد دو روتشيلد، تماما كما حدث فى الجزائر، فقد كانت الاستعمارية تستغل فى كرومها اليد العاملة الرخيصة من الفلاحين، وقد مدت فقط نشاطها إلى فلسطين، مستغلة فى مزارعها العرب الآخرين غير الجزائريين.

وقد حدث تحول، حوالى عام ١٩٠٥، عندما وصلت من روسيا موجة جديدة من المهاجرين، غشية سحق ثورة عام ١٩٠٥، فبدلا من أن يستمر اليهود فى الصراع داخل البلاد، إلى جانب الثوار الآخرين من الروس، آثر أولئك الهاربون من الثورة المهزومة أن يخرجوا إلى فلسطين، يحملون معهم «اشتراكية صهيونية» غريبة: لقد أنشأوا تعاونيات حرفية، وكيبوتزات ريفية، مستبعدين الفلاحين الفلسطينيين، كيما ينشئوا اقتصاداً معتمداً على طبقة عاملة وزراعية يهودية، وهكذا انتقلوا من الاستعمارية الكلاسيكية (من النموذج الإنجليزى أو الفرنسى)، إلى مستعمرة استيطان، وهى تستتبع فى منطق الصهيونية السياسية تدفق المهاجرين، الذين ينبغى أن تتخذ إجراءات «لصالحهم»، وضد «لاأحد» (كما قال البروفسور كلين)، فتحجز لهم الأرض، والأعمال وكان المطلوب آنذاك أن يستبدل بالشعب الفلسطينى شعب آخر والاستيلاء على الأرض طبعاً.

وكانت نقطة الانطلاق فى العملية الكبيرة أن تم فى عام ١٩٠١ إنشاء «الصندوق القومى اليهودى– Fonds national Juifs» الذى يحمل هذه الصفة الأساسية، حتى بالنسبة إلى الاستعماريات الأخرى وهى: أن الأرض التى يحصل عليها لا يمكن أن تباع مرة أخرى، ولا تستأجر من غير يهود.

وأما القانونان الآخران فأحدهما يخص (المؤسسة القومية اليهودية — Le Kéren Kayément)، وهو القانون الذى طبق فى ٢٣ من نوفمبر ١٩٥٣)، والثانى يخص (مؤسسة البناء — Le kéren Hayesod، وهو القانون الذى طبق فى ١٠ من يناير عام ١٩٥٦)، وهذان القانونان — كما كتب البرفسور كلين[1] — أتاحا تحويل هذه الشركات التى خُصَّتْ ببعض الامتيازات، لم يُحْصِ البرفسور كلين هذه الامتيازات، ولكنه وضع مجرد «ملاحظة» هى أن «الأراضى المملوكة للصندوق القومى اليهودى، قد شهرت على أنها أراضى إسرائيل»، وقد جاء قانون أساسى يطلب عدم جواز التصرف فى هذه الأراضى، «وهو أحد **القوانين الأربعة الأساسية» (التى هى عناصر دستور مستقبل، لا يوجد دائما** بعد ٤٥ عاما من قيام إسرائيل)، وهذا القانون قد طبق عام ١٩٦٠، ومن المؤسف أن العالم المشرع، بما عهد فيه من اهتمام بالتحديد — لم يقدم أى تفسير «لخاصية عدم جواز التصرف» هذه، بل إنه لم يضع لها تعريفا ينص على أن: أرضا «مُنْقَذَةً» (خلاص الأرض) بوساطة الصندوق القومى اليهودى — هى أرض «يهودية»، فهى لا يمكن أبدا أن تباع إلى غير يهودى، ولا أن تؤجر إلى غير يهودى، ولا أن يعمل فيها غير يهودى.

أيمكن لأحد أن ينكر صفة التفرقة العنصرية لهذا القانون الأساسى؟.

إن السياسة الزراعية للزعماء الإسرائيليين هى سياسة الاغتصاب المنهجى لطبقة الفلاحين العرب.

أما التنظيم العقارى، فى عام ١٩٤٣، لنزع الملكية من أجل المصلحة العامة، فهو ميراث من مرحلة الحماية الإنجليزية، هذا القانون، الشرعى فى ذاته، قد حُرِّفَ عن معناه عندما طبق بصورة تمييزية عنصرية، ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ١٩٦٢ نزعت ملكية خمسمائة هكتار فى دير الأرد، ونابل، وبعنة، وكانت «المصلحة العامة» تنحصر فى إنشاء مدينة الكرمل، المقصورة على اليهود وحدهم.

---

(١) السابق ص ٢١.

وهناك إجراء آخر: وهو استخدام «قوانين الطوارئ»، الصادرة عام ١٩٤٥، بوساطة الإنجليز ضد اليهود والعرب، فالقانون رقم ١٢٤ يعطى للحكومة العسكرية، بتعلّةِ الأمن، أن تعلق جميع حقوق المواطنين، بما فى ذلك تهجيرهم: إذ يكفى أن يعلن الجيش منطقة محرمة، «لداعى أمن الدولة» حتى **لا يملك عربى أن يذهب إلى أراضيه دون موافقة من الحاكم العسكرى، فإذا مارفضت هذه الموافقة، فإن الأرض تعلن عندئذ «مُبَوَّرة»**، ومن ثم يصبح بوسع وزارة الزراعة أن تضع يدها على الأراضى غير المزروعة، حتى تؤمن زراعتها».

وحين أصدر الإنجليز عام ١٩٤٥ هذا التشريع القسرى الاستعمارى، للصراع ضد الإرهاب اليهودى احتج القاضى برنارد (DOV) جوزيف ضد هذا النظام الذى يقوم على «الأوامر الاستبدادية»، وأعلن: «تُرىَ هل سنخضع جميعاً للرعب الرسمى؟... إن أى مواطن لا يجد الحماية من السجن مدى الحياة دون محاكمة... وسلطات الإدارة فى الإبعاد والنفى فى أية لحظة سلطات غير محدودة... فلا حاجة إلى ارتكاب أية جريمة، بل إن قراراً يتخذ فى بعض المكاتب يكفى...» وبرنارد (DOV) جوزيف هذا، والذى صار وزيراً للعدل فى إسرائيل - هو الذى سوف يطبق هذه القوانين ضد العرب.

وقد أعلن ج. شابيرا، بمناسبة هذه القوانين، فى نفس الأجتماع الذى عقد فى فبراير ١٩٤٦ بتل أبيب، للاحتجاج (فبراير عام ١٩٤٦ ص ٥٨ - ٦٤ - و Hapraklit) - **أعلن بكل قوة أيضا أن «النظام المستتب بهذا التشريع لا سابقة له فى البلدان المتحضرة**، وحتى فى ألمانيا النازية لم يكن يوجد مثل هذه القوانين» وج. شابيرا نفسه، والذى صار نائبا عاما فى دولة إسرائيل، ثم وزيراً للعدل - سوف يطبق هذه القوانين ضد العرب، إذ إنه فى سبيل تبرير الإبقاء على قوانين الرعب هذه لم تلغ «حالة الطوارئ» مطلقا فى دولة إسرائيل منذ عام ١٩٤٨.

وقد كتب شيمون بيريز فى صحيفة دافار، فى ٢٥ من يناير عام ١٩٧٢، يقول: «إن استخدام القانون ١٢٥ الذى قامت عليه الحكومة العسكرية هو استمرار مباشر للكفاح من أجل الزرع اليهودى، والهجرة اليهودية».

أما المرسوم الصادر بشأن زراعة الأراضى البور، عام ١٩٤٨، والمعدل عام ١٩٤٩ – فإنه سوف يمضى فى نفس الاتجاه، ولكن بطريقة أكثر مباشرة، حتى دون التماس تعلة «المنفعة العامة»، أو «الأمن العسكرى»، فإن وزير الزراعة يستطيع أن يصادر أية أراض مهجورة، وبذلك نجد أن الخروج الجماعى للسكان العرب تحت مطرقة الرعب، من نوع ما حدث فى دير ياسين عام ١٩٤٨، أو فى كفر قاسم فى ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦، أو مذابح «الوحدة ١٠١» التى قام بها موشى ديان، والتى أدانها إلى وقت طويل أريل شارون – هذا كله «قد حرر» أراضى شاسعة، مفرغة من ملاكها أو من العاملين العرب فيها، وأعطيت هذه الأراضى للمحتلين اليهود.

وقد كملت آلية نزع ملكية الفلاحين بالمرسوم الصادر فى ٣٠ من يونيو عام ١٩٤٨، وقرار الطوارىء الصادر فى ١٥ من نوفمبر عام ١٩٤٨ بخصوص ملكيات «الغائبين»، والقانون المتعلق بأراضى «الغائبين» (الصادر فى ١٤ من مارس عام ١٩٥٠)، وقانون تملك الأراضى (الصادر فى ١٣ من مارس عام ١٩٥٣)، وكل ذلك يمثل ترسانة من الإجراءات الرامية إلى إضفاء الشرعية على السرقة، بإكراه العرب على ترك أراضيهم، لتقام فيها مستعمرات يهودية، على ما يبينه ناتان ونستوك فى كتابه: «الصهيونية ضد إسرائيل»[1].

---

(١) ناتان ونستوك: «Le Sionisme Contre Israel» ط. ماسبيرو، باريس عام ١٩٦٩ ص ومابعدها.

وفى سبيل محو كل ما يذكر بوجود السكان المزارعين الفلسطينيين، وتأكيد أسطورة «البلد المهجور» – هدمت القرى العربية بمنازلها، وأسوارها، وحتى قرافاتها ومقابرها، وقد تابع البرفسور إسرائيل شهاك هذه العمليات، منطقة منطقة، فقدم عام ١٩٧٥ قائمة بثلثمائة وخمس وثمانين قرية عربية، هدمت بالبلدوزرات من أربعمائة وخمس وسبعين كانت موجودة عام ١٩٤٨.

إن المستعمرات الإسرائيلية مستمرة فى انزراعها بنشاط منذ عام ١٩٧٩، فى الضفة الغربية، وهى مستعمرات مسلحة دائما، طبقا لأقدم التقاليد الاستعمارية.

والنتيجة الكلية هى ما يلى: أن «الأرض اليهودية» بعد طرد مليون ونصف مليون من الفلسطينيين، أصبحت تبعا لأقوال المسئولين فى «الصندوق القومى اليهودى»، تمثل اليوم أكثر من ٩٣٪ من فلسطين (منها ٧٥٪ ملك للدولة، و ١٤٪ للصندوق القومى).

ولما كانت هذه هى السياسة الاستعمارية والعنصرية للصهيونية السياسية فيما يخص الأحوال الشخصية والأرض، فقد أصبح من اليسير أن نفهم: ماذا يعنى الحكم الذاتى L'autonomie الذى يتحدث عنه مناحم بيجن، فى نظر الزعماء الإسرائيليين؟.

إنه يعنى فى الواقع استمرار سياسة الضم والاغتصاب التى تلتزم بها الاستعمارية الصهيونية.

وابتداء، لا أحد يعرف مع أى طرف يمكن أن يتفاوض الزعماء الإسرائيليون؟.. أمع منظمة التحرير الفلسطينية؟ إنهم لا يريدون ذلك بأى ثمن.. أم مع عناصر منتخبة من السكان؟ فقد أقالوهم وفصلوهم من عملهم.

وها هى ذه التصورات الرئيسية التى وردت فى الكاريكاتير الذى أُعِدَّ عن الحكم الذاتى:

فى الثالث من مايو عام ١٩٧٩ قدم بيجن إلى لجنة الأحد عشر وزيراً، مشروعه عن الحكم الذاتى الإدارى، وفى ١٧ من مايو – وافقت اللجنة عليه، وفى ٢١ من مايو أقرته الحكومة.

وينحصر المشروع الذى أقرته الحكومة فى تعداد مجموعة من المبادىء، التى تدعم سياسة الضم والتوسع، تنفذها الدولة الصهيونية، وهو مع ذلك يؤكد أنه بعد مرحلة انتقال من خمس سنوات، وهى المنصوص عليها من أجل الحكم الذاتى الإدارى تسترد إسرائيل و «حقها المزعوم فى السيادة» على الضفة الغربية، وقطاع غزة، وهذا المبدأ يوضح كل المبادىء الأخرى، «فإن المستعمرات اليهودية، والسكان اليهود سوف يتبعون التشريع الإسرائيلى، والإدارة الإسرائيلية»، «حق» متابعة الاستعمار فى المناطق الموضوعة تحت نظام الحكم الذاتى - سوف تتم حمايته، والأراضى الحكومية، والأراضى «البور»[1] سوف تكون فى يد المحتل: فقواته المسلحة «سوف تحشد فى مناطق، محدَّدةً الأراضى الموضوعة تحت نظام الحكم الذاتى»، وقوات الأمن «سوف تتحمل مسئولية الأمن الداخلى فى الأراضى المحتلة، وأما فيما يتعلق بالمجلس الإدارى فإن مشروع الحكومة يحدد أن «الحكومة العسكرية سوف تعهد بصلاحياتها إلى السلطة الذاتية، وسوف تكون هناك مفاوضات حول عدد أعضاء المجلس الإدارى المنتخبين، وعدد الأقسام التى ستضم إليه».

---

(١) مقترحات بيجن عن أراضى الضفة الغربية هى ما يلى: «إن الأراضى الحكومية التى ليست مزروعة سوف تستخدم فى حالة الضرورة لحاجات الأمن، للإسكان اليهودى، ولإعادة توطين اللاجئين، أما الأراضى التى لم تسجل باعتبارها ملكيات خاصة ولكنها مزروعة بوساطة الأفراد بخاصة - فإنها سوف تستخدم فى حال الضرورة لدواعى الأمن فقط.

وبالمثل، إن الأراضى المسجلة باعتبارها ملكيات خاصة، ولكنها ليست مزروعة سوف تستخدم لدواعى الأمن عند الضرورة، وفى هذه الحالة سوف يستولى عليها، دون أن تصادر، (والفرق بين هذين الإجراءين هو أن الاستيلاء يسمح للمالك بأن يبقى على سند الملكية).

أما الأراضى الخاصة والمزروعة فلن تستخدم إلا حين تكون لازمة احتمالا من أجل الأمن، ومن أجل بناء الطرق.

(جيروزاليم بوست، فى ١٨ من مايو عام ١٩٧٩ - ص ١).

ثم يذكر الملحق بعد ذلك أن القادة الصهاينة لن يسمحوا مطلقا بإنشاء دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة[1].

وتقرر الحكومة بالإجماع أن هذا المشروع الذى يحمل عنوان: «مشروع مبادىء لاستقلال ذاتى إدارى كامل للسكان العرب فى يهوذا والسامرة وغزة، ومن أجل وجود المستعمرات اليهودية فى هذه المناطق»، وسوف يعتبر برنامجا للوفد الإسرائيلى فى مفاوضات الحكم الذاتى، وهو لم يعرض على مصر إبان المفاوضات لأسباب تكتيكية[2].

وقد كشف عن توصيات لجنة بن إليسار، لتطبيق هذا «المشروع...» الصحيفة اليومية هاآرتز، وهى تكمل التوصيات التى قدمت فى التاسع من فبراير، وتبين أن قيوداً جديدة سوف تفرض على السلطة الذاتية.

وتبدأ هذه القيود على مستوى الإجراءات الانتخابية، التى يجب أن تتبعها انتخابات المجلس الإدارى، وكل شخص أدين بمعارضة الاحتلال لا يمكن أن ينتخب: والمرشحون يجب أن يتقدموا على قائمة فردية، ودون أن يذكر الدائرة التى يتقدم عنها.

أما على المستوى الاقتصادى «فإن الإدارة الذاتية لا يمكن أن يوافق لها على إصدار نقود، أو إنشاء بنك مركزى، أو جمع ضرائب غير مباشرة، وهى لا يمكن أن تراقب الواردات والصادرات، ولا التداول النقدى».

وأما على مستوى الأمن الداخلى: ... «فإن المسجونين السياسيين سوف يحبسون فى سجون تخضع للتشريع الإسرائيلى، وللحكومة الإسرائيلية أن تعترض بما تملك من (فيتو) على أى عفو...».

---

(١) صحيفة هاآرتز فى ٢٢ من مايو عام ١٩٧٩ ص ١.

(٢) صحيفة معاريف، ٢٢ من مايو عام ١٩٧٩ ص ٤.

لقد نشط اغتصاب الأراضى، فالواقع أنه تم تسوير ٧٢٧,٠٠٠ سبعمائة وسبعة وعشرين دونما[١]، بحجة تخصيص أراضٍ للمناورات، وللمعسكرات الحربية، ومع أننا لن نحسب الأراضى اللازمة لبناء الطرق فإن «أكثر من ستة طرق مستقلة قد بنيت فى الضفة الغربية، وآخر بنى فى قطاع غزة، وهو أكبر من الطرق الستة» التى يجب أن تحيط بالمدن الرئيسة، أما «مراقبة شبكة المواصلات الأرضية فسوف تكون بوساطة الوزارة الإسرائيلية للنقل»، وفضلا عن ذلك «يقدم المحتل الماء إلى قطاع غزة، ويحتفظ بحق تخطيط استغلال موارد المياه فى الضفة الغربية».

وهناك توصيات أخرى ذات مغزى للجنة بن إليسار، منها أن: «المستعمرات يمكن أن تنشىء قوة شرطة محلية، وأن تحمل أسلحتها فى جميع تحركاتها»[٢].

وقد لخصت ميزانية هذه العملية مقدما، بصورة متميزة (وذات مغزى) — فى صحيفة «الأفريكانز» بجنوب إفريقية (Dis Transualer)، والخبيرة فيما يتعلق بالتفرقة العنصرية (apartheid) قالت الصحيفة: «ما الفرق بين الطريقة التى يحاول بها الشعب الإسرائيلى جاهداً أن يبقى على نفسه بين الشعوب غير اليهودية، وطريقة الأفريكانز (الأفارقة) فى محاولتهم البرقاء كما يريدون»[٣].

---

(١) الدونم يعادل ألف متر مربع.

(٢) هاآرتز فى ٢١ من مايو عام ١٩٧٩ ص ١.

(٣) هنرى كاتزو: «جنوب إفريقية – South Africa، وطن بلا أصدقاء» ذكره د. ستيفنز (الصهيونية وجنوب إفريقية والتفرقة).

ويتجلى نفس نظام التفرقة فى الأحوال الشخصية، كما يتجلى فى امتلاك الأراضى، إن الاستقلال الذاتى الذى يريد الإسرائيليون أن يمنحوه للفلسطينيين هو معادل الأحياء المغلقة bantoustants بالنسبة إلى السود فى جنوب إفريقية.

وكلين، عندما يحلل نتائج قانون «العودة» يطرح السؤال التالى: إذا كان الشعب اليهودى يتجاوز كثيراً سكان دولة إسرائيل، فإننا يمكن أن نقول عكس ذلك: إن كل سكان دولة إسرائيل ليسوا يهودا، إذ كانت البلاد تضم أقلية غير يهودية، ذات شأن، مكونة أساسا من العرب والدروز، وبناء على هذا فالسؤال الذى يُطْرَحُ هو: أن نعرف فى أى الظروف يمكن ألّا يعتبر وجود قانون للعودة أداة للتفرقة العنصرية، وهو قانون يؤيد تهجير جانب من السكان، جانب (محدد بانتمائه الدينى والعرقى)؟[1].

ويتساءل المؤلف بخاصة عما إذا كان الاتفاق الدولى على اطّراح جميع أشكال التفرقة العنصرية (وهو الذى ووفق عليه فى ٢١ من ديسمبر عام ١٩٦٥ فى الجمعية العامة للأمم المتحدة)، - لا ينطبق على قانون العودة، ثم يختم القاضى الجليل معالجته للمشكلة بنوع من الجدل (الديالكتيك)، نترك للقارىء مهمة الحكم فيها، فهو يقدم هذا التمييز الدقيق:

أما من حيث عدم التفرقة «فلا ينبغى أن يتخذ إجراء ما، ضد مجموعة خاصة، وقانون العودة شُرِع لصالح اليهود الذين يريدون الاستقرار فى إسرائيل، فهو ليس موجها ضد أية مجموعة، أو قومية، إن أحدا لا يرى متى يحتمل أن يكون هذا القانون عنصريا مفرقا»[2].

وها نحن أولا نقدم بيانا ماديا للوضع الذى خلقه هذا القانون (قانون العودة) - إلى القارىء الذى يوشك أن تصيبه الحيرة، أو الدهشة لهذا المنطق الوقح المتجرىء، الذى يعمد إلى القول فى لحظةٍ نزوة مفضوحةٍ: إن جميع المواطنين متساوون، ولكن بعضهم أكثر مساواة من الآخرين.

---

(١) السابق (٢) السابق.

إن هناك قانونا من أجل أولئك الذين لا ينتفعون بقانون العودة، وهو قانون الجنسية (رقم ٥٧١٢ لسنة ١٩٥٢)، وهو يخص (فى المادة ٣) «كل فرد كان قبل تأسيس الدولة مباشرة - رعية فلسطينية، وهو لا يصبح إسرائيليا بمقتضى المادة ٢ (التى تخص اليهود)، هؤلاء الذين يعنيهم هذا التلميح (وهم المعتبرون بلا قومية من قبل، أى بلا جنسية بالوراثة)، يجب أن يثبتوا أنهم كانوا يسكنون هذه الأرض من فترة كذا إلى فترة كذا، (علما بأن الإثبات الوثائقى مستحيل غالبا، لأن الأوراق ضاعت فى الحرب والرعب اللذين رافقا إنشاء دولة إسرائيل)، فإذا لم يكن ثمت إثبات فإن عليهم لكى يصبحوا مواطنين أن يسلكوا طريق «التجنس» الذى يقتضى مثلا «بعض المعرفة باللغة العبرية»، وبعد ذلك يعود الأمر إلى وزير الداخلية، الذى يوافق على منح الجنسية الإسرائيلية، (أو يرفض ذلك).

وباختصار، إن أى يهودى من باتاجونى Patagonie[1] يصبح بمقتضى القانون الإسرائيلى مواطنا إسرائيليا بمجرد أن يضع قدمه فى مطار تل أبيب، أما الفلسطينى، المولود فى فلسطين، من أبوين فلسطينيين، فيمكن أن يعتبر بلا جنسية، وليس فى هذا الموقف أية تفرقة عنصرية ضد الفلسطينيين، وإنما هو مجرد إجراء **لصالح** اليهود؟!! ...

فمن العسير إذن أن ننازع فى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، الصادر فى العاشر من نوفمبر عام ١٩٧٥ (وهو القرار رقم ٣٣٧٩ - XXX)، والذى يعرف الصهيونية بأنها:

«شكل من أشكال العرقية، والتفرقة العنصرية».

---

(١) بلد فى أمريكا الوسطى إلى الجنوب من شيلى والأرجنتين، وسكانها بدو رحل يعيشون على الرعى. (المترجم).

الفصـــل الثالـــث

السياسة الخارجية للدولة الصهيونية



المنطق الداخلى للصهيونية السياسية
التوسع بلا نهاية
دورها فى سياسة «الكتل»

تنبع السياسة الخارجية للتوسع والعدوان من المبادىء الأساسية للصهيونية، كما تنبع من سياستها العنصرية.

إن طرد السكان الفلسطينيين، ونهبهم، وإقامة المذابح لهم، حتى يُسْتَبْدَلَ بهم شعبٌ غريب، لا يمكن أن يؤدى إلا إلى إثارة السخط، ليس لدى أبناء البلاد الفلسطينيين فحسب، وهم الذين يعيشون فى فلسطين منذ أربعة آلاف عام، بل هو يثير أيضا الريبة فى مجموع العالم العربى أمام هذا المشروع الاستعمارى.

والواقع أنه منذ ولادة إسرائيل الصهيونية وضع الشرق الأدنى فوق النار والدم: لقد أعلن الغزو خمسة حروب، فى الأعوام: ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٨٢ م.

وهنا أيضا يحسن الرجوع إلى الصياغة الأولى لهرتزل، وهى مأخوذة من «الوعد» الكتابى: «من الفرات إلى نيل مصر»، وهو ما يعنى، لا فلسطين بأكملها فقط، **بل الأردن، وجنوب لبنان، وجزءا من سورية والعراق، وجزءا من العربية السعودية.**

وإن «القضمات» المتتالية: للقدس من الأردن، وللجولان من سورية، ولجنوب لبنان – تشهد بأن التهديد ليس وهما.

وليس كثيراً أن يقال: إن الواقع يؤكد أن دولة إسرائيل الصهيونية لم تحترم قط القانون الدولى، ولا التعهدات المبرمة معها.

ودولة إسرائيل هى الدولة الوحيدة التى قبلت فى الأمم المتحدة بشرط معين: كان ذلك فى الحادى عشر من مايو عام ١٩٤٩، فقد تعهدت – حتى تحصل على هذا الاعتراف الرسمى، بما يلى:

أولا : **ألا تمس وضع القدس.**

ثانيا : **أن تسمح للعرب الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم.**

ثالثا : **أن تحترم الحدود المثبتة بقرار التقسيم.**

بيد أن الدولة الصهيونية منذ إنشائها ترى أن كل قرار للأمم المتحدة، مثل أية معاهدة، هو «قصاصة ورق» فدافيد بن جوريون يعلن، وهو يتحدث عن قرار الأمم المتحدة بشأن التقسيم، أى: عن شهادة ميلاد دولة إسرائيل ذاتها، يقول : «إن دولة إسرائيل تعتبر أن قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧، هو باطل، وكأن لم يكن»[1].

ويتسم تطور الصهيونية فى سياستها الخارجية بمرحلتين :

أ - قبل الحرب العالمية الثانية، وكانت الصهيونية تتقدم، مستخدمة أهداف القوى الاستعمارية المختلفة، حسب تكتيك هرتزل : «سوف نكون فى آسيا قلعة متقدمة للغرب»، (الدولة اليهودية).

ب - وبعد الحرب العالمية الثانية، سوف تتقدم دولة إسرائيل الصهيونية لتجعل من نفسها أداة للإمبريالية، أقوى أداة : فهى أداة للولايات المتحدة، ولحسابها، وهى بفضل الموقع الاستراتيجى الفريد لفلسطين سوف تراقب، لا قناة السويس فحسب، وإنما هى تراقب - كما قال شارون - مضايق الدردنيل، ومجموع الخليج.

هذا الدور الاستراتيجى العالمى، الرئيسى فى مواجهة الكتل[2]، يبين أن إسرائيل تملك أن تعلن دون خوف من عقاب - أهدافها فى التوسع بلا نهاية، تحت «ستار» كتابى مقدس.

إن زعماء إسرائيل لم يكفوا عن «تبرير» سياستهم التوسعية، وعدوانهم، واغتصابهم، من خلال أسطورة «إسرائيل الكبرى»، التى وُعِدَ بها الأجداد.

---

(١) الهامش ناقص فى الأصل «المترجم».

(٢) يرى الجنرال جورج ج كيجان، رئيس الخدمات السرية للجيش الأمريكى أن إسرائيل هى «المفتاح الوحيد لمعادلة الإمبريالية السوفيتية فى البحر الأبيض المتوسط» جيروزاليم بوست فى ٢ من أغسطس عام ١٩٧٧.

يقول موشى ديان فى أغسطس عام ١٩٦٧: «إذا كنا نملك فى أيدينا الكتاب المقدس، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب الكتاب المقدس، فيجب أيضا أن نملك الأرض المقدسة، أرض القضاة والكهنة الرؤساء».

من أجل هذه المبادىء يجب أن تكون الحدود مرنة.

«وخذوا الإعلان الأمريكى للاستقلال، إنه لا يتضمن أى ذكر للحدود الأرضية، وعليه فلسنا مضطرين إلى تعيين حدود الدولة»[1].

ويذكر بن جوريون فى إشارة معبرة ذلك «السلف» الأمريكى، الذى ظلت حدوده طيلة قرن فى الواقع – متحركة، (حتى المحيط الباسفيكى)، كلما حقق نجاحا فى «طرد الهنود» لتكديسهم، والاستحواذ على أرضهم.

ويقول بن جوريون بكل وضوح: **إننا لا يعنينا التشبث بالحالة الراهنة أو الوضع القائم، فإن علينا أن ننشىء دولة ديناميكية موجهة نحو التوسع».**

والممارسة السياسية تتطابق مع هذه النظرية الفريدة: أخذ الأرض وطرد السكان منها، وتلك هى شريعة الغاب التى أقامتها الدولة الصهيونية، لأن هذا هو جوهرها ذاته منذ البداية، فلم يحدث مرة أن احتُرِمَ قرارُ الأمم المتحدة بشأن تقسيم فلسطين، من جهة الزعماء الإسرائيليين، ومن قبلُ رأينا الكوماندوس الصهاينة يستولون على الأراضى المخصصة للعرب، فيما بين قرار التقسيم الصادر فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧، والنهاية الفعلية للحماية البريطانية، فاستولوا على يافا وعكا.

وعندما حاولت الدول العربية التدخل لحماية الفلسطينيين من المذابح، من أمثال مذبحة دير ياسين (فى ٩ من إبريل عام ١٩٤٨) – كانت فرصة مواتية لزعماء الدولة الصهيونية ليغتصبوا أراضى جديدة: أعطتهم الأمم المتحدة ٥٦٪ من أرض فلسطين فاحتلوا منها ٨٠٪ فى نهاية الحرب الأولى الإسرائيلية – العربية.

---

(١) جيروزاليم بوست، فى ١٠ من أغسطس ١٩٦٧.

إن أسطورة «الشعب الصغير» الذى يتهدده العملاق العربى، والذى لن يبقى إلا إذا تحقق له انتصار عسكرى - هذه الأسطورة لم تثبت أمام الوقائع: فبصرف النظر عن الوضع الراهن الذى يجعل الجيش الإسرائيلى يملك أسلحة ومعدات للحرب تتفوق تفوقا ساحقا على ما لدى مجموع الدول العربية، كما وكيفا، فإن الواقع الذى كان فى حرب ١٩٤٨ يعبر عن هذا الوضع نفسه، ذلك أن القوات التى تجمعت من مصر، وسورية، والأردن، ولبنان والعراق كانت أقل من ٢٢,٠٠٠ اثنين وعشرين ألفا من الرجال ضد ٦٠,٠٠٠ ستين ألف جندى لإسرائيل.

بل إن هذه الدفعة الأولى يبدو أنها لم تكن مقنعة للقادة الإسرائيليين، فقد نشرت صحيفة نيويورك تيمس فى التاسع من مارس عام ١٩٦٤ حديثا لبن جوريون (وكان آنذاك متقاعداً)، قال فيه: «إن أراضى إسرائيل كان يمكن أن تكون أكبر من هذا لو أن الجنرال موشى ديان كان رئيسا للأركان إبان حرب عام ١٩٤٨»، أما الجنرال ألون، الذى كان يتولى قيادات مهمة أثناء حرب ١٩٤٨ فقد قال: «لقد كنا على وشك الانتصار عندما أصدر رئيس الوزراء ووزير الدفاع بن جوريون الأمر بإيقاف تقدم جيشنا، (خضوعا لضغط قوى من الرئيس ترومان)... من الليطانى (نهر لبنان) فى الشمال، حتى صحراء سيناء فى الجنوب الغربى، إن بضعة أيام من القتال على الأكثر، كانت كفيلة بأن تمكننا من تحرير البلد كله».

ولم يكن هذا سوى إرجاء للأمر، فعندما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس رأى قادة إسرائيل الصهاينة فى ذلك فرصة توسع جديد فى الأرض، فتحالفوا مع الإنجليز الذين كانوا حراصا على القناة، ومع الحكومة الفرنسية التى كانت تؤمل، وهى فى غمرة الحرب الجزائرية، أن تضرب فى مصر زعماء حرب التحرير، وحلفاءهم، ودبرت العملية فى فرنسا، دبرها من الجانب الإسرائيلى موشى ديان وشيمون بيريز، ومن الجانب الفرنسى الجنرال شال (وهو أحد رؤساء مؤامرة الجنرالات بالجزائر فيما بعد)، والحكومة الفرنسية[1].

---

(١) ن لو لافى: موشى ديان: سيرة - Biographie ص ١٥٦.

ثم كان كبح جماح هذه العملية بجهد مشترك أمريكى وسوفييتى وتوقفت الحملة الجديدة، ولكن «الهدف الكبير» ظل ماثلا، وقد كتب مناحم بيجن: «**لسوف ترد أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل، كاملة، وإلى الأبد**»[1].

وفى عام ١٩٦٧ قرر الزعماء الإسرائيليون قفزة جديدة إلى الأمام، فالحرب هى طريقتهم لحل مشكلاتهم: لقد كان لديهم عام ١٩٦٧ - ٩٥,... خمسة وتسعون ألف عاطل من أصل السكان العاملين الذين يبلغون ٩٥٠,... تسعمائة وخمسين ألفا، وبدأ النزوح عن إسرائيل يتجاوز الهجرة إليها (فترك عشرة آلاف مواطن إسرائيل فى السنة)، وبلغت رءوس الأموال المتحصلة من يهود الشتات (وبخاصة الأمريكيون) أدنى مستوى لها، فوقوع حرب مظفرة كفيل بحل كل هذه المشكلات مرة واحدة: تعبئة، واحتلال أراض لتصفية البطالة، وصراخ على تهديدات أمن إسرائيل، لتنشيط جمع الأموال، وانتصارات تعيد الثقة إلى المهاجرين.

إن فكرة «حرب وقائية» كانت دائما فى منطق النظام الصهيونى: فمنذ ١٢ من أكتوبر عام ١٩٥٥ كان مناحم بيجن يعلن فى الكنيست:

«**أعتقد اعتقادا عميقا أنه يجب شن حرب وقائية ضد الدول العربية، دون تردد، وبذلك نبلغ هدفينا:**

أولا: تحطيم القوة العربية.

وثانيا: توسيع أراضينا.

وبدأت الحرب الوقائية عام ١٩٦٧، حرب الأيام الستة بعملية شبيهة بعملية اليابانيين الفاشيين، الذين باغتوا فى السابع من ديسمبر عام ١٩٤١ الأسطول الأمريكى فى المحيط الباسفيكى، فى بيرل هاربر (بجزر هاواى)، دون سابق إعلان، فحطموه، ففى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ حطمت الأسراب الإسرائيلية دون إعلان للحرب - الطيران المصرى على الأرض.

---

(١) مناحم بيجن: قصة تمرد الأرجون - «The revolt Story of the Irgoun» ص ٣٣٥، وقد أوردت صحيفة النيويورك تيمس، عدد ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٦٧ ملاحظة للجنرال ديجول، هى: «لقد بدا الإسرائيليون فى قضية السويس شعبا شرسا متعطشاً إلى التوسع».

وفى الثانى عشر من يونيو عام ١٩٦٧ أعلن رئيس الوزراء ليفى أشكول فى الكنيست أن «وجود دولة إسرائيل كان على شفا جرف هار، ولكن آمال الزعماء العرب فى إزالة إسرائيل قد أبيدت».

إن أحداً من القادة الإسرائيليين لم يكن يستطيع أن يسلم بهذا الكذب، خارجيا أو داخليا، وقد شنع به أحد الوزراء القدامى فى إسرائيل، موردخاى بنتوف، علناً حين قال: «إن كل هذه القصة عن خطر الإبادة مخترعة، ومضخمة بعد فوات الأوان لتبرير الاستيلاء على أراض عربية جديدة»[١].

وهو ما أكده من جانب العسكريين الجنرال عيزر وايزمان، حين قال: «إنه لم يوجد مطلقا أى خطر من حدوث إبادة»[٢]، والجنرال متتيان بليد حين قال: «إن الفكرة القائلة بأن خطر الذبح الجماعى كان معلقا فوق رءوسنا فى يونيو عام ١٩٦٧، وإن إسرائيل كانت تقاتل دفاعا عن وجودها المادى - لم تكن سوى خدعة، ولدت، ونمت بعد الحرب»[٣]، وحتى الجنرال رابين، كتب يقول: «**لست أظن أن ناصر كان يريد الحرب، فإن الفرقتين اللتين أرسلهما إلى سيناء فى ١٤ من مايو لم تكونا كافيتين لشن هجوم ضد إسرائيل، هو يعرف ذلك .... ونحن نعرفه**»[٤].

لقد أتاح العدوان، وما صاحبه من كذب، لإسرائيل أن تحتل سيناء، وهو كذب، لأن الممثلين الرسميين للدولة الصهيونية لم يكفوا عن تأكيد أنهم لم يكونوا يريدون أى استيلاء.

---

(١) موردخاى بنتوف: «الحميزمار - AL Hamismar» ١٤ من إبريل عام ١٩٧٢.

(٢) عيزر وايزمان، صحيفة معاريف فى ١٩ من إبريل عام ١٩٧٢.

(٣) هاآرتز فى ١٩ من مارس عام ١٩٧٢.

(٤) السابق (ذكرته صحيفة لوموند فى ٣ من يونيو عام ١٩٧٢).

ويعلن ممثل إسرائيل فى الأمم المتحدة، ميخائيل كوماى، يوم ٨ من نوفمبر عام ١٩٦٦: – أن «إسرائيل لا تطمع فى أية أراض لجيرانها»[١]، ويقول موشى ديان فى حديث للإذاعة يوم ٥ من يونيو عام ١٩٦٧: «ليس لدينا أى مشروع للغزو» فإذا قارنا ببساطة هذا القول بما أعلنه الجنرال هود، الذى كان قائداً للطيران الإسرائيلى، فى قوله: «**ستة عشر عاما من الاستعدادات نفذت فى ثمانين دقيقة» (مشيراً إلى هجوم الخامس من يونيو ١٩٦٧) «لقد كنا نعيش مع هذه الخطة، وكنا نستكملها دائما»**[٢].

لقد كان الغدر مربحا: فقد احتل الصهاينة، بعد عام ١٩٦٧، أراضى تزيد عن ثلاثة أضعاف الأراضى التى كان مشروع التقسيم قد حددها لها عام ١٩٤٧، وهكذا عادت إليها الشهية إلى غزوات جديدة.

ولقد كان موشى ديان يعلن منذ شهر يوليو ١٩٦٨: «إن شعبنا عمل خلال المائة عام الأخيرة على بناء هذا البلد، وهذه القومية، كما عمل على توسعها، حين زاد فى استقدام مجموعات اليهود، وحين مضى فى إنشاء المزيد من المستعمرات لتوسيع حدودنا، فلا مجال للقول، لأى يهودى، بأن هذا العمل قد انتهى، ولا مجال للقول، لأى يهودى، بأننا قريبون من نهاية الطريق».

وموشى ديان نفسه هو القائل، عام ١٩٦٧: «إن آباءنا قد بلغوا الحدود التى اعترف لنا بها التقسيم، وقد بلغ جيلنا حدود عام ١٩٤٩، والآن، لقد نجح جيل «حرب الأيام الستة» فى بلوغ السويس، والأردن، ومرتفعات الجولان، إن الأمر لم ينته، فلنا وراء خطوط وقف إطلاق النار الحالية حدود جديدة، ولسوف تمتد هذه الحدود فيما وراء الأردن، وربما إلى لبنان، وربما أيضا إلى سورية الوسطى»[٣].

---

(١) وثائق الأمم المتحدة A/SPC. PV 505.

(٢) صحيفة الصنداى تيمس – لندن، ٢٦ من يوليو عام ١٩٦٧ ص ٧.

(٣) إعلان منشور فى المجلة الأسبوعية الإسرائيلية: هاعولام هزه، واقتبس فى التيمس بلندن – عدد ٢٣ من يونيو ١٩٦٩.

وأجابت جولدامائير عام ١٩٧٢ فى حديث، عن سؤال:
– ما الأراضى التى تعتبرونها ضرورية لأمنكم؟.
– جولدا مائير: إذا كنتم تريدون أن تقولوا: إننا يجب أن نرسم خطا، فإننا لم نفعل ذلك، ولسوف نفعله عندما يتعين، ولكن إحدى النقاط الأساسية فى سياسة إسرائيل هى أن حدود الرابع من يونيو عام ١٩٦٧ لا يمكن أن تعود فى معاهدة السلام، فلابد من تغييرات فى الحدود، ونحن نريد تغييرات فى حدودنا، جميع الحدود، من أجل أمننا»[١].

وبعد الوقفة العنيفة عام ١٩٧٣ كان التصعيد فى السياسة الاستعمارية لإسرائيل يتتابع بعناد، ولا سيما بعد اتفاقات كامب ديفيد، فى سبتمبر عام ١٩٧٨ (ميونخ المصرية)[٢]، فهى التى جعلت من الممكن مضاعفة أعداد المستعمرات فى الأراضى المحتلة، وضم القدس، وضم الجولان، وفى عام ١٩٨٢ غزو لبنان.

إن الذى يضفى أهمية على العدوان ضد لبنان، صيف عام ١٩٨٢ – لم يكن صفته الاستثنائية، ولا لأنه كان أمرا غير متوقع، ذلك أن العملية كانت معدة منذ عشرات السنين، كانت مركوزة فى منطق صراع الاستعمارية، والفاشية الإسرائيلية، لما سمى بالمجال الحيوى – Lebensraum، أما الجديد فهو أنه للمرة الأولى بدأ عدد كبير من اليهود فى العالم، وبعض اليهود فى إسرائيل ذاتها، وملايين من الغربيين – يدركون الخديعة التى كانوا ضحاياها منذ أكثر من ثلث قرن: لقد شق عليهم أن يروا المذابح لعشرات الألوف من الرجال، والنساء، والأطفال والشيوخ، وأن يعاينوا هدم بيروت، وفضيحة صبرا وشاتيلا، لقد شاهدوا فيما وراء الأساطير التى أعموهم بها – الوجه الحقيقى

---

(١) معاريف، ٧ من يوليو عام ١٩٦٨. وقد أشار الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل فى مقاله بأخبار اليوم فى ١٩٨٦/٢/٢٢ – إلى أن إسرائيل مازالت تحتل من الأراضى المصرية أربع عشرة نقطة إلى جانب (طابا): وهى جزء من تعديل حدودها مع مصر. رغم معاهدة السلام. (المترجم).

(٢) يشير المؤلف بهذه العبارة إلى مؤتمر ميونخ الـ.. انعقد فى سبتمبر عام ١٩٣٨ بين رؤساء الحكومات: البريطانية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وانتهى باتفاق يفرض على تشيكوسلوفاكيا التنازل عن أراضى السوديت للرايخ الثالث، فشجع هذا ألمانيا على سياستها التوسعية، وهو ما حدث على إثر اتفاقات كامب ديفيد بالنسبة لإسرائيل (المترجم).

الاستعمارى العنصرى، وهو يرتسم، ويتجول تدريجيا إلى وجه فاشى لنظرية الصهيونية السياسية، والممارسة الواقعية لدولة إسرائيل.

لقد صار الكذب فاضحا، حتى أصبح من العسير، رغم كل الأقنعة، ورغم تزييف الصحافة، والتلفزيون – ألاْ يُلْمَح الواقع، وما ارتسم من رعب على قسماته.

إن حرب لبنان تجلو هذه الحقيقة الأساسية: فكل حرب تشرع فيها إسرائيل، منذ إنشائها هى مسجلة فى المنطق الداخلى للنظرية الصهيونية.

ولم تخل حرب من هذه الحروب من أن يكون سببها هو «الرد على تهديد خارجى»، من «داود الإسرائيلى الصغير» ضد «جالوت العربى»، ولسوف نرى ذلك عندما ندرس تقرير القوى العسكرية.

ولم تخل حرب من هذه الحروب من أن يكون سَبَبَها «عدوانٌ» ما، وجميع ما يساق من تِعَلّاتٍ قد افتضح كذبه، وهو فى حالة لبنان واضح بصورة خاصة.

لقد أثار الزعماء الإسرائيليون فى بداية الأمر، لتبرير إعلان الحرب – الجريمة التى ارتكبت فى لندن ضد أحد دبلوماسييهم، وهى جريمة نسبت فى الحال إلى منظمة التحرير الفلسطينية (OLP)، وقد قدمت السيدة مرجريت تاتشر بنفسها أمام مجلس العموم الدليل على أن هذه الجريمة كانت من عملِ عدوٍّ مُعْلَنٍ لمنظمة التحرير الفلسطينية، وبعد اعتقال المجرمين، وإجراء التحقيق البوليسى مباشرة أعلنت: «أن فى قائمة الشخصيات المرشحة للقتل، والتى عثر عليها مع مرتكبى الجريمة، يوجد اسم مسئول منظمة التحرير الفلسطينية فى لندن... وهذا يدل على أن المهاجمين لم يكونوا كما ادعت إسرائيل مدعمين من قبل منظمة التحرير الفلسطينية... ولست أعتقد أن الهجوم الإسرائيلى على لبنان عمل من أعمال الردع المعقبة على هذه الجريمة: فإن الإسرائيليين وجدوا فيها تَعِلَّةً لتغطية أعمالهم العدوانية»[1].

---

(١) انترناشيونال هيرالد تريبون، عدد ٨ من يونيو عام ١٩٨٢.

هذا التكذيب للدعاية الإسرائيلية مرَّ دون أن يلاحظ فى فرنسا على حين أنه حطم أسطورة «الدفاع المشروع» التى استخدمت تعلة لهذا العدوان الجديد.

ثم إن الحكومة الإسرائيلية عَمَّدَت العملية بعد ذلك، بشعار «السلام فى الجليل»، ذاكرة ما زعمته انتهاكا لاتفاقات «وقف إطلاق النار» من جانب الفلسطينيين، ولدينا فى هذا الصدد شهادة مراسل صحيفة «واشنطن بوست» فى تل أبيب جوناثان رندال، وهى شهادة قاطعة:

«لقد قدمت السفارة الإسرائيلية فى واشنطن قائمة باثنين وثلاثين انتهاكا مزعوما، واضحا، وكشف فحص متعمق للوثيقة أنها كلها كانت داخل المنطقة العازلة الحدودية، التابعة للمقدم حداد، والتى تغير اسمها إلى «لبنان الحر»، وأول انتهاك إسرائيلى لوقف إطلاق النار وقع يوم ٢١ من إبريل، وقتلت خلاله الطائراتُ الحربيةُ الإسرائيلية عشرين شخصاً، وجرحت أكثر من ستين، وكان تنفيذه على سبيل الانتقام لموت ضابط كان قد مَرَّ بسيارته فوق لغم فى الأراضى الواقعة وراء شريط حداد، تحت رقابة اسمية من الأمم المتحدة، فمن الناحية النظرية على الأقل لم يكن لأى إسرائيلى مايفعله هناك، بل ولا عند حداد، ولم تُرُدَّ أو تُقاوِمْ منظمة التحرير الفلسطينية، وفى ٩ من مايو، ومن الجيب الذى كانت تحتله فى ضواحى صور أطلقت بمساعدة حلفائها من اليساريين اللبنانيين، ثلاثين قذيفة فى اتجاه إسرائيل، بيد أن ذلك لم يكن إلا بعد أن قصفت طائرات إسرائيلية قصفا عنيفا بلدتى الدامور والزهرانى، عصر يوم، دون سبب ظاهر، ولقد كانت واشنطن تعرف حتى الآن معرفة جيدة إلام تعزى هذه المبالغات الإسرائيلية، التى يقدمون عليها دون كثير من التحفظ، وهم يبلغونها إلى سفارة الولايات المتحدة ببيروت، كأنما ليعرفوها أن من غير المفيد أن تستمر فى إرسال برقيات تلح على إقرار الحقيقة»(١).

---

(١) جوناثان راندال «حرب الألف عام – La guerre de mille ans» ط. جراسيه ١٩٨٤ ص ٢٦٥.

وفى السادس من يونيو عام ١٩٨٢، وبعد يومين من القصف العنيف لجنوب لبنان – أعلنت الحكومة الإسرائيلية أن هدف العملية «سلام الجليل» هو أن تعزل منطقة منزوعة السلاح بعمق أربعين كيلو مترا (ما يقرب من ثلث الأرض اللبنانية)، من أجل حماية المنطقة الحدودية بشمال إسرائيل.

ولكى نفهم أن غزو لبنان لا علاقة له بحادثة لندن، ولا بأى تهديد للجليل – يكفى أن نضع الهدف اللبنانى فى أفق المشروع الصهيونى «لإسرائيل الكبرى».

ففى وقت لم يكن أى دبلوماسى قد هوجم، وحيث لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية موجودة، ولا «إرهاب» يهدد الجليل، نجد أن غزو لبنان كان قد برمج منذ وقت طويل فى قائمة الاغتصابات الصهيونية: وقد كتب بن جوريون فى صحيفته بتاريخ ٢١ من مايو عام ١٩٤٨، يقول: «**إن نقطة الضعف فى التحالف العربى هى لبنان، ذلك أن التفوق الإسلامى فى هذا البلد هو تفوق مصطنع، يمكن أن يُقْلَب بسهولة: إن دولة مسيحية يجب أن تقوم فى هذا البلد، على أن تكون حدودها الجنوبية نهر الليطانى، ولسوف نوقع معاهدة تحالف مع هذه الدولة، ثم إننا عندما نحطم قوة الجامعة العربية، وننسف عمان، سوف نكنس الضفة الغربية، وبعد ذلك تسقط سوريا، وإذا ما جرؤت مصر على أن تشن علينا الحرب فسوف نضرب بورسعيد، والاسكندرية، والقاهرة... وبذلك ننهى الحرب، ونكون قد أخذنا بثأر أجدادنا من مصر، ومن الأشوريين، والكلدانيين**»[1].

وعندما شكلت حكومة بيجن (الأول من أغسطس عام ١٩٨١)، حدد وزير الحرب الجديد أريل شارون أهدافه دون أدنى علاقة «بسلام الجليل»، وكان قد كتب عام ١٩٧٤ يقول:

---

(١) ذكره ميخائيل بارزوهر فى «النبى المسلح» سيرة بن جوريون، ص ١٣٩.

«**يجب أن نضرب ، نضرب دون توقف !!** يجب أن نضرب الإرهابيين فى كل مكان ، فى إسرائيل ، وفى البلاد العربية ، وماوراءها ، أنا أعلم كيف يعملون ، لقد فعلته أنا نفسى ، ولاينبغى أن يكون فعلنا بعد عملياتهم فحسب ، بل يكون فى كل زمان ، وفى كل مكان ، وإذا ماعلمنا أن بعضهم موجود فى بلد عربى معين ، أو فى أوربا فيجب أن نصل إليه هناك ، ... ليس فى وضح النهار بل فجأة يختفى فلان ... أو يوجد ميتا ، وفى أماكن أخرى يطعن بعضهم بخنجر فى ناد ليلى أوربى [1] ... » .

ولدى أريل شارون منذئذ وسائل هذه السياسة ، باعتباره وزيرا للدفاع .

وهنا أيضا شهادتان متفقتان ، ولايمكن الشك فيهما ، شهادة الصحفى الإسرائيلى جوناثان رندال ، وشهادة سفير فرنسا فى بيروت ، إبان الحرب اللبنانية ، بول مارك هنرى ، وهما تدلان على بطلان تعلة «سلام الجليل» ، وعلى الهدف من «الأربعين كيلومترا» ، قال : «**ولم تكد تمضى بضعة أشهر على وصول شارون إلى الوزارة ، حتى وجدناه يعلن على الملأ أن منطقة النفوذ العسكرى لإسرائيل فى الثانينيات ، يجب أن تمتد بعيدا ، إلى ماوراء العالم العربى ، لتضم تركيا ، وإيران ، وباكستان ، ثم تستطيل حتى إفريقية الوسطى والشمالية**» . **ثم أعلن أن «إسرائيل هى القوة العسكرية الرابعة فى العالم»** . لقد كان شارون – شأن كثيرين قبله ، وفى وضع مماثل لهم – يميل إلى الأخذ بالسياسة الهجومية ، وهو يفضل أن يخوض معاركه فى أرض أعدائه ، وأهدافه محددة بوضوح ، كيما يحقق لإسرائيل هيمنة على الشرق الأوسط كله . وهو يهدف إلى سحق منظمة التحرير الفلسطينية ، باعتبارها قوة عسكرية وسياسية فى لبنان ، والاستيلاء على أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة اللذين تحتلهما بلاده ، وإسقاط الملك حسين ليُعْطَى الأردن للفلسطينيين ،

---

(١) صحيفة يديعوت أحرنوت ، عدد ٢٦ من مايو عام ١٩٧٤ .

الذين أصبحوا يكونون ثلثى شعبه ، وهو يزمع بعد ذلك أن يهز استقرار سورية والعراق ، ويشيع فى الممالك المحافظة المؤيدة للأمريكيين فى الخليج الفارسى مزيجا من الرعب والعرفان ، كيما يخلصها مما يعده الإسرائيليون ابتزازا من جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، وحتى يحميها من تطاول الثورة الإيرانية .

هذا السلام العبرانى « Pax Hebraica » يأخذ على عاتقه تحقيق الحلم القديم ، بمحو سيطرة المسلمين السنيين على مجموع الشرق الأوسط ، إن لم يكن بأن ينشأ من كل جزء من الأجزاء دولة حسنة الإعداد ، وتابعة ، محكومة بالأقليات الدينية ، فليكن بأن يتم تشجيع مطامح هذه الأقليات [١] » .

ويضيف السفير الفرنسى تحديدا يبين بكل وضوح كيف أن هذه العملية دخلت فى إطار ، كان موضوع تأمل زمنا طويلا ، هو إطار مشروعات الزعماء الأمريكيين عن الشرق الأدنى ، ولاسيما عن لبنان ، وهى مشروعات وافق عليها طبعا الزعماء الصهاينة . وقد كتب يقول : «إن خطة كيسنجر كانت ترى على وجه التحديد أن حل أزمة الشرق الأدنى يتمثل فى إعادة توزيع كلى للخرائط الأرضية . وهو أمر كان فى الواقع مطروحا للبحث الكامل فى التسوية الكبرى عقب الحرب الأولى ، وأُكّدتْ عدالتهُ عام ١٩٤٥ ، وكل مايستهدفه هو توفير الشرعية ، والاستقرار النهائى لدولة إسرائيل ، فى حدود معترف بها من الجميع ، وحيث تكون دولة إسرائيل محوطة بدويلات مستقلة ، ذات صبغة عرقية ، وعقائدية تنتمى إلى الأقليات . وفى إطار هذا الهدف ، الذى هو جوهر مايريده كثير من المقاتلين الصهاينة ، بما فيهم الجنرال شارون ، ومناحم بيجن ، يستقر الفلسطينيون نهائيا فى جنوب لبنان ، تحت الرقابة المباشرة وغير المباشرة لإسرائيل ، ثم يتكتل فى الشمال لبنان صغير يحكمه المارونيون ، ذو علاقة وثيقة مع دويلة درزية . أما فيما يتعلق بالسلطة العلوية فى سورية ، وفى شمال لبنان ، فقد رئى أن تثبّت ، وتدعم فى دولة مستقلة

---

(١) رندال . السابق ص ٢٦٣ .

ذاتيا ، موحدة باسم سورية التى تسترجع حدودها التاريخية ، وعلى أن تكون الجولان ثمن هذا التنازل الجسيم (١) »

فليس العدوان ضد لبنان ، على يد بيجن ، وشارون وعصابتهما سوى فصل من فصول القصة ، قصة مشروعات تفكيك كل بلاد الشرق الأوسط ، فى تمديد «بلقنة» المنطقة ، بوساطة الاستعماريين الإنجليز والفرنسيين ، الذين تنوب عنهم الولايات المتحدة ، وأيضا بوساطة الاستعمارية الصهيونية ، التى تتكامل فى إطار هذه الخطة تماما .

. ولقد درس السفير الفرنسى عام ١٩٨١ إعداد حرب عام ١٩٨٢ ، وكتب يقول : إن مجموعة القيادة الإسرائيلية : «مُكَوَّنٌ فى مدرسة الحرب الدائمة ، وهو مقتنع بأن أمن إسرائيل لايمكن أن يوجد بضمان المجتمع الدولى ، ولكنه يوجد فقط بتحقيق إسرائيل الكبرى ، المحمية بمنطقة أمن فى الجنوب والشرق والشمال» .

إن عام ١٩٨١ ، على الرغم من الهدنات التى اتفق عليها فيليب حبيب – لم يكن فى نهاية الأمر سوى إعداد طويل للحرب المكشوفة عام ١٩٨٢ : إنزال بالهليوكبتر قريبا من النبطية ، وغارات إسرائيلية على معسكرات الفلسطينيين فى جنوب لبنان ، ثم على الضاحية الجنوبية فى بيروت ، وقصف لمواقع قوة الدفاع العربى FADفى البقاع ، وأخيرا أزمة الصواريخ التى تشير إلى المواجهة المباشرة بين سورية وإسرائيل بسبب لبنان ، وتبلغ هذه الأعمال كلها أوجها بالضربة الجوية فى ١٦ و ١٧ من يوليو ١٩٨١ ، فحطمت خمسة كبارٍ استراتيجية تربط جنوب لبنان بشماله ، وقصفت بيروت الغربية ، وأحياءها الشعبية (٢) » .

---

(١) بول – مارك هنرى : «بستانيو الجحيم Les Jardiniers de L'enfer» ط . أوليفيه اوربان ، باريس ١٩٨٤ ص ١٤٠ .

إن سبق التصميم، وهذا المنطق الداخلى للصهيونية يؤكد وقوعهما شاهدٌ ثالث لا يمكن اتهامه، هو شيمون شيفر، الصحفى الإسرائيلى، الذى ظهر كتابه أولًا بالعبرية فى إسرائيل، فأثار فيها اضطرابات عديدة، دون أن يكذب شىء من أخباره، قال: «لم تكن حرب لبنان ممكنا تلافيها، لقد كانت مسجلة بعمق فى المبادىء الأساسية لصانعيها: مناحم بيجن، وأريل شارون، ورفائيل إيتان، ولقد نبعت من أحداث المنطقة منذ توقيع اتفاقات كامب ديفيد بين إسرائيل ومصر.

وقد نتج موقف بيجن من فكرة ثابتة عنده... فكرة حرب وقائية للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان، «فلم يعد مجال لحرب استنزاف» كما فعل أسلافه، وكان يبرر فكرته على هذا النحو: خلال صيف عام ١٩٨١ حطمت إسرائيل المفاعل النووى العراقى، ورغم التوقعات المتشائمة التى كانت تنتظر رد فعل دولى عنيف، فإن شيئا لم يحدث.

وقد طبق شارون وإيتان على الواقع المبادىء الأساسية لبيجن، وهى مبادىء كانا يقتسمانها معا، وقد كانا جرَّباً القوة بشكل[1] مؤثر.

وأخيراً كانت التعلة هى «الدفاع عن المسيحيين» المهددين بالإبادة، وهى تعله لم تكن بأقل زورا، ويشهد رندال بوقوع مذابح، نظمها الكتائبيون، وبخاصة خلال عامى ١٩٧٥، ١٩٧٦.

«وقد قتلت الميلشيات المسيحية مئات من المدنيين والأكراد، واللبنانيين المنتمين إلى طائفة المسلمين الشيعة، والفلسطينيين، وأغلبهم كان مجردا من السلاح، وكان ذلك فى مذبحة الكارنتينا، وقد ارتكبت على خطوتين من مبنى القوات اللبنانية، حيث كانت تعقد مجلسها الحزبى.

لقد كانت الكارنتينا أول مذبحة لبنانية أشهدها، فالميليشيات كانت تحمل حول أعناقها صليبا كبيراً من الخشب. وقد تعاطوا الحشيش، أو الكوكايين،

---

(١) شيمون شيفر: «عملية كرة من الثلج - «opération boule de neige (أسرار التدخل الإسرائيلى فى لبنان) ط . J . C لتيس - باريس ١٩٨٤ ص ٢٨١ - ٢٨٣.

وبعضهم كان يضع خوذة مأخوذة من بقايا النازيين ، وهم يقتلون بقلوب فرحة » (١) .

ثم يضيف : « منذ عام ١٩٧٥ كانت أغلبية الموتى اللبنانيين مسلمين لا مسيحيين ، وفى عام ١٩٨٢ ، ولا سيما منذ الغزو الإسرائيلى ، لم يفقد حياته من المسيحيين سوى عدد ضئيل ، وكان السبب أيضا مجرد سوء الحظ ، على حين أن العملية قد أصابت ، طبقا للتقديرات اللبنانية تسعة عشر ألفا من الضحايا ، أغلبهم لبنانيون ومدنيون (٢) .

إن كل هذه التعلات والأكاذيب التى سيقت لتبرير العدوان عام ١٩٨٢ قد أسفرت بوجهها الحقيقى عندما عرف أن هذه الغزوة قد أعدت منذ ثلاثين عاما .

والدليل على ذلك قدمه « الجورنال » الذى كان يصدره رئيس الوزراء القديم فى إسرائيل ، موشى شاريت ، فقد نشر هذا « الجورنال » بالعبرية عام ١٩٧٩ ، على يد ابن موشى شاريت ، رغم جهود الزعماء الإسرائيليين الحاليين لمنع نشره نظرا إلى فداحة التكاليف .

وعلى ضوء الأحداث الراهنة التى تكشف هذه الصحيفة عن أسبابها العميقة فإن هذا النص يعطينا فى تحليل التكهن وضوحاً ملحوظاً ، يقول النص :

فى ٢٧ من فبراير عام ١٩٥٤ ذكر شاريت أن بن جوريون ، رئيس الوزراء السابق ، والذى استقال حديثا ، وبنحاس لافون ، وزير الدفاع ، وموشى ديان رئيس أركان الحرب – كانوا يحلمون بانقلاب فى سورية لاحتلال لبنان ، وكان بن جوريون يؤكد أنه حتى ولو احتل العراق سورية ، وهو ما يبدو ممكنا ، « فسوف تكون هذه لحظة إثارة لبنان ، أعنى : المارونيين ودفعهم إلى أن يعلنوا دولة مسيحية » .

---

(١) رندال – السابق ص ٢٨ (٢) السابق .

واحتج شاريت، قائلا: «لقد قلت إن هذا حلم فارغ، فالمارونيون منقسمون، والذين يميلون إلى الانفصالية المسيحية ضعاف، ولا يجرءون على محاولة شيء، إن لبنان مسيحيا سوف يضطر إلى التخلى عن منطقة صور، وطرابلس، والبقاع، وليست هناك قوة تستطيع أن ترد إلى لبنان أبعاده التى كانت قبل الحرب العالمية الأولى، وبذلك يكون لبنان قد فقد كل حيويته الاقتصادية، وقد أجابنى بن جوريون غاضباً، فبدأ بعرض تبرير تاريخى للبنان صغير، فلو أن أمراً حدث لما جرؤت القوى المسيحية على معارضته، ولقد قدرت أن هناك عاملا مهيأ لخلق حالة كهذه، وأننا لو بدأنا فى إحداث الإثارة، وفى دفع الأمور بقوة فسوف نجد أنفسنا مشوشين فى قضية قد لا تعقبنا سوى العار، وعند هذه الكلمات انطلق سيل من السباب، يتهمنى بعدم الجرأة، وبقصر النظر السياسى، وقال: يجب إرسال مبعوثين، وإنفاق أموال، وقلت: ليس عندنا أموال، وكانت الإجابة التى فكر فيها تفكيراً ناضجاً: هذا أمر تافه، يجب أن نجد الأموال، فإذا لم يكن فى الخزانة، فلنتوجه إلى الوكالة اليهودية، من أجل مشروع كهذا، وهم قادرون على أن يضحوا بمائة ألف، بخمسمائة ألف، بمليون دولار، بكل ما يراد منهم، بشرط أن تستقر الأمور كما يريدون، ولسوف تحدث حينئذ إعادة توزيع نهائية فى الشرق الأوسط، ويبدأ تاريخ جديد.

واستسلمت للمناقشة مع «الإعصار» وفى نفس اليوم الذى كتب فيه شاريت هذه السطور، كان بن جوريون يقدّر – وهو فى الكيبوتز الذى اختاره لتقاعده فى نجيف، جنوبى سدوبوكر Sde Boker– أن لبنان هو أضعف حلقات السلسلة فى الجامعة (العربية)... وكان من قوله:

ربما كانت اللحظة مواتية لنرى قيام دولة مسيحية على حدودنا ، (وأقول : ربما ، فمن المؤكد أن السياسة لاتعرف شيئا مؤكدا) . وبدون مبادرتنا ومساعدتنا الفعالة لن يتحقق شيء . ويبدو لى أن هذه – اليوم – هى المهمة الأساسية ، أو على الأقل ، إحدى المهمات الأساسية لسياستنا الخارجية ، وينبغى أن نخصص لها كثيرا من الوسائل ، ومن الوقت ، ومن الطاقة ، وأن نعمل بكل الوجوه الممكنة القادرة على أن نحدث فى لبنان تغييرا . يجب أن نجند (ايلياهو) ساسون ، وجميع المتخصصين الآخرين فى الشئون العربية ، وإذا مااحتيج إلى المال فيجب ألا نبخل بالدولار ، حتى ولو كان رصيدا ضائعا ، يجب أن نركز هناك كل قوانا ، وربما تعين علينا أن نستقدم هنا روفين (شلواح ، وهو متخصص فى الشئون العربية) ، خصيصا لهذا الهدف . إن أحدا لن يغفر لنا إذا ما أفلتت منا هذه الفرصة التاريخية ، ولا شيء فى هذا يمكن أن يعد إثارة للقوى العالمية ، والواقع أننا لسنا بحاجة إلى أن نعمل بصورة «غير مباشرة» ، ولكن كل شيء يجب أن يتم – فى رأيى بكل سرعة ، وبكل مانملك من قوة .

«وبدهى أن هدفنا لايمكن بلوغه دون أن نضيق حدود لبنان ، بيد أنه لايوجد فى هذا البلد ، ولا خارجه ، فى المهجر – أشخاص نستطيع أن نجمعهم لإقامة دولة مارونية . فلا حاجة بنا إلى حدود عريضة ، ولا إلى سكان مسلمين كثيرين ، ولا أهمية إذن لاعتبارات من هذا النوع .

«لست أدرى إن كان لنا ناس فى لبنان ، ولكن هناك كل أنواع الوجوه للعمل ، ولإنجاز المحاولة المقترحة إذا ماقررنا . » .

وأجاب شاريت ، فى ١٨ من مارس عام ١٩٥٤ ، على رسالة بن جوريون ، مقدرا من جانبه «أنه لامعنى لمحاولة خلق حركة فى الخارج لاوجود لها فى الداخل ، فمن المستطاع تقوية نفخة الحياة حين توجد أولا ، ولكن ، بقدر ماأعرف ، ليس فى لبنان اليوم أية حركة تحاول أن تقيم فى هذا البلد دولة مسيحية ، تكون القرارات النهائية فيها بين أيدى المارونيين» .

ولقد كان شاريت يرى أن الفرنسيين فى الواقع قدراهنوا على إنشاء دولة نصف مسيحية ، ونصف مسلمة ، قادرة على العمل ، فقال : «إن تحويل لبنان إلى دولة مسيحية هو اليوم خارج المسألة ، إذا ما وجدت محاولة خارجية مهتمة بالقضية . ولدىّ بعض التحفظات على تأكيدى ، وأنا أتكلم عن «محاولة خارجية» ، لأنى لا أستبعد نهائيا إمكان أن يحدث هذا فى غمار مجموعة موجات الصدمة التى تهز الشرق الأوسط ، فينشأ عنها إعادة توزيعات أساسية ، وتلقى بالمخططات القائمة فى أعماق بوتقة ، بحيث تستخرج منها أشكالا جديدة» . ثم أعلن شاريت :

«إن الأمر لايقتصر على أن المسيحيين لم يعودوا أغلبية فى لبنان ، ولكن الأقلية الأرثوذوكسية اليونانية لاتحب أن يكون لها دور مع دولة مسيحية يحكمها الموارنة . والزعماء الرئيسون الموارنة أنفسهم كانوا قد قرروا أن ورقتهم الرابحة هى أن يشاركوا المسلمين ، فاقتراح بن جوريون هو إذن اقتراح «سيىء» ، لأن من شأنه أن يمزق بضربة واحدة نسيج التعاون بين المسيحيين والمسلمين داخل الإطار اللبنانى الراهن ، الذى نسج من خلال عمل عنيد ، وبثمن من التضحيات الكبيرة التى قدمها جيل كامل ، وبذلك يدفع مسلمى لبنان إلى أحضان سورية ، وآخر مراحل العمل أن تسقط على رأس لبنان المسيحى الكارثة التاريخية ، بتبعيته لسورية ، وبالتشويش الكامل على هويته داخل دولة سورية الكبرى المسلمة» .

لقد كان شاريت يريد أن يعرف ماالذى يدعو إنسانا إلى الاعتقاد بأن المناطق التى يسود فيها مسلمون ربما تقبل أن تنفصل عن بقية البلاد ، وأن الجامعة العربية أو الغرب ربما يكتفيان بالنظر دون تدخل ، وأن «الحرب الدموية» التى يجب حتما أن تشتعل ، عقب محاولة كهذه – سوف تبقى داخل حدود لبنان ، ولن تستتبع دخول سورية الحرب» ، إن جبل لبنان لم يصر قابلا للحياة إلا منذ انضمامه إلى المناطق الإسلامية عام ١٩٢٠ م ، «فلكى يعود إلى الوضع السابق ، يرى شاريت أنه ربما لايكفى مجرد عملية جراحية ، بل لابد من سحق أعضائه حتى لايستطيع لبنان أن يعيش» .

لم يكن رئيس الوزراء مع ذلك مختلفا مع الأهداف ، وهو يقول : «لسوف أتلقى بالسرور هذا العمل (فى نطاق المجتمع المارونى) فى ذاته ، سواء من أجل عدم الاستقرار الذى يستتبعه ، أو بالنسبة إلى الاضطرابات التى يخلقها داخل الجامعة العربية ، لتحويل الانتباه بعيدا عن الصراع الإسرائيلى العربى ، الذى سوف يتبعه ، نظرا إلى تولد شرارة الرغبة فى الاستقلال المسيحى ، والذى سوف يحدث فى غماره . ولكن ما العمل ؟ إن الخميرة غير موجودة ، وفى وضع كهذا أخشى أن كل محاولة لإثارة المسألة من جانبنا سوف تعتبر أمارة نزق ، وسطحية ، بل وشر أيضا . فهى رغبة تليق بمغامرين أشرار يعمدون إلى استغلال رخاء الآخرين وحياتهم ، وكأنها إرادة للتضحية بالسعادة الأساسية لقاء فائدة تكتيكية مؤقتة لبلادنا .

وأكثر من ذلك ألا تبقى هذه القضية طى الكتمان ، فتصل إلى الجمهور العريض ، وهى مغامرة لايمكن إغفالها فى سير الأحداث بالشرق الأوسط . والخطأ الذى قد يسببه لنا هذا فى مواجهة الدول العربية ، والقوى الغربية سوف يكون هائلا ، وهو خطأ يتضاءل إلى جانبه النجاح (المحتمل) للعملية ، فهو لن يقدم إلينا أية مقاصة » .

ولم تقنع إجابة شاريت بن جوريون ، ولم تثنه عن متابعة هذا المشروع ، الذى يتمثل فى هدم استقرار لبنان . وبعد أكثر من عام ، أى فى ١٦ من مايو عام ١٩٥٥ ، حضر بن جوريون اجتماعا لكبار موظفى وزارتى الخارجية والدفاع ، وكان قد عاد إلى الحكومة ، وتولى حقيبة وزارة الدفاع ، فعاد إلى ما أطلق عليه شاريت : « حلمه القديم » بالتدخل فى لبنان . وقد حدث فى ذلك الوقت بعض التوتر بين العراق وسورية ، وظهرت «إمكانة غزو عراق لسورية» ، وقد دفع هذا بن جوريون أن يتوهم أن الدروز والشيعة ربما يقبلون أن ينضموا إلى مشروع لنقص الاستقرار ، وقد قال شاريت فى ١٦ من يونيو عام ١٩٥٥ – لقد كان رأى موشى ديان أن «كل مانحتاج أن نعثر عليه هو ضابط ، حتى ولو مجرد مقدم ، نكسبه إلى قضيتنا ، أو نشتريه ، حتى يقبل أن يعلن نفسه منقذا للشعب المارونى ، وحينئذ يدخل الجيش الإسرائيلى إلى لبنان ،

ويحتل الأراضى الضرورية ، ويقيم نظاما مسيحيا متحالفا مع إسرائيل ، وبذلك يسير كل شيء على مايرام ، وهنا تضم جميع أراضى جنوب لبنان كلية إلى إسرائيل » .

ويؤكد موشى شاريت ، فى ٢٨ من يونيو عام ١٩٥٤ «أن رئيس أركان الحرب وافق على فكرة شراء ضابط (لبنانى) يصلح دمية ، ليخدمنا ، بحيث إن الجيش الإسرائيلى يستطيع أن يظهر وكأنه يستجيب لنداء لتحرير لبنان من مضطهديه المسلمين . ولو أننا أطعنا رئيس الأركان فلربما نفذنا العمل منذ الغد ، دون انتظار أدنى إشارة من بغداد . بيد أنه ينبغى فى مثل هذه الحال أن نتذرع بمزيد من الصبر ، وننتظر حتى تركب الحكومة العراقية رأسها وتغزو سورية . ولم يلبث بن جوريون أن أكد أن خطته الخاصة لا يجب أن تنفذ إلا فى غمار غزو لسورية من العراق .» .

ويذكر شاريت قوله: «إننى لم أرد أن أقذف بنفسى فى مناقشة طويلة وخشنة مع بن جوريون أمام أركان حربه ، بصدد مشروعاته الغريبة والطائشة ، والتى تبدو من جانبها الأوَّلى مذهلة حقا ، وبعيدة عن دائرة الواقع تماما» .

ويرثى شاريت «لقلة الجادين ذوى الدوى المخيف والمفزع فعلًا » من العسكريين ، ومن «موقفهم الثابت تجاه البلاد المجاورة ، ولاسيما المسائل الشديدة التعقيد ، الخاصة بالحالة الداخلية والخارجية للبنان» ، وقد كتب يقول: «لقد رأيت بوضوح كيف أن هؤلاء الذين أنقذوا البلاد ببطولتهم وتضحياتهم خلال حرب الاستقلال – قادرون على جلب كارثة إذا ماأتيح لهم أن يتصرفوا بحرية فى الأوقات العادية» .

أما عن بن جوريون «فإنه يتصور دائما لبنان – كما كان فى عهد الإمبراطورية العثمانية – كيانا مستقلا ، كان سكانه مكونين من أغلبية ساحقة مسيحية مارونية ، بيد أن المارونيين فى نطاق لبنان الكبير قد فقدوا منذ زمن طويل تفوقهم العددى ، وأصبح المسلمون يشكلون أغلبية متزايدة ، بفضل

معدل مواليدهم المرتفع ، وقد دعم اللاجئون الفلسطينيون هذه الأغلبية ، وأسقطوا الموارنة إلى أقلية الثلث ، لقد فقد المجتمع المارونى كل إقدام وكل تحضر ؛ وأغلب زعمائه متواطئون مع المسلمين ، ومع الجامعة العربية ، وأية محاولة إسرائيلية لدفعهم فى طريق الثورة يمكن أن تسبب لهم فضيحة عالمية ، وتجعلهم يواجهون هزيمة ساحقة» .

ومع أن موشى شاريت قد وصف ، فى ١٧ من يونيو عام ١٩٦٥ – مشروع موشى ديان بأنه «وهمى خرافى» ، فقد اعترف بأن هذه الخطة أخذت طريقها إلى التطبيق ، قال : «الحقيقة هى أن لنا بعض الارتباطات ببعض المجموعات» داخل لبنان ، «وأننا قمنا بالعديد من المحاولات ، كيما نسبرغور الآخرين ، وأننا يجب أن تكون لنا اتصالات داخل الجيش (اللبنانى) .» .

وأثناء نفس الشهر ، يونيو عام ١٩٦٥ ، سجل شاريت رغبة ديان فى رفض ميثاق أمن عرضته الولايات المتحدة ، لأنه «يضع قيودا على حريتنا فى العمل العسكرى» ، وذكر أن رئيس الأركان قد صاغ نوعا من النظرية مضمونه «الحرب تساوى السلام» « La guerre — égale — la — paix ». على نمط ماأعلنه جورج أورويل عام ١٩٤٨ ، حين قال : «إن الدولة تستطيع ، لا ، بل يجب أن تخترع أخطارا ، وفى سبيل هذا يجب أن تتبنىّ المنهج القائل بأن «الاستفزاز يتبعه الانتقام – « La Provocation — Suivie — de — Vengence... وفوق كل اعتبار يجب أن نؤمل فى حرب جديدة مع العرب – كيما نستطيع فى النهاية أن نتخلص من مشكلاتنا ، وأن نكسب مساحات جديدة» – هذا ماكتبه شاريت فى صحيفته ، قبل أن يضيف قوله : «ولقد قال بن جوريون نفسه إن هذا يستحق عناء أن ندفع مليون جنيه إلى عربى ليبدأ الحرب» .

هذه المقتطفات من صحيفة شاريت ذات صبغة إرهاصية تُقْرَأُ فى ضوء الأحداث التى وقعت فى لبنان عام ١٩٧٥ : لقد ابتلعت الحرب الأهلية لبنان ، ووضعت إسرائيل يدها على ضابط مسيحى خائن هو المقدم (الذى صار عقيدا) سعد حداد ، الذى نفذ بالفعل أوامرها فى المنطقة الحدودية من جنوب لبنان ، وتعرض لبنان للاحتلال العسكرى من سورية ، (وإسرائيل) ، وهكذا

انتهى الجنرالات الإسرائيليون إلى أن يشدوا خيوط لبنان الذى عرضوا للدمار سمعته الدولية ، كما عرضوا أمن بلادهم للاضطراب .

إن ماتنبأ به وأعلنه موشى شاريت قد تحقق بالحرف الواحد: احتل السياسيون والجنرالات الصهاينة لبنان ، ووضعوه فى النار ، وفى الدم ، بالتواطؤ مع عملائهم الكتائبيين ، خونة بلادهم ، كما خان قديما كيسلنج فى النرويج ، وكما خانت ميليشيات لافال فى فرنسا ، ولكنهم انتهوا إلى « فشل » .

ولقد كشف علنا عن تعاون « الكتائب » « التى توصف بالمسيحية » مع جميع الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة ، فى الكنيست نفسه ، إبان الحملات الانتخابية القذرة ، عام ١٩٨١ . التى تواجه فيها شيمون بيريز ومناحم بيجن . (وقد أنشئت الكتائب عام ١٩٣٩ على يد بيير الجميل ، المعجب الكبير بهتلر ، على غرار كتائب الجنرال فرانكو) .

وتمكن الرأى العام فى إسرائيل وفى لبنان – آنئذ – من معرفة مراحل هذا التعاون المشترك ، الذى سوف يتوج بمأتم هائل فى مذبحة صبرا وشاتيلا ، فى سبتمبر عام ١٩٨٢ .

وبعد مذبحة ٣ من إبريل عام ١٩٧٣ ، التى أقامتها الكتائب للمدنيين الفلسطينيين – بعدها مباشرة ، كانت الاتصالات الأولى بين القتلة والقادة الإسرائيليين تتم فى سفارة إسرائيل بباريس ، بشارع رابليه [١] .

لقد استطاع السفاحون ، الذين أتقن الصهاينة الإسرائيليون تسليحهم – أن يتصرفوا على مستوى كبير: فقد طوقوا معسكرا فلسطينيا فى تل الزعتر ، واستوثقوا من بنيامين بن اليعازر بأن الحكومة الإسرائيلية ستسلمهم الأسلحة اللازمة للمجزرة .

---

(١) عن تفاصيل هذا التعاون المشترك وتاريخه انظر شهادة الصحفى الإسرائيلى شيمون شيفر: «عملية كرة الثلج ، أسرار التدخل الإسرائيلى فى لبنان –

–Opération de la boule de neige, Les Secrets de L' intervention Israëlienne au Liban .

نشر عام ١٩٨٤ بالعبرية فى إسرائيل ، ولم يستطع أحد أن يرتاب فى أية وثيقة من وثائقه

وكُشِفَ عن تفاصيل العملية فى الكنيست عندما وقف أريل شارون ليرد على هجمات شيمون بيريز ، ونواب حزب العمل ، فيما يتعلق بمسئولياته فى مذابح صبرا وشاتيلا ، فإذا بشارون يكشف مذابح العماليين - (وبخاصة شيمون بيريز ، الذى كان وزيرا للدفاع آنذاك) - فى أغسطس عام ١٩٧٦ ، فى تل الزعتر .

لقد اتهم شارون ، خلال جلسة صاخبة فى الكنيست ، اجتمعت لمناقشة مذابح صبرا وشاتيلا وأشار بأصابعه إلى زعماء المعارضة العمالية ، فهم أيضا قد تواطأوا فى مذابح تل الزعتر ، التى فتكت خلالها الميليشيات المسيحية بالفلسطينيين أثناء الحرب الأهلية ، عام ١٩٧٦ ، وصار الكنيست فى قمة الاضطراب ، حتى رئيس الوزراء ، والوزراء صدموا من كلمات شارون وطريقته . ثم أحيلت القضية إلى مجلس الأمن الإسرائيلى .

وقرأ شارون خلال الاجتماع مقتطفات من الوثائق التى تدوولت فى مركز خدمات المعلومات ، فى منتصف أغسطس عام ١٩٧٦ ، خاصة بأحداث تل الزعتر ، وقرر صحفيان ، كانا قد نجحا فى دخول المعسكر ، أنهما رأيا جثث حوالى ستين طفلا ، وامرأة ، وشيخا عجوزا ، بقرت بطونهم ، وحدد الصليب الأحمر أن ثلاثة آلاف شخص أعدموا فى تل الزعتر . وفى ١٢ من أغسطس ، بعد شهرين من الحصار ، سقط المعسكر فى أيدى المسيحيين . ويقول شارون : إن الصليب الأحمر أثبت أنه أثناء هذه المذبحة ، منعت السفن الإسرائيلية وصول سفينة تحمل مساعدات طبية إلى لبنان ، وكل هذا نشر فى الصحافة الدولية . ثم التفت شارون إلى زعيم حزب العمل ، شيمون بيريز وقال له : إننا لسنا ببساطة ننبش فى الأضابير ، ولكن ننبش فى علاقاتنا بالكتائبيين خلال السنوات الأخيرة . لقد كانت لكم معهم الاتصالات الأولى ، ولقد تبعناكم ، فنحن جميعا ، أنا وأنتم - خاضعون لنفس المبادىء الأخلاقية ، وهذا هو ماأريد البرهنة عليه بوثائق مؤرخة فى عهدكم .

لقد ساعدتم المسيحيين ، حتى بعد المذبحة ، وتلك هى العلاقة التى توحد من جانب معين تل الزعتر ، ومن جانب آخر صبرا وشاتيلا [١] .

---

(١) انظر : شيمون شيفر ، السابق ص ٢٢٥ .

وفى أغسطس عام ١٩٧٦ قابل الرئيس الأسبق «المسيحى» للبنان ، كميل شمعون رابين على سفينة إسرائيلية فى مرسى جونية وفى نهاية عام ١٩٧٩ سافر مئات من الكتائبيين إلى إسرائيل .

وفى ٢٧ من ديسمبر عام ١٩٧٩ ذهب كميل شمعون وبشير الجميل إلى بيجن ، فى طبرية . «فى ذلك المساء لم تناقش مشكلات عسكرية فحسب» ، ولكن «الإسهام الإسرائيلى فى الدعاية للأفكار الكتائبية فى العالم .... ولقد كلف الإسرائيليون أيضا دافيد جارت الخبير الأمريكى الشهير فى العلاقات العامة ، وكان بشير الجميل ، ودافيد كمشة قد قابلا جارت فى أوربا ، حيث اتفقوا على تكوين جماعة ضغط (لوبى) فى الولايات المتحدة ، لصالح المسيحيين اللبنانيين . ثم جمعت إسرائيل أيضا عددا معينا من المجموعات السياسية تؤيدهم فى فرنسا » [١] .

إن مخادعة المسيحيين والاشتراكيين على هذا النحو كانت هدفا ذا أولوية لدى الإسرائيليين ، وعملائهم الكتائبيين .

ولقد أمضى شارون ليلة ويومين فى بيروت الشرقية مع الميليشيات المسيحية ، كيما يعد الغزو ، وفى منتصف فبراير كانت العملية سرا من أسرار مهرج العاصمة اللبنانية ، واستأنفت إسرائيل شحنات الأسلحة والمؤن للمسيحيين ، وكان مكانها المفضل طبرجة ، فى خليج صغير يلقب «بسفارة إسرائيل» .

وفى ١٢ من يناير ١٩٨٢ استقبل بشير الجميل شارون فى بيروت ، الذى شرح له خطته : «بيروت سوف تطوق (فنحن هنا بعيدون عن جريمة قتل لندن ، وعن «سلام الجليل» !! ر . ج .[٢]) ، ويمكنكم البدء فى تخليص المدينة من الإرهابيين وشركائهم [٣] ، وشارك فى المحادثات إيلى حبيقة ، ذلك الذى سوف يقود مذبحة صبرا وشاتيلا .

---

(١) شيمون شيفر السابق ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) اختصار لاسم المؤلف : روجيه جارودى .

(٣) السابق ص ٢٢ .

وقد استمر الجميل وإيتان فى تخطيط غزو بيروت الغربية ، طبقا لاتفاق مبرم منذ إحدى المقابلات مع رئيس الوزراء ، وقال رئيس أركان الحرب لبشير : إن جيش الدفاع سوف يقدم للكتائبيين كل المساعدة التى يحتاجونها ، من حيث الدعم الجوى ، والمدفعية . «ولما كان الأمر يحتاج إلى وحدات إسرائيلية نظامية ، فقد طلب الجميل إذ ذاك من إيتان (٢٠٠٠) ألفى كلاشنكوف مزودة بخزنتين ، وكذلك خمسة لوريات من نوع (ريو — Rio) ، وسيارات أخرى ، وأدوات اتصال ، ووافق رئيس الأركان على مطلبه ، ولكن إسرائيل لم تكن حريصة على اقتضاء الثمن حالا ، فقال له إيتان : «لسوف تتم الحسابات بعد الحرب» [١] .

وفى ٢١ من أغسطس عام ١٩٨٢ (قبل يومين من انتخاب بشير الجميل) ذهب أريل شارون إلى بيروت لمقابلة بيير وبشير الجميل ، وليعين لهما دورهما قائلا : «يجب أن تنظفوا المعسكرات من اللاجئين فى بيروت ، حتى تقوم علاقاتنا من جانبيها على أساس الاحترام والثقة المتبادلة» [٢] .

وقد نشرت صحيفة (كول إسرائيل Kol Lsrael) ، وهى نشرة الجيش الإسرائيلى تقرير المحادثات بين بيجن وبشير الجميل غداة انتخابه ، فأخذ بيجن يذّكر منفذ أوامره بشروط التعاون المشترك الذى أوصله إلى السلطة : «إن اتفاق سلام سوف يوقع بين بلدينا عقب الحرب مباشرة» .

وكان بشير الجميل ، الذى كان معزولا فى خيانته — يعرف أنه لن يستطيع أمام الشعب اللبنانى أن يتحمل هذا الالتزام ، فإذا به يطلب مهلة .

وبعد يومين قتل .

وعند ذلك تلاحقت الأحداث فى إيقاع سريع ، وتمت مجزرة بيروت . ولنترك جوناثان رندال يتحدث ، قال : «إننا إذا أخذنا فى اعتبارنا رحيل المناضلين من رجال منظمة التحرير الفلسطينية ، وإزالة الألغام من الطرق الكبرى اللبنانية ، بوساطة جنود القوة الفرنسية ، وكذلك إزالة أغلب المتاريس

---

(١) السابق ص ١٨٠ .

(٢) السابق ص ١٩٧ .

الرملية – فإن غزو بيروت لم يكن يحتاج قط إلى عبقرية عسكرية ، كما أن الخسائر الإسرائيلية لم يكن محتملا أن تكون مرتفعة ، فقد كان توقعها إلى عهد قريب عنصرا من العناصر الرئيسة فى الردع [١] . وكان الإسرائيليون يحشدون أحيانا ألفا ومائتى رجل ضد موقع فلسطينى لا يحتوى أكثر من اثنى عشر فدائيا [٢] .

« فلماذا أطلق شارون هذه الهجمات الثلاث الرهيبة ، إن لم يكن لمجرد الانتقام ؟ .. هذا مالم يتضح مطلقا . لقد حرص فى كل حال ، دون شك – على إخفاء الحقيقة فيما كان يجرى على الأرض ، واستخدم دون سبب مدفعيته ، بأثقل أنواعها ، ضد أحياء المدينة كلها ، حيث لم يكن ثمت سوى عدد قليل جدا ، من الفدائيين الفلسطينيين ، بل لم يكن موجودا منهم أحد على الإطلاق . إن التفسير العقلى الوحيد هو أنه كان يحاول بهذه الطريقة تفريغ بيروت الغربية من سكانها اللبنانيين » [٣] .

وقد وصف سفير فرنسا ، بول مارك هنرى ، علاقة القوى هكذا : « إننا أمام تركيز مسلح لم يسبق له مثيل ، لقد حشد جيش الدفاع فى لبنان قريبا من مائة ألف رجل ، وأكثر من ألف مصفحة ودبابة ، (ام ٦٠ ، وميركافا حمولة أكثر من ستين طنا ، وشفتين) ، وعدد مماثل من فى تى تى ، إم ١١٣ – انتشرت كلها فى البلد . وكانت طوابير الدبابات تتمتع بحرية كاملة ، وقد توفر لها دعم تقوم به آلاف العربات المختلفة لتأمين الإمداد بالأسلحة والذخيرة ، ووقود الجيش فى الحرب ، وقد تم الربط بين المفارز بوساطة نظام للاتصالات ، والنقل الإلكترونى ، على يد خبراء من أعلى المستويات فى العالم ، فى فن التمويه .

هذا الجيش يهدف إلى السيطرة المطلقة على المجال الأرضى ، بالقضاء المادى على كل معارضة ، وهو يتمتع بتحكم شبه مطلق ، فى المجال الجوى ....

---

(١) رندال – السابق ص ٣٠ .

(٢) السابق ص ٢٣٩ .

(٣) رندال ص ٢٧٤ .

وأخيرا فإن البحرية الإسرائيلية مسيطرة تماما على المجال البحرى (وهى مزودة بزوارق سريعة ، فائقة التسليح ، «زوارق شيربورج» ، وما يتبعها) ، إنها قادرة على منع وصول أى إمداد من الخارج ، وعلى حماية أية محاولة إنزال ، وعلى تقديم الدعم ، بقوة نيرانها الضخمة ، لضرب المدن المحاصرة (ومَطْرقَتِها) (١) ، كبيروت والدامور (٢) .

ويقرر رندال بشأن استعمال هذه القوة شهادته قائلا : «لاشك أن الإسرائيليين كانوا يفضلون التقنية الحديثة ، وقوة النيران الهائلة ، على أساليب المحترفين من المحاربين اللبنانيين ، لقد استخدموا طائرات الـ إف – ١٦ ، والقنابل الموجهة باللاسلكى ، والفوسفور الأبيض ، والدبابات ، والقنابل ضد الأشخاص ، ومدافع سفنهم» (٣) .

«أما مايحزن القلب فلست أعرف نظيرا لما كان من خدمة قدموها لحالات الحروق السيئة فى إحدى المستشفيات ببيروت ، بعد أن تولى رجال المدفعية الإسرائيلية ، الذين اشتهروا بدقة تصويبهم أداء عملهم ، وبدأوا يصبون القذائف على الأبنية ، التى نصب فوقها أعلام كبيرة مرسوم عليها صليب أحمر ، ولم يعفوا من الضرب القيادة العامة للجنة الدولية للصليب الأحمر ، حتى إن المستشفيات التى كانت مقامة فى البدرومات ، والجراجات تحولت إلى حالة بشعة ، واندفع الجراحون أداءً لواجبهم ، يدافعون بأجسادهم ما أطلقوا عليه : «بَتْرَبيجن» ، أعنى : قطع الأعضاء المتمزقة ، جراء القنابل التى ألقيت ضد الأشخاص ، ونتيجة استخدام القذائف الأخرى المحسنة التى ضرب بها الإسرائيليون هذه المستشفيات» (٤) .

وبقى ذبح الفلسطينيين فى المعسكرات .

---

(١) الكلمة هنا مستعملة بمعنى المصدر ، أى : الضرب بالمطرقة ، وهى فى الفرنسية مقترضة من العربية (Matraquage) . (المترجم) .

(٢) بول مارك هنرى : بستانيو جهنم – Les jardiniers de l'eufer السابق ص ١٢٤ .

(٣) جوناثان رندال – السابق ص ٢٧٨ .

(٤) السابق ص ٢٧٣ .

وهنا نجد شهادة شاهد عيان على الحصار ، هو سفير فرنسا ، بول مارك هنرى ، وهى شهادة مؤثرة ، قال :

« كان الأمر العام الصادر إلى الجيش الإسرائيلى ، بالنسبة إلى دخولهم إلى بيروت الغربية ، فى الساعات القليلة من صباح ١٥ من سبتمبر ، ينص بالتحديد على « أننا لن ندخل معسكرات اللاجئين ، أما تمشيط المعسكرات وتنظيفها فسوف يتمان بالتعاون بين الكتائب والجيش اللبنانى » ، وفيما يتعلق بالجيش اللبنانى فقد كانت لديه « موافقة بدخول أى مكان فى بيروت حسب طلبه » ، والواقع أنه طبقا لتقرير كاهان ، فإن دخول الكتائب إلى معسكرات اللاجئين كان قد تقرر ، باتفاق عام بين الجنرال شارون ، وزير الدفاع ، والجنرال درورى ، فى مساء اليوم السابق ، الساعة الثامنة والنصف .

وخلال نهار الخميس (١٥) تحرك الجيش الإسرائيلى فى حلقة حصار كاملة لمنطقة المعسكرات ، ذلك هو ما استطعنا إدراكه بأنفسنا ، ونحن منطلقون من قصر الصنوبر » [١] .

فماذا تكون الذريعة والتعلة ؟

« لقد كانت ذريعة دخول القوات الإسرائيلية إلى بيروت الغربية ، ودخول معاونيهم الكتائبيين ، هى على وجه التحديد ، أن « من الضرورى مبادرة المغامرة بالعنف وسفك الدم والفوضى ، بحجة أن حوالى ألفى إرهابى مزودين بالأسلحة الثقيلة ، وبوسائل للتضليل – قد بقوا فى بيروت ، وهو انتهاك صارخ لاتفاق إجلائهم » ، لم يكن الجيش قد تلقى مطلقا شيئا يثبت هذا ، ولم يكن قام بأى تحقيق جاد للأمر ، ومن ثم لم يكن بحاجة إلى تبرير الجريمة المقترفة ... وبدأت عمليات مجموعات الكتائبيين فى المعسكرات ، وقدرت نتائجها بما يقرب من ألف ضحية ، كلهم تقريبا مدنيون – إذ الواقع أن أية مجموعة إرهابية لم تكن فى هذه المعسكرات ، وقد أسدل على هذه العمليات ستار من السرية المطلقة ، حتى صباح السبت ١٧ من سبتمبر ، والدلائل

---

(١) بول مارك هنرى – السابق ص ٢٠٧ .

الوحِدَة المرئية على النشاط المحموم الذى كان سائدا فى المعسكرات عيانا بيانا ، خلال ليلتى الخميس والجمعة ، ومن الجمعة إلى السبت – إنما هى الصواريخ المضيئة للجيش الإسرائيلى .

وإلى القارىء الآن قصة المذبحة ويومياتها ، بتحليل من شيمون شيفر :

الأربعاء ١٥ من سبتمبر عام ١٩٨٢ :

الساعة الثامنة صباحا : يصل وزير الدفاع إلى موقع قيادة متقدم ، أقامه جيش الدفاع فى بيروت ، وقد أطلعه رئيس الأركان على الاتفاقات المبرمة مع الكتائبيين ، وهى تنص على التعبئة العامة ، ومنع التجول ، ودخول الكتائبيين إلى معسكرات اللاجئين ، وقد أعطى شارون موافقته ، ثم اتصل تلفونيا برئيس الوزراء ، من مركز القيادة ، يخبره بعدم وجود مقاومة ، وأن الأمور تسير على مايرام .

الساعة الحادية عشرة : يعلن المتحدث الرسمى باسم الجيش قوله : «إنه بعد مقتل الرئيس بشير الجميل فقد دخل جيش الدفاع بيروت الغربية هذا المساء ، حتى يفرض النظام ، ويتحاشى الاضطرابات الخطرة » [١] .

الساعة الثانية عشرة : يقابل وزير الدفاع رؤساء الكتائب فى القيادة العامة لحزبهم ببيروت ، ويقول : «الموقف حاسم ، ويجب أن نتخذ الآن قرارات ، نحن معكم ، ولسوف نقدم لكم كل الدعم الضرورى» .

الخميس ١٦ من سبتمبر عام ١٩٨٢ :

الساعة العاشرة : يقرر إيتان : «المدينة كلها بين أيدينا ، كل شىء هادىء ، المعسكرات معزولة ومحاصرة ، سوف يدخل الكتائبيون بين الحادية عشرة والثانية عشرة» .

---

(١) شيمون شيفر – السابق ص ٢١١ – ٢٢١ .

الثانية عشرة ظهرا: القادة الكتائبيون يصلون لاجتماعهم الأول، المشترك مع جيش الدفاع، قبل أن يدخلوا المعسكرات الفلسطينية، فى صبرا وشاتيلا، طبقا لخطتهم، مائة وخمسون جنديا سوف يدخلون.

الساعة السابعة مساء: يفاجأ الملازم ألول، المكلف بقوات القيادة العامة فى بيروت بمحادثة على جهاز استقباله (الراديو) بين ضابط كتائبى دخل المعسكرات، وبين إيلى حبيقة، رئيس العمليات الخاصة فى الكتائب، فقد قبض الضابط على خمسين امرأة وطفلا، وهو يسأل حبيقة ماذا ينبغى أن يفعل بهم، ويجيبه الآخر قائلا: «هذه هى المرة الأخيرة التى أسمع منك فيها هذا النوع من الأسئلة، أنت تعرف تماما ماينبغى أن تفعله». وكان الكتائبيون على سطح القيادة العامة للكتائب فأطلقوا ضحكة عالية، ويفهم ألول Alaul أن هؤلاء النساء والأطفال سوف يقتلون، فيسرع بإبلاغ قائد المجموعة.

الجمعة ١٧ من سبتمبر عام ١٩٨٢:

الساعة الثالثة والنصف مساء: يصل رئيس الأركان إلى مطار خلدة، قريبا من بيروت، وقد استقبله رئيس القيادة الشمالية، الذى صحبه إلى القيادة العامة للكتائب، وقد أعلمه درورى بما يعلم عن أفعال الكتائبيين، وهو يسمع دون أدنى تعليق.

الساعة الرابعة والنصف مساء: عقد اجتماع فى القيادة العامة للكتائب، وقد عبر رئيس الأركان عن رضاه عن القوات اللبنانية، لما أبدوا من سلوك على أرض الواقع، وأعلن باختصار أنهم يستطيعون أن يواصلوا عملية «التنظيف» فى المعسكرات المفرغة، فى جنوب الفكهانى، حتى الساعة الخامسة من صباح الغد، وهى الساعة التى يتعين عليهم فيها التوقف بتأثير الضغط الأمريكى، ويطلب الزعماء الكتائبيون بلدوزرات لهدم المبانى غير المرخصة فى المعسكرات الفلسطينية، ويوافق إيتان على أن يقدم إليهم واحدا».

---

(١) شيمون شيفر - السابق ص ٢١١ - ٢٢١.

حينئذ سوف يمكن إثبات عدم شهوده من قبل «لجنة كاهان» المكلفة بالتحقيق فى الأحداث ، فتخرج بنتيجة تقرر المسئولية غير المباشرة للإسرائيليين .

ولسوف يكون بيجن صريحا – على الأقل – حين يقول : «غير يهود قتلوا غير يهود ، ثم يتهموننا !» .

أما تقرير لجنة كاهان – الذى كان مخصصا لإخفاء الهول أمام الرأى العام الإسرائيلى ، وأمام الرأى العام العالمى ، حين أعلن بطريقة «ديموقراطية» أنها قادرة على التحقيق فى الجرائم الخاصة – فقد كان له هدفان :

أولا : أن ينسب إلى أخطاء الرجال ماهو نابع من المنطق الصارم للنظام : الصهيونية السياسية ، ومهمتها الدموية على يد دولة إسرائيل .

وثانيا : أن يوهم بأن المسألة مجرد رعب أو غلطة ، فى حين أن هذا العمل – وهو الإبعاد المادى للفلسطينيين – كان مبرمجا منذ سنوات من قبل الإسرائيليين ، «وعملائهم» الكتائبيين .

فبيجن «استخف» باحتال انتقام الكتائبيين من الفلسطينيين ، «وتجاهل» شارون أن يتخذ أى إجراء عندما علم بالمذبحة ، وشامير «ارتكب خطأ» فى أنه لم يتدخل ، ورئيس الأركان «لم يطور» المغامرة من أجل سكان المعسكرات . !!

على حين أن المشروع وضع منذ سنوات ، والعلاقات الثابتة مع «المعاونين» الكتائبيين ، والمعرفة الكاملة بالأحداث من قبل القادة السياسيين والعسكريين المسئولين ، تجعل مهزلة العدالة هذه موضع سخرية ، وهى لم تتورع عن الكذب المتعمد فى تقرير الأحداث : «إن تقرير كاهان يذكر أن الجنود الإسرائيليين لم يستطيعوا أن يروا ماكان يجرى فى طرقات المعسكر ، حتى ولا بالتلسكوبات العملاقة المثبتة على سطح مركز القيادة ، على حين أن الصحفيين الذين صعدوا الأدوار الستة للمبنى لم يعجزوا عن تمييز كل شيء بالعين المجردة» [١] .

---

(١) رندال – السابق ص ٣٦ .

وهكذا يتخلص مجرمو الحرب من جريمتهم بثمن زهيد: ويعود شارون وشامير وزراء ، وبيجن يترك المسرح بمزاجه ، ورفائيل إيتان يستمتع بتقاعد هادىء .

وطبيعى أن شيئا من ذلك لم يكن ممكنا لإسرائيل مالم تتلق الضوء الأخضر من قادة الولايات المتحدة ، ومالم تجد الصمت المتآمر من سياسيى أوربا .

وفى ٢٨ من ديسمبر عام ١٩٨١ أرسل دافيد كمشة ، مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية – إلى واشنطن .

«وفى ٢٠ من مايو عام ١٩٨٢ ذهب شارون إلى واشنطن حيث أجرى محادثات مع وزير الخارجية الكسندرهيج ، وقد أنكر هيج – الذى لم يخف ميوله المناصرة للإسرائيليين – أنكر بإصرار أنه شجع أو وافق على مشروعات غزو الوزير الإسرائيلى ، وقد بين هذا الأخير أنه كان قد ذهب للقاء زميله الأمريكى حتى يبلغه أن إسرائيل أزمعت احتلال لبنان ، رضى أو كره ، وأن الولايات المتحدة لاينبغى إذن أن تفاجأ بهذا الغزو ، كما فوجئت – وهى تعلم – بالغارة على المفاعل النووى العراقى .

وقد أعلن هيج فى لبنان «أن الموقف هو أننا لن نستطيع أن نمنع أنفسنا من العمل إلى وقت طويل» ، وقد أكد الرئيس السابق كارتر على إثر ذلك – ماأنكره المسئول المباشر بإصرارٍ وحِدَّةٍ – أن وزير الخارجية أعطى الضوء الأخضر لإسرائيل فى عمليتها . (٢)

وعندما وصلت إسرائيل إلى أبواب بيروت سافر رئيس الوزراء بيجن مع معاونيه ، ومع رئيس مخابرات جيش الدفاع ، إلى الولايات المتحدة فى ١٥ من يونيو عام ١٩٨٢ .

---

(١) رندال – السابق ص ٣٦ .

(٢) رندال: السابق ص ٢٦٦ .

ولسنا نستطيع سوى أن نرى مارآه رندال ، حين قال : «إن جميع الأدلة المتاحة تشير إلى أن حكومة ريجان لم تفعل شيئا لمنع العملية فى مراحلها الأولى ، وفى مقابل رد الفعل العنيف إلى أقصى درجة ، من جانب كارتر ، فى مارس عام ١٩٧٨ - عندما احتل الإسرائيليون جنوب لبنان - نجد أنه فى عام ١٩٨٢ رفضت الولايات المتحدة مرات كثيرة أن توافق على مشروعات قرار لمجلس الأمن ، بالأمم المتحدة ، والذى يدعو إسرائيل إلى الانسحاب فورا من لبنان ، بل بالعكس ، لقد صوتت الولايات المتحدة بإصرار لصالح الإسرائيليين ، حتى أصبح جميع الميكافيليين بالشرق الأوسط مقتنعين بأن هيج كان ضالعا معهم بصورة إيجابية [١] .

وهكذا يتضح بصورة كاملة ، فيما وراء الأساطير التى تصاغ عن «الأمن» أو عن «السلام فى الجليل» - معنى حرب لبنان ، وهو ماكشف عنه وزير بيجن الجديد البروفسور نعيمام (من الحزب القومى الدينى ، حزب تحيا ، اليمينى المتطرفين) عام ١٩٨٢ ، حين قال : «إن لدى إسرائيل فرصة رائعة لإنشاء نظام جديد فى لبنان ... والجيش يجب أن يهيىء نفسه للبقاء هناك إلى أمد طويل .

وفى أثناء هذه الفترة تستطيع إسرائيل أن تحسن وضعها الاقتصادى والتقنى فى المنطقة ، التى تعد - تاريخيا - جزءا من أرض إسرائيل ، وسوف يكون من الممكن بالنسبة إليها أن تُدْخِل إلى خطة التنمية الجزء الجنوبى من لبنان ، حتى نهر الليطانى [٢] » .

---

(١) السابق .

(٢) صحيفة جيروزا ليم بوست فى ٢٤ من يونيو عام ١٩٨٢ ، ويجب أن نتذكر أن حايم وايزمان كتب رسالة إلى مؤتمر فرساى عام ١٩١٩ قال فيها : «إن حدود دولة إسرائيل الموعودة يجب أن تصل إلى لبنان الجنوبى بأكمله ، حتى تفيد من الثروات الطبيعية» .

وكما يحدث بعد كل تصعيد فى الموقف ، إذ يعلن القادة الصهاينة أنه يجب الوصول إلى أبعد مدى لتحقيق خطة الصهيونية السياسية ذات المدى الطويل - وجدنا اليوم أريل شارون ، وهو يجهر برأيه : «إننا لم ننجز بعد سوى جزء صغير من العمل [١]» .

وإنها لحقيقة تصدق على هذه الحرب ، كما تصدق على كل الحروب الأخرى التى شنتها إسرائيل ، وهى التى قالها بشجاعة البروفسور لبيويتز فى مؤتمره الصحفى فى ١٤ من يونيو عام ١٩٨٢ بالقدس ، قال : «إنْ هدف هذه الحرب هو الإعداد للحرب القادمة» .

فكل شىء يجرى فى الواقع ، وكأنما هؤلاء القادة الصهاينة يطبقون عبارة سفر يشوع بالحرف الواحد : «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته» [١ / ٣] .

وهذا هو مفهوم «إسرائيل الكبرى» ، الهدف الثابت والدائم للصهيونية السياسيه الذى يشير إليه الجنرال الاحتياطى جازيت ، الذى يرأس اليوم جامعة بن جوريون فى بير سبع ، وهو يذكّر بالأهداف الجوهرية فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلى - العربى : «يجب أن تكون أرض إسرائيل يوما ما بكاملها ، تحت السيطرة الإسرائيلية ، بل وأكثر من ذلك - يجب أن تكون مندمجة فى دولة يهودية . وعلى إسرائيل أن تعترف بالضرورة الملحة لإيجاد حل راديكالى لمشكلة الوجود العربى على الأرض التاريخية لإسرائيل [٢]» .

فطرد العرب من فلسطين ، داخليا ، والعمل على تمزيق البلاد العربية - خارجيا - هذان هما جناحا المشروع الصهيونى . وقد نشر مقال فى مجلة كيفونيم (التوجيه) ، نشره «التنظيم الصهيونى العالمى» بالقدس (عدد رقم ١٤ . فبراير عام ١٩٨٢) وهو يعرض «استراتيجية لإسرائيل فى الثمانينيات» ،

---

(١) حديث لأريل شارون ، نشرته أورينتا فلاسى Orienta fallaci، فى مجلة (أوربا) فى ميلانو ، عدد ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٢ .

(٢) يديعوت أحرنوت ، عدد ١٥ من يناير عام ١٩٨٢ .

وهو نص يعرى الآلية التى تتصور بها دولة إسرائيل الصهيونية طريقتها فى التدخل المنتظم ، والمعمم ضد كيانات جميع الدول العربية المجاورة ، من أجل تفريقها ، وهى آلية ترمى إلى ماهو أبعد من كل أشكال العدوان السابقة .

إن مشروعا بهذا المدى ، وبما توفر له من دعم غير مشروط ، ولا محدود ، تقدمه الولايات المتحدة إلى إسرائيل - سوف يحدث تأثيرات هائلة ، لا فى كل الدول العربية ، والدول الإسلامية الأخرى ، فحسب ، بل فى مجموع العالم الثالث ، ولن يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يمسك نفسه عن التدخل فى مجرى الأحداث . فهذه الخطة إذن تشكل أخطر مفجر للحرب العالمية الثالثة ، وللدوامة النووية الرهيبة ، التى قد تقود إلى الانتحار الكونى .

وفى هذه المقالة التى نشرتها كيفونيم عرضت الخطوط العريضة «للحرب الباردة» ، فقالت :

«إن أحد الأهداف الرئيسة للاتحاد السوفيتيى هو أن يلحق الهزيمة بالغرب ، وذلك بأن يملك التحكم فى الموارد الهائلة للخليج الفارسى ، وجنوب إفريقية ، حيث تركزت أغلبية الموارد المنجمية العالمية ، ونحن نستطيع تصور أبعاد هذه المواجهة على مستوى البسيطة ، وهى المواجهة التى سوف نعيشها فى المستقبل .

إن نظرية جورشكوف تطالب برقابة سوفيتية على المحيطات ، وعلى المناطق الغنية بالموارد المنجمية للعالم الثالث . و من الممكن تبعا للمفاهيم الحالية للاتحاد السوفييتى عن الجانب النووى - شن حرب نووية وكسبها ، والبقاء بعدها ، وبوساطة هذه الحرب يمكن تدمير القوة العسكرية للغرب ، وتحويل سكانه إلى عبودية فى خدمة الماركسية اللينينية . وهذا هو اليوم الخطر الرئيس على سلام العالم ، وعلى وجودنا الخاص .» .

وهكذا يصل المشروع الصهيونى إلى نتائجه القصوى (والنص الذى ذكرناه يكشف عن أن القادة الصهاينة يستحضرونه قصدا ، ضمن منطق نظريتهم ، كما يستحضرونه فى هذيانهم) ، وهو مشروع لم يعد يقتصر على جزء محدود من العالم : فهو يهدد كل الشعوب . إن هذه الأغراض المتعاظمة على درجة كبيرة من الخطورة ، حتى وهى مجرد تأملات منهجية مجنونة ، أعلنتها الدولة الصهيونية للمستقبل ، واقتصرت حتى الآن على إعلانها .

وها نحن أولاء نعيد الفقرات العميقة المغزى فى هذا المقال ، والتى صدرت عن التنظيم الصهيونى ، وهى تكشف عن الرؤى المستقبلية التى تهيمن الآن على امتداد الحلم الدهرى «لإسرائيل الكبرى» فى تصور الصهيونية السياسية :

«إن استعادة سيناء بمواردها الراهنة هدف ذو أولوية ، تحول دون الوصول إليه حتى الآن اتفاقات كامب ديفيد ، واتفاقات السلام ... وبذلك حرمنا من البترول ، ومن الموارد التى تصدر عنه ، وتحملنا نفقات باهظة فى هذا المجال ، ويجب علينا أن نعمل حتى نستعيد الوضع الذى كان فى سيناء قبل زيارة السادات ، والاتفاق التعيس الموقع معه عام ١٩٧٩ .

إن الحالة الاقتصادية فى مصر ، وطبيعة نظامها ، وسياستها القومية العربية – سوف تسفر عن على موقف يفرض على إسرائيل أن تتدخل ... ومصر بفعل صراعاتها الداخلية لم تعد تمثل بالنسبة إلينا أية مشكلة استراتيجية ، ولسوف يكون من اليسير ، أن نردها إلى الوضع الذى عاشته عقب حرب يونيو عام ١٩٦٧ – فى أقل من أربع وعشرين ساعة .

لقد ماتت الأسطورة القائلة بأن مصر هى زعيمة العالم العربى ... وقد فقدت فى مواجهتها لإسرائيل وبقية العالم العربى ٥٠ ٪ من قوتها ، وربما استطاعت أن تفيد على المدى القصير من استعادة سيناء ، ولكن ذلك لن يغير تغييراً عميقا علاقة القوة ، فمصر من حيث هى جسد مركزى قد صارت جثة ، ولاسيما إذا ما أخذنا فى اعتبارنا المواجهة التى تتزايد قسوتها بين المسلمين والأقباط . إن انقسامها إلى أقاليم جغرافية منفصلة يجـ أن يكون هدفنا السياسى خلال التسعينيات ، على الجبهة الغربية .

فإذا ماتصدعت مصر على هذا النحو ، وحرمت من أية سلطة مركزية فان بلادا أخرى مثل ليبيا والسودان ، وما هو أبعد منهما سوف تواجه نفس الانفصال ، فإنشاء دولة قبطية فى صعيد مصر ، وإنشاء دويلات أخرى إقليمية ، ذات أهمية ضعيفة – هو مفتاح التطور التاريخى الذى أرجأه حاليا اتفاق السلام ، ولكنه محتوم على المدى الطويل .

وعلى الرغم من الظواهر فإن الجبهة الغربية أقل مشكلات من الجبهة الشرقية :

إن تقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم يعطينا مقدما صورة عما سوف يحدث فى مجموع العالم العربى : فتفجير سورية والعراق إلى أقاليم محددة على أساس مقياس عرقى أو دينى يجب أن يكون ، على المدى الطويل ، هدفا ذا أولوية بالنسبة إلى إسرائيل ، والمرحلة الأولى هى تدمير القوة العسكرية لدى هذه الدول .

إن البنية العرقية لسورية تعرضها لتفكك قد ينتهى بها إلى إنشاء دولة شيعية على طول الشاطىء ، ودولة سنية فى منطقة حلب ، ودولة أخرى فى دمشق ، ثم وحدة درزية يمكن أن تطمح إلى إنشاء دولتها الخاصة ، ربما على أرضنا الجولان ، وهى تتكامل فى كل حال مع حوران وشمالى الأردن .... إن دولة كهذه سوف تكون على المدى الطويل ضمانا للسلام وللأمن فى المنطقة ، وهى هدف مقرر فى موضع اهتمامنا .

أما العراق الغنى بالبترول ، وبالصراعات الداخلية – فهو على خط التسديد الإسرائيلى ، فتفكيكه بالنسبة إلينا أعظم أهمية من تفكيك سورية ، إذ هو يمثل على المدى القصير أعظم تهديد بالنسبة إلى إسرائيل ، ولذلك إن حربا سورية – عراقية سوف تفيد فى تذويبه من الداخل ، قبل أن يكون بحيث يندفع فى صراع واسع ضدنا . إن كل شكل من أشكال المواجهة بين العرب ، بعضهم وبعض ، هو مفيد لنا ، وهو يعجل بساعة هذا التفجير . ولقد تؤدى الحرب الحالية ضد إيران إلى التعجيل بهذه الظاهرة المعبرة عن الاستقطاب .

أما شبه الجزيرة العربية فهى مهيأة بأكملها لتحلل من هذا النوع ، بفعل الضغوط الداخلية ، وتلك هى بخاصة حال المملكة العربية السعودية ، فإن تعاظم الصراعات الداخلية ، وسقوط النظام هما جزء من منطق البنيات السياسية الراهنة .

والأردن هدف استراتيجى عاجل ، وهو على المدى الطويل لن يكون بوسعه أن يشكل تهديدا لنا ، بعد تحليله ، فنهاية مُلْكِ حسين ، ونقل السلطة إلى أيدى الأغلبية الفلسطينية ، هما ماينبغى أن تتوجه إليه السياسة الإسرائيلية ، وهذا التغيير يعنى حل مشكلة الضفة الغربية ، ذات الكثافة السكانية العربية . إن تهجير هؤلاء العرب إلى الشرق ، فى ظروف سلام ، أو على إثر حرب ، وتجميد نموهم الاقتصادى والسكانى هما ضمانتا التغييرات المقبلة ، ويجب أن نعمل كل مافى وسعنا لتعجيل هذه العملية .

ويجب أن نرفض خطة الاستقلال الذاتى ، وأية خطة قد تستتبع تسوية ، أو اشتراكا فى الأراضى ، أو تضع عقبة فى طريق انفصال الأمتين ، وهى شروط لازمة لتعايش سلمى حقيقى .

إن على العرب الإسرائيليين (الذين هم أصلا فلسطينيون) أن يفهموا أنهم لن يكون لهم وطن إلا فى الأردن ... ، وأنهم لن يعرفوا الأمن إلا إذا اعترفوا بالسعادة اليهودية بين البحر والأردن .... فلم يعد ممكنا ، ونحن ندخل إلى العصر النووى ، أن نقبل أن يتكدس ثلاثة أرباع الشعب اليهودى على شريط ساحلى مكتظ ، ومعرض للخطر طبعا . إن توزيع هؤلاء السكان أصبح أمرا لازما فى سياستنا الداخلية ، فيهوذا ، والسامرة ، والجليل هى الضمانات الوحِدَةُ لبقائنا القومى ، فإذا لم نصبح أغلبية فى المناطق الجبلية فإننا نوشك أن نلقى مصير الصليبيين الذين فقدوا هذه البلاد .

إن إعادة توازن المنطقة على المستوى السكانى ، والاستراتيجى ، والاقتصادى يجب أن تكون مطمحنا الأساسى: وهذا يتضمن التحكم فى موارد المياه فى الإقليم ، الذى يبدأ من بير سبع إلى الجليل الأعلى ، والذى هو اليوم خال من اليهود» .

إن المشروع الاستعمارى والعنصرى للصهيونية السياسية ، بعد أن فرض طرد الفلسطينيين ، واغتصابهم ، واضطهادهم ، وبعد أن استتبع سلسلة من الحروب العدوانية فى الشرق الأردنى – كما يرى تفكيك كل الدول العربية الآن – هذا المشروع يشكل خطرا – منذ كان – على سلام العالم .

ولقد يبدو من العجيب أن بلدا مساحته وتعداد سكانه بهذا القدر من الضعف ، ثم هو قادر على أن يؤدى دورا بهذه الخطورة فى السياسة العالمية !!!

ولكى نفهم هذا الدور لايكفى أن نذكر موقعه الإستراتيجى ، ذا الأهمية القصوى على ملتقى ثلاث قارات . ولقد كان حايم وايزمان يستهدف هذا بالضبط عندما كان يقيّم لمحدثيه البريطانيين أن « فلسطيناً يهودية ، قد تكون حاميا لإنجلترا ، ولاسيما فيما يخصّ قناة السويس » [1] .

إن إسرائيل تملك فى الواقع « مفاتيح » أكبر الطرق التجارية ، والعسكرية ، الممتدة من الغرب إلى الشرق ، وإن كان هذا لم يعد اليوم فى صالح إنجلترا ، بل لصالح الولايات المتحدة ، بسبب تحول السيطرة .

لقد أصبح دور إسرائيل ، باعتبارها شرطى الشرق الأوسط ، أكثر ضرورة للولايات المتحدة ، منذ فقدت قواعدها فى إيران ، (بعد سقوط الشاه) ، فإسرائيل إذن هى التى تستطيع وحدها أن تراقب فى وقت واحد ، السويس ، والمناطق البترولية ، وأن تقدم قواعد آمنة فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وهى مهمات لاتستطيع الولايات المتحدة أن تؤديها بنفسها ، (ذلك أن تجربة فيتنام قد صدمتها فيما يتعلق بتدخلها المباشر فى العالم الثالث) ، فهى تعمل إذن ، بوساطة إسرائيل ، وتقدم لها نظير ذلك مساعدة غير مشروطة ولا محدودة ، وهذا الوضع فى نظرهم أكثر راحة ، ومواءمة ، ومن الممكن من حين لآخر ، أن توجه إدانة شفوية إلى إسرائيل ، ولكن ، على أن تحميها باستخدام الفيتو ، من أى جزاء واقعى ، قد يضايق عملها ، وبخاصة حين تقدم لها كل ماتحتاجه من المال ، ومن السلاح الضرورى لتحقيق هذه المهمات الحيوية ، ومن أجل الإبقاء على مركز الولايات المتحدة فى التوازن العالمى . ومن الملاحظ مثلا أن الولايات المتحدة تقدم إلى الجيش الإسرائيلى أكثر

---

(١) انظر حايم وايزمان : ميلاد إسرائيل Naissance d' Israël.

الأسلحة تكلفة وتفننا . وقد كتبت صحيفة الهيرالد تريبون الدولية فى ٢٢ من يوليو عام ١٩٨٢ أن «الحكومة الإسرائيلية أنفقت هذا العام خمسة مليارات ونصف مليار من الدولارات ، على التسليح ، والتجهيزات العسكرية ، وثلث هذا المبلغ آت من الخزانة الأمريكية» .

إن كل تجهيزات الجيش الاسرائيلى تقريبا قد تكفل بها برنامج المساعدة العسكرية الأمريكية للخارج ، وقد تلقت إسرائيل منه خمسة عشر مليارا من الدولارات ، من الثمانية والعشرين مليارا ، التى وزعت فى العالم منذ عام ١٩٥١ .

فمن بين الـ ٥٦٧ طائرة ، التى كانت تملكها إسرائيل قُبَيْل غزو لبنان - كان ٤٥٧ طائرة مشتراة من الولايات المتحدة ، بفضل الهبات ، والقروض التى وافقت عليها واشنطن .

فإذا استثنينا تأجيل تسليم القنابل العنقودية (التى أصبح الإسرائيليون الآن قادرين على صنعها) - فإن إمداد إسرائيل بالأسلحة لم يتوقف مطلقا ، وقد صرح الرسميون فى البنتاجون ، كما صرح الإسرائيليون أنفسهم ، بأن البيع المتوقع لإحدى عشرة طائرة ، من طراز إف ١٥ ، سوف يتم (بصورة عادية) ، كما يتم تسليم صفقة سبق الاتفاق عليها ، من الطائرات ، ومن الصواريخ الموجهة ، ومن الشاحنات ، والسيارات المصفحة .

إن التعاون الوثيق بين القوات المسلحة وصناعات التسليح فى كلا البلدين يجعل أى مشروع يستهدف معاقبة إسرائيل من جانب أمريكا - أمرا غير مقبول ، ذلك أن البنتاجون يتلقى دائما معلومات مفصلة من إسرائيل عن كفاءة أنواع الأسلحة التى تتسلمها ، والتى لَمَّا يجرب بعضَها الجيشُ الأمريكى ، وكذلك الحال بالنسبة إلى طائرة الاستطلاع هاوكى - إى - ٢ س (Hawkeye E — 2 C) ، التى استخدمت ضد أهداف بعيدة المدى فى سورية ، فى المرحلة الأولى من حرب لبنان .

وهكذا يستطيع الجيش الأمريكى أن يجرب على أوسع نطاق أسلحته التقنية ذوات الرءوس ، مع جيش إسرائيلى أكثر فعالية ، على نحو لا تستطيعه أية فرقة عسكرية أمريكية .

فمن وجهة النظر «الجغرافية السياسية Geopolitique – كما كان يقول الهتلريون – تستطيع دولة جنوب إفريقية ، وهى وحدها التى تتحكم فى الطريق الأخرى الموصلة إلى آسيا ، غير طريق السويس ، (طريق الكاب) ، وهى تمارس ضغطها على إفريقية – تستطيع أن تؤدى إليها خدمات مماثلة ، وإن كانت أقل كثيرا بصورة لاتقارن .

إن هناك تكاملية بين إسرائيل وجنوب إفريقية ، يمكن ملاحظتها بصورة واضحة – (إذا ماأضيفت إلى القرابة البدهية فى النظام العنصرى) ، وفى الأوضاع (أوضاع الصراعات الدائمة ، فأحدهما مع العالم الأسود ، والآخر مع العالم العربى) ، وهى تكاملية تتضح فى التعاون الوثيق بينهما .

وقد حددت مجلة «الشئون اليهودية – Jewish affairs » سمات هذا «التكامل الإستراتيجى» تحديدا كاملا ، منذ عام ١٩٧٦ ، قالت :

«إن دولة جنوب إفريقية ترى أن الشرق الأوسط – الذى تتولى إسرائيل أمر الحراسة فيه ، على نحو متواضع ، ولكنه فريد – هو أعظم خطوطها الدفاعية تقدما ، وبعبارة أخرى : إن إسرائيل تحمى ، ويجب أن تحمى إلى أطول زمن ممكن مدخل الممر ، الذى يمكن أن يصير أعظم طريق للوصول إليها فى حالة الاضطرار .... إن مستقبل المرور بين البحر الأبيض المتوسط ، والمحيط الهندى ، وهو موضوع حاسم بالنسبة إلى إسرائيل – ليس بأقل أهمية بالنسبة إلى جنوب إفريقية ، وبنفس الدرجة من الأهمية التى يتمتع بها طريق الكاب .

فإذا حدث أن وقعت هذه المنطقة فى أيد معادية .... فإن الطريق البحرية للكاب سوف يُسْتَولَى عليها تبعا لذلك ، ومن ثم تصبح مشكلات الأمن بالنسبة إلى إفريقية الجنوبية عظيمة الخطر . وترى إسرائيل أن وجود أمة يقظة وقوية من الناحية الاقتصادية فى أقصى جنوب القارة الإفريقية يعتبر عنصرا أساسيا فى استراتيجية فعالة ، لتأمين مؤخرتها ...» .

إن ذلك يتجلى بصورة مادية ، لا فى الأعمال المذهلة ، مثل سفر فورستر إلى إسرائيل عام ١٩٧٢ – فحسب ، بل فى التعاون الوثيق ، العسكرى والتجارى ، والثقافى بين البلدين ، لاسيما وإن مما له دلالته أن فورستر رئيس الوزراء فى أشهر بلد عرف بعنصرية التفرقة ، قد حصل على رتبة جنرال ، خلال الحرب . فى منظمة أُسّاوا براندواج – Ossawa Brandwag المؤيدة للنازية [١] .

وقد نشرت صحيفة هاآرتز فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦ من إبريل عام ١٩٧٦ – إبان هذه الزيارة قولها : « نحن الذين كنا مولعين بالتفتيش فى مسلك الشخصيات خلال الحرب العالمية الثانية ، حتى من كانوا قليلى الأهمية ، فكيف لم نبال بماضى فورستر ؟ .... ألِأنّ مصلحة إسرائيل القومية أهم من الذكرى المقدسة للملايين الستة ، من ضحايا المذبحة النازية ؟ » .

لقد توثقت العلاقات بين الطرفين بالتدريج منذ جرت المحادثات الأولى عام ١٩٧٠ بين شيمون بيريز ووزير دفاع جنوب إفريقية ، بوتا Botha[٢] ، فالشركات الجنوب إفريقية تستخدم إسرائيل فى تجنب العقوبات الاقتصادية التى تفرضها عليها بقية العالم ، ثم إن الاتفاق بين إسرائيل والمجلس الاقتصادى الأوربى C . E . E . بشأن الخطة الاقتصادية ، والصناعية ، والعلمية – يسمح لهما بإدخال منتجاتهما فى بلاد السوق المشتركة . «ولكن توجد ، فوق جميع العلاقات الأخرى – الاتفاقية ذات القيمة الأساسية حول الخطة العسكرية بين البلدين [٣] .

---

(١) كتب فورستر عام ١٩٤٢ يقول : «إننا نؤيد قيام «قومية مسيحية» هى حليفة للقومية – الاشتراكية ، فى إيطاليا يسمونها : «الفاشية» ، وفى ألمانيا «القومية الاشتراكية» ، وفى جنوب إفريقية : «القومية – المسيحية» ، (ذكره هبل فى : جنوب إفريقية : العمال فى ظل التمييز والتفرقة) .

(٢) انظر : Sechaba – إبريل عام ١٩٧٠ .

(٣) س . ل . سالسبرجر : نيويورك تيمس فى ٣٠ من إبريل عام ١٩٧١ .

وتؤكد صحيفة التيمس اللندنية فى ٣ من إبريل عام ١٩٧٦ أنه: «بسبب الحظر المفروض على الأسلحة ، فقد صادفت دولة جنوب إفريقية بعض الصعوبات فى الحصول على المواد الحديثة، وقد كانت إسرائيل إحدى الدول النادرة التى قدمتها إليها ، بل ، ومكنتها – فضلا عن ذلك – من الانتفاع بالتجارب التى اكتسبتها أثناء الحروب ضد العرب .... وقد أصبحت جنوب إفريقية خلال السنوات الأخيرة تتشبه بإسرائيل ، تدريجيا ، وهم هناك يركزون كثيرا على أوجه التماثل بين تطور النظام الصهيونى ، وتطور النظام الأفريكانى» .

وهاهو ذا رئيس المؤتمر اليهودى الأمريكى يقرر ، عام ١٩٧٦ ، فى رسالة وجهها إلى الأمين العام للأمم المتحدة أنه «يذكر بالأسف أن إسرائيل تبرز مع عدد من الأمم التى تقدم السلاح إلى جنوب إفريقية» (١) .

ويعتبر اليورانيوم «عملة التبادل» الرئيسة بالنسبة إلى جنوب إفريقية ، التى تملك منه كميات ضخمة ، وهو بصفة خاصة موضع استئثار إسرائيل ، التى أصبح لديها منذ نوفمبر عام ١٩٧٦ ترسانة من ثلاث عشرة إلى عشرين قنبلة من نموذج هيروشيما (٢) .

وفى ٢٩ من يونيو عام ١٩٧٥ نشرت صحيفة هاآرتز الإسرائيلية مقالا بقلم شلومو أهارونسون ، يؤكد على «ضرورة إعادة النظر فى الوضع الإستراتيجى – السياسى ، الإسرائيلى» ، ويكتب المؤلف فيقول: «إن السلاح النووى هو إحدى الوسائل التى يمكن أن تقلب أمل العرب فى تحقيق نصر نهائى على إسرائيل ، .... وإن عددا كافيا من القنابل الذرية يمكن أن يحدث خسائر هائلة فى جميع العواصم العربية ، وأن يسبب انهيار سد أسوان .. ولسوف يكون بوسعنا ، بكمية إضافية من القنابل أن نضرب المدن المتوسطة ، والمؤسسات البترولية ... وفى العالم العربى مجموعة من الأهداف يترتب على

---

(١) هاآرتز – عدد ١٤ من نوفمبر عام ١٩٧٦ .

(٢) بريان بكت فى صحيفة (الشرق الأوسط الدولية) نوفمبر عام ١٩٧٦ .

تدميرها حرمان العرب من جميع الميزات التى حصلوا عليها من حرب كيبور .. » .

إننا نستطيع الآن أن نجيب على السؤال : كيف استطاعت دولة إسرائيل أن تكون لها هذه الأهمية فى إستراتيجية القوى العالمية ، حتى إنها تستطيع اليوم أن تهدد السلام العالمى ؟ ... فدولة إسرائيل لم تعد مجرد الوكيل المفوض للاستعمارية الجماعية الغربية فى الشرق الأوسط ، بل لقد صارت بالنسبة إلى الولايات المتحدة بخاصة – طرفا كبيرا فى علاقة القوى ، على رقعة الكرة الأرضية .

* * *

* * * * * *



الفصـــل الرابــع

المقاومــة الفلسطينية وتوقعاتـــها

لقد عاش الشعب الفلسطينى ، الذى ذاق الغزو غالب حياته ، طوال قرون مضت — عاش تراثا طويلا من المقاومة للمحتل .

وكانت الملحمة الأخيرة ، قبل الاستعمار الصهيونى ، هى ملحمة الصراع ضد السيطرة التركية التى سبق أن ذكرناها .

وبمجرد سقوط الإمراطورية العثمانية بدأت بالنسبة إلى الشعب الفلسطينى مقاومة استعمارية مزدوجة : إنجليزية وصهيونية ، وهى كسابقتها جزء من الكفاح الذى يخوضه مجموع الشعوب العربية ضد الاستعمارية .

وقد أعلن المؤتمر الشعبى الفلسطينى الأول ، منذ شهر فبراير عام ١٩١٩ ، والمنعقد فى القدس ، أعلن مطلبه فى الاستقلال ، شأنه فى ذلك شأن الشعوب العربية الأخرى ، وقد كان الحلفاء ، خلال الحرب العالمية الأولى . وعدوها به نظير مشاركتها فى سحق الإمبراطورية العثمانية المتحالفة مع ألمانيا .

وعندما كشف تآمر الاستعماريين الأوربيين ، لدى نشر الثوار الروس للاتفاقات السرية المبرمة بين روسيا وإنجلترا وفرنسا ، لتقسيم العالم العربى تقسيما استعماريا ، وحين ظهر التناقض الفاضح بين الوعود المبذولة للعرب من قبل ماكماهون فى رسائله إلى الشريف حسين ، وبين التعهدات التى بذلها البريطانيون ، بعد إعلان بلفور ، بأن ينشئوا ، لا «وطنا قوميا يهوديا» فى فلسطين ، لا يعدو أن يكون مركزا روحيا لإشعاع الدين اليهودى ، بل دولة صهيونية تفرض سيطرتها السياسية بدعم من القوى الغربية ، هنالك لم تعد مقاومة الفلسطينيين تقتصر على الاحتجاجات الشفوية التى يصدرها الأعيان : بل صارت حركة شعبية ، ولاسيما حركة الفلاحين المدافعين عن أرضهم ، ضد الغزاة الاستعماريين الجدد ، وهنالك تفجر غضب أولئك الذين أطلق عليهم «إعلان بلفور» بكل الخزى والعار لقب «السكان غير اليهود فى

فلسطين » ، وهم الذين كانوا يمثلون فى الواقع ٩٢ ٪ من السكان .

وقد ادعى « الإعلان » أنه يحافظ على حقوقهم ، وكان الاستعماريون الإنجليز ، ومحميوهم الصهاينة يلوكون هذه الحقوق بألسنتهم صراحة ، من حين لآخر .

ولقد تكاثرت الثورات من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٩ . وكانت أسبابها دائما هى هى ، على ما اعترفت به كل لجان التحقيق البريطانية فى « الاضطرابات » . فحين وضعت لجنة شو Shaw تقريرها عن السنوات العشر « لحرب الفلاحين » الفلسطينيين ، لاحظت أنها بعد أن تلقت شهادات الطرفين شعرت بأنه « قبل الحرب كان اليهود والعرب يعيشون جنبا إلى جنب ، إن لم يكن فى جو من الصداقة ، فعلى الأقل فى جو من التسامح [١] » .

وحين عادت لجنة شو الجديدة إلى بحث نفس المشكلة ، بعد انتفاضات عام ١٩٣٦ – وكان ذلك عام ١٩٣٧ – أخذت تحلل أيضا أسباب التغير العنيف فى العلاقات بين المجتمعين ، وكان مما قالت : « إن خيبة الأمل التى شعر بها العرب أمام عدم احترام البريطانيين للوعود التى قطعوها على أنفسهم بالاستقلال ، واقتناع العرب بأن إعلان بلفور يحرمهم من حقوقهم فى تقرير المصير ، مضافا إلى ذلك الخوف من إنشاء « وطن قومى يهودى » سوف يستتبع فى الواقع زيادة كبيرة فى الهجرة اليهودية – كل ذلك سوف يؤدى إلى عبوديتهم الاقتصادية والسياسية » [٢] .

ويبدو واضحا أن « تغير العلاقات يمكن أن يحدد هكذا : « لم يكن ثمت مطلقا نزاع خطير بين المجتمعين اليهودى والإسلامى ، ولكنه التعارض العنيف بين الاستعماريين الصهاينة ، وبين أبناء البلاد العرب ، (سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين) .

---

(١) ملفات الحكومة البريطانية المحفوظة ، « تقرير اللجنة عن الاضطرابات الفلسطينية » – أغسطس عام ١٩٢٩ (Cmd. ٣٥٣٠ ص ١٥٠) .

(٢) السابق ، لجنة تحقيق شو عام ١٩٣٧ .

ولقد أنشئت اللجنة التنفيذية العربية ، فى ديسمبر عام ١٩٢٠ ، منبثقة عن المؤتمر الشعبى الفلسطينى الثالث ، المنعقد فى حيفا ، وكانت مؤلفة من الأعيان الذين أرسل مندوبوهم فى إنجلترا العرائض ، والنداءات ، والدعوات إلى المظاهرات والإضرابات ، وبداهم أن ذلك كله لاأثر له .

واستطاعت الهجرة الصهيونية من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣١ ، فى ظل «الانتداب البريطانى ، أن تتضاعف : فقد قفز السكان المهاجرون من ٧٩٠ , ٨٣ – عام ١٩٢٢ ، إلى ٦٠٦ , ١٧٤ – عام ١٩٣١ ، وكان نشاط المنظمة الصهيونية (المسماة : الوكالة اليهودية) فى الاستيلاء على الأراضى مشابها : فقد قفزت من ٦٥٠ كيلو مترا مربعا عام ١٩٢٠ ، إلى ١٢٠٠ كيلومترا مربعا ، وكانت الشروط العنصرية للوكالة اليهودية تنص على أن هذه الأراضى تبعا لوضعها الخاص «ملكية لايمكن التصرف فيها ، للشعب اليهودى» ، فجعلت نزع الملكية الشامل يمضى فى اتجاه واحد ، وكان أخطر نتائج هذه العملية أن أكثر من ٩٨ ٪ من هذه الأراضى قد اشترى لحساب ملاك كبار (كانت أغلبيتهم تقيم فى الخارج) ، فعندما أصبحت «ملكية للشعب اليهودى لايمكن التصرف فيها» ، ومع قرار ألا يسمح بالعمل فيها إلا لليهود – وجد الفلاحون الفلسطينيون أنفسهم مطرودين من أراضيهم ، وهم الذين كانوا حتى ذلك الحين يعملون فى الأرض لحساب الملاك البعداء ، فاضطروا إلى النزوح إلى المدن ، كيما يتجولوا فيها إلى عاطلين فى أغلب الحالات .

وفى عام ١٩٣٠ كتب الدكتور أ . روبين ، خبير الوكالة اليهودية فى الزراعة والمستعمرات ، فى تقرير سرى إلى الوكالة ، يقول : «إن الأرض هى العنصر الضرورى لكى نثبت جذورنا فى فلسطين ، ولما كان من المعلوم أنه لا مزيد من الأرض العربية دون أن يكون لنا مزيد من العمال فى فلسطين فإنه يتعين علينا أن نكسب الأرض ، وأن نستعمرها حتى نزيح منها الفلاحين الذين يزرعونها ، وبذلك نطرد الملاك والمستأجرين معا» (١) .

---

(١) «السكان العرب فى فلسطين (بالعبرية«أراخيم Arakhim» ١٩٧١ – ٧٣) ص ١٠ .

فقد كان المرحلة الأولى من المقاومة الفلسطينية إذن «حرب فلاحين» أساسا، نزعت أراضيهم، وجردوا من وسائل معيشتهم.

وتبدأ المرحلة الثانية فى هذه المقاومة حين يترتب على اضطهاد اليهود فى ألمانيا، لا مجرد الزيادة الكمية فى الهجرة، بل تغيير فى طبيعتها: فعلى حين كان المعمرون الصهاينة حتى ذلك الحين - فلاحين وعمالا، إذا بالاتفاقات المالية بين الزعماء الصهاينة وبين النازيين تتوصل إلى هجرة من نوع جديد، (إذ كان يجب دفع ألف جنيه استرليني على الأقل، ضمانا لمغادرة ألمانيا). فكانت الهجرة الجديدة هجرة للأغنياء الماليين، هجرة تستهدف رءوس أموالهم، ورجال الصناعة والتقنية، الرفيعى المستوى فيهم. وكذا نما بسرعة القطاع البنكى، والاستثمارات الصناعية للصهاينة فى فلسطين. أما العمال اليهود المهجرون، الذين وفدوا قديما - (ومنهم الفارون من الثورة الروسية عام ١٩٠٥، فبدلا من أن يستمروا فى كفاحهم ضد الاضطهاد القيصرى، وإلى جانب العمال الروس الآخرين - هربوا إلى فلسطين هم وأولادهم)، وقد كانوا على خط التنظيم الصهيونى الذى حظر تشغيل الفلاحين غير اليهود فى الأرض، ثم امتد هذا المبدأ إلى المصانع - فقد طبق تنظيمهم «النقابى» «الهستدروت» نفس الاستثناء العنصرى، ونشر كلمة نظام «العمل اليهودى» كيما يحافظ على احتكار اليد العاملة اليهودية فى المشروعات، مبعدا بذلك العمال العرب، من الوظائف الصناعية، ومن الوظائف الزراعية على سواء.

لقد تضخمت المقاومة العربية إذن، واشتدت، ولم تكن سوى «حرب فلاحين» بلا أرض، وامتدت الحرب إلى مجموع العمال، المهددين فى وظائفهم، فى القطاع الصناعى.

ثم تأخذ هذه المقاومة صفة جديدة: فقد كانت ثورات الفلاحين حتى ذلك الحين محلية، متفرقة، وموجهة ضد الغاصب البدهى: المستعمر الصهيونى.

فلما امتدت الحركة إلى العمال، وإلى القطاعات المدنية أخذت صفة أكثر تركيزا، وأكثر وعيا: فبدأت تهاجم بخاصة جزر الشر، أعنى السيطرة الاستعمارية البريطانية، التى لولاها ماكان التسلل الصهيونى إلى فلسطين ممكنا.

لم يعد الأمر أمر ثورة محلية للفلاحين والبسطاء ، بل أصبحت حركة جماعية ، وقد تجسد هذا الشكل الجديد من المقاومة ، من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٥ فى الشيخ عز الدين القسام ، وهو رائد الصراع المسلح ، المعتمد على الجماهير الشعبية . ولم يعد الأمر ثرثرة أعيان ، بما معهم من متحدثين فى لندن ، بل أصبح نشاطا ضد الاستعمار تقوم به الجماهير ، ذا أهداف محددة : أصبح ثورة باسم الإسلام لإنهاء الانتداب البريطانى ، وبذلك يمنع نقل السلطة إلى الصهاينة .

وقد نظّم القسام ، عام ١٩٣٣ تعبئة العمال والفلاحين ، فى الأحياء المغضوب عليها فى حيفا ، والتى نشأت نتيجة الهجرة الريفية للفلاحين بلا أرض ، وللعمال المحرومين من أعمالهم ، بسبب السياسة العُنْصرية للصهاينة ، «وللهستدروت» .

وفى عام ١٩٣٥ ، حين تجمعت بهذه الطريقة حركة ثورية حقيقية ، نقل القسام مركز قيادته من حيفا إلى الريف ، وهناك دارت حرب عصابات ، تعتمد على الفلاحين ، وقد كانت فى الريف أفعل منها فى المدن ، حيث كانت تتركز الفرق الإنجليزية .

وفى ١٩ من نوفمبر عام ١٩٣٥ قتل القسام ، وسلاحه فى يده ، فى معركة حاصر فيها ستمائة جندى بريطانى مركز قيادته العامة ، وكان معه خمسة وعشرون من أنصاره .

وجن جنون قواته لموته ، فاستجمعوا أمرهم ، وأعلنوا التمرد العام ، سنة ١٩٣٦ ، والذى استمر حتى بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ .

لقد شل الإضراب العام جميع القطاعات العاملة ، معتمدا على المقاومة المسلحة التى أزعجت القوات البريطانية ، وقوات الشرطة . والمستعمرات الصهيونية .

ولقد كان الاضطهاد البريطانى غاشما ، فوصلت إلى الإنجليز مساعدات عسكرية ، واشتركت معهم الهاجاناه والمجموعات الإرهابية الصهيونية الأخرى ، وإذا بالمجاهدين العرب (مسلمين أو نصارى) – مطاردون فى كل مكان : اعتقالات جماعية ، وإعدام بلا محاكمة ، واحتجاز فى معسكرات

التجميع ، وقد اشترك فى هذا الاضطهاد عشرون ألفا من الجنود البريطانيين ، وثلاثة آلاف من الشرطة ، «والاحتياطيون» الصهاينة ، وقد قرر المؤرخ اليهودى الأمريكى نورتون ميزفنسكى ، أن عدد القتلى كان ثلاثة آلاف ، وستة آلاف معتقل ، وأُعْدِام مائة وعشرة من الزعماء .

ومات من الإنجليز مائة وخمسة وثلاثون ، وجرح ثمانمائة وسبعة وستون ، أما الصهاينة فقد قتل منهم ثلثمائة وتسعة وعشرون ، وجرح ثلثمائة وستة وثمانون .

وبرغم ذلك إن هذا الاضطهاد لم يقض على التمرد ، الذى لم يتوقف إلا عندما بدأت الحرب العالمية الثانية ، وخشى الإنجليز من تشتت قواتهم فوعدوا مرة أخرى الفلسطينيين فى «كتاب أبيض» ، بالاستقلال ، وبتحديد الهجرة الصهيونية ، وجاءت نداءات بوقف القتال من قبل قادة الدول العربية ، المجاورة ، الذين اعتقدوا ، أو تظاهروا بالاعتقاد فى صدق هذه الوعود ، فَعُلِّق الصراعُ إلى حين .

وبعد الحرب دعت الحكومة البريطانية من سبتمبر عام ١٩٤٦ إلى فبراير عام ١٩٤٧ إلى مؤتمر فى لندن ، كيما تجد حلا سياسيا للمشكلة الفلسطينية ، وقدمت الهيئة العربية العليا اقتراحاتها ، وهى : إعلان استقلال فلسطين (وعد عام ١٩٣٩) ، وجميع اليهود الموجودين فى فلسطين حينئذ (بعد نهاية الاضطهاد الهتلرى) يمكنهم أن يختاروا الجنسية الفلسطينية ، فيتمتعوا بجميع حقوق الفلسطينيين الآخرين .

هذا مع انتفاعهم بوضع يضمن لهم حقوقهم الثقافية والدينية أما توزيع السلطات على المستوى التنفيذى والتشريعى بين العرب (مسلمين أو مسيحيين) وبين اليهود – فسوف يقوم على النسبة العددية بين المجتمعين .

بيد أن الزعماء الصهاينة رفضوا هذه المقترحات ، ابتداء ، لأنهم كانوا يعلمون أن العرب كانوا ممنوعين من تملك السلاح ، منذ انتفاضتهم ، فى عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩ ، على حين أن المنظمات العسكرية ، وشبه العسكرية – الصهيونية كانت تتلقى من الغرب تسليحها بكميات هائلة .

وقد أفاد هؤلاء الصهاينة من كون خصومهم مجردين من السلاح ، فأشاعوا الرعب ، ونظموا حرب الإبادة فى جميع المدن ، كما حدث فى دير ياسين ، فاضطروا بهذا الفلسطينيين المجردين من السلاح إلى الهرب .

لم تقاوم سوى مجموعة كانت تملك وسائل عسكرية تافهة ، قاومت حول القدس ، بقيادة عبد القادر الحسينى ، الذى قتل عندما استولت القوات الصهيونية على القسطل ، فى إبريل عام ١٩٤٨ .

وأمام المذابح قررت الدول الجيوش العربية المجاورة - أخيرا — أن تتدخل ، فى ١٥ من مايو عام ١٩٤٨ ، وقد كانت من قبل ترفض أن تعطى للمقاومين الفلسطينيين أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم ، وفى مواجهة ٦٠, ٠٠٠ ستين ألفا من الرجال ، المدربين ، هم قوام الجيوش الصهيونية دخلت الجيوش العربية التى لم تبلغ قوتها فى جميع الجبهات سوى ٢٢, ٠٠٠ اثنين وعشرين ألف رجل ، غير منظمين ولا مدربين ، وقد وصلوا بعد المذابح [١] ، والاستيلاء على الأراضى ، فكان نصيبهم الهزيمة ، وسيطر الصهاينة على ٧٨ ٪ من الأراضى الفلسطينية .

ومرة أخرى ، بدأ مصير فلسطين يتقرر فى جوهره خارج فلسطين ، منذ ذلك الحين ، يتقرر فى الإيمان الحى لشعب حكم عليه جميعه بالشتات من جانب الاستعمارية الصهيونية .

وما كان للصراع أن يستمر إلا انطلاقا من البلاد التى استقبلت اللاجئين ، فكان أولا من مصر : ومنذ عام ١٩٥٠ كان هناك مجموعات صغيرة من المناضلين الفلسطينيين ، يتسللون إلى إسرائيل ، من غزة ، ليقاتلوا المحتل داخل الديار .

---

(١) سبقت إشارة إلى دور جماعات الفدائيين المتطوعين من جماعة الإخوان المسلمين فى خضم هذه المرحلة . (المترجم) .

هذه المحاولة لتحرير فلسطين بالكفاح المسلح تتجسد عام ١٩٥٧ فى إنشاء أول حركة منظمة للمقاومة الفلسطينية ، منذ إعلان دولة إسرائيل ، كانت «فتح» هى التى دعت الفلسطينيين إلى أن يتحملوا عبء مصيرهم الخاص .

وخلال الستينيات وقع حادثان فرضا توجيها جديدا ، وحققا تطوراً لحركة المقاومة الفلسطينية :

أولهما : وقع عام ١٩٦١ ، وهو فشل محاولة الاندماج بين مصر وسورية فى دولة واحدة هى «الجمهورية العربية المتحدة» ، وقد زلزل هذا الفشل الفكرة «القومية» (ذات الطابع الغربى) . والتى لاعلاقة لها بالفكرة الإسلامية «للأمة» ، وقد كان مُنَظِّروها من المسيحيين ، بما يحمل ذلك من مغزى ، وقد تمت صياغتهم فى المدرسة الغربية ، من أمثال ميشيل عفلق ، زعيم الحركة القومية «البعث» فى سورية والعراق ، أو مثل جورج حبش (فى المقاومة الفلسطينية) . وقد هدم هذا الفشل الوهم الذى كان يخيل لأصحابه أن الوحدة العربية هى مقدمة ضرورية للتحرير .

وثانيهما : تحرير الجزائر عام ١٩٦٢ ، بعد صراع طويل مسلح ، وهو يدعم اليقين بأن الاستعمارية يمكن أن تهزم ، حتى مع ضعف الوسائل العسكرية الخالصة ، عندما يخوض شعب بأكمله حلبة الصراع من أجل الحرية .

هذه التجربة المزدوجة تلعب دورا كبيرا فى إنشاء منظمة تحرير فلسطين (O . L . P) فى أول يونيو عام ١٩٦٤ ، فى أول مجلس وطنى فلسطينى ، انعقد فى القدس ، ليصوغ ميثاق الحركة .

ومما تجدر ملاحظته أن هذا الميثاق ، بعكس الأكاذيب التى تشاع عنه من جانب الدعاية الصهيونية – لم يكن موجها قط ضد اليهود ، ولا ضد دينهم ، ولكنه على الأخص ضد السيطرة ، والاضطهاد السياسى للدولة – الصهيونية .

وتنص المادة الأولى منه على أن «الشعب الفلسطينى جزء من الشعب العربى» .

والمادة الثانية هى «اليهود الذين عاشوا فى فلسطين فى إقامة دائمة ، حتى بداية الغزو الصهيونى يعتبرون فلسطينيين» .

وهكذا انتفت منذ البداية أية نزعة إلى التمييز الدينى أو العنصرى .

ويذكر الميثاق مبدأ وواقعا فى نفس الوقت ، فيقول : « إن تقسيم فلسطين ، عام ١٩٤٧ ، وإقامة إسرائيل .... يتعارضان مع ميثاق الأمم المتحدة الذى يعترف قبل كل شىء بحق تقرير المصير . » .

ولقد كان أمرا غاية فى الأهمية ألا ينظر إلى المشكلة التى طرحتها الاستعمارية الأوربية فى فلسطين ، وطرحها القرار غير الشرعى للأمم المتحدة – على أنها قضية قومية ضيقة ، بل على أنها عنصر فى كلٍّ ، هو الهلال الخصيب ، الذى لايضم فلسطين فحسب ، بل إن العالم العربى بأجمعه يعتبر مكونها من مكوناته .

وكان أيضا فى غاية الأهمية أن يعرف أن الهدف المحدد ليس – كما أشيع غالبا فى الغرب من جانب الدعاية الكاذبة للصهاينة – « إلقاء اليهود فى البحر » ، فالفلسطينيون (مسلمين أو مسيحيين) لايقاتلون ضد دين ، أو ضد جنس ، بل ضد اضطهاد استعمارى ، وضد الإيديولوجية السياسية ، التى تزعم أنها تبرره : الصهيونية السياسية .

ولقد نص إعلان اللجنة المركزية لحركة فتح (كبرى منظمات المقاومة الفلسطينية) . فى الأول من يناير عام ١٩٦٩ – بقوة فى فقرته الثانية على أن « حركة التحرير الوطنى الفلسطينى (فتح) لا تقاتل ضد اليهود ، باعتبارهم مجتمعا عرقيا أو دينيا ، بل إنها تقاتل ضد إسرائيل ، التى هى تعبير عن استعمار قائم على نظام نظرى عرقى وتوسعى ، تعبير عن الصهيونية والاستعمارية .

وينص البرنامج السياسى المشترك للمجلس الوطنى الفلسطينى السابع ، فى عمان ، عام ١٩٧٠ على أن « هدف الثورة الفلسطينية هو تصفية الكيان الصهيونى » ، والتعبير بكلمة : (كيان – Entité) محدد لالبس معه ، ولكنه يشير بخاصة إلى ان العدو هو فعلا الصهيونية ، إيديولوجيتها ، ومؤسسات دولتها ، وليس العدو أشخاصا ولا ديانتهم .

إن هذا أمر فى غاية الوضوح ، وهو لا يزال موقفا ثابتا لحركة المقاومة الفلسطينية .

وفى مقابل ذلك نجد أن الصياغات الأولى للبرنامج ، – فى السياق التاريخى للعصر – تحمل أحيانا طابع نزعة قومية غريبة عن التقاليد الكبيرة للهلال الخصيب ، وغريبة أيضا عن الإلهام الإسلامى «للأمة» (وهى المجتمع الدينى المفتوح) ، خضوعا لتأثير الأفكار الناصرية والبعثية عن القومية ، فقد قيل فى ميثاق عام ١٩٦٨ : «إن فلسطين ، فى الحدود التى كانت على عهد الانتداب البريطانى ، تشكل وحدة لاتقبل الانقسام» ، وهذا الرجوع الغريب إلى «الانتداب البريطانى يكشف عن خطأ نظرى أساسى : وهو قبول واقع التمزيق الاستعمارى للأمة ، وهو متناقض مع التأكيد ذى الأساس التاريخى ، القائل بأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الهلال الخصيب ، وهى فيه حلقة وسطى بدونها ينقطع التخاصب المتبادل على مدى آلاف السنين ، بين العراق ومصر .

وأثر آخر من آثار ذلك العصر ، فى عبارة : «إن «الصراع المسلح» يعتبر «الوسيلة الوحِدَة لتحرير فلسطين» .

ولقد كان هذا قولا مريبا عام ١٩٦٨ ، ليس فقط لأن الاستعمار القائم على بناء المستعمرات فى تلك الفترة ، وقد تميز بإيقاع مجنون ، نتيجة إرهاب دولة الإسرائيليين – أخذ يطرد الفلسطينيين ، حتى جعلهم أقلية هزيلة فى فلسطين ، بل لأن الصهاينة الإسرائيلين بخاصة كانوا يتمتعون بوسائل عسكرية متفوقة إلى أقصى درجة ، وبدعم لامشروط ولا محدود من الولايات المتحدة ، فى حين أن المقاومة البطولية للفلسطينيين لم تكن تدعم إلا بالكلام من قبل الدول العربية ، إن لم تشلها أو تقاومها بعض هذه الدول .

وفضلا عن ذلك نجد أن الشبكة الصهيونية للدعاية والإعلام ، عبر رقابتها على «الأجهزة» فى الولايات المتحدة [1] ، وفى جميع البلدان الغربية – منظمة تنظيما قويا ، على نحو دقيق ، حتى إنها تستطيع من خلال الصحافة ، والإذاعة ، والتلفزيون ، والفيلم – أن تؤثر فى الرأى العام الغربى لتجعل من

---

(١) انظر فيما مضى تقرير فولبرايت (ص ٤٠٩ ومابعدها) ، وكتاب ألفريد ليلنتال (التجمع الصهيونى – Zionist Connection) و (أى ثمن يا إسرائيل ؟ ? What Price Israel ط . شركة هنرى رجترى شيكاغو – ١٩٤٦ (ظهر عام ١٩٨٣) .

الأسود أبيض ، ومن الأبيض أسود ، فهى تحول أدنى نشاط للمقاومة إلى «إرهاب» ، وهى تحول «إرهاب الدولة» الذى تمارسه ، وعملياتها العدوانية إلى «دفاع مشروع» ، وهكذا حدث منذ قيام إسرائيل ، فإن نسبة الضحايا تصل إلى مائة مناضل يقتل مقابل إسرائيلى واحد ، أما عند الرأى العام الغربى المتلاعَبِ به فإن «الإرهابيين» هم الفلسطينيون ! .

وفى مقابل ذلك نجد أن أثر الوكالات العربية ومنظماتها الإعلامية باطل من الناحية العملية ، فلكل بلد عربى دعايته الذاتية الإقليمية ، لا يحسب معها حسابا للمصلحة المشتركة ، ولا يكيف أسلوبه فى العمل والبيان مع العقلية الغربية .

ولا أحد فى المعسكر العربى ، حتى فى الفلسطينيين ، يدرك أن القوة الأساسية للصهياينة ليست القوة العسكرية ، ولكنها قوة التلاعب بالرأى العام الغربى .

ولو أننا تصورنا للحظةٍ أن تنظيما لشبكة إعلام ودعاية قد تكيف طبقا للظروف الغربية ، وقد استطاع - مثلا - أن يكشف عن الوجه الحقيقى للصهيونية ، بحيث بدأ الرأى العام الأمريكى أو الأوربى يطالب بتخفيضٍ ، ولو ضئيل ، للمساعدة المالية والعسكرية لإسرائيل ، فربما كان لذلك قدرٌ من الأهمية أعظم على وجه الإطلاق من مائة عملية عسكرية ناجحة ، لأن الرعب سوف يكون بهذا المقدار لدى القادة الإسرائيليين ، الذين يعرفون جيدا أنهم لن يصمدوا ثلاثة أشهر - رغم مايظهرون من مباهاة وتفاخر - لا اقتصاديا ، ولا عسكريا ، دون أن ينزل عليهم المن والسلوى من الغرب ، وأنهم سوف يجبرون على الجلوس إلى مائدة المفاوضات ، وعندها سوف ترى الصهيونية العالمية ، وقد قصم ظهرها ، أن تتخلى عن روح الانتقام ، وأن حلا مسالما يمكن التوصل إليه من أجل التعايش فى فلسطين ، بين اليهود ، كل اليهود الذين يعيشون فيها حاليا ، وبين العرب ، مسيحيين أو مسلمين .

لقد قال ياسر عرفات :

«إن القدس ، بتاريخها الدينى ، وقيمتها الروحية ، شاهد على حضورنا

الخالد ، من أجل الأجيال القادمة ، هى شاهد على حضارتنا ، وعلى قيمتنا الإنسانية ، وليس غريبا أن ولدت تحت سمائها الأديان الثلاثة ، وأن هذه الأديان تسطع على أفقها لتهدى الإنسانية» ، ثم أضاف وهو يذكر ألم شعبه الطويل: «إن كل هذا لم يجعلنا عرقيين ... ومن أجل هذا نحن نأسى لكل الجرائم التى اقترفت ضد اليهود ...

«وإنى ، باعتبارى رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، أدعو اليهود ، كلا منهم بشخصه ، إلى أن يعيدوا النظر فى طريق الهاوية التى تقودهم إليها الصهيونية ، والزعماء الإسرائيليون ، إنها طريق سوف تؤدى بهم إلى نزيف دموى ، مستمر ، يصر على إعلان الحروب ، ويستخدمهم لحما تطعمه المدافع ، إننا ندعوكم إلى أن تلزموا أنفسكم طريقا أخرى ، متحررة من مغامرات قادتكم ، الذين يريدون أن يعمموا العقدة الانتحارية للمسادة [1] Massada وأن يقنعوكم بمصير حتمى . إننا نوجه إليكم أكرم نداء ، حتى نعيش معا سلاما عادلا فعلا ، فى فلسطيننا الديموقراطية .

---

(١) فى القرن الأول الميلادى كانت فلسطين تحت حكم الرومان ، بعد أن تغلبوا على مملكة المكابيين اليهودية فى منتصف القرن السابق ، وفى عام ٦٦ ميلادى - ثار اليهود على الحكم الرومان ثورة عارمة استمرت أربع سنوات ، واستطاع الرومان فى عام ٧٠ ميلادى التغلب على تلك الثورة وإخمادها ، فيما عدا نقطة دفاع واحدة استمرت فى المقاومة حتى عام ٧٣ ميلادى ، وهى نقطة جبل المسادة ، وكانوا تحت قيادة اليعازر بن يائير ، ولما أحكم الرومان الحصار حول الجبل ، وبدأوا فى مهاجمته أدرك المحاصرون أنه لم يبق أمامهم إلا الاستسلام أو الموت ، فاختاروا الموت ، وهكذا انتحر ٩٦٠ شخصا من الرجال والنساء والأطفال ، فأجهزوا على حياتهم بأيديهم منتحرين (كتاب Massada - لإيجال يادين - ط . القدس - التاسعة - مارس ١٩٧٦ - ص ١١ - ١٢) .
(المترجم) .

وإنى باعتبارى رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية أعلن أننا لانود مطلقا أن نريق نقطة دم واحدة يهودية وعربية ، ونحن لن نعمل مطلقا على متابعة الحرب لدقيقة واحدة لو أننا وجدنا سلاما عادلا ، قائما على حقوق شعبنا ، ومطامحه ، وآماله(١) .

إن المسيرة الطويلة للمقاومة الفلسطينية تسمح لنا اليوم بأن نسجل مراحلها ، وبأن نلمح توقعاتها فى المستقبل .

ففى مرحلة أولى بدت استحالة تنظيم المقاومة انطلاقا من مصر ، وقد أجبر ذلك المقاومة الفلسطينية على نقل قواعدها إلى بلد آخر مجاور ، هو الأردن .

وهناك ، ظهر للمرة الأولى التعارض الأساسى الذى تصطدم به المقاومة الفلسطينية فى العالم العربى .

ولم تملك الدول العربية المختلفة أن تخفى تضامنها مع المقاومة الفلسطينية ، فهى فى البداية ترمز إلى الصراع ضد الاستعمار الغربى ، وضد ربيبته الموغلة فى الدموية : الصهيونية ، وفضلا عن ذلك ، فبعد تمزيق المجتمع الإسلامى (الأمة) ، بمختلف أشكال الاستعمارية ، وبعد تفتيت المجتمع العربى إلى دويلات - قوميات ، حسب النموذج الغربى ، وحسب إرادة التقسيم لدى قدماء الاستعماريين - أصبحت فلسطين قطعة من اللحم انتزعت من هذا المجموع ، ولهذا نجد أن الدول العربية ، مهما يكن النظام الحاكم فيها - لا تستطيع أن تتملص منها ، دون أن تثير استنكار الجماهير الكثيرة فى بلادها ، إن لم تكن ثورتها من أجل الالتزام بتأكيد مساعدتها ، إما بالمال ، وإما ببعض القرارات ، حتى ولوكانت شفهية ، تعلن تضامنها مع الكفاح من أجل «الحقوق الثابتة للشعب الفلسطينى» .

والواقع أن هذا التأييد هو دائما محدود ، بل هو باطل ، بفعل هموم أخرى ، فوضع فلسطين ذاته يكشف عن مساوىء غيبة الوحدة عن العالم العربى ، ولو كان العالم العربى متحدا ويقظا لما كان لمشكلة الصهيونية فى

---

(١) ياسر عرفات : خطابه فى الأمم المتحدة : بتاريخ ١٣ من نوفمبر عام ١٩٧٤ .

فلسطين أن تأخذ هذه المسحة الحالية مطلقا ، وهكذا تكون فلسطين تعبيرا عن إحساس الدول العربية بالخطأ ، لاسيما أن المقاومة الفلسطينية تشكل اتهاما صريحا «للأوضاع الراهنة» ، وهى تحمل فى ذاتها الأمل فى التغييرات الثورية التى لاتقتصر على فلسطين .

وقد أعلن الميثاق الفلسطينى الوطنى منذ عام ١٩٦٨ ، فى مادته الرابعة عشرة أن : «مصير العالم العربى» ، بل والوجود العربى [١] إنما يرتبط بمصير فلسطين .... وإن الشعب الفلسطينى يقوم بدور الطليعة ... » .

ويحدد قرار اللجنة المركزية لحركة فتح فى الأول من يناير عام ١٩٦٩ أن «الثورة الفلسطينية ، حين لاترتبط بمجال محلى واحد ، وحين تتوسع فى مؤسساتها الاقتصادية والاجتماعية الخاصة .... سوف تصبح بالضرورة خميرة تعمل على إنضاج وضع ثورى فى العالم العربى .... والثورة الفلسطينية تعتبر فى الواقع وطن الثورة ضد النظم الاقتصادية ، والإيديولوجية والسياسية البالية» .

إن مطلبهم المشروع لأرض عملوا فيها منذ قرون ، ثم طردوا منها بيد المعمرين الأجانب – ليعبر فى صورته الثورية عن الطموح الكامن لدى جميع القرويين والفلاحين الذين يشعرون بأن الأرض ملك لمن يعمل فيها ، ومثال الجزائر ذو دلالة على مانقول : فإن ديناميكية الصراع من أجل نزع ملكية المعمرين الأجانب قد استطالت ، وهى تتطلب إصلاحا زراعيا ، يدين بصفة عامة الامتيازات الإقطاعية لكبار ملاك الأراضى ، حتى ولو كانوا «قوميين» .

بيد أن ذلك لم يكن سوى جانب من دور خميرة المستقبل ، (وهو بالنسبة إلى الجامدين القوة «المدمرة») للمقاومة الفلسطينية .

وهى على المستوى السياسى تمثل أيضا الحركة ضد الاتجاه المحافظ ، وإن التأييد الشعبى الجماعى ، القريب من الإجماع ، والذى تتمتع به منظمة التحرير الفلسطينية – رغم الانشقاقات الداخلية المثارة فى أغلب الأحيان من الخارج ، من قبل الدول التى تود أن تتحكم فيها ، أو على الأقل توجه هذه

---

(١) انظر قبل ذلك (ص ٥٦٢ وما بعدها) الخطة الاستراتيجية الصهيونية ، (١٩٨٢) لتفتيت جميع الدول العربية .

القوة النشيطة لمصلحتها – هذا التأييد أتاح لها – رغم كل صعوبات السرية ، ولاسيما عقبات التفرق والمنفى – أن تنجز لنفسها أجهزة ديموقراطية ، ففى مجلسها الوطنى ، وهو برلمان حقيقى فى المنفى ، تمثل الحركات المختلفة (حركات المقاومة ، والاتحادات النقابية أو المهنية) تبعا لقاعدة نسبية ، وتعتبر الأغلبية السياسية والاعتقادية شرط الوحدة ، فالمسيحيون والمسلمون جزء منها دون أدنى تفرقة ، وحتى المشروعات الصناعية ، والزراعية والسينمائية ، التى تكوّن جنينا للاقتصاد الفلسطينى المستقبل ، هذه المشروعات يبرز فى تنظيمها ذاته طابع الديموقراطية القائمة على المشاركة .

ولقد حددت منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٩ هدفها : وهو إنشاء دولة ديموقراطية فى فلسطين . إن استهلالًا كهذا ، وإرادة للديموقراطية فى المنظمة من هذا القبيل – يحركان أصداء عميقة فى جماهير الشعب ، الذين أصبحت فلسطين بالنسبة إليهم رمزا عاليا ، ولاسيما فى البلدان العربية ، حيث تعتبر المقاومة الفلسطينية وجه الأمل لكل الشعوب .

بيد أن هذا الإشعاع ذاته ، والمنطق الداخلى للتعبير عنه – يحركان أيضا القلق ، وأحيانا الخصومة ، لدى القادة السياسيين الساهرين الحريصين على التفرد بالسلطة ، وعلى جمودها ، وعلى رعاية مصالحهم الشخصية أيضا ، المحبوسين فى إطار حدودهم التى توصنف «بالقومية» ، حتى ولو كان ذلك ضد حاجات الوحدة العربية ومتطلبات «الأمة» الإسلامية . وزد على ذلك أن الدول المجاورة لإسرائيل يسيطر عليها الخوف من الانتقام أو العدوان على أراضيها الخاصة ، من جانب الإسرائيليين الذين يفيدون من المساعدة غير المشروطة ، وغير المحدودة للولايات المتحدة ، ومن تواطؤ أغلبية البلدان الأوربية .

وحتى على المستوى الدينى ، فالمفروض أن يكون الشغل الشاغل للفلسطينيين من الناحية الشرعية المحضة ، أن يحتفظوا بوحدة أخوية مع المسيحيين ، وأن تكون إرادتهم واضحة فى ألا يخلطوا مطلقا معارضتهم للصهيونية السياسية ، والعنصرية ، والمغتصبة بأقل قدر من الخصومة مع اليهود ، وديانتهم التى تستمد جذورها من نفس التقليد الإبراهيمى ، شأن

المسيحية والإسلام . بيد أن هذا الانفتاح كله قد يمتزج أحيانا ببعض الريبة من جانب الزعماء السياسيين ، وزعماء الطوائف الدينية يميلون إلى تحديد الإسلام وحصره ، أى : أن يجعلوا الخضوع لله ، وهو مفهوم «الإسلام» ، خضوعا لتقليد خاص .

لقد تعرض ياسر عرفات فى خطابه المدوى بالأمم المتحدة ، يوم ١٣ من نوفمبر عام ١٩٧٤ لموضوع المحافظة على «مهد الأديان الموحدة» ، وأعلن : «إننا نفرق بين اليهودية والصهيونية ، ونحن نعارض الاستعمارية الصهيونية ، **ولكننا نحترم الإيمان اليهودى ، لأن هذا الدين جزء من ضميرنا**» — هذه التفرقة الواضحة بين اليهودية والصهيونية ليست موضع احترام دائما ، فى بلاد ، مازالت مثلا تعمل على نشر «بروتوكولات حكماء صهيون» ، المزورة الفجة الملفقة فى بداية القرن العشرين ، على يد الشرطة القيصرية ، كما بينا ذلك من قبل (ص ٣٧٣ ومابعدها) ، وحيث نجد اليهود غير مقبولين فى جميع البلدان العربية ، ماعدا المغرب ومصر ، وإيران (فلم يقتصر الرفض على الصهيونيين فى هذا العالم العربى) !! . فإذا كان شيوخ الطوائف ، والقادة السياسيون لا يقدرون أن ينكروا أن هذا الدين جزء من الضمير الإسلامى (لأن القرآن يقول ذلك صراحة) ، فإنهم يجهلون الكتاب المقدس جهلا عميقا ، كما يجهلون الجانب الروحى ، اليهودى — المسيحى .

هذا الاتجاه المؤسف إلى «حصر» الإسلام مناف لروح الرسالة القرآنية ، وهو يمحو الجدة المؤثرة لهذه الرسالة : فالإسلام ، بمعنى الخضوع والاستسلام لإرادة الله ، هو القاسم المشترك لجميع الأديان ، منذ آدم ، أول إنسان ، وأول نبى ، وجميع الأنبياء المرسلين إلى جميع الشعوب ، هم رسل الله الواحد ذاته .

ومن هنا أيضا تتجه نحو فلسطين ، أرض الرسالات الإلهية . وجوه كل أولئك الذين يطمحون إلى أن يعيشوا فى جماعة مع المطلق ، يخامرهم القلق ، ويحدوهم الأمل ، سواء فى ذلك من كانوا فى المجتمع الإسلامى ، ومن كانوا فى المجتمع الإنسانى .

إن المقاومة الفلسطينية ، وهى تحمل هذه الرسالة الثرية ، وتحمل معها آمالا كبارا — تحاول أن تفجر فى كل مكان الأطر الضيقة للأنانية القومية ،

وللسلطات الفردية ، وللطائفية الدينية ، ولاختلاط الفولكلور بالثقافة .

وإذا كان الاصطدام الأول ، والأعنف قد حدث فى الأردن ، فذلك لأن هذه الأسباب العامة قد أضيفت إليها ظروف خاصة ، فالأردن بلد له حدوده الواسعة الممتدة ، المشتركة مع الدولة الإسرائيلية ، ومن هنا تكون مخاطرات الانتقام أكبر . أضف إلى ذلك أن أغلبية السكان فى الأردن فلسطينيون ، والخوف من أن تزاح السلطة الحالية بسلطة فلسطينية هو أكبر فى الأردن منه فى أى بلد آخر .

وأخيرا ، فإن استيلاء الأردن على الضفة الغربية بعد حرب عام ١٩٤٨ قد خلق كثيرا من الأحقاد ، خصوصا وأن الأردن قد قبل قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، كما قبل مشروع روجرز . الذى لا يعترف مطلقا للفلسطينيين بحقهم فى دولة مستقلة بفلسطين ، وهو لاينظر إلى المشكلة إلا باعتبارها مشكلة حدود بين إسرائيل والدول المجاورة ، وعلى هذا لم ينظر إلى الفلسطينيين على جانبى هذه الحدود إلا على أنهم «لاجئون» .

ومع ذلك إن العمل المشترك بين الفلسطينيين والأردن قد كشف عن قوته ، وأقوى الأمثلة على ذلك معركة الكرامة . والكرامة بلدة صغيرة فى وادى الأردن ، وقد صارت منذ عام ١٩٦٧ إحدى القواعد الرئيسة للمقاومة الفلسطينية . وفى ٢١ مارس عام ١٩٦٨ هاجم عشرة آلاف من الجنود الإسرائيليين المدينة ، على بعد أربعة كيلومترات من خط وقف إطلاق النار . كان الفدائيون الفلسطينيون ثلثمائة ، يساندهم جنود أردنيون ، وقد قرروا ألا ينسحبوا ، وبعد خمس عشرة ساعة من القتال اضطر الإسرائيليون أن يقاتلوا منسحبين ، وقد تحملوا خسائر فادحة .

لقد أعطى هذا النصر دفعة كبيرة للمقاومة ، وفى يناير عام ١٩٦٩ تحققت وحدة حركات المقاومة فى منظمة التحرير الفلسطينية ، وأصبح ياسر عرفات زعيم أهم هذه الحركات (فتح) رئيسا لها .

وقد توصلت المقاومة حتى عام ١٩٧٠ إلى تنظيم أعمال كثيرة فى كل يوم لضرب المحتل الصهيونى ، سواء فى الأراضى المحتلة ، أو فى قلب الدولة الصهيونية .

بيد أن هذا النجاح الكثير ، وما كسبته المقاومة الفلسطينية بفضله من مهابة – أدى بالسلطات الأردنية إلى أن ترتاب فى وجود سلطة مزدوجة فى بلادها ، وأثار أيضا الخوف من الانتقام الإسرائيلى على نطاق واسع ضد الأردن .

وهنا قرر الملك حسين أن يتجنب هذا الخطر المزدوج ضد النظام ، وذلك بإبعاد المقاومة الفلسطينية من الأردن ، بفعل سلسلة من الهجمات على معسكرات اللاجئين ، وضد قواعد الفدائيين .

وعلى الرغم مما أبدوه من مقاومة شرسة ، وبرغم التضحية بآلاف الضحايا ، فى مذبحة سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧٠ ، ثم مذبحة عجلون فى يوليو عام ١٩٧١ – فإن الفلسطينيين لم يقدروا على هزيمة الجيش الأردنى ، الأكثر عددا ، والمجهز بمعدات عسكرية متفوقة ، وهو أيضا يعتمد فى حالة الفشل على السند الخارجى لأولئك الذين كان هدفهم الجوهرى تحطيم منظمة التحرير الفلسطينية .

ولم يعترف الأردن بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطينى إلا فى عام ١٩٧٤ ، شأنه شأن الدول العربية الأخرى ، وكان ذلك فى القمة العربية بالرباط .

ولقد حرمت المقاومة الفلسطينية بعد الضربة القاسية البالغة القسوة ، التى تلقتها فى الأردن ، من قاعدتها الاستراتيجية الرئيسة ، التى تضم أكبر امتداد من الحدود مع دولة إسرائيل .

وكان على المقاومة أن تنقل مركز نشاطها .

لم يعد باقيا للفلسطينيين سوى حد واحد لصيق بالأرض التى عاش عليها آباؤهم منذ أربعة آلاف عام ، فلسطين تلكم هى حدود لبنان .

لقد أدت التجربة الأردنية بالمقاومة الفلسطينية إلى أن تدرك إدراكا عميقا الشرط الجوهرى للنجاح فى أية حرب للعصابات : الارتباط مع السكان الذين توجد قواعدها بينهم .

إنه قانون ذو قيمة شاملة . وإن قراءة الصفحات الأخيرة المأساوية من صحيفة شى جيفارا ، فى بوليفيا – تبين كيف ينتهى أى عمل ثورى ، حتى

ولو كان غاية فى البطولة ، إلى الفشل وإلى أن يموت وحيدا ، حين لاتكون له جذوره فى الجماهير ، وحين لايتحد معها حتى يصيرا شيئا واحدا ، ذلك أن العمل الثورى يوحد أهدافه مع آمال الشعب الذى يعمل داخله .

إن الفكرة القائلة بأن «أقلية نشطة» ، متحركة ، على مثال شى جيفارا ، ذات كرم ، وذات شجاعة نموذجية ، يمكن أن تكون مفجرا ، فى كل زمان ، وفى كل مكان – هى فكرة انتحارية ، بالنسبة إلى أية حركة ثورية ، أو حركة تحرير . والدليل على ذلك يستقى على طول الطريق من «المسيرة الطويلة» لماوتسى تونج» ، والتى كان سلاحها القوى هو الفكرة – القوة للإصلاح الزراعى ، إلى عبور سلسلة جبال كوبا ، حيث كان فيدل كاسترو وشى جيفارا يعيشان كما تعيش سمكة فى ماء ، بين الفلاحين فى سلسة الجبال ، ثم يجدان أخيرا سلاحهما الحاسم فى الإضراب العام بهافانا .

ومن حرب التحرير فى فيتنام إلى حروب التحرير فى الجزائر ، ونيكاراجوا – فقد أثبتت هذه الوقائع كلها أن الالتحام بالشعب كان سر النصر ، حتى ولو واجه المناضلون معدات عسكرية أكثر قوة .

ولقد أثبت تحرير إيران من النير المزدوج الإمبراطورى والأمريكى أن قوة الإيمان والفكرة هى أعظم من قوة الأسلحة ، عندما تتحد بشعب ، وتخالط شغاف قلبه . ذلك أن الأسلحة ، مهما بلغت حداثتها يحملها رجال ، فلو أن شيئا ماتكسَّر ، فى عقول هؤلاء الرجال أو فى قلوبهم ، فسرعان ماتسقط الأسلحة من أيديهم .

وللمقاومة الفلسطينية هذه السمة الخاصة ، ذلك أن الاستعمار القائم على بناء المستعمرات للصهاينة والمتواطئين معهم من الغربيين قد نجح فى أن يجعل أهالى البلاد ، الفلسطينيين ، أقلية ضئيلة فى بلدهم ، وفى أن يحولهم إلى « شتات هائل Diaspora» .

وقد عرفت المقاومة الفلسطينية ، خلال سنوات ، كيف تندمج فى الحياة الاجتماعية والسياسية اللبنانية ، وحققت ارتباطا قويا مع الجماهير المتنافية معها اقتصاديا وسياسيا ، ذات الأغلبية المسلمة . هذه الجماهير الشعبية تجد فى

المقاومة الفلسطينية تناغما عميقا مع مطامحها الخاصة ، فهى ترجو أن تتحرر من الاستغلال الاقتصادى ، ومن السيطرة السياسية لطبقة كبيرة برجوازية لبنانية ، ذات أغلبية مسيحية ، تقبض على أزمّة الأمور فى البلاد .

وعندما انفجرت الأزمة الأولى بين المقاومة الفلسطينية والحكومة اللبنانية كانت قاعدة الشعب اللبنانى تؤيد المقاومة ، وتفرض على الحكومة الاعتراف القانونى بالمقاومة الفلسطينية فى لبنان ، وقد أيد اتفاق القاهرة الموقع فى ٣ من نوفمبر عام ١٩٦٩ هذا الاعتراف .

---

(١) غالبا مايرد تعبير «مسيحيى لبنان» فى الصحافة الغربية وهو تعبير خداع تماما ، إذ يوحى بأننا أمام تجمع دينى مواجه لتجمع آخر إسلامى ، وكل شىء يسير على ماتقول الصحافة ، وكأن جميع المسيحيين فى لبنان هم من الموارنة ، وكأن جميع الموارنة «كتائبيون» أى: مرتزقة لإسرائيل فى الأعمال المنحطة . والواقع عكس ذلك تماما: فهناك ابتداء مسيحيون أرثوذوكس ، وكاثوليك شرقيون ، وهم عرب بصفة عامة ، ومتضامنون مع إخوانهم العرب المسلمين ، وحتى بين الموارنة يوجد مقاومون مسيحيون للاضطهاد . وقد أنشئت الكتائب على يد بيير الجميل ، على غرار الكتائب الفاشية الإسبانية التابعة لفرانكو ، وهى لاتمثل الأخلاق المسيحية حتى ولو ألصقت - على الطريقة - «المسيحية - جداً - لفرانكو ، صورة العذراء على صليب بنادقها ، وعندما يصبحون أدوات متميزة للصهيونية الإسرائيلية ، كيما ينظموا مجازر فى المعسكرات الفلسطينية ، فى تل الزعتر ، أو فى صبرا وشاتيلا .

من أجل شرف كلمة «مسيحى» يجب أن يستبعد تعبير «مسيحيى لبنان» تماما ، لأنه يوحى بعداوة دينية بين المسلمين والمسيحيين ، على حين أن لبنان كان خلال القرون مثالا للتعايش السلمى بين المجتمعين .

ولقد نجحت منظمة التحرير الفلسطينية فى بناء قواتها فى لبنان بناء متينا ، بفضل هذا الارتباط مع جميع القوى التقدمية فى البلاد ، إنها لم تكن قوتها العسكرية فحسب ، بل تنظيمها السياسى ، وإشعاعها الثقافى بوجه خاص . ولقد قام «مركز الدراسات الفلسطينية» فى بيروت بعمل كبير فى الدراسة والبحث ، وضعه فى المرتبة الأولى بين المؤسسات الثقافية فى العالم العربى ، لقد صارت الثقافة بالنسبة إلى الفلسطينيين وطنا ، وفى كثير من البلدان العربية أعداد من الفلسطينيين يشكلون الأطر العليا للبحث العلمى ، وللتعليم ، وللمهن الحرة ، وللفنون .

وحين انفجرت ، فى أكتوبر عام ١٩٧٣ ، الحرب بين مصر وسورية ، وبين إسرائيل ، عبأ جيش التحرير الفلسطينى كل قواته على الجبهتين ، الشمالية والجنوبية ، وإذا بالعمال الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة يقومون بإضراب يشل جزءا من الاقتصاد الإسرائيلى .

خلال هذه الحرب ، وبعد أن عبرت القوات المصرية «خط بارليف» ، فتبددت أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لايقهر – أقام الأمريكيون «جسرا جويا» بأقصى مالديهم من سرعة ، كيما ينتشلوا الإسرائيليين من موقف صعب ، ولقد ظهرت خلالها بوضوح نوايا القادة المصريين والسوريين ، فعلى المستوى العسكرى لم يحدث شىء يستغل وقائع النجاح الأولى . فقد كان واضحا أن هذه الحرب لم تكن تهدف إلى أن تفرض على الإسرائيليين التفاوض لإنشاء دولة فلسطينية ، وإنما كانت تهدف فقط إلى مساندة المساعى الدبلوماسية ، الرامية إلى تثبيت حدود إسرائيل ، وهو ماكشفت عنه الاتفاقات الثنائية : الإسرائيلية – السورية ، والإسرائيلية – المصرية ، عام ١٩٧٤ . بل وكشفت عنه أكثر زيارة السادات لإسرائيل فى ١٩ من نوفمبر عام ١٩٧٧ ، واتفاقات كامب ديفيد ، صيف عام ١٩٧٨ بين إسرائيل والسادات والولايات المتحدة .

وفى مقابل تعديل طفيف للحدود فى سيناء قبل الزعيم المصرى ، وهو يقطع كل تضامن مع القضية الفلسطينية – ماسمى بمشروع بيجن «للحكم الذاتى» ، والذى لم تكن له أدنى علاقة – كما بينا – بحق تقرير المصير ، بل إنه على العكس يعتبر تمهيدا لضم الضفة الغربية إلى إسرائيل ، حين لايمنح الإدارة المستقلة ،

التى يمارسها عملاء عرب لدولة إسرائيل – سوى سلطات خيالية ، وحين يترك القدس بأكملها فى أيدى الإسرائيليين ، فيمكنهم بذلك من متابعة سياستهم القاضية بزرع المستعمرات فى الأراضى المحتلة ، وبها ينتشر الرعب بحجة «المحافظة على الأمن» .

وهكذا أتاحت خيانة السادات للصهاينة الآمنين فى الجنوب ، أن يركزوا كل قواتهم ضد لبنان ، كما شجعت زيادة التدخل الأمريكى فى الشرق الأوسط ، وانتصار سياسة كيسنجر ، التى تقوم على إنجاح السياسة الصهيونية «بخطى صغيرة» ، وذلك بالتقليل الدائم من إمكانات الفلسطينيين ، ومجموع البلاد العربية .

منذ ذلك الحين اتجهت كل جهود الصهاينة ، وحلفائهم الغربيين إلى هدم القواعد اللبنانية للمقاومة الفلسطينية ، وإلى تحقيق أهداف الصهيونية السابقة حتى على وجود دولة إسرائيل فى هذا البلد ، وذلك بمد حدودها حتى نهر الليطانى ، سواء أكان ذلك بمجرد الضم والاستيلاء الخالص ، أم كان بإنشاء دويلة ألعوبة ، يقال : إنها «مسيحية» تقبل أن تجعل من نفسها محمية ، على مانادى به موشى ديان عام ١٩٥٤ . [١] .

ولكى يهب الرأى العام اللبنانى ضد المقاومة الفلسطينية ، ضاعف القادة الصهاينة التحليق والضرب بالقنابل على الجنوب اللبنانى ، بل وعلى بيروت ، واستجاب اليمين اللبنانى وجيشه للتحريض الصهيونى بأن كرر على مسمع السكان أن هذه الأعمال الانتقامية إنما نتجت عن وجود الفلسطينيين (على حين أنها ذات علاقة بالمشروعات السابقة) .

ولقد كانت الوحشية ضد المقاومة الفلسطينية تزداد ضراوة بقدر ماكانت تتمتع به منظمة التحرير من مكانة تتنامى على المستوى الدولى .

---

(١) انظر فى صفحة ٥٤٤ وما بعدها التحديدات التى قدمت فى هذه النقطة ، فى «مذكرات» موشى شاريت (١٦ من مايو عام ١٩٥٤) .

لقد نجحت الدعاية الصهيونية ، الشديدة التأثير ، ومايتجاوب معها فى الغرب ، نجحت حتى الآن فى حمل الرأى العام على الاعتقاد بأن الدولة الصهيونية إسرائيل ذات وجود شرعى «تاريخى» ، بل و «إلهى» ليس لأية دولة أخرى ، (على حين أنها نشأت كما تنشأ كل الدول الأخرى عن طريق «الأمر الواقع» ، وعن طريق علاقات القوة) . ومن ثم تصبح المشكلة الفلسطينية مشكلة «لاجئين» تحتاج إلى أن تحل بصورة إنسانية .

ولكن ، كلما دخلت ساحة الأمم المتحدة شعوب تحررت حديثا من الاستعمار اعترف العالم الثالث فى مجال الصراع المعادى للاستعمار بالمقاومة الفلسطينية ، فلم يعد ثابتا على الإيمان بالأسطورة الصهيونية سوى الغربيين (وهم الاستعماريون القدامى ، والولايات المتحدة) .

وصارت منظمة التحرير الفلسطينية عضوا فى مؤتمر الدول غير المنحازة ، وفى «مجموعة الـ ٧٧» (التى تضم فى الواقع مائة دولة وسبع دول من العالم الثالث) . وفى ٢٢ من نوفمبر عام ١٩٧٤ دعى ياسر عرفات ، باعتباره ممثلا رسميا لمنظمة التحرير لإلقاء الكلمة فى الأمم المتحدة ، وقد أبان فى خطابه عن بطلان الدعاية الإسرائيلية عن التهديد العربى المزعوم «بإلقاء اليهود فى البحر» ، الذى لم يكن ، كما رأينا ، هدف الميثاق الفلسطينى . ويعلن ياسر عرفات من فوق منبر الأمم المتحدة رسميا : «عندما نتحدث عن آمالنا المشتركة فى فلسطين الغد ، فإن توقعاتنا تضم جميع اليهود الذين يعيشون فى فلسطين ، والذين يقبلون أن يتعايشوا معنا فى سلام ، ودون تمييز» .

وعندما يلخص المؤتمر الوطنى الفلسطينى الثالث عشر فى عام ١٩٧٧ برنامجه يجعله فى ثلاث نقاط : حق العودة ، وحق تقرير المصير ، وحق إنشاء دولة فلسطينية مستقلة . وقد اعترف بهذه الحقوق صراحة فى القرار رقم ٣٢٣٦ – الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة . وفى عام ١٩٧٥ شكلت الأمم المتحدة «لجنة لممارسة الحقوق المقررة للشعب الفلسطينى» ، وقد أكد هذا القرار عام ١٩٨٠ فى الجمعية العامة ، المجتمعة فى دورة خاصة ، بموافقة مائة واثنتى عشرة دولة ضد سبع دول (منهم الولايات المتحدة) ، وامتناع سبع وعشرين دولة عن التصويت .

وإذا كانت منظمة التحرير قد أصبحت فى حضورها الدولى عام ١٩٧٤ بمثل هذه الضخامة ، فقد صار لزاما على القادة الإسرائيليين أن يضربوا ضربة كبرى .

حينئذ انفجرت « حرب أهلية » فى لبنان ، وهو أمر فى غاية التوافق ، يخدم أهدافهم ، لقد كانت هذه الحرب كامنة دائما ، ذلك أن التعاون المشترك بين الأقلية البرجوازية المتميزة وبين المحتل الاستعمارى الفرنسى كان له تأثيره ، ومنذ ذلك الحين لم تتوقف هذه الأقلية عن الإثراء على حساب مجموع الشعب ، وهى تمسك ، بفضل الاستعماريين ، بجميع أزمة الأمور ، فى الاقتصاد ، وفى السياسية .

وعلى المستوى الخارجى ، وصل انفجار هذه الأزمة الدفينة إلى أجله المحدد ، فعين هنرى كيسنجر عددا من المكاكيك يستهدفون مبادرة أى احتمال لوحدة عربية بوساطة اتفاقات ثنائية لكل بلد مجاور مع إسرائيل .

وفى سبتمبر عام ١٩٧٥ حصلت الولايات المتحدة من مصر على وعد بحل نزاعاتها مع إسرائيل بالطريق السلمى ، وليس – العسكرى ، وهكذا خرجت مصر من اللعبة ، وانطلقت أيدى القادة الإسرائيليين حرة إلى لبنان ، حيث ضاعفوا غاراتهم ضد الفلسطينيين ، وضد القوى التقدمية . وجاء مرتزقتهم الكتائبيون ، الذين كانوا يخشون توثق العلاقة تدريجيا بين الفلسطينيين واليسار اللبنانى ، فأشعلوا النار عن عمد وإصرار ، بأن أقاموا مذبحة للمدنيين الفلسطينيين ، فى ١٣ من إبريل عام ١٩٧٥ . وبلغ الحريق نقطة ذروته يوم ١٢ من أغسطس عام ١٩٧٦ بمذبحة المعسكر الفلسطينى فى تل الزعتر ، فبعد ستة أشهر من الحصار ، وبمعدل أربعين ألف قذيفة يوميا تمطرها الميليشيات على المعسكر ، كانت الهجمة النهائية ضد المدافعين الفلسطينيين المتحصنين فى خنادق تحت الأنقاض ، وتقدر الميليشيات نفسها عدد القتلى فى المجزرة بعدد يتراوح بين ألف وألفين [١] .

---

(١) جون بلوك « موت بلد – Death of a covntry » ص ١٨٠ .

لم يبق من معسكر يضم ٣٥,٠٠٠ خمسة وثلاثين ألفا من السكان ، سوى الرماد . وكانت الجمعية السرية للتنظيم ، وهى الميليشيات الفاشية من نوع «كوكلوكس كلان» – اللبنانية – وهى التى تكونت عام ١٩٦٩ لطرد الفلسطينيين أو إبادتهم – كانت هذه الجمعية هى التى نفذت هذا «العمل» بموافقة الضباط الإسرائيليين ، على ماذكره عام ١٩٨٢ فى الكنيست ، شارون ، وهو يعنف شيمون بيريز الذى استغل صبرا وشاتيلا ضد خصومه السياسيين ،قال : «أين كان الضباط الإسرائيليون عندما أبيد الفلسطينيون فى تل الزعتر ؟ ... لقد كنت وزيرا للدفاع فى ذلك الوقت» .

وحين انتهى لبنان إلى أن أصبح دولة متحللة تماماً كانت اللحظة مناسبة لاحتلاله .

وفى يوم الجمعه ٤ من يونيو عام ١٩٨٢ ، الساعة الثالثة والربع ، حلقت سبع موجات من الطائرات القاذفة الإسرائيلية فوق بيروت ، فقصفت معسكرات الفلسطينيين ، فى صبرا وشاتيلا ، ثم دكت بالقنابل كل ماحول نهر الزهرانى ، قريبا من صيدا .

وكان أريل شارون قد أعلن بالأمس (٣ من يونيو) أن «الوزن السياسى لمنظمة التحرير الفلسطينية قد حُيِّدَ جزئيا باتفاقات كامب ديفيد ، ولكن هذا لايكفى ، إذ يجب أن نعمل على هدمها نهائيا» .

ولقد رأينا من قبل تفاهة التعلات الإسرائيلية حين تستخدم حججاً من مثل (محاولة اغتيال دبلوماسى إسرائيلى فى لندن ، تنسب إلى منظمة التحرير ، فى حين أنها منسوبة علنا إلى أبو نضال المحكوم عليه بالإعدام من منظمة التحرير ، ومثل : «السلام للجليل» فى حين أن اتفاق وقف إطلاق النار ، الذى توصل إليه قبل عام – لم ينتهك مطلقا من قبل منظمة التحرير .... الخ ....) . وتلاحق الغزو فى اتجاه نهر الأولى وصيدا ، طبقا للخطة القديمة القاضية بضم جنوب لبنان .

وفى ٦ من يونيو طالب مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إسرائيل بأن تسحب جميع قواتها العسكرية ، طبقا للقرار المقترح من إيرلندا ، ووفق عليه

بالإجماع ، ولكن القادة الإسرائيليين كانوا مطمئنين إلى أن الحكومة الأمريكية ، رغم صوتها ، تضمن لهم عدم العقوبة باستخدام حق الاعتراض (الفيتو) . وغداة السابع من يونيو كانت المندوبة الأمريكية فى الأمم المتحدة ، السيدة كيركباتريك تدافع عن وجهات النظر الإسرائيلية .

لقد ذكرنا من قبل هذا العدوان الجديد لدولة إسرائيل الصهيونية ، وهى التى لم تكف منذ إنشائها عن وضع الشرق الأوسط على حافة النار والدم . لقد كان هذا فى منطق الصهيونية .

ولن نعود إليه هنا إلا لنبحث نتائجه بالنسبة إلى المقاومة الفلسطينية .

لقد نجحت المقاومة فى إثبات بطولتها فى كل موقف لم يتغلب فيه العنصر المادى على العنصر الإنسانى : فقصر بوفور Beaufort لم ينتزع منها إلا بعد أن دار الصراع ، رجلا لرجل ، وإلابعد أن ضرب الفلسطينيون حتى الإبادة . وفى بيروت نفسها واجه شارون الفشل والإحباط ، فعلى الرغم من القصف الساحق بالقنابل ، من المدفعية والطيران فإن المقاومة لم تستسلم ، ولم يعد أمام شارون سوى حلين : هدم بيروت كلها (ولديه الوسائل التقنية ، ولكن مصداقية إسرائيل الأخلاقية كانت منهارة فى العالم كله ، فاستبعد هذا الغرض من الناحية السياسية) ، والحل الآخر كان الدخول فى حرب الشوارع ، وشارون لايغامر بها ، لأن التفوق المادى فى هذه الحالة لايلعب أى دور حاسم . ولقد كلف عزم المناضلين الفلسطينيين الصلب القوات الإسرائيلية ثمنا غاليا ، تحمله الرأى العام فى إسرائيل ذاتها بصعوبة ، فكان عليه إذن أن يكتفى بإرواء عطشه إلى الانتقام ، فأطلق فى المعسكرات الفلسطينية بصبرا وشاتيلا مرتزقته الكتائبيين ، المجهزين ، المسلحين ، الموجهين ، (بل والمزودين بالصواريخ حتى يواصلوا المجزرة فى الظلام) بوساطة الجيش الإسرائيلى .

لقد دافعت المقاومة الفلسطينية حتى النهاية عن شرفها ، وخرجت مهابتها الأخلاقية من هذا الاختبار الرهيب أعظم مما كانت ، فى حين أن صورة إسرائيل كانت كئيبة شاحبة إلى أقصى درجة فى العالم كله .

وفى لبنان ذاته ، وبعد سنتين من المقتلة والتدمير ، يجد جيش الغزو نفسه مجبرا على أن ينسحب ، بل إن « عملاءه » الحقراء أخذوا يبتعدون عنه ، وأصبح حاله كحال الجيش النازى وهو ينسحب عام ١٩٤٥ إلى الأورادور . لم يبق أمام الجيش الإسرائيلى إلا أن يضاعف الانتقام ، ولكنه هذه المرة ضد المقاومة اللبنانية ، فأخذ يدك القرى بالبلدوزرات كما أخذ يكفكف بالإرهاب ، ماتواجهه قواته من إرهاق من قبل شعب بأكمله ، وأشارت المصادر العسكرية إلى أن الموقف « صار حربا شاملة » ، وأن المخاطرة باكتساب أعداء جدد هى أمر يدعو إلى السخرية ، مادمنا لم يعد لنا أصدقاء » [١] .

أما عن المقاومة الفلسطينية ، فماذا يكون ، بعد مأساة لبنان ، ميزان إمكاناتها وتوقعاتها ؟ ..

إن الشعب الفلسطينى ، وهو شعب من أربعة ملايين ونصف مليون من الأنفس (٢٠ ٪ منهم مسيحيون) هو اليوم شعب بلا أرض .

من هذا الشعب مليون وسبعمائة ألف يعيشون فى فلسطين ، ومن هؤلاء خمسمائة وخمسون ألفا يعيشون فى إسرائيل ، ولا يتمتعون بأى حق سياسى واقعى (حتى ولا حق أن يتجمعوا فى حزب) ، وهم يشغلون من الناحية الاقتصادية الوظائف الثانوية والحقيرة . فهم مواطنون من المنطقة الثالثة فى مجتمع الطبقة الدنيا بدولة إسرائيل ، التى يتربع على قمتها «الاشكناز» ذوو الأصول الأوربية ، (ولاسيما الروس ، والبولنديون والألمان) ، ثم «السفاريم» القادمون من البلاد العربية ، وفى مواجهة هذا الاحتلال الأجنبى المزدوج يعامل أبناء البلاد الفلسطينيون بالطريقة العنصرية ، وكأنهم نازحون فى بلدهم ، الذى جردوا من ملكيته على يد الاستعمارية الصهيونية .

---

(١) صحيفة «لوموند» — الجمعة ٢٢ من فبراير عام ١٩٨٥ ، لمراسلها فى لبنان : جان بيير لنجلير .

وفى الضفة الغربية يعيش ثمانمائة وثلاثون ألف فلسطينى ، وفى قطاع غزة أربعمائة وخمسون ألفا ، معرضين لسوء المعاملة ، التى يفرضها المحتل ، تحت نظام استثنائى للقانون العرفى ، وهم يطردون بالتدريج من أرضهم ، التى يسرقها المعمرون الجدد ، الذين حُمِّلوا السلاح وسط سكان غير مسلحين ، وقد شقت فى البلد طرق كبيرة تسمح بوصول الإمدادات العسكرية على وجه السرعة ، لأدنى إشارة بحدوث تمرد . وقد أقيمت أقوى المستعمرات على مفترقات الطرق ، لتكون قواعد استراتيجية . هذا التقسيم التربيعى يجعل من المستحيل عمليا أن تكون هناك مقاومة عسكرية ذات فاعلية ، ولو ضئيلة ، على الرغم من الرفض الشجاع الذى يصر السكان على إظهاره دائما ، تأكيدا لعلاقتهم بمنظمة التحرير ، مع أنهم يعزلون عمدهم ، ويرهبونهم إرهابا بوليسيا .

إن المشروعات التى يطلق عليها خداعا «وضع الحكم الذاتى – Statut d'autonomie» ، والتى سبق أن حللناها ، تتجه إلى أن تنشىء فى الضفة الغربية وغزة وضعا شبيها بوضع الأحياء المغلقة Bantoustants فى جنوب إفريقية .

وهكذا تقف المقاومة الداخلية فى فلسطين ، حيث لم يعد الفلسطينيون سوى أقلية لا تستطيع أن تتخذ شكلا عسكريا ، وهى وراء هذه الأغلال الحديدية ضحية الاغتصاب والاغتراب .

ثم إن المقاومة العسكرية لم تعد لها أية قاعدة انطلاق فى أى بلد ملاصق ، لا فى مصر ، ولا فى الأردن ، ولا فى سورية ، ولا فى لبنان ، وإن كان قد ولد فى مقابل ذلك مقاومة جديدة إسلامية الجوهر .

إن القوة الحقيقة للمقاومة الفلسطينية هى فى «شتاتها» ، أى : فى أكثر من ثلاثة ملايين ، يقيم أكثرهم عددا وأقواهم فى الأردن (أكثر من مليون) ، وفى لبنان (٣٥٠,٠٠٠) ، وفى الكويت (٣٠٠,٠٠٠) ، وفى سورية (٢٢٠,٠٠٠) ، وفى السعودية ودول الخليج حوالى (٢٠٠,٠٠٠) ، وهناك أيضا من يعيشون فى البلاد الغربية (أكثر من ١٠٠,٠٠٠ فى الولايات المتحدة الأمريكية) .

وأهم ماتتميز به هذه المجموعة المشتتة هو ابتداء مستواها الثقافى العالى . فليس معدل التعليم الأساسى وحده هو مايتقدم به الفلسطينيون عن العالم العربى ، بل معدل الدبلومات فى التعليم العالى (١٣٠,٠٠٠ بنسبة ٣٥ فى الألف) ، وهو معدل أعلى نسبيا من نظيره فى إسرائيل أو فى إنجلترا ، بما يضم من عشرات الألوف من المهندسين ، والأطباء ، والمعلمين .

إن مستقبل المقاومة الفلسطينية هو فى الإرادة الصامدة للفلسطينيين الذين لازالوا يعيشون فى فلسطين ، وهو فى عدم التعاون بأية صورة من الصور مع المحتل الصهيونى ، وهو فى الجهد الهائل والموحد لذلك «الشتات» فهم يملكون وسائل مالية ضخمة ، لأن عددا كبيرا من الفلسطينيين ، فى الغرب ، وفى البلاد العربية لديهم ثروات كبيرة .

ولقد رأينا كيف نظم الإسرائيليون ملياردييراتهم ، كيما يوجهوا استثماراتهم بطريقة منهجية (وبصورة مربحة) ، ولاسيما فى «الأجهزة» المؤثرة التى يحددها لهم فى الغرب سلطة رقابة حاسمة على الصحافة ، والنشر ، والإذاعة والتلفزيون ، والسينما ، والإعلان .

هذه النظرة المركزية إلى قوة الأجهزة للتحكم فى الرأى العام ، وللضغط على الحكومات لم تستوعبها الحكومات العربية ، ولم يستوعبها الفلسطينيون .

إنهم لم يروا ، كما قد فهم الصهاينة منذ بعيد ، أن هذه هى أمضى أسلحة النصر ، أى : «العودة» .

أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فإن الموضوع ليس موضوع أسطورة صهيونية عن «العودة» : (وكيف استطاعوا أن يتحدثوا عن «عودة» إلى أرض لم تطأها أقدامهم من قبل ، ولم يسكنها مطلقا أحد من أجدادهم ، وهى الحالة التى أطلق عليها آرثر كستلر «القبيلة الثالثة عشرة» ذات الأصل الأوربى أو العربى ، والتى ليست لها أية علاقة نبوية ، أو جنسية ، أو تاريخية بالأسباط الاثنى عشر العبرانيين) .

إنما الموضوع بالنسبة إلى الفلسطينيين موضوع عودة إلى أرض طردوا منها منذ عام ١٩٤٨ ، وقد زرعها أجدادهم ، دون انقطاع ، منذ أربعة آلاف عام .

فنجاح المقاومة الفلسطينية ينبع من تحقيق هذا الهدف الأولى : تنظيم « مُمَرْكَزٌ ، مُمَنْهَجٌ ، ذو أشكال متعددة ، للسيطرة على « أجهزة الإعلام – medias » بهدف تحويل الرأى العام : ضد قرن من الأكاذيب الصهيونية ، المقطرة ببراعة وذكاء ، ليظهر على سطح الوعى ، لدى ملايين الغربيين ذهول من أنهم كانوا مخدوعين أمدا طويلا ، وأنهم كشفوا الواقع .

حينئذ ، وحينئذ فقط تُضْرَبُ الصهيونية الإسرائيلية فى مقتل مميت ، وتُجْبَرُ على الدخول فى حكم القانون العام للدول ، دون امتياز . وحينئذ سوف يفهم اليهود من الرجال والنساء ، أو ذوو الجذور اليهودية ، الذين تحرروا من التقليص الإيديولوجى للصهيونية السياسية – سوف يفهمون المعنى الحقيقى للمقاومة الفلسطينية ، وهدفها الأساسى والنهائى ، وهو التعايش فى فلسطين ، فى « أرض الرسالات الإلهية » ، على ماكتبه ياسر عرفات ، يهودا ، ونصارى ، ومسلمين ، دون أن يكون أحدهم « تابعا » للآخر ، فى وحدة التقليد الإبراهيمى المشترك .

وحينئذ تبلغ فلسطين وأورشليم ذورة تاريخهما .

لماذا أورشليم ، « أورسالم – ur Salim » تلك التى كانت مدينة مقدسة للكنعانيين ، وللجبوسيين ، أكثر من ألف عام قبل أن يتخذ منها داود عاصمة ملكه ، وأكثر من ألفى عام قبل ميلاد المسيح ، وأكثر من ألفين وستمائة عام قبل أن يتسلمها الخليفة عمر . لماذا لاتكون أورشليم « المدينة المقدسة » العاصمة العالمية للتقاليد الإبراهيمية الثلاثة : اليهودية ، والنصرانية ، والإسلامية ؟ .

إن أورشليم وفلسطين سوف تصيران حينئذ ، وهما فى قمة تاريخهما ، ملتقى ، ومفترقا للتبادل ، وإن « الهلال الخصيب لقادر على أن يضطلع مرة أخرى برسالته التاريخية التى قامت على الإخصاب المتبادل بين الثقافات ، وعلى

الإبداع . إن أجهزة الغرب كثيرا ماتصف «بالجمود» [1] حتى أولئك الذين يقاومون العودة إلى الماضي ، كما تصف به المسئولين عن انحرافات عالم اليوم ، ذلك العالم الذى يحكمه العملاقان الكبيران فى الغرب .

ونحن نرى أن أورشليم وفلسطين هما خير مكان يمكن أن يكون :

ملتقى الأديان: على حين أن اليهود كانوا يرفضون الاعتراف بالمسيح ، رسولا لله ، كما يرفض النصارى الاعتراف بمحمد رسولا لله . أما المسلمون ، المؤمنون بروح الخضوع غير المشروط لله ، ذلك الخضوْع الذى كان إبراهيم أبو الإيمان ، وأبو الأديان الثلاثة – نموذجا له ، فهم يعترفون بموسى وعيسى نبيين من أنبياء الله ، وهم يعظمونهما على هذا الأساس .

ومفترقا للتبادل فيما بينهما: بدلا من أن تكون رهانا بين الكتلتين المتواجهتين على أساس قواهما الهائلة . ومنذ قررت الاستعمارية الغربية أن تُعَاضِدَ الصهيونية ، حتى تغرز هذا الجزء من الغرب فى قلب العالم العربى – توقف الهلال الخصيب ، ومعه فلسطين ، وهى جزء لايتجزأ منه ، عن أن يؤديا دورهما التاريخى فى مزج الحضارات بالإنسان ، من العراق إلى مصر ، ومن المحيط الهندى إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومن آسيا إلى إفريقية . ولم تعد فلسطين تحت حكم الصهيونية أرضا للتبادل ، بل سورا وَحَدًّا بين الكتلتين فى الشرق والغرب ، وسورا وحَدًّا كذلك بين الغرب ، وإسرائيل قلعته ، وبين العالم الثالث الذى تتحداه .

---

(١) كتب الأستاذ تراب زمزمى فى كتابه عن «الحرب العراقية الإيرانية» (ط . البتروس ، باريس ١٩٨٥) يؤكد أن كلمة « intégriste = جامد» ظهرت لأول مرة فى أسبانيا عام ١٨٩٤ ، تصف أى عضو فى حركة إسبانية كانت تريد إخضاع الدولة للكنيسة ... ثم دخلت كلمة « intégrisme »فى اللغة الفرنسية عام ١٩٥٠ لتعريف الاتجاه النظرى الفقهى للكاثوليك ، الذى يرفض أى تطور . أما المسلمون الذين يوصفون بأنهم « intégristes » «جامدون» فإنهم يعملون على تطوير مجتمعاتهم بطريقة سليمة ، وهم يلتزمون بأمر الله ، ويعترفون برسالته ، ويسعون إلى تطبيقها ، فهم دعاة كمال ، ولكنهم ليسوا بحال «جامدين» . (ص ٢٥١ – ٢٥٢) .

وعندما تعود أورشليم (القدس) مكانا للقاء وللتبادل ، فإن جميع الشعوب يمكنها أن تقول مع النبى أشعياء بأن هذه أورشليم الجديدة التى أضاءها الله ، فهى تضىء العالم ، وأنها فى ظلمات الدنيا أمل البعث الجديد:

«قومى استنيرى ، لأنه قد جاء نورك ، ومجد الرب أشرق عليك ، لأنه هاهى الظلمة تغطى الأرض ، والظلام الدامس الأمم ، أما عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى ، فتسير الأمم فى نورك ، والملوك فى ضياء إشراقك» . [٦٠ / ١ - ٣] .

«لأنى هاأنذا خالقٌ سمواتٍ جديدة ، وأرضا جديدة ، فلا تذكر الأولى ، ولا تخطر على بال» . «٦٥ / ١٧] .

« ..... فيطبعون سيوفهم سككا ، ورماحهم مناجل ، لاترفع أمة على أمة سيفا ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد» [٢ / ٤] .

* * *
*

خاتمــــــــة

كتب بول فاليرى [1] يقول : «إن التاريخ هو أخطر مُنْتَج صنعته كيمياء العقل ..... إنه يهيىء الأحلام . يسكر الشعوب .. يقدم لها ذكريات زائفة .... يؤدى بها إلى جنون العظمة ، أو إلى هذيان الاضطهاد . وهو يجعل الأمم مُرَّةً ، ورائعة ، ولا تطاق ، ولا جدوى منها .

هذا الخطر لم يكن فى أى مكان أكبر منه فى تاريخ فلسطين . والتاريخ – لأسباب كشفها بول فاليرى – يُسْتَخَدمُ إيديولوجيةً لتبرير القوميات العتيقة فى القرن التاسع عشر .

وهو كذلك ، لأسباب أخرى أيضا ، فإن علم الأساطير حل فى هذه القوميات غالبا محل التاريخ .

وهذا الكتاب ...

لايدعى أنه يستعلى على التاريخ ومعاركه ، وإنما هو على عكس مايتصور فاليرى يحاول أن يسأله عن ملامح المستقبل ، ذلك أن التاريخ الإنسانى بحق ليس هو مايُكْتَبُ ، بل هو مايُفْعَلُ : هو تاريخ المستقبل .

والمستقبل لايولد من لا شىء ، فإن بناءه يضطرنا إلى أن نسائل الماضى ، لا لكى نستمد منه دروسا وعبرا ، بل لكى نستشعر فيه استمراريته ، وهى استمرارية عضوية ، ونابضة بالحياة أحيانا ، وقد تكون متصلبة ومتكررة أحيانا أخرى . ونسائله أيضا حتى نكشف فيه عن أحداثه المتفاصلة المنقطعة ، وهو انقطاع قد يكون مبدعا خلاقا ، يوصف رسميا بأنه «ثورى» ، وأحيانا أيضا

---

(١) بولى فاليرى : «نظرات على العالم المعاصر – Regards ur Le monde actuel »جاليمار ج ٢ ص ٩٣٥ .

يكون عبارة عن مجرد سلبيات ، تؤدى بنا عن طريق ثورة مضادة إلى الماضى ، أو إلى عدمية ، لا تستهل أى مستقبل ، ذى وجه إنسانى ، أو إلهى .

لقد حاول هذا البحث الطويل فى تاريخ فلسطين – ابتداء – أن يستبدل بالأسطورة التاريخ ، وحاول أيضا أن يأخذ فى اعتباره أسباب نشوء الأساطير ، وأن يشرح لماذا تتداخل فى أغلب الأحيان مع التاريخ ، فتوجه مسيرته ، (أو تسيء توجيهه) . ولذلك لم نكتف بسرد الأحداث المتعاقبة ، التى وقعت على أرض معينة ، بل تتبعنا أيضا تاريخ فلسطين ، وأسطورة فلسطين فى خيال الشعوب .

لقد كان دون كيشوت على حق فى أن يعتقد أن المثل الأعلى أصدق من الواقع .

لأنه يحدث أن تفرض الأسطورة على التاريخ شكلا معينا ، وترسم له مجراه ، فى السراء والضراء : مثالية خلاقة ، أو إيديولوجية تبرير .

وهذه الدراسة عن فلسطين فى التاريخ هى محاولة ، ضد أية أسطورة معينة ، تضع فى منظور العقل المسار التاريخى لهذه المنطقة ، مع التزامها بالتمييز بين ماهو استمرار ، وما هو انقطاع .

أ – الاســـــتمرار .

لم تكن فلسطين يوما وحدة معزولة ، فلقد حقق استمرار تاريخها أنها كانت خارج الانقطاعات التى سوف نبحثها – موطنَ التقاء ، وتقارب ، وتكامل .

فى هذه المواطن يتم التركيب ، أو على الأقل الانصهار ، منذ وفدت قوافل التجار من أنحاء آسيا ، ووصلت إلى البحر الأبيض ، فى طريقها إلى أوربا أو المغرب ، حتى المبعوثين البوذيين الذين أرسلهم الإمبراطور الهندى أسوكا خلال القرن الثالث ليجوبوا العالم ، ومنهم أولئك الذين وصلوا إلى فلسطين واستوطنوها .

وفلسطين لا تنفصل عن مجموع الهلال الخصيب ، وهذا هو استمرار حوار الحضارات .

فى البداية وفد إليها المهاجرون ، آلافا من البدو يهبون كالزوابع والدوامات ، من الجزيرة العربية إلى العراق ، وإلى سورية ، وإلى فلسطين ، وإلى مصر ، وقد انصهرت فى هذه البوتقة بالتبادل حضارتان من أكبر حضارات العالم القديم ، حضارة العراق ، وحضارة مصر .

فى هذا الملتقى المتميز الذى مرت عليه كل رياح آسيا ، من الهند إلى فارس ، ورياح إفريقية عبر مصر – دوت أصداء أسمى الرسالات الروحية ، من ملحمة جلجامش ، إلى الرؤيا التوحيدية الكبرى لأخناتون .

وهكذا صارت فلسطين أرض الرسالات الإلهية ، الأرض التى دوى فيها الصوت العظيم ، صوت أنبياء بنى إسرائيل ، والأرض التى فيها تم ميلاد المسيح . والأرض التى جاءها الإسلام مصدقا جميع من سبقه من الأنبياء ، والرسل الذين بعثهم الله الواحد : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد .

على هذه الأرض انعقدت الأواصر مع الغرب المتوسطى : فانتشر الفلسطينيون ، والفينيقيون فى أنحاء البحر المتوسط ، وعلى شاطئيه ، من قرطاجنة إلى فوسيه ، التى أصبحت مارسيليا ، والتى سوف تزدهى بكونها « بوابة الشرق » .

ولسوف تشهد هذه الأرض أيضا تدفق التسلط الأجنبى ، من الفرس ، والمصريين ، إلى الإسكندر وروما ، والمغول والصليبيين ، والإنجليز والصهيونيين .

ب – الانقطاعات :

أما الانقطاعات الرئيسة التى شهدتها فلسطين فقد كانت محاولات فرض عزلة محصورة من الغرب ، الذى أغلق فلسطين على هذه العزلة ، ثم سحب منها دورها فى الهلال الخصيب ، وقطعها عن العالم العربى ، الذى هى منه جزء لايتجزأ ، منذ آلاف السنين ، لقد سحب دورها باعتبارها ملتقى بين آسيا وإفريقية ، بين الشرق والغرب ، كيما يزرع فيها دولة غربية محضة ، ذات حياة مصطنعة ، كأنها ذيل للغرب ، ماكان لها أن تستمر إلا بالتبعية للغرب فى التمويل وفى السلاح .

لقد تطابق مشروعان فى التاريخ تطابقا كاملا: غزوة الحروب الصليبية الثانى ، فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر ، وغزوة الموجات الست للهجرة الاستعمارية الصهيونية ، منذ قرن واحد .

ولقد كانت تجربة الصليبيين تجربة حرب لم تتوقف خلال مائتى عام ، ثم انتهت إلى هزيمة ، ورفض كلى لهذه الغزوة ، فإن جيشا مهما بلغت قوته ، وتفوقه فى التقنية والتسليح لايمكن أن يفرض نفسه إلى مالانهاية ضد إرادة شعب ، ولقد كان السقوط النهائى لجميع أشكال الاستعمارية ، من فيتنام إلى الجزائر ، ذا دلالة على أن مواجهة جيش ضد شعب لابد أن تنتهى نهاية واحدة ، هى هزيمة الجيش ، بعد عدة ملاحم ومجازر .

والصهيونية لم تستطع أن تستولى على فلسطين إلا نتيجة حربين ، كما أنها لم تستطع أن تبقى حتى الآن إلا بفضل خمسة حروب .

ثم إنها لم تستطع أن تحرز نصرها الأول (وهو إعلان بلفور عام ١٩١٧) إلا بعد أن أقحمت نفسها فى لعبة المنافسة بين القوى الاستعمارية ، التى استهدفت تفسيخ الإمبراطورية العثمانية ، إنها لم تستطع أن تحصل على الوعد بأن يكون لها جزء من الغنائم إلا بفضل الحرب العالمية الأولى ، حين كانت إنجلترا تريد أن تقهر ألمانيا بسرعة ، وأن تنال فى ذلك دعم الصهاينة ، حتى يُغْروا الولايات المتحدة على الانحياز إلى جانبها .

أما عن موجات الهجرة إلى فلسطين : فإن الثالثة (من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٣) لم تؤثر سوى أنها رفعت مستوى السكان اليهود لعام ١٩١٤ بمقدار ٨٥,٠٠٠ ألفا .

وبلغت الموجة الرابعة (١٩٢٤ – ١٩٣٢) ٨٩,٠٠٠ مهاجر . وأما المجندون الجدد ، الذين دفعهم الإيمان وحده بالصهيونية ، بل ، ومع التشجيع بالامتيازات المادية التى تكفلت بها التبرعات الصهيونية فى العالم ، كما تمتعت بمظلة الحماية البريطانية ، رغم هذا نجد أنهم كانوا قليلا ، لدرجة «أن النزوح عام ١٩٢٧ عن فلسطين تجاوز للمرة الأولى الهجرة إليها»[١] .

---

(١) الكتاب السنوى اليهودى الأمريكى – « American Jewish Yearbook »ص ٥٣ .

لم ينقذها سوى سياسة هتلر المعادية لليهود ، فهى التى أتاحت للزعماء الصهاينة أن يجمعوا بالإكراه أكبر عدد من اليهود فى فلسطين : «لقد بدأ المكتب المركزى لتوطين اليهود الألمان باستبعاد الذين طلبوا شهادات دون أن يكونوا صهاينة ، ولقد حملتهم حاجات فلسطين ومصالحها – والحالة هذه – على استراتيجية النجاة بجلودهم التى قدموها لليهود» [(١)] .

وبهذه الطريقة كان اليهود الألمان أمام قياس إحراج ، أى : بين أمرين لامناص من أحدهما ، فإما الذهاب إلى «معسكرات المذهبية» التى أقامها الصهيونيون ، ثم السفر إلى فلسطين ، وإما الانتهاء فى معسكرات الاعتقال» [(٢)] .

وكانت نتيجة هذه الجهود مثمرة ، فمن عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٣ – دخل فلسطين ١٨٨,٠٠٠ ألفا من اليهود ، وقد ساعد وصول هتلر إلى السلطة على تسريع الحركة ، فدخل فلسطين فى الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٩ من اليهود ٢١٥,٠٠٠ ألفا .

ولقد أدى الحد من استقبال اليهود المضطهدين بألمانيا ، فى الدول المتحالفة ، تحت ضغط الزعماء الصهاينة إلى أن يصل عدد السكان اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٦ . إلى ٦٠٨,٠٠٠ ألف شخص (حيث كان يعيش آنذاك ١,٢٣٧,٠٠٠ مليون ومائتان وسبعة وثلاثون ألفا من العرب) .

ولما كانت إسرائيل قد ولدت من الحربين ، فإنها بقيت حتى الآن بفضل خمسة حروب ، هى : الحرب التى انتهت عام ١٩٤٨ ، والحرب التى انتهت عام ١٩٥٦ (بالتواطؤ مع إنجلترا وفرنسا) ، وعدوان عام ١٩٦٧ بما صاحبه من استيلاء جعل حرب عام ١٩٧٣ ضرورة لا مفر منها ، وأخيرا غزو لبنان عام ١٩٨٢ .

---

(١) دافيدوفتشى (Lucy S) «الحرب ضد اليهود La Guerre Contre Les Juifs (١٩٣٣ – ١٩٤٥) – هاشيت ١٩٧٧ ص ٣٠٦ .

(٢) ٥ . ج . شفر : «المعاملة السوفيتية لليهود – The Soviet Treatment of The jews » بريجر ببلشر ، نيويورك ١٩٧٤ ص ٧٩ .

وبرغم هذا النشاط العسكرى فإن الصهيونية الإسرائيلية تصل من جديد ، إلى منقطع أنفاسها ، كما حدث عام ١٩٢٧ :

فالهجرة إلى إسرائيل لاتوازى النزوح عنها . إن هنالك أسبابا أساسية تجعل من دولة إسرائيل البلد الوحيد فى العالم الذى يجد فيه اليهود أقل قدر من الأمان ، وذلك نتيجة السياسة العدوانية لقادتها ، بل إن أمن يهود الشتات يوشك على المدى الطويل أن يكون مهددا بسبب الإثارة المترتبة على أعمال الاغتصاب التى يقترفها الزعماء الصهاينة فى إسرائيل ، وبسبب الاقتطاع المالى الخارجى الذى يتزايد من آن لآخر ، لحساب دولة تخصص أكبر قدر من ميزانيتها للحرب ، وعلى حساب اقتصاد هو دائما على حافة الإفلاس ، على الرغم من الحقْنِ المتزايد دائما بالدولارات .

وهكذا نجد **الاستعمارية** تتماسك بصورة مصطنعة ، وهى التى لم يبق منها حاليا سوى إسرائيل وجنوب إفريقية .

وهكذا نجد **القومية** وقد تلقت تشجيعا مصطنعا ، فى عصر صارت فيه من مرحلة لأخرى شيئا عتيقا ومتقادما ، جراء تبعية القوميات للكتلتين اللتين تهيمن عليهما القوة الطاغية .

- **والقومية الإسرائيلية قومية مصطنعة أكثر منها تاريخية** ، فليس لها فى فلسطين «قوم» : وحتى فى زمن مملكة داود ، لم يكن الشاطىء (الذى تمسك به الفلسطينيون) يشكل مطلقا جزءا من هذه المملكة ، وكانت أورشليم هى «مدينة داود التى غزاها وحكمها بوساطة مرتزقته غير العبرانيين ، فى المنطقة الفاصلة بين يهوذا وإسرائيل .

هذا البناء السياسى كان غاية فى الضعف والهشاشة ، غاية فى عدم الاستقرار ، لدرجة أنه لم يسمح بنمو ثقافة مستقلة : فعندما بنى سليمان المعبد ، كان من المتصور أنه بنى وزخرف بوساطة الفلسطينيين الذين طلبهم

الملك حرم من صور [1] . وعلى مدى أربعة آلاف عام من التاريخ لم توجد دولة عبرانية إلا خلال ثمانية وسبعين سنة ، فى عهدى داود وسليمان ، وخلال مائة سنة على يد المكابيين .

وهناك خطأ مواز لهذا حين نتحدث عن «قوم فلسطينيين» ، ذلك أن الصراع المشروع الذى يخوضه الشعب الفلسطينى ليس صراعا «قوميا» . بالمعنى الغربى للكلمة ، إنه من ناحية – عودةٌ **«إلى أرض زرعها أجدادهم دون انقطاع منذ أربعة آلاف عام»** ، وهو من ناحية ثانية **«رغبة فى أن يصبحوا مرة أخرى جزءا لايتجزأ من المجتمع العربى ، ومن «الأمة» ، فهو فى جوهره صراع ضد الإستعمار .**

إن سلوك الأوربيين (باستثناء النمسا واليونان) – تجاه القومية الإسرائيلية ، يمضى إلى **عكس اتجاه التاريخ ، وإلى ضد المصالح الاقتصادية ، والمقتضيات السياسية للسلام ، والمستقبل الروحى للعالم:**

---

(١) هذا يكشف بطلان «الحفائر الأثرية» التى شُرِعَ فيها ، بحجة العثور على «المعبد» ، فليست المسألة فقط أنه لايمكن أن يبقى فى أفضل الحالات سوى بقايا تافهة ، بل إنهم لو فتشوا هذه البقايا فسوف تكون شاهدا على ثقافة «الفلسطينيين» ، الذين أهدوا اسمهم إلى «فلسطين» . أما مابقى فإنهم لن يعثروا إلا على امتداد الحائط الرومانى (الذى بناه هيرود) ، والذى يسمى «حائط المبكى» .

إن أسباب الحفريات الحقيقية هى تقويض وهدم المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، الشاهدان العظيمان على إبداع الحضارة الإسلامية .

نعم ، أ – هو عكس اتجاه التاريخ ، وقد أبنّا فى الباب الأول من هذه الدراسة – المغزى التاريخى لبوتقة الحضارات الهائلة التى تشكل الهلال الخصيب ، ولن نعطى على ذلك سوى أمثلة قوية الدلالة على هذا الدور : لقد كانت بيروت ، خلال قرون ، منذ التاريخ القديم ، إحدى نقاط الاتصال على « طريق الحرير » الذى يأتى من الصين ، لم تكن المدينة مشهورة بمصانع الحرير فيها فحسب ، بل هى مشهورة بكل ماتحمل من عناصر ثقافية بعيدة ، على حين أن الإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية الصينية كانتا تجهلانه : **مجتمعات مغلقة** من الإمبراطوريات كانت تتعارض مع المجتمعات **المفتوحة ، فى عالم**تنسج فيه الشبكات الإنسانية الكبرى ، من التبادل والتجارة إلى الثقافة .

وهناك مثال آخر هو مثال دُمَّر ، وهى التى ذكّرنا بدورها الحاسم فى التنظيم الضخم لشبكة الطرق ، من البحر الأبيض المتوسط إلى الهند ، بحيث يسمح بالإخصاب المتبادل بين الاقتصاديات ، والحضارات .

لقد دَمَّرَ الرومان دُمَّرَ ، وبعد ذلك بألف عام بنى العرب قرطبة . ولما كانوا ورثة « الهلال الخصيب » ، وروحه ، فقد أنشأوا مع مسجد قرطبة جامعتها ، وهى إحدى مراكز الثقافة التى أشعت منها على الغرب خلال ثلاثة قرون علوم الشرق ، واليونان ، والهند ، وحكمتها ، لابمجرد ترجمة مؤلفات هذه العلوم والفلسفات فحسب ، بل بالتركيب الجديد ، والتطوير المبدع للإسلام الحى ، وعلى الجانب الآخر من هذه المنطقة الحضارية ، فى بغداد ، وحتى قريبا من الخليج الفارسى – كان أطباء الإسلام وحكماؤه يتعاونون مع أطباء اليونان والهند . وكان العالم الإسلامى يؤدى هذا الدور ، وكأنه بوتقة يتم فيها أَنْسَنَةُ الإنسان ، فى الطريق المفتوحة ، منذ ثلاثة آلاف عام ، فتحتها شعوب الهلال الخصيب . إننا نشهد للمرة الأولى منذ خمسة آلاف عام محاولة غزو حركة الأَنْسَنَة هذه ، لأن المنطقة عرفت عبر التاريخ غزوات خارجية ، وأحداث احتلال ، ولكن واحدة منها لم تتخذ هدفا لها أن تطرد أو تبيد سكانها الأصليين ، فالرومان ، والصليبيون ، والمستعمرون الإنجليز أنفسهم – اقتصروا

على إنزال قواتهم ، واحتلال البلد للسيطرة عليه ، واستغلال سكانه . أما الأهداف الصهيونية المبتكرة فهى تعمل على أن تحل شعبا محل شعب آخر ، وحضارة محل أخرى . **ومنذ أعلن هرتزل** فى كتابه «الدولة اليهودية» (ص ٩٥) ، قوله : «لسوف ننشىء من أجل أوربا هناك جزءا من السور فى مواجهة آسيا ، ولسوف نكون مرصدا متقدما للحضارة ضد البربرية» (وهذا إنكار لحضارة) – **إلى أن أعلنت السيدة جولدا مائير** فى صحيفة الصنداى تيمس ، بتاريخ ١٥ من يونيو عام ١٩٦٩ قولها : «ليس هنا فلسطينيون ، ليس معنى ذلك أنه كان هنا شعب فلسطينى فى فلسطين ، يرى نفسه شعبا فلسطينيا ، وكأنما جئنا لنلقى به على الباب ، ونأخذ بلده ، إنه لم يوجد مطلقا» (وهذا إنكار لشعب) .

فإذا مارجعنا إلى القوانين الأساسية لدولة إسرائيل ، ولاسيما القوانين الخاصة بالصندوق القومى-اليهودى (Keren Kayeset) ، وصندوق الإنشاء (Keren Kayesod) وهى القوانين المطبقة عام ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، والتى تشترط أن الأرض لايمكن أن «تباع أو تؤجر إلى غير يهودى» (فهذا إنكار عنصرى ممتد إلى الأرض ذاتها) .

فنحن فى الحالات الثلاثة أمام مشروع جديد أصلا فى التاريخ ، هو : استبدال حضارة بحضارة (حضارة الغرب الجاحدة بحضارة الهلال الخصيب) ، واستبدال سكان بسكان (فالغزاة القادمون من أنحاء العالم كله يزيحون السكان العرب الأصليين) ، وفرض معيار عنصرى على ملكية الأرض لانتزاع أولئك الذين يزرعونها منذ أربعة آلاف عام من جذورهم ، وتمليكها (أبديا) لمهاجرين ، لم يكن لـ ٩٩ ٪ من بينهم أى سلف عاش على هذه الأرض (استنادا إلى أساطير تاريخية وعنصرية) .

لقد بدأ هذا الرفض للآخرين برفض الصهيونية للاندماج ، (أى : لبناء حضارة مشتركة مع أناس لايشاركونهم إيمانهم الدينى) ، ثم انتقل إلى العدوان الإسرائيل على الشعب ، والأرض ، وحضارة العرب . وهذا كله ظاهرة لم تحدث سوى مرة واحدة فى التاريخ الواقعى ، ولكنها بدأت على الأقل دون

أهداف مسبقة حين قام الغربيون بطرد هنود أمريكا وإبادتهم ، وحدثت مرة أخرى دون أن تحقق أهدافها فى التعصب التاريخى لهتلر ، الذى كان يحلم بإبادة السلافيين ومعهم «اليهود» بنفس الضربة ، وباسم الأسطورة العنصرية (الآرية) [١] .

لقد كانت النتائج قاتلة بالنسبة إلى الإنسانية كلها ، لا لأن هذه المحاولة لفرض ثقافة شاملة على أقدم وطن للحضارة «المفتوحة» ، حضارة الهلال الخصيب ، تعرقل نهضته ، وإسهاماته الجديدة التى يملك تقديمها لبناء مستقبل ذى وجه إنسانى للعالم كله ، ليس هذا فحسب ، وإنما لأن عدوانا بهذا العمق يغذى اتجاهات الجمود فى كل المجتمعات : جمود دولة إسرائيل الصهيونية ، وفيها «الأحزاب الدينية» ، والحاخامية ، وهى تمارس دورا كبيرا (رغم ضعفها العددى) ، إذ هى تقدم الأعذار الأسطورية ، كما تقدم الإيديولوجية اللازمة لتبرير العدوان ، وموقف الحاخام مئير كاهان ذو دلالة على مانقول : فإن مايصدر عنه من هذيان دموى مخرب لايمكن أن يكون بأكمله موضع اعتبار الزعماء الإسرائيليين ، ولكنهم لايستطيعون أن يدينوا من أقواله سوى مايتسم بالتطرف والرعونة ، أما المبدأ فلا . إذ هو لايعدو أن يكون المنطق الداخلى للصهيونية السياسية ، الماضية إلى أقصى نتائجها ، يدل على ذلك اختياره على هذا الأساس نائبا فى الكنيست ، وتمتعه بحصانته .

والعدوان الصهيونى ومشروعاته التوسعية – هما أيضا أفضل مايغذى جميع القوميات العربية ، وجميع اتجاهات الجمود الإسلامية ، التى تعمل بأسوأ طريقة للحفاظ على شخصيتها المهددة .

---

(١) فات المؤلف أن يشير إلى مايمارسه الإرهاب الشيوعى من اضطهاد المسلمين وتعذيبهم منذ أفْرَغَ شبه جزيرة القرم من ثلاثين مليوناً من المسلمين ، ساقهم إلى سيبيريا ، فمات كثيرون منهم فى طريق العذاب والزمهرير ، وضاعت أرضهم وحل محلهم مهجرون روس . وكذلك شأن الشيوعيين فى الولايات التى كانت إسلامية بالاتحاد السوفيتى مثل تركستان ، ومأساتها مشهورة بين روسيا والصين ، وآخر الممارسات حدثت فى أفغانستان حيث هرب أربعة ملايين من جحيم الشيوعية . (المترجم) .

ولهذا نرى أن المقاومة الفلسطينية ، مهما تكن مساوئها العسكرية ، منوط بها أن تؤدى رسالة ذات قيمة عالمية ، هى أن تلتزم موقفا تاريخيا بديلا ، فتدافع عن حضارة بحضارة ، على نحو يتفق مع التوجه العريق للهلال الخصيب .

ليس هناك حل جزئى «قومى» (بالمعنى الغربى للكلمة) ، للمشكلة الفلسطينية ، فالحل الوحيد الممكن لابد أن يكون بالنسبة إلى مجموع الهلال الخصيب ، الذى لم تكن فلسطين وحدة منفصلة عنه أبدا، ولن تكون .

والعالم العربى لا يستطيع أن يعيش ، وأن يشهد نهضة حقيقية إلا حين يضطلع بتراثه الروحى ، تراث الهلال الخصيب ، ومفهومه «المفتوح» ، مفهوم مجتمع الإيمان ، فى مقابل المفهوم «المغلق» للغرب الإمبريالى ، وربيبته الصهيونية فى فلسطين .

وإنما تنبع أكبر نقطتى ضعف فى العالم العربى الراهن من عدم إيمانه بهذا التراث ، جَرَّاءَ قومياته السياسية ، وطائفياته الدينية .

وأكبر مايناط بفلسطينيى «الشتات» هو أن يساعدوا العالم العربى على التغلب على هذين المرضين القاتلين .

أما المقاومة «القومية» فسوف تئول إلى الخمول ، شأن كل القوميات العربية .

وللمقاومة مهمة أخرى ، إذ يتعاون فى إطارها عرب ذوو معتقدات دينية مختلفة ، مسلمون ومسيحيون ، فمهمتها أن تساعد البلاد العربية على التغلب على الطائفيات الدينية ، والعودة إلى المنابع الحية للإسلام ، وللمسيحية ، واليهودية ، فى إدراك كامل لوحدة الإيمان الإبراهيمى [1] ، وإمكاناته الجديدة للإبداع .

* * *

من الثوابت فى تاريخ أوربا حرصها على أن ترتبط بالشرق ، لا لأنه شبه جزيرة من آسيا فحسب ، بل لأنها تمتاح منه وتستمد جذورها الروحية .

---

(١) انظر مقدمتنا فى دراسة هذه القضية . (المترجم) .

وذلك بقطع النظر عن الانتهاكين اللذين تورطت فيهما - لحرمة الوجهة التاريخية لفلسطين (بوساطة الصليبيين ، وبوساطة الاستعمار ، والصهيونية التى هى امتداد له) .

لقد تطورت الفلسفة الإغريقية فيما قبل سقراط فى آسيا الصغرى ، وفى ولاية من ولايات الإمبراطورية الفارسية ، تطورت مع طاليس وميليه ، ومع بارمينيد وزينون ديليه ، ومع هيراقليطس ديفيس ، وغيرهم كثير ، وجاءت الحروب الميدية فأحدثت انطواء نسبيا ، حتى أنجصبت آسيا من جديد العالم الهلينى بأديانها التى تحقق النجاة ، فى حين أن إفريقية ، ومصر بخاصة قدمت إلى فيثاغورس وأفلاطون إلهاماتهما الأولى ، وأن الإسكندر توجه فى فرسانه حتى نهر السند ، ليواصل حلمه فى أن يربط الهلينية بآسيا ، وكان زواج ضباطه وجنوده من نسوة فارسيات هو إشهاره العظيم ، وقد بقى فن الغَنْدَرَةِ ، وهو تركيب للفن الإغريقى مع الفن الإيرانى والفن الهندى - أثرا من الآثار الجليلة على ذلك التاريخ .

وحين «أشرف العالم الهلينى القديم على الموت فى انهيار المدينة» حاول «أن يبتكر عالما جديدا» ، «وهكذا احتكت فى الهند ، إبان مرور الإسكندر ، الحكمة الإغريقية بالحكمة الهندية» [1] هذا ، على حين أن الإسكندرية سوف تصير فى إفريقية أعظم مركز للإشعاع الروحى ، فى البحر الأبيض المتوسط كله ، على مفترق الطرق بين آسيا وإفريقية وأوروبا المتوسطية .

وفى اللحظة التى رفض فيها جنوده وقواده أن يمضوا إلى بعيد، نحو ذلك الحلم الذى يحقق الألفة العالمية ، وتركيب الثقافات . على ضفاف نهر السند - خطب الإسكندر فى جيشه المتمرد - على ماذكره لنا بلوتارخ ، فقال : « مادمتم

---

(١) أندريه بونار : «الحضارة الاغريقية من يوريبدس إلى الاسكندرية - Civilisation Grecque d'euripide a Alexandrie» ص ١٦٩ وص ١٨٤ .

تريدون جميعا أن ترحلوا ، فاذهبوا جميعا إلى بلدكم ، وأعلنوا أن ملككم الإسكندر الذى قهر الهكسوس ، والتنائيس ، بل ونهر السند الذى لم يعبره سوى ديونيس ... اذهبوا وأعلنوا أنكم قد تخليتم عن هذا الملك ، ورحلتم تاركين للمهزومين مهمة حراسته ، هذا هو مالديكم لترووه ، وربما يبدو سلوككم عظيما فى أعين الرجال ، ومقدسا لدى الآلهة ... ارحلوا [١]» .

ثم انسحب إلى خيمته ، وأصدر إلى ضباطه الفرس الأوامر ، كيما يرحل جيشه إلى اليونان .

ويقص علينا بلوتارخ أيضا خبر إفريقية ، قال : «كانت للإسكندر رغبة فى أن يستمع إلى الفيلسوف أبسمون فى مصر ، ولقد وقع كلامه عنده موقع الرضا حين قال له : إن الله هو ملك الناس ، .... وهو الأب المشترك لكل الناس ... وهو يتعرف إلى أهله الذين هم أهل الخير» [٢] . وقد أعقب التعارض الهلينى بين الإغريق والبربر ، عند الاتصال بالشرق ، فكرة الإله الواحد ، الأب المشترك لكل الناس ، دون تفرقة بين من يفعلون الخير ، ومن يقترفون الشر .

وقد هاجرت نحو الغرب ، عن طريق أورشليم بفلسطين ، وأنطاكية بسورية ، والإسكندرية بمصر ، المجتمعات النصرانية الأولى ، التى حملت هذه الرسالة العالمية ، ثم سعى إلى الشرق الأدنى أيضا كل «الآباء الإغريق» ، آباء كبادوس (فى تركيا الحديثة) ، أو أنطاكية (فى سورية المعاصرة) ، فأعلنوا الإيمان الجديد هناك ، كما أعلنوه فى الإسكندرية (فى مصر الحديثة) ، وعلموه للاتينيين فى قرطاجنة (فى تونس الحالية) . مع القديس أوغسطين .

---

(١) بلوتارخ : «حياة الاسكندر – Vie d'Alexandre » نقلا عن بونار ص ١٩٥ .

(٢) السابق ص ١٩٤ .

وحدث مؤخرا ، عام ٧٩٧ م ، أن عقد شارلمان صلة مع خليفة المسلمين هارون الرشيد ، قبل أن يتوج إمبراطورا للغرب ، وهو مافعله كذلك عام ١٥٥٣ م فرانسوا الأول ، المرشح التعيس للإمبراطورية ، فقد عقد صلة مع سليمان العظيم ، سلطان الإمبراطورية العثمانية .

وعلى نقيض هذا التقليد الذى عمر آلاف السنين ، إخصابا متبادلا بين الشرق والغرب ، تمضى ملاحم الحروب الصليبية ، والاستعمارية ، والصهيونية ، ملاحم تدعو إلى السخرية ، بكل ماتحمل من ادعاءات دموية للهيمنة والطغيان . وذلك **ضد أكبر الاتجاهات الاقتصادية ، والسياسية ، والروحية لأوربا .**

- **فمن الوجهة الاقتصادية** تعتمد أوربا اليوم بنسبة ٥٢ ٪ على الشرق الأوسط ، وبنسبة ٧٠ ٪ على البلاد العربية ، فيما يتعلق بإمداداتها البترولية ، كما تعتمد فرنسا فى إمدادها بالطاقة على الغاز الجزائرى ، ولفرنسا مع الجزائر وحدها علاقات تجارية تفوق فى أهميتها أربعة أضعاف مالها مع إسرائيل .

وكذلك الحال بالنسبة إلى أوربا أجمع (١) فإن نصف صادرات البلاد العربية يتجه إلى المجتمعات الأوربية ، التى تُصَرِّف فى هذه البلاد ١٢ ٪ من صادراتها الخاصة (بالمقارنة مع ١١ ٪ موجهة من صادراتها إلى الولايات المتحدة) (٢) .

فالدول العربية ، سواء أكانت زبائن ، أو مصدرة ، هى إذن الشريكة الأولى لأوربا .

والقواعد الاقتصادية موجودة فعلا ، ويمكن أن تتضاعف وتتسع ، فى اتجاه إيجاد اتحاد يزداد توثقا دائما بين أوربا و «الأمة» الإسلامية ، بين أوربا و «العالم الثالث» ، عالم الدول غير المنحازة .

---

(١) انظر برنارد جرانوثيه : «إسرائيل سبب الحرب العالمية الثالثة — IsraelCause de la Troisiéme Guerre Mondiale» — ط . هارماتان عام ١٩٨٢ صـ ٢٤٤ — ٢٤٨ .

(٢) إحصاءات عن التجارة الخاصة ، ص ٢٠ ، و «مشكلات اقتصادية واجتماعية ، Poblemes Economiques et Sociauk» — رقم ٤٢٥ فى ٩ من أكتوبر عام ١٩٨١ .

إن هذا الاتحاد هو وحده القادر على أن يتيح لأطرفه الإفلات من الاستقطاب القاتل الذى يواجه العالم بين الكتلتين ، كما يفلت من الهيمنة الزوجية للقوتين العظميين على الكرة الأرضية بأكملها .

وتلكم هى المشكلة السياسية الرئيسة التى يتعلق بها اليوم سلام العالم ، أقصد : بقاءه ، على مستوى تطويرنا لتقنيات الدمار .

– **أما على المستوى السياسى** فترتكز الدراما ، ذلك أنه لا «العالم الثالث» وحده ، ولا أوربا المقسمة ، والمنقطعة عن الشرق – يستطيع أحدهما أن يشكل قوة قادرة على تحطيم النظام الانتحارى الذى شادته الكتلتان .

ومن هنا نجد أن بلدان «العالم الثالث» ، على الرغم من رغبتها الأكيدة فى «عدم الانحياز» تتذبذب ، أو تتدابر بفعل جاذبية لا تقاوم ، وهى تدخل فى مدار إحدى الكتلتين ، وأوربا كما نرى مقسمة أيضا إلى قسمين ، بين الشرق والغرب .

وفى أوربا الغربية شعوب ، ومن بينها ألمانيا بخاصة ، تشعر من حين لآخر ، بخطر التبعية للولايات المتحدة ، وهى تبعية كاملة بالنسبة إلى انجلترا ، وهى بالنسبة إلى بقية أوربا تبعية فى الأساس ، ولا شك ، رغم محاولات اليونان والنمسا .

إن «العالم الثالث» وأوربا ، ليست سوى بيادق على رقعة شطرنج الدولتين «الكبريين» اللتين لاتتواجهان مطلقا بصورة مباشرة ، ولكنهما تتقاتلان بوساطة شخص وسيط ، من آسيا ، أو من أمريكا اللاتينية ، أو من إفريقية ، أو من الشرق الأوسط ، أو من أوربا ، وهما قريرتا العين بدفْع المسلمين إلى التقاتل فيما بينهم حتى آخر دولار بترولى ، وبدفْع الأوربيين إلى التصارع فيما بينهم حتى آخر صاروخ أوربى .

وتتجلى تبعية أوربا بأجلى صورها فى المشكلة الفلسطينية ، إذ نجد البون شاسعا بين الأقوال المترددة ، والأفعال الواقعية ، بمالا نظير له فى أى مكان آخر من العالم .

ولنأخذ مثالا على ذلك قمة الدول التسع الأوربية ، التى انعقدت فى فينيسيا ، يومى ١٢ و ١٣ من يونيو عام ١٩٨٠ ، فقد أعلنت أن « الشعب الفلسطينى يجب أن يمارس حقه الكامل فى تقرير مصيره » ، وأدان أية محاولة من جانب واحد « تستهدف تغيير وضع القدس » ، وأما عن لبنان فقد دعت الدول التسع فى ١٣ من يونيو عام ١٩٨٠ فى فينيسيا ، « إلى وضع حد لكل عمل من شأنه أن يمس وحدة أراضى لبنان » .

ومع ذلك كان أول سفر رسمى للرئيس الجديد للجمهورية الفرنسية مخصصا لدولة إسرائيل . وفى هذه الرحلة لم يكن ميتران يفتقر فقط إلى الحزم فى خطابه بالكنيست ، بشأن المشكلة الفلسطينية ، حيث إنه لم يُدنْ ضم الجولان » وهو ماأخذه عليه رجل دولة عربى معتدل ، هو الشيخ زايد ، رئيس الإمارات العربية المتحدة ، ليس هذا فحسب [١] ، بل إنه حين قبل الذهاب إلى القدس أمن على ضم المدينة .

ومن قبل ، فى ٧ من يونيو عام ١٩٨١ طلب زعيم الصهيونية الفرنسية ، آلان دو روتشيلد ، من رئيس الوزراء بيير موروا ، أن يفى بالوعود التى قطعها ميتران بإلغاء إجراءات المقاطعة ضد إسرائيل ، الصادرة فى ٧ من يونيو عام ١٩٧٧ ، و ٢٤ من يوليو عام ١٩٧٧ ، و ٩ من مايو عام ١٩٨٠ [٢] .

---

(١) صحيفة «لوموند» فى ١٢ من مارس ١٩٨٢ .

(٢) دعا هنرى هدنبرج السكرتير العام لمنظمة «اليهودى الجديد» (أقصى اليمين الصهيونى) – إبان الحملة الرياسية إلى التصويت ضد جيسكار ديستان وروجيه أسكوت ، وفى صحيفة «المنبر الصهيونى – Tribune Sioniste» دعا إلى انتخاب ميتران . وقد كرر «الإعلام اليهودى» بقلم أحد قادة منظمة C. R. I. F، إميل تواتى . أن معيار تصويت الناخب اليهودى يجب أن يكون : «سيادة وأمن إسرائيل» (انظر صحيفة لوموند فى ٢ من إبريل عام ١٩٨١) .

وحين قطعت إسرائيل عزلتها على هذا النحو أدركت أنها تستطيع أن تغزو لبنان دون عقوبة ، بفضل الدعم غير المشروط من الولايات المتحدة ، وبفضل التواطؤ المذعن من جانب أوربا .

وقد واجه الرأى العام العالمى هذا الغزو ، منذ كان ، بالرفض ، مما دفع مجلس الأمن بالأمم المتحدة إلى أن يطلب من بيجن أن يسحب قواته ، وكان القرار بالإجماع ، ماعدا صوتا !! فقد اعترضت الولايات المتحدة ، واستخدمت الفيتو ، فكانت هذه إشارة المرور للمذبحة .

ومرة أخرى نجد الغرب كله ، أوربا تتبع الولايات المتحدة بكل انقياد ، وهى فى نفس الوقت تتحدى «العالم الثالث» باعتادها للعدوان الإسرائيلى .

- **هذا التضامن مع الصهيونية الإسرائيلية** يرجع إلى سبب أساسى ، فإسرائيل تقوم بدور الوكيل عن الاستعمارية الجماعية للشرق الأوسط ، وهى تقوم ، لحساب الولايات المتحدة ، بمراقبة المدخلين اللذين يغلقان باب العلاقات بين الشرق والغرب : قناة السويس ، ومضايق الدردنيل ، على أن المدخل الثالث فى يد دولة أخرى محمية من محميات الولايات المتحدة ، هى جنوب إفريقية .

هذا الحاجز الذى يقطع علاقات الإخصاب المتبادل بين الشرق والغرب ، موقف مدمر على المستوى الأعمق ، هو المستوى الروحى ، بالنسبة إلى جميع الروحيات فى العالم .

إن دعم القومية الصهيونية قد أخفى عن اليهود أنفسهم عظمة التقليد النبوى ، فلم تعد اليهودية تستخدم لدى الصهاينة سوى تَعِلَّةٍ لسياستهم ، ولما تذرعت بهذه الحجة لم يعد للرسالة اليهودية إشعاعها الروحى ، الذى هو عنصر لايمكن تعويضه فى الروحية العالمية (١) ، وقد أصبحت دولة إسرائيل موضوع شعائر وثنية ، حلت محل عبادة إله إسرائيل .

---

(١) انظر مقدمتنا للكتاب ، وقد تعرضت لهذا الموضوع . (المترجم) .

أما الذين لم يدركوا – من النصارى – أن هذا الإحلال كفر وزندقة ، فإنهم يضحون بأعظم تقاليدهم الروحية ، تقليد المسيحية الفلسطينية الأصيل ، من أجل « نزعة قسطنطينية Constantinisme » لم تكن سوى جحود ، حين قدمت سياسة الدولة على حقيقة الإيمان وعالميته .

ولقد دُنِّس الإسلام أيضا بصورة خطيرة ، بسبب المواجهة الجديدة مع الغرب ، فإن التوتر الدائم للعدوان الصهيونى يقوى تيارين مضادين لروح الإسلام .

أما أولهما فهو ازدياد حدة القومية ، سواء فى صورتها (الأوربية النموذجية) التى تعنى الأنانية الوطنية ، بسبب الاعتداءات المستمرة لإسرائيل ، أو فى صورتها «القومية العربية» ، من النموذج الناصرى ، أو البعثى ، الذى يمجد العروبة أكثر مما يمجد الإسلام ، وبذلك يخرب الأمة الإسلامية .

وأما ثانيهما ، وهو أكثر عمقا ، **فهو** تلك العدوانية الصهيونية ، التى يشجعها الغرب ، وهى تستتبع رد فعل كلى يتمثل فى رفض كل ماهو غربى ، والانطواء الطائفى على الماضى . إن الصهيونية والتواطؤ الغربى يغذيان بموقفهما أشد الاتجاهات رجعية ، وهى الاتجاهات التى تذمها «أجهزة» الغرب ، باعتبارها «جمودا» من خلال طرح مفاهيم أوربية من مفاهيم القرون الوسطى على واقع إسلامى ، هى ، من حيث المبدأ ، غريبة عنه تماما .

ذلك أن الإسلام ، فى إلهامه الأصلى العميق ليس دينا ككل الأديان ، والنبى محمد ﷺ لم يدع مطلقا أنه يؤسس دينا جديدا ، فقد كان الوحى القرآنى أساسا دعوة إلى الدين الأساسى ، الوحيد ، والأول ، الذى هو دين آدم ، الإنسان الأول ، والنبى الأول ، إذ إن الإنسان ليس إنسانا إلا بالروح الإلهى الذى نفخ فيه ، والذى يمنحه هذا البعد العلوى .

ولذلك يعتبر القرآن إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، من أنبياء الإسلام ، فالإسلام يعنى «الخضوع والاستسلام لإرادة الله» ، وذلكم هو القاسم المشترك بين جميع الأديان ، لا أديان التقليد الإبراهيمى فحسب: اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام .

ذلك أنه قد ذكر فى القرآن أيضا أن الله أرسل رسلا إلى جميع الشعوب ، وأن بعض هؤلاء الرسل جاء خبرهم فى القرآن ، وبعضهم لم يرد له خبر ، [١] وهم أنبياء الهند أو الصين ، أو أوربا ، أو إفريقية ، أو القارة الأمريكية الهندية .

إن هذه العالمية القومية تنفى بصورة قاطعة أى ادعاء بأن هناك «شعبا مختارا» ، وهذه الوحدانية الثابتة التى ترى أن الإنسانية واحدة لأن الله خالقها واحد – هى موضع سخرية القومية الصهيونية ، فهى تسخر من النبوة اليهودية ، وتجعل منها أداة لسياستها ، وهى تشوش على مسيحية فلسطينية ترجع إلى مبدأ القسطنطينية ، غافلة عن أن الوعد قد أعطى ليسوع المسيح ، ولم يكن فى أرض معينة أو لشعب معين ، بل كان وعدا بمملكة لا توجد على الأرض ، ولكن فى ملكوت الرب : فهى تؤدى بوساطة رد الفعل – بالبلاد الإسلامية إلى خلط الرسالة العالمية للقرآن بإقليمية تقليد من التقاليد .

إن «الشريعة» ، وهى القانون الإسلامى بالمعنى الأعمق ، قانون الخضوع لله – ليست بقطع الأيدى (كما يقطع الغرب الرءوس) ، إنما هى حضور الله فى كل عمل من أعمالنا ، الله الذى لا يخدعه أحد ، وهى الوعى بمسئوليتنا ، باعتبارنا بشرا نفخ الله فيه من روحه ، وجعله خليفة عنه [٢] فى الأرض ، أعنى : المدير المسئول عن التوازنات فى الطبيعة ، وفى العلاقات بين الناس ، ومنذئذ تحققت على الأرض شفافية فى التبادل بين الناس ونزاهة ماكان لهما أن تكونا غير متساويتين ، لولا تغلب مصلحة كل الإنسانية على ادعاءات التفوق التى تزعمها أمة من الأمم ، أية كانت ، وكل ذلك لم يكن ممكنا لو لم يشعر كل فرد فى أعماق ضميره بأنه مسئول عن جميع الآخرين ، وأنه مشارك لهم فى المطلق ، باحترامه للقيم المطلقة .

---

(١) يشير المؤلف إلى قوله تعالى : «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك» المؤمن / ٧٨ (المترجم) .

(٢) قد يرى بعض المفكرين أن الخلافة ليست عن الله ، فالله حاضر لايغيب ولا يخلفه أحد ، وإنما هى وظيفة سلطان على العباد فى الأرض . (المترجم) .

ولو أننا زعمنا أننا نضرب صفحا عن هذا البعد العلوى فى الإنسان ، فلن يبقى فى المجتمعات شيء سوى المواجهات الغاشمة بين إرادات القوة ، وإرادات الاستمتاع ، وإرادات تزايد الأفراد ، والمجموعات ، والأقوام ، ومابينهم من «توازن قائم على الرعب» .

وهذا هو الرهان الأخير لذلك التاريخ ، الذى كانت أورشليم رمزه المضيء ، والذى كان شرطه التلاقى الأخوىّ بين الأديان الكبرى الإبراهيمية فى فلسطين «لجميع قبائل الأرض» كما جاء فى سفر التكوين [١٢ / ٣ و ٢٨ / ١٤] .

إن الانفتاح على مستقبل ذى وجه إنسانى ، وضد أى مشروع للاستعمار أو السيطرة هو معنى التاريخ الألفى لفلسطين ، تلك التى لايمكن أن تقوم بدورها النشط من أجل الإنسانية لو قطعت عن الهلال الخصيب ، وعن العالم العربى .

وهذه الرسالة لا تتوجه فقط إلى المؤمنين من القبيلة الروحية التى نسلت من إبراهيم ، لأنها حتى ولو كانت موجهة إلى غير المؤمنين ، الذين ربما يتبعون إغراء الوضعية التاريخية قصيرة النظر ، وغير المهذبة ، والتى لاتهتم لذلك بغير الأحداث الأسطورية ، لا بمعنى «الوعد» الذى أعطى لإبراهيم ، و «العهد» ، و «الاختيار» ، و «تضحية إبراهيم» ، «وخروج» شخص موسى نفسه ، ورسالته — إذا كان ذلك كذلك فسوف نقول : لو أننا ألقينا على التاريخ نظرة إنسانية بالمعنى الصحيح ، لا نظرة قاصرة ، أى : لو أننا بحثنا فى الماضى عن : كيف صار الإنسان إنسانا ، فإن الابتكارات «الشعرية» التى تميز بها عن جميع الأنواع الحيوانية ، والتى بها يحاول أن يجعل لحياته ولمماته معنى ، وصور الأبطال والقديسين التى تخيلها ، أو عاشها ، وكل ذلك معبر نهائى إلى الطريقة الإنسانية الصحيحة للحياة — فحينئذ تتغير المشكلة التاريخية .

إن المشكلة لم تعد أن نعرف ما إذا كان إبراهيم قد ولد فعلا فى «أور الكلدانية» (وهو مع ذلك مفارقة تاريخية) [1] ، ولا ما إذا كانت مسيرته هى

---

(١) التلقيب «بكلدة» لم يظهر إلا فى القرن التاسع ، أي بعد أن نصب التقليد الحاخام بعدة قرون .

فعلا ملوصف لنا ، ولا ماإذا كان الرب قد تعرف إليه (وفى أى شكل ؟) حتى يعطيه وعدا ، ويهبه أرضا ، أو ملكوتا .

وليست المشكلة أن نعرف على أى جبل كان «شوك النار» الذى تراءى لموسى ، ولا ماإذا كان يشوع هو القائد العام للأسباط ، وقاتل الكنعانيين (كما سيصير آخرون ، بعد قرون كثيرة - قاتلى الهنود) .... الخ ...

إن المشكلة مختلفة جدا عن ذلك ، وهى لاتستبعد مطلقا البحث ذا الدقة العالمية المتشددة ، بل هى على العكس تستوجبه ، وتفترضه مسبقا . وهى كما يلى : فى أية لحظة أنشئت هذه القصص المؤسِّسة ، الحاسمة فى تشكيل الإنسان ، والحياة ، والأبطال ؟ وفى أى الظروف التاريخية ؟ وفى أية مجموعة إنسانية ؟ وما أهدافها ؟ سواء أكانت واقعية أم أسطورية ؟ .

والمهم أن أناسا استطاعوا أن يتصوروا ، وأن يبدعوا هذه الصور من عند أنفسهم ، وأنهم حاولوا أن يعيشوا تبعا لهذه النماذج التى استهلت واقعا جديدا فى الشكل الإنسانى [1] ، ففتحت أمامه آفاقاً جديدة ، لا محدودة ، كشفت عن هذا الظرف الجديد ، لتحكم على كل مشروع إنسانى ، وكل تحقيق لهذا المشروع بالقياس إلى أفق القافلة الإنسانية ، الذى لا نهاية له ، **ذلك الأفق اللانهائى الذى أطْلَقَ عليه التقليدُ الإبراهيمى : الله** ، والذى يسمح للإنسان أن

---

(١) العجيب أن رجالا ، و «شعراء» استطاعوا أن يتخيلوا ، وأن يبدعوا وجه هكتور أو راما ، اللذين مازالا مؤثرين فى حياتنا الخاصة ، حتى ولو كان قتال هكتور ضد أخيل فى طروادة أسطورة ، كأسطورة انتصار راما على رفانا فى سرى لانكا ، فإذا قصدنا بكلمة «الواقع» مايسجل فينا طابعه ، وما يثير نشاطنا فإن هذه الأساطير أكثر واقعية من كثير من «الأحداث» اليومية .

يؤدى فى أكثر المهمات الترابية «حركات اللانهائى» ، على ماكتبه كيركجارد فى تأمله الرائع عن إبراهيم : «فارس الإيمان» [1] .

فلنتناول الآن من هذا المنظور «اللاهوتى» [2] موضوعات الاختيار ، والعهد ، والوعد بالأرض ، وبالذرية ، لا لكى نتخذ منها «أحداثا» (فى شكل صك للملكية ، أو برنامج سياسى من مثل مايثير السخرية من ادعاء الصهيونية السياسية القاتل) ، بل لكى نستخرج منها «المعنى» باعتبارها تراثا عظيما للإيمان الإبراهيمى ، لدى اليهود ، والنصارى ، والمسلمين .

إن اعتبارنا أن الأحبار ، وفى طبقتهم الأولى إبراهيم ، لم يكونوا شخوصا تاريخية ، وأن العهد ، والوعد ، والاختيار إنما تصدر عن مجموعة الأساطير ، وعن «الشعر» ، لاعن التاريخ – لا يمنعنا من أن نسأل أنفسنا عن مغزى هذه الأساطير ، بل إنه ليدعونا إلى ذلك ، لأن العهد هو مشكلة علاقات الإنسان مع الله ، والوعد مشكلة العلاقة بين إرادة الله ومشروع إنسانى ، والاختيار هو مشكلة مسئولية الإنسان عندما يتحمل بعده العلوى .

---

(١) سورين كيركجارد : «خوف واضطراب – Crainte et Tremplement» فى : الأعمال الكاملة . ط لورانت ١٩٧٢ ح ٥ ، مدح إبراهيم ، ص ١٠٤ – ١٤٥ . هذا التأمل فى العمل الأساسى للإيمان الإبراهيمى ، فى صورة اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام – يبدو لنا اليوم واقعيا بالنسبة إلى حل المشكلات الكبرى فى عصرنا ، ولاسيما مشكلات علاقات الإيمان بالأخلاق ، وبالسياسة ، وبالعلم .

(٢) أقصد بمصطلح «لاهوتى Théologigue» دراسة الإنسان وتاريخه الذى لا يستبعد ابتداء ، وبفرض مُسَلَّم ، البعد العلوى للإنسان ، أعنى : مسئوليته الدائمة عن الانقطاع «الشعرى» ، مع الحتميات (الواقعية ، جزئية ومحلية) التى تتعلق بماضيه ، و «تساؤله» الذى لاينتهى عن معنى حياته ، وموته ، وعن إرادة الإله الخالق .

تلكم هى الرسالة الرائعة التى حملها الإيمان الإبراهيمى إلى العالم ، وهى الرسالة التى خانتها الصهيونية بتبديدها الثابت لمعنى الوعد .

لقد خانت الصهيونيةُ السياسيةُ اليهودية ، وأفسدت المسيحية .

أليس إفسادا أساسيا للمسيحية أن تنحرف عما كان يعتبر أعظم تراث لليهودية ، وهو على وجه التحديد : إيمان إبراهيم ؟

الإيمان الذى لا يبحث عن التمتع بوعود الله ، بل عن الخضوع لتكاليفه .

لقد حدد كيركجارد ، بصورة أكثر عمقا مما استطاعه أى لاهوتى ، يهودى ، أو نصرانى ، أو مسلم – حدد المركز المشترك للإيمان بالنسبة إلى الذرية الإبراهيمية كلها ، المقصودة «بالوعد» ، والذى هو عند المجتمعات الثلاثة (التى لا تجعل منه سوى شيء واحد) وعدٌ بمسئولية ، لا بامتياز ، وهى مسئولية أن يخضع مشروع الإنسان لإرادة الله ، بكل ماتتضمنه هذه المغامرة العظيمة من مخاطرات بالنسبة إلى الإنسان ، الذى ليس لديه مطلقا يقين بما هو مراد الله . وقد كتب كارل بارت يقول : إن كل ماأقوله عن الله ، فهو قول إنسان ، مجرد إنسان قابل للخطأ ، بكلام عابر دائما ، محتمل لإعادة النظر ، ولايمكن أن يكون إلا ناقصا . وكان كيركجارد يقول : «أرى أن نُخْرِجَ من تاريخ إبراهيم مشكلة الجدلية التى يتضمنها ، حتى نرى أى تناقص غريب يكمن فى هذا الإيمان ، وهو تناقض قادر على أن يجعل من الجريمة عملا مقدسا ، ولائقا بالله ، تناقض يرد إلى إبراهيم ولده ، تناقض لا يمكن أن يتضمن أى برهان ، لأن الإيمان يبدأ حيث ينتهى العقل» [1] .

ذلكم ، بالنسبة إلى كل الشعوب ، وفى جميع الأزمنة «الهدى» الإلهى ، إيحاء الغايات الأخيرة للإنسان ، وتنزيل معنى حياته ، ومغزى تاريخه .

ولقد فقد الغرب منذ خمسة قرون هذا «الهدى» .... ومات فيه ، مات فى نشوة قوته العمياء .

---

(١) السابق ١٨ / ٣ .

وفى نهاية هذا التاريخ ، نهاية هذه اللحظة الفلسطينية الكبرى للملحمة الإنسانية يجب أن نعى مايمكن أن يحدث ، وراء القوميات العتيقة والفاسدة ، من اللقاء الجديد بين الشرق والغرب فى أورشليم (القدس) ، لقاء تقنيات الغرب – التى لايُخَلِّى بينها وبين انحرافها المدمر ، (حين تكون غايات فى ذاتها ، فى شكل تكنوقراطية صارت ديانة الوسائل) – مع «الهداية» التى اتخذت رسالتُها من آسيا مصدرَها غالبا ، وذلك كيما توضع هذه القدرات الرائعة للتقنية ، مع «الهداية» التى كشفتها ، فى خدمة الإنسان ، لافى خدمة هدمه وتدميره .

إن الإنسان لايكون إنسانا حقا
إلا حين يكون قلبه عامرا بالله .

٢٥ من فبراير عام ١٩٨٥

* * *
* * * * * *

فهـــارس الكـــتاب

فهـــرس الأعلام



الهمـــــزة

حـــرف البـــاء

* * * * *

حـــرف التـاء

حـــرف الجـــيم

حـــرف الحـــاء

* * * * *

حـــرف الخـــاء

حـــرف الدال

حـــرف الـراء

حـــرف الزاى

حــــرف السين

حـــرف الشـــين

حرف الصاد

حــرف الطــاء

حــرف العــين

حـــرف الفـــاء

حرف القاف

حـــرف الكـــاف

حـــرف اللام

حــــرف الميـــم

حـــرف النون

حـــرف الهـــاء

حــــرف الــواو

حــــرف الياء

* * * * *

فهـــــرس الأمـاكـــن

الهمـــزة

حـــرف الباء

حــــرف التاء

حـــرف الجـــيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حـــرف الراء

حـــرف الزاى

حـــرف السين

حـــرف الشين

حـــرف الصاد

حـــرف الطاء

حـــرف العين

حـــرف الغين

حـــرف الفـــاء

حـــرف القـــاف

حـــرف الكـــاف

حـــرف اللام

حـــرف المـيم

حـــرف النون

حـــرف الهـــاء

حـــرف الواو

حــــرف اليــاء

* * * * *

فهـــرس الموضـــوعات

صفحـــة

الباب الثانى

رقم الإيداع ٣٢٩٥ / ٨٦

مطابع المختار الاسلامى